العراق
أول دولة في التاريخ

(دراسة في جذور الدولة العراقية الحديثة)

أستاذ دكتور

نديم عيسى الجابري

اسم الكتاب: العراق أول دولة في التاريخ (دراسة في جذور الدولة العراقية الحديثة)
اسم المؤلف: أ. د. نديم عيسى الجابري

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

الطبعة الأولى

العـراق 2021

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: 2864/ 2021

ISBN: 978-9922-9130-8-7

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الاراء المنشورة في هذا الكتاب تعبر عن راي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

مكتبة النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

مكتبة النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع
العراق- بغداد - مدخل شارع السعدون- عمارة فاطمة
00964 | 07901378602 - 07713000191
alnhtha_co@yahoo.com

العراق
أول دولة في التاريخ

(دراسة في جذور الدولة العراقية الحديثة)

الأستاذ الدكتور

نديم عيسى الجابري

أستاذ العلوم السياسية - جامعة بغداد

مكتبة النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

صدق الله العظيم

[طه: 76]

«وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم ألواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل، وهو الجاري شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات»

(سفر التكوين: ٢: ١٠ - ١٤)

إهداء

إلى من أسس أول دولة في التاريخ..

إلى من وضع أول قانون في التاريخ البشري..

إلى من نوَّر العقول بابتكاره الكتابة..

إلى العراق العظيم... حبًا... ولاءًا... فداءًا.

المحتويات

المقدمة ١٧

الفصل الأول

العراق: إشكاليات التسمية والمكان والإنسان ٢٧

المبحث الأول: إشكالية التسمية ٣٠

المطلب الأول: لفظة العراق في معاجم اللغة العربية ٣٠

المطلب الثاني: لفظة العراق في التاريخ القديم ٣٢

المبحث الثاني: إشكالية المكان (الموقع) ومميزاته ٤٣

المطلب الأول: مميزات المكان (الموقع) الجغرافي ٤٤

المطلب الثاني: مشكلات المكان (الموقع) العراقي ٥٨

المبحث الثالث: المعادل البشري للمكان العراقي ٦٥

المطلب الأول: تهيئة البيئة العراقية ٦٧

المطلب الثاني: تنظيم الحياة الاجتماعية ٧١

المطلب الثالث: تهيئة مستلزمات الدفاع ٨١

هوامش الفصل الأول ٨٤

الفصل الثاني

أطروحة دولة المدينة العراقية من نوح حتى سومر ٩١

المبحث الأول: مقدمات دولة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٩٤

المطلب الأول: في مفهوم الدولة وأركانها ونشأتها ٩٤

المطلب الثاني: جنة عدن: ولادة الأسرة والمجتمع في العراق ١٠٦

المبحث الثاني: ملامح دولة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على أرض العراق ١١٦
المطلب الأول: واقعة الطوفان وأسبابها ١١٦
المطلب الثاني: المكان الذي استوت عليه سفينة نوح ١٢٠
المطلب الثالث: تأسيس دولة نوح على أرض العراق ١٢٤
المطلب الرابع: حدود السلطة السياسية للنبي - الحاكم نوح ١٣٣
المطلب الخامس: مملكة النمرود ١٣٥
المبحث الثالث: أطروحة دولة المدينة السومرية وإشكالياتها ١٣٨
المطلب الأول: التعريف بالسومريين ١٣٨
المطلب الثاني: فكرة دولة المدينة عند السومريين ١٤١
المطلب الثالث: نظام الحكم في دولة المدينة السومرية ١٤٩
هوامش الفصل الثاني ١٥٨

الفصل الثالث

ملامح الدولة العراقية في العصر الأكدي ١٦٧

المبحث الأول: التعريف بالأكديين ١٧٠
المبحث الثاني: ملامح الدولة العراقية في عهد سرجون الأكدي ١٧٥
المبحث الثالث: ملامح الدولة العراقية ما بعد سرجون الأكدي ١٩٨
المبحث الرابع: ملامح الدولة العراقية ما بعد سقوط الدولة الأكدية ٢٠٤
هوامش الفصل الثالث ٢١٢

الفصل الرابع

ملامح الدولة العراقية في العصر البابلي القديم ٢١٩

المبحث الأول: التعريف بالأموريين ٢٢٣

المبحث الثاني: ملامح الدولة العراقية في عصر آيسن/ لارسا ٢٣٠
المبحث الثالث: ملامح الدولة العراقية في عهد حمورابي ٢٣٩
المبحث الرابع: ملامح الدولة العراقية ما بعد حمورابي ٢٥٧
المبحث الخامس: ملامح الدولة العراقية في الحقبة المظلمة الثانية ٢٦٢
هوامش الفصل الرابع ٢٦٩

الفصل الخامس

ملامح الدولة العراقية في العصر الآشوري ٢٧٧

المبحث الأول: التعريف بالآشوريين ٢٨٠
المطلب الأول: إشكالية التسمية ٢٨٠
المطلب الثاني: إشكالية أصل الآشوريين ٢٨٢
المطلب الثالث: عواصم بلاد آشور ٢٨٨
المطلب الرابع: الأطوار التاريخية للعهد الآشوري ٢٩٣
المبحث الثاني: المرحلة القديمة للإمبراطورية العراقية الآشورية ٢٩٥
المطلب الأول: العصر الآشوري العراقي ما قبل التاريخ ٢٩٥
المطلب الثاني: العصر العراقي الآشوري القديم ٢٩٧
المبحث الثالث: المرحلة الممهدة للإمبراطورية العراقية الآشورية ٣٠٣
المبحث الرابع: العصر الإمبراطوري العراقي الآشوري ٣١٣
المطلب الأول: عوامل نهوض الإمبراطورية العراقية الآشورية ٣١٦
المطلب الثاني: عوامل سقوط الإمبراطورية العراقية الآشورية ٣٤٣
هوامش الفصل الخامس ٣٤٨

الفصل السادس
ملامح الدولة العراقية في عصر الكلديين ٣٥٩
المبحث الأول: نبذة عن الكلديين وعصرهم ٣٦٢
المبحث الثاني: المعادل البشري للدولة العراقية الكلدية ٣٧٢
المبحث الثالث: عوامل سقوط الدولة العراقية الكلدية ٣٩٤
هوامش الفصل السادس ٤٠٤

الفصل السابع
العراق بين الاحتلال الأجنبي والفتح العربي - الإسلامي ٤١١
المبحث الأول: العراق تحت وطأة الاحتلال الأجنبي ٤١٤
المطلب الأول: الغزو الفارسي الاخميني (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م) ٤١٥
المطلب الثاني: الاحتلال المقدوني - السلوقي (٣٣١ - ١٢٦ ق.م) ٤٢١
المطلب الثالث: الاحتلال الفارسي الفرثي (١٢٦ ق. م - ٢٢٦م) ٤٣٠
المطلب الرابع: الاحتلال الفارسي الساساني (٢٢٦ - ٦٣٧م) ٤٣٧
المبحث الثاني: العراق في عصر الخلافة العربية - الإسلامية ٤٤٦
المطلب الأول: العراق في عهد الخلافة الراشدة (٦٣٢ - ٦٦١م) ٤٤٦
المطلب الثاني: العراق في العهد الأموي (٦٦١ - ٧٥٨م) ٤٥٧
المطلب الثالث: العراق في العصر العباسي (٧٥٠ - ١٢٥٨م) ٤٦٤
هوامش الفصل السابع ٢٦٩

الفصل الثامن
العراق من الاحتلال المغولي حتى الاحتلال البريطاني ٤٨٩
المبحث الأول: العراق في عهد الاحتلال المغولي - الجلائري ٤٩٢

المطلب الأول: العراق في عهد الاحتلال المغولي (١٢٥٨ - ١٣٣٨م) ٤٩٢
المطلب الثاني: العراق في عهد الاحتلال الجلائري (١٣٣٨ - ١٤١١م) ... ٥٠٠
المبحث الثاني: العراق في عهد الاحتلال التركماني ٥٠٥
المطلب الأول: العراق في عهد دولة الخروف الأسود (قره قوينلو) (١٤١١ - ١٤٦٩) ٥٠٥
المطلب الثاني: العراق في عهد دولة الخروف الأبيض (آق قوينلو) (١٤٦٩ - ١٥٠٨م) ٥٠٧
المبحث الثالث: العراق بين الاحتلالين الصفوي - العثماني ٥١٢
المطلب الأول: العراق في عهد الاحتلال الصفوي ٥١٢
المطلب الثاني: العراق في عهد الاحتلال العثماني ٥١٧
المبحث الرابع: العراق في عهد الاحتلال البريطاني ٥٢٨
هوامش الفصل الثامن ٥٣٣

الفصل التاسع

ولادة الدولة العراقية الحديثة ٥٤١

المبحث الأول: مقدمات الدولة العراقية الحديثة ٥٤٤
المطلب الأول: المقدمات البريطانية لنشأة الدولة العراقية الحديثة ٥٤٤
المطلب الثاني: المقدمات العراقية لنشأة الدولة العراقية الحديثة ٥٤٧
المبحث الثاني: لفظة العراق ونمو الوعي الوطني ٥٥٥
المبحث الثالث: النظام السياسي للدولة العراقية الحديثة ٥٧٢
المطلب الأول: خيار الملكية قبل ثورة العشرين ٥٧٢
المطلب الثاني: خيار الملكية أثناء ثورة العشرين ٥٨٤

المطلب الثالث: خيار الملكية في أعقاب ثورة العشرين ٥٨٦
هوامش الفصل التاسع ٥٩٤
الخاتمة ٦٠٥
هوامش الخاتمة ٦٢٠
المصادر ٦٢١

المقدمة

يمثل العراق أقدم مدنية في التاريخ. ويمتلك إرثًا حضاريًا لا نظير له في تاريخ البشرية. فضـلًا عـن امتلاكه لرأس مال مادي واجتماعي يؤهله لأن يكون لاعبًاً أساسـيًا في أي نظام دولي.

عليـه، فإن دراسـة تاريـخ العراق مهمة لا غنـى عنها للبشرية جمعـاء، وليس للعراقيين فحسب. ويلاحظ أن العراق قد تميز بسمات خاصة، جعلت منه محورًا للعالم القديم. ويمكن تشخيص تلك السمات في مجالات متعددة، منها:

١- شـكلت أرض العراق مسرحًا للحضارة البشرية الأقدم في التاريخ. حيث شهدت بلاد الرافدين ولادة الإمبراطوريات الكبيرة التي أسسـتها السلالات العراقية منذ فجر التاريخ وما بعده.

٢- مثَّل العراق (الدورة الشاملة) لقصة الإنسان، الذي انبثق من (جنة عدن)، وأصبح محورًا للكيانات السياسية والاجتماعية والدينية للعالم كله.

٣- احتفظ الإنسان العراقي بدوره الفعال منذ أقدم الأزمنة، وصمد أمام المحن والشدائد وقسوة الطبيعة وتقلباتها بالرغم من وقوعه تحت وطأة الاحتلال الأجنبي أكثر من مـرة. حيـث عملت قوات الاحتلال، على اختلاف مشـاربها، على فرض سـطوتها على العراقيين سياسـيًا، وعسـكريًا، واقتصاديًا، وثقافيًا، وسلبته حريته، وأضعفت نشـاطه. مع ذلـك احتفظ العراقيـون بخصائصهم المميـزة، وازدهرت حضاراتهم في حقب متفاوتة.

٤- لعـب العـراق أدوارًا أساسـية في نشـوء المجتمـع البـشري، ودون صفحات مهمة في سير الحضارة، وتقلبات السياسة والاقتصاد والدين.

٥- دُونـت في العـراق أولى الشرائـع القانونية، التي أرسـت قواعـد العدالة، ومهدت

الطريق لولادة (الدولة القانونية). واكتشف فيه (منجز الكتابة)، التي لعبت دورًا حاسمًا في تقدم البشرية، وضبط إيقاعاتها، وتدوين وقائعها، وازدهار عقولها.

وقد ظل العراق، منذ آلاف السنين، من أكثر بلدان العالم سخونة في أحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية. تلك الأحوال التي أرجعها المؤرخون إلى طبيعة التكوين الاجتماعي المتنوع للبلاد العراقية، وحجم ثرواتها الاقتصادية الكبيرة. فضلًا عن موقعه (الجيو – استراتيجي)، الذي عرَّضه لتقلبات سياسية حادة، انعكست، بشكل أو بآخر، على تشكيل العقل الجمعي لسكانه، وتركيبتهم السيكولوجية.

لذلك واجه الغزاة الأجانب صعوبة بالغة في إدراك ماهية العراق، وطبيعته السيكولوجية، وأنماط تفكيره. وربما تكشف المقولة المنسوبة إلى (الإسكندر المقدوني)، والتي أسر بها إلى أستاذه الفيلسوف الإغريقي (أرسطو طاليس) بعد أشهر من احتلاله بابل، عن جانب من هذه الصعوبة. إذ قال: (لقد أعياني أهل العراق، ما أجريت عليهم حيلة إلا وجدتهم قد سبقوني إلى التخلص منها، فلا أستطيع الايقاع بهم إلا أن أقتلهم من آخرهم). فأجابه أرسطو: (لا خير لك من قتلهم، لو أفنيتهم جميعًا، فهل تقدر على الهواء الذي غذى طباعهم؟ فإن ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم)[1].

مع ذلك الإرث التاريخي الطويل للعراق، قد لا تكون هناك دولة حديثة دُعِيَت (بالدولة المصطنعة) أكثر منه. إذ انطلقت حملة إعلامية وثقافية غير مسبوقة، منذ عقد التسعينيات، مناوئة للعراق، ومشككة بشرعية وجوده ومستقبله. إذ صدرت في الخارج كتب ومقالات وتصريحات عديدة، تمحورت حول فرضية (الدولة العراقية المصطنعة)، التي تشكلت على خلفية الحرب العالمية الأولى. وأن شيئًا اسمه (العراق) لا وجود له في السابق على حد زعمهم.

وانطلاقًا من هذه (الفرضية المصطنعة)، فإن الحديث عن (عراق موحد) يمثل شكلًا من أشكال العبث. وأن هذه البقعة الجغرافية المصطنعة يجب أن تفكك.

ويبدو أن علة هذه الحملة الإعلامية – الثقافية، تكمن في تهيئة المناخ النفسي لتقَبُّل فكرة

التقسيم. وهذا ما جرى العمل عليه، بشكل مكثف، بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣.

من هذا المنطلق، نجد من يعتقد بأن سياسيين بريطانيين كانوا قد رسموا خطوطًا على خريطة فارغة في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. وقد وضع حدود العراق موظف مدني بريطاني على حد زعمهم. وهناك من يعتقد أن (اتفاقية سايكس – بيكو) رسمت خطوطًا للحدود على رمال الشرق الأوسط غسلتها الدماء. وهناك من يعتقد أن العراق ولِد (بشكل مصطنع) بعد الحرب العالمية الأولى في (مؤتمر القاهرة) عام ١٩٢١م، من الأقاليم العثمانية السابقة (بغداد، والبصرة، والموصل) بوصفها تجمع غير عقلاني لأقوام غير متجانسين.

و عمومًا، ارتكزت فرضية (الدولة العراقية المصطنعة) على المرتكزات الآتية:

١ – احتسب دعاة فرضية (الدولة العراقية المصطنعة)، خطوة السلطات العثمانية في الاستيلاء على العراق، وتقسيمه بصيغة إدارية جديدة قامت على التقسيم الثلاثي لجغرافية العراق السياسية على نسق (إيالات) لأول وهلة، ثم (ولايات) ثلاثية (هي (بغداد، والبصرة، الموصل)[٢]، كان بمثابة مدخل لتوثيق سردية (الدولة العراقية المصطنعة). إذ ادعت تلك السرديات أن مرتكز الدولة العراقية الحديثة كان بمثابة (دمج عبثي) لثلاثة ولايات عثمانية متباينة عرقيًا ومذهبيًا.

٢ – كما ارتكز دعاة (الدولة العراقية المصطنعة) أيضًا على الأنموذج الأوروبي في تكوين الدول الحديثة. ذلك الأنموذج الذي يقدم (مفهوم الدولة – الأمة) على ما سواه من تفسيرات تكوين الدول الحديثة، ويقصرها عليه، محتسبين إياه الأنموذج الأكمل في قياس درجة تطور الدول الحديثة النشأة، ومدى اندماج سكانها وتجانسها ضمن إطار الحدود الإدارية – السياسية للدولة. هذا النموذج الذي صاغه المفكر الألماني (فريدريش مينيك) عام ١٩٠٧م[٣]. وبهذا المعنى، فإن عدم التماهي مع أنموذج (الدولة – الأمة) يؤدي إلى الإخفاق في تجانس المكونات الشعبية، وإقحام الإدماج القسري المختلق في تكوين الدولة وبناها سياسيًا وإداريًا. وهذا ما أرادت أن ترويه

السردية البريطانية ونظيراتها حول (الدولة العراقية) باحتسابها دولة لم تؤسس وفق أنموذج (الدولة – الأمة).

ويبدو أن (فرضية الدولة العراقية المصطنعة)، قد ولِدَت من ثلاثة أنواع من السرديات السياسية – الفكرية، هي:

أولاً: السردية البريطانية

لقد اعتمدت السردية البريطانية في تبنيها لفرضية (الدولة العراقية المصطنعة) على مجموعة من الوثائق والكتابات البريطانية، التي استقت معلوماتها من التصورات والمدونات التي خلفتها مجموعة من المسؤولين الإداريين والضباط البريطانيين. حيث زخرت تلك المصادر البريطانية بالتلميحات والتأكيدات على أن هؤلاء كانوا وراء خلق أو ابتداع (فرضية الدولة العراقية المصطنعة).

ولم تكتف هذه السردية باستحضار هذه المفردات، إنما ذهبت إلى التذكير بأن هذه الأرض العراقية كانت قبل الاحتلال البريطاني مجرد ولايات عثمانية غير متجانسة عرقيًا ومذهبيًا. وبذلك امتزجت فرضية الدولة المصطنعة بلهجة استعلائية، ارتبطت بشخصيتين بريطانيتين، كانا منبعًا لكل ذلك الجدل التاريخي الذي يدور حول الدولة العراقية الحديثة ومستقبلها، وهما:

أ – المس غير ترود بيل (١٨٦٨ – ١٩٢٦م)، السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي البريطاني في العراق.

ب– آرنولد ولسن (١٨٨٤ – ١٩٤٠م)، الذي كان يشغل منصب وكيل الحاكم الملكي البريطاني العام في العراق.

ثانيًا: السردية الأمريكية

يبدو أن هناك بعض الباحثين الأمريكيين، كانوا قد تبنوا (فرضية الدولة العراقية المصطنعة) على غرار ما ذهبت إليه السردية البريطانية. ولعل أهم من مثَّل هذا الاتجاه المؤرخ

الأمريكي (حنا بطاطو) (١٩٢٦ - ٢٠٠٠م) وهو مواطن أمريكي من أصول فلسطينية، ومختص في تاريخ المشرق العربي الحديث. ويحتسب كتابه الموسوم (العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية) من أهم المراجع المتعلقة بتاريخ العراق الحديث.

لقد تحدث (حنا بطاطو) عن الجماعة البشرية التي تشكل منها المجتمع العراقي الحديث بقوله: (في مطلع القرن الحالي - يقصد القرن العشرين - لم يكن العراقيون شعبًا واحدًا أو جماعة سياسية واحدة. وهذا لا يعني الإشارة فقط إلى وجود الكثير من الأقليات العرقية والدينية في العراق، كالأكراد والتركمان والفرس والآشوريين والأرمن والكلدانيين واليهود والايزيديين والصابئة، وآخرين. فالعرب أنفسهم الذين يؤلفون أكثرية سكان العراق كانوا يتشكلون، إلى حد بعيد، من جملة من المجتمعات المتمايزة والمختلفة في ما بينها، والمنغلقة على الذات بالرغم من تمتعهم بسمات مشتركة)[٤].

وقد ارتكز (حنا بطاطو) في تحليل أنماط الانقسام في المجتمع العراقي، كدلالة على صحة (فرضية الدولة العراقية المصطنعة) من وجهة نظره، على ثلاثة معطيات اجتماعية - سياسية، هي:[٥]

أ - عمق التفاوت الطبقي والتنافر بين طرفي الأغلبية العربية (الشيعة - السنة).

ب- غياب التكامل بين الريف والمدينة. إذ قال: (كانت هناك هوة واسعة تفصل المدن عن المناطق العشائرية. وكان العرب الحضريون وعرب العشائر ينتمون إلى عالمين يكاد أن يكونان منفصلين، باستثناء سكان المدن الواقعة في عمق المناطق العشائرية أو رجال العشائر الذين يقطنون قرب المدن).

ج- كما أن السلطة الملكية، وأن كانت سلطة مركزية، بيد أن أصحاب النفوذ كانوا متعددين. فهناك ملاك الأرض، والشيخ، والأغا، والضباط الشريفيين، وبقايا الأرستقراطية الإدارية من العهد العثماني، ورجال الدين.

د- فضلًا عن ذلك، كانت المناطق العشائرية، نفسها، منقسمة إلى أحلاف عشائرية قديمة.

ثالثًا: السردية العراقية المغتربة

انصرف عدد من الباحثين العراقيين المغتربين نحو تبني فرضية (الدولة العراقية المصطنعة). لعل أهمهم كان (عديد دويشا)، الذي يعمل أستاذًا للعلوم السياسية في جامعة ميامي بولاية أوهايو الأمريكية. إذ كتب قائلًا: (القصة قديمة قدم تاريخ الدولة العراقية نفسه. وقد ولدت جراء الامتزاج القسري لثلاث ولايات عثمانية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية... ولم تواجه المكونات المصطنعة الناشئة مهمة إدارية وحسب، وهي أصلًا مهمة صعبة، بل واجهت مهمة صهر كيانات ومصالح أهلية متعددة أيضًا، وهي في الغالب، مهمة أكبر من كونها غير ذات طابع يتسم بالصراع)[٦].

وذهب إلى ذلك الباحث (فنر حداد) المختص بشؤون العراق. حيث تبنى (فرضية الدولة العراقية المصطنعة) من الزوايا الآتية:[٧]

أ – رغم أنه أقر بوجود هوية عراقية، واحساس بالعراق كوطن، بيد أن ذلك لم يرتقي إلى مستوى الهوية الوطنية الجامعة، التي تنشأ دولة طبيعية غير مصطنعة، لأنها لم تقترن بالطابع السياسي بوصفه العامل الحاسم برسم أبعاد الدولة الطبيعية وهويتها الواضحة.

ب– أضف إلى ذلك، أنه حصر مفهوم الهوية الوطنية والدولة الناجحة غير المصطنعة، بمفهوم (الدولة – الأمة) الذي تتبناه السردية الأوروبية.

وبناء على تلك السرديات الفكرية – السياسية، ظهرت بعض الأدبيات السياسية – الفكرية، التي تتحدث عن (نهاية العراق المصطنع)، لعل أهمها كتاب (نهاية العراق) الصادر باللغة الإنكليزية عام ٢٠٠٦، لمؤلفه المفكر والدبلوماسي الأمريكي (بيتر غالبريث)،[٨] الذي يعد واحدًا من أهم الخبراء الأمريكان في ما يتعلق بالشؤون العراقية.

كما تحدث كل من (مايكل أوترمان، وريتشارد هيل، وبول ويلسون) عن خطة متكاملة لاقتلاع العراق، وزراعة كيان آخر بدلًا عنه[٩].

ومن هنا ولِدَت وجهات نظر متشائمة حول مستقبل الدولة العراقية، لدى عدد من الباحثين العراقيين. إذ تحدث الباحث (لؤي خزعل جبر) عن العراق، مجتمعًا ودولةً، بوصفهما (ظاهرة غاية في التعقيد، محملة بتاريخ عميق، وحاضر ملغز). ثم احتسب الدولة العراقية الحديثة ضمن (قائمة العشرين دولة الأكثر فشلًا في العالم). وذلك حسب مؤشرات (الدولة الفاشلة) التي استفاض الباحث في شرحها.[١٠] وربما يكون هذا الاستنتاج، قد دفع الباحث (كاظم حبيب) إلى القول: (لقد أصبحت الدولة العراقية الاتحادية في مهب الريح)[١١].

عليه، فإن الباحث سوف يعالج (فرضية الدولة العراقية المصطنعة) من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية:

- هل أن الدولة العراقية الحديثة (دولة مصطنعة) أم أنها (دولة طبيعية) تأسست كغيرها من الدول، كسياق تاريخي، وبمقومات ثابتة؟
- هل أن فكرة (الوطنية العراقية) كانت فكرة واهية في وجدان العراقيين؟
- هل أن الاحتلال الأجنبي المتكرر للعراق كان كافيًا لمحو الدولة العراقية؟

وللإجابة عن تلك التساؤلات بطريقة علمية موضوعية خالية من الانحياز والعاطفة، فقد اتبعنا (المنهج التحليلي) الذي يعتمد على تفكيك العناصر الأساسية للموضوع محل البحث. ومن ثم دراستها بأسلوب متعمق. وذلك من أجل استنباط أحكام وقواعد، يمكن عن طريقها إجراء تعميمات تساعد في حل الإشكالات، والإجابة عن التساؤلات.

علاوة على ذلك، فإن الباحث سوف لن يستخدم (المنهج التحليلي) بمعزل عن مناهج البحث العلمي الأخرى. لذلك زاوج معه (المنهج التاريخي)، الذي يعتمد على عملية إحياء الماضي عن طريق جمع الأدلة والتعديل عليها وتقويمها. ثم تمحيص تلك الأدلة، للخروج باستنتاجات علمية محددة عن موضوع البحث.

وتأسيسًا على تلك المناهج العلمية، قسم الباحث هذه الدراسة إلى تسعة فصول مع مقدمة وخاتمة.

ففـي (المقدمة) طـرح الباحث أهمية الموضوع، وفرضية البحث، وإشـكاليات البحث. وما قيل فيه أو حوله، كتمهيد للولوج للبحث.

وفي (الفصل الأول) سـيتناول الباحث الإشكاليات العراقية التي تدور حول التسمية، والمكان، والإنسان. وفي (الفصل الثاني) سيتطرق الباحث إلى أطروحة دولة المدينة العراقية من نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى سـومر. وسـيعرج الباحث في (الفصل الثالـث) على ملامح الدولة العراقيـة في العصر الأكدي. أما (الفصل الرابع) فسَـيُكرس لتنـاول ملامح الدولة العراقية في العـصر البابلي القديم. وفي (الفصل الخامس) سـيتناول الباحث ملامـح الدولة العراقية في العصر الآشـوري. ثم سيعرج الباحث في (الفصل السادس) على ملامح الدولة العراقية في عصر الكلديين. وفي (الفصل السـابع) عرج الباحث على وضع العراق ما بين الاحتلال الأجنبـي والفتح العربي – الإسـلامي. وسـيُكرس (الفصل الثامن) إلى بيـان وضع العراق من الاحتلال المغولي حتى الاحتلال البريطاني. أما (الفصل التاسـع) فقد خصصه الباحث إلى عمليـة ولادة الدولـة العراقيـة الحديثة، وما رافـق تلك الولادة من مقدمـات وحيثيات ونتائج.

هوامش المقدمة

(١) علي المؤمن، تاريخ الصدمة: الإطار النظري، ضمن كتاب: مجموعة باحثين، صدمة التاريخ، مركز دراسات المشرق العربي، بيروت ٢٠١٧، ص ١١.

(٢) حول تلك الترتيبات الإدارية، انظر: فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٧، ص ٢٤٣ - ٣٩٢.

(٣) أوليفيه ناي وآخرون، قاموس الفكر السياسي، ترجمة: لطفي السيد منصور، دار الرافدين، بيروت ٢٠٢٠، ص ٩٩.

(٤) حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٩٠، ص ٣١.

(٥) للتفصيل انظر: المصدر السابق، ص ٣١ - ٤٥.

(٦) عديد دويشا، عراق الحقبة الملكية: تاريخ سياسي، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، مراجعة: إحسان عبد الهادي الجرجفي، مؤسسة مصر مرتضى، بغداد ٢٠١٢، ص ١٤ - ١٥.

(7) Fanar Hadad, Political A Wakenings in Artifcial State: Iraq 1914 - 1920, International Tournal of contemporary Iraqi Studies, Vol. 6, No. 1, 2012, p. 25 - 34.

(٨) انظر: بيتر غالبريث، نهاية العراق، ترجمة: أياد أحمد، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٧.

(٩) انظر: مايكل أوترمان، ريتشارد هيل، بول ويلسون، محو العراق، ترجمة: انطوان باسيل، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠١١.

(١٠) لؤي خزعل جبر، الدولة الفاشلة في العراق: قراءة تحليلية في مؤشرات الرثاثة الدولتية، ضمن كتاب: مجموعة مؤلفين، الرثاثة في العراق: أطلال دولة... رماد مجتمع، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد ٢٠١٥، ص ١٤٣ - ١٥٦.

(١١) كاظم حبيب، الاقتصاد السياسي للفئات الرثة الحاكمة في العراق، ضمن المصدر السابق، ص ٣٩.

الفصل الأول

العراق: إشكاليات التسمية والمكان والإنسان

ثمة جدل لازال محتدمًا حول الإشكاليات الفكرية والسياسية والتاريخية حول أصل تسمية (العراق) ومعناها. فضلًا عن الإشكاليات التي تدور حول المكان (الموقع) العراقي من حيث مزاياه ونقاط ضعفه، وإلى أي حد أثر في نشوء الحضارة العراقية القديمة أو في إعاقتها. وكذلك يلتهب الجدل حول دور الإنسان العراقي القديم في نشوء تلك الحضارة العريقة، بوصفه المعادل البشري للحضارة العراقية القديمة.

وفي ضوء ذلك، ارتأى الباحث تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث أساسية هي:

المبحث الأول: إشكالية التسمية.

المبحث الثاني: إشكالية المكان (الموقع) العراقي.

المبحث الثالث: المعادل البشري العراقي القديم.

المبحث الأول

العراق: إشكالية التسمية

قبل أن نبدأ بدراسة إشكالية الدولة والسلطة في العراق، لابد أن نعرج على إشكالية التسمية التي أطلقت على العراق. حيث يثار الجدل حول لفظة (العراق) التي مرت بمراحل مختلفة، واختلف الباحثون في أصلها، ومعناها كل حسب وجهة نظره وحدود معرفته.

المطلب الأول

لفظة العراق في معاجم اللغة العربية

وردت في معاجم اللغة العربية لفظة (العراق) بمعانٍ متعددة. فالعراق في (مختار الصحاح) تعني (بلاد يذكر ويؤنث وقيل هو فارسي. والعراقان: الكوفة والبصرة)[1].

وفي (المعجم الوسيط) ورد لفظ (العراق) على أنه: من البحر والنهر شاطئه طولًا. ومن الدار: فناؤها. ومن الأذن: كفافها. ومن الظفر: ما أحاط به. ومن الريش: جوفه. ومن الحشا: ما كان فوق السرة معترضًا البطن[2].

وفي معجم (لسان العرب) ورد لفظ (العراق) على أنه: شاطئ الماء، وخص بعضهم به شاطئ البحر. والعراق سمي عراقًا لقربه من البحر. وأهل الحجاز يسمون ما كان قريبًا من البحر (عراقًا). وقيل سمي (عراقًا) لأنه استكف أرض العرب. وقيل سمي به لتواشج عروق الشجر والنخل به كأنه أراد عرقًا ثم جمع على (عراق). وقيل سمي به العجم التي سمته (إيران شهر) ومعناها: كثيرة النخل والشجر. ثم عرب فقيل (عراق). قال الأزهري: قال أبو الهيثم زعم الأصمعي أن تسميتهم (العراق) اسم عجمي مُعَرب إنما هو (إيران شهر). فعرَّبته العرب فقالت (عراق). و(إيران شهر) موضع الملوك. قال أبو زبيد:

ما نفى بابه العراق من الناس بجرد تغدو بمثل الأسود

ويروى باحة العراق: أي ناحيته. والباحة: الساحة. ومنه اباح دارهم.

وقد جاء (العراق) اسمًا لفناء الدار. وعليه قول الشاعر:

وهي بلحاظ الدار والصحن معلم ومن أبها بين العراق تلوح

واللحاظ هنا: فناء الدار أيضًا. وقيل سمي (عراق المزادة) وهي الجلدة التي تجعل على ملتقى طرفي الجلد إذا حرز في أسفلها، لأن العراق بين البر والبحر.

وقيل (العراق) شاطئ النهر والبحر على طوله. وقيل لبلد العراق لأعراق لأنه على شاطئ دجلة والفرات عداءًا (أي تتابعًا) حتى يتصل بالبحر. وقيل (عراق) مُعَرب وأصله إيران فعربته العرب فقالوا (عراق). والعراقان: الكوفة والبصرة. وأعرقناه: أخذناه في العراق. وأعرق القوم: أتو العراق[٣].

وفي معجم (القاموس المحيط) ورد لفظ (العراق) على أنه: جوف الريش، وشاطئ البحر طولًا. وقيل سميت به لتواشج عراق النخل والشجر فيها. أو لأنه استكف أرض العرب. أو سمي (عراق المزادة) لجلدة تجعل على ملتقى طرفي الجلد إذا حرز في أسفلها، لأن العراق واقع بين الريف والبر أو لأنه على عراق دجلة والفرات أي شاطئهما. أو معربة (إيران شهر) ومعناها كيرة النخل والشجر. و(عراق) من الظفر: ما أحاط به. ومن الأذن: كفافها. ومن الدار: فناؤها. ومن السفرة: خرزها المحيط بها. ومن النهر: حاشيته من أدناه إلى منتهاه. والعراقان: الكوفة والبصرة[٤].

وفي معجم (تاج العروس) ورد لفظ العراق بمعان متعددة منها: العراق بلاد معروفة من فارس، حدها من عبادان إلى الموصل طولًا، ومن القادسية إلى حلوان عرضًا. وهي لفظة تُذَكر وتؤنث. وقيل أنها سميت به لتواشج عروق النخل والشجر فيها كأنه أراد عرقًا ثم جمع عراقًا، أو لأنه استكف أرض العرب. وقيل أنه سمي (عراق المزادة) لجلدة تجعل على ملتقى طرفي الجلد إذا خرز في أسفلها لأن العراق بين الريف والبر، أو لأنه على عراق دجلة والفرات عداءًا (أي شاطئهما) تتابعًا حتى يتصل بالبحر. وقيل أنها معربة إيران شهر، ومعناها كثيرة النخل والشجر، فعُرِبَت فقيل عراق. وقيل أن العراق: قُطر الجبل وحده). وقيل أن العراق من الظفر: ما أحاط به من اللحم. ومن الأذن: كفافها. ومن الدار: فناؤها.

ومـن السـفرة: خرزها المحيط بها، وقـد عرقها فهي معروقة: أي جعل بهـا عراقًا. وهي من النهر: حاشيته من أدناه إلى منتهاه. ومن الحشا: ما فوق السرة معترضًا البطن. (٥)

وفي ضوء ما ورد عن (العراق) في المعاجم اللغوية العربية يتبين ما يأتي:

أولًا: المعاجم كلها تشير إلى أن (العراق) موطن مؤهل للسكن والاستقرار:

أ – لأنـه واقع على شـواطئ دجلة والفرات على طولهما وما حولهـما. لذلك فإنه يمتلك المقومات الاقتصادية التي يعتد بها لنشوء دولة قوية على أرضه.

ب– وبـما أن تلـك المعاجم تشـير إلى أن العراق متتابع على طول نهـري دجلة والفرات حتى البحر، فإنه يمتلك القدرة على التواصل مع العالم.

ج – وبما أن تلك المعاجم، تشير إلى أنه سمي عراقًا لتواشج عروق النخل والشجر تحت أرضه، فإنه مؤهل للعيش والاكتفاء الذاتي اقتصاديًا.

ثانيًا: أضف إلى ذلك، أن المعاني كلها التي وردت في تلك المعاجم تؤكد من باب التشبيه على أهمية العراق بوصفه جوهر الأشـياء وإطارها. لذلـك قيل أن العراق من الدار: فنائها. ومن الظفر: ما أحاط به. ومن الريش: جوفه.

ثالثًا: كما أن تلك المعاجم تشـير إلى العراق بوصفه موطنًا يتسـم بالتكامل الاقتصادي. لذلك قيل (عراق المزادة) لأنه واقع بين الريف والبر، ويتمتع بمزاياهما.

المطلب الثاني
لفظة العراق في التاريخ القديم

مثلـما اختلـف فقهاء اللغـة العربية في تأصيل لفظـة (العراق) من الناحيـة اللغوية، فإن الباحثين في التاريخ القديم كانوا قد اختلفوا أيضًا في أصل اسم (العراق) ومعناه. والراجح أن علة هذا الاختلاف راجعة إلى ما يأتي:

١ – أن لفظـة (العـراق) لم تظهـر للوجـود بمفردها، إنما ظهـرت إلى جانبهـا، وعلى مر العصور، تسميات أخرى لهذا البلد العريق. سنعرج عليها لاحقًا.

٢- وربما لأن أهل العراق لم يطلقوا مصطلح محدد وجامع لتسمية أرض العراق كلها أو جزءً منها. وذلك لأن أقدم نظام للحكم مدرك شهده العراق في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كان متمثلًا بنظام (دويلات المدن) على غرار النموذج الإغريقي القديم. لذلك كان الحكام الأوائل في العراق القديم يلقبون أنفسهم بمصطلح (حاكم المدينة). وعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد (حاكم لكش) و(حاكم اور) و(حاكم كيش)، و(حاكم لارسا) وغيرها[٦].

يرجع بعض الباحثين أصل لفظة (العراق) إلى التراث اللغوي، أما من السومريين أو من قوم آخرين (غير الجزريين) استوطنوا السهل الرسوبي منذ أبعد عصور ما قبل التاريخ، ولعلهم الفراتيون الأوائل أو ما يسمون (السوباريون). وأنها مشتقة من لفظة (اور - وك)، والتي تعني في اللغة الأكدية (المستوطن أو المستقر). وهي اللفظة التي سميت بها المدينة الجزرية (الوركاء) قبل أن تكون سومرية. وأن مقطعها الأول (أور) يدخل في تركيب جملة من الأسماء القديمة، أو أن تكون لفظة أو مقطع مجرد مثل أور، وهي المدينة التي كانت عاصمة سلالات أور السومرية الثلاثة. أو أسماء أشخاص مثل، أور - نمو وغيرها[٧].

وقال البعض الآخر، أن لفظة (العراق) هي كلمة فارسية مُعربة، رغم اختلافهم في معناها. (فالأصمعي) قال: هو مُعَرب عن إيران شهر. ويقال أنه مأخوذ من عروق الشجر، والعراق من منابت الشجر، فكأنه جمع عرق)[٨]. أما ياقوت الحموي فقد قال: (والعراق تعريب ايراق، ومعناها مغيض الماء وحدور المياه. وذلك لأن دجلة والفرات... تنصب من نواحي أرمينية وبند الروم إلى أرض العراق وبها تقر قرارها فتسقي بقاعها) [٩] وقال الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم، وحمزة الأصفهاني في تأريخه: (العراق ولا جرم أنها غلط، والصواب أنها ايراك، ولكنهم لم يعرفوا معنى ايراك وألفوا لفظة إيران فصحفوا ايراك بإيران كما أن ابدال الهمزة بالعين أمر شائع. وقال الأب انستاس الكرملي: (أن العراق معناه البلاد المنخفضة أو المعرضة للغرق، ولا جرم أنه عرق وغرق من واد واحد، وأن العراق تعريب ايراه بمعنى الساحل). وقال هرتسفلد: (أن العراق معرب لفظة ايراك، ومعناه البلاد السفلى أو الجنوب. وكانت أنحاء واسط إلى خليج البصرة تابعة إلى هذا القسم من

ديـار الدولة الساسـانية)[١٠]. بينما يرى الآخرون أن أصل تسـمية العراق هي عراقة المنطقة الموغلة في القدم[١١].

وهنـاك من يعتقد أن لمصطلح العراق مدلوله السـياسي والقومـي، الذي يجعل منه غير مناسـب في أكثر السـياقات حين نتحدث عن الحضارة القديمة. وهناك اسم أقدم منه وأكثر وثاقـة للمنطقـة هـو (ميسـوبوتاميا)، وهو مصطلـح من أصـل إغريقي معناه (بـلاد ما بين النهرين)[١٢].

ويبـدو، من خـلال الوثائق التاريخية التي حصل عليها المؤرخ المعروف (اومسـتد)، أن لفظة (العراق) كانت قد عُرِفَت ولأول مرة في العهد الكشي (١٦٠٠ - ١١٠٠ ق.م). وقد ظهر ذلك في وثيقة تاريخية يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. إذ جاء فيها اسم إقليـم على هيئة (اريقـا)، وتكتب بالإنكليزية (Ariqa). والذي صـار على مدار الزمن يلفظ (عراقًا). وقد اسـتمر اسـتخدام هذا اللفـظ متداولًا وشـائعًا في الأدوار الأخيرة من الحكم الساساني ما بين القرنين الخامس والسادس الميلادي.[١٣]

و مما عزز من قوة هذا الرأي، أن البعض ذهب إلى إرجاع لفظ (العراق) إلى تراث لغوي عراقـي قديـم. إذ يعتقـد أصحاب هذا الرأي أن أصـل لفظة (العراق) ربما يكون قد اشـتق مـن كلمة (اوروك) وهي إحدى مدن العراق القديم، والتـي يُطلق عليها حاليًا (الوركاء). ولفظة (اوروك) تعني (المسـتوطن) أو (المسـتقر)[١٤]. ولذلك أطلقت التسمية على العراق كونه كان مستقرًا ومستوطنًا للإنسان منذ فجر الخليقة.

أضـف إلى ذلـك، كان قـد أطلق على القسـم الجنـوبي من العـراق لفظة (بلاد سـومر) أو (بلاد شومر). وهي التسمية التي يكون فيها النهرين قريبين أحدهما من الآخر. وذلك في حدود عصر فجر السـلالات (٢٨٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م)[١٥]. ونقصد بكلمة (سومري) تلك المجموعـة مـن الناس الذين كانوا يتكلمون اللغة السـومرية. وهم سـكان البلاد الأصليين الذيـن أقامـوا أقدم القرى الزراعيـة التي تمثلت في أدوار عصور ما قبـل التاريخ مثل جرمو وحسـونة وحلف سـامراء. وبدأ تاريخهم ببدايـة العصور التاريخية التـي تتوافق مع عصور

فجر السلالات[١٦]. وهم إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية من شمال بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ البعيدة. وأنهم عُرِفوا باسمهم الخاص، السومريين نسبة إلى اسم الإقليم الذي استوطنوا فيه من السهل الرسوبي من العراق في حدود الألف الخامس قبل الميلاد وبعد ذلك بزمن قليل[١٧].

وتسمية (بلاد سومر) أو (بلاد شومر)، جاءت في الكتابات الأكدية السامية على هيئة (مات شومريم). أي (بلاد السومريين). وقيل أنها تعني (أرض سيد القصب). ويبدو أنها من المصطلحات التي تطلق بدلالة الجغرافية[١٨].

كما عرف العراق باسم (بلاد اكد). وهذه التسمية كانت قد أُطلقت على (دولة اكد) التي حكمت القسم الأوسط من السهل الرسوبي. ثم بسطت سلطتها على البلاد كلها[١٩].

وفي العهد القديم وردت تسميات أخرى للعراق بصيغة أخرى. إذ أطلق التوراة على العراق لفظة (شنعار). والتي يقصد بها (سهل سومر). إذ أشار سفر التكوين إلى: (وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك)[٢٠]. وكذلك ورد في نبوءة دانيال ما نصه: (في السنة الثالثة من ملك بوياقيم ملك يهوذا أتى نبوكذ نصر ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها. فجعل الرب في يده ملك يهودا وبعض أنية بيت الله فأتى بها إلى أرض شنعار)[٢١].

كما استخدم العهد القديم لفظة (بابل) وما يتصل بها من أحداث وملوك ٣٠٠ مرة. وهي أول مدينة شُيدَت بعد الطوفان على حد ما ورد في التوراة. وبابل تعني بالكلدانية والعبرية (باب ايل) أي (باب الإله). ويقال أنها سميت بابل بسبب بلبلة الله لغة أهلها إلى لغات مختلفة كي لا يستطيع الناس إكمال بناء البرج حسب ما ورد في سفر التكوين ما نصه: (هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها. ومن هناك شتتهم الرب على وجهها)[٢٢].

كما ورد في التوراة مصطلح الإقليم المسمى (آرام النهرين)، والذي يعني (بلاد ما بين

النهرين). إذ جاء في سفر التكوين ما نصه: (وأخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وفي يده من كل خير مولاه وقام ومضى إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور)[٢٣].

وأكـد (افرايم فخري) في شرحه عن العراق في نبوءات الكتاب المقدس ما نصه: (يرى البعـض أن العراق مصدرها كلمة عروق جمع عرق. وربما هذه التسـمية ترجع إلى أن نهري دجلة والفرات يحتسبان بمثابة أعرق وريد نظرًا لأهميتهما. والعراق هي الدولة ذات الجذور العريقـة. كما تسـمى بلاد الرافديـن أي بلاد ما بين النهرين لأنها تشـمل الحوض الواقع بين نهري دجلة والفرات)[٢٤].

ولـدى العهـد القديم أشـياء كثيرة يذكرها عن العراق بأسـمائه المختلفة. إذ يشـهد على الانتشار الواسع لتجارة البابليين، حين يذكر رداء بابليًا نفيسًا في فلسطين قبل استيطان بني إسرائيل (رأيت في الغنيمة رداء بابليًا حسـنًا) [٢٥] ويتحدث عن برج بابل وسـفارة أرسـلها مردوك ايلا – أدينا ملك بابل إلى ملك يهوذا. وهناك الكثير عن الملك نبوخذ نصر من رواية حصـاره لأورشـليم، حتى القصص التي ترد في سـفر دانيـال عن الكيفية التـي أذله بها الله لكبريائه. وقد رحل إلى بابل بعض أهالي أورشـليم بعد سقوطها. فيذكر المزمور (١٣٧: ١) اليهـود المنفيين هناك. ويسـتنكر أنبيـاء اليهود بابل وهي في ذروة مجدهـا. فيروي دانيال عن احتفالات العربدة في قصر الملك بيلشاصر قبل أن تسقط المدينة في أيدي الغزاة القادمين من إيران. ويسـخر أشـعيًا من أوثان بابل، ويتنبأ بأن يحمل الإلهان العاجزان بعل مردوك ونيبو نبـو عـلى ظهور الدواب (سـفر دانيـال: ٤٦: ١-٢). وينكر حزقيال الذي عـاش ذات مرة في بابل حقًا (حزقيال ١: ١ – ٤) عبادة تموز البابلية التي مورست في أورشليم (حزقيال: ٨: ١١). ويروي نبذة عن الملك البابلي الذي مارس العرافة في حملته (حزقيال: ٢١: ٢١). وينقل الكتـاب المنحـول (الابوكريفا) قصة طريفة عن بعل والتنين حول الخدع التي كان يمارسـها الكهنة الوثنيون في الانقضاض على المؤن اليومية التي يزعمون أن الآلهة تتناولها[٢٦].

أضـف إلى ذلـك، أن أرض ما بين النهرين عند الكلدان هـي البقعة التي يكتنفها نهري دجلة والفرات، وتسمى عندهم (بيت نهرين)[٢٧].

وفي المقابل، يلاحظ أن لفظة العراق لم ترد صراحة في القرآن الكريم، إنما وردت تسمية (بابل) وهي إحدى أسماء العراق القديم. إذ ورد في النص المقدس ما يأتي: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ﴾[٢٨].

أما قدامى الإغريق والرومان فقد أطلقوا على العراق تسمية (ميسوبوتاميا)، وباللغة الإنكليزية تكتب (Mesopotamia)، أي (بلاد النهرين). ويقصدون بها الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات. بيد أن سكان هذه الأراضي كانوا دائمًا يسمونها (العراق) بالتزامن مع ازدهار مدينة متحضرة قديمة قدم التاريخ نفسه على نهر الفرات تُسمى (اوروك). وبمقتضى العادة في إطلاق تسمية الجزء على الكل، سميت الأرض كلها عراقًا. وعرفت باسم (العراق)[٢٩].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن مصطلح (ميسوبوتاميا) يعد مصطلحًا إغريقي الأصل. حيث ظهر ما بين القرن الرابع والثاني قبل الميلاد في مفردات الكتاب الإغريق والرومان المصطلح الجغرافي المعروف (ميسوبوتاميا). وهذا المصطلح شاع استعماله عند الكتَّاب الأوروبيين، الذين أطلقوه تارة على البلاد كلها وتارة أخرى على بعضها. ولا يزال يستعمل حتى بعد شيوع تسمية (العراق).

ولعل أقدم استعمال لمصطلح (ميسوبوتاميا) ورد في كتاب المؤرخ الشهير (بوليبيوس) الذي عاش بين (٢٠٢ - ١٢٠م). وتبعه الجغرافي المعروف (سترابو) الذي عاش بين (٦٤ ق. م - ١٩م)، الذي استعمل هذا المصطلح لإطلاقه على ذلك الجزء من العراق المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريبًا. أي أنه كان يرادف تقريبًا مصطلح (الجزيرة)، الذي أطلقه البلدانيين العرب على القسم الشمالي من بلاد الرافدين[٣٠].

أضف إلى ذلك، استعمل المؤرخ الإغريقي الشهير (هيرودوتس) مصطلح (بابل وآشور) لإطلاقه على البلد كله، أو على الأجزاء الوسطى والجنوبية منه. كما استعمل الإغريق

مصطلح (بلاد كالدية) نسبة إلى الكلدانيين الآراميين الذين أسسوا الدولة الكلدانية ما بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد[٣١]. وقيل أنها أول دولة قامت بعد الطوفان. وتتابع على حكمها عشرة ملوك وهم: (نمرود وفالباطور وو شمكار وو أول واشليمون واحليمون وشمشون ولستير واحليمون الثاني وكمنكوس واوكر وكلكاموس)[٣٢].

وقد انتشر مصطلح (ميسوبوتاميا) من بعد ذلك في اللغات الأوروبية، بسبب ترجمة العهد القديم إلى اليونانية واللغات الأوروبية الأخرى. حيث ورد في التوراة ذكر إقليم يسمى (آرام نهرايم)، الذي يعني (بلاد ما بين النهرين). وهذا نصه: (وأخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وفي يده من كل خير مولاه وقام ومضى إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور)[٣٣]. ومن المرجح أن المقصود من هذا المصطلح الوارد في التوراة يكمن في الدلالة على الإقليم المحصور ما بين نهري الفرات والخابور. ونهر الخابور ونهر البليخ كلاهما على الفرات[٣٤].

مع ذلك، يبدو أن مصطلح (ميسوبوتاميا)، رغم كثرة شيوعه في الأدبيات الأوروبية، بيد أنه بقي مصطلحًا غامض الدلالة. إذ أنه يعني للبعض، من الناحية السياسية، المناطق العراقية جميعها ما بين نهري دجلة والفرات وعلى جانبيه. فضلًا عن روافدهما من الخليج العربي إلى مدينة الموصل شمالًا. بينما أدركه البعض الآخر، وخاصة الأوروبيين المتخصصين في الدراسات الشرقية الكلاسيكية، على أنه يمثل الجزء الشمالي من هذه المنطقة فقط[٣٥].

ومن الناحية الجغرافية، ينبغي أن نحدد العراق على أنه بلاد الرافدين، وأن كان الاسمان لا يتفقان سوية على الدوام. إذ يشير مصطلح (بلاد الرافدين) عند البعض إلى وادي دجلة والفرات كله، في حين أن مصطلح (بلاد الرافدين) لا ينطبق على المنطقة نفسها عند البعض الآخر، إذ أدركوه على أنه أجزاء من البلاد التي يخترقها نهري دجلة والفرات. وتمتد تلك المنطقة من جبال كردستان حتى الخليج العربي. وذلك لأن القسم الأعظم من بلاد الرافدين، كان يشير قبلًا إلى ذلك الجزء من الوادي، الذي يقع شمالي بلاد بابل. وهذا هو الذي كان الإغريق يقصدونه بكلمة (بلاد الرافدين). وهذه التسمية تتوافق مع مملكة آشور القديمة، وولاية الموصل الحديثة، التي كانت تخضع لتركيا. بينما كان العراق، على وجه التقريب، يشكل

المنطقة التي تصل إلى أسفل (السور الماذي)، الذي يبدأ من شمالي بلد عند نهر دجلة ويصل إلى الصقلاوية قرب الفلوجة. وذلك السور كان يمتد من مدينة (اوفيس)، التي تقع عند مصب نهر العظيم في دجلة جنوب سامراء، وهي النقطة التي تقوم فيها بقايا حصن القادسية، التي سماها المؤرخ الإنكليزي (ادورد غيبون) باسم (قادسيا)، واحتسبها من المدن الأشورية. ويصل السور إلى جوار الرضوانية والرمادي على نهر الفرات، أي عند الدرجة ٣٤ من خط العرض تقريبًا حتى الخليج العربي، ومن الصحراء السورية حتى الجبال الإيرانية[٣٦].

وقد ترددت لفظة (العراق)، بشكل أكثر وضوحًا، في أواخر العهد الساساني (٢٢٦ - ٦٣٦م). ذلك العهد الذي كان يحكم من خلال (إيوان كسرى) من أرض العراق[٣٧]. وكان يتوافق مع مرحلة العصر الجاهلي. إذ ورد اسم (العراق) كثيرًا في الشعر الجاهلي. واقترن لدى شعراء البادية بالرخاء والخيرات. إذ قال الشاعر (امرؤ القيس):[٣٨]

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم عند المشاهد غران
هم تبلغوا الحي المضلل أهلهم وساروا بهم بين العراق ونجران

وأشار الشاعر (أمية بن أبي الصلت) إلى عظمة مساحة العراق بقوله:[٣٩]

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعًا والقط والقلم

وأشار الشاعر (كعب بن زهير) إلى العراق بقوله:[٤٠]

عزمن رحيلًا وانتجعن على الهوى وخفن العراق أن تجيش بوائقهِ

وأشار الشاعر (زهير بن ابي سلمى) إلى العراق وخيراته بقوله: [٤١]

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى العراق من قفيز ودرهمِ

أما الشاعر (الأعشى الكبير) فقد ركز على روعة مناخ العراق وطيب الإقامة فيه بقوله:[٤٢]

وكنت امرء زمنًا في العراق عفيف المناخ طويل التغن

وعند المؤرخين العرب ورد استعمال مصطلح (بلاد بابل) تارة، و(بلاد الجزيرة) تارة أخرى. بينما أطلق العرب في العصر الجاهلي اسم (العراق) على القسم الجنوبي. كما أطلقوا اسم (بلاد السواد) على السهل الرسوبي من بلاد الرافدين[٤٣]. وذهب (هنري فوستر) إلى القول بأن (العراق) لفظة عربية دخلت في الاستعمال الواسع بعد الفتح العربي - الإسلامي للعراق في القرن السابع الميلادي. وكانت تلك اللفظة قد أطلقت، في ذلك الوقت، على جزء من الوادي الذي عرف لدى الاقدمين باسم (بلاد بابل)، أو (بلاد كلديا). الذي يطلق عليه (عراق العرب)[٤٤].

أما لفظة (أرض السواد) فلم تكن اسمًا جديدًا أطلق على العراق، إنما كانت صفة له. إذ وصف بذلك حسب معجم البلدان (لسواده بالزروع والنخيل والاشجار، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، كانوا إذا خرجوا من أرضه ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سوادًا. كما إذا رأيت شيئًا من بعد قلت أما ذلك سوادًا؟ وهم يسمون الأخضر سوادًا والسواد أخضرًا) [٤٥].

و أرض السواد تعني سواد العراق. أي المنطقة التي تقع في جزئه الجنوبي بين دجلة شرقًا والفرات غربًا، فالخليج العربي جنوبًا، فيما تتوسط فيه مستنقعات تندرج تحت اسم الأهوار، ومنها هور الحمار والحويزة [٤٦]. لذلك، غالبًا ما رادف مصطلح (العراق) التي اتسع مدلولها بوصفها مصطلحًا لدى الجغرافيين العرب لتشمل الجزيرة والقسم الجنوبي. أي ما تمثله أرض العراق الحالية من الشمال إلى الجنوب[٤٧].

ويبدو أنه لم يطلق العراقيون مصطلح محدد لتسمية كل أرض العراق أو جزء منه. وذلك لأن أقدم نظام للحكم مدرك في العراق في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كان متمثلًا بدويلات المدن. فكان الحكام الأوائل من السومريين والجزريين يلقبون أنفسهم (حاكم المدينة). مثل حاكم اور، حاكم لكش، حاكم كيش. حيث ظهر مصطلح (ملك الإقليم). ثم ظهر مصطلح (مات شومريم)، والذي يعني بلاد سومر للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي. ثم مصطلح (مات أكديم)، والذي يعني بلاد أكد للقسم الأوسط من السهل الرسوبي. [٤٨] مع هذا كله، لم تكن هناك حدودًا طبيعية واضحة بين ما كان يسمى ببلاد أكد وبين بلاد سومر[٤٩].

ثم ظهر مصطلح (ملك الجهات الأربع)، الذي استعمله (نرام سين) ثالث ملوك الإمبراطورية الأكدية (٢٣٣٤ - ٢١٥٤ ق.م) كلقب سياسي جديد. وفي العهد السومري الأخير، استعمل (اوتو حيكال) مؤسس سلالة اوروك الخامسة (٢١١٦ - ٢١١٠ ق.م) لقب (ملك بلاد سومر وبلاد اكد). وفي العهد البابلي الوسيط (١٥٩٥ - ٦٢٦ ق.م) أطلق الكشيون الذين حكموا العراق ٤٣٨ عامًا مصطلح (كار - دنياش) على بلاد بابل. وكار تعني بلاد، ودیناش اسم أحد آلهة الكشية. وأصبح المصطلح يعني (بلاد دنياش) وسموا به منطقة واسعة أيضًا شملت بلاد سومر وأكد[٥٠].

وخلاصة القول، يتبين أن مصطلح (العراق) يعد أكثر التسميات الملائمة لإطلاقها على هذا الحيز الجغرافي من الأرض. وذلك لأسباب عديدة منها:

١ - أن الدلالات والمعاني التي عرف بها الاسم في العصور التاريخية القديمة ترجح تسمية (العراق) على غيرها من التسميات؛ لأن لفظة (العراق) ترجع في أصلها إلى تراث لغوي عراقي من العصور القديمة. حيث اشتقت من كلمة (اوروك) وهي مدينة عراقية قديمة تعني (المستوطن). وفي اللغة العربية، تدل مادة (أرك) على الإقامة بالمكان، ومنها (الأريكة) بمعنى السرير. و(أرك) تعني مكان أيضًا[٥١]. بكلمة أدق، تعني مكان الإقامة والاستقرار والاستيطان. ومن المعروف أن العراق يعد أقدم مراكز الاستقرار والاستيطان في الشرق الأدنى القديم، وذلك بحكم وجود نهري دجلة والفرات.

فضلًا عن ذلك، أن اسم العراق يتسم بالعراقة، لأن أول استعمال لكلمة (العراق) ورد في (العهد الكيشي) منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في وثيقة تاريخية ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، والتي جاء فيها لفظة (Ariqa) وهي اسم إقليم على هيئة (أريقا) الذي صار يطلق على العراق.

٢ - كما أن لفظة (العراق) كانت قد تطورت في الاستعمال. واتسع مدلولها عند الجغرافيين العرب. كما شاع اسم (العراق) في الشعر الجاهلي كما أسلفنا. واقترن لدى شعراء البادية بالرخاء والخيرات والجمال، والمناخ اللطيف.

٣- أضـف إلى ذلك، يبدو أن تسـمية (العراق) هي أدق التسـميات بدلالاتها اللغوية، التـي تعـود إلى العصور المبكرة من الحضارة السـومرية في أواخر الألـف الرابع قبل الميلاد. وفي العصـور اللاحقة كان يطلق اسـم (العراق) على البلاد كلهـا تارة، وعلى أجزاء منه تارة أخـرى. مثـل (بلاد سـومر، أو بلاد أكد، أو بـلاد بابل). بيـد أنه في الألفيـة الأولى للميلاد عُرِف الاسـم بالدلالة الجغرافية وأن اختلفت الألفـاظ. وبالدلالة اللغوية في القرن العاشر قبـل الميلاد. وبكلا الدلالتين معًا لدى الكتَّـاب والمؤرخين والجغرافيين العرب على التوالي. وصولًا إلى المدلول السـياسي للكلمة في القرن الخامس والسـادس الميلادي. ليأخذ الاسـم بعـد ذلك طبيعته ومدلوله العام مع تشـكل التنظيمات السياسـية إبـان القرنين الحادي عشر والثـاني عشر للميلاد، والحقب التاريخية المتعاقبة من التاريخ الحديث والمعاصر للدلالة على المنطقة التي نشأت فيها الحضارات العراقية القديمة وازدهرت. ليشمل مناطق شمال العراق ووسـطه وجنوبه في إطـاره العام. خصوصًا مع وجود مجرى نهري دجلـة والفرات، اللذان يربطان العراق بسكانه وخيراته من أقصاه إلى أقصاه.

٤- وفي العهـد السـلجوقي (القرنان الخامس والسـادس للهجرة) امتـد إقليم العراق أكثر، فشمل الأقسام الجبلية المحايدة لإيران إلى مدينة همدان.

ثـم تبلورت حـدود العراق المعـاصر، بوجه خـاص، في العهد العثماني (القرن التاسـع عـشر)، وفي حقبـة الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٧ م. ثم حسـم مجلس عصبة الأمم حدود العراق المعاصرة بشكل نهائي عندما أوصى بأن تعود ملكية ولاية الموصل إلى العراق. وقبلـت تركيـا بهذه التوصية من خـلال التوقيع عـلى معاهدة الحدود مع الحكومـة العراقية في عـام ١٩٢٦. وعلى هذا اسـتقر لفظ (العـراق) في الأدبيات السياسـية والفكرية بحدوده الراهنة التي رسمت عام ١٩٢٦.

المبحث الثاني

العراق: إشكالية المكان (الموقع) ومميزاته

يبدو أن مصطلح (المكان) يعاني من إشكاليات متعددة في الدراسات العلمية والنقدية. وهذه الإشكالات ناجمة، بالدرجة الأساس، عن الترجمة الغربية للمصطلح (space). إذ لم يتعامل النقاد والباحثون الغربيون مع مصطلح (المكان) إلا عرضًا. وقد ترجم بعض النقاد العرب المصطلح الانكليزي (space) بمعنى (الفضاء)، والذي يعني في طياته معنى (الفراغ)، وأيضًا يعني (الخلاء المكاني). والبعض الآخر ترجمه بمعنى (الحيز) والذي يشمل معطيات المكان من وزن وحجم وشكل، وهو الشيء المبني في فضاء مكاني[٥٢].

وفي معجم (لسان العرب)، فإن (المكان) يعني (الموضع). وأيضًا يعني الاستقرار والوجود والثبات في مكان ما، وجمعها أمكنة وأماكن[٥٣].

والراجح، أن هذا المعنى يتفق مع الدلالة المطلوبة التي استقرت لدى الجميع. إذ عندما يذكر مصطلح (المكان)، فإن الذهن ينصرف حتمًا إلى موضع العيش والاستقرار والإقامة. ويمثل الحيز الذي يحوي الإنسان وأنشطته. ويتسع ليشمل الأرض وما عليها. وبالتالي يعني أرض الاستقرار والوجود والثبات في مكان ما. وإذا كانت الأمم لا تتشكل إلا عبر سرديات ومرويات[٥٤]، فإن سردياتها لن تكتمل، ومروياتها لن تنتظم بغير وجود حيز (مكان) معلوم تحقق فيه حضورها، وتدون وقائعها عبر ممارسة تاريخية تنضج إدراكها لذاتها وللعالم على حد سواء. وتتأثر بما حولها وتؤثر فيه. وبالتالي يشكل (المكان) أو الموقع تاريخًا للإنسان بما يختزن من خبرة وانجاز[٥٥].

عليه نقصد (بالمكان العراقي) الوطن أو الموقع أو الحيز الجغرافي، الذي استوطن فيه الإنسان العراقي بشكل متواصل منذ فجر التاريخ ولحد الآن. وحقق حضوره فيه، وأثر من خلاله بالآخرين. هذا المكان الذي شهد عصورًا حضارية مزدهرة رغم الإشكالات والمميزات التي ترتبت عليه، ومثلت تارة مصدر قوة للمكان، وتارة أخرى مثلت مصدر وهن له.

ولربما كان الموطن العراقي، على حد قول (هنري فوستر)، من أغرب المواطن البشرية؛ لأنه لا يمثل من كتلة أرض العالم الواسعة سوى محض جزء يسير منها، وأغلبها صحراء مهملة، وجبال جرداء قليلة الأمطار، لكنه مع ذلك، وافر المياه، وفائض الإنتاج. ولذلك يقال عنه (دغدغ التربة لتبسم لك عن النتاج). وقد كانت هذه القطعة من الأرض تبدو بالنسبة إلى القطعات البشرية الجائعة خلال العصور، تمثل كنزًا ثمينًا للكثير من أولئك الذين يحركهم الشعار القائل بأن وطن الإنسان هو المكان الذي يجد رفاهة فيه[٥٦].

ومن وجهة نظر الجغرافية السياسية، فإن بيئة الدولة الطبيعية تتحكم، إلى حد كبير، بقوة الدولة أو ضعفها من حيث موقع الدولة الفلكي، ومناخها، ومساحتها، وشكلها، وحدودها، وطبيعة أراضيها. فضلًا عن موقعها إزاء اليابس والماء من الكرة الأرضية، وإزاء الدول المجاورة.

وعمومًا يُحتسب الموقع الجغرافي أحد العوامل المهمة التي تؤثر في الجغرافية السياسية للدولة، وذلك لتأثيره الجوهري على اتجاهات سكانها، وعلى السلوك السياسي لحكوماتها. وقد ساهمت البيئة على نحو فعال في توليد المنجزات الحضارية في وادي الرافدين.

وفي ضوء ذلك كله، لابد أن ندرس مميزات المكان العراقي، والتي ساعدته على أن يشكل الحضارة الأولى في التاريخ. وأيضًا ندرس الإشكاليات التي رافقته وأثرت عليه سلبًا في بعض الأحيان. فضلًا عن دراسة دور الإنسان العراقي القديم الذي استثمر مميزات الموقع، وتغلب على إشكالياته.

المطلب الأول
مميزات المكان (الموقع) العراقي

هناك مميزات متعددة في المكان العراقي ساعدته على الارتقاء والتفوق في التاريخ القديم. لدرجة مكنته من إنشاء أول حضارة متميزة في تاريخ البشرية. وهذه المميزات بعضها يتعلق بمناخ العراق وأنهاره، والبعض الآخر يتعلق بطبيعة أرض العراق وتكوينها الجيولوجي. فضلًا عن مزايا الموقع الجغرافي الذي شغلته بلاد وادي الرافدين.

أولاً: مميزات مناخ العراق

لعل الموقع الفلكي يعد واحدًا من أهم معايير الموقع. ونعني به مكان الدولة من دوائر العرض والطول، والذي يعكس مدى ملاءمة الدولة للحياة البشرية وللتقدم الحضاري. إذ تتركز الدول المتقدمة في العروض المعتدلة. ولا يعني هذا أن الحضارات القديمة نشأت ابتداء في تلك العروض. إنما نشأت في الأقاليم المدارية وشبه المدارية، حيث تتوافر السهول الفيضية والمياه. وكانت الصحراء المحيطة بهذه السهول الفيضية تعد بمثابة الدرع الواقي للحضارة في المناطق السهلية. ثم انتقلت الحضارة بعد ذلك إلى المناطق المعتدلة في الشمال عن طريق الاستعمار الوافد من الشمال، وهيمنته على تلك الأقاليم الحضارية القديمة.

ومن هذه الناحية، يقع العراق في القسم الجنوبي من المنطقة المعتدلة. حيث يحدد موقعه خطا العرض ٣٠ درجة جنوبًا و٣٧ درجة شمالًا، وبين خطي الطول ٥٨ درجة غربًا و٤٨ درجة شرقًا[٥٧].

والمعروف في الجغرافية الطبيعية، أن الأقاليم الواقعة غربي القارات، مثل العراق، الذي يقع غربي آسيا وبين خطي العرض السالفة الذكر، يكون مناخها من نوع مناخ مناطق الانتقال ما بين المناخ الصحراوي الحار، ومناخ حوض البحر الأبيض المتوسط المعتدل. وبذلك تكون درجات الحرارة في المنطقة الجبلية أعلى منها في المناطق الشمالية.

ويتنوع مناخ العراق تبعًا إلى أجزائه الطبيعية المختلفة إلى ثلاثة أنواع، وهي القسم الجبلي الذي يمتاز بالاعتدال، والقسم الصحراوي في السهل الرسوبي والهضبة الغربية، الذي يمتاز بالحرارة. أما النوع الثالث فهو مناخ السهوب، الذي يحتسب مناخًا انتقاليًا ما بين مناخ البحر الأبيض المتوسط في الشمال، والمناخ الصحراوي الحار في الجنوب[٥٨].

وتشير الدلائل التاريخية والجغرافية إلى أن مناخ العراق لم تطرأ عليه تبدلات أساسية منذ أن استوطن الإنسان السهل الرسوبي في جنوب العراق منذ حوالي سبعة آلاف سنة مضت وحتى الآن. أي أن الأحوال المناخية استقرت فيه بوجه أساسي منذ ذلك التاريخ. أما قبل

ذلـك وبخاصـة في العصـور الحجرية القديمة قبل مـا يزيد عن مليون سـنة، فكانت أحوال المناخ وطبيعة الأرض والنبات الطبيعي يختلف اختلافًا أساسيًا عما هو عليه الآن[٥٩].

وكان العراق أثناء العصور الجليدية أكثر رطوبة مما هو عليه الآن؛ لأن الأمطار كانت أغزر وتسـقط صيفًـا وشـتاءً. ويظهر أن العراق شـهد أربعة عصـور مطيرة بدأ أولهـا في أواخر عصر البلايوسـين واسـتمر حتـى بداية انتشـار الجليد كنز في أوروبـا في عصر البلايتوسـين. أما قمم الجبال في زاجروس فقد احتفظت ببرودتها. إذ أنها كانت مغطاة على الدوام بجليد سميك[٦٠].

وبعـد أن انتهـى العـصر الجليدي الأخـير، بدأت حقبة الـدفء في العـالم. وقبل عشرة آلاف سنة استقرت هذه الحقبة على مناخ يكاد أن يكون ثابتًا. فتغيرت علاقة الإنسان بالبيئة بالتدريـج. واختفت حيوانـات الصيد الكبيرة وحلـت محلها الحيوانـات المدجنة لأغراض اقتصاديـة. وظهرت مجالات جديدة للاسـتيطان في القرى على شـواطئ الأنهار ومصباتها، وعنـد العيـون والينابيع. وسـاعدت أحوال البيئـة الجديدة على زراعة بعـض الحبوب التي كانـت فيما مضى تنمو نموًا طبيعيًا كالقمح والشـعير. وبصورة عامـة مالت أحوال المناخ في العراق نحو أحوالها التي نعيشها في الوقت الحاضر، من حيث درجات الحرارة صيفًا وشتاءً، ومن حيث كمية الأمطار الساقطة، ومن حيث هبوب الرياح[٦١].

وكان لتبدل المناخ في العصور الجيولوجية أثر مهم في نشـوء الحضارة الأولى في التاريخ على أرض العراق. إذ كان من المتعذر على الإنسان البقاء على حياة الصيد[٦٢]. وهذه الانتقالة قادت الإنسـان العراقي القديم إلى الزراعة، ولا سـيما في شـمال العراق. وهكذا تم التعرف عـلى مواقع مثل (كريم شـهر) القريب مـن جمجمال، و(زاوي حمي) قرب كهف شـانيدر في راوندوز، كونها كانت مستوطنات استقر فيها العراقي القديم[٦٣].

ثـم ما لبث هذا الإنسـان أن مال إلى الاسـتقرار في مناطق دائمة. مـارس فيها الزراعة. وقـد أكدت ذلـك، المخلفات الآثارية في مواقع جرمو، وحسـونة، ومطـاره، وأم الدباغية. إذ وجـدت في هـذه المناطـق بعـض أدوات الحصـاد وطحن الحبـوب ومخـازن للمحاصيل الزراعية، وعظام حيوانات مدجنة[٦٤].

وكانت زراعة الإنسان في ذلك العصر تعتمد كليًا على الأمطار، التي كانت كافية للزراعة المحدودة حتى بعد حلول فترة الجفاف، الامر الذي دفع الكثير من الجماعات الفلاحية إلى ترك مواطنها بالتدريج. والبحث عن مناطق تصلح لحياتها الزراعية. فركنت إلى الهجرة إلى وديان الأنهار، مثل وادي الرافدين ووادي النيل. ودخل المستوطنون الأوائل في السهل الرسوبي من العراق في تحد جديد من أجل ترويض البيئة النهرية، وجعلها صالحة لزراعة الري[٦٥].

ولذلك عم الرخاء الاقتصادي في العراق. وفاقت شهرته الزراعية والتجارية والصناعية شهرته السياسية والعسكرية، التي طغت على أخبار الملوك، وتأثر الإغريق والرومان والفرس بالعراقيين القدماء. فاقتبسوا الكثير من النظم والاعراف العراقية القديمة، التي حوروها بما يتلاءم وظروفهم الخاصة[٦٦].

وفي ضوء ذلك، اشتهر العراق منذ آلاف السنين بموقعه الجغرافي الممتاز، ومقامه السياسي الرفيع، وبتربته الخصبة، وأرضه الغرينية[٦٧]. وفي أرضه نمت مختلف أنواع الغلال والمحاصيل الحقلية، منها الحبوب على اختلاف أنواعها. فضلًا عن الأشجار المثمرة، وأشجار النخيل ذات الشهرة الواسعة، والتي أدت دورًا كبيرًا في الاقتصاد العراقي القديم. واشتهر العراق منذ القدم بخصوبة تربته. ويعزى ذلك إلى استخدام نظام الري الذي قدمه العراقيون القدماء إلى العالم القديم، والمتمثل في الحفر والاعتناء بالقنوات والجداول الصغيرة المتفرعة من الأنهار لسقي المزارع والحقول التي يصلها الماء بواسطة النواعير التي تدار بواسطة الحيوانات[٦٨].

ومن المستحسن، أن نشير إلى الشهرة التي تتمتع بها خصوبة أرض العراق. فهذا (هيرودوتس) قال عنها بأنها تنتج ما يزيد عن مائتي ضعف. وقال (ثيوقراتوس) عنها أن ناتجها من خمسين إلى مائتي ضعف. ويذكر (سترابو) أنها تعطي ثلاثمائة ضعف. وقال (بليني) أن الناتج ستمائة ضعف. وهذه الأرقام غير مشكوك بها وأن كان مبالغًا فيها إلى حد ما؛ لأن المقصود من هذه المبالغة يكمن في التدليل على الغنى الذي تتمتع به هذه التربة الأسطورية[٦٩].

لذلك، تروى قصة آدم أبي البشر، أنه عندما أُخْرِج من الجنة، وأُنزِل من السماء، كان أول ما وطئت قدماه كانت أرض العراق. وبهذا نشير إلى اعتقاد قديم عند الناس مفاده أن العراق يعد أقدم موطن للبشرية الأولى. ومن الطبيعي أن القصة أدركت أن في العراق دون بقية رقاع أرض الله، خصائص ومميزات وسمات قريبة من الجنة، الأمر الذي دفع آدم إلى اختيار أرضه للنزول فيها[٧٠].

وفي العهد القديم، كان (الشنعاري) أي العراقي، إذا سار في أرضه فلا يقع بصره إلاَّ على غابات يزدحم فيها النخيل والصفصاف. ويمتد السهل بين يديه بقدر ما كان يبلغ بصره من مدى الأفق[٧١].

إن هذه الظاهرة هي التي جعلت البدو العرب من إطلاق تسمية (أرض السواد) على السهل الجنوبي من العراق، مما جعلها محط أنظار أقوامها وهجراتها إليه منذ أبعد عصور ما قبل التاريخ. حيث نزحت إلى بلاد ما بين النهرين، في مختلف العصور، الأقوام السامية المختلفة، ومنها القبائل العربية التي يرجع إلى أصولها القسم الأعظم من سكان العراق الآن. ومن الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية نزحت إلى العراق أقوام عديدة من بينها جماعات من أصول الأقوام الهندية – الأوروبية.

والعراق، من هذه الناحية، إقليم مفتوح لهجرات الأقوام والغزوات بالمقارنة مع وادي النيل، الذي يعد إقليمًا مقفلًا بوجه نسبي[٧٢]. وهذه الظاهرة، أفرزت عملية الانصهار الحضاري التي ميزت تاريخ هذا البلد، حيث تمكن من صهر الأقوام المختلفة في حضارة وادي الرافدين، وجعلت له كيانًا تاريخيًا وحضاريًا متميزًا منذ أقدم العهود.

ثانيًا: مميزات النهرين العراقيين

أول ما ابتدأت الحضارة القديمة كانت في وادي الرافدين، قبل أن ترتقي في سائر البلدان الأخرى، بسبب وفرة المياه التي تعد مادة الحياة الضرورية، ومادة النماء لجميع الكائنات الحية. والبلاد التي ينقطع عنها الماء يعقبها الفناء. لذلك فإن الفراتين ساقت الإنسان إلى العمران الشهير في التاريخ في بلاد الرافدين. [٧٣] إذ توفرت في العراق المياه العذبة المتدفقة

من الينابيع الصافية. ويجري فيه نهران عظيمان من الشمال إلى الجنوب. وهذين النهرين (دجلة والفرات) يمدان الأرض بالمياه العذبة الغزيرة، لتسقي الحقول التي ساعدت على نمو النباتات، وضمنا معيشة أنواع عديدة من الحيوانات. لذلك يمكن القول أن النهران يمثلان أهم صفة طوبوغرافية بارزة لبلاد ما بين النهرين. إذ قدما حضارة زراعية تعتمد في زراعتها على الري على غرار حضارة وادي النيل.

و(الرافدان) كلمة عربية أُطْلِقَت على نهري دجلة والفرات. وهي كلمة مشتقة من (الرفد)، والتي تعني العطاء والصلة. وكأن العراق (عطية النهرين) مثلما كانت مصر عطية نهر النيل وهديته. لذلك قال عنهما الدكتور عبد القادر عبد الجبار الشيخلي ما يأتي: (إذا صح قول هيرودوتس بأن مصر هبة النيل، فإن العراق كذلك هبة النهرين التوأمين)[٧٤].

ويلاحظ أن لفظ (الفرات) عربي الأصل على القول المشهور. وقد جاء ذكره في التوراة بهذا الاسم: (في ذلك اليوم بت الرب مع ابرام عهدًا قائلًا لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)[٧٥]. إلاَّ أن هناك من يرى أن اسم الفرات ورد في اللغة البابلية والأشورية بلفظ (براتا)أو (براتو). ومنه جاءت التسمية العربية (الفرات)[٧٦].

أما لفظة (دجلة) فإنه يعد دخيلًا على اللغة العربية كما يبدو. إذ أطلق السومريون كلمة (أدجلا) على هذا النهر. ثم زاد البابليون علامة التأنيث عليها فقالوا (أدجلت). ثم اختصروها على توالي الزمن فأصبحت (دجلة). بيد أن الفرس الماذيين صحفوا هذه اللفظة فقالوا (تغرا) أي (السهم). وأطلق اليونانيون اسم (تجر وديس) على هذا النهر. فمضى الغرب بالقول (Tigris).

أما في اللغة العربية، فيقال (دجلة)، انحدرت من الاسم البابلي القديم[٧٧].

عليه، لا نأتي بجديد حين نقول أن مصدر الحياة في العراق كانت الأنهار العراقية (دجلة والفرات). التي كان لهما الأثر الواضح في تاريخ العراق، وقيام حضارة العراق الأولى[٧٨]. وتتفق معظم المصادر التاريخية والآثارية على أن تكوين هذين النهرين يرجع إلى عصور

تاريخية قديمة. وخص العراقيون القدماء تلك الرافدين بالتقديس والتعظيم، واحتسبوهما من جملة الآلهة المشتقة من قوى الطبيعة. وأُلِّفَت في النهرين بعض التراتيل الدينية[٧٩]. وأطلق العراقيون عليهما (النهرين التوأمين)[٨٠].

و كان من حسن حظ العراق، أن المياه في هذين النهرين دائمة الجري، لكنها تقل أو تكثر حسب المواسم وغزارة الأمطار. ففي الربيع حيث تذوب الثلوج وتكثر السيول، يمتلئ حوضا النهرين امتلاء يؤدي إلى الغرق في بعض الأحيان، فيتسبب عنه انتشار كثير من الأمراض ولا سيما الملاريا. أما في الصيف والخريف فإن نسبة المياه تنخفض انخفاضًا واضحًا حتى يصبح في إمكان الإنسان عبور النهر خوضًا في أماكن متعددة[٨١].

وإذا عدت أنهار العالم الكبرى وشطوطه العظمى، كان نهر دجلة، الذي يقطع العراق من الشمال إلى الجنوب في مقدمة هذه الأنهار. وقد ذهب معظم الذين كتبوا عن هذا النهر إلى أنه ينبع من (بحيرة كولجك) جنوبي مدينة خربوط. بيد أن عبد الرزاق الحسني ذهب إلى القول: (في الواقع فإن نهر دجلة يتفجر في سلسلة الجبال المرتفعة الكائنة في شرقي تركيا)[٨٢]. بينما ذهب (سيتون لويد) إلى القول أن نهر دجلة ينبع من بحيرة صغيرة تدعى (هزار كولو)، التي تقع على بعد حوالي مائة ميل إلى الغرب من بحيرة (وأن). ويجري جنوبًا نحو الشرق، ثم إلى الجنوب الشرقي باتجاه نينوى والمرتفعات الأشورية[٨٣].

ونظرًا لطول هذا النهر وأهميته، فقد اعتاد الجغرافيون أن يقسموه إلى قسمين (شمالي وجنوبي). فالقسم الشمالي هو الذي يمتد بين منبع النهر ومدينة بغداد، فيجري أولًا في أودية ضيقة بين ضفاف مرتفعة وأراضٍ جبلية وعرة. ثم يجتاز قسمًا من الأراضي المتموجة ذات الأودية العريضة والضفاف المرتفعة، فيتعذر الاستفادة منه سيحًا. ثم يسير في أراضٍ مكشوفة تعلوها المياه أحيانًا، ولا سيما في أيام الفيضانات. ويبلغ طول هذا القسم حوالي ٦٧٩ ميلًا. أما القسم الثاني من النهر فيسير في مجرى تكثر فيه الالتواءات والتعرجات. وتتفرع منه جداول ونهيرات كثيرة تؤثر بشكل كبير في ري الأراضي الزراعية الشاسعة، وإعمار البساتين اليانعة. ويبلغ طول هذا القسم حوالي ٤٥١ ميلًا بين بغداد وموضع اقترانه بنهر الفرات[٨٤].

ومن الجدير بالذكر، أن المياه التي تجري في حوض دجلة أكثر من المياه التي تجري في حوض الفرات على الرغم من أن الفرات أطول من دجلة. وذلك لأن المياه في دجلة تسيل في وادٍ منخفض تجاوره جبال مرتفعة، لذلك تنحدر عليه سيول دافقة وتوابع كثيرة. في حين أن المياه في الفرات تسيل وسط صحارى قاحلة بعيدة عن الجبال. ولهذا السبب نفسه نرى المياه في وادي الفرات تقل وتنضب كلما اقترب النهر من مصبه، بينما تحافظ دجلة على مستواها إلى المصب[٨٥].

أما نهر الفرات، الذي يبلغ طوله ١٧٨٠ ميلًا، مقابل نهر دجلة الذي يبلغ طوله ١١٥٠ ميلًا. فإن له منبعان رئيسيان بين بحيرة(وان) و(ارضروم). وكونت المنطقة بينهما في العصور القديمة حزامًا كثير الخصب. وأثناء مرور النهرين في العراق وقبل وصولهما إلى خط هيت – سامراء يسيران في وديان حفراها في الحجر الجيري الصلب، وفي الصخور الصلصالية الطينية. ولهذا السبب فإن مدنًا قديمة قد تشكلت على ضفافه مثل: (كركميش، ونينوى، ونمرود، واشور وغيرها). وهذه المدن لا تزال موجودة كما كانت على ضفاف النهر[٨٦].

وبما أن نهر الفرات كان أقل عنفًا في فيضاناته من دجلة، فإنه أثر في تاريخ الاستيطان البشري في السهل الرسوبي، وأفضى إلى نشوء الحضارة فيه. إذ تركز ذلك الاستيطان في وادي الفرات أكثر مما كان قائمًا على ضفاف دجلة. حيث تشير الدلائل الأثرية والتاريخية إلى أن الاستيطان القديم كان قد تمركز على ضفاف وادي الفرات أكثر منه في وادي دجلة، ولا سيما في الألفين الخامس والثالث قبل الميلاد. وذلك لأن الفرات أقل عنفًا وتقلبًا من نهر دجلة. فضلًا عن أن مياه دجلة كانت أكثر تدميرًا وسرعة في جريانها. لذلك ارتكزت على ضفاف الفرات مدن ومستوطنات عراقية قديمة[٨٧].

وبذلك يتضح، أن الفرات يتميز بقدرات هائلة في الشؤون الزراعية والملاحية، والاتصال الحضاري بين مدن العراق القديمة. وخصوصًا أن أقسامه الجنوبية توجد فيها مياه الأهوار والمستنقعات، وتنتشر فيها شبكة من القنوات والأنهار، مما يجعلها صالحة للزراعة، ومشجعة على استخدام وسائط النقل النهرية. لا سيما في المسار النازل للنهر. ومما زاد من أهمية نهر الفرات اتصاله بمياه الخليج العربي، ومن ثم بمياه خليج عمان. وتعد الاكتشافات

الحديثة أن المستوطنات العبيدية على الساحل الغربي للخليج العربي دليلًا على تقدم الصلات بين المنطقتين. ومن الراجح أن مدين ماري (تل الحريري) كانت مركزًا رئيسيًا على الفرات في أقسامه الوسطى. ويتردد اسمها كثيرًا في النشاط التجاري مع بابل وايسن[٨٨].

لذلك لا نستغرب من إطلاق لفظة (النهر الكبير) على الفرات في التوراة، وفي واقعة تركت بصمتها على التاريخ القديم والمعاصر (في ذلك اليوم بت الرب مع ابرام عهدًا قائلًا لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)[٨٩].

ثالثًا: مميزات موقع العراق الجغرافي

يتميز العراق بموقعه الاستراتيجي المتميز. إذ يتوسط بحرين عظيمين هما البحر الأسفل (الخليج العربي)، والبحر الأعلى (البحر الأبيض المتوسط). اللذان كان لهما دور كبير في نشوء الحضارات القديمة وازدهارها. وقد تميز العراق بموقع استراتيجي من الناحية القارية. حيث يقع في القسم الجنوبي الغربي من آسيا. ويحد القسم الشمالي من بلاد العرب.

لذلك كان العراق ملتقى القوافل التجارية بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي، والشرق الأقصى والهند بالطرق البرية[٩٠].

وكان لهذا الموقع الاستراتيجي أثره الواضح في نشوء التجارة الخارجية وتطورها وازدهارها عبر العصور التي مرت على العراق. إذ يقع عند ملتقى الطرق التجارية الرئيسة، التي تصل بين بلدان الخليج العربي والبلدان الواقعة في ما وراء الخليج وبين البحر المتوسط، ولكونه من الأقاليم المفتوحة جغرافيًا[٩١].

وكان الطريق البحري من الخليج العربي يمثل أهم الطرق الحيوية التي تربط العراق بالعالم الخارجي، ولا سيَّما مع الجهات الشرقية والهند والأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية. لذلك كان يوصف بمثابة الرئة للجسد.

ويلاحظ أن معظم المدن المهمة في وادي الرافدين اشتهرت بموانئها النهرية. وبالنظر إلى المكانة الحيوية للخليج في حضارة وادي الرافدين، صار من مستلزمات سياسة الدول

العراقية التي قامت في وادي الرافدين أن تجعل الأقاليم المتاخمة له ضمن فلك النفوذ السياسي لتلك الدول منذ قيام إمبراطورية سرجون الأكدي (٢٣٧٠ – ٢٣١٥ ق.م). وظلت أهمية الخليج حاضرة في العصور اللاحقة. وكان يتم عن طريقه الاتصال بالهند والشرق الأقصى[٩٢].

وفي ضوء ذلك، يبدو أن الخليج العربي كان يمثل واسطة مهمة للتواصل بين الأقاليم الغربية وبين موانئ البحر المتوسط وبين الهند والشرق إلى أن فقد أهميته نسبيًا ما بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وفتح قناة السويس. فتحولت الطرق التجارية العالمية تحولًا أساسيًا. وفقد العراق، إلى حد كبير، جانبًا من أهميته التجارية العالمية السابقة.

أضف إلى ذلك، كان يوجد طريقان مهمان يربطان العراق باتجاه غربي بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وبلاد الأناضول. وكان الاتصال البري ميسورًا؛ لأن الأرض منبسطة. بينما كان الاتصال البري بالأقاليم الشرقية أصعب مما كان عليه الحال مع الأقاليم الغربية من جراء طبيعة الأراضي الجبلية الوعرة، أي سلاسل جبال زاجروس وسفوحها المتاخمة لوادي الرافدين على طول حدوده الشرقية والشمالية الشرقية[٩٣].

وكان افتقار العراق إلى بعض المواد الخام الضرورية، كالأحجار والمعادن والأخشاب أثره في دفع العراقيين من أجل توفير تلك المواد من الخارج. ثم اتسع نطاق التجارة الخارجية مع بلدان الشرق الأدنى القديم. وهناك أدلة آثارية تشير إلى العلاقات التجارية السومرية، التي تعود إلى حوالي الألف الثالث قبل الميلاد وما بعده مع كل من عيلام وآسيا الصغرى، ويوريا، ومصر، وبعض جزر البحر المتوسط.

وكان من نتائج العلاقات التجارية الخارجية أن انتشرت الحضارة العراقية القديمة في منطقة واسعة من الشرق الأدنى القديم. وخير مثال على ذلك يكمن في انتشار الخط المسماري واللغة الأكدية، واستخدامها في الشرق القديم حتى صارت أشبه ما تكون باللغة الدبلوماسية. ولقد أولت الحكومات العراقية القديمة التجارة شأنًا كبيرًا. وبلغ بها الأمر إلى تثبيت الموازين والنوعية والأجور. ولم تغفل رعاية الطرق التجارية وفرض الأمن عليها،

وتسهيل الانتقال فيها. وتم العثور على العديد من الأثقال الدقيقة التي كانت تُصنع من الحجر على هيئة بطة أو أسد وقد دُوِن عليها وزنها[٩٤].

رابعًا: مميزات طبيعة الأرض العراقية

أضف إلى ذلك، يلاحظ أن تكوين أرض العراق متباينة من حيث تاريخها الجيولوجي. فالسهل الرسوبي يشغل حوالي ٢٠ ٪ من مساحة العراق الكلية. ويمتد من مدينة سامراء على نهر دجلة وهيت على نهر الفرات من جهة الشمال، والحدود العراقية الإيرانية من جهة الشرق، والهضبة الصحراوية من جهة الغرب، والبادية الجنوبية والخليج العربي من جهة الجنوب.

وتكوَّن هذا السهل نتيجة الرواسب التي تنقلها مياه دجلة والفرات من الشمال، ومن الرواسب التي تأتي بها السيول المنحدرة من وديان الهضبة الصحراوية، مثل وادي حوران والأبيض والبطن[٩٥]. ويقع في وسط العراق وجنوبه، ويحيط به نهري دجلة والفرات. ويعد هذا السهل من أهم أجزاء العراق من الناحية السكانية والاقتصادية.

أما البادية والهضبة الصحراوية، والتي تشكل حوالي ٥٩ ٪ من مساحة العراق، فتمثل القسم الغربي من البلاد. وهي من حيث التضاريس تعد جزءً من بادية الشام والجزيرة العربية. وقد كانت هذه البوادي مصدرًا للأقوام الجزرية التي هاجرت إلى وادي الرافدين في حقب تاريخية قديمة من شبه الجزيرة العربية إلى العراق. فقامت على الطريق الذي سلكته مراكز حضارية مهمة كمدينة ماري مثلًا على الفرات[٩٦]. وتقسم إلى قسمين متميزين من حيث السطح والتربة والنبات والأمطار هما: هضبة الجزيرة والتي تُسمى أيضًا (بلاد ما بين النهرين العليا) أو (أعالي الفرات)[٩٧]. وهي عبارة عن سهل واسع يقع بين دجلة والفرات في الشمال الغربي من العراق. وكانت أرض الجزيرة من أبرز مناطق الاتصال وأهمها. حيث كانت تربط ما بين حضارة العراق والحضارات الأخرى. وما بينها وبين موانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول. ومثلت ثغرًا كبيرًا دخلت منها الكثير من الأقوام الجزرية والسامية إلى العراق. [٩٨] وامتدت هذه الهضبة بين مرتفعات مكحول وسنجار

شمالًا، والسهل الرسوبي جنوبًا، ومجرى نهر الفرات والحدود السورية غربًا، وجبال حمرين شرقًا. وتتمتع هضبة الجزيرة بسقوط الأمطار الكافية للزراعة والرعي. كما توجد فيها مياهًا جوفية وفيرة.

ويبدو أن هذه الموارد المائية، كانت سببًا في ازدهارها منذ عصور ما قبل التاريخ. وتدلل على ذلك التلول الأثرية الكثيرة المنتشرة فيها. واشتهرت الجزيرة، منذ أقدم الأزمنة، بكونها من مناطق الاتصال المهمة بين العراق والشام وموانئ البحر المتوسط وبلاد الأناضول. وكذلك من المصادر المهمة لهجرات القبائل من الجزيرة العربية إلى العراق وسوريا.

أما هضبة البادية الغربية، فإنها تجاور مجرى نهر الفرات من الغرب، وتشترك مع بادية الشام. وتمتد إلى قلب الجزيرة العربية. وكانت مصدرًا لهجرات الأقوام الجزرية إلى العراق منذ أقدم عصور التاريخ[٩٩].

أما المنطقة الجبلية وشبه الجبلية، والتي تشغل حوالي ٢٠ ٪ من مساحة العراق، فإنها تقع في القسم الشمالي والشمال الشرقي من العراق. وتمتد لتصنع حدًا طبيعيًا مع حدود كل من سوريا وتركيا وإيران. وتمتد إلى حدود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية في الجنوب[١٠٠]. وفي هذه المنطقة الجبلية، عاش الإنسان إبان العصور الحجرية في سفوح هذه المرتفعات[١٠١].

ويبدو أن هذا التكوين الجيولوجي لأرض العراق، فضلًا عن التكوين الجغرافي لسطح العراق، كان قد ساهم في التأثير على النتاج الحضاري والاجتماعي والاقتصادي للفرد وللمجتمع وللدولة في العراق القديم.

وفي ضوء ذلك يتبين مدى التفاوت بين شمال العراق وجنوبه. وسيغدو هذا أكثر وضوحًا إذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة الأرض في البلاد، وتكوين طبقاتها الأرضية، وخاصياتها المناخية. أن كل هذه العناصر البيئية امتزجت لتقدم نموذجًا متميزًا في حياة سكانه الأوائل[١٠٢].

وقد أثر ذلك كله على تنوع النباتات الطبيعية في العراق. ويظهر هذا الاختلاف واضحًا

بين نباتات الصحارى القليلة ونباتات الأهوار الكثيفة. وكذلك بين غابات الجبال وحشائش السهول. ويزداد النبات كثافة كلما انتقلنا من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق حسب ازدياد كميات الأمطار والمياه. وتنتشر النباتات الصحراوية في السهل الرسوبي والهضبة. ويعتمد سكان هذه المناطق على هذه النباتات في اطعام حيواناتهم، ويستخدمونها كوقود. كما أنها تحافظ على التربة من الجرف، وتقلل من حدة العواصف الرملية. ومن أهم نباتات هذه المنطقة كانت النباتات الحولية والنباتات المعمرة [١٠٣].

وتُحتسب الحشائش والنباتات البصلية من أكثر نباتات المنطقة شبه الجبلية التي لا يوجد حد فاصل بينها وبين المنطقة الصحراوية. وتعد هذه المنطقة السهوبية مهمة جدًا لرعي الحيوانات لاحتوائها على حشائش ملائمة لغذائها. وتوجد مناطق الغابات في أقصى شمال وشمال شرق العراق ضمن حدود المنطقة الجبلية العالية التي تتمتع بمناخ البحر المتوسط. وتكون النباتات أكثر كثافة في السفوح الشمالية الشرقية.

أما منطقة الأهوار، فتتميز بكثافة نباتاتها، وتعدد أنواعها. وأوسعها انتشارًا، وأكثرها فائدة القصب والبردي.

وفيما يتصل بالمحاصيل الزراعية، فقد كان الشعير والقمح من أقدم النباتات التي تم زراعتها على شواطئ الأنهار. وكانوا يزرعون الدخن. واهتموا بزراعة السمسم والعنب، والتين، والرمان. وكانوا يزرعون في الحقول البصل والخيار، وكثيرًا من النباتات الأخرى التي لم تُعْرَف أنواعها بعد على وجه الدقة. وكانت أشجار النخيل من أهم مصادر الثروة الزراعية. إذ كانت تكفي لسد معظم حاجات السكان[١٠٤]. واستأنس الإنسان العراقي القديم العديد من الحيوانات مثل الابقار، والثيران، والأغنام، والماعز، والحمير، والخنازير، والكلاب، والدواجن. كما عرفوا تربية النحل، وذلك في الوادي الأسفل للفرات[١٠٥].

ويمكن أن نضيف كلمة عن العلاقة التاريخية بين سكان وادي الرافدين والبلدان المحيطة به من كل جانب. فالسومريون والبابليون هم في الأساس سكان مدن وفلاحون. فهم ليسوا مثل بدو الصحراء والرعاة المتنقلين بين المرتفعات الإيرانية. حيث أنهم تركوا

المناطق المكشوفة، وركزوا على حياة الاستقرار بين وديان الأنهار. ونادرًا ما يتخلصون بحياتهم من أنظار جيرانهم الأقل حظًا منهم، والذين كان همهم التعرض إلى طرقهم التجارية، ومهاجمة قراهم المكشوفة. لذلك سجَّل التاريخ فصولًا طويلة من تاريخ بلدهم الذي ركز بالدرجة الأولى على الصراع من أجل المحافظة على حياة الاستقرار التي فضلوها، وحماية أنفسهم من القبائل الرحالة الطامحة. وفي بعض الأحيان، كان عداء هؤلاء الغزاة من القوة والفعالية، بحيث صار أقل أهمية من تغلغلهم السلمي في مجتمع وادي الرافدين، وتشكيلهم بالتالي أكثرية ساحقة قوية.

وفي مثل هذه الاحوال، كانت سيطرة حكام أهل البلد قد حلت محلها سلالة أكد الغربية، أو سلالة ملوك بابليين من أصل سامي (جزري) غالب. وربما حل محل هؤلاء في الوقت نفسه غزاة من قبائل شرقية أو تغلغل ارستقراطية كاشية. ومثل هذه الأحداث كانت قد شكلت أساس تاريخ بلاد ما بين النهرين[١٠٦]. إذ لا توجد مدنية قديمة برزت في وقت أسبق، وامتدت إلى وقت أطول. وكانت أكثر إشراقًا من المدنية التي ظهرت في بلاد الرافدين. لقد انتشرت هذه المدنية خلال قرون من عهد السومريين سنة أربعة آلاف قبل الميلاد، وربما قبل هذا التاريخ حتى عصر العباسيين في القرنين الثاني والتاسع الميلادي. وأتت بين هذه العصور عهود الأكديين، والبابليين الأوائل، والأشوريين، والبابليين الجدد، ومن جاء بعدهم من رجال الإسكندر، والفرثيين، والساسانيين[١٠٧].

ويبدو أن هذه الخصائص والمزايا التي يتمتع بها العراق، كانت قد عرضته لأطماع الأخمينيين الذين ظهروا في ميديا. والإسكندر المقدوني الذي جاء من بلاد الإغريق. والفرس الساسانيون الغزاة. ويلاحظ أن كل من هؤلاء الغزاة، حاول أن يجعل مقر حكمه، وعاصمة دولته في وسط العراق.

إن الحديث عن مميزات المكان العراقي لا تنفي وجود مشكلات في هذا الموقع ذاته، أو في ما ترتب عليه من نتائج. وهذا ما سنعرج عليه في المحور الآتي.

المطلب الثاني
مشكلات المكان (الموقع) العراقي

مثلما كان للمكان العراقي مزايا ساعدت على بناء حضارته الرائدة، فإن هذا المكان، في الوقت نفسه، كان يعاني من مشكلات جوهرية تسببت في إعاقة البناء الحضاري فيه إلى حد ما. ولعل أهم تلك المشكلات هي:

أولاً: مشكلة عدم انتظام النهرين

يتبين من العرض آنف الذكر للأحوال البيئية في العراق، أنها تعاني من عدم الانتظام. فضلًا عن شيوع نوع من العنف في بعض مظاهرها. إذ أن النهرين العراقيين (دجلة والفرات) وأن كانا قد حققا للإنسان العراقي قدرًا كبيرًا من الاستقرار المعيشي مكنه من صنع حضارته في عصور تاريخية مبكرة. بيد أن النهرين، في الوقت نفسه، قد يفيضان على غير انتظار أو انتظام، فيحطمان السدود، ويغرقان الأرض. وقد يفيضان في غير أوقات الحاجة الملحة إليهما مثل مواسم الحصاد أو أوائل الصيف.

وإذا كان هذان النهرين وفروعهما قد عملا على تيسير الاتصالات المائية بين أجزاء العراق القديم، إلاَّ أن الملاحة فيهما لم تكن مأمونة دائمًا. وذلك لشدة انحدارهما، وسرعة جريان تياراتهما في أجزائهما العليا، وبطء جريانهما في أجزائهما السفلى. وقد تفيض بنحو غير متوقع فتحطم سدود الإنسان وتغرق مزارعه.

أضف إلى ذلك، أن الأمطار في العراق رعدية وقادرة على تحويل الأرض إلى بحر من الطين يسلب الإنسان حرية الحركة، ويشعره بالقلق، لينعكس ذلك على الخاصية السيكولوجية للإنسان العراقي. فانكماش شخصيته وقلقها من المستقبل، والمد العاطفي العميق في قاع نفسه. قد جعل كل أغانينا سواء القديمة أم المعاصرة لا تتضمن إلاَّ مفردات حزينة، تبرز انكماش الشخصية عودًا على داخليتها[١٠٨].

ولوحظ أن المعدل الهائل والمتقلب لفيضانات نهري دجلة والفرات وعدم التكهن

بكمياتهـا، كان يقلق الإنسـان العراقـي، وينعكس على وضعه الاقتصـادي. ولم تقف أثاره عند الفيضانات فحسـب، إنما تتضح أثارها أيضًا عندما يقل منسـوب المياه فيها في مواسـم غير ملائمة للفلاحين. وقد يتغير مجراهما، بحيث نجد أن مدينة مزدهرة قد تجد نفسها خلال أجيال فليلة خرائب منعزلة في الصحراء[١٠٩].

وإذا مـا قارنـا واقعة الفيضانـات في العراق بفيضانات النيل في مـصر، لرأينا أن الأخير يتصـف باطراد فيضاناتـه وانتظامها، ولا يكون في الأغلب مصحوبًـا بالعنف والتدمير كما هو حال النهرين في العراق، ولا سيما نهر دجلة، حيث أن الفرات أقل عنفًا وتقلبًا منه[١١٠]. لذلك كان سكان العراق يبذلون جهودًا مضنية من أجل السيطرة على النهرين بما أقاموه من سدود ونظام للري.

أضـف إلى ذلك، أن جزءً كبـيرًا من حوض دجلة والفـرات وروافدهما تأتي من خارج العـراق. ويشـمل رقعـة جغرافيـة واسـعة مـا بين بلاد الشـام وجبـال طـوروس وارارات وزاجـروس. ومـع أن الجزء الأكبر مـن مجرى النهرين يقع داخـل الأراضي العراقية، إلاَّ أن جزءً غير قليل منهما يتوزع ما بين تركيا وسوريا[١١١].

ومن الظواهر الطبيعية المميزة لأنهار العراق، نقلها كميات كبيرة من الغرين من منابعها حتى جريانها. وأدت ترسبات هذا الغرين في فيضان نهري دجلة والفرات إلى تبديل الأنهار لمجاريها في حقب زمنية مختلفة، الأمر الذي أدى إلى هجرة المدن التي كانت قائمة على مجاري النهرين، وإقامة مدن جديدة على المجاري المستحدثة. وظهر ذلك في السهل الرسوبي. أما في المناطق الشمالية فلم تتغير فيها مجاري النهرين إلاَّ قليلًا نظرًا لكونها مناطق صخرية[١١٢].

وأرجـع الإنسـان العراقـي القديـم، ظاهرة الفيضانـات المتكررة إلى غضـب الآلهة من البـشر، وعلى وجه الخصوص الإله انليل. ولذلك عمـل العراقي القديم على محاولة إرضاء الآلهة خوفًا من غضبها وبطشها[١١٣].

إن هـذه العوامـل البيئيـة، قـد أثرت عـلى خصوصيـة الفكر الدينـي العراقـي القديم. إذ نلاحـظ أن الإنسـان المـصري القديم اتجـه إلى عقيدة الخلود للإنسـان وللإلهـة، بينما كان

الإنسان العراقي القديم لا يؤمن بالخلود والابدية، بل ترك ذلك للآلهة فقط، لأنه كان غير مطمئن على حاضره ومستقبله بسبب عدم انتظام بيئته المحيطة به. وقد انعكس ذلك على المخلفات الأثرية، حيث لم يهتم العراقي القديم بالمقابر بل وجه اهتمامه لمنازل الآلهة (المعابد)، التي اعتقد أنها تستطيع توفير الأمن والطمأنينة له[١١٤].

وفي ضوء ذلك كله، يتبين ما يأتي:

١ - أن عدم انتظام فيضانات دجلة والفرات كان قد ترك أثره على الشخصية العراقية، التي أُصِيبت بالقلق وعدم الاطمئنان من الطبيعة؛ لأنه اعتقد أن الأرض مليئة بالشياطين والأرواح الأشرار، التي تتحكم بالبيئة. فضلًا عن أنها دفعته نحو عقائد دينية بدائية، وتصورات متواضعة عن الإله وصلته بالطبيعة. واعتقد أن الآلهة كانت تسيطر على حياته. لذلك انصرف إلى عبادتها ابتغاء مرضاتها، ودفعًا لغضبها ونقمتها[١١٥].

٢ - أضف إلى ذلك، أن ظاهرة عدم انتظام البيئة العراقية، أثرت سلبًا على الوضع الاقتصادي للفرد وللمجتمع على حد سواء.

٣- كما أن ظاهرة عدم انتظام البيئة العراقية، كان قد أثر على نوعية الدول وأنظمة الحكم المتعاقبة على حكم العراق. ودفعتها نحو تبني سياسات خاصة، وتأملات متميزة في الفكر السياسي العراقي القديم.

ثانيًا: مشكلة موقع العراق الجغرافي

بما أن العراق يقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، فإنه كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية وتجارية كبيرة، كونه يقع على الجسر البري الذي تلتقي فيه القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا. كما أنه يقع عند ملتقى طرق القوافل التجارية القادمة من المحيط الهندي والشرق الأقصى باتجاه البحر الأبيض المتوسط من خلال الخليج العربي.

وكان لهذا الموقع أهميته في اتصال أبناء العراق بغيرهم من الأقوام الأخرى عن طريق

التجارة. فكان أن انتقل العديد من العناصر الحضارية من وإلى العراق نتيجة احتكاك العراقيين القدماء واتصالهم بالأقوام الأخرى. كما أن وقوع العراق الغني بموارده الزراعية والمائية، ولا سيَّما سهله الرسوبي الممتد بين منطقتين تفتقران لهذه الموارد الطبيعية، هما المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي، والمنطقة الصحراوية في الغرب والشمال الغربي، قد أثر في تتابع الهجرات والغزوات عليه. وكانت ردود فعل الملوك والحكام سريعة. فقد قاموا بحملاتهم العسكرية المستمرة لصد الغزو، والحد من الهجرة. ونجحوا أحيانًا، وفشلوا أحيانًا أخرى[١١٦]. فالحدود الممتدة بين بلاد ما بين النهرين والمناطق الجبلية المحاذية لنهر دجلة في الشمال الشرقي وأعالي الفرات لم تكن مستقرة أبدًا. وفي الحدود الجنوبية والجنوبية الغربية، أدت الغزوات وعمليات التسلل المتكررة إلى جلب قبائل تتكلم السامية إلى المنطقة الواقعة بين النهرين وحتى عبر نهر دجلة[١١٧].

وبذلك، تغلغلت بعض الأقوام المجاورة في العراق. وأصبحت جزءً من تركيبة سكانه. كما استوطنت جماعات أخرى في مناطق العراق الشمالية ذات الطبيعة الجبلية، منهم الجوتيون، والميديون، والحوريون وغيرهم[١١٨].

إن وقوع أرض العراق، الخصبة بين الجبال في الشمال والشرق من ناحية، وبين مواطن العشب الصحراوية في الجنوب والغرب معًا، جعلها غنيمة ثمينة للجيران. فقد اشتد الصراع من عصور لا يتصورها العقل بين القبائل الرحالة في هاتين المنطقتين الواسعتين في سبيل السيادة على تلك الأراضي الخصبة، التي تفصل بينهما. وكان ذلك الصراع، صراعًا بين الناس الرحل الذين يقطنون الصحراء القاحلة والجبال الجرداء، وبين الشعب المستقر والمثقف، الذي يعيش في وادي الرافدين[١١٩].

وفي أجزاء العراق الطبيعية، تكمن بعض المشكلات. ففي السهل الرسوبي تعاني البلاد من ظاهرة الفيضانات، وتبدل مجرى الأنهار، وملوحة التربة. وهي الظاهرة المميزة للأنهار المتعرجة، التي تجري في السهول السهلية. أما البادية، فلم تكن من الناحية الحضارية جزءً مهمًا من بلاد الرافدين. بل كانت هي وسكانها غريبة عن سكان السهل الرسوبي المتحضرين. لذلك أصبحت مصدرًا للخطر على مزارعهم ومدنهم وقوافلهم التجارية[١٢٠].

وعلى هذه الشاكلة، كان موقع العراق ومميزاته محط أنظار الشعوب الأخرى، والتي كثيرًا ما كانت تتجاوز الجبال والصحارى المجاورة له. فلقد اجتاح الإسكندر المقدوني الكبير بطموحه الإمبراطوري بلاد الرافدين وغيره من الغزاة[١٢١].

وازدادت هذه الغزوات بعد ذلك في الدول التي أسسها الآمورين والبابليين. ومنذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، وبخاصة فيما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد. حيث انتشرت القبائل الآرامية في كثير من مناطق العراق القديم. ودخلت في صراع عنيف مع الأشوريين. وانتشرت القبائل العربية منذ الألف الأول قبل الميلاد في وادي الرافدين. حيث أخذ اسم العرب يتردد في أخبار الملوك الأشوريين وحروبهم[١٢٢].

ويتأثر مناخ العراق بموقعه على حافة الصحراء العربية من جهة، وعلى الأطراف الجنوبية للمنطقة المعتدلة من جهة أخرى. لذلك يمكن تمييز فصلين واضحين فيه، هما فصل الصيف، وفصل الشتاء. أما الخريف والربيع فهما فصلان قصيران يتراوح أمد كل منهما ما بين شهر أو شهرين في جنوب العراق ووسطه. ويزداد طولهما في الشمال. ويعد فصل الصيف أطول فصول السنة. حيث يستمر حوالي خمسة شهور، والذي يصبح فيه المدى الحراري كبيرًا. وتحمل الرياح التي يتعرض لها العراق خلال هذا الموسم، في بعض الأحيان، عواصف ترابية تأتي من الصحراء، وخاصة بعد الظهر.

ويبدو أن لحرارة الصيف تأثير سلبي مباشر على الإنتاج الزراعي. إذ أن انخفاض درجة الحرارة، وسقوط الصقيع في فصل الشتاء يؤدي إلى تلف الكثير من الحاصلات الزراعية. كما أن ارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف يزيد من التبخر من الأشجار والنباتات، مما يؤدي إلى موتها. كما يؤدي تفاوت كميات الأمطار وعدم انتظام سقوطها إلى تذبذب الإنتاج الزراعي في المناطق التي تعتمد على مياه الأمطار في الزراعة[١٢٣].

ومع أن الصحراء والبوادي سببت الكثير من المتاعب والمشاكل للإنسان العراقي القديم، بيد أنها، في الوقت نفسه، لم تكن ضارة كليًا لأنها حققت له بعض المنافع المتمثلة

في نشوء أسواق تجارية على أطرافها. كما جاءت منها هجرات سامية كبيرة نجحت في لم شملهم، وتوسيع حدودهم. مثلما فعل الأكاديون والبابليون.

وإذا كانت المرتفعات الشمالية، والشمالية الشرقية قد زودتهم ببعض المواد الأولية، وخاصة الأحجار، فإنها، في الوقت نفسه، كانت مصدر قلق كبير للعراقي القديم. حيث كثيرًا ما اجتازتها هجرات رعوية كاسحة حرمتهم من الاستقرار لحقب زمنية طويلة. وحدث ذلك على امتداد تاريخ العراق القديم.

أضف إلى ذلك، ساعدت طبيعة العراق القديم على نمو ظاهرة الانفصال، وتدعيم النزعات اللامركزية. فظهرت المستوطنات الصغيرة في الأزمنة المبكرة في السهل الرسوبي الواسع. وظلت هذه المستوطنات وحدات منعزلة، كل منها محاط بشبكات المياه سواء كانت خاصة بالري أو الصرف. ويفصل هذه المستوطنات كل عن الأخرى مستنقعات المياه أو الصحراء[١٢٤]. بيد أنه نتيجة لزيادة الترسبات، وازدياد عدد السكان، وتمكّن الإنسان من التحكم في مجاري الأنهار عن طريق إنشاء شبكات للري وللصرف. كل ذلك أدى إلى تجاور هذه المستوطنات، مما أدى إلى نشوب الحروب بينها على أبسط الأسباب.

ومن الأمور البارزة أن البيئة التي نشأت فيها حضارة وادي الرافدين في السهل الجنوبي، مع امتلاكها لثروات مائية كبيرة، وحيازتها لحاصلات زراعية غنية منذ أبعد عصور التاريخ، بيد أنها فقيرة في المواد الأولية اللازمة لبناء الحضارة، كالمعادن والأخشاب والأحجار الصالحة للبناء والنحت.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أرجعنا الدوافع الأساسية التي كانت تدفع ملوك العراق وحكامه القدماء، منذ أقدم الأزمنة، على القيام بالحملات الحربية الخارجية إلى ضمان الحصول على المواد الأولية الضرورية من الخارج. ومن أجل سلامة الطرق التجارية. وذلك عن طريق اخضاع الأقوام المارة من أراضيها تلك الطرق. وإقامة الحاميات والحصون العسكرية في النقاط الاستراتيجية المهمة[١٢٥].

وبذلك ضغطت إشكالات المكان على الإنسان العراقي القديم بفعل خصوصية مناخه،

وطبيعة تضاريسه الأرضية. فضلًا عن انغلاق حدوده الطبيعية تارة، وانفتاحها تارة أخرى. أن هذه الضغوط البيئية مثلت ضغوطات سيكولوجية ولدت شيئًا من الحوافز والمنبهات للإنسان العراقي القديم[١٢٦].

إن هذه البيئة، بما تحمله أحيانًا من خاصية الهجوم على الإنسان في عقر داره، فإنها دفعته إلى التحدي، وقبول المنازلة. فخلقت لديه اشتراطات سيكولوجية قائمة على التحسب والترقب واقتراح الحلول.

وفي ضوء ذلك كله، يتبين أثر العوامل الجغرافية في نشوء الحضارة العراقية القديمة وتطورها وتميزها بطابع خاص ومميز. بيد أن ذلك لا يعني أن البيئة الجغرافية كانت تمثل العامل الأساسي في نشوء الحضارة وتطورها في العراق القديم. إذ أن الإنسان العراقي القديم تمكن من تحدي مشكلات البيئة، وتمكن من لعب الدور الأهم في وضع الأسس التي قامت عليها حضارته القديمة.

ويبدو أن دور الإنسان العراقي القديم كان أكثر تأثيرًا من غيره في المناطق الأخرى بحكم طبيعة أرض الرافدين الجغرافية، لا سيما في القسم الجنوبي، من عنف وقسوة وتباين في التضاريس والمناخ من منطقة إلى أخرى. وكان ذلك من التحديات التي واجهت الإنسان العراقي القديم، الذي واجه صعوبة في استغلال هذه البيئة وتسخيرها لخدمته، الأمر الذي دفعه إلى بذل المزيد من الجهود المضنية. لدرجة يمكن القول فيها، أن حياة الإنسان العراقي القديم مثلت صراعًا طويلًا وعنيفًا مع الطبيعة.

أن هذا الصراع حسم لصالح الإنسان العراقي القديم، الذي تفاعل مع الطبيعة لينتج للبشرية أول حضارة في التاريخ. أن دور الإنسان في التفاعل مع الطبيعة، وتنظيم حياته الاجتماعية والسياسية سيكون محور بحثنا في المحور الاتي.

المبحث الثالث

المعادل البشري للمكان العراقي

لا يمكـن أن تنهض فكرة ما بدون أن يقترن بالمعـادل البشري المؤهل لحملها، والدفاع عنهـا، وتطويرهـا. ولذلك ليس من المناسـب القول بـأن البيئة الجغرافيـة، كانت قد مثلت العامـل الوحيد الذي أفضى إلى بناء الحضارة العراقية القديمة، رغم أثرها الملموس في حياة الإنسان، وسير حضارته، وتطورها.

لقد كان الإنسـان دائم البحث عن مميزات المكان الـذي يختاره موطنًا له. ومع أن البيئة تصنع محفزات الحضارة، بيد أن الإنسـان الذي يسـتجيب لتحديات البيئة ويطوعها ويكبح جماحها يكون أقدر من غيره على بناء الحضارة. ولهذا لجأ الإنسـان العراقي القديم إلى إنشـاء السدود وشق الانهار، وتنظيم الري وبناء البيوت للتغلب على تحديات البيئة. وقد أدت هذه الاستجابة الفعالة إلى تكوين نواة الحضارة العراقية القديمة.

وفي الواقـع، أن الإنسـان، يمثِّـل العامـل الحاسـم في سـير الحضـارة والتاريـخ. إذ أن الإنسان يتفاعل مع بيئته عن طريق الوسائل التقنية التي يبتكرها من أجل ترويض الطبيعة، وتسخيرها له. ومن ثم تمكنه من استغلال إمكانياتها التي تقدمها له، أو التي يكتشفها بنفسه في تلك البيئة(١٢٧).

مـن هنا بـدأ الإنسـان العراقي القديـم بالتفاعل مـع بيئـة وادي الرافدين بـكل مميزاتها ومشاكلها، عبر الاتجاهات الآتية:

١- تهيئة البيئة التي تؤمن العيش المناسب للإنسان والمجتمع.

٢- تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من أجل إيجاد مجتمع فعال، ودولة قوية.

٣- تهيئة مستلزمات الدفاع عن النفس والمجتمع والدولة.

ويبـدو أن الخصائص الفردية للشـخصية العراقية قد سـاعدته في بنـاء حضارته المميزة

في التاريخ. إذ أن الأقوام العراقية القديمة استطاعت أن تربي أفرادها على البطولة. بحيث يمتلك أرادة التحدي لمعطيات بيئة صعبة. وفي قدرته على البناء والتناسل الحضاري، وفي مقاومة الأقوام الأخرى التي كانت تتربص به وبحضارته[١٢٨].

إن البطولة العراقية، وإن بدت أسطورية، بيد أنه كان من أبرز معانيها يكمن في أن يحقق الإنسان فيها عملًا، فهذا ينتج عنه إنجازًا متميزًا للمجتمع، لأن البطل، كما معروف، كان حاميًا للمجتمع. وساعيًا نحو تحقيق المُثل الاجتماعية الاخلاقية والجمالية التي يسعى إليها الإنسان وفق أسطورة كلكامش[١٢٩]. والبطولة عند العراقي القديم تتجسد في مواجهة الغزاة. كما أنها تتجسد في تحقيق الحلم الذي تطلع إليه سرجون الأكدي، الذي تحقق له ما أراد في غسل أقدامه في مياه البحر الأبيض المتوسط[١٣٠].

كما تميز العقل العراقي القديم بالذكاء. وقد انعكس ذلك في أفكاره وقيمه وأفعاله. لذلك أبدعت هذه الشخصية الذكية في إنتاج منظومة من المعارف والمفاهيم، والمبادئ والأفكار في شتى مجالات الحياة. فعلى الصعيد الذاتي نظمت هذه الشخصية شؤون حياتها، وحافظت على وجودها من الانقراض. وقدمت نموذجًا متميزًا للحياة يعد الأول في الوجود والتحدي. كما أوجدت منظومة من العقائد والمبادئ الدينية المشتركة[١٣١].

وكان هذا الذكاء قد ألقى بظلاله على المجال الفكري والأدبي والفني[١٣٢]. حيث كانت منظومة النصوص الأدبية من ملاحم وأساطير، وتراتيل وأمثال، تمثل درسًا إنسانيًا متميزًا[١٣٣]. يعبر عن مستوى الذكاء الذي تميز به العقل العراقي القديم. أن براعة الذكاء العراقي قد انعكست في الإبداع الذي رفد العالم فكرًا، وفلسفة، وأدبًا، وعلمًا قل نظيره[١٣٤].

ومع أن الله كان سخيًا مع بلاد الرافدين من القدم. إذ منحها سهولًا واسعة منبسطة خصبة، ومياها وفيرة، ومناخًا معتدلًا جذابًا، بيد أن الطبيعة كان سخاؤها أحيانًا محدودًا. لذلك تطلب الأمر العمل الجدي القائم على أعمال الفكر والعقل للتغلب على معوقات المكان. وبهذا العمل الفكري، والعقلي، والجسدي تَمَكَّن الإنسان العراقي من إنشاء الحضارة العراقية القديمة، وساهم في تطورها.

المطلب الأول
تهيئة البيئة العراقية

مثل اهتداء الإنسان العراقي القديم للزراعة، في حدود الألف التاسع قبل الميلاد، ثورة اقتصادية قام بها الإنسان. حيث انتقل بواسطتها من حياة جمع القوت إلى حياة إنتاج القوت.

وكانت الزراعة، في بداية مراحلها، بسيطة وشبه متنقلة، لأنها كانت تعتمد على خصوبة التربة. ومتى ما اختفت خصوبة الأرض انتقل إلى غيرها. وكان الاعتماد البدائي على مياه الأمطار فحسب. كما كانت الزراعة محدودة ومخصصة للاكتفاء الذاتي. واستخدمت فيها آلات وأدوات زراعية بسيطة مصنوعة من الحجر تارة، ومن الخشب والعظم تارة أخرى. وبعد أن استقر الإنسان في القسم الجنوبي من العراق، بدأ يتعلم وسائل الري الاصطناعية. ووسع من أراضيه الزراعية. حيث أصبح ينتج أكثر من حاجته الذاتية. فبدأ بمقايضته مع أخيه الإنسان. وهكذا بدأت بوادر التجارة، وطلائع التخصص في العمل[١٣٥].

عليه يمكن القول، أن الري والسيطرة على الأنهار كان العامل الحاسم الذي تفاعل مع جهود الإنسان ليتمكن من إنتاج أولى الحضارات البشرية في التاريخ.

ولعله من البديهي القول، أن وجود الثروة المائية الهائلة في وادي الرافدين لم يؤد إلى نشوء الحضارة تلقائيًا، إنما كانت للجهود البشرية الشاقة في ترويض البيئة وتهيئتها للإفادة من إمكانياتها الأثر الحاسم في ولادة الحضارة الأولى في التاريخ على أرض وادي الرافدين.

ويمكن القول أيضًا، أن نتيجة جهود أولئك الرواد الذين استوطنوا السهل الرسوبي في الألف الخامس قبل الميلاد، قد ظهرت بتحويل بيئة وحشية من الأهوار والأحراش أو البادية الجرداء إلى بيئة معطاء أدرت الخير والبركة[١٣٦].

وقد ذاعت شهرة هذه البيئة بحيث ترددت كثيرًا لدى الأمم والأقوام القديمة. بل أن العهد القديم احتسبها جنة عدن. وجعلت النهرين من بين الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة[١٣٧].

وإذا كان ماء الرافدين، يجري على وجه غير مطرد، إذ يفاجئ الزارع، ويضره أضرارًا بليغة، لأنه لا يأتي بمواسم معلومة ومحددة. والفراتان يجريان، كما أسلفنا، بين جبال من الرمال مفتوحي الواديين لغزوات البدو المنتشرين في غربيهما، ولغزوات أهالي الجبال المنتشرين في الجبال القائمة في شماليهما وشرقيهما. لذلك لم ترتق هذه البلاد إلاَّ بعد أن تمكَّن أهلها من كبح جماح الطبيعة.

مع ذلك كله، لوحظ أن أهالي هذا البلد قد خطو خطوة في الحضارة نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، عندما حفروا أنهرًا عديدة[١٣٨].

وتشغل أخبار شق الجداول والأنهار مكانًا بارزًا في كتابات الملوك والحكام منذ نشوء نظام الحكم في العراق القديم وبداية التدوين في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وكثيرًا ما اتُّخِذ حفر نهر جديد أو كريه وتطهيره واقعة يؤَّرَخ منها في نظام التاريخ بالحوادث المشهورة المتبع في حضارة وادي الرافدين. والواقع أن عدد الأنهار والجداول التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية يؤلف عددًا كبيرًا يعتد به. وبالإضافة إلى إقامة مشاريع الري، تدلنا النصوص المسمارية أيضًا على انجاز مشاريع أخرى لنظام الري مثل إقامة السدود وخزانات المياه لخزن الماء إبان الفيضانات والإفادة منها أوقات الشحة.

والمرجح، كثيرًا أنهم أفادوا من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من ضفاف الفرات الغربية في منطقة الرمادي لخزن المياه فيها، مثل منخفض الحبانية أو هور أبو دبس، ومنخفض عقرقوف[١٣٩].

وكان الإنسان إذا خرج من أي بلدة في العراق القديم، فإنه يرى طرقًا واسعة والأشجار عن اليمين واليسار. والطرق تنحدر انحدارًا وئيدًا لا يُشعر به تفضي به إلى المزارع والغابات، أو بساتين النخيل التي تزكو من سقي الفراتين أو من ماء الأنهر الأخرى. وإذا التفت إلى حيثما أراد كان يرى الترع والجداول في كل جانب. وقد شقت لتسقي تلك الأراضي التي أصبحت كلها جنات بفضل تلك المياه. ولا جرم أن الترع أو الأنهار لم تُشق في وقتٍ واحد، إنما هي عمل أجيال متعددة تتابعت على وجه تلك البقعة الأرضية. وفي بعض المواطن كانت

مستنقعات عديدة ومجار لكي لا تبقى في موطنها وتفسد الهواء. فانتفعوا بها بعد أن حولوها إلى سواقي وجداول. وزرعوا ما جزر عن أرضها الماء. فجاءت مزارع زكية وبساتين بهية.

وكان من أهم منجزات أي حاكم من حكام العراق القدماء، ومن أعظم مفاخرهم أن يحفر أحدهم ما اندفن من الترع والأنهار أو أن يشق أنهارًا جديدة[١٤٠].

ولتنظيم الحياة الزراعية، ووضع الضوابط والأحكام لتحديد علاقة المزارعين والملاك، خصصت القوانين عددًا كبيرًا من موادها القانونية لهذا الغرض. فنظمت أسلوب المشاركة، وإقامة العلاقات الزراعية سواء أكانت الأرض بورًا أو صالحة للزراعة.

ويبدو من دراسة تلك القوانين، أن الأساليب والنسب التي كانت تُعطى للفلاح وللملاك لا تختلف كثيرًا عما هو عليه الآن[١٤١]. إذ يلاحظ أن (قانون حمورابي) كان قد أكد على مبدأ قانوني لازال ساري المفعول في القوانين الحديثة. ويطلق عليه الفقهاء بالقوة القاهرة أو مبدأ الحوادث الطارئة. وفحواه أن الملتزم لا يُعْفَى من التزامه إلاَّ إذا أصبح تنفيذ هذا الالتزام مستحيلًا بقوة قاهرة ولا دخل للملتزم فيها.

فاذا كان على رجل دَيْن وخرب الفيضان حقله، ولم يستطع إيفاء دَيْنه بسبب هذا الفيضان، فلا يحق للدائن مطالبته بالدَيْن (فسوف يُعْفَى ذلك الشخص في تلك السنة من تسليم الحبوب إلى صاحب دَيْن عليه. وسوف يغير عقده ولن يدفع فائض تلك السنة)[١٤٢].

وبما أن جنوب بلاد الرافدين كان يفتقر إلى المواد الخام، حيث لم تكن فيه مقالع الحجارة متوافرة، ولا خامات المعادن، ولا أخشاب سوى النخيل والحور والصفصاف. وليس فيه ما يصلح لبناء المباني الضخمة. لذلك كان لابد من الحصول على كل ما تحتاجه الحياة المتقدمة تقنيًا عن طريق التجارة. وقد وردت الكثير من الملاحم التي تتطرق إلى ذكر التجارة خلال النصف الأول من الألفية الثالثة قبل الميلاد. إذ تتحدث (أنمر كار، وسيد أرتا) عن قوافل الحمير التي أُرْسِلَتْ مُحَملة بالذرة عبر جبال زاجروس الى(أرتا) في إيران لتبادلها بالأحجار شبه الكريمة. وجعلت ملحمة جلجامش بطلها يخوض رحلة خطرة لاقتلاع الأخشاب في غابة الجبال، التي لا بد أنها كانت في زاجروس. وفي النصف الأول من الألفية الثالثة قبل

الميلاد لابد أنه كانت علاقات تجارية في مناطق نائية مثل شمال افغانستان، التي كانت أقرب مصدر إلى حجر اللازورد، الذي استعمل قدرًا منه لعمل الأختام الأسطوانية والفن الديني في جنوب بلاد الرافدين.

وقد عُثِرَ أيضًا على كميات كبيرة من حجر اللازورد لم تصنع بعد، وبعضها مواد مصنعة في ايبلا في شمال سوريا. بالإضافة إلى العقيق الذي جاء من الهند. وهناك دليلًا آخرًا على وجود التجارة مع الأصقاع البعيدة من الانتشار الواسع في منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد للسبائك البرونزية المصنوعة من القصدير والنحاس، ما دام المصدر المتاح الوحيد للقصدير كان أفغانستان. وربما جاء النحاس من عمان. وكان سرجون الأكدي يتاجر عن طريق البحر في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد[١٤٣].

وكان من نتائج الاهتمام المتزايد بالتجارة أن أُبتدعت الوسائل الكفيلة لتنشيط التجارة كالعجلة والسفينة. فضلًا عن استخدام الموازين والمكاييل، واستخدام الحبوب والمعادن كوسيلة لتقيين أثمان السلع والأجور[١٤٤].

أضف إلى ذلك، واجه العراقي القديم التحدي البيئي المتمثل في ارتفاع درجات الحرارة وتباينها، عن طريق توجه العراقيين القدماء إلى البناء الذي يعتمد على (اللبن المستوي المعمول في قالب بأربع جوانب، والمُجفَف بالشمس). ووجدت في تل حسونة الواقع جنوب الموصل مخازن للحبوب على هيئة أحواض أو جدار كبيرة من الفخار. وتطور السكن في تلك الحقبة من سكن الخيام إلى سكن بيوت الطين. ثم بدأت عملية تشكيل القرى في (جرمو)، التي قدرت بيوتها ما بين ٢٥ إلى ٣٠ بيتًا. وتشير سعة القرية التي كُشف عن بقاياها قرب الموصل إلى تقدم القرى الفلاحية من ناحية الاتساع والتنظيم وأساليب البناء. وأصبح البعض منها أقرب ما يكون إلى المدن الصغيرة. حيث تقدم فيها بناء بيوت السكن وترتيبها وتنظيمها في طرقات[١٤٥].

ويبدو أن ذلك، كان من العوامل الحاسمة في بقاء الكثير من أثاره وحضارته؛ لأنها لو كانت من الأجر الطبيعي لما بقي من مدن القدماء إلاَّ القليل، ولم يتبق منها شيئًا يذكر؛

لأن الشعوب التي جاءت بعدهم كانت ستهد أطلال هذه المدن. وتصبح الأطلال مصدرًا تستمد منه الحجارة [١٤٦].

وبذلك، تأسست المدن في وادي الرافدين، والتي بنيت بالطابوق. وأصبح في كل مدينة حاكم يحكمها، وإله يُعْبَد فيها. ويجمع الكل حاكم عام تمتد سلطته على البلاد كلها أحيانًا. وأشهر المدن التي بنيت آنذاك في العراق القديم مدينة (نبور)، و(كيش)، و(لكش)، و(اوروك)، و(اور)، و(اريدو)، وغيرها[١٤٧].

المطلب الثاني
تنظيم الحياة الاجتماعية

اتخذت إجراءات الإنسان العراقي القديم مسارات متعددة كلها تصب في مسعاه نحو تنظيم الحياة الاجتماعية بشكل أو بآخر. ولعل أهم تلك الابتكارات هي:

١ – اختراع الكتابة والتدوين

كان الكلام لغة الإنسان الأولى. ومن المعروف أن اللغة يمكن احتسابها إحدى المظاهر الإنسانية، التي بدأت في أقدم صورها بفعل غير منظم، وبعيد عن الوضوح. وقد مارسها الإنسان القديم منذ نشأته بشكل تدريجي، ومارس استعمالها قبل تدوينها بمدة زمنية طويلة. وبواسطة اللغة استطاع الإنسان أن ينقل للآخرين المعاني التي تدور في مخيلته. فهي أصوات ينطقها المرء بعد أن يشترك في إخراجها عدة عناصر كالمخ، والحنجرة، واللسان، والفم. ويساهم الجهاز العصبي في التحكم بها[١٤٨].

وكانت اللغة بداية الحياة الإنسانية؛ لأنها أضفت الطابع الإنساني على الإنسان. واستطاع الفكر أن يدرك الأنواع باحتسابها متميزة عن الأشياء الجزئية. ولولاها لانحصر الفكر في الأشياء الجزئية أو الخبرات الجزئية[١٤٩].

وقد مثل فن الكتابة الترجمة الأولى لفكر الإنسان بما يحتويه من معرفة وخبرات متراكمة. وكان العراقيون القدماء من أوائل مَنْ توصل إلى فن الكتابة، التي اعتمدت على تراكم الخبرات.

ومما لا شـك فيه، أن عوامل ظهور فن الكتابة تتطلب ظروفًا مناسبة تساعدها وتحفزها على الظهور. ولعل الحاجة كانت أهم تلك المحفزات.

مـن البديهـي القول، أن الطعام كان من أول ضروريات الحيـاة، وهو لا يكثر إلاَّ حيث تتدفق المياه العذبة. فاذا كثر في بلاد ما احتاج أصحابه إلى ارسال ما زاد، أو يزيد عن حاجتهم إلى الديار التي تحتاج إليه، ليعتاضوا عنه بما يرغبون في ما لا يوجد عندهم منه. وهذا ما دفع الإنسـان العراقي القديم إلى اختراع وسـيلة يتراسـلون بها، ويتفاهمون ويتكاتبون، ولا سيما لتدويـن مـا يهم الوقوف عليـه من الأحداث والأمـور المهمة التي تفيد الخلـف إذا حفظت ودونـت. فكانت هذه الحاجة علة اختراع الكتابة والتدوين في بلاد الرافدين[١٥٠]. والكتابة أصبحت أقوى أساس للعمران، وأصدق وسيلة لرقي الحضارة، وتنظيم الحياة.

أضف إلى ذلك، كان ظهور الكتابة في بلاد سومر، يرجع أيضًا إلى الحاجة الملحة لوجود وسيلة لحفظ سجلات لواردات المعبد المتزايدة، ولمدخولات دويلات المدن السومرية، التي أصبح اقتصادها في نمو متصاعد[١٥١].

ومثلما كانت عملية انتقال التجمعات السكانية في شمال العراق من مرحلة جمع القوت إلى إنتاجـه، عمليـة تطوريـة كبـيرة. فإن عمليـة انتقال تلـك التجمعات السـكانية إلى المدن والتصنيع الزراعي مهدت بشكل مباشر إلى اختراع الكتابة والتدوين باحتسابهما هزة حيوية حركت كوامن القوى الحضارية لدى سكان وادي الرافدين.

فضـلًا عن ذلـك، كانت الكتابـة بمثابة الأداة الأساسـية لتطور نظم الحكـم والإدارة، وتوسع المعارف والأفكار.

وبذلك يمكن القول، أن اختراع الكتابة، مثل الأساس لتفوق حضارة وادي الرافدين على جميع البلدان الأخرى.

ويعـد اخـتراع الكتابـة في حدود الألـف الثالث قبل الميـلاد، بداية لما يُعْـرَف بالعصور التاريخية. حيث ابتدأ الإنسان، وبالتدريج، باستخدام الكتابة لتدوين شؤون حياته اليومية، وجوانب من تاريخه. في حين لم تكن تتوفر لديه مثل هذه الوسيلة في عصور ما قبل التاريخ.

ولعل من أهم المعلومات المتوفرة عن هذه الحقبة الزمنية تكمن في الكتابات التي تركها أمراء هذه السلالات الحاكمة. إضافة إلى جداول إثبات الملوك السومريين. فضلًا عن عدد من النصوص الأدبية التي تتحدث عن مآثر بعض ملوك وأمراء ذلك العصر[١٥٢].

إن تاريخ اكتشاف هذه الكتابة، يشير إلى أنها بدأت كتابة صورية رمزية متواضعة وجدت من أجل تدوين حسابات المعبد. بيد أنه ازدادت وضوحًا في تدوين اللغة السومرية المسمارية في ألواح الطين المكتشفة في مواضع قديمة تعود إلى عصر فجر السلالات (٢٨٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م). وقد تطورت الكتابة بعد ذلك من الكتابة الصورية إلى الكتابة الرمزية حتى صارت هذه الكتابة من الأدوات الثقافية المهمة في بلاد الرافدين[١٥٣].

وقد تعرضت الكتابة، ما بين دور اوروك ونهاية حقبة فجر السلالات، لتغيرات كبيرة. فقد تغير شكلها، واكتسبت مزيدًا من التعقيد. وصارت تُسْتَعمل لأغراض أخرى غير السجلات الاقتصادية والإدارية والدينية التي ابْتُكِرَتْ من أجلها. وقد تبنتها لغات أخرى غير سومرية.

ولنبدأ أولًا بالشكل الذي تغير. حيث كان في دور اوروك عبارة عن علامات كثيرة. بيد أنه خلال حقبة فجر السلالات، تطورت ممارسة ختم العلامات بقصبة مثلثة بدلًا من نقشها على الطين. وقد أفضى هذا إلى أن تتحول الأشكال الصورية تحولًا كاملًا لتحل محلها علامات تتكون من مسامير مطبوعة على اللوح.

فضلًا عن ذلك، فقد تغير اتجاه الكتابة. ففي الأشكال الأولى كان اتجاه الكتابة الغالب هو أن تنتظم في أعمدة تمتد من الأعلى إلى الأسفل، بدءً من الجانب الأيمن من اللوح. لكن الممارسة سرعان ما تطورت لقلب اللوح بزاوية تسعين درجة إلى اليسار. وهكذا صارت تُكتب العلامات في سطور أفقية تبدأ من اليسار. وتستقر على ظهورها قياسًا بشكلها الأصلي[١٥٤].

وحين صار نظام الكتابة يتمتع بمرونة أكبر، لم يعد يقتصر على السجلات الاقتصادية والإدارية لدى الطبقة الارستقراطية من ناحية، وعلى تعليم الكَتَبَة من ناحية أخرى. فصار

يستخدم، من بين ما يستخدم فيه، لنقل المعلومات من مسافات بعيدة، أو لحفظ المواد للذرية. ودونت (ملحمة انمر كار وسيد أرتا السومرية) ما افترض مؤلفها أنه أول حالة من حالات استعمال الكتابة للأغراض الدبلوماسية. وقد حدث ذلك، حين كان حاكم من إيران يتفاوض، من خلال رسول، مع حاكم أوروك، ولأن رسالته كانت معقدة جدًا، فقد دونها كتابة. ثم صارت الكتابة تستخدم لتدوين الملاحم والأساطير والتراتيل والأدب[١٥٥].

وفي ضوء ذلك، يتبين أن اختراع الكتابة في بلاد الرافدين، كان قد مثَّل أهم خطوات تنظيم الحياة في تلك البلاد. إذ لولا اختراع الكتابة والتدوين لما نجحت الخطوات الأخرى التي ساهمت بتنظيم الحياة الاجتماعية في بلاد الرافدين.

٢- سن القوانين

إن أهمية القانون تكمن في كونه يمثل قواعد تحكم سلوك الفرد في الجماعة. ويمثل ضرورة اجتماعية تدل على انضباط الفرد إزاء المجتمع في كل ما يتعلق بحقوقه وواجباته. فالفرد لا يمكن أن يعيش بمعزل عن الجماعة لأنه اجتماعي بطبعه. وفي حال انخراط الفرد بالجماعة تظهر العديد من العلاقات المتشابكة بحكم تفاعل الفرد مع بقية أفراد المجتمع.

ومن البديهي القول، أنه حيثما وُجدت هذه العلاقات، وُجِد التنافس والصراع حول التملك والاستئثار والمصالح بحكم النوازع الإنسانية الفطرية. ومن هنا تبدأ تتحكم بعلاقات الفرد مع الجماعة نزعات التعاون والتنافس في الوقت نفسه. لذلك يصبح سن القوانين ضرورة ملحة لتنظيم العلاقة بين الأفراد والجماعة من أجل تنظيم المجتمع وإخراجه من حالة الفوضى والاحتكام إلى الغرائز.

وفي الأحوال كلها يهدف القانون، في العادة، إلى ما يأتي:

١- فرض الأمن والنظام في المجتمع.

٢- تحقيق العدالة الاجتماعية ولو بشكل نسبي.

٣- العمل على ارتقاء المجتمع وتقدمه

وفي ضوء ذلك، يحقق القانون الانضباط، وينظم أفعال الأشخاص. ويحمي الفرد وحرياته وممتلكاته. ويحل النزاعات التي تحدث بين أفراد المجتمع وفق ضوابط قانونية موضوعة مسبقًا. ولا تظهر قيمة القوانين في المجتمع إلاَّ عندما تحدث الفوضى، ويعاني المجتمع من اضطرابات واضحة للعيان دون وجود محاكم تبت بالقضايا قيد التنازع. وربما يسعى إلى الحصول عليها حتى إذا اقتضى الحال التفريط بجزء من حريته لصالح الحكم الاستبدادي.

وقد اشتهرت بلاد الرافدين بما عثر عليه من قوانين سنها الإنسان العراقي القديم، والتي تعد أنها أولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد وأصول معينة. والواقع أنها بلغت من الكمال حدًا يدفع إلى القول، بأنها ثمرة جهد وتفكير يستحقان الإعجاب والتقدير.

وعلى أي حال، فقد كانت النظرة القانونية لأهل الرافدين علامة ثابتة ومميزة لمنحاهم في التفكير خلفت طابعها على جميع صور حياتهم الاجتماعية. فثمة ميل طبيعي إلى التمييز والتقنين يكمن وراء النظام التشريعي الضخم الذي نهضت به الحضارة البابلية والأشورية. ومصادر ذلك التراث لا يأتي فقط من الشرائع المدونة، بل أيضًا من مئات الألوف من العقود والمستندات والوثائق القانونية، التي تشير إلى أن كافة المعاملات كانت تجري على أساس قانوني[١٥٦]. وكانت معاملاتهم تجري على أحسن وجه. وتُكتب لأحكام أمورهم الوثائق والسندات. وكانت تُختم بالخاتم على معجون الطين، ثم تُشوى في النار لتُحفظ من أي ضرر. وكانت فائدة توقيع هذه الخواتم بمنزلة توقيع الأسماء أو الإمضاءات في الوقت الحاضر [١٥٧].

ويبدو أن اهتمام أهل العراق بالإنسان، دفعهم إلى العناية في تثبيت البيئة التي تُؤمن العيش السليم. لذلك حرصوا على تطبيق النظم التي تُؤمن ذلك. وكانوا روادًا في تدوين هذه النظم، وفي إسباغ صفات الشرعية والقدسية عليها. ومن هنا، دونت عندهم أقدم الشرائع ومجموعات القوانين التي تنظم المجتمع ومعاملات الأفراد. والأهم أن أهل العراق هم أول من احتسب هذه القواعد في المعاملات والحياة الاجتماعية قواعد مقدسة يرتكب من يخالفها جريمة مزدوجة ضد المجتمع وضد المعبود [١٥٨].

ومن أوائل التشريعات القانونية كانت تشريعات (اوركاجيتا) أحد ملوك أسرة لكش

(٢٥٢٠ – ٢٣٧١ ق.م)، والـذي يمكـن أن نحتسـبه مـن أوائل المشرعـين في تاريخ البشر حيث وردت فيه بعض الإشارات من عصر فجر السلالات[١٥٩].

وفي عام ١٩٥٢م، تمكن عالم السـومريات (صمويل نوح كريمر) من التعرف على لوح مسـماري محفوظ في متحف الشرق القديم في تركيا يحتوي على أجزاء من قوانين تنسـب إلى الملـك (اور – نمو) مؤسـس أسرة اور الثالثـة (٢١١٢ – ٢٠٩٥ ق.م)، والتي أطلق عليها (قانون اور – نمو)، والذي يتكون من ٣١ مادة قانونية [١٦٠].

كما عثرت البعثة العراقية للآثار في منطقة (تل حرمل) في بغداد على آلاف الرقم الطينية. وكان قسـم منها يتعلق بقانون (مملكة اشـنونا) المكون من ١٢ مادة قانونية، والذي يُنْسَـب إلى أحد ملوك (مملكة اشنونا)، والمنسوب إلى أحد ملوكها وهو الملك (بلالاما)[١٦١].

ويُحتسـب قانون حمورابي (١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق.م) الاكتشاف الأكبر في ذميدان القانون القديم. وقد عثرت عليه البعثة الفرنسية للآثار عامي ١٩٠١ – ١٩٠٢م، ونقلته إلى متحف اللوفر في باريس[١٦٢].

وقـد اسـتند قانـون حمـورابي على مجموعـة من الأفـكار والمبـادئ التي مثلـت خلاصة التجربـة القانونية للعراقيين القدماء. كما أن هذه المبادئ عبرت عن مرحلة تطويرية في البناء الاجتماعي والاقتصادي للعراق القديم.

ورغم أن بعض الباحثين، ذهب إلى القول، أن مواد قانون حمورابي لم تكن مطبقة جميعها، إنـما كان وجودهـا في القانون كسـياق عرضي مع بقية المواد القانونيـة [١٦٣]، بيد أنها عبرت، إلى حد ما، عن الطموحات التي كانت تتفاعل في وجدان المجتمع وفي ذهن قائده حمورابي، الذي كان يطمح إلى مشاهدتها على أرض الواقع من خلال تثبيتها في القانون.

وقد تضمن قانون حمورابي جوانب مختلفة، ساهمت في تنظيم الحياة الاجتماعية في العراق القديم. ممكن أن نسردها بالشكل الآتي:[١٦٤]

١ – تنـاول القانون قضية الاتهام الكاذب، الذي تكون عقوبته الموت إذا لم يقدم المدعي الدليل الكافي.

٢- أخذ القانون بمبدأ استقرار القرارات القضائية. ونص على معاقبة القاضي الذي يحاول تغيير حكم سبق له أن أصدره نتيجة وقوعه تحت تأثير معين. وتصل العقوبة لدرجة الطرد من مجلس القضاة.

٣- تبرز في قانون حمورابي ظاهرة اجتماعية مهمة تتمثل في التمييز بين ثلاث فئات اجتماعية.

٤- أخذ قانون حمورابي بمبدأ القصاص لأول مرة في تاريخ القوانين الوضعية المدونة.

٥- ومن السمات البارزة لقانون حمورابي التأكيد على مبدأ قانوني لازال ساري المفعول في القوانين الحديثة. ويطلق عليه فقهاء القانون (القوة القاهرة). وفحواه أن الملتزم لا يعفى من التزامه إلاَّ إذا أصبح تنفيذ هذا الالتزام مستحيلًا بقوة قاهرة ولا دخل للملتزم به.

٦- ومن المبادئ البارزة في قانون حمورابي تأكيده على وجوب شرعية المعاملات التجارية، كالبيع، والشراء، والمداينة، والرهن، والإيجار، وغيرها من المعاملات التجارية المختلفة. وذلك عن طريق إبرام عقد قانوني تحرر فيه أسماء الأطراف المتعاقدة وبحضور عدد من الشهود. ويحدد فيه الحقوق والواجبات والالتزامات لطرفي العقد.

٧- وشدد قانون حمورابي على عقوبة السرقة في الظروف الاستثنائية.

٨- وحدد قانون حمورابي أجرة بعض الحرفيين. كما حدد أجرة الآلات الزراعية وأجرة الحيوانات التي يستفاد منها في الزراعة أو للعمل أو للنقل للحد من استغلال أصحابها.

٩- وتطرق قانون حمورابي إلى أعمال بعض الحرفيين وبخاصة الأطباء والبنائين. وحملهم مسؤولية تقصيرهم إلى حد تطبيق مبدأ القصاص بهم.

١٠- ونظم قانون حمورابي قضايا الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث.

ويبـدو من خلال تلك المعالجـات القانونية، أن قانون حمورابي كان قد مثل ثورة قانونية أسـهمت، إلى حد كبير، في تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية، رغم ما بها من نواقص أو هفوات. وهذا مثل دلالة راجحة على أن المعادل البشري العراقي كان قد لعب دورًا أساسيًا في نشوء أول حضارة في التاريخ.

٤- ابتكار المعرفة

تُعْـرَف المعرفة على أنها الإدراك، وفهم الحقائق من خلال التفكير المجرد، أو من خلال اكتسـاب المعلومة عـبر التجارب أو الخبرات، أو التأمل في مكنونـات الأمور، أو التأقلم في الذات، أو الاطلاع على تجربة الآخر وقراءة اسـتنتاجاته. وترتبط المعرفة بالبديهة، وكشـف المجهول، والتطورات التقنية.

وتسـتخدم المعرفـة في الدلالة عـلى الأمر الذي تـدرك أثاره لا ذاتـه. كأن يقال: عرفت الله. ويـرى أكثـر الباحثين أن أصـل المعرفة يحصل ضروريًـا وفطريًا. ويمكـن أن يحتاج إلى الاستدلال والتمعن به. بينما يرى بعضهم أنها مكتسبة. والمعرفة على ثلاثة أنواع هي: المعرفة الحسية، والمعرفة الفلسفية، والمعرفة العلمية[١٦٥].

وتعد خاصية الاكتشاف من أبرز سمات المعرفة، كونها الطريقة التي يتعرف فيها الإنسان إلى البيئة. والتي يحاول تفسيرها باستخدام الوسائل المتاحة، وما توفر لديه من إدراك وتفكير وذكاء وتساؤل تمكنه من تطوير خاصية الاكتشاف. وترجع عملية إنتاج المعرفة والاكتشاف إلى عنصر الإبداع في الإنسان.

وحـين نبحـث عن مسـوغات خاصيـة المعرفـة والاكتشـاف في الحضـارة العراقية القديمة، فيمكن تلمس أنها ترجع إلى شـيوع روح الشـك والملاحظة التي كانت مدعاة للاكتشاف.

لقد كانت خاصية المعرفة وظاهرة الاكتشاف قد مثلت محاولة جادة من الإنسان العراقي القديـم، لتشـكيل نواة حضارية تشـكلت عناصرها المدنية من مؤسسـات اجتماعية مختلفة. فضـلًا عن مجموعة مـن الطقوس الدينية والاتجاهات العقلية والعاطفية، والمنجز الفلسـفي

والأسطوري والأدبي، الذي عبر عن ذهنية متقدة عبرت بجدية عن إنسان كان يتخذ من التأويل محورًا أساسيًا لنشاطه[١٦٦].

وفي ضوء ذلك، حقق الإنسان العراقي القديم السبق في الاستيطان، الذي أكدته الكثير من المخلفات الآثارية في شمال العراق، والتي أثبتت سكن الإنسان العراقي القديم في القرى منذ ما يقرب من ربع مليون سنة. وسبق البشرية في إنتاج القوت بدلًا من جمعه. ثم نجح في إنشاء أولى القرى في التاريخ، والتي تميزت ببساطة أكواخها ومحدودية عددها.

ثم تطور هذا الاستيطان إلى شيء من الاستقرار والاستيطان منذ (٤٥٠٠ – ٤٠٠ ق.م) في شمال العراق ووسطه. وكان هذا الاستيطان نواة لنشوء عدد كبير من المراكز الحضارية المدنية، والتي أصبحت أساسًا لنشوء الدولة المركزية. وأبرز هذه المدن كانت كيش، واوروك، واريدو، والتي مثل اكتشافها دليلًا على معرفة الإنسان العراقي القديم لبناء البيت والمعبد والقصر. إذ أنه في سنة ١٩٤٨ افتتح (فؤاد سفر وس. لويد) الموسم الأول لحفريات مديرية الآثار العراقية في اريدو (وتُسَمى الآن أبو شهرين)، والتي احتسبها السومريون أقدم مدينة في العالم. وقد استفاض (سيتون لويد) في الحديث عن البيوت والقصور والمعابد في العراق القديم[١٦٧].

كما أن العراقي القديم توصل إلى نواة العقائد الدينية، التي اقتضت عبادة الآلهة المختلفة، والقيام بالطقوس الدينية المتباينة، ووضع تصورات حول أصول العالم، وخلق الكائنات وما شابه ذلك. وكلها ساهمت بتحريك العقل العراقي القديم للاقتراب لاحقًا من الوصول إلى الحقائق الدينية. فضلًا عن أنها ملأت فراغًا روحيًا كان الإنسان في حاجة ماسة إليه[١٦٨].

كما أُنْشِأَت أولى المؤسسات التعليمية في وادي الرافدين في عصر فجر السلالات السومرية (٢٨٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م)، والتي تعد من أقدم المؤسسات التعليمية في تاريخ الحضارات القديمة. وكانت المدرسة تسمى (أي – دبا) أي (بيت الألواح). ومن الجدير بالذكر، أن البابليين وضعوا معاجم لغوية تُعَد من أقدم المعاجم الحضارية. وكانت تضم جداولًا بالعلامات المسمارية ومعانيها بالسومرية والأكدية[١٦٩].

كما تشير المعلومات التاريخية إلى معرفة العراقيين القدماء بالجغرافية. إذ قدمت الحضارة العراقية جداول مطولة بأسماء المدن والأنهار والبلدان. ولعل أفضل برهان على ذلك، وجود أقدم خارطة معروفة في العالم وهي خارطة (مدينة نفر)، التي يرجع عهدها إلى ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد.

ويتفق الكثير من الباحثين على أن العراقيين القدماء قاموا بوضع الأسس لعدد كبير من العلوم منذ الألف الثاني قبل الميلاد. مثل الكيمياء، والتقويم، والهندسة، والجبر، والطب[١٧٠].

ويبدو أن المعرفة بطبيعة علم الطب في بلاد الرافدين، استندت على نصوص طبية مؤلفة، مكونة من كتيبات مختصرة ومجاميع وصفات طبية أُلْحِقَتْ برسائل وإشارات جاء ذكرها في شرائع قانونية، مع توريات وردت في نصوص أدبية. حيث تُظْهِر النصوص الطبية حكمة الطبيب، بينما تُصَوِّر التوريات علاقته بالمريض، ومكانة الطبيب الاجتماعية. وقد ثبت ذلك من خلال عدد من ألواح طينية جاءت من مجاميع الألواح التي عُثِر عليها في مدينة آشور وفي مدينة نينوى[١٧١].

أما علم الرياضيات والفلك، فقد ذُكِرَ على شكل مصطلحات عامة. وهذا ما فعله (اشور بانيبال) في أحد نصوصه. حيث ذكر فيه أنه تعلم كيفية إيجاد (المشتركات المعقدة والنتائج الحسابية)[١٧٢].

أضف إلى ذلك، ابتكر الإنسان العراقي القديم المزيد من الفنون التي كان يحتاجها مثل الآنية الفخارية، والمنحوتات، والرسوم الجدارية، والاختام الأسطوانية والعاجيات، والتماثيل، والمسلات[١٧٣]. والموسيقى وفن العمارة، والأدب وغيرها[١٧٤].

لقد فتح آفاق المعرفة العراقية ليتجاوز تأثيرها بلاد الرافدين، ليصل إلى البلدان الأخرى التي انبهرت بالمنجزات المعرفية في العراق القديم. فضلًا عن أنها ساهمت بتهيئة البيئة العراقية للانطلاق نحو بناء أول حضارة في التاريخ.

عليه، نخلص إلى القول، أن المعادل البشري العراقي قد هيأ الحياة الاجتماعية ونظمها بشكل ملفت للنظر عن طريق ابتكار الكتابة والتدوين، وسن القوانين، وابتكار المعرفة.

المطلب الثالث
تهيئة مستلزمات الدفاع

يبدو أن موقع العراق القديم وثرواته الهائلة، والثغرات التي لازمت موقعه، كانت مدعاة لولادة أخطار خارجية كانت تتعرض لها البلاد. من هنا ولدت الحاجة الملحة لتهيئة مستلزمات الأمن والدفاع عن البلاد.

لذلك احتسب الإنسان العراقي القديم، أن الجيش يعد من أهم نظم المجتمع في البلاد، لكونه المدافع عن الأرض والإنسان والحضارة. حيث بدأت الجيوش النظامية في بلاد سومر في أواخر عصر فجر السلالات منذ أيام الأكديين. إذ اقتضت الحروب الخارجية ضرورة وجود جيش منظم. ومن هنا كانت الخدمة العسكرية تحتسب (خدمة الملك). وتوضح المادة الآثارية، التي عثر عليها كيفية تكوين تلك الجيوش ومعداتها. ومن هذه الأدلة الآثارية (لوحة العقبان)، التي أقامها الملك (ايانا توم) في لكش[١٧٥].

ويبدو أن تنامي النزعة العسكرية لدى الشخصية العراقية كان صفة مميزة للحضارة العراقية القديمة. ولعل أهم أسباب نمو هذه النزعة راجع إلى ما يأتي:

١- تنامي الصراع والتنافس ما بين الدولة المركزية وطموحاتها التوحيدية من جهة، ورغبة بعض الحكام المحليين في الانفصال.

٢- تنامي تطلعات الأقوام المجاورة للسيطرة على العراق. أن هذا التحدي الخارجي قد حفز مجتمع بلاد الرافدين للاستنفار وعسكرة المجتمع إلى حد كبير.

وقد استعمل إنسان العصور الحجرية الرماح والحراب على حد سواء. وقد صورت مسلة (صيد الاسود) المكتشفة في مدينة الوركاء صيادًا يطعن أسدًا بالرمح. كما عرف الإنسان القوس الذي يعد من أسلحة الرمي التي عرفها الإنسان، والذي أحدث تطورًا كبيرًا في عملية الصيد والحرب. وهناك بعض الرسوم على جدران الكهوف تُصَوِّر استخدامه للقوس في المعارك. كما ظهر في المنحوتات السومرية في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. كما استخدم الإنسان العراقي القديم الفأس، والخنجر، والسيف، والصولجان، الذي يعد

سلاحًا مهمًا في الاشتباك القريب. كما استخدم الشبكة كسلاح يُسْتَعْمَل ضد العدو. وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ظهرت المركبة الحربية، التي أحدثت تغييرات جوهرية على سير المعارك ونتائجها. كما اهتم السومريون كثيرًا بتوفير أجهزة الوقاية، التي من شأنها توفير الحماية لجسم المقاتل. وكان من أهم تلك التجهيزات الخوذة المعدنية لتغطية الرأس، والترس اليدوي لصد ضربات العدو ونباله.

ويمكن للباحث أن يتعرف على تلك التجهيزات من خلال الآثار الفنية، التي تصور جانبًا من المعارك الحربية، وخاصة مسلة النسور وشعار مدينة أور(١٧٦).

وقد طرأ على الجيش في العصر الأكدي تغيرًا أساسيًا من حيث ضخامة عدده وتدريبه وتسليحه. وقد اتضح ذلك من دراسة نقوش المسلة المشهورة، التي تعرف باسم (نصب النصر)، التي أقامها الملك (تارام سن)(١٧٧).

ثم تطور نظام الجيش في العصر الآشوري بشكل ملفت للنظر، لأن الأشوريين رجال حرب من الطراز الأول. وقد طغت عليهم الحياة الحربية(١٧٨). حيث تنامت النزعة العسكرية بشكل لم تشهده بلاد الرافدين من قبل في ظل حكم الإمبراطورية الآشورية. إذ عرفت هذه الدولة بقوتها وشراستها، لدرجة وصفت بأنها دولة ذات توجه عسكري صرف. إذ أن معظم انتصاراتها اعتمدت على جيش قوي. ومعظم انجازاتها الحضارية والسياسية تمحورت؛ بسبب نجاح عقيدتها العسكرية، ونجاحهم في إتقان الفنون القتالية المختلفة، ونجاحهم في تطوير المركبة القتالية، والتي استخدموها لحماية المشاة. ونتيجة لهذا التطور الكبير، فقد كانت بلاد آشور تلقي الخوف في قلوب أعدائها، نظرًا لما كان لديها من الأسلحة والمعدات الحربية. فضلًا عما كانت عليه هذه الجيوش من شراسة في القتال(١٧٩).

ومن الجدير بالذكر، أنه ورد في قوانين حمورابي العديد من المواد ذات الصلة بشؤون الجيش. ويبدو أن القصد منها يَكْمُن في معالجة السلبيات، التي تبلورت من جراء الممارسات العسكرية في الألف الثالث قبل الميلاد، والتي جعلت الخدمة العسكرية (خدمة إجبارية). وشددت العقوبة على كل من لا يلتزم بها، لتصل إلى عقوبة الإعدام(١٨٠).

وفي ضوء ذلك كله، أصبح الجيش في العراق القديم العامل الأساس في الحفاظ على البناء السياسي والحضاري في بلاد الرافدين. وأصبح من أهم الأدوار التي لعبها الإنسان العراقي القديم في بناء الحضارة والدفاع عنها. أن تلك المنجزات كانت عوامل أساسية في نشوء الدولة كظاهرة سياسية – قانونية. فضلًا عن تطور أنظمة الحكم المتعاقبة في بلاد الرافدين. أن إشكالية الدولة والسلطة في العراق القديم ستكون محور بحثنا في الفصل الآتي.

هوامش الفصل الأول

(١) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت ١٩٨٣، (مادة عرق).
(٢) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية، ط ٤، القاهرة ٢٠٠٤، (مادة عرق).
(٣) محمد بن مكرم بن علي وآخرون، لسان العرب، ط ٣، دار صادر، بيروت ١٤١٤ هجري، (مادة عرق).
(٤) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ٣، قدمه وعلق على حواشيه: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١، (مادة عرق).
(٥) محب الدين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مج ١١/ باب العين، (مادة عرق). دار الفكر للطباعة والنشر (بدون تاريخ).
(٦) انستاس ماري الكرملي، خلاصة تاريخ العراق، دار الوراق للنشر، بيروت ٢٠١٢، ص ٢٣.
(٧) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢، ص ٣١.
(٨) المصدر السابق، ص ٣٠.
(٩) ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج ٤، دار صادر، بيروت ١٩٩٣، ٩٤.
(١٠) جمال بابان، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية، منشورات المجمع العلمي الكردي، بغداد ١٩٨٩، ص ١٠٠.
(١١) أحمد ربيع عبد المنعم، نبوخذ نصر ومملكة بابل، دار مشارق، الجيزة ٢٠٠٨، ص ١١.
(١٢) ساكز، البابليون، ترجمة: سعيد الغانمي، مراجعة: عامر سليمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ٢٠٠٩، ص ١٥.
(١٣) Olmstead, History of the Persian Empire, 1948, p. 88. نقلًا عن طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣، ص ٨.
(١٤) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية العراقية والشخصية المصرية في التاريخ القديم، منشورات بيت الحكمة، بغداد ٢٠١٤، ص ٨.
(١٥) المصدر السابق، ص ٢٩.
(١٦) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، ط ٢، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٨، ص ٩٦ - ٩٧.
(١٧) لمزيد من التفصيل حول السومريون انظر: صمويل كريمر، السومريون، ترجمة: فيصل الوائلي، الكويت ١٩٧٣. كذلك، سامي سعيد الأحمد، السومريون وتراثهم الحضاري، بغداد ١٩٧٥.
(١٨) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(١٩) سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة: سامي سعيد الأحمد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠، ص ١٦٠ - ١٦١.
(٢٠) سفر التكوين: ١١: ٢.
(٢١) نبوءة دانيال: ٢: ١ - ٢.
(٢٢) سفر التكوين: ١١: ٨ - ٩.

(٢٣) سفر التكوين: ٢٤: ١٠.
(٢٤) نقلًا عن حازم عويض، بابل في الكتاب المقدس http/ hazemawies, blogspot. com.
(٢٥) سفر يوشع: ٧: ٢١.
(٢٦) ساكز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(٢٧) أدي شير، تاريخ كلدو آثور، مطبعة الحرف الذهبي، حلب ٢٠٠٧، ص ١٧.
(٢٨) سورة البقرة: آية ١٠٢.
(٢٩) ريدر فيسر، البصرة وحلم الجمهورية الخليجية، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، كولونيا - بغداد ٢٠٠٨، ص ٣٠.
(٣٠) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(٣١) تقي الدباغ، الطبيعة والإنسان: حضارة العراق، ج ١، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥، ص ١٤ - ١٥.
(٣٢) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.
(٣٣) سفر التكوين: ٢٤: ١٠.
(٣٤) ساكز، عظمة بابل: موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة، ترجمة وتعليق: عامر سليمان إبراهيم، جامعة الموصل، ١٩٧٩، ص ٢٣.
(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٤.
(٣٦) هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ج ١، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الفجر للنشر والتوزيع، بغداد ١٩٨٩، ص ١٢ - ١٣.
(٣٧) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا وحديثًا، الرافدين للطباعة والنشر، بيروت ٢٠١٣، ص ١٨ - ١٩.
(٣٨) ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار المعارف، مصر ١٩٨٤، ص ٨٣ - ٨٤.
(٣٩) بهجت عبد الغفور الحديثي، أمية بن ابي الصلت: حياته وشعره، ط ٢، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٦٨.
(٤٠) الأمام أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري، شرح ديوان كعب بن زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٩٣.
(٤١) الأمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زبيد الشيباني، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: أحمد السعدوي، دار الكتب المصرية، مصر ١٩٤٤، ص ١٨.
(٤٢) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، ط ٢، بيروت ١٩٧٤، ص ٢٥.
(٤٣) عبد الله ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد (بدون تاريخ)، ص ٥.
(٤٤) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٣.
(٤٥) ياقوت الحموي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣.
(٤٦) لمزيد من التفصيل حول أرض السواد انظر: عبد الرحمن منيف، أرض السواد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت - الدار البيضاء ١٩٩٩.
(٤٧) عامر سليمان وآخرون، المعجم الأكدي، ج ١، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٩٩، ص ٦١.
(٤٨) المصدر السابق نفسه.

(٤٩) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٥٠) سامي سعيد الأحمد، تاريخ العراق في القرن السابع قبل الميلاد، ترجمة: بيت الحكمة، مطبعة الميزان، بغداد ٢٠٠٣، ص ٣.
(٥١) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.
(٥٢) عبد الله مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨، ص ١٤١ - ١٤٢.
(٥٣) لسان العرب، مصدر سبق ذكره، مادة (مكن) أو (كون).
(٥٤) أدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت ١٩٩٧، ص ٥٨.
(٥٥) لؤي حمزة عباس (تحرير وتقديم)، المكان العراقي: جدل الكتابة والتجربة، دراسات عراقية، بغداد - اربيل - بيروت ٢٠٠٨، ص ٩.
(٥٦) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(٥٧) أمير إسماعيل، السلالات البشرية، مطبعة عزالدين، بيروت ١٩٨٢، ص ١٥٣
(٥٨) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠ - ٢١.
(٥٩) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤.
(٦٠) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١ - ٥٢.
(٦١) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، فصل في كتاب (العراق في التاريخ)، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٣، ص ٣٣ - ٣٤.
(٦٢) أمير إسماعيل، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(٦٣) قيس النوري، الحضارة والشخصية، دار الكتب، الموصل ١٩٨١، ص ٢٥.
(٦٤) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٦٥) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.
(٦٦) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.
(٦٧) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.
(٦٨) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
(٦٩) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.
(٧٠) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
(٧١) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.
(٧٢) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.
(٧٣) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.
(٧٤) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.
(٧٥) سفر التكوين: ١٥: ١٨.
(٧٦) Budge, By Nile and Tigris, London 1920, p. 169. نقلًا عن عبد الرزاق الحسني، الراق قديمًا وحديثًا، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣.
(٧٧) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا وحديثًا، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣.

(٧٨) للتفصيل انظر: علي جابر، شخصية الإنسان، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٤، ص ٧ - ١٢.
(٧٩) يوسف مراد، مبادئ علم النفس العامة، دار الحارث، بغداد ١٩٩٤، ص ٢٦١ - ٢٦٢.
(٨٠) أحمد أمين سليم، حضارة العراق القديم، ج ٦، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٣ ص ٣٩.
(٨١) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا وحديثًا، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.
(٨٢) المصدر السابق، ص ٧٠.
(٨٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.
(٨٤) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا وحديثًا، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.
(٨٥) ليوا وينهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: سعدي فيضي عبد الرزاق، ط ٢، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣، ص ٥٠ - ٥١.
(٨٦) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٨ - ١٩.
(٨٧) دانيل لاجاش، المجمل في التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى ازيور، مكتبة النهضة العربية، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٣ - ٦٤.
(٨٨) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠ - ٤١.
(٨٩) سفر التكوين: ١٥: ١٨.
(٩٠) أمير إسماعيل، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.
(٩١) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦.
(٩٢) طه بافر، مصدر سبق ذكره، ص ٣١ - ٣٢.
(٩٣) المصدر السابق، ص ٣٠.
(٩٤) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.
(٩٥) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.
(٩٦) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.
(٩٧) اريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٢١.
(٩٨) دانيل لاجاش، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣.
(٩٩) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٧.
(١٠٠) دانيل لاجاش، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.
(١٠١) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.
(١٠٢) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٨.
(١٠٣) جوده حسنين جوده، جغرافية آسيا الإقليمية، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ٥٨٥ - ٥٨٦.
(١٠٤) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨ - ٤٠.
(١٠٥) ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٩ - ٢٠.
(١٠٦) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ - ١٨.
(١٠٧) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.
(١٠٨) زهير صاحب، تقابل الحضارات: دراسة في الحضارتين العراقية والمصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠١٦، ص ٢٢٣.

(١٠٩) ليوا وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(١١٠) عبد القادر عبد الواحد الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦ - ٥٧.
(١١١) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا وحديثًا، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤، ص ٧٠.
(١١٢) تقي الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣ - ٥٤.
(١١٣) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢.
(١١٤) رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، ج ٣، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩، ص ٤٦ - ٤٧.
(١١٥) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٢.
(١١٦) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم: موجز التاريخ السياسي، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت ٢٠١٤، ص ٢٠.
(١١٧) ليوا وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦ - ٤٧.
(١١٨) عامر سليمان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.
(١١٩) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٩ - ٢٠.
(١٢٠) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣ و٢٥.
(١٢١) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠ - ٢١.
(١٢٢) للتفصيل انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ط ٢، بغداد ١٩٩٣، ص ١٦ - ٢٥.
(١٢٣) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦ - ٣٧.
(١٢٤) المصدر السابق، ص ٤١.
(١٢٥) طه باقر، مصدر سابق، ص ٢٧ - ٢٨.
(١٢٦) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.
(١٢٧) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٦.
(١٢٨) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧.
(١٢٩) للتفصيل انظر: رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، تعريب: وليد الجادر، ط ٢، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣، ص ٢٧٨ - ٣٢٥.
(١٣٠) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩.
(١٣١) المصدر السابق، ص ١٤٢ - ١٤٣.
(١٣٢) للتفصيل انظر: زهير صاحب، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، ج ١، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠٠٩. وكذلك ج ٢، ج٣، بغداد ٢٠٢٠ نفس دار النشر.
(١٣٣) صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧١، ص ٢٢.
(١٣٤) للتفصيل انظر: وليد الجادر، وعبد الإله فاضل، دور العلم والمعرفة في العراق القديم، مجلة المورد، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، مج ١٦، العدد ٣، خريف ١٩٨٧، ص ٨٢ - ١٠٢.
(١٣٥) عامر سليمان، جوانب من حضارة العراق القديم، فصل ضمن كتاب (العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.

(١٣٦) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢ - ٣٣.
(١٣٧) سفر التكوين: ٢: ١٠ - ١٣.
(١٣٨) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢ - ٢٣.
(١٣٩) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣ - ٣٤.
(١٤٠) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٧.
(١٤١) للتفصيل انظر: عبد الحكيم الذنون، تاريخ القانون في العراق، دمشق ١٩٩٣، ص ١٠٢ - ١٣٤.
(١٤٢) عامر سليمان، جوانب من حضارة العراق القديم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.
(١٤٣) ساكز، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ - ٦٣.
(١٤٤) عامر سليمان، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥ - ١٩٦.
(١٤٥) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١، ص ٨٩ - ٩٠.
(١٤٦) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.
(١٤٧) المصدر السابق، ص ٢٣.
(١٤٨) تركي عطية الجبوري، الكتابات والخطوط القديمة، مطبعة بغداد، بغداد ١٩٨٠، ٤٥.
(١٤٩) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ١، ط ٢، ترجمة: زكي نجيب، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٤٤.
(١٥٠) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.
(١٥١) فاضل عبد الواحد علي، حضارة بلاد وادي الرافدين، فصل ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٢.
(١٥٢) فاضل عبد الواحد علي، السومريون والأكاديون، فصل ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(١٥٣) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٠.
(١٥٤) ساكز، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤ - ١١٥.
(١٥٥) المصدر السابق، ص ١١٦ - ١١٧.
(١٥٦) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧.
(١٥٧) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦.
(١٥٨) صالح أحمد العلي (تقديم)، العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(159) C. J. Gaad, The cities of Babyionia, in CAH, Vol. 1, part. 11, cambirdge 1971, p. 141 - 142.
(١٦٠) صمويل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: أحمد فخري، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٢٣ - ١٢٦.
(١٦١) البريشت جونز وآخرون، شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم، ترجمة: أسامة سراس، دمشق ١٩٩٣، ص ١٤٨ - ١٥٦.
(١٦٢) عبد الحكيم الذنون، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧ - ١٠١.
(١٦٣) ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، لندن ١٩٦٢، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(١٦٤) لمزيد من التفصيل حول قانون حمورابي انظر: عبد الرحمن الكيالي، شريعة حمورابي: أقدم الشرائع العالمية، حلب ١٩٥٨. كذلك، صبيح مسكوني، تاريخ القانون العراقي القديم، بغداد ١٩٧١.

(١٦٥) مفهوم المعرفة: لغة واصطلاحًا. https // mawdoo 3.com

(١٦٦) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(١٦٧) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢.

(١٦٨) لمزيد من التفصيل انظر: رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، تعريب: وليد الجادر، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣.

(١٦٩) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢.

(١٧٠) لمزيد من التفصيل انظر: ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٥ - ٣٨٦.

(١٧١) المصدر السابق، ٣٨٧ - ٣٩٣.

(١٧٢) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(١٧٣) لمزيد من التفصيل انظر: زهير صاحب، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، ج ١، مصدر سبق ذكره.

(١٧٤) لمزيد من التفصيل انظر: زهير صاحب، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، ج ٢، مصدر سبق ذكره.

(175) C. J. Gadd, op. cit. p. 118.

(١٧٦) فاضل عبد الواحد علي، المنجزات السياسية والعسكرية في عصر فجر السلالات السومرية، مجلة المورد، مج ١٦، العدد الثالث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦، ص ٢٣ - ٢٥.

(١٧٧) ديلابورت، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.

(١٧٨) المصدر السابق، ص ١٨١.

(١٧٩) مزهر الخفاجي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.

(١٨٠) عبد الحكيم الذنون، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

الفصل الثاني

أطروحة دولة المدينة العراقية
من نوح حتى سومر

في هذا الفصل سوف نتطرق إلى المحاور الآتية:

المبحث الأول: مقدمات دولة نوح:

المطلب الأول: في مفهوم الدولة وأركانها ونشأتها.

المطلب الثاني: جنة عدن: ولادة الأسرة والمجتمع في العراق.

المبحث الثاني: ملامح دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على أرض العراق:

المطلب الأول: واقعة الطوفان وأسبابها.

المطلب الثاني: المكان الذي استوت عليه سفينة نوح.

المطلب الثالث: تأسيس دولة نوح على أرض العراق.

المطلب الرابع: حدود السلطة السياسية للنبي نوح.

المطلب الخامس: مملكة النمرود.

المبحث الثالث: أطروحة دولة المدينة السومرية وإشكالياتها:

المطلب الأول: التعريف بالسومريين.

المطلب الثاني: فكرة دولة المدينة (City State) عند السومريين.

المطلب الثالث: نظام الحكم في دولة المدينة السومرية.

المبحث الأول

مقدمات دولة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

المطلب الأول

في مفهوم الدولة وأركانها ونشأتها

أولاً: في مفهوم الدولة

قبل الشروع بدراسة نشأة أول دولة في التاريخ على يد النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لابد من دراسة الإطار النظري لمفهوم الدولة. وذلك من أجل تحديد المفاهيم لتكون الصورة أوضح قدر المستطاع، تجنبًا للخلط ما بين المفاهيم، وتحررًا من نمطية العموميات التي تفتقر للدقة.

ويبدو أن عملية تأسيس الأطر النظرية تُحْتَسَب من المسائل الحاكمة في العلوم الاجتماعية والسياسية؛ لأن منهجية الدراسة وفرضياتها تتوقف، إلى حد كبير، على هذا البناء النظري. فالأطر النظرية التي تتعلق بالمفاهيم تعد (بمثابة بناء متكامل من الأفكار والمفاهيم النظرية يؤدي كل منها إلى الآخر، وتربط بينها جميعًا رابطة واحدة)[1].

ومصطلح (الدولة) في اللغة العربية يقابل مصطلح (State) في اللغة الإنكليزية. وهذا المصطلح في الأصل مفردة لاتينية هي (Status)، وتعني الواقف أو الثابت، أو الحالة المستقرة والثابتة[2].

ورغم أن (الدولة) ظاهرة اجتماعية – سياسية قديمة، بيد أنها استخدمت بشكل واضح الدلالة في عصر النهضة الأوروبية بوصفها الإطار المنظم للسلطة السياسية. وعلى هذا الأساس، انصرف مدلول الدولة في اللغات الأوروبية إلى معنى حالة الاستقرار والثبات[3].

واشتقَت مفردة (الدولة) في اللغة العربية من الفعل (دال) بمعنى تغير الزمان وانقلب. ومن هنا جاء قولهم (دالت دولتهم) بمعنى ذهبت وأتت مكانها دولة أخرى. وقد جاء في

(لسان العرب) حول كلمة دُولة (بضم الدال) اسم الشيء الذي يتداول. والدَولة (بفتح الدال) معناه الانتقال من حال إلى حال. ويشير أيضًا إلى معنى الغلبة؛ لأن في الحديث تدال عليهم، ويدالون علينا بمعنى (الغلبة). ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس. والدولة تعني الانتقال من حالة الشدة إلى حالة الرخاء[٤].

عليه، فإن (الدولة) في اللغة العربية تشير إلى معنى الغلبة والاستيلاء والشيء المتداول. وهذا معناه أن تعبير الدولة في اللغة العربية يدل على عدم الاستقرار، بخلاف معناها المستفاد من الأصل اللاتيني والأدبيات الأوروبية الحديثة[٥].

ثم ارتقى مفهوم (الدولة) في الفكر السياسي العربي المعاصر، وفي الفقه القانوني العربي، والأدبيات السياسية العربية؛ ليستخدم بمعنى (State) الوارد في اللغات اللاتينية والإنكليزية على حد سواء.

ومصطلح (الدولة) في العصور القديمة كان يدل على وجود مجتمع فيه فئة حاكمة وفئة محكومة ليس إلاَّ. لذلك لم يميز الفكر السياسي القديم ما بين الدولة والسلطة.

وقد أجمعت معظم البحوث والدراسات التي تناولت مفهوم الدولة على صعوبة وضع تعريف جامع وشامل لمفهوم الدولة. وغالبًا ما صاحب ذلك اختلاف في الرأي حول أسباب هذا الاختلاف أيضًا. لذلك أصبحت الأدبيات الفكرية والسياسية والقانونية تعج بالتعريفات، التي قال بها المفكرون والفلاسفة وأصحاب الاختصاص لمفهوم الدولة.

فقد عَرَّفها (**منذر الشاوي**): على أنها تمثل الإطار الذي تُمَارَس في حدوده السلطة، أي سلطة الدولة على أشخاص مقيمين فيه دون استثناء[٦].

وَعَرَّفها (**اندريه هوريو**): على أنها مجموعة بشرية مستقرة على أرض معينة تهدف إلى الصالح العام، وتستند على سلطة تمتلك صلاحيات الإكراه[٧].

وَعَرَّفها (**إسماعيل غزال**): على أنها مجموعة منظمة من الأفراد منبثقة من هذا المجتمع. تتميز بقدرة إصدار القوانين، واتخاذ القرارات التي من شأنها تنظيم حياة المجموعة، وتنفيذ القواعد القانونية واحترامها[٨].

وَعَرَّفها (**ماكس فيبر**): على أنها منشأة سياسية سمتها مؤسساتية تحتكر سلطة القهر المادي الشرعي. وتمارس أوامرها على إقليم معين بواسطة تنظيم إداري يستخدم التهديد أو اللجوء إلى الإجبار المادي الشرعي[٩].

وَعَرَّفها (**مارسيل بريليو**): على أنها الشكل الأهم والأكمل والأبرز للحياة الجماعية، وهي من صنع الإنسان وأرادته وعقله[١٠].

وَعَرَّفها (**أحمد زايد**): على أنها مجموعة من الموظفين تمارس سلطتها من خلال مجموعة من الموظفين، ووفقًا لمبدأ السيادة على إقليم معين. تحتكر في داخله الاستخدام الشرعي لوسائل الإكراه، التي تمكنها من تكوين سلطة. لذلك فإن الدولة لديه هي القوة الضابطة للمجتمع داخل إقليم معين[١١].

وَعَرَّفها (**جان بودان**): بمعنى (الجمهورية). ولا تعد دولة لديه أن لم تمتلك قوة قاهرة قادرة على توحيد أعضائها البشرية، وأجزائها الجغرافية في جسد واحد. تلك هي النقطة الأكثر ضرورية عند بودان في تعريفه للدولة.[١٢]

وَعَرَّفها (**كارل ماركس**): على أنها ظاهرة قانونية تمثل انعكاسا لتكوين الطبقات الاجتماعية، وسيطرت إحداهما على المجتمع الذي تحكمه تلك الدولة. وَعَرَّفها (**انجلز**): على أنها علاقة قهر اجتماعية، أي أنها تعكس سيطرة طبقة اجتماعية على الطبقات الأخرى[١٣].

وَعَرَّفها (**بطرس غالي**) و(**محمود خيري عيسى**): على أنها مجموعة من الأفراد، يعيشون حياة دائمة ومستقرة على إقليم معين. وتسيطر عليهم منظمة استقر الناس على تسميتها بالحكومة[١٤].

وَعَرَّفها (**حسن أبشر الطيب**): على أنها جماعة دائمة ومستقلة من الأفراد الذين يمتلكون إقليمًا معينًا، وتربطهم سياسة مصدرها الاشتراك في الخضوع لسلطة مركزية تكفل لكل فرد منهم التمتع بحريته ومباشرة حقوقه[١٥].

وَعَرَّفها السويسري (**بلنتشلي**): على أنها جماعة مستقلة من الأفراد الذين يعيشون بصفة مستمرة على أرض معينة، وبينهم طبقة حاكمة وطبقة محكومة. أما الفرنسي (**كاريه**): فقد

عَرَّفها على أنها مجموعة من الأفراد مستقرة على إقليم معين، ولها من التنظيم ما يجعل للجماعة في مواجهة الأخطار سلطة عليا آمرة وقاهرة. وَعَرَّفها الأمريكي (**ولسون**): على أنها شعب منظم خاضع للقانون يقطن أرضًا معينة[١٦].

وفي ضوء تلك التعريفات وغيرها، يتبين ما يأتي:

١- أن الدولة تمثل كيانًا سياسيًا - قانونيًا، يمتلك سلطة سياسية لها قدرة الإقناع أو الإكراه لتمارس من خلالها سيادتها على رقعة جغرافية محددة، وعلى مجموعة بشرية معينة.

وقد أصبحت، حسب الفكر الحديث والمعاصر، ذات شخصية قانونية معنوية. وهذه الصفة رتبت عليها مجموعة من النتائج، لعل أهمها ما يأتي:[١٧]

أ- تُكْتَسَب الدولة وحدة قانونية مستقلة ومتميزة عن الأفراد المكونين لها.

ب- تبقى المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي أبرمتها الدولة نافذة مهما تغير شكل الدولة أو نظامها السياسي.

ج - تبقى الالتزامات المالية نافذة على الدولة بغض النظر عن أي تغيير يطرأ على الدولة أو نظام الحكم فيها.

٢- أن الدولة ظاهرة قديمة جدًا وليست ظاهرة اجتماعية سياسية حديثة، بيد أنها كانت تختلف عن الدولة الحديثة في بنيتها وشكلها ومصادر شرعيتها. وهناك من ذهب إلى القول بِقِدَم فكرة الدولة التي وُجِدَتْ لدى المجتمعات القديمة والحديثة على حد سواء مع اختلاف في البنية والشكل. وقد أيد هذا الاتجاه كل من (منذر الشاوي) و(دوكي) و(شارلز تلي) وغيرهم[١٨].

٣- و رغم أن أصحاب هذا الاتجاه لا يميزون بين الدولة والسلطة عندما يعرجون على مفهوم الدولة القديمة، بيد أن ذلك لا يمنع من القول أن الدولة ظاهرة قديمة بغض النظر عن درجة تقدمها أو تخلفها. إذ أن كل ما في الأمر أن السلطة كانت أقوى من الدولة

في نـماذج الدول القديمة بما فيها الدول التي شـهدتها بـلاد الرافدين أو غيرها. وبكلمة أدق يمكن القول أن الدولة القديمة لم تفصل ما بين الدولة وشخص الحاكم.

٤- و رغـم الاختلافـات كلها التي أوردناها في تعريفات مفهـوم الدولة، بيد أنها تكاد أن تكـون متفقـة على تحديـد أركان الدولة الأساسـية الثلاثة (الشـعب والإقليم والسـلطة الحاكمة). وهذا ما سنعرج عليه في المحور الآتي.

ثانيًا: أركان الدولة الأساسية[١٩]

تأسيسًا على ما تقدم، يبدو أن معظم التعريفات آنفة الذكر للدولة، كانت قد اتفقت على تحديد ثلاثة عناصر أساسية للدولة بوصفها الأركان التي لا تقوم إلا بها. وهذه الأركان هي ما يأتي:

١- الشعب.

٢- الإقليم.

٣- السلطة السياسية الحاكمة.

وهناك من احتسب (السيادة) أيضًا ركنا من أركان الدولة. والواقع أنها ليست كذلك، إنـما هـي خاصية لسـلطة الدولة، والتي تميزها عـن الأنواع الأخرى من السـلطات الفرعية المتواجدة داخل الدولة وليست ركنا من أركان الدولة[٢٠].

وفيما يأتي نبذة مختصرة عن أركان الدولة الأساسية:

١- الشعب:

يعد الشعب ركنًا أساسيًا من أركان الدولة. إذ لا توجد دولة بدون شعب. ومن الجدير بالذكر، أنه لا يُشْتَرط حد أدنى أو حد أعلى لعدد أفراد الشعب. لذلك نجد دولًا لا يتجاوز عدد أفرادها (١٠٠٠) نسـمة (الفاتيكان نموذجًا). وهناك دولا يتجاوز عدد سـكانها مليار نسمة (الصين نموذجًا).

والأهم من ذلك، أن يكون هناك مجموعة من الأفراد التي تنظم فيها العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الإطار الذي يتجاوز إطار العائلة أو القبيلة. وفي العادة يتمتع المواطنون في إطار الدولة بالحقوق والواجبات المكفولة قانونًا أو عرفًا وحسب مستوى التطور الذي تبلغه الدولة وفقًا لمتطلبات الزمان والمكان.

٢- الإقليم:

يعد الإقليم الركن الثاني من أركان الدولة. إذ لا بد أن يمتلك الشعب مساحة معينة من الأرض بحدود تفصلها عن الدول الأخرى. وإقليم الدولة يؤسس على مساحة من الأرض يطلق عليها (إقليم الدولة)، والذي ترسم له حدود معينة. وتمارس الدولة سيادتها وسلطتها على هذه اليابسة، وعلى الفضاء الجوي الذي يعلو الإقليم الأرضي. فضلًا عن المياه التي تغمرها أو تحدها إلى مسافة اثنتي عشرة ميلًا من سواحلها، والتي تعرف (بالبحر الإقليمي) حسب المادة الثالثة من اتفاقية قانون البحار لعام ١٩٨٢م[٢١].

ومن الجدير بالذكر، أنه لا يُشْتَرَط أن تكون الدولة بمساحة معينة. فهناك دولًا صغيرة جدًا مثل (الفاتيكان)، التي تبلغ مساحتها (٤٤ , ٠ كيلومتر مربع). وهناك دولًا كبيرة جدًا مثل (روسيا)، التي تبلغ مساحتها (١٧ مليون كيلومتر مربع).

٣- السلطة السياسية الحاكمة:

لا يمكن أن تنشأ الدولة بمجرد توافر أفراد يعيشون في إقليم معين، وإنما يجب أن يكون على هذا الإقليم سلطة سياسية (حكومة) يخضع لها الأفراد. ولا يكفي مجرد وجود هذه السلطة للاعتراف بوجودها إلاَّ إذا تمكنت من الحصول على اعتراف الأفراد بها طوعًا أو كرهًا، بحيث أنها تستطيع أن تفرض قراراتها على الدولة بأسرها. لذلك فإن أي سلطة يجب أن تتمتع بسلطة الإكراه وسلطة الإقناع، في الوقت نفسه لكي تفرض وجودها الواقعي.

ويلاحظ أنه في الفكر السياسي القديم سادت فكرة شخصنة السلطة بحكم ارتباط السلطة السياسية بشخص الحاكم. بيد أنه مع تقدم الجماعات بدأت فكرة الارتباط بين الحاكم والسلطة السياسية بالتراجع. وبدأت تظهر بدلًا عنها فكرة السلطة المجردة عن

شـخصية الحاكـم. ونتج عن هذا التطور الفكري السـياسي فكرة الفصل بين السـلطة ومن يمارسها.

ويبـدو أن مـا يميز السـلطة السياسـية الحاكمـة في أي دولة أنها أصليـة. أي أنها لا تنبع مـن سـلطات أخـرى، إنما تنبع السـلطات الأخـرى منها. فضلًا عـن ذلك، تتميز السـلطة السياسـية داخـل الدولـة بكونها سـلطة ذات اختصاص عـام، أي أنها تشـمل جميع نواحي الحياة داخل الدولة بخلاف السـلطات الأخرى التي تنحصر مهامها بجانب معين من حياة الأشخاص.

مـع ذلك كله، ثمة صعوبة في وضع تعريف جامع وشـامل لمفهوم السـلطة السياسـية. لذلـك لا نجـد تعريفًا متفقًا عليه من المفكرين والفلاسـفة وأصحـاب الاختصاص. وهذه الصعوبة قد تكون راجعة إلى ما يأتي:

١- يصعـب وضـع تعريـف شـامل وجامـع للسـلطة السياسـية بحكـم تعدد سـماتها ووظائفها.

٢- يصعـب وضـع تعريف شـامل وجامع للسـلطة السياسـية؛ لأنها تتأثـر بالخلفيات الفكرية والسياسية للمفكرين، والفلاسفة وأصحاب الاختصاص.

٣- يصعب وضع تعريف شامل وجامع لمفهوم السلطة السياسية كونها ظاهرة سياسية - اجتماعية تتطور باسـتمرار لتأخذ أشـكالًا مختلفة. فتارة تُفْرَض من خلال العنف المفرط (دولة النمرود نموذجًا). وتارة أخرى تُفْرَض بالإقناع (دولة نوح نموذجًا). وتـارة أخرى تُفْرَض بالجمع ما بين الإقناع والإكـراه معًا (الدول الغربية المعاصرة نموذجًا).

٤- و مـن ناحيـة أخرى، امتزجت السـلطة السياسـية بكل أوجه العلاقات الإنسـانية في الحيـاة الاجتماعيـة المشـتركة. لذلك أصبحـت نتيجة مباشرة لوضع السـلطة في المجتمع[٢٢]. عليه تصبح السـلطة السياسية ضرورة عقلية لابد منها لتستقيم الحياة وتنتظم.

وعمومًا، مهما كان تعريف السلطة السياسية، فإنها لا بد أن تُؤَسَّس على ركني (الإقناع والإكراه) على حد سواء. وفي ضوء هذين الركنين يمكن التمييز ما بين السلطة الشرعية والسلطة غير الشرعية. فالسلطة الشرعية هي التي يعلو فيها (ركن الإقناع) على (ركن الإكراه)، ومنها (الأنظمة الديمقراطية). والسلطة غير الشرعية هي التي يعلو فيها (ركن الإكراه) على (ركن الإقناع) بشكل سافر (الأنظمة الاستبدادية نموذجًا).

وقد حدد (**ماكس فيبر**) ثلاثة أنواع أساسية للسلطة هي:[٢٣]

أ - السلطة التقليدية:

وهي السلطة التي ترتكز على التقاليد والأعراف وحكم المعتقدات. فضلًا عن القواعد التي تضفي الشرعية على الحكام التقليديين. وفي هذا النوع تستند السلطة على قدسية النظام المتعلق بمكانة السلطة في إطار من البعد القيمي الذي يتوافر لها من خلال العمق الزمني الذي وجدت من خلاله.

ومفهوم الشرعية في هذا النوع يتحدد عندما تظهر فيه ممارسة السلطة بمشاركة الأفراد مشاركة تقليدية. أو عندما تتم ممارسة السلطة حسب المكانة الاجتماعية والوضع الإداري. أو عندما تتمثل بتواجد حرية في استخدام القوانين التقليدية.

ب- السلطة الملهمة (الكاريزما):

يظهر هذا النوع من السلطة السياسية عندما تنهار القيم والقواعد المجتمعية التقليدية. ومن هذه الظروف تظهر زعامة ملهمة تقود حركة المجتمع. وهذه الزعامة لا تتقيد بالوضع القائم، إنما تستوحي مسيرة التاريخ بوعي وأرادة قوية.

والأساس الذي تقوم عليه مثل هذه الزعامات، إنما هي مزايا تتمثل بتفوق الشخصية لدى (الزعيم)، الذي يتمتع بالهيبة والبطولة والسمات النادرة. وتكاد شخصيته أن تقف على قدم المساواة مع القواعد القانونية. وطاعة الأفراد له تتأتى من خلال الإيمان به (ركن الإقناع).

ج – السلطة القانونية (العقلانية):

وهـي السـلطة التي عرفتها المجتمعـات الحديثة، والتي تقوم عـلى مجموعة من القواعد القانونية المبنية على أساس المنطق والمصلحة العامة.

وخلاصة القول، لا يشترط أن تكون السلطة السياسية من نوع معين للاعتراف بها، إنما يشترط فيها أمران أساسيان هما:

١ – أن تمتلك سلطة إصدار القواعد القانونية الملزمة للأفراد داخل الدولة.

٢ – أن تمتلك القدرة على فرض تلك القواعد القانونية على الأفراد بالإقناع، أو بالإكراه أو بكليهما.

ثالثًا: نظريات نشأة الدولة[٢٤]

وفيما يتعلق بالأطروحات الفكرية والفلسـفية لأصل نشـأة الدولـة، فيلاحظ أن هناك مذاهب واتجاهات متعددة حاولت كل منها تفسـير نشـأة الدولة الأولى في التاريخ البشري. ولعل أهم تلك النظريات هي:

١ – النظرية الدينية:

يذهـب أصحاب هذا الاتجاه في تفسـيرهم لنشـأة الدولة مذهبًا دينيًـا صرفًا. وينصرف هـذا المذهب إلى إرجاع الظواهر الاجتماعية، والسياسـية، والقانونية إلى الله وحده. والدولة لديهم تعد نظامًا قدسيًا فرضه الله لتحقيق الغاية من الاجتماع البشري.

وبالتـالي تنتهـي هـذه النظرية إلى تقديس السـلطة العامـة كونها من حقـوق الله وحده، والذي تأتي منه إلى الحكم. وقد برز اتجاهان أساسيان في هذه النظرية هما:

أ – نظرية الطبيعة الإلهية للحاكم: وهذا النموذج عرفته مصر الفرعونية بشكل واضح. حيث قال سـبحانه على لسـان الفرعون: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[٢٥] وكذلـك قولـه تعـالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٢٦]. وكذلك شـهدت بلاد فارس والروم مثل هذا النوع من السلطة والدولة.

ب- نظرية التفويض الإلهي للحاكم: هذه النظرية التي عرفتها الدويلات السومرية في بلاد الرافدين. حيث وردت بشكل واضح في وثيقة إثبات الملوك السومرية، التي بدأت بالقول: (هبطت الملوكية من السماء) وحلت في خمس مدن سومرية بصورة متعاقبة[٢٧].

والراجح أن هذه النظرية مستمدة من أطروحات الأصولية اليهودية بالدرجة الأساس. فالأصولية اليهودية كانت قد طرحت النموذج الثيوقراطي في الحكم بناء على مصادرها القدسية بدلالة ما ورد في التوراة (فإن الحكم لله)[٢٨]. ولذلك فإنها فسرت نشوء السلطة والدولة عن طريق تدخل سلطة سماوية (الله)[٢٩].

٢- نظرية تطور الأسرة:

تستمد هذه النظرية أساسها من العقيدة الدينية الثابتة، والتي تفيد بأن آدم وحواء يمثلان الأصل البشري الأول. وبهما قامت الأسرة الأولى على الأرض. ثم تكاثرت هذه الأسرة إلى مجموعة من الأسر، ثم أصبحت عشيرة، ثم أصبحت قبيلة، ثم أصبحت مدينة، ثم تكونت الأمم، ونشأت الدول.

وترجع هذه النظرية سلطة الحاكم إلى السلطة الأولية المتمثلة في سلطة رب الأسرة.

٣- نظرية العقد الاجتماعي:

ظهرت فكرة العقد الاجتماعي كأساس لنشأة الدولة منذ مدة زمنية بعيدة، وتحديدًا ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادي. وقد ساهم في صياغتها، وإبراز مضامينها كل من (توماس هوبس، وجان لوك، وجان جاك روسو). ويبدو أن بعض المفكرين كانوا قد استخدموها بقصد مناوئة السلطة المطلقة للحاكم.

إن هؤلاء المفكرين وأن كانوا قد اختلفوا في التفاصيل، بيد أنهم أرجعوا نشأة الدولة إلى فكرة العقد الاجتماعي. وأن الأفراد كانوا قد انتقلوا من الحياة البدائية، التي كانوا يعيشونها إلى حياة الجماعة المنظمة بموجب هذا العقد الاجتماعي.

ورغـم أن هـذه النظرية قامت عـلى الخيال المحض، بيد أنها سـاهمت في ارتقـاء الدولة وأنماط الحكم في الحياة السياسية المعاصرة.

وقد فسرت هذه النظرية أصل نشـأة الدولة بالعقد الاجتماعي، على أسـاس أن مصدر الدولة وسـلطتها راجع إلى الشـعب. ولهذا لا تكون الدولة وسلطتها الحاكمة شرعية إلاَّ إذا كانت وليدة الأرادة الحرة للجماعة التي تحكمها.

٤- نظرية القوة:

تنطلـق هذه النظرية من القول بأن أصل الدولـة راجع إلى القوة. فهذه النظرية تفترض أنه في المراحل الأولى كان هناك نظام اجتماعي معين فرضه شخص، أو فئة قليلة على الجماعة عن طريق استخدام القوة والإكراه المؤدي إلى نشأة الدولة في صورتها الأولى.

والواقـع أن التاريـخ حافـل بأمثلة كثيرة لدول تأسسـت بهـذه الطريقة، ربـما كان أولها (مملكة النمرود) وغيرها.

٥- النظرية الماركسية:

الدولـة عند (كارل ماركس) لا تعدو أن تكون سـوى ظاهرة قانونية تمثل انعكاسًـا لتكويـن الطبقـات الاجتماعيـة، وسـيطرت إحداهمـا عـلى المجتمـع الـذي تحكمه تلك الدولة.

عليه فإن ظهور الدولة عند ماركس مرتبط بالصراع بين الطبقات الذي يمثل في النهاية سيطرة الطبقة التي تحتكر ملكية وسائل الإنتاج، والتي بموجبها فرضت سلطتها على سائر الطبقات الأخرى في المجتمع.

ومثلت (الدولة) عند (انجلز) علاقة قهر اجتماعية. أي أنها تعكس سيطرة طبقة اجتماعية على أخرى. وتنشـأ الدولة لديه كسـلطة قمعية للتخفيف من حدة التناقضات والصراعات الاجتماعيـة. ولتكون أداة بيد الطبقة المالكة لوسـائل الإنتاج لفرض سـلطتها على الطبقات الأخرى[٣٠].

٦- نظرية التطور التاريخي:

ما يميز هذه النظرية أنها لا ترجع أصل نشأة الدولة إلى عامل محدد بذاته، وإنما ترجعها إلى عوامل متعددة، كالقوة، والدين، والاقتصاد، وغيرها.

وتذهب هذه النظرية إلى القول، أن تلك العوامل كانت قد اجتمعت مع بعضها البعض وشكلت تجمع للأفراد، وأدت إلى ظهور فئة من الأفراد استطاعت أن تفرض سيطرتها على الجماعة لتبدوا على أنها هيئة عليا حاكمة.

إن تفاعل العوامل الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والمادية، والدينية، لم تحدث فجأة وفي تجمع واحد، إنما حدثت في حقب زمنية طويلة ونطاقات مكانية متباعدة، كانت كلها قد أفضت إلى نشأة أول دولة في التاريخ البشري.

ويبدو أن تلك النظريات، رغم أهميتها، لا تعدو أن تكون سوى فرضيات بحتة. إذ أنها لم تكن حصيلة استقراء شامل، أو نتيجة تجارب عملية متكررة، إنما كانت مجرد تصورات ذهنية يعتد بها. لذلك فإنها تصح أحيانًا على بعض نماذج الدول، ولا تصح على نماذج أخرى.

وقد اتفق معظم فقهاء القانون على أن نشأة الدولة كان بمثابة حدث تاريخي - سياسي مجرد من الصفة القانونية. وقد تأكد هذا الرأي في التقرير، الذي قدمته لجنة الفقهاء القانونيين في الخامس من أيلول ١٩٢٠ بشأن قضية (جزر أولاند)، والذي جاء فيه بأن تحول الدولة يتم بوسائل واقعية خارجة عن نطاق القانونية[٣١].

وفي البحث عن النظريات المفسرة لنشأة الدولة من المفيد أن نميز ما بين أمرين أساسيين هما:

أ - البحث في نشأة أول دولة في التاريخ البشري.

ب- البحث في نشأة الدول المتعاقبة في التاريخ البشري.

وفي البحث عن نشأة أول دولة في التاريخ البشري، فإن مقتضيات الدلالات العقلية تفيد بأنها تشكلت عبر تطور تاريخي بدأ من وجود مساحة من الأرض تتوافر فيها أسباب

العيش من ماء، وغذاء، وطقس، ومراعي. وهذه الأرض جذبت إليها السكان للاستيطان والتزاوج والإنجاب. ثم توسع هذا العدد المحدود من البشر من أسرة قليلة العدد يحكمها الأب إلى عشيرة تضم عددًا من الأسر يحكمها شيخ العشيرة. ثم نمت هذه العشيرة إلى عدة عشائر لتنتج قرية صغيرة. ثم تحولت تلك القرية إلى عدة قرى لتتحول إلى مدينة. وبزيادة عدد المدن تتشكل الدولة التي تحكمها سلطة سياسية مصدرها أما أن يكون الله (سلطة الانبياء)، أو مصدرها القوة (سلطة الملوك). وفي هذه المرحلة تكونت الدولة الأولى في التاريخ البشري على الأرجح.

أما البحث عن نماذج الدول التي تشكلت لاحقًا، فيمكن ارجاعها إلى النظريات المذكورة آنفا. فبعضها تأسس بموجب (النظرية الدينية)، وبعضها بموجب (نظرية القوة)، وبعضها بموجب (نظرية العقد الاجتماعي)، وبعضها تأسس بموجب (نظرية تطور الأسرة)، وبعضها بموجب (النظرية الماركسية) كل حسب ظروفها وسياقها التاريخي.

وفي ضوء ذلك كله، يطرح التساؤل الآتي: إلى أي حد ساهمت هذه النظريات، أو أحداهما في تفسير نشأة الدولة العراقية الأولى في التاريخ البشري؟ هذا ما سوف نعرج عليه في المحور التالي.

المطلب الثاني
جنة عدن: ولادة الأسرة والمجتمع في العراق

أولاً: مدخل إلى مفهوم جنة عدن

لعل من المسلمات العقائدية لدى الأديان السماوية كافة، أن قصة الخليقة كانت قد ابتدأت بخلق (آدم) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ثم خلق زوجه (حواء). وجعلهما أصل النوع البشري كله. وأسكنهما الجنة بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[٣٢].

وقد خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليقود الحياة، وليكون خليفة في الأرض. إذ قال الله سبحانه

للملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣٣]. وقد ذهب العلامة محمد باقر الصدر إلى القول: (فكانت تلك الجنة إذًا هي الحضانة الأولى لتأهيل آدم وحواء للعيش في الأرض، خلفاء الله تعالى مكلفين بأعباء ومسؤوليات الخلافة الربانية)[٣٤]. وفي الاتجاه نفسه أشار العلامة أحمد الكبيسي بقوله: (سيدنا آدم أبو البشر، خلقه الله ليقود الحياة، وليكون خليفة في الأرض)[٣٥].

ثم كان خروج آدم وحواء من الجنة أمرًا محتمًا لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٣٦]. وعلى الأرض تولى آدم مهمة الخلافة على الأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾[٣٧].

وبهذه الصفة تفرد الإنسان من بين مخلوقات الله كلها[٣٨]. وقد اختلفت الآراء في مكان تلك الجنة ونوعها. حيث اختلفت الروايات في كونها جنة برزخيه بقرينة توفر كل ما يحتاج الإنسان فيها لحياته الأولية تلك وهبوطه منها بعد استكمال الغرض. وفي كونها جنينة أرضية في منطقة ما؛ لأن فيها ما يأكله ويشرب منه وأن الشيطان يدخلها كسائر بقاع الأرض دون مانع. وأيًا كانت الجنة برزخيه أو أرضية، فإنها كانت الحياة الأولى لآدم وحواء حيث عاشا فيها مدة من الزمن[٣٩].

وبعد خروج آدم من الجنة، بدأت مسيرة الإنسان الشاقة على الأرض. حيث كانت الأرض هي الوطن الجديد لهما ولذرياتهما[٤٠].

ويلاحظ أن القرآن الكريم قد خلا من تحديد الأرض التي هبط فيها آدم وحواء، بينما حدد العهد القديم اسمها وملامح موقعها بشكل واضح نسبيًا بقوله: (وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا وجعل هناك الإنسان الذي جبله)[٤١]. هذا معناه أن (جنة عدن) تعد الموطن الأول للبشرية على وجه الأرض، والتي سكنها آدم وحواء بعد نزولهما من الجنة.

ومن الجدير بالذكر، أنه لم ترد في القرآن الكريم مفردة (جنة عدن)، إنما وردت فيه مفردة (جنات عدن) تسعة مرات بصيغة الجمع[٤٢].

ويبدو من خلال هذه النصوص، أن القرآن الكريم كان قد تحدث عن (الجنة السماوية)

الموعودة وليس عن جنة عدن الأرضية التي استقر فيها آدم وحواء حسب نصوص العهد القديم. وذلك التفسير مستفاد من الأسباب الآتية:

١ - أن النص القرآني أشار صراحة إلى أنها الجنة السماوية الموعودة وليست جنة عدن الأرضية لقوله: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾[٤٣].

٢ - ثم جاءت لفظة ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ لتعني الإقامة والقرار للصالحين. ففي هذه الجنة يأتلف الداخلين فيها مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم، بيد أنهم يُكَرَّمُون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم. وهي لذة أخرى تضاعف لدى الشعور بالجنان على حد قول سيد قطب[٤٤]. ولقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ ﴾[٤٥]. وفي جو التجمع والتلاقي تشترك الملائكة في التأهيل والتكريم ﴿ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴾ لتقول لهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾، حسب تفسير سيد قطب[٤٦].

٣- أضف إلى ذلك، أن وصف (جنات عدن) الوارد في النصوص القرآنية وأن كان فيه شيء من الشبه مع (جنة عدن) الأرضية، بيد أنها لا تطابقها من جهات عدة منها:

أ - إذا كانت هناك أرض في الدنيا تجري من تحتها الأنهار، فإن ذلك لا يعني أن لهم فيها ما يشاؤون لقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ ﴾[٤٧].

ب- إذا كانت هناك أرض تنطوي على شبه نسبي مع (جنات عدن)، بيد أن من يسكنها لا يمتلك الخلود؛ لأنه محكوم بالفناء لقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾[٤٨]. كما أن مدة اقامتهما على الأرض محدودة حسب مشيئة الله سبحانه لقوله: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾[٤٩].

ج - أن سكان (جنات عدن) يحلون بأساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير. وذلك لقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ

وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[٥٠]. وبلا شك، أن هذا الواقع المرفه في ظلال الله، لا يمكن أن يكون على الأرض بحكم التفاوت الاجتماعي، الذي يعد من سنن الطبيعة البشرية المرتبطة بالظلم الاجتماعي والسياسي.

وبما أن القرآن الكريم لم يثبت وجود جنة عدن الأرضية، ولم ينفيها في الوقت نفسه، فإن بمقدور الباحث القبول بوجود (جنة عدن) على الأرض بالصيغة التي وردت في العهد القديم بوصفه أقدم الكتب السماوية. فضلًا عن تضمنه لوقائع تاريخية قديمة لا نجدها في أي مصدر آخر.

وفي ضوء ذلك، لابد من تحديد معنى (جنة عدن). ومن ثم البحث عن موقعها الجغرافي.

تعني مفردة (الجنة) في (مختار الصحاح): البستان. ومنه (الجنات). والعرب تسمي النخيل (جنة). و(عدنت) بالبلد توطنت. وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح. ومنه (جنات عدن)، أي جنات إقامة. ومنه سمي (العدِن) بكسر الدال؛ لأن الناس يقيمون فيه أثناء الصيف والشتاء. ومركز كل شيء معدنه. و(عدن) بلد[٥١].

وفي (لسان العرب) تعني (الجنة): البستان. ومنها (الجنات). والعرب تسمي النخيل (جنة). والجنة تعني الحديقة ذات الشجر والنخل. وجمعها (جنات)، وفيها تخصيص. ويقال للنخل. ولا تكون الجنة في كلام العرب إلاَّ إذا كان فيها نخل وعنب. فإن لم يكن فيها ذلك، وكانت ذات شجر فيسمونها (حديقة) وليست (جنة). و(عدن بالمكان) تعني أقام فيه. و(عدنت البلد) توطن فيه. و(جنة عدن) مكان إقامة. و(عدن) تعني أن تلتزم الإبل المكان فتألفه ولا تبرحه[٥٢].

ويعتقد البعض أن لفظة (عدن) مشتقة من الكلمة العبرية (eden)، والتي تعني الترف والسرور والبهجة. بينما يعتقد البعض الآخر، أنها لفظة مشتقة من الكلمة السومرية (ادين)، والتي تعني سهل أو أرض منبسطة[٥٣].

ثانيًا: مكان جنة عدن

لقد تعددت الآراء حول تحديد مكان (جنة عدن) في الأرض. إذ أن سكان بلدان مختلفة يدعـون أن جنـة عدن كائنـة في بلدانهم. ويبـدو أن تلك الادعاءات لا تخلو من المسـوغات العاطفية؛ لأنهم يرون بلدانهم أجمل مكان في الدنيا.

وعـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، يدعـي الإثيوبيـون أن جنـة عـدن في الحبشـة. ويدعي الأفارقة أنها في منطقة قريبة من خط الاستواء بين كينيا وتنزانيا. ويدعي الهنود الحمر أنها في أمريكا الشـمالية بالقرب من (جبال كولورادو) الشـاهقة. وأهل عدن يدعون أنها في عدن. واللبنانيون يدعون أنها في لبنان، وبالتحديد في بلدة (اهدان)، التي تغير اسمها من عدن إلى (اهدان)[٥٤].

والراجـح أن تلـك الادعـاءات لم تبن على أسـاس علمي رصين، إنـما كانت ادعاءات عاطفيـة صرفـة تمكن العهد القديم من دحضهـا؛ لأنه أعطى فكرة تقريبيـة عن مكان (جنة عدن) من الأرض. حيث ورد في العهد القديم ما يأتي: (وأن الرب الإله جبل الإنسان ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسـمة حياة فصار الإنسـان نفسًـا حية. وغرس الرب الإله جنة في عـدن شرقًـا وجعل هناك الإنسـان الذي جبلـه. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شـجرة حسـنة المنظر وطيبة المأكل وشجرة الحياة في وسـط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن فيسـقي الجنة ومن ثم يتشـعب فيصير أربعة أروس. اسم أحدها فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة... واسـم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض الحبشة. واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري في شرقي آشور. والنهر الرابع هو الفرات. وأخذ الرب الإله الإنسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها)[٥٥].

ومـن خلال قراءة تلـك النصوص التوراتيـة، يتبين الموقع التقريبي لمـكان (جنة عدن) بالمقـدار الـذي يفند الأسـاطير أو التمنيـات، التي قالت بهـا كثير من الشـعوب في أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية حول مكان جنة عدن.

ومـن خـلال التدقيق في تلك النصوص التوراتية، يكون موقع جنة عدن في قارة آسـيا،

وبالتحديد في الشرق الأوسط حسب ما عرف بمفاهيم الجغرافية الحديثة. ويمكن الاستدلال على موقع جنة عدن التقريبي من أسماء الأنهار والمدن المذكورة في تلك النصوص. حيث وردت أسماء الأنهار ومواقع بعضها بالشكل الآتي:

١ - نهر فيشون المحيط بجميع أرض الحويلة. ونهر جيجون المحيط بجميع أرض كوش. وهذه الأنهار غير معروفة في الوقت الراهن، والراجح أنها من الأنهار المنقرضة.

٢ - أما النهر الثالث (حداقل) والجاري شرقي آشور، فالمقصود به (نهر دجلة). والنهر الرابع المذكور في النص كان (نهر الفرات). عليه فأنهما دجلة والفرات المعروفان.

عليه، فإن الراجح أن تكون جنة عدن في القسم الجنوبي من العراق، حيث تجري فيه نهري دجلة والفرات المقترن بالخصب والنخل والشجر. ويعد هذا الرأي الأقرب إلى الصواب، لأنه تضمن الصفات الواردة في العهد القديم عن جنة عدن. حيث أنها شرقي فلسطين، وفيها دجلة والفرات وأرض كوش التي تقع بالقرب منها وهي أرض عيلام المعروفة قديمًا باسم (عدنوا). وأن موقع الحويلة هو جزء من جزيرة العرب، الذي يجاور العراق إلى الجنوب الغربي منه.

وبناء على ذلك، يبدو أن الرأي الراجح والأقرب إلى الحقيقة، أن جنة عدن تقع في بلاد النهرين. وذلك للتشابه النسبي ما بين (جنات عدن الموعودة) و(جنة عدن الأرضية). ومما يعزز هذا الرأي إشارات الأب (انستاس ماري الكرملي) بقوله: (في العهد القديم كان الشنعاري (أي العراقي) إذا سار في أرضه فلا يقع بصره إلاَّ على غابات يزدحم فيها النخيل والصفصاف ويمتد السهل بين يديه بقدر ما كان يبلغ بصره من مدى الأفق)[٥٦].

أضف إلى ذلك، أن الأدلة المتوفرة من دراسات الآثار والتاريخ أوجدت بقايا ما يسمى (إنسان نياندرتال) في كهف (شانيدر) العراقي[٥٧]. وأن هذه الواقعة تؤكد أن بداية الخليقة كانت في العراق القديم.

كما أشار علماء الآثار إلى أن أرض سومر كانت تُمارس فيها طقوس عبادة الثعبان في العالم القديم. حيث أعلن الباحث الفيكتوري (جورج سمث) الذي ترجم ملحمة كلكامش

عام ١٨٧٥م عن أهم اكتشافاته وهي (أينونا أبليش) أي (قصة الخليقة) حسب معتقدات السومريين، والتي ترجع كتابتها إلى ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد. إذ تحدث هذا النص المحفور أن العالم خلق في سبعة أيام، وبأن العالم بدأ بحديقة (جنة) كما في النص التوراتي. وأشارت إلى أن خلق العالم السومري كانت بواسطة آلهة لها شكل أفعى عملاقة تسمى (تيامات)[٥٨].

وذهب الباحث الأمريكي (هنري فوستر) إلى القول (من الناحية التقليدية يعتبر العراق قد انبعث من جنة عدن)[٥٩]. وأضاف قائلًا: (دونت آلاف السنين من هذه القصة البشرية في هذا السهل الأشيب... وكان لقصته هذه فجرها حتى في جنات عدن حيثما وجدت. ووفقا لما أورته الكتب المقدسة، وتأييد عدد من السكان المحليين أنفسهم، فأننا نرى الآن الأرض الحقيقية التي كان الآباء يقطنونها. فعند اختلاط نهري دجلة والفرات حيث يؤلفان شط العرب تقع مدينة القرنة المتهدمة، والتي تقول التقاليد بأنها مهد العنصر البشري. فلقد قيل بأن آدم وحواء كانا يتنزهان هنا)[٦٠].

كما أنه فسر النص التوراتي (نهرا يخرج من عدن)، على أن مشهد مثل هذا النهر من اليسير أن يقوم في بلاد الرافدين بفروعه المتعددة[٦١].

وأكد الدكتور (تقي الدباغ) أستاذ الآثار القديمة في جامعة بغداد على ما يأتي: (وتروى قصة آدم أبي البشر، أنه عندما أُخْرِج من الجنة وأُنْزِل من السماء كان أول ما وطئت قدماه أرض العراق. وبهذا تشير إلى اعتقاد قديم عند الناس بأن العراق هو أقدم موطن للبشرية الأولى. ومن الطبيعي أن القصة أدركت أن في العراق دون بقية رقاع أرض الله، خصائص وميزات وسمات قريبة من الجنة دفعت آدم إلى اختيار أرضه للنزول فيها). وأضاف قائلًا: (وإذا ارتاب البعض في قصة اختيار سيدنا آدم العراق من دون بقية رقاع أرض الله، فإنه لا سبيل إلى إنكار حقيقة ثابتة في التاريخ، وهي أن حضارة الإنسان قد وجدت في أرض العراق خير مهد يمنحها الدفء)[٦٢].

عليه، يتبين ما يأتي:

١ - أن جنة عدن كانت الموطن الأول للبشرية، والتي سكنها آدم وحواء.

٢- لا يتجاوز مكان جنة عدن أرض الرافدين، وبالتحديد في جنوب العراق.

٣- لم تبق جنة عدن على حالها، إنما توسعت في المساحة، وازدادت في السكان، وتوسعت مصالحها. بدلالة النص التوراتي، الذي يفيد أن الله أوصى آدم وحواء بالتكاثر لقوله: (وقال لهم أنموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض)[٦٣].

كما أن تكاثر البشر ورد في نصوص العهد القديم عن طريقين هما:

أ - التزاوج (رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع ما اختاروا)[٦٤].

ب- التوالد (ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات)[٦٥].

وقد استفاض العهد القديم في الحديث عن أعمار آدم وذريته بالشكل الآتي:

١- عاش آدم ٩٣٠ عامًا (فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة سنة وثلاثين سنة ومات)[٦٦].

٢- عاش ابنه شيت ٩١٢ عامًا (فكانت كل أيام شيت تسع مئة سنة واثنتي عشرة سنة ومات)[٦٧].

٣- عاش أنوش ابن شيت ٩٠٥ عامًا (فكانت كل أيام أنوش تسع مئة سنة وخمس سنين ومات)[٦٨].

٤- عاش فنان بن أنوش ٩١٠ عامًا (فكانت كل أيام فنان تسع مئة وعشرة سنين ومات)[٦٩].

٥- عاش مهلليل بن فنان ٨٩٥ عامًا (فكانت كل أيام مهلليل ثماني مئة سنة وخمسًا وتسعين سنة ومات)[٧٠].

٦- عاش يارد بن مهلليل ٩٦٢ عامًا (فكانت كل أيام يارد تسع مئة سنة واثنتين وستين سنة ومات)[٧١].

٧- عاش أخنوخ بن يارد ٣٦٥ عامًا (فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة سنة وخمسًا وستين سنة ومات)[٧٢].

٨- عاش متوشالح بن أخنوخ ٩٦٩ عامًا (فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة سنة وتسعًا وستين سنة ومات)[٧٣].

٩- عاش لامك بن متوشالح ٧٧٧ عامًا (فكانت كل أيام لامك سبع مئة سنة وسبعًا وسبعين سنة ومات)[٧٤].

وبهذا الشكل نشأ مجتمع الفطرة البدائي (ذلك المجتمع البسيط الذي تسود أرجاءه معطيات الفطرة السليمة والسليقة المستقيمة، التي كان عليها الإنسان قبل أن ينحدر في مزالق الأنانية وحب الذات، والطمع، والاستغلال، ثم الظلم والاستكبار)[٧٥].

مع ذلك، فإن هذا النمو الأسري لابد أن يكون قد أفضى إلى ولادة تنظيم اجتماعي بسيط. والراجح أن هذا التنظيم لم يرتق إلى مستوى الدولة حتى بمفهومها القديم. وقد أطلق القرآن الكريم على تلك التنظيمات اسم (القرى). إذ أنه سبحانه أشار في نهاية القصص الواردة في سورة هود والمتعلقة بالأنبياء عليهم السلام (نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، شعيب) إلى ذلك بوضوح. إذ نجد هذا التعقيب في ختام السورة، والذي يفيد بإطلاق اسم (القرى) على تلك التنظيمات الاجتماعية التي كانت قائمة في تلك العصور الماضية، بقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[٧٦].

وقد روي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون، كلها كانت على ملة الحق. وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بُعِث إليهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقالوا: أن نوح أول نبي أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده. وهذا ما ذهب إليه (ابن عباس) و(قتادة)[٧٧].

عليه، فإن مجتمع الفطرة الذي تطور في بلاد الرافدين بموجب نظرية الأسرة في تلك المرحلة التاريخية أصبح مع مرور الزمن (قرية)، يسودها الظلم، خصوصًا بعد أن فقد قاعدة التعاون المشترك لمواجهة الطبيعة. وبدأت تنمو بدلًا عنها العلاقة على أساس التسخير

والتشغيل. حيث أن الأقوياء نمت فيهم شهوة التملك والتسلط، مما أدى بهم إلى الطمع ثم الاستغلال والظلم[٧٨].

ومفهوم (القرية) في اللغة العربية يدل على جمع واجتماع. وجمعها قرى. وهي مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قرارًا[٧٩]. ويطلق لفظ القرية لغة على المصر الجامع، وكل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قرارًا. وسميت القرية بهذا الاسم لاجتماع الناس فيها. والقرية اصطلاحًا، تطلق على المكان الذي يعيش فيه مجتمع قليل من الناس في منازل مركبة من الجدران والسقف غير مسورة. وأهلها ذوو زرع ونخيل وفواكه وخيل وإبل وماشية.

وقد وردت لفظة (القرية) وتصريفاتها في القرآن الكريم سبعًا وخمسين مرة في سبع وعشرين سورة. وهناك دلالات مشتركة لمصطلح (القرية) في السور المكية، والمدنية تدور حول معان وهي مكة، وبيت المقدس، والأمة بمعنى أهل القرية والساكنون فيها[٨٠].

عليه، لا يمكن الحديث عن دولة في مرحلة ما قبل الطوفان، إنما يصح الحديث عن تجمعات بشرية محدودة تسمى (القرى). وأن ما ورد في وثيقة إثبات الملوك السومرية لا يرتقي إلى مستوى الدول، رغم أنها اشارت إلى تأسيس خمسة ممالك في العراق قبل الطوفان (اريدو، باد تبيرا، لرك، سبار، شروباك). والأدق أنها كانت تجمعات بشرية وليس دولة بالمعنى المتعارف عليه. وذلك للأسباب الآتية:

١- من الصعب الاحتجاج بهذه الوثيقة؛ لأن زمن تدوينها يرجع إلى عهد سلالة أور الثالثة. وأن آخر نسخة منها تعود إلى عهد سلالة آيسن (٢٠١٧ - ١٧٩٤ ق.م)[٨١].

٢- أن تلك الوثيقة تضمنت مبالغات في أعداد السنين المخصصة لحكم الملوك فيها وعهود حكمهم قبل الطوفان، والتي ناهزت ربع مليون عام.

٣- أن ورود جملة (هبطت الملوكية من السماء) تدل، في جانب منها، على السمة الأسطورية لهذه الوثيقة، خصوصًا في إشاراتها لعهود ما قبل الطوفان.

ولقد استمر المشهد الاجتماعي - السياسي على هذا المنوال لغاية حدوث واقعة (الطوفان) الشهيرة في عهد النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والتي نقلت البشرية إلى مرحلة جديدة سنأتي عليها في المبحث الآتي.

المبحث الثاني
ملامح دولة نوح على أرض العراق

المطلب الأول
واقعة الطوفان وأسبابها

إن الطوفان في الأصل حادثة تاريخية واقعية حدثت في الماضي البعيد. وكانت من جسامة التأثير وفداحته أنها تركت أثرًا بليغًا في عقول الأجيال المتعاقبة. فتناقلتها تلك الأجيال بالروايات الشفوية، التي حورت بتفاصيلها وحيثياتها.

وقد ذُكِرَت (واقعة الطوفان) في القرآن الكريم بلفظة صريحة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(٨٢). وأشار إلى تلك الواقعة ضمنًا في سورة القمر بقوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾(٨٣).

أما التفاصيل الاجمالية لواقعة الطوفان فقد جاءت بشكل موسع في سورة هود، دون أن تُذْكَر باللفظ الصريح. وذلك لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. وقال: ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٨٤).

كما وردت (واقعة الطوفان) في العهد القديم، وبالتحديد في الفصل السادس والسابع، والثامن، والتاسع، من سفر التكوين. حيث أتت هذه الفصول على ذكر هذه الواقعة

بدقائقها وجزئياتها وتفصيلاتها[٨٥]. وما عدا ذلك، فقد جاءت بعض الإشارات العابرة لواقعة الطوفان في سفر أشعيا[٨٦]، وسفر أيوب[٨٧].

كذلك وردت إشارات أخرى إلى (واقعة الطوفان) في العهد الجديد، مثل (لأنه كما كانوا قبل أيام الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى يوم دخل نوح التابوت. ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وذهب بالجميع)[٨٨]. وكذلك (وكما كان في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن البشر. فأنهم كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى يوم دخول نوح التابوت فجاء الطوفان وأهلك الجميع)[٨٩].

ويبدو أن واقعة الطوفان التي حدثت في زمن النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كانت قد غيرت مجرى التاريخ البشري. إذ أنها نقلت البشرية إلى مرحلة جديدة. وقد أجمعت الكتب السماوية الثلاث، القرآن الكريم، والعهد القديم، والعهد الجديد، على حد سواء على أن الظلم والشر والطغيان الذي تجاوز الحدود بشكل ملفت للنظر لدى قوم نوح، كان السبب الذي أفضى إلى وقوع الطوفان كعقوبة ربانية للقائمين على ذلك، والمسببين له.

فالقرآن الكريم احتسب الظلم والطغيان والفسق والسوء وانكار النبوة ووحدانية الله ووجوده أسبابًا لوقوع عقوبة الطوفان. وذلك لقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[٩٠]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[٩١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٩٢]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾[٩٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٩٤]. وكذلك قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[٩٥]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٩٦].

أما العهد القديم، فقد جعل من شيوع الشر والجور وهيمنة الجبابرة على قوم نوح بمثابة الأسباب الجوهرية لوقوع حادثة الطوفان. إذ وردت النصوص الآتية (وكان على الأرض

جبابرة في تلك الأيام. وأيضًا بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر. ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض...)[٩٧]. (وفسدت الأرض أمام الله وملئت جورًا. ورأى الله الأرض فاذا هي فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه عليها. فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يدي فقد امتلأت الأرض من أيديهم جورًا فها أنذا مهلكهم مع الأرض)[٩٨].

وقد أكد العلامة (طه باقر)، صحة وقوع حادثة الطوفان في عهد النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. واستدل على ذلك بما يأتي:

أ - بالنظر لأوجه الشبه بين رواية الطوفان التي رواها (أوتو - نبشتم لكلكامش). إذ أن الروايتين ترجع إلى حادثة واحدة. وأن هذه الحادثة وقعت في العراق القديم، ولا سيما في القسم الجنوبي منه. أي في السهل الرسوبي. وأن زمنها يرجع إلى نهاية العهد المسمى في تاريخ حضارة وادي الرافدين باسم جمدة نصر (في حدود ٣٢٠٠ ق.م)، وإلى أوائل العصر الحضاري المُسَمّىَ بعصر السلالات (في حدود بداية الألف الثالث ق.م).

ب- كما رجح وقوع حادثة الطوفان في جنوب العراق، بدلالة التنقيبات الحديثة. حيث عُثِر على بقايا ترسبات طوفان تفصل بين عهدي جمدة نصر وعصر فجر السلالات في عدد من المدن القديمة مثل (كيش، والوركاء، وشروباك).

ج - كما أن من السهولة إدراك علة الطوفان الطبيعية، ولا سيما في أرض مثل السهل الرسوبي من العراق، الذي كان معرضًا في عهوده جميعًا إلى خطر الفيضانات[٩٩].

أضف إلى ذلك، أظهرت الدراسات بالدلائل البالينولوجية والجيولوجية، على حد ما توصل إليه، الأستاذ الدكتور المتخصص في علوم الأرض/ جامعة بغداد (ثامر خزعل العامري)، أن ارتفاع درجة الحرارة ومستوى سطح البحر العالميين قبل عشرة آلاف سنة قد أديا إلى الطغيان البحري على الأرض اليابسة. وتغيير مناخ أرض الرافدين إلى الجو المعتدل الحرارة للمعيشة البشرية والمطير جدًا. مما ساعد على ما يأتي:

أ – اندفاع المياه البحرية من البحر العربي وحدوث الطوفان الرئيسي، الذي غطى منخفض الخليج العربي وجنوب العراق بالمياه. وتراجعه عن جنوب العراق قبل أربعة آلاف سنة مع تغيير مواقع مصبات نهري دجلة والفرات في المياه البحرية، حسب الأدلة الرسوبية ومتكيسات ذوات السوطين البحرية المواطن.

ب– انتشار المراعي والغابات وجريان المياه، وامتلاء البحيرات بالمياه في مناطق الصحارى الحالية في العراق منذ الطوفان الرئيسي حتى بدء عصر التصحر قبل حوالي (٢٥٠٠ سنة)، وحتى الوقت الحالي حسب أدلة نزايد الكرامينيا والأشجار وتناقص أعشاب الجينو بود.

ج – غرق واندثار الأقوام التي سكنت الوادي الخصيب لمنخفض الخليج العربي المندفعة شمالًا، وانتقال من آمنوا إلى سواحل الخليج العربي الشمالية ضمن إطار وادي الرافدين لتكوين السلالات البشرية الذكية، التي كونت أولى حضارات العالم القديم(١٠٠).

ويبدو أن الطوفان كان شاملًا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم يومذاك. فقد كانوا مقيمين في منطقة الشرق الأوسط، وبالتحديد في بلاد الرافدين. لذلك ذهب الباحث (عبد الوهاب النجار) إلى القول: (ليس في هذه المسألة نص قاطع في القرآن. والذي أميل إليه، أن يكون الطوفان خاصة، وأن النوع الإنساني لم يكن منتشرًا في جميع أنحاء الكرة الأرضية)(١٠١).

ومن خلال ظاهر النصوص القرآنية يبدو أن الطوفان لم يكن في منطقة من الأرض دون أخرى. إنما غطى سطح الأرض كلها، لأن كلمة الأرض ذكرت في القرآن الكريم بصورة مطلقة مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾(١٠٢). وكذلك ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾(١٠٣).

أما العهد القديم، فقد أشار إلى شمول الطوفان للأرض كلها (وها أنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض يهلك)(١٠٤).

وكذلك (ومحا الله كل قائم كان على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط)[١٠٥]. وكذلك (كانت المياه على وجه الأرض كلها)[١٠٦].

ولقد ذكر المؤرخون والرواة حكايات مختلفة ومتباينة عن واقعة الطوفان ومدته، وعن سفينة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما حمل فيها من الناجين، بعضها كان صحيحًا، وبعضها كان من الأساطير. بيد أن الذي يهمنا لأغراض هذا البحث أمور محددة نود البحث فيها. لعل أهمها:

ما المكان الذي استوت عليه سفينة نوح؟ وأين استقر بعد النزول منها؟ وما الواقع السياسي - الاجتماعي الذي أعقب الطوفان؟

هذا ما سوف نعرج عليه في المحاور الآتية.

المطلب الثاني
المكان الذي استوت عليه سفينة نوح

ذهب العهد القديم إلى القول أن سفينة نوح كانت قد استقرت على جبل آرارات بقوله: (واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على أراراط).[١٠٧] ويقصد به (جبل آرارات) بلفظة أخرى أكثر شيوعًا.

وجبل آرارات يعد أكبر كتلة جبلية وحيدة في العالم. بينما معظم جبال العالم تقع ضمن سلاسل جبلية ممتدة. ويشكل الجبل نقطة التقاء رباعية بين تركيا وأرمينيا، وأذربيجان وإيران، مرتفعًا بحوالي (٥١٣٧ مترًا) عن السهول المحيطة به[١٠٨].

وجاء في الموسوعة البريطانية أن جبل آرارات يقع في أقصى نقطة شرقية من تركيا. وجاء فيها أن رحالة ألماني الجنسية كتب عام ١٨٢٩ م أنه نجح في الصعود إلى القمة. ومنذ ذلك الحين، أخذ يتسلق القمة أكثر من مستكشف. وصرح بعضهم أنه شاهد بقايا السفينة ولكن لا توجد أدلة مقنعة على ذلك[١٠٩].

ويبدو أن أصل تسمية آرارات كانت قد وردت في العهد القديم، بيد أنه لم يحدد مكانها. وعندما ترجم (جيروم) التوراة من العبرية إلى اللاتينية استبدل (آرارات) ب (أرمينيا). ولما كشفت الوثائق الآشورية عن وجود تَجَمُّع بشري في القرن السابع قبل الميلاد في أرمينيا حمل اسم (أورارتو)، بادر قسم من الباحثين اليهود والمسيحيين إلى احتسابه الاسم الذي أرادته التوراة. ثم ادعى البعض أنه عثر على سفينة نوح في قمة آرارات.

ولعل أهم دراسة مسيحية معاصرة فندت هذا الموقع، هي ما كتبه الباحث (بل كراوس) تحت عنوان (سفينة نوح في مرساها الأخير).

وقد ناقش أدلة الباحثين الجدد الذين يدعون أن مرسى سفينة نوح كان في آرارات. وفند تلك الادعاءات بالشكل الآتي:[١١٠]

١- لم تكن روايات شهود العيان ذات جدوى في تحديد موقع السفينة بحكم تناقضاتها.

٢- لا يوجد دليل علمي يثبت أن الجبل كان تحت الماء كالترسبات والحفر وغيرها.

٣- أن القلنسوة الجبلية التي يشار إلى أنها أخفت السفينة وحفظتها لم تكن ثابتة؛ لأنها تجري أسفل الجبل ببضعة أصابع جليدية. لذلك أن أي تركيب سيتحطم بالتدريج بسبب المعدل غير المنتظم لتدفق النهر الجليدي.

٤- ثم تساءل: كيف يمكن أن تختفي سفينة طولها ٥٠٠ قدم؟

٥- ثم أشار إلى أسباب تاريخية تقود إلى الاقتناع بعدم وجود سفينة نوح على جبل آرارات.

ومن الجدير بالذكر، أن القرآن الكريم قد مثل مصدرًا مستقلًا في معلومته التي أوردها بصدد استواء سفينة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[١١١]. ويلاحظ أنه لم يستعر هذه التسمية من أي مصدر سابق.

كما يلاحظ أن القرآن الكريم كان قد استخدم لفظة (استوت) وليس (رست)؛ لأن السفينة في العادة ترسو في الميناء. ولهذا سمي (مرسى). ولكن هنا الوضع مختلف لأن السفينة

تأتي من أعلى إلى أسفل أي رأسيًا وليس أفقيًا كالمعتاد. لذلك استخدم لفظة (استوت) وليس (رست)[١١٢].

واستوت على الجودي تعني استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي. وقد أجمعت أغلب المصادر الإسلامية على أن (جبل الجودي) يقع في العراق. بيد أنهم اختلفوا حول تحديد مكانه بالضبط من أرض العراق.

ويبدو أن الرأي الأكثر شيوعًا، ذهب إلى القول أن موقع السفينة كان في جزيرة ابن عمر قرب الموصل، حسب تفسير الطبري في جامع البيان. إذ قال: (وهو جبل فيما ذكر بناحية الموصل). ولعل أقدم من آثر عنه ذلك أحد الرواة الأوائل (ابن أبي نجيح)، الذي روى عنه الطبري عن مجاهد (الجودي جبل بالجزيرة – أي جزيرة ابن عمر بالموصل – تشامخت الجبال من الغرق، وتواضع هو فلم يغرق فأرست عليه)[١١٣].

وذكر ابن الأثير، أنه (انتهت السفينة إلى الجودي، وهو جبل بناحية قردي قرب الموصل)[١١٤].

وذكر (ياقوت الحموي) أن الجودي (جبل بالجزيرة قرب الموصل. وقيل هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من نهر دجلة)[١١٥].

وذهب العلامة (أحمد الكبيسي) إلى الاعتقاد، بأن الجودي جبل يقع في جزيرة ابن عمر قرب الموصل بقوله: (استقرت السفينة بركابها المؤمنين، وبمن فيها من المخلوقات على جبل الجودي قرب الموصل)[١١٦].

وأكد الباحث (محمود شلبي) على أنه (استوت السفينة واستقرت على الجودي، هو جبل قرب الموصل)[١١٧].

وفي دائرة المعارف الإسلامية جاء أن (الجودي جبل شامخ في الشمال الشرقي لجزيرة ابن عمر. وترجع شهرة هذا الجبل إلى استواء سفينة نوح عليه)[١١٨].

وذهب إلى ذلك رئيس المجمع العلمي العراقي الباحث (صالح أحمد العلي) بقوله: (واستوت سفينة نوح على الجودي، وهو الجبل المطل على العراق في شماله. وهذا أمر سار

ذكـره عند الأقدمـين... وأوضحت التنقيبات الحديثة بعض معالمـه، عندما وجدت بقايا ما يسمى إنسان نياندرثال في كهف شانيدر)[١١٩].

وذهب إلى ذلك الكثير من المفسرين منهم (ابن كثير) في كتابه (تفسـير القرآن الكريم)، وابـن مسـعود البغوي في كتابـه (معالم التنزيل)، و(عبد الرحمن السـعدي) في كتابه (تيسـير الكريـم الرحمـن في تفسـير كلام المنـان)، و(طنطـاوي) في كتابه (التفسـير الوسـيط للقرآن الكريـم)، و(الطـبرسي) في كتابه (مجمع البيان في تفسـير القـرآن)، وغيرهم. مما يدل على أن هذا الرأي يمثل الرأي الأكثر شيوعًا.

مـع ذلـك هناك رأي، أقل شـيوعًا، ذهـب إلى القـول، أن جبل الجودي إنـما هو (جبل النجف)، الذي يقع في (فرات الكوفة). وهذا ما أشار إليه، المازندراني (١٦٧٠ هجرية) في شرحه على كتاب الكافي بقوله: (قيل هو جبل صغير كان في النجف)[١٢٠].

ونقل المجلسي (١١١١ هجرية) الأقوال التي أوردها الطبرسي في تفسـيره، والتي تفيد بـأن جبـل الجودي قيل بأنـه بناحية آمد وهـي من مدن ديار بكـر. وقيل أنه بقـرب الجزيرة بالموصل. وقيل أنه اسـم لكل جبل وأنه أرض صلبة. وخلص إلى القول: (يظهر من بعض الأخبـار أنه كان بقرب الكوفة، وربما أشـعر بعضهـا بأنه الغري)[١٢١]. وهـذا ما ذهب إليه الكليني في (الكافي) أيضًا[١٢٢].

ولعـل أهم البحـوث التي ذهبت بهذا الاتجـاه كانت للباحث (سـامي البدري)، الذي ذهـب إلى القول، أن النجف تعد مرسـى سـفينة نـوح. إذ (يرى أنـه في النجف على الجانب الغربي من الفرات الأوسـط وهو المشـهور عند الشـيعة، وتنفرد به مصادرهم التراثية. وهو الذي يتبنى كاتب هذا البحث إثارته وتقديم الشواهد على صحته)[١٢٣]. واستدل على ذلك بثلاثة أنواع من الوثائق التي اعتمدها حسب مدركاته وخلفياته وهي:[١٢٤]

١- الوثائق المسمارية باللغة السومرية واللغة الأكدية.

٢- الوثائق العبرية والآرامية واللاتينية (العهد القديم).

٣- الوثائق العربية المتمثلة بالقرآن الكريم وتراث النبوة بروايات أهل البيت.

وحاول الدكتور (ثامر خزعل العامري) الأستاذ في كلية العلوم/ جامعة بغداد – قسم علـوم الأرض، أن يثبت صحة هذا الـرأي بالاعتماد على التغييرات البيئية اللاحقة في وادي الرافدين بالأدلة (البالينولوجية). والذي خلص إلى القول، أن سفينة نوح كانت قد اندفعت إلى جنوب العراق، وربما رسـت على أعالي مناطق جنوب العراق خلال مسيرتها لترسو على المناطـق المرتفعة منها، مثل (طار النجف)، و(كربـلاء)، المرتفعات الوحيدة هناك لأكثر من ١٥٠ مترًا. وتكون النتائج متطابقة مع اسـتنتاجات الباحث (سـامي البدري) لسنة ٢٠٠٩ م، وتفسـيراته في هذا المجال من تراث السـومريين والأكديين في الكتابة المسمارية، والتراث اليهودي والمسـيحي في اللغات اللاتينية، والعبرية، والآرامية، والتراث الإسـلامي. وينفي الباحـث اندفاعهـا نحو بلاد الأناضول لارتفاعاتها العاليـة هناك لأكثر من ١٠٠٠ مترًا عن مسـتوى سـطح البحر الحالي. ولذلك فإنها خارج مدى رسو سـفينة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على حد قوله[١٢٥].

وحَيْثما اسـتوت سـفينة نوح، سـواء كانت في جزيـرة ابن عمر قرب الموصـل أم كانت في النجف، فإن الاسـتنتاج المسـتنبط من ذلك كله يدل على أن سفينة نوح كانت قد استوت في بلاد الرافدين.

إن هـذه الواقعـة التاريخيـة المذهلـة، كانت قـد مثلت بدايـة مرحلة جديـدة في التاريخ البشري. أن هذه المرحلة التي انطلقت في بلاد الرافدين شـكلت ظاهرة اجتماعية – سياسـية جديـدة ممكـن أن نطلق عليها (ظاهرة الدولـة) بمفهومها القديم المبسـط. أن تلك الظاهرة نقلـت البشريـة من (نظـام القرى البدائـي) إلى (نظام الدولـة)، الأكثر ارتقاءً رغم بسـاطته آنذاك. وهذا ما سنعرج عليه في المطلب الآتي.

المطلب الثالث
تأسيس دولة نوح على أرض العراق

بـدأت عمليـة تشـكيل الدولـة العراقيـة الأولى في التاريـخ البـشري في عهـد النبـي نـوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. حيـث بدأت عملية تشـكيل الشـعب، الذي يعـد الركـن الأول من أركان

الدولـة. ومـن ثم تمت عملية اختيار الإقليم، الذي يعد الركن الثاني من أركان الدولة. ومن ثم اختيار السلطة السياسية الحاكمة وتمكينها من بسط سلطتها على الإقليم وسكانه، والذي يعد الركن الثالث من أركان الدولة.

أولًا: تشكيل الشعب في دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

يبـدو أن عملية تشـكيل الشـعب في دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت قد بـدأت قبل الطوفان، عندما خاطب الله سبحانه النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(١٢٦).

وفي موقع أخر، ذهب النص المقدس إلى تفصيل مضمون هذا الشعب بحصره بالأقلية التي ركبت السـفينة فقط لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١٢٧).

وبذلك تَكَوَّن الشعب من المؤمنين برسالة النبي نوح فقط. ومن ثم بدأت عملية إجراء اسـتثناءات أبعدت البعض من عضوية هذا الشـعب. وهذه الاسـتثناءات كانت على ثلاثة أنواع رئيسية هي:

١- أبعـاد غـير المؤمنين من عضوية الشـعب لقوله تعـالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(١٢٨). ولقوله تعالى على لسـان النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(١٢٩). ولقولـه تعـالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١٣٠).

٢- لم تكـن صلـة النسـب من مقومات هذا الشـعب. لذلك اسـتثني ابن نـوح من عضوية هذا الشـعب. إذ خاطب الله سبحانه النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١٣١).

٣- لم تكن صلة السـبب من مقومات هذا الشـعب. لذلك تم اسـتثناء زوجة نوح من عضويـة هـذا الشـعب لقولـه تعـالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ

وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[١٣٢].

وقد علق (سيد قطب) على تلك النصوص بقوله: (أن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين. وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد، وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم. أن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة)[١٣٣].

وخلص إلى القول أنه (لم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة... ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية هي آصرة التجمع)[١٣٤].

عليه، يتبين أن العقيدة كانت هي المعيار في تحديد مفهوم الشعب في دولة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

إن هذه الحفنة القليلة من أتباع نوح، والتي تذكر الروايات أنهم يتراوحون ما بين ٨ – ٨٠ فردًا كانوا هم حصيلة دعوة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في ٩٥٠ عامًا. وأن هذه الحفنه قد استحقت أن يغير الله سبحانه لها المألوف من ظواهر الكون، وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي غمر كل شيء في الأرض. وأن يجعل هذه الحفنة وحدها وارثة الأرض بعد ذلك. لتصبح بذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد[١٣٥]. لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ ﴾[١٣٦].

وكذلك ورد ما يشبه هذا النص في العهد القديم (ومحا الله كل قائم على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط)[١٣٧]. أن هذه الصفوة المختارة هي التي مثلت الشعب في دولة نوح، التي تأسست في بلاد الرافدين.

ثانيًا: اختيار الإقليم في دولة نوح

بعد أن تمت عملية تكوين الشعب في دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بدأت عملية اختيار الإقليم بوصفه الركن الثاني من أركان الدولة. ويبدو أن عملية اختيار الإقليم كانت قد مرت بمرحلتين أساسيتين هما:

١- مرحلة اختيار الإقليم المؤقت (الفُلْك):

وقد بدأت هذه المرحلة، عندما اشتدت عملية التضييق على نوح وأصحابه من قومه، لدرجة وصلت إلى حد التهديد بالرجم لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾(١٣٨).

من هنا بدأت عملية اختيار الإقليم المؤقت (الفُلْك) بمشيئة الله لقوله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾(١٣٩). وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾(١٤٠). وكذلك قوله: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١٤١).

ويبدو أن هذا الإقليم المؤقت (الفُلْك) كان قد أصبح وطنًا مؤقتًا للشعب المختار رغم الخطورة البالغة التي اكتنفته لقوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾(١٤٢).

وبقيت هذه السفينة تجري بالشعب المختار حتى استوت على جبل الجودي لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾(١٤٣). وهي المحطة الأخيرة للإقليم المؤقت على أرض الرافدين.

٢- مرحلة اختيار الإقليم الدائم (اليابسة):

ثم بدأت عملية اختيار الإقليم الدائم لدولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث اختار الرب سبحانه جزءً من اليابسة من أرض الرافدين ليكون وطنًا دائمًا لهذه الحفنة المؤمنة من أصحاب نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١٤٤).

وفي العهد القديم ورد المعنى نفسه (اخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونسوة

بنيك معك وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدن في الأرض وينمون ويكثرن عليها)[١٤٥].

وقد وردت في العهد القديم تفصيلات لعملية اختيار الإقليم الدائم لدولة نوح منها (وكان بعد أربعين يومًا أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها. وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد إلى أن جفت المياه عن الأرض. ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاضت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مستقرًا لرجلها فرجعت إليه إلى التابوت إذ كانت المياه على وجه الأرض كلها فمد يده فأخذها وأدخلها إليه إلى التابوت. ولبث أيضًا سبعة أيام أخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت. فعادت إليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفت عن الأرض. ولبث أيضًا سبعة أيام أخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع إليه أيضًا. وكان في سنة إحدى وست مئة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض. فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فاذا وجه الأرض قد نشف. وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض. فخاطب الله نوحًا قائلًا. أخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك. وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب والطيور الساعي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدن في الأرض وينمون ويكثرن عليها)[١٤٦].

عليه أصبح أذن النزول من الفُلْك إلى الأرض اليابسة بمثابة بداية لحياة جديدة[١٤٧]. ومن هذه الخطوة تشكل إقليم دولة نوح ليشكل الركن الثاني من أركانها.

ثالثًا: مرحلة اختيار السلطة السياسية الحاكمة

شخصية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الراجح أنه بعد الطوفان كانت قد ترسخت سلطة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بشكل واضح، بوصفه امتلك السلطتين الدينية (النبوة) والسياسية الحاكمة (السلطة السياسية) في الوقت نفسه. وذلك لأسباب عديدة لعل أهمها ما يأتي:

١ - يبدو أن سلطته السياسية كانت قد ترسخت لدى المؤمنين برسالته بوصفه رسولًا

من رب العالمين لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[١٤٨]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١٤٩].

والثابت عقائديًا، أن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أول رسول أرسله الله سبحانه إلى الناس من (أولي العزم). وأولي العزم تعني (أولوا الأرادة الخارقة، والتي ليس كمثلها أرادة في البشر)[١٥٠].

ولأهمية الدور الذي لعبه النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بوصفه الأب الثاني للبشرية، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في العديد من السور، والكثير من الآيات القرآنية. ومجموع السور التي ورد فيها ذكر النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بلغت ٢٩ سورة. أما اسمه فقد ورد في ٤٣ موضعًا من القرآن الكريم. وقد تكررت قصته مع قومه في سور عديدة ومختلفة في القرآن الكريم وبأساليب متنوعة. إذ جاءت قصته مفصلة في سورة هود. كما جاء الحديث عنها كذلك في سور أخرى بشيء من التفصيل مثل (الأعراف، يونس، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر). كما وردت إشارات إليها في سور (الأنبياء، الفرقان، الذاريات، آل عمران، النساء، المائدة). كما أن هناك سورة كاملة سميت باسمه (سورة نوح).

ومن اللافت، أن الناظر لهذه النصوص كلها ومواضعها يظن نفسه أمام قصة يُضْرَب بها المثل بحكم تكرارها في النص المقدس، خاصة تلك النصوص التي أغنت بذكر قصته من حيث الإجمال والتفصيل في البيان القرآني. وهي مختلفة بحسب ما تكون العناية الإلهية موجهة نحوه من البيان القرآني[١٥١].

أضف إلى ذلك، استفاض العهد القديم في ذكر قصة نوح بشيء من التفصيل في أكثر من فصل من فصوله[١٥٢]. كما وردت إشارات عنه في العهد الجديد كما أسلفنا آنفا.

٢- وأن لم تكن سلطة نوح السياسية قد تعززت بوسائل الإقناع أو بالنبوة، فإنها بلا شك كانت قد تعززت بعد واقعة الطوفان العظيمة وما حملته من ترهيب أفضى إلى إغراق الكفار والعاصين من قومه باستثناء المؤمنين الذين ركبوا معه في سفينة النجاة.

ومن الجدير بالذكر، أنه تقريبًا، لم تخل من ذكره شعوب مختلفة تحدثت عن الطوفان

مثل السومريين، والبابليين، والآشوريين، والفرس، والإغريق، والهند، والصين، وحتى البرازيل واستراليا. حيث نجد أكثر من ٥٠٠ أسطورة تدور حول الطوفان تنحدر من ذاكرة الشعوب المختلفة، مما يدل على عمق تأثيرها في ترسيخ السلطة السياسية الحاكمة للنبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٣- وبغض النظر عن نبوة نوح ورسالته، فإن شخصيته كانت تحمل من السمات ما تؤهله لقيادة الدولة والمجتمع. ولعل أهم تلك السمات الشخصية للنبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما يأتي:

أ - سعة صدره:

أن هذه الصفة تعد من خصائص القائد السياسي البارع. وتتضح هذه الصفة لأنه لم يمكث أحد من الرسل والأنبياء مثلما مكث نوح يدعو قومه. فلم نسمع أن رسولًا مكث في قومه (٩٥٠ عامًا) إلاَّ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. إذ يعد صاحب المقام الفذ الذي تفرد به عن سائر الرسل[١٥٣].

ويبدو أن رسولًا لبث بين قومه (٩٥٠ عامًا)، ولم يخرج منهم إلاَّ بعدد قليل من المؤمنين يتراوح ما بين (٨ - ٨٠) مؤمنًا، يعد دليلًا قاطعًا على سعة صدره، خصوصًا أنه واجه قومًا تأصل الكفر والعناد والإجرام لديهم بحيث استوجب قطع دابرهم بالطوفان[١٥٤]. أن هذا الكفر والعناد قد اتضح بالنص المقدس الآتي ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[١٥٥]. مما دفع النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للدعاء عليهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١٥٦].

ويبدو أن الذي كان يَحُول بين هؤلاء القوم والإيمان برسالة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يكمن في خنوعهم وخضوعهم لسلطة المستكبرين من قومه[١٥٧].

ب- القوة والثبات والعزم:

أن هذه الصفة في شخصية النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأنه من الأنبياء الخمسة (أولي العزم). وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[١٥٨].

والعزم معناه القوة والثبات والعزم في الأمر. لذلك خاطب الله سبحانه النبي محمد ﷺ بقوله ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾[١٥٩].

ولا ريب في أن القوة والثبات والعزم في الأمر من خصائص القيادة التي أهلت النبي نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لبناء دولته وإدارتها.

ج- العدالة على شروطها الجامعة:

لقد كانت العدالة على شروطها الجامعة من أهم سمات شخصية النبي نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. إذ أشار القرآن الكريم إلى شيء من تلك العدالة من جهات عدة منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١٦٠]. ومعنى ذلك، أن نوحًا يمثل خلاصة البشر أجمعين. أي أنه أوتي جوامع الصفات العليا التي جعلته أهلًا لاستقبال الوحي.

كما أن الشخصية التي يتنزل عليها وحي الله لابد أن تزداد سموًا إلى أعلى. فالاصطفاء يؤتيه الاستعداد. والوحي يؤتيه الإمداد[١٦١]. وذلك لقوله: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾[١٦٢].

وبلا شك، فإن من يتولى الله هدايته لا يمكن إدراك مدى هداه. وهنا حصل نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على الاصطفاء، ثم الوحي، ثم الهدى، ثم الإرسال والرسالة. والله سبحانه حين يرسل رسولًا إنما يختار من هو أعلى مستوى من البشر العاديين.[١٦٣]

ثم تحدث نوح عن شخصيته حسب قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١٦٤].

فضلًا عن ذلك، كان نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عبدًا شكورًا، وهي من الصفات العليا للإنسان عمومًا وللقائد خصوصًا. لذلك وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾[١٦٥].

كما أشار العهد القديم إلى شيء من سمات شخصية نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في أكثر من نص

منها (كان نوح رجلًا برًا كاملًا في أجياله وسلك نوح مع الله)[١٦٦]. وكذلك (أما نوح فنال حظوة في عيني الرب)[١٦٧].

د - أسلوب نوح وفصاحته:

إن أسلوب النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفصاحته كانت من سمات شخصيته، التي أهلته لتبوأ مقام السلطة السياسية الحاكمة ومقام النبوة.

إن أسلوب النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفصاحته كانت قد اتضحت قبل الطوفان عندما استخدم أسلوب التدرج مع قومه. إذ كان في غاية الرفق بمشاعر قومه. وكأنه كان يقول لقومه أنا لا أتهمكم بعدم إدراك نبوتي، وإنما أتهم الذي حال بينكم وبينها فلم تدركوها. وهذا الأسلوب يدفعهم تلقائيًا إلى التفكير والبحث عن الحائل. إذا خاطب قومه بقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾[١٦٨]. وصيغة البناء للمجهول أو عدم التصريح بصاحب الذنب أو المعصية، إنما هي باب من أبواب الحوار ينبغي أخذه بنظر الحسبان.

ومن يتتبع أسلوب مخاطبة نوح قومه في سورة الشعراء (آيات ١٠٥ - ١٢٢) يجدها قد غلب عليها الحس العاطفي. وفي سورة يونس (آيات ٧١ -٧٣) تبدو ثقة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بخالقه. وتمثل ذلك بتحديه لقومه بأنهم لن يستطيعوا أن يقتلوه. وكذلك في حواره مع ابنه في السور الأخرى.

أما في سورة نوح، فقد اتضحت أساليب نوح في دعوته لقومه وهي:

أ - دعى قومه بالليل والنهار لقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾[١٦٩]. كما دعاهم بالسر والعلن لقوله: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[١٧٠].

ولعله فهم ما لهذا الأسلوب من أثر في النفوس البشرية. إذ أن من الناس من يكون وعيه وإدراكه في النهار أكثر من الليل. ومنهم من يكون العكس. كما أنه لاحظ اختلاف طبائع الناس. فوجد أن منهم من إذا وجهت له الدعوة جهرًا أمام الناس

تأخـذه العزة بالإثم ولا يمتثل للأمر المدعو إليه تكبرًا وتعاليًا خوفًا من معايرة أهله وعشيرته. فهذا إذا دُعِيَّ سرًا فإنه قد يمتثل إليه.

ب- إقامة الأدلة على قدرة الله في خلقه، والتنبيه على كثرة نعمه (سـورة نوح/ آية ١٤، و١٧ - ٢٠).

ج - الترغيب في الطاعة (سورة نوح/ ١٠ - ١٢).

د - أسـلوب التأنيـب والتوبيـخ بعد طول الحوار والجدل (سـورة نـوح/ آية ١٣). ثم الشكوى إلى الله منهم (سورة نوح آية ٢١ - ٢٢). ثم الدعاء عليهم (سورة نوح/ آية ٢٦ - ٢٧).

وهكذا تبدو سمة التدرج في دعوة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه. وذلك بالشكل الآتي:[١٧١]

١ - فهم بيئة الدعوة لتحديد نقطة البدء.

٢ - الدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام وتوحيد الله.

٣- استعمال كافة الأساليب الممكنة لدى الداعي مع الصبر والتحمل.

٤ - مراعاة أحوال المخاطَبين، ودعوتهم بالحكمة.

٥ - البدء بأسلوب اللين والرفق مع المدعوين، والترغيب أولًا، ثم الترهيب والتوبيخ، ثم التعنيف والتخويف، ثم الدعاء عليهم.

المطلب الرابع

حدود السلطة السياسية للنبي - الحاكم نوح

لقد تحدث العهد القديم عن حدود السـلطة السياسـية للنبي نوح بشـكل واضح. وقد كانت أول خطوة اتخذها في ترسـيخ حكمه كانـت متمثلة ببناء المعبد؛ ليكون مركزًا للحكم وللعبادة (وبنى نوحًا معبدًا للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطير الطاهرة فأصعد محرقات على المذبح)[١٧٢].

وقد وردت إشارات ونصوص واضحة تدل على المدى الواسع لسلطة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على المجتمع والدولة، والمتمثلة بما يأتي:

١ امتلك السلطة الكاملة على الإقليم بأرضه وسمائه ومائه (وخوفكم وذعركم يكونان على جميع وحش الأرض وجميع طير السماء وكل ما يدب على الأرض وأسماك البحر أنها مسلمة إلى أيديكم)[١٧٣].

٢- تولى النبي نوح مهمة حفظ الأمن والنظام (أما دماؤكم فأطلبها من يد كل وحش اطلبها من يد الإنسان أي إنسان قتل أخاه أطلب نفس الإنسان. وأن يكن سافك دم الإنسان إنسانًا قدمه يسفك لأنه بصورة الله صنع الإنسان)[١٧٤].

٣- تولى مهمة التنمية الاقتصادية (وابدأ ما دامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل)[١٧٥]. وكذلك (وابتدأ نوح يحرث الأرض وغرس كرمًا)[١٧٦].

٤- تولى مهمة التنمية البشرية (وبارك الله نوحًا وبنيه وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض)[١٧٧]. وكذلك (وأنتم فانموا واكثروا وتوالدوا في الأرض واكثروا فيها)[١٧٨].

لذلك، ذهب الباحث (سامي البدري) إلى الإعتقاد، أن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مؤسسًا لمدنية جديدة، ولتراث فكري وتشريعي إلهي بعد الطوفان. وقد رجح أن يكون الله سبحانه قد أنزل كتابًا سماويًا دونه النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على مسلة نصبها في المدينة الجديدة. لتكون المحور المركزي لثقافة الشعب ولذريته من بعده[١٧٩]، ويمكن احتسابها دستورًا للدولة الوليدة أن صحت فرضية الباحث سامي البدري.

وفي ضوء ذلك كله، يمكن تحديد الملامح العامة لدولة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالشكل الآتي:

١- الراجح أن دولة نوح، كانت أول دولة في التاريخ البشري، تمت إقامتها على أرض الرافدين. ومن هذا النموذج أستمد العالم مفهوم الدولة، وتحددت معالمه في العصور اللاحقة.

٢- ويبدو أن دولة نوح، كانت (دولة ثيوقراطية صرفة)، تأسست وفقًا للنظرية الدينية المفسرة لنشأة الدولة. فالشعب الذي مثلته (الصفوة المؤمنة) من أتباع النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت من اختيار الله ولطفه. والإقليم المؤقت أو الدائم (الفلك أو اليابسة) كانتا من اختيار الله ولطفه. والسلطة السياسية الحاكمة (التي جسدها النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) كانت من اختيار الله سبحانه.

٣- أن دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مثلت أول دولة عادلة في التاريخ البشري. تكفلت بإقامة العدل، وحفظ الأمن والنظام، وإعمار الأرض، وتنمية النوع البشري.

٤- مثلت الرابطة العقائدية أساس الوحدة الوطنية في دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٥- وبحكم الحجم الجغرافي لدولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وضآلة عدد سكانها، فإنها كانت قد مثلت دولة صغيرة يمكن أن نطلق عليها مصطلح (دولة المدينة)، وربما تكون أصغر من ذلك. هذا النموذج الذي سوف يزدهر في العهد السومري وفي العهد الإغريقي القديم.

ويبدو أن هذه الدولة لم تدم طويلًا. إذ أنه بعد حوالي ١٢٠٠ عامًا ولدت ثاني دولة في بلاد الرافدين. عرفت بـ (مملكة النمرود). وهذا ما سوف نعرج عليه في المطلب الآتي.

المطلب الخامس
مملكة النمرود

تعد مملكة النمرود أول مملكة دنيوية عرفها التاريخ البشري.[١٨٠] والنمرود اسم لأشهر ملوك بابل الكبار. حيث أنه أول من أسس دولة من شعب الكلدان على أرض الرافدين بعد حكم النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وفيها كانت أقدم المدن في نينوى وبابل[١٨١].

ووُصِف النمرود بأنه كان (جبار صيد)، يجمع بينه وبين تأسيس دولة عسكرية تقوم على القوة المطلقة. وقد تكون الرسومات البابلية والآشورية التي تصور الحيوانات الكاسرة إشارة إلى النمرود أيضًا كصياد فعلًا، إضافة إلى مضمونها الديني[١٨٢].

ويفيد مفهوم الجبار معنى (المتمرد العاتي) و(المتكبر)، الذي لا يرى لأحد عليه حقًا ومسلط قاهر[١٨٣]. والجبَّار بالفتح مشددًا الذي يقتل على الغضب[١٨٤].

ويعتقد الأب (أدي شير) رئيس أساقفة سعرد الكلداني الآثوري، أن (النمرود) كان جبارًا؛ لأنه ينتمي إلى الأمة الكلدانية، التي كانت من أشد الأمم بأسًا، وأكثرها قوة وعصبية. وكانت أمة مائلة إلى الحرب والقتال. لذلك وصف ملوكها بما يأتي:[١٨٥]

١- أشد الملوك بأسًا وقوة.

٢- يتظاهر ملوكها بالكبرياء.

٣- محفوفين دائمًا بزمرة وزرائهم ورجال دولتهم، ومحتاطين بالحراس والعبيد.

٤- وإذا خرجوا من قصورهم تحملهم عربات تجرها أجود الخيول. وكل ذلك يُشَاهد في الرسومات المُسْتَخْرَجَة من آثار نينوى وبابل.

٥- وكان الملك يرافق جيشه إلى ميدان الحرب. ويتولى بنفسه أوامره. وإذا اقتضى الحال أن يسبق ويحارب في أول صف من صفوف الجيش فلن يتردد.

٦- ومما اشتهر به ملوكهم قساوة القلب، والمعاملة الوحشية نحو عدوهم المغلوب.

وبهذه الطريقة وُلِدَت أول دولة ظالمة في التاريخ على أرض الرافدين. أُطْلِق عليها (مملكة النمرود).

ومن الجدير بالذكر، أن القرآن الكريم لم يسم الملك النمرود بالاسم، إنما أشار إليه بالتلميح، الذي أورده المفسرون على أنه (النمرود). وذلك لأن القصد من القصص القرآنية يكمن في مضمونها، والعبرة منها. ويحكي القرآن محجة النبي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للملك في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١٨٦].

وفي العهد القديم وردت نصوص واضحة عن (مملكة النمرود) من حيث نسبه، حيث

ورد أن نمـرود ابن كـوش ابن حام ابن نوح (وكوش ولد نمرود). كما وُصِف على أنه (أول جبار على الأرض)[١٨٧]. وَوُصِف على أنه صياد قاس (وكان جبار صيد أمام الرب ولذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب)[١٨٨].

كـما وصفت نصـوص العهد القديم حـدود مملكة النمرود بالشـكل الآتي: (وكان أول مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة في أرض شنعار)[١٨٩].

وفي ضـوء ذلـك كله، يمكـن وضع مقارنة ما بـين دولة نـوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**، ودولة النمرود وبالشكل الآتي:**

١- جسـدت دولة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العدل على الأرض، بينما جسدت دولة النمرود الظلم على الأرض.

٢- تأسسـت دولة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بموجب النظرية الدينية المفسرة لنشـأة الدولة. بينما تأسست دولة النمرود بموجب نظرية القوة المفسرة لنشأة الدولة.

٣- كانـت دولة نـوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (دولة نبـوة)، بينما كانـت دولة النمـرود (مملكة دنيوية عضوض).

٤- كانـت دولـة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من حيث المسـاحة والسـكان، لا تتعدى حدود (دولة المدينة)، وربما أصغر من ذلك. بينما كانت دولة النمرود دولة كبيرة من حيث المسـاحة والسـكان، وربما تكون أكبر من نموذج (دولة المدينة) الذي شـهدته بلاد الرافدين في العهد السومري.

ومـن هـذا كله، نخلـص إلى القـول. أن بلاد الرافدين شـهدت نشـوء أول دولة عادلة في التاريـخ البـشري (دولـة نوح). كما شـهدت أول دولة ظالمـة في التاريـخ البشري (مملكة النمـرود). ومن هـذه التجارب اسـتمدت الحضارة السـومرية نموذجها السـياسي المتمثل بدولة المدينة. وهذا ما سوف نعرج عليه في المبحث الآتي.

المبحث الثالث

أطروحة دولة المدينة السومرية وإشكالياتها

المطلب الأول

التعريف بالسومريين

سواء أكان السومريون أول من استوطن أرض جنوب الرافدين أم لا، بيد من المؤكد أنهم اضطلعوا بدور رئيسي في وضع أسس الحضارة العراقية القديمة. تلك الحضارة التي نضجت في الألف الثالث قبل الميلاد.

مع ذلك فإن الباحثين مازالوا غير متفقين في الرأي حول الأصل الذي تحدر عنه السومريون، ولا الموطن الأول الذي جاءوا منه. ولقد ظهرت بشأن ذلك آراء متباينة. وربما كان السبب في تباين الآراء حول أصل السومريين راجع إلى ما يأتي:

١ - أن الدراسات اللغوية التي تمت على اللغة السومرية بينت أنها لغة متفردة بنفسها، أي أنها لا يمكن تصنيفها وإرجاعها إلى إحدى العائلات اللغوية المعروفة. وبذلك يصعب الاستعانة باللغة لمعرفة هوية الأقوام التي تكلمت بها ولا تحديد موطنها الأول.

٢ - كما ثبت لدى الباحثين عدم جدوى دراسة الهياكل العظمية المكتشفة؛ لأنها أشارت إلى اختلاط عرقي منذ أقدم العصور.

٣- كما لا يمكن الاستعانة بالسحن والملامح التي تظهر على تماثيل الأشخاص، والمشاهد المنحوتة على الألواح الحجرية طالما كانت تتحكم بها الأنماط والمدارس الفنية السائدة في تلك الحقبة الزمنية[١٩٠].

وهكذا تباينت الآراء في أصل السومريين. فمنهم من يرى أنهم جاءوا إلى القسم الجنوبي من العراق من منطقة جبلية. بينما يرى آخرون أنهم جاءوا من بلاد فارس. ومنهم من يرى

أنهم نزحوا من وادي السند أو جنوبي بلوجستان. وإلى غير ذلك من الآراء المتباينة عن أصل السومريين وموطنهم الأول. إلاَّ أن الرأي الأكثر قبولًا، والذي ينسجم مع الأدلة الآثارية والتاريخية يكمن في الرأي الذي ذهب إليه (طه باقر)، ومفاده أن السومريين يمثلون إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية في وادي الرافدين في عصور ما قبل التاريخ البعيدة. وأنهم عُرِفُوا باسمهم الخاص (أي السومريين) نسبة إلى اسم الإقليم الذي استوطنوا فيه أخيرًا في القسم الجنوبي من العراق[١٩١]، أي أن التسمية لاحقة للاستيطان، ومشتقة من اسم موضع جغرافي محدد، ولا تحمل أي مدلول عرقي معين. ويؤيد هذا أن كثيرًا من الأقوام التاريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين، وأسهمت في تكوين حضارته وأحداثه سميت باسم الموضع الذي حلت فيه مثل الأكديين نسبة إلى مدينة (أكد). والبابليين نسبة إلى مدينة (بابل)، والآشوريين نسبة إلى مدينة (آشور) على الارجح.

على هذا الأساس، يمكن تسجيل الاستنتاجات الآتية:

١ – مهما كان نوع الخلاف حول الأصل العرقي للسومريين وموطنهم الأول، بيد أنه يمكن القول بأنهم مواطنون عراقيون يمثلون سكان البلاد الأصليين. وقد احتسبهم الباحث (سامي البدري)، وفق رأي راجح، أنهم من ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ويمثلون امتدادًا لذريته الذين حملوا تراث النبي نوح ولكنهم حرفوه، وضيعوا معالمه ولم يتبق من سُنة نوح إلاَّ القليل[١٩٢]. وقد رجح أن يكون اللوح الحادي عشر من ملحمة كلكامش من بقايا نصوص نبوية حملها الكَتَبَة من ذرية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد الطوفان. واحتسب التراث المسماري، فيما يخص الجانب العقائدي والتشريعي، وكثيرًا من النصوص الأدبية تراثًا نبويًا تَعَرَّض للتحريف في قليل أو كثير. وهذا التراث يرتبط بنبوة نوح وإبراهيم عليهما السلام على أقل تقدير[١٩٣]. وقد أقام أسلافهم أقدم القرى الزراعية في شمال العراق، التي جسدتها في أدوار عصور ما قبل التاريخ مثل جرمو، وحسونة، وحلف سامراء. وأنهم نزحوا إلى جنوب العراق بعد توفر أسباب العيش الرغيد هناك. ثم بدأ تاريخهم الحضاري مع بداية العصور التاريخية التي تتوافق مع عصور فجر السلالات.

٢- إن الحضارة السومرية هي حضارة عراقية شكلًا وجوهرًا. لذلك استمرت في آثارها حتى بعد انتهاء سلطتهم السياسية على يد أقوام آخرين.

عليه، نقصد بكلمة (سومري) تلك المجموعة العراقية التي تتحدث اللغة السومرية. ونقصد (بالعهد السومري) ذللك العهد الذي سادت فيه اللغة السومرية والثقافة السومرية. فضلًا عن أن السلالات التي حكمت في سومر كانت على الأغلب سلالات سومرية.

ويبدو من خلال الاكتشافات الآثارية والتاريخية، أن المستوطنات البشرية الأولى في جنوب وادي الرافدين كانت قد مثلت قرى صغيرة. وكانت حضارة (وادي حسونة) نقطة البدء في بناء الحضارة العراقية، والتي اُكْتُشِفَت في مستوطن يقع بالقرب من قرية حسونة على بعد ٤٥ كلم جنوب الموصل. وحققت معالمها الحضارية انتشارًا ملحوظًا امتد إلى (جرمو) بالقرب من جمجمال بالسليمانية في الشرق وصولًا إلى قرية (مطارة) جنوب كركوك وحتى كويسنجق في نينوى، وقرية (بارم تبه) بالقرب من تلعفر في الغرب، و(أم الدباغية) بالقرب من مدينة الحضر الأثرية في الجنوب الغربي من وسط العراق. أظهرت قراءات c 14 الإشعاعي أن الحدود الزمنية لتلك المرحلة الحضارية في العراق كانت في بداية الألف الثامن قبل الميلاد. فيما ضعف تألقها الحضاري في أواخر الألف السادس قبل الميلاد، بعد أن حلت محلها قرى أكثر تطورًا قاربت معالمها الطبوغرافية حجم المدن الصغيرة[١٩٤].

وحالما بدأ استغلال مصادر المياه، حتى أصبحت محاصيل الحنطة وفيرة في تلك القرى. وأن ذلك، أفضى إلى زيادة واسعة في السكان بحيث أخذت تلك القرى تنمو إلى مدن كبيرة الحجم نسبيًا. وقد ساعد على نمو تلك القرى والمستوطنات الناجحة، أن الناس صارت تنتقل إليها من قرى مجاورة لها تعد أقل رزقًا منها. وربما انتقل إليها سكان البدو أيضًا[١٩٥].

فضلًا عن ذلك، يلاحظ أن الفكر الحضاري لتلك القرى أثبت تفاعله مع تحديات البيئة عن طريق ما يأتي:

١- أنها أثارت مكنونات الإنسان الفكرية التي سعت إلى ترويض البيئة عن طريق المحاكاة والربط ما بين خاصية التماثل بين الأشياء والأحداث. أن ذلك مَكَّن

الإنسان العراقي من تكوين أفكار مجردة توصل من خلالها إلى تجميع ثروة من التجريدات.

٢- ثم أخذت تلك الثروة الفكرية من التجريدات تتزايد باستمرار مع تطور مستويات التجريب في فعالياته الحياتية. أن المفاهيم المجردة إنما هي وليدة الحاجات العملية والخبرة البشرية. وهي أداة متقدمة أدرك الإنسان بواسطتها عالمه المحيط[١٩٦].

وبذلك كان السومريون القدماء قد مضوا شوطًا بعيدًا في الحضارة. بحيث أنهم ابتعدوا كثيرًا عن حياة الإنسان الأول لدرجة انقسمت فيها الأرض إلى قسمين. قسم ضربت عليه سرادق الجهل بظلماته. والقسم الآخر قد عاش في نور العلوم والمعارف، والذي أصبح أصحابه في وادي الرافدين (متمدنين) بوضوح[١٩٧].

وقد ظهرت الملامح الأولى لهذه الحضارة في العصر الذي أطلق عليه العصر الشبيه بالكتابي (٣٥٠٠ - ٢٨٠٠ ق.م)، المتضمن الطور الأخير من عصر الوركاء، ودور (جمدة نصر) والطور الأول من عصر فجر السلالات، والذي يمكن تحديده الزمني في المدة الواقعة ما بين نهاية دور (جمدة نصر)، وبين بداية حكم سرجون الأكدي وتأسيسه السلالة الأكدية في حدود (٢٣٧٠ أو ٢٣٣٤ قبل الميلاد). أي أنه دام ما بين ٤ - ٥ قرون من الزمن (٢٩٠٠ - ٢٣٧٠ ق.م)، أو (٢٨٠٠ - ٢٣٧٠ ق.م)[١٩٨].

وتميز هذا العصر، بأنه عصر ازدهار حضارة وادي الرافدين ونضجها. وظهور أبرز مقوماتها التي استمرت بشيء من التطور في العصور التاريخية اللاحقة. ولعل أبرز مقوماتها كانت أطروحة دولة المدينة (City State)، التي سنتناولها في المطلب الآتي.

المطلب الثاني
فكرة دولة المدينة (City State) عند السومريين

تعرف (دولة المدينة) على أنها الحاضرة التي كانت تمثل وحدة سياسية وليست مجرد تجمع مديني. أنها التنظيم السياسي والاجتماعي الموحد داخل أرض محددة، قد تضم مدينة واحدة أو عدة مدن وما يلحق بها من قرى وأراضي زراعية.

ومهما كانت الأسباب التاريخية التي ساعدت على تكوين هذه الصيغة السياسية، بيد أنها مثلت نقطة التوازن بحيث بدت وكأنها الصيغة الوحيدة الصالحة. حيث أنها كانت قادرة على تحدي المزاحمات والطموحات الأخرى كلها. وقد نمت أساسًا عن طريق إنشاء حاضرة جديدة تحتفظ، من حيث المبدأ، مع الحاضرة الأولى بعلاقات بنوة وليست علاقات تبعية[١٩٩].

عليه، فإن دولة المدينة تعد عبارة عن كيان سياسي أساسه مدينة مستقلة. وتنحصر فيه السيادة والعصبية بمواطني المدينة. وأن امتدت السيادة عمليًا لتشمل ما يقع تحت سلطة تلك المدينة من محميات أو مستعمرات.

ويبدو أن جذور هذا النظام ضاربة في القدم. حيث تركز العمل به حول الموانئ، أو المدن التجارية التي تمتلك أسباب الحماية الذاتية أو الجغرافية. وتمتلك القدرة على ممارسة التجارة أو السيطرة على الطرق الخارجية[٢٠٠].

وتُوصَف دولة المدينة على أنها نوع من البلدان الصغيرة المستقلة، والتي تتكون من مدينة واحدة أو عدة مدن، والأراضي، والقرى التابعة لها. وقد شملت دول المدن التاريخية أمثلة عديدة منها المدن السومرية (الوركاء، أور، لكش، وغيرها). ودول المدينة المصرية (طيبة، ممفيس، وغيرها). وكذلك دول المدينة في بلاد الإغريق القديمة (أثينا، اسبارطة، وغيرها)[٢٠١].

ومن الجدير بالذكر، أن هذا الشكل من أشكال الدول لازالت له أمثلة في عالمنا المعاصر. وربما يتفق الجميع على أنه لا تزال هناك نماذج منها قائمة لحد الآن منها (الفاتيكان)، التي تبلغ مساحتها أقل من نصف كيلومتر مربع، وعدد سكانها حوالي ١٠٠٠ نسمة فقط، وتقع في وسط روما. و(دولة موناكو)، التي تبلغ مساحتها ١,٩٥ كيلومتر مربع، وسكانها ٣٣٠٠٠ نسمة، وتقع في جنوب قارة أوروبا. و(جمهورية نورو)، التي تبلغ مساحتها ٢١ كيلومتر مربع. ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٤٠٠٠ نسمة. وتقع في النصف الجنوبي من المحيط الهادي. و(جمهورية سان مارينو)، التي تبلغ مساحتها ٦١,٢ كيلومتر مربع، وعدد سكانها حوالي ٣٠٠٠٠ نسمة، وتقع داخل الأراضي الإيطالية، وغيرها.

والمرجح كثيرًا، أن أصول نظام دولة المدينة تمتد في جذورها إلى دولة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وأخذت شكلًا أكثر وضوحًا لدى ظهور أولى مراكز الاستيطان البشري في السهل الجنوبي من العراق القديم منذ الألف الخامس قبل الميلاد. واقترن ذلك بتطور المراكز الزراعية إلى مدن في العصر الشبيه بالكتابي في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وأن هذه الحضارة تعد أفضل مرجع للباحثين في أصول هذا النظام وتطوره التاريخي. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما أكدنا على أن حضارة وادي الرافدين تفردت بأول ظهور لنظام دولة المدينة على أنه أول شكل من أشكال الدول والحكومات في التاريخ البشري.

ويبدو أن أقرب ما يضاهي هذا المنجز الحضاري يكمن في نظام دولة المدينة، الذي شهدته الحضارة الإغريقية القديمة. حيث كان ذلك النظام في كلا الحضارتين النظام النموذجي للوحدة السياسية أو الدولة لدرجة نمت في ظلها فكرة المواطن والمواطنة. لذلك لا نجد آثارًا للنظام القبلي في ظل دولة المدينة. ولعل العامل الأساس في ذلك راجع إلى كون الوحدة السكانية في حضارة وادي الرافدين في السهل الرسوبي كانت أولًا القرية الفلاحية، ثم المدينة المُعْتَمِدَة كل منهما على الاقتصاد الزراعي وجهاز الري والتجارة. فنشأت فيها بدلًا من الأنظمة القبلية أنظمة سياسية واجتماعية متميزة مثل (مجلس المدينة)، و(مشيخة المدينة) وإلى غيرها[٢٠٢].

والملاحظ، أن القرى الزراعية الصغيرة نشأت قبل أن تنشأ دولة المدينة. وقبل أن يتطور أفرادها لإدارة شؤونهم ومشاكلهم. لذلك يعد الحكم المحلي بمثابة المنبع الذي استحدثت منه دول المدينة النظام، والتفكير بالاستقرار والسيادة[٢٠٣].

وكانت تجربة الري الصناعي وسيلة جديدة لزراعة مساحات واسعة من الأراضي على ضفاف دجلة والفرات وحافات الأهوار في جنوب العراق. فكان ذلك الفعل الحضاري مدعاة لمولد نظم أكثر رقيًا وتعقيدًا من الأعراف، والسلوك، والعلاقات الاجتماعية عن شبيهاتها من المرحلة الأولى لعصر القرى الزراعية.

وقد عمل أناس عصر القرى الزراعية في مرحلته الثانية باندفاع لا يقاوم. وحققوا

تجمعات سكانية مزدحمة في مراكزهم الحضارية. وتيقنوا أن سر وجودهم يكمن في العمل الجماعي والتعاون الاجتماعي. لذلك حفروا القنوات، وجففوا المستنقعات والأحراش المائية، وقطعوا البردي والقصب لزيادة المساحات المزروعة، وبنوا السدود لحماية السكان من خطر الفيضانات[٢٠٤].

ومهما كان المكان الذي جاء منه السومريون، وأيًا كان نموذج الحضارة التي جاؤوا بها، فمن المؤكد أنه كان استيطانهم المبكر في جنوب العراق قد أدى إلى دمج فعال في الأصول العرقية والحضارية مع السكان الذين سبقوهم، والذين لا يُعْرَف عنهم الشيء الكثير سوى إطلاق اسم (السوباريين) عليهم. وأحدث هذا الانصهار والدمج نشاطًا خلاقًا في تاريخ المنطقة. بحيث بلغت بلاد سومر خلال القرون المتعاقبة مستويات متقدمة في مجال السلطة السياسية والاقتصاد. كما شهدت بعضًا من أروع انجازاتها في الفنون، والصناعات، والعمارة، والفكر الديني. وابتكر السومريون نظامًا للكتابة طُوِر فيما بعد ليكون أساس الكتابة المسمارية، التي أصبحت اللغة السائدة في البلاد[٢٠٥].

ولعل من أبرز الشواهد العمرانية التي ميزت هذه المرحلة كانت ظهور المدن واتساعها منذ العصر الشبيه بالكتابي. ثم أصبحت مدنًا كبيرة نسبيًا في عصر فجر السلالات. واتخذت مراكزًا للحكم للعديد من السلالات الأساسية الحاكمة. وارتبطت وظائفها بما هو سياسي، واقتصادي، وديني. حيث أن كل واحدة من تلك المدن أصبحت مركزًا سياسيًا، واقتصاديًا، ودينيًا.

ومنذ ذلك الحين، أصبح بالإمكان الحديث عما يسمى (دولة المدينة)[٢٠٦]. وهنا يصح تسمية العصر السومري بعصر (دول المدن).

والواقع، أن السومريين كانوا عاجزين دائمًا، من الناحية السياسية، عن بناء دولة كبيرة موحدة. إذ كانوا مقسمين إلى دول عديدة قائمة على أرض المدن، والتي تحكمها قصة طويلة من الصراع والتنافس[٢٠٧].

ويبدو أن هناك جملة من الأسباب التي ساعدت على ولادة نموذج دولة المدينة في العهد السومري. لعل منها ما يأتي:

١ – البيئة الطبيعية التي توفرت في القسم الجنوبي من العراق (بلاد سومر واكد)، والمتمثلة بأرضها الرسوبية التي تخترقها الأنهار التي جعلتها صالحة للزراعة والاستقرار.

٢ – مواجهة تحديات البيئة، حتمت على الإنسان السومري الاجتماع لمواجهة تلك الاخطار، التي اقتضت الاجتماع والتعاون من أجل بناء السدود والخزانات من أجل درء مخاطر فيضانات دجلة والفرات. والقيام بشق الجداول والسواقي بغية ايصال الماء إلى الحقول الزراعية في أوقات الشحة في الأمطار.

٣– أن طرق المواصلات ووسائط النقل لم تكن سهلة في بادئ الأمر، مما جعلت الاتصال بين سكان المدن من الأمور العسيرة. وربما أدت إلى قيام العديد من المدن والقرى المعزولة عن بعضها البعض بسبب الأهوار والأنهار. وأن مجموع القرى والمستوطنات البشرية كان قد دفعها لأن تنعقد لكل منها إدارة ترتبط بالمدينة. وأصبحت المدينة فيما بعد ذلك أساسًا لقيام حكومات مستقلة عرفت فيما بعد بدويلات المدن.

وكانت (اوروك) هي المدينة التي تمتعت بأكبر اتساع ملحوظ. حيث أصبح عدد سكانها في حقبة فجر السلالات الأولى، يتراوح ما بين ٤٠ – ٥٠ ألف نسمة[٢٠٨].

ويتفق معظم الباحثين على أن عصر الوركاء، الذي شغل مدة طويلة من الألف الرابع قبل الميلاد. كان قد شهد ظهور نموذج دولة المدينة الأكثر وضوحًا. وقد نشأت هذه الدويلة بصورة رئيسية في سهول بلاد الرافدين.

والواقع أن عملية تشكيل هذه الدويلة قد جاء نتيجة مجموعة عمليات حدثت في وقت ما من ماضي بلاد الرافدين. حيث اقترنت كل دولة منها بالمكان الذي يسبقها[٢٠٩]. وهو ما أضفى أهمية على دراسة ما أطلق عليه بظاهرة الوركاء. ولقد تم التعامل مع طبيعة هذه الظاهرة بشكل تخميني ضمن خلفيات التفاعل الإقليمي بين الكيانات السياسية في

الأجـزاء الجنوبية من البلاد من ناحية، وتلك الكيانات الموجودة في المناطق المحاذية لشـمال بلاد الرافدين من الناحية الأخرى.

لقـد نمت مدينة الوركاء خـلال الألف الرابع قبل الميلاد، مـن حيث الحجم والأهمية، لتصبح قبلة بلاد الرافدين السياسية والاقتصادية في ذلك العصر وما بعده.

وفي أواخـر عصرهـا بلغ حجم المدينة ٤ – ٥ أضعاف حجـم أي مدينة أخرى في الجزء الجنـوبي من بلاد الرافدين. وكانت تحتوي على تحصينـات محكمة. وهذا ما تدل عليه الأدلة المستنبطة من الأشكال الفنية ومواضيعها على الأختام الأسطوانية[٢١٠].

أضف إلى ذلك، هناك المزيد من الأدلة، التي تشير إلى حدوث تطورات على التركيبة الاجتماعيـة والتراتبيـة في الـوركاء. تضمنت وجود أحياء مخصصة لممارسـة حرف معينة. وإذا نظرنـا إلى الأدلـة المادية من الـوركاء من وجهة نظر التطـورات الأولى للمجتمعات المركبـة المتنـورة، فلـن يكون مـن العسـير الإشـارة إلى رصانة ثلاثـي القـوة (الاقتصاد، العسـكر، الفكر). إذ أن طبعات الأختام والنصوص المدونة المتعلقة بالاقتصاد تبدو على صلة بالسيطرة على الفعاليات الزراعية، والعمل، والمهن. أما طبعات الأختام التي عليها مشـاهد تظهـر فيها أبنيـة، وأسرى، وملوك، وبضائـع، فقد فُسِرَت على أنهـا مصادر قوة في آفـاق اقتصادية أو عسـكرية. والقوة الفكرية ظاهرة بوضـوح في واجهات المباني ذات الطبيعة الدينية.

ويبدو أن التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها الضواحي التابعة لمدينة الوركاء أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، قد عُدَت على أنها مظهر من مظاهر الملكية، وَتَدَخُل الدولة في عمليـات الإنتاج والتوزيع لسـلع معينة. كما ظهرت سـيطرة الدولة عـلى العمل، وتطور الممارسات والأفكار الخاصة بالتشريعات المتعلقة بتدوين المآثر البطولية[٢١١].

أضـف إلى ذلك، كانت هنـاك مدن أخرى تطورت في الوقت نفسـه، ليصل عددها إلى ثلاثة عشرة دويلة مدينة. وهي من الشـمال إلى الجنوب (سـبار، كيش، أكشاك، لاراك، نفر، آدب، أوما، لكش، بادتبيرا، لارسا، أور، أريدو، إضافة إلى اوروك)[٢١٢]. وقد برزت ملامح

نماذج معينة من الدول والسلالات الحاكمة في القسم الجنوبي من وادي الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، عُرِفَت باسم (بلاد سومر).

وكانت هذه المدن قد شكلت مراكز سياسية أوسع، أطلق عليها دويلات المدن، التي كان بعضها ينطوي على أكثر من مدينة. على سبيل المثال لا الحصر، انطوت دولة مدينة لكش على ثلاثة مدن هي (لكش، جرمو، ننا)[٢١٣].

ويلاحظ، أن دول المدينة السومرية لم تكن كبيرة المساحة. إذ قُدِر عدد سكان مدينة أوما حوالي ١٦ ألف نسمة. بل أن سكان جنوب العراق القديم كله كان يُقَدَر بحوالي نصف مليون نسمة. ثم اتسعت تلك المدن من حيث المساحة، وازداد عدد سكانها. وغدت من المراكز الحضارية في العصور اللاحقة.

وكانت المدينة، ومنذ ذلك الحين، محصنة بأسوار منيعة لصد هجمات الأعداء. وبرز في أحد جوانبها صرحها المدرج (الزقورة)، الذي يرتفع ارتفاعًا شاهقًا. ويقع إلى جانبه معبد المدينة. ويشكل معبد المدينة الرئيسي محورها ومركزها في الأمور الدينية، والاقتصادية، والمعمارية. وهنا يبدو التشابه مع دولة النبي نوح، التي كان فيها المعبد محور العبادة والحكم. وكان قصر الحاكم يلي المعبد من حيث الأهمية والحجم. ثم تليها بيوت العامة التي كانت بسيطة البناء ومشيدة من اللبن أو الطين.

وقد نشأت المدن حول القرى الزراعية التي يعود تاريخها إلى عصور سابقة، والتي كانت تنشأ عادة بالقرب من مصادر المياه التي تعتمد عليها حياتها الزراعية. وقد تُهْجَر المدينة بسبب تغيير اتجاه مجرى النهر، أو زيادة الملوحة، أو بسبب غزو أجنبي مدمر[٢١٤].

وكانت المدينة السومرية تتألف من المدينة الخاصة التي أطلق عليها في اللغة الأكدية (Libbi Ali)، وتمثل القسم القديم من المدينة. وتظهر في هذا الجزء الأقسام المسورة التي تحتوي على المعبد، والقصر، ومقرات الموظفين التابعين للبلاط والمعبد. فضلًا عن بيوت المواطنين البسيطة. والقسم الثاني من المدينة يُسَمَى (الضاحية)، التي تقرأ بالسومرية (uru. bar. ra) التي تعني خارج المدينة، أي الضاحية التي تتجمع فيها البيوت، والمزارع، وزرائب الماشية[٢١٥].

إن أهم العوامل التي ساعدت على نمو تلك المدن هي التطورات المتفاعلة التي مثلتها زيادة الإنتاج الزراعي، وتزايد مراكز السلطة والنظام، مع تحسن الاتصالات بين المستوطنات والمناطق الريفية.

ويبدو أن من أهم الصفات المتفق عليها لتلك الدويلات يكمن في ما يأتي:

١ – التعاقب الاجتماعي، حيث أنه يوجد ما لا يقل عن مرتبتين اجتماعيتين. وفي الأغلب أكثر من ذلك في المدينة الواحدة، بيد أن واحدة من هذه المراتب، على الأقل، تشغل المرتبة العليا اجتماعيًا.

٢ – التراتبية الاستيطانية ضمن الحدود الإقليمية. وتتضمن المركزية في السيطرة على بعض الفعاليات الرئيسة.

٣– تخصص بعض الأفراد في ممارسة مهن محددة.

٤ – وجود نظم عبادة وطقوس مفصلة متعلقة بها.

٥ – المسارات التاريخية ذات الطبيعة الهشة وغير الثابتة هي صفات تتجلى عند انهيارها.

وقد ترتب على ذلك نتائج اجتماعية تمثلت بما يأتي:[٢١٦]

١ – وجود مراتب اجتماعية تفرضها منزلة الأفراد في المجتمع.

٢ – التراتبية في أنواع المستوطنات وأحجامها.

٣– وجود مصادر رزق على درجة عالية من الوفرة، والتي تؤكد وجود نوع من الحكم الذاتي أو الاستقلالية.

٤ – نشاطات إنتاجية منظمة كعمليات بناء الصروح والتخصص الصناعي، والتي تعدت الاحتياجات المنزلية.

٥ – تنظيم اجتماعي واسع النطاق لفعاليات الخزن والتوزيع لمواجهة الأزمات والشحة في مصادر الغذاء، أو سوء الأحوال المناخية الاستثنائية.

المطلب الثالث
نظام الحكم في دولة المدينة السومرية

لقد تشكلت في المدن السومرية القديمة أول الأنظمة السياسية المعروفة، وأساس المجتمع السياسي، وهي ما اصطلح عليه ب (دولة المدينة). هذا النظام الذي احتسبه فقهاء القانون أول شكل من أشكال الحكم المنظم في التاريخ البشري.

وقد نشأت في ذلك العصر القناعة التامة بالقبول بنظام دولة المدينة بوصفه التنظيم الاجتماعي – السياسي الوحيد على غرار ما حدث في دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في العصور السابقة، وعلى غرار نظام دولة المدينة التي اشتهرت بها بلاد الإغريق القديمة في العصور اللاحقة. ولذلك لا توجد في هذه المدن بقايا عن التنظيم القبلي مثل تلك التي ذكرت عن المدن الإسلامية. ولا يمكن إيجاد الخصومة بين سكان المدينة وسكان الأرياف، تلك الخصومة التي تحتسب واحدة من خصائص مدنيات عديدة شهدها التاريخ البشري.

ويتأكد ذلك، إزاء مشكلات الزراعة الإروائية الصناعية، التي دفعت طلائع المستوطنين للالتصاق ببقعة من الأرض بحيث لا يهجرونها. ومن ذلك الالتصاق تبلورت لديهم (فكرة الوطن). ومن توسع تلك القرى الزراعية، وزيادة عدد سكانها، وتعدد فعالياتها الاجتماعية، ولدت فكرة إيجاد شخصية موحدة ومنظمة للجهود البشرية. فكان ذلك مدعاة لنشوء فكرة (الزعامة)، التي حافظت بشكل مستتب على الوحدة الاجتماعية لحياة الجماعات الفلاحية[٢١٧].

وكانت السلطة العليا في أقدم مجتمع سومري في العهد الشبيه بالكتابي بيد (مجلس عام). يضم المواطنين جميعًا. ويجتمع هذا المجلس ليقرر ما يجب عمله في الحالات الطارئة. وكان لكل مواطن حق الكلام، بيد أن للمسنين رأيًا أكثر وزنًا من رأي الآخرين. وكان الاجتماع يستمر حتى يتم الوصول إلى قرار نهائي وبالإجماع.

ويبدو أن هذا النظام الديمقراطي، إلى حد ما، الذي شهدته دويلات المدن السومرية، لم يتطور مثلما تطور في بلاد الإغريق إلى ديمقراطية كديمقراطية أثينا. وذلك لأسباب عديدة منها:

١ – أن هـذا النظام الديمقراطي لم يكن متفقًا مع أحوال البلاد في ذلك الحين، حيث أنه يحول دون التوسع السياسي من مدينة صغيرة إلى دولة كبيرة.

٢ – كـما أن تلـك الديمقراطية لا تصلـح إذا ما مر بالبلاد أزمة مـن الأزمات خصوصًا الحروب الخاطفة، التي كثيرًا ما كانت تتعرض لها دويلات المدن في العراق القديم، والتي تتطلب سرعة وحسمًا في اتخاذ القرار، الذي لا يتسق مع البطء المتوقع في اتخاذ القرارات من المجلس العام[٢١٨].

ومـن بـين الأمور التي كان المجلـس ينعقد من أجـل اتخاذ القرار بصددهـا هو اختيار موظـف يقوم بالأمور الدينية بالدرجة الأسـاس. فضلًا عن بعض الأمـور الدنيوية. ولعل هـذا الموظـف يعد مـن أوائل الحـكام في دويلات المـدن السـومرية، الذي ينتمـي إلى طبقة الكهنـة، والـذي أطلق عليـه المصطلح السـومري (En)، ومعناه الكاهن أو السـيد، والذي كان يعنـي في الأصل القرين البـشري (الذكر والأنثى) لمعبود المدينة الذي يشـترك كعريس أو كعـروس للمعبـد في الزواج المقدس. وبما أن المعتقـدات الدينية القديمة كانت تؤمن بأن البشر خلقوا لخدمة الآلهة، وتوفير ما تحتاجه. وأن إله المدينة يعد ملكها الحقيقي. لذلك فإن العراقيـين القدمـاء وضعوا ثقتهم بالكاهن الأعلى للمعبد، بوصفـه كاهنًا وحاكمًا؛ لأنه كان يجمـع ما بين السـلطتين الدينية والدنيوية في الوقت نفسـه. حيث أصبـح المعبد مدار حياتها الدينية والدنيوية[٢١٩]. وبذلك دشـنت الحضارة السـومرية أول نظام ثيوقراطي في التاريخ البشري ما بعد تجربة النبي نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وتشـير المصادر التاريخية إلى أن أول من اسـتعمل لقب (En) هو (شـاكو شانا). وتَذْكُر كثير من الكتابات المسمارية إلى أن الحاكم (En) كان حاكمًا وكاهنًا في الوقت نفسه. وقد مثل كلكامـش نموذجًا واضحًا على هـذا الدور في الوركاء. وتكمن قوة الحاكم – الكاهن (En) في كونه حاكمًا، وكاهنًا، وقائدًا للجيش[٢٢٠].

وحـين ازدادت أعـداد المـدن في العـراق السـومري، وتزاحمـت عـلى جغرافيـة المكان أو تقاطعت مصالحها الاقتصادية، فإن الضرورة اقتضت ظهور سـلطة الحاكم للحفاظ على

مصالح مدينته. وذلك كان مدعاة لظهور السلالات الحاكمة في العهد السومري. وأسهمت تلك السلالات في تنظيم حياة المجتمع عن طريق وضع قواعد للسلوك والأعراف[٢٢١].

ويبدو أن هذا الأمر لم يستمر طويلًا. فبعد أن توسعت شؤون المدينة، وازداد عدد سكانها لم يصبح الحاكم – الكاهن (En) قادرًا على القيام بالواجبات الدينية والدنيوية على حد سواء. ومن هنا ظهرت تبدلات أساسية في تركيبة دويلات المدن السومرية ونظام الحكم فيها، حيث ظهرت السلطة الملكية بالتزامن مع تراجع مكانة المعبد[٢٢٢].

وقد كانت الخطوة الأولى في هذا التحول تكمن في إصلاحات (اوروكاجينا) عام (٢٣٥٠ ق.م)، والتي جسدت الصراع الذي دار ما بين الملوك والكهنة، والذي انتهى إلى التقليل من نفوذ أولئك الكهنة من خلال إصلاحاته. من هنا بدأ الانفصال النسبي بين الوظيفتين. حيث ظهر إلى جانب الكاهن (En) حاكم دنيوي مفوض من إله المدينة أُطْلِق عليه مصطلح (Ensi)، الذي يعني (وكيل الإله). وانتقل إلى قصر خاص مستقل عن المعبد، الذي احتفظ بدوره كممثل للآلهة على الأرض حسب الفكر السياسي العراقي القديم. فضلًا عن دوره في تنظيم العمل الزراعي الجمعي للمدينة. وصار يستعمل عمومًا ليدل على حاكم مدينة صغيرة لا يتمتع بقوة كافية لكي يدعى ملكًا.

وفي أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، ونتيجة لتطور الأوضاع السياسية في البلاد. فقد تطلب الأمر اختيار أحد الأشخاص الأقوياء من الذين يمتلكون مؤهلات القيادة لتولي إدارة شؤون المدينة وقت الطوارئ والأزمات. ولا سيَّما في حال تعرض دولة المدينة إلى عدوان أجنبي أو تعرضها لكوارث طبيعية تستلزم اتخاذ قرارات فورية وحاسمة. وهكذا تم اختيار الملك الذي أُطْلِق عليه مصطلح (Lugal) ومعناها (الرجل العظيم) أو (الملك) [٢٢٣].

وعلى العموم، يتبين أن نظام (Lugal) أي (الملكي)، كان قد مثل تطورًا نوعيًا في نظام الإدارة السياسية في وادي الرافدين، والذي كان نتاجًا طبيعيًا لتطور النظام السياسي والإداري الذي طرأ على نظام الحكم في العراق القديم. خصوصًا بعد أن توسعت رقعة دولة المدينة، وتنامت بشكل ملحوظ سلطتها السياسية والاقتصادية والدينية.

وهذا اللقب كان قد استخدمه الحكام الذين امتدت سلطتهم إلى أكثر من مدينة. وصار قصر الملك يضاهي المعبد، الذي كان له الدور الرئيسي في بداية الأمر في النفوذ والسلطة. وصار أكثر اتساعًا في المساحة والتنظيم. ولقد زودتنا التنقيبات الأثرية بصورة واضحة لتلك القصور، التي شيدت في عصر فجر السلالات مثل قصر كيش، وقصر اريدو، وقصر ماري[٢٣٤].

ويبدو أن السلطة الملكية السومرية لم تكن بدائية، إنما كانت متطورة إلى حد ما. وذلك يتبين من خلال سببين أساسيين هما:

١ – أن سلطتها، في بعض الأحيان، كان مسيطرًا عليها نسبيًا من مجلس الشيوخ ورؤوس الجماعة، وربما حتى كتلة الرجال الأحرار[٢٢٥].

٢ – أن سلطة (Lugal) أي الملك، لم تكن في الأصل وراثية أو دائمة، إنما تعهد إليه فقط في الحالات الإضطرارية[٢٢٦].

وقد رجحت لاحقًا كفة القصر على المعبد بوصفه يمثل (السلطة الدنيوية). حيث تركت السلطة الدينية وإدارة المعبد بيد موظفين خاصين يشرف عليهم (الانسي). وكانوا مسؤولين أمامه.

وتخبرنا نصوص شروباك (تل فارة) من عصر فجر السلالات الثلاث بأن الملك أصبح المسؤول الأول عن الأعمال العامة. لذلك ارتفع شأنه مما جعل مركزه ساميًا أكثر من أي وقت مضى. وبما أن العراقيين القدماء كانوا يعتقدون أن الآلهة هي التي تختار الملك، ومن ثم يصادق عليه مجلس الشيوخ ومجلس الشباب معًا، والذي يطلق عليهما معًا (مجلس أونكين) أي (دائرة الشعب)[٣٨]، فإنه بمقدورنا القول، بأن نظام الحكم في بلاد سومر لم يبتعد كثيرًا عن الثيوقراطية. وذلك للأسباب الآتية:

١ – لأن الآلهة بقيت مصدرًا لسلطة الملك حسب الفكر العراقي السومري القديم رغم اختياره من (مجلس أونكين).

٢ – استمرت رعاية الملك السومري للشؤون الدينية في عصر فجر السلالات. حيث بقي الدين يلعب دورًا أساسيًا في الحضارة السومرية.

وقد ظهرت وثائق مسمارية مهمة تحتوي على أسماء الملوك الذين حكموا في دويلات المدن السومرية، ومدة حكمهم، أُطْلِق عليها (وثيقة إثبات الملوك). حيث جمعت من ١٥ وثيقة مختلفة من تلك الوثائق[٢٢٧]. وتضمنت تلك الوثيقة مرحلتين أساسيتين هما:[٢٢٨]

أولًا: مرحلة ما قبل الطوفان: التي تضمنت خمسة مراحل أساسية هي:

١- أن الملوكية كانت قد هبطت من السماء، فكانت مدينة أريدو مركزها، والتي حكم فيها ملكان لمدة ٣٦٠٠٠ عامًا.

٢- ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة (باد تبيرا)، التي حكم فيها ثلاثة ملوك لمدة ١٨٠٠٠٠ عامًا.

٣- ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة (لاراك)، التي حكم فيها ملك واحد لمدة ٢٨٠٠٠ عامًا.

٤- ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة (سبار)، التي حكم فيها ملك واحد لمدة ٢١٠٠٠ عامًا.

٥- ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة (شروباك)، التي حكمها ثمانية ملوك لمدة ٢٤١٠٠٠ عامًا.

ثانيًا: مرحلة ما بعد الطوفان: التي تضمنت المراحل الآتية:

١- هبطت الملوكية مرة ثانية من السماء، وحلت في مدينة (كيش) التي أصبحت مركز الملوكية، والتي حكم فيها ٢٣ ملكًا لمدة ٢٤٠٥١٠ عامًا.

٢- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (آي - أنا)، التي حكمها ١٢ ملكا لمدة ٢٣١٠ عامًا.

٣- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أور)، التي حكمها ٤ ملوك لمدة ١٧٧ عامًا.

٤- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أوان)، التي حكمها ٣ ملوك لمدة ٣٥٦ عامًا.

٥- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (كيش)، التي حكمها ٨ ملوك لمدة ٣١٩٥ عامًا.

٦- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (حمازي)، والتي حكمها ملك واحد لمدة ستة وثلاثون عامًا.

٧- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أوروك)، التي حكمها ٣ ملوك لمدة غير محددة.

٨- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أور)، التي حكمها ٣ ملوك لمدة ١١٦ عامًا.

٩- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أدب)، التي حكم فيها ملك واحد لمدة ٩٠ عامًا.

١٠- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (ماري)، التي حكم فيها ستة ملوك لمدة ١٣٦ عامًا.

١١- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (كيش)، التي حكمتها ملكة واحدة تُدْعَى (كوبار) لمدة ١٠٠ عام.

١٢- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أكشك)، التي حكمها ٦ ملوك لمدة ٩٩ عامًا.

١٣- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (كيش)، والتي حكمها سبعة ملوك لمدة ٤٩١ عامًا.

١٤- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أوروك)، التي حكمها ملك واحد لمدة خمسة وعشرون عامًا.

١٥- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أكد)، التي حكمها ١١ ملكًا لمدة ٣٠ عامًا.

١٦- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أوروك)، التي حكمها ٥ ملوك لمدة ٣٠ عامًا.

١٧- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (الكوتين)، التي حكمها ١٢ ملكا لمدة ٩١ عامًا.

١٨- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أوروك)، التي حكمها ملك واحد لمدة سبعة أعوام.

١٩- ثم نقلت الملوكية إلى مدينة (أور)، التي بدأ معها حكم (سلالة أور الثالثة) و(سلالة آيسن).

ويمكن تسجيل عدد من الملاحظات على هذه الوثيقة التاريخية المهمة منها:

١- أشارت الوثيقة بوضوح إلى الأصل الديني للسلطة السياسية في العهد السومري بوصفها هبة السماء إلى الأرض. ومن ثم تم تداولها بين دويلات المدن حسب مشيئة الآلهة. ويبدو أن ذلك مقتبس من نموذج دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولكن بشكل

مُحَرَّف. لذلك فإن الباحث سامي البدري قال: (وقد انطلقت الجماعة السومرية التي سكنت العراق القديم وعمرته تحمل رسالة نوح، ولكنها حرفتها في كثير من جوانبها، ولم يتبق منها إلا النزر القليل)[٢٢٩].

٢- نجد أحيانًا مبالغة في السنوات المخصصة لحكم الملوك في الدويلات السومرية، ولا سيَّما ملوك السلالات القديمة التي سبقت الطوفان. إذ يلاحظ بوضوح المبالغة في مدة حكم المدن الخمسة قبل الطوفان، والتي حكم خلالها خمسة عشر ملكًا، خصصت لعهود حكمهم أرقامًا خارجة عن مدى الأعمار الطبيعية للبشر. إذ أنها ناهزت ربع مليون عامًا. كما أنها خصصت لحكم كل ملك منهم رقمًا خياليًا.

٣- كما نجد أحيانًا أخرى. أرقامًا معقولة للسنوات المخصصة لحكم الملوك في الدويلات السومرية، ولا سيَّما في بعض عهود ملوك السلالات القديمة التي أعقبت الطوفان المشهور.

٤- تؤكد الوثيقة بشكل لا لبس فيه تَجَذُّر الحكم الملكي وعراقته في الفكر السياسي العراقي القديم، بحيث لم يفكر أحد في إيجاد بديل له. إذ تعايشت معه الأقوام العراقية القديمة وألفته.

ويلاحظ، أن حكم هذه السلالات المتعددة لم يكن متشابهًا من حيث الأهمية. إذ أن من بين تلك السلالات كانت تبرز واحدة بوصفها السلالة الأكثر أهمية. ولعل سلالة (أور - ناتشه) التي قامت في (مدينة لكش) كانت واحدة من أهم تلك السلالات. وأن العاهل (أور - ناتشه) مؤسِس هذه السلالة كان قد اشتهر بمشاريعه العمرانية، واهتمامه بالري والتجارة. وقد قام ببسط نفوذه على مدينة أور فحقق بذلك لنفسه سلطة واسعة. وكان خلفه العاهل (أيا ناتم) بحدود (٢٥٥٠ ق.م)، الذي كان قد قضى على الفوضى التي عمت البلاد بعد غزو العيلاميين. فخلص السومريين من قبضتهم. وأمَّن حدود البلاد الشرقية عن طريق اخضاع عدة مدن عيلامية على الحدود. ونجح في توطيد سلطة لكش وفرضها على جميع بلاد سومر. كما سيطر على مدينة ماري ومدينة آشور[٢٣٠].

وأعقبه العاهل (انتمينا) الذي قام بحفر نهر كبير بين دجلة والفرات لضمان موارد الري اللازمة لمدينة لكش. ثم أعقبه عددًا من الملوك الضعفاء الذين كانوا في الأغلب من الكهنة من الذين مهدوا لسقوطها.

وعلى أثر انقلاب انتقلت السلطة في لكش إلى العاهل (اوروكاجينا) المشهور بإصلاحاته. وقد انتهى حكمه إثر هجوم قام به (لوكال زاكيزي) حاكم مدينة أوما المجاورة، والذي يعد من الكهنة. والذي تَمَكَّن من مد نفوذه إلى مدينة الوركاء. وأسس بذلك سلالة الوركاء الثالثة. واتخذ لنفسه لقب (ملك الأقاليم)، و(ملك سومر). وبعد أن استولى على معظم بلاد سومر وأكد بضمنها كيش ونفر اتخذ لنفسه لقب (ملك كيش). ولم يتوقف عند هذا الحد، إنما تجاوزه ليمتد نفوذه إلى الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط. وقد استطاع أن يُوَحِد البلاد. وإقامة الدولة العراقية المُوَحَدة لأول مرة في التاريخ. ومن ثم شرع بتأسيس إمبراطورية[٢٣١].

وبذلك يمكن القول، أنه بتوحيد بلاد سومر فإن مشروعه السياسي كان قد أنهى حالة شبيهة بالفدرالية كانت قائمة في المدن السومرية[٢٣٢].

وقد امتاز (لوكال زاكيزي) بمقدرته العسكرية والإدارية وطموحاته الواسعة في توحيد البلاد وضم دويلات المدن السومرية تحت سلطته. وحكم حوالي ٢٥ عامًا تَمَكَّن من خلالها من إقامة أول دولة عراقية مُوَحَدة في بلاد سومر[٢٣٣].

وبعد مرور ربع قرن من قيام ذلك الملك بتوحيد بلاد سومر، تَمَكَّن ضابط من أصل أكدي اشتهر في التاريخ باسم (سرجون الأكدي) من أن ينقلب ضده بالجند الذين تحت أمرته. واستطاع أن يأسره، ويأتي به مصفدًا بالأغلال إلى بوابة معبد الإله المزعوم (انليل) في مدينة نفر بالقرب من قضاء عفك بالديوانية. بوصفه مصدر السلطة ومبدأها الفعال. ويبدو أن ذلك المشهد أقنع الناس بانتصاره لأنه أثبت لهم بأن السلطة السياسية السومرية قد سقطت. وبدأ عهدًا جديدًا أُطْلِق عليه عهد الدولة الأكدية (٢٣٧١ – ٢٢٣٠ ق.م). وهذا ما سوف نعرج عليه في الفصل الآتي.

وفي ضوء ذلك، يتبين أن إشكاليات السلطة والدولة في العهد السومري تكمن في ما يأتي:

١ - اتسمت العلاقات بين دويلات المدن السومرية بالصراع والتنافس رغم وحدتها الحضارية. ولم تتمكن من توحيد نفسها ضمن إطار دولة واحدة بالتراضي إنما تم ذلك عن طريق القوة. حيث حاول بعض حكام المدن، في أوقات سابقة، توحيد البلاد كلها عن طريق القوة المحدودة. مثل (ميسلم) و(ميسانييدا) مؤسس سلالة اور الأولى، بيد أن محاولاتهم باءت بالفشل. ثم نجحت محاولات (ايوا ناتم) حاكم مدينة لكش في توحيد البلاد جزئيًا. ثم نجح إلى حد كبير، (لوكال زاكيزي) من توحيد البلاد. وبذلك أقام أول دولة عراقية موحدة ليس بموجب نظريات العقد الاجتماعي إنما عن طريق نظرية القوة.

٢ - يلاحظ أنه كلما كانت بلاد الرافدين في العهد السومري مجزأة تنكفأ إلى الداخل وتدخل في صراع وتنافس بين مكوناتها السياسية (دول المدن). وعندما تتوحد بلاد الرافدين تتجه إلى الخارج ضمن إطار الفكر الإمبراطوري، الذي يعد أحد سمات السلوك السياسي العراقي. كما فعل (لوكال زاكيزي) الذي جنح بعد توحيد البلاد نحو تأسيس إمبراطورية عراقية ممتدة من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط.

٣- رغم الانفصال النسبي الذي حدث بين السلطتين الدينية والدنيوية منذ نشوء النظام الملكي المعروف باسم (Lugal)، بيد أن نظام الحكم في بلاد سومر بقي يدور في فلك الحكم الثيوقراطي. ولعل مطلع (وثيقة إثبات الملوك) يدل على ذلك بوضوح بإقرارها أن (الملوكية هبطت من السماء). وبذلك تصبح الآلهة مصدرًا للسلطة الشرعية، التي تفوض نوابًا عنها من بين البشر ليمثلوها على الأرض عن طريق حكم البشر نيابة عن الآلهة. وقد تأكد ذلك في الشرائع العراقية اللاحقة، والتي بنيت على أساس التفويض الإلهي من كبار الآلهة إلى إله المدينة، الذي يفوض بدوره ملك هذه المدينة ليحكم الناس نيابة عنه. وبذلك تتدرج السلطة من كبار الآلهة إلى إله المدينة إلى الملك المفوض عنها. وربما يكون هذا المنحى مقتبس من تجربة دولة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولكن بشكل محرف نسبيًا.

هوامش الفصل الثاني

(١) علي عباس مراد، عامر حسن فياض، الظاهرة القومية: مدخل إلى الفكر القومي العربي، جامعة قار يونس، بنغازي - ليبيا ١٩٩٨، ص ١١.

(٢) إسماعيل غزال، القانون الدستوري والنظم السياسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (د. ت)، ص ٦٩.

(٣) عبد الفتاح عبد الرزاق محمود، الإعلان عن الدولة، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة إلى كلية القانون/ جامعة صلاح الدين، أربيل ٢٠٠٧، ص ٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سبق ذكره، مادة (دال).

(٥) كمال الغالي، مبادئ القانون الدستوري والنظم السياسية، منشورات جامعة دمشق، دمشق ١٩٩٦، ص ١٩.

(٦) منذر الشاوي، الدولة (الديمقراطية في الفلسفة السياسية والقانونية: فكر الديمقراطية)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠٠، ص ٢٨.

(٧) اندريه هوريو، القانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ج ١، ترجمة: علي مقلد وآخرون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٣، ص ٩٨.

(٨) إسماعيل غزال، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

(٩) برتراند بادي، بيار بيرنبوم، سوسيولوجيا الدولة، ترجمة: جوزيف عبد الله وجورج أبي صالح، مركز الانماء القومي، بيروت (د.ت)، ص ١٩.

(١٠) حسن صعب، علم السياسة، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧١، ص ١٣٤.

(١١) محمد سعيد طالب، الدولة الحديثة والبحث عن الهوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٩، ص ٣٢.

(١٢) عبد الفتاح عبد الرزاق محمود، مصدر سبق ذكره، ص ٨.

(١٣) برتراند بادي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

(١٤) بطرس غالي، محمود خيري عيسى، المدخل في العلوم السياسية، مكتبة الانكلو مصرية، ط ١٠، القاهرة ١٩٩٨.

(١٥) حسن أبشر الطيب، الدولة العصرية: دولة مؤسسات، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٥.

(١٦) محمد كامل ليله، النظم السياسية: الدولة والحكومة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٥.

(١٧) لمزيد من التفصيل حول تلك النتائج انظر: عصام العطية، القانون الدولي العام، ط ٨، الدار العراقية، بيروت ٢٠١٠، ص ٣٢٨ - ٣٥١.

(١٨) انظر: منذر الشاوي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤. كذلك، شارلز تلي، الدولة والقسر ورأس المال عبر التاريخ، ترجمة: عصام الخفاجي، دار الفارابي، بيروت ١٩٩٣، ص ٦.

(١٩) لمزيد من التفصيل حول أركان الدولة انظر: عصام العطية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٢ - ٢٦٧. علاء محمد مطر، مبادئ العلوم السياسية، ط ٢، القاهرة ٢٠١٨، ص ٥٨ - ٦٧. دايموند كارفيلد كيتل، ج ١، ط ٢، ترجمة: فاضل زكي محمد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيو يورك ١٩٦٢، ص ٢٦ وما بعدها. زهير شكر، الوسيط في القانون الدستوري، ج ١، ط ٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٩ وما بعدها.

(٢٠) حميد الساعدي، مبادئ القانون الدستوري وتطور النظام السياسي في العراق، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل ١٩٩٠، ص ٨.

(٢١) عصام العطية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
(٢٢) صادق الأسود، علم الاجتماع السياسي: أسسه وأبعاده، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٦، ص ٨٥.
(٢٣) للتفصيل انظر: حنان علي عواضة، السلطة عند ماكس فيبر، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة بغداد - كلية التربية للعلوم الإنسانية/ ابن رشد، العدد ٦، مج ١، ٢٠١٣، ص ٢٧١ - ٢٧٤.
(٢٤) لمزيد من التفصيل حول نظريات نشأة الدولة انظر: مجموعة مؤلفين، لمحات من الفكر السياسي، المركز الإسلامي، إيران ١٩٨٢، ص ٢٦ - ٢٨. علاء محمد مطر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢ - ٥٤. كطران زغير نعمة، مبادئ القانون الدستوري: نظرية الدولة، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - بغداد (د. ت)، ص ١٣ - ٣٠. ابدوريا، المدخل إلى العلوم السياسية وترجمة: نوري محمد حسين، مطبعة الديواني، بغداد ١٩٨٨، ص ١٣ - ٤٥.
(٢٥) القصص/ آية ٣٨.
(٢٦) النازعات/ آية ٢٤.
(٢٧) طه باقر، مقدمة تاريخ الحضارات القديمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٨.
(٢٨) التثنية/ ١: ١٧.
(٢٩) لمزيد من التفصيل انظر: نديم الجابري، الأصولية اليهودية، مؤسسة الفضيلة للدراسات والنشر، بغداد ٢٠٠٦، ص ١٥٠ - ١٨٧.
(٣٠) برتراند بادي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.
(٣١) عصام العطية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.
(٣٢) البقرة/ آية ٣٥.
(٣٣) البقرة/ آية ٣٠.
(٣٤) محاضرات السيد محمد باقر الصدر، المجتمع الفرعوني، إعداد: محمد علي أمين، مكتبة دار المجتبى، النجف الأشرف ١٩٨٣، ص ٩.
(٣٥) أحمد الكبيسي، قصص القرآن الكريم، ط ٦، دار المعرفة، بيروت ٢٠١٧، ص ١٤.
(٣٦) طه/ آية ١٢٣.
(٣٧) آل عمران/ آية ٣٣.
(٣٨) أحمد الكبيسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.
(٣٩) محاضرات السيد محمد باقر الصدر، مصدر سبق ذكره، ص ٩- ١٠.
(٤٠) أحمد الكبيسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.
(٤١) التكوين/ ٢: ٨.
(٤٢) انظر: الرعد/ آية ٢٣. النحل/ آية ٣٤. الكهف/ آية ٣١. مريم/ آية ٦١. طه/ آية ٧٦. فاطر/ آية ٣٣. ص/ آية ٥٠. غافر/ آية ٨. البينة/ آية ٨.
(٤٣) مريم/ آية ٦١.
(٤٤) سيد قطب، في ضلال القرآن، مج ٤، ط ١٥، دار الشروق، بيروت - القاهرة ١٩٨٨، ص ١٠٥٨.
(٤٥) الرعد/ آية ٢٣.

(٤٦) سيد قطب، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥٨.
(٤٧) النحل/ آية ٣١.
(٤٨) طه/ آية ٧٦.
(٤٩) الأعراف/ آية ٢٤.
(٥٠) فاطر/ آية ٥٠.
(٥١) مختار الصحاح، مصدر سبق ذكره، مادة (جنن) ومادة (عدن).
(٥٢) لسان العرب، مصدر سبق ذكره، مادة (جنن) ومادة (عدن).
(٥٣) ماري فير تشايلد، جنة عدن: ملحمة قصة الكتاب المقدس. https.//eferrit.com.
(٥٤) قاسم إبراهيم، أين تقع جنة عدن، https.//ar.arabic bible.com
(٥٥) التكوين/ ٢: ٨ - ١٥.
(٥٦) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.
(٥٧) صالح أحمد العلي، مقدمة كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٧.
(٥٨) https.//arim.wikipedia.org.
(٥٩) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(٦٠) المصدر السابق، ص ١٥.
(٦١) المصدر السابق، ص ١٦.
(٦٢) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢ - ٢٣.
(٦٣) التكوين/ ١: ٢٨.
(٦٤) التكوين/ ٦: ٢.
(٦٥) التكوين/ ٦: ١.
(٦٦) التكوين/ ٥: ٥.
(٦٧) التكوين/ ٥: ٨.
(٦٨) التكوين/ ٥: ١١.
(٦٩) التكوين/ ٥: ١٤.
(٧٠) التكوين/ ٥: ١٧.
(٧١) التكوين/ ٥: ١٩.
(٧٢) التكوين/ ٥: ٢٣.
(٧٣) التكوين/ ٥: ٢٧.
(٧٤) التكوين/ ٥: ٣١.
(٧٥) محاضرات السيد محمد باقر الصدر، مصدر سبق ذكره، ص ١٠ - ١١.
(٧٦) هود/ آية ١٠٠.
(٧٧) ابن جرير الطبري، قصص الأنبياء، تحقيق: جمال بدران، ط ٣، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٨١.
(٧٨) محاضرات السيد محمد باقر الصدر، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ - ١٣.

(٧٩) لسان العرب، مصدر سبق ذكره، مادة (قرى).
(٨٠) حازم حسني زيود، مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم، مجلة الجامعة العربية - الأمريكية للبحوث، مج ٢، العدد ٢ لسنة ٢٠١٦، ص ٢٥ - ٢٦.
(٨١) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧.
(٨٢) العنكبوت/ آية ١٤.
(٨٣) القمر/ آية ١١.
(٨٤) هود/ آية ٤٠ - ٤٤.
(٨٥) راجع سفر التكوين/ الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع.
(٨٦) أشعيا/ ٥٤: ٩.
(٨٧) أيوب/ ١٢: ١٥.
(٨٨) متي/ ٢٤: ٣٧ - ٣٨.
(٨٩) لوقا/ ١٧: ٢٦ - ٢٧.
(٩٠) النجم/ آية ٥٢.
(٩١) الذاريات/ أية ٩١.
(٩٢) الأنبياء/ آية ٧٧.
(٩٣) الأعراف/ آية ٦٤.
(٩٤) الشعراء/ آية ١٠٥.
(٩٥) القمر/ آية ٩ ز
(٩٦) المؤمنون/ آية ٢٣ - ٢٤.
(٩٧) التكوين/ ٦: ٤ - ٥.
(٩٨) التكوين/ ٦: ١١ - ١٣.
(٩٩) طه باقر، ملحمة كلكامش، دار المعارف، بغداد ١٩٧٦، ص ١٥ - ١٦.
(١٠٠) ثامر خزعل العامري، طوفان النبي نوح والتغييرات البيئية اللاحقة في وادي الرافدين بالأدلة البالينولوجية، مجلة تراث النجف الحضاري والديني، العدد ٢ لسنة ١٤٣١ هجرية، ص ٣٢.
(١٠١) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، مكتبة وهبة، ط ٣، القاهرة (د. ت)، ص ٣٦.
(١٠٢) هود/ آية ٢٦.
(١٠٣) هود/ آية ٤٤.
(١٠٤) التكوين/ ٦: ١٢.
(١٠٥) التكوين/ ٧: ٢٣.
(١٠٦) التكوين/ ٨: ٤.
(١٠٧) التكوين/ ٨: ٤.

(108) Ar.m.wikipedia.org.
(109) Encyclopedia Britania, vol. 1, p. 378.

(١١٠) NOAH' SARK: ITS FINAL BERTH, by Bill. Crouse, electronic edition. نقلًا عن سامي البدري، النجف مرسى سفينة نوح، مجلة تراث النجف الحضاري والديني، العدد الأول، السنة الأولى ربيع الأول ١٤٣٠ هجرية، ص ١٠ - ١١.

(١١١) هود/ آية ٤٤.

(١١٢) نصر الدين إبراهيم، استثمار اللغة العربية في تذوق بلاغة القرآن الكريم، المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية، دبي ٢٠١٤، ص ٤.

(١١٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن الكريم، ج ١٢، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د. ت)، ص ٦٣.

(١١٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت)، ص ٧٣.

(١١٥) ياقوت الحموي، مصدر سبق ذكره، مادة (قردي).

(١١٦) أحمد الكبيسي، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

(١١٧) محمود شلبي، حياة نوح، دار الجيل، بيروت ١٩٨٢، ص ١٩٠.

(١١٨) دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، مادة (الجودي).

(١١٩) صالح أحمد العلي، مصدر سبق ذكره، ص ٧.

(١٢٠) محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج ٨، ص ٣٦١.

(١٢١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٣٩.

(١٢٢) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٨، ص ٢٨١.

(١٢٣) سامي البدري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.

(١٢٤) لمزيد من التفصيل انظر: المصدر السابق، ص ٦ - ٧٤.

(١٢٥) لمزيد من التفصيل انظر: ثامر خزعل العامري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢ - ٣٨.

(١٢٦) هود/ آية ٣٦.

(١٢٧) هود/ آية ٤٠.

(١٢٨) المؤمنون/ آية ٢٧.

(١٢٩) نوح/ آية ٢٦.

(١٣٠) هود/ آية ٤٤.

(١٣١) هود/ آية ٤٦.

(١٣٢) التحريم/ آية ١٠.

(١٣٣) سيد قطب، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨٦.

(١٣٤) المصدر السابق، ص ١٨٨٨.

(١٣٥) المصدر السابق، ص ١٨٩٢.

(١٣٦) يونس/ أية ٧٣.

(١٣٧) التكوين/ ٧: ٢٣.

(١٣٨) الشعراء/ آية ١١٦.

(١٣٩) هود/ آية ٣٧.
(١٤٠) المؤمنون/ آية ٢٧.
(١٤١) الشعراء/ آية ١١٩.
(١٤٢) هود/ آية ٤١.
(١٤٣) هود/ آية ٤٢.
(١٤٤) هود/ آية ٤٤.
(١٤٥) هود/ آية ٤٨.
(١٤٦) التكوين/ ٨: ١٦ - ١٧.
(١٤٧) التكوين/ ٨: ٦ - ١٧.
(١٤٨) محمود شلبي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.
(١٤٩) الشعراء/ آية ١٠٧.
(١٥٠) هود/ آية ٢٥.
(١٥١) محمود شلبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢.
(١٥٢) كفايت الله الهمداني، نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والسفينة وجبل جودي في الكتب السماوية، مجلة القسم العربي/ جامعة البنجاب - باكستان، العدد ٢١ لسنة ٢٠١٤، ص ١٦.
(١٥٣) انظر سفر التكوين/ الفصول من ٥ - ١٠.
(١٥٤) محمود شلبي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.
(١٥٥) المصدر السابق، ص ٦٠، ص ٦٣.
(١٥٦) النجم/ آية ٥٥.
(١٥٧) نوح/ آية ٢٦.
(١٥٨) ابن رشيق، العمدة، تحقيق: محمد قزقزان، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٨، ص ٢٨٦.
(١٥٩) الأحزاب/ آية ٧.
(١٦٠) الأحقاف/ آية ٣٥.
(١٦١) آل عمران/ آية ٣٣.
(١٦٢) محمود شلبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٢.
(١٦٣) النساء/ آية ١٦٣.
(١٦٤) محمود شلبي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.
(١٦٥) الأعراف/ آية ٦١.
(١٦٦) الإسراء/ آية ٣.
(١٦٧) التكوين/ ٦: ٩.
(١٦٨) التكوين/ ٦: ٨.
(١٦٩) هود/ آية ٢٨.
(١٧٠) نوح/ آية ٥.

(١٧١) نوح/ آية ٨ - ٩.
(١٧٢) لمزيد من التفصيل انظر: عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله، مناهج أولي العزم من الرسل، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٢ هجرية
(١٧٣) التكوين/ ٨: ٢١.
(١٧٤) التكوين/ ٩: ٢.
(١٧٥) التكوين/ ٨: ٢٢.
(١٧٦) التكوين/ ٩: ٢٠.
(١٧٧) التكوين/ ٩: ١.
(١٧٨) التكوين/ ٩: ٧.
(١٧٩) سامي البدري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.
(١٨٠) منصور عبد الحكيم، الملك النمرود: أول جبابرة الأرض، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة ٢٠١٦، ص ٣٨ - ٣٩.
(١٨١) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(١٨٢) منصور عبد الحكيم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(١٨٣) لسان العرب، مصدر سبق ذكره، مادة (جبر).
(١٨٤) مختار الصحاح، مصدر سبق ذكره، مادة (الجبر).
(١٨٥) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٦ - ١٧.
(١٨٦) البقرة/ آية ٢٥٨.
(١٨٧) التكوين/ ١٠: ٨.
(١٨٨) التكوين/ ١٠: ٩.
(١٨٩) التكوين/ ١٠: ١٠.
(١٩٠) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم: موجز التاريخ السياسي، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت ٢٠١٤، ص ١٢١.
(١٩١) فاضل عبد الواحد علي، السومريون والأكديون، فصل ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧ - ٦٨.
(١٩٢) سامي البدري، مصدر سبق ذكره، ص ٨.
(١٩٣) المصدر السابق، ٣٧.
(١٩٤) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ١٤.
(١٩٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.
(١٩٦) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ١٦ - ١٧
(١٩٧) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.
(١٩٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ٢٥٢.
(١٩٩) جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت

١٩٨٧، ص ١١ - ١٢. جورج سباين، تطوُّر الفكر السياسي، ج ١، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧١، ص ١ - ٢.

(٢٠٠) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج ٢، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥، ص ٨٢٢.

(201) City - State Through History, university of Chicago press, Chicago, p. 219.

(٢٠٢) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢٠٣) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية إلى الدولة المدنية: دراسة في تطوُّر نظام الحكم في الدولة القديمة، منشورات زين الحقوقية، بيروت ٢٠١٩، ص ١٧.

(٢٠٤) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩ - ٥٠

(205) Jon Lewis, introduction to philosophy, watts and co, London 1954, p. 4.

(٢٠٦) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١، ص ٩٣.

(٢٠٧) بتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (د. ت)، ص ٦٧.

(٢٠٨) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢٠٩) روجر ماثيو، آثار بلاد الرافدين: نظريات ودراسات، ترجمة: محمد صبري عبد الرحيم، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد ٢٠١٦، ص ١٥٢.

(٢١٠) المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٢١١) المصدر السابق، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢١٢) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.

(٢١٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢١٤) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.

(٢١٥) ليوا وينهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: سعدي فيضي عبد الرزاق، اتحاد الناشرين العراقيين، بغداد ٢٠١٣، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢١٦) روجر ماثيو، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٦.

(٢١٧) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.

(٢١٨) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٧.

(٢١٩) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٩١.

(٢٢٠) ليوا وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

(٢٢١) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.

(٢٢٢) ليوا وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٦١،

(٢٢٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٢٢٤) المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٢٢٥) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٢٢٦) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١ - ١٠٣.
(٢٢٧) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣ - ٩٤.
(228) Jacobsen.T, The Sumerian King - List, Chicago 1964, p. 193.
(٢٢٩) انظر الترجمة الكاملة لوثيقة إثبات الملوك في طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٨ - ٢٩٦.
(٢٣٠) سامي البدري، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(٢٣١) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.
(٢٣٢) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج ١ ، ط ٣، ترجمة: محمد خلف الله وآخرون، دار المعارف، مصر ١٩٧٦، ص ٤١.
(٢٣٣) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٥.

الفصل الثالث

ملامح الدولة العراقية في العصر الأكدي

في هذا الفصل سوف يتطرق الباحث إلى المحاور الآتية:

المبحث الأول: التعريف بالأكديين.

المبحث الثاني: ملامح الدولة العراقية في عهد سرجون الأكدي.

المبحث الثالث: ملامح الدولة العراقية ما بعد سرجون الأكدي.

المبحث الرابع: ملامح الدولة العراقية ما بعد سقوط الدولة الأكدية.

المبحث الأول

التعريف بالأكديين

يعـد الأكاديـون من الأقوام الجزرية (السـامية) التي نزحت من شـبه الجزيـرة العربية، نتيجـة الجفـاف وضيق الحالة الاقتصادية فيهـا. فضلًا عن قلة موارد العيـش فيها، وما حل بها من نكبات في حقب مختلفة[١]. خصوصًا بعد انسحاب العصر الجليدي الأخير في حدود عـشرة آلاف قبل الميلاد، حيث سـبب هذا الانسـحاب في حلول الجفـاف في منطقة الجزيرة العربيـة. لذلـك قلـت الأمطار فيهـا. وتحولت إلى موسـمية. إن هذه الشـحة في الأمطار قد جعلت معظم أجزاء الجزيرة العربية لا تتحمل أي كثافة عددية من السكان. ولهذا كان على الأعداد الفائضة أن تترك المنطقة كلما كان ذلك ممكنًا[٢].

ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد، بدأت هجرات الساميين عمومًا، والأكديين خصوصًا، من موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين في موجات متتابعة. وقد تزامنت هـذه الهجـرات مع بداية تَكَوُّن المـدن في العراق القديم. واختفاء حضـارة العبيد في الجزيرة العربية. وبمرور الأيام اسـتطاع هؤلاء القادمون من شـبه الجزيرة العربية أن يُكَوِّنُوا لهم إلى جانب السومريين مدنًا خاصة بهم، لكل منها أمير يحكمها، ومعبد تقيم فيها طقوسها، وإله مزعوم يحميها، رغم أنهم كانوا أقل تحضرًا من السومريين[٣].

ويبدو أن هجرتهم كانت على هيئة جماعات، وقبائل، وعشائر كبيرة وصغيرة. واستقروا سلميًا أو بالقوة في الأقاليم المجاورة لوادي الرافدين وسوريا وفلسطين. واستقرت جماعات منهم في مصر وشمال أفريقيا.

وقـد تميزت الأقوام الجزرية عمومًا، والأكدية خصوصًا، بجملة من السـمات التاريخية والسـيكولوجية وفي الأعراف والتقاليد والمعتقـدات الدينية وغيرها. ومنهم من كان مزودًا بالخبرة الفنية في الري والزراعة، التي مارسوها في وطنهم الأصلي قبل الجفاف.

ومما سـاعد الأقوام الجزريـة المهاجرة إلى البـلاد المتاخمة للجزيرة العربيـة هو أن حدود

العراق الغربية كانت مفتوحة للصحراء. فكان من السهولة التوغل إلى بلاد الرافدين دون أن يصادفهم حاجز جغرافي يصدهم. وأخذوا يبنون حياة جديدة في عالمهم الجديد، فتمكنوا، في وقت قصير، نسبيًا، من تأسيس حضارة مهمة في التاريخ على أرض العراق[٤].

ومن الجدير بالذكر، أنه لم يكن ثمة تعارض بين السومريين والأكديين. وكانا يتعايشان معًا بشكل سلمي. وقد تداخل الفكر والثقافة بينهما وتوطد عبر الزمان. وكانا يعيشان دومًا جنبًا إلى جنب. بيد أنهما وأن تشاركوا في الثقافة نفسها، بيد أن كلًا منهما كان يحتفظ بتصوراته الذهنية الخاصة به. فهناك مفاهيم أساسية لا سيَّما على الصعيد الديني بقيت مختلفة عند الأمتين. كما كانت تختلف عندهم أيضًا طريقة التفكير والنظر إلى العالم[٥].

وهناك من الأدلة المكتوبة، ما يشير إلى أن قبائل الجزيرة العربية كانت قد توطنت في العراق منذ عصر مبكر جدًا. فهناك أسماء أعلام وردت في وثائق فجر السلالات تدل على أن أصحابها كانوا جزريين، أي من غير السومريين. مثل (ايل) بمعنى (الله). كما حمل أكثر من اثنتي عشر من حكام مدينة كيش أسماء سامية جزرية[٦]. لذلك كان من الصعوبة تحديد فواصل واضحة لمناطق الاستقرار السامي والسومري في عصر الأسرات المبكر. خاصة وأن الأسماء السامية وردت في أسرات الوركاء وأور السومرية. كما وردت الأسماء السومرية في أسرة كيش[٧].

كما يستدل من التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي وجدت فيها النصوص التي تذكر أسماء الأعلام هذه على أن الأكديين كانوا منتشرين في رقعة جغرافية واسعة نسبيًا. ورغم أنهم كانوا أقل عددًا من السومريين في الجنوب، بيد أنهم كانوا يتمتعون بالقوة والنفوذ في المنطقة التي كانت ضمن حدود مدينة كيش (تل الاحيمر)[٨].

وقد مارس الأكاديون النشاط الزراعي. وعاشوا جنبًا إلى جنب مع السومريين في القرى والمدن. فشاركوهم الحياة والحضارة. وأن الاختلاف الوحيد بينهم كان اختلافًا لغويًا. إذ لا يمكن أن نميز هاتين المجموعتين بعضهما عن البعض في أي مجال آخر سوى اللغة. ويظهر أن العنصر السومري كان أكثر عددًا من العنصر الجزري في جنوب العراق. وكان

للتفاعل بين الأقوام السومرية والجزرية أثرًا في تعزيز مكانتهم. وأفصح عن قدرات قيادية أخذت بالبلاد نحو الوحدة والقوة.

ويلاحظ، أن هناك تأثرًا واضحًا من الأكديين بالثقافة والعقائد السومرية. والتي بقيت نشكل جزءً كبيرًا من اهتمامهم، مما يؤكد إعجابهم بهذه الثقافة، وتناغمهم معها[٩].

وفي الوقت الذي أمسك الأكاديون بزمام الحكم، لأول مرة، بيد أنهم كانوا من الإدراك والوعي الفكري الذي دفعهم للتواصل مع المسيرة السومرية بدلًا من تقويضها. إذ لم يكن هناك أي توقف في تقدم المدنية، ولا أي ثغرة في تطور الفنون. حيث حافظ الفنان الأكدي على القيم الحضارية التي ورثها عن السومريين. وتَمَكَّن من تطويرها وصياغتها بإطار جديد يتلاءم مع التطورات التاريخية التي اختلفت عن السومريين بنظرتها للحياة. إذ أن فلسفة الدولة الأكدية تأسست على فكرة الملك القوي والسلطة المركزية المُوَحَّدة، والحملات الحربية الناجحة، والقانون الصارم، وحركة البناء الناشطة بصورة ملحوظة.

لذلك تميز الفن الأكدي بطابعه الخاص المشوب بطبيعة نظامه الملكي. وخضع بتوجهاته لإرادة الملوك. فكان الفن يزدهر بقوة شخصية الملك، ويُضمَحِل بضعفها[١٠].

وخلافًا للسومريين الذين ما يزال أصلهم، وأصل لغتهم مجهولين لحد الآن، فإن الأكديين يمثلون واحدة من أقدم هجرات قبائل الجزيرة العربية إلى وادي الرافدين. كما أن لغتهم تعود في أصولها إلى عائلة لغات الجزيرة العربية الأم، التي تفرعت إلى فروع منها الأكدية، والبابلية، والآشورية، والعربية، والعبرية، والآرامية، والتي كانت تسمى باللغات السامية[١١].

وكان هؤلاء الأكاديون يتكلمون اللغة الأكدية، التي تعد إحدى فروع لغة الجزيرة الأم. كما أنهم استخدموا في كتابتها الخط المسماري الذي ابتكره السومريون من قبل. واللغة الأكدية تمثل الفرع الشرقي من عائلة اللغات الجزرية، كونها تنتمي بأصولها البعيدة إلى ذات الأصل الذي تنتمي إليه اللغة العربية. ولذلك كان التشابه بينهما كبيرًا وواضحًا ليس في المفردات اللغوية فحسب، إنما في التراكيب، والصيغ، والقواعد، والأساليب، والأصوات،

وغيرهـا من أوجه الشـبه مع اختلافـات في التفاصيل. وربما كانت أوجه الشـبه كبيرة؛ لأن اللغة الأكدية تعد أقدم لغة جزرية مدونة تمكنت من المحافظة على صيغتها الأصلية. واللغة العربية الشمالية تعد من أكثر اللغات الجزرية التي حافظت على أصولها البعيدة وخصائصها العامة بحكم انتشارها في منطقة معزولة نسبيًا. فضلًا عن الحفاظ على خصائصها في العصور اللاحقة بفضل القرآن الكريم[١٢].

أضـف إلى ذلـك، اسـتخدم الأكاديـون في كتابـة لغتهـم الخط المسـماري الـذي ابتكره السـومريون مـن قبل. ثـم أن تواجد الأكديـين جنبًا إلى جنـب مع السـومريين أدى بطبيعة الحال إلى تأثرهم بالحضارة السومرية. ففي نطاق اللغة استعار الأكاديون كثيرًا من المفردات والمصطلحات السومرية. كما نجد أن هناك كثيرًا من المفردات في اللغة السومرية ذات أصل أكدي. وعلى غرار السـومريين اسـتوطن الأكاديون القرى والمدن. ومارسوا الزراعة وشتى صنوف الحرف. كما أنهم مارسـوا المعتقدات والطقوس الدينية التي مارسـها السـومريون. لذلـك اتفـق الباحثـون في تاريـخ حضـارة وادي الرافدين عـلى أن السـومريين والأكديين انصهـروا في بوتقة حضـارة عراقية واحدة رغـم الاختلاف اللغوي بينهـما[١٣]. وربما هناك تمايزًا نسـبيًا في الإدراك الديني. حيث أن الديـن الأكدي كان وافر الآلهة. وخصائص الآلهة مـن نوع مماثل لخصائص الإنسـان، لا تختلف عنـه إلاَّ في كونها أكثر كـمالًا وتجريدًا. ولباس الآلهـة كلباس البـشر، ولكن ثياب الآلهة أبهى من ثياب الأمـراء. ويصدر عنها بريق يخطف الأبصار. وللآلهة أسر وأسلحة. وصراعها كصراع البشر، بيد أنه أعظم وأهول[١٤].

أما تسـمية (أكد) و(أكديون) فإنها تسـميات مشتقة من اسـم المكان الذي استوطن فيه الأكديـون على أرض العراق، والـذي أطلق عليه (مدينة أكد) التي أسسـها الملك سرجون الأكدي، واتخذها عاصمة لدولته.

عليه، فإنها تسمية لاحقة لوجود الأكديين على أرض العراق. وهم الساميون الجزريون الذيـن نزحـوا إلى هـذه الأرض حبًـا بخيراتهـا المتنوعـة. وعاشـوا فيهـا جنبًـا إلى جنب مع السومريين منذ أقدم الأزمنة[١٥].

ورغـم أن مدينـة أكـد التـي بناها الملـك سرجون، كانـت قد وردت بشـكل صريح في نصـوص العهـد القديـم (وكان أول مملكته بابـل وأرك وأكد وكلنه في شـنعار)[١٦]. بيد أنه لا يعـرف مكانهـا على وجه الدقة. وكل ما يعرف عنها أنها في الجزء الشـمالي من أرض بابل، مثلما كانت سـومر تمثل الجـزء الجنوبي من أرض بابل. والمنطقة المسـماة (mat akadi) الممتدة حول مدينة أكد سُميت المنطقة باسم عاصمتها[١٧].

عمومًا، أن العهد الأكدي الجديد يحدد نهاية عصر وبداية عصر جديد بدأت فيه ملامح حضارة وادي الرافدين تتبدل تبدلًا جوهريًا من الناحية القومية، واللغوية، والسياسية. كما ظهـرت عناصر ومقومات حضاريـة جديدة[١٨]. والجوهري في الموضـوع، أن بنية حضارة وادي الرافدين في العصر الأكدي شكلت تحولًا مهمًا في بنيتها الكلية عن الحضارة السومرية السابقة.

فـاذا فهمنـا التحـول عـلى أنـه تغير مـن حـال إلى حال أخـرى بغـض النظر عـن كونه يشـكل تطـورًا أو نكوصًا، وبغض النظر أيضًـا عن درجة ذلك التحـول، يمكن القول، أن بنية الحضارة السـومرية، التي تشـكلت بموجب عوامل فكرية ضاغطـة كهيمنة المعتقدات الدينية، وانعكاسـات اشتراطات البيئة الطبيعية وسـطوة الحكام وغيرها، فإن هذه العوامل قـد تخلخلـت أنظمتها بسـبب تخلخل أهمية تلك العوامـل الضاغطة في حركـة الفكر وبنيته العامـة، الأمـر الـذي أدى إلى ولادة بنية فكرية جديدة، هيمن فيها نظام جديد تَمَثَّل بسـطوة الملوك في تشكيل صورة الفكر وتصوراته السياسية. لذلك انتقل الفكر العراقي من خاصية الفكـر الميتافيزيقـي السـومري إلى الفكـر الملكـي الأكـدي[١٩]. ولعل أهم تلـك المهيمنات الفكريـة هي سـطوة ملوك أكـد الذين لقبوا أنفسـهم بألقاب إلهية، الأمر الذي قسـم نوعية المنجزات التشكيلية الأكدية إلى صنفين أساسيين هما:[٢٠]

١ – المنجزات التشكيلية الملكية (الرسمية). ولعل أشهر أمثلتها أبنية القصور والتماثيل والمنحوتات البارزة.

٢ – الإبداعات الفنية (الشعبية). ولعل أهم نماذجها هي الأختام الأسطوانية.

المبحث الثاني
ملامح الدولة العراقية
في عهد سرجون الأكدي

كانت شخصية سرجون الأكدي من بين الشخصيات القليلة التي برزت في تاريخ العراق القديم. فقد كان قائدًا عسكريًا مرموقًا، وإداريًا محترفًا.

ويبدو، أن هذا الوصف لا يمثل رأي المؤرخين المحدثين فقط، بل أن هناك العديد من القصص والروايات القديمة التي نسجت حول شخصية سرجون ومنجزاته، إلى درجة أن اثنين من الملوك الآشوريين تَسَموا باسم سرجون، ربما تيمنًا به. وذلك بعد أكثر من ألف سنة من تأريخ حكمه[٢١].

وكان سرجون الأكدي أول زعيم جزري (سامي) استطاع أن يؤسس دولة كبيرة في العراق القديم عمرها تجاوز (١٩٠) سنة. وهي أول سلالة أكدية جزرية سامية حكمت وادي الرافدين، واتخذت من مدينة أكد عاصمة لها[٢٢].

وقد ترتب على هذا التحول من الحكم السومري إلى الحكم الأكدي (ثورة في الأفكار السياسية)[٢٣]. ولعل قيام الدولة الأكدية يعد واحدًا من معطيات هذا التحول الفكري، بوصفها أول دولة مركزية انضوت تحت لوائها مدن العراق جميعها من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه.

فبعد أن كانت بلاد سومر وحدة سياسية مكونة من عدد من دويلات المدن، وكل مدينة كان لها حاكمها وإلهها الخاص. فضلًا عن أن المدن السومرية شغلت كلها منطقة جغرافية محدودة المساحة (لا تزيد مجتمعة عن مساحة إيرلندا الشمالية)، مع امتدادات شمالية تصل إلى مدن لا تبعد كثيرًا عن مدن ماري وآشور ذوات الحضارة ذاتها. وأن الطموحات السومرية لم تصل إلى ما وراء هذه الأراضي البعيدة من حيث الاهتمام، فيما عدا تلك المدن التي تهمها من الناحية التجارية.

أن هـذا كلـه، قـد تبدل بتأسـيس الدولـة الأكديـة. إذ لم تعيق الملك سرجـون الأكدي التقاليـد السـومرية وما فرضته على الحكام الأوائل من التقييدات، بل كانت سـلطته مطلقة لدرجة تجاوز حدود سومر وأكد المُوَحَّدة[٢٤].

ويبـدو أن شـهرة سرجـون الواسـعة، وقـوة شـخصيته، كانت قـد دفعـت الكتاب في العهـد البابـلي القديم (١٩٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) إلى إعادة استنسـاخ كتاباتـه الأصلية. وأقدم هـذه الاستنسـاخات قد خلفها كَتَبَة مدينـة (نفر) الدينية، والتابعـون إلى معبد الإله المزعوم (أنليـل). كما أن الآشـوريين قد فعلوا مع كتابات سرجـون ما فعله من قبلهم البابليون؛ ربما لأن كلاهما من أقوام الجزيرة العربية[٢٥].

ويسـتفاد من الإشـارات الكثيرة التي وردت عن الملك سرجون في النصوص المتأخرة عن عهده، أن هذا الملك كان قد دون أعماله المختلفة، وأخبار فتوحاته في عدد من النصوص التاريخيـة[٢٦]. ومنها نسـخ أسـطورية معروفة مـن الألفية الأولى تتحدث عـن تفاصيل عن أصـول سرجـون، وهـي مكتوبـة بضمـير المتكلـم، ورد في مطلعهـا: (أنا سرجـون، الملك العظيـم، ملـك أكد. كانت أمـي كاهنة عظمى، ولا أعـرف مـن كان أبي. كان أقربائي لأبي يسـكنون السهول. وكانت مدينتي آزبرانو - الزعفران - على ضفاف الفرات. أمي الكاهنة العظمى حملتني وولدتني سرًا. وضعتني في سـلة قصب، ختمت بابها بالقار. وألقت بي إلى النهر)[٢٧].

ومن التمعن بهذا النص، يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

١ - فيما يخص ولادته، فقد أشـارت الأسـطورة إلى أن والدته كانت كاهنة من الدرجة الأولى. وهذا النوع من الكاهنات كان يقوم بتمثيل دور العروس في طقس الزواج المقـدس. وهو من الطقـوس التي ترجع إلى حـوالي ٦٠٠٠ ق. م. وفي هذا الزواج تقوم العروس فيه بتمثيل دور الآلهة عشـتار، والعريس يمثل دور الإله تموز. وكان المعتقد أن هذا الزواج يسـبب الوفرة في المحاصيـل الزراعية، وفي الثروة الحيوانية. ولذلـك كان العراقيون القدامى يمارسـونه في بداية كل ربيـع. والطفل الذي يتولد

من هذا الزواج كان يعد من مرتبة الآلهة، كونه تولد في لحظة مقدسة، ومن أبوين يمثل كل منهما دور الإله[٢٨].

٢- وعلى ما يبدو، من الأسطورة أن والدة سرجون، قد أنجبت ابنها نتيجة لممارستها طقس الزواج المقدس. وتشير الأسطورة إلى أنه كان بستانيًا من قبل. وأنه تُرِك وهو طفل، وَوُضِع على مياه النهر ولكنه أُنْقِذ بمعجزة[٢٩]. وهي رواية ذات شبه كبير بطفولة النبي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الواردة في التوراة.

٣- وهناك نسخة من الأسطورة تنطوي على شيء من التنوع. فبدلًا من عبارة (لا أعرف من كان أبي) تقول: (لا أب لي). وللوهلة الأولى قد يفهم من العبارتين أن سرجون لم يكن ابنًا شرعي الولادة. ولكن ما دام النص برمته قد كُتِب لتمجيد بطل عظيم مثل الملك سرجون، فسيكون من غير المعقول أن يُشَهَّر به تشهيرًا علنيًا يخص عدم شرعية ولادته. لذلك يُرَجَح، أن هذا النص قد جاء من أجل إبراز دور أمه الكاهنة العظمى التي كانت تنحدر من أصل نبيل، وربما من أصل ملكي. وكانت تحظى بمنزلة زوجة إله. وفي بعض الحقب، كان يسمح لها أن تتزوج من زوج بشري، ولكن لا يحق لها أن تنجب منه الأطفال. وهذا ما يفسر، كما تزعم الأسطورة، علة تخليها عنه بعد ولادته عندما ألقت به في النهر. بيد أن المنزلة العليا لأم سرجون أوضحت أنه كان ينحدر من نسل كريم. ولعله، في ضوء علامة الاستفهام فوق أصله الأبوي، كان ينطوي على عنصر من الألوهية[٣٠].

ويبدو أن هناك عدة مصادر تاريخية للمعلومات عن سرجون ومهامه وخلفائه. منها دليل الحفريات، الذي يأخذ في الأساس شكل بقايا المعابد والقصور الخاصة بالحكام الأكديين أو بالأنصاب التي أقاموها. وهناك نقوش الحكام الأكديين أنفسهم، والتي كان بعضها أصيل، وبعضها الآخر نسخ نسخًا منذ الحقبة البابلية القديمة. وهي في الأغلب مكتوبة باللغة الأكدية، وقلة منها كُتِبَت بالسومرية. وبعضها ثنائي اللغة. وهناك أيضًا الوثائق الاقتصادية، التي تضم في الأساس نصوصًا من طراز الملاحم، والأساطير، والتاريخ الدوري، والتلميحات في الفؤول. وهناك أيضًا مسح جغرافي للإمبراطورية[٣١].

وطبقًا لما ورد في وثيقة إثبات الملوك السومرية، أن سرجون (كان أبوه بستانيًا، وصار ساقيًا للملك أور زبابا. شيد أكادة، وحكم ٥٩ سنة)[٣٢]. مع ذلك، فإنه لا يعرف اسمه الحقيقي. أما تسمية (سرجون) فإنها تعني (الملك الصادق) أو (الملك الحق). وباللغة الأكدية (شرو – كين). وأغلب الظن أنها تسمية اصطنعها هذا الملك في الحقبة الأولى من حكمه من بعد أن استقل عن تبعيته إلى ملك مدينة كيش. وهي تسمية نالت شهرة واسعة بين ملوك العراق القديم، بحيث اتخذها ملكان من مشاهير الملوك الآشوريين تسمية لهما[٣٣].

وتوحي النقوش التي تركها الملك سرجون باللغة الأكدية إلى أن لغته الأم كانت لغة سامية. وأحيانًا أُتُخِذ هذا دليلًا على أنه ينتمي إلى موجة كبرى من المهاجرين الناطقين بإحدى اللغات السامية ممن دخلوا بلاد الرافدين قبل ذلك بقليل. لكن هذا الاستدلال ليس ضروريًا إذا علمنا أن الناطقين باللغة السامية كانوا يسيطرون على شمال بلاد بابل قبل عصر سرجون بقرون[٣٤].

أما عائلة الملك سرجون فتتكون حسب وثيقة إثبات الملوك السومرية من أبنائه الملك (ريموش)، والملك (مانشتوسو)[٣٥]. ومن مسلة الملك (مانشتوسو) يمكن التعرف على ابن ثالث للملك سرجون (بدون أن يذكر اسمه). وكذلك ابنته (اينخيدوانا)، التي كانت كاهنة في معبد الإله المزعوم (ننار)، الإله الرئيس لمدينة أور. أما زوجة الملك سرجون، فقد ورد ذكرها في أحد النصوص النذرية بصيغة (اشلولتوم) من دون ذكر أي معلومات إضافية أخرى[٣٦].

ومن خلال النصوص الأكدية التي أُعِيد استنساخها في العهد البابلي القديم (١٩٠٠ – ١٦٠٠ ق.م). ومن النصوص السومرية الأخرى يتبين أن الصراع كان محتدمًا بين سلالتين سومريتين. الأولى هي سلالة كيش التي كانت تحت زعامة ملكها (أوروكاجينا). والثانية هي سلالة (أوما) بزعامة ملكها (لوكال زاكيزي). وهذا الصراع قد دام مدة تزيد عن المائة عام، الأمر الذي أنهك قوى السلالتين. وكان النصر في النهاية لصالح الملك (لوكال زاكيزي)، الذي ينتمي إلى طبقة الكهنة. وبعد هذا النصر أصبح ملكًا على الدويلات السومرية كلها. واتخذ لنفسه لقب (ملك كيش). واتخذ من مدينة الوركاء عاصمة لدولته الجديدة المُوَحَّدة[٣٧].

وإذا سلمنا بدلالة وثيقة إثبات الملوك السومرية، فيكون تفسير الموقف السياسي، أن سرجون لم يستطع القضاء على سلالة الملك (أور – زبابا) في كيش. إنما استقل عن تبعيته لها. وأسس قواعد حكمه في المدينة الجديدة التي بناها، واحتسبها عاصمته، والتي أطلق عليها (أكد) أو (أكاده). وأن الذي قضى على سلالة كيش كان الملك (لوكال زاكيزي)، والذي نازعه سرجون على زعامة البلاد، وقضى عليه[٣٨]. إذ أن سرجون كان يرقب الأحداث عن كثب. وعندما وجد الفرصة مؤاتية له ليقضي على الملك (لوكال زاكيزي) المتعب من صراعه الطويل مع سلالة كيش. فجهز لهذا الغرض جيشًا، وانطلق به من مدينة كيش إلى مدينة الوركاء، وأسر ملكها (لوكال زاكيزي). وأقام مكانها دولة أكد السامية التي بقيت شاخصة طيلة قرن ونصف من الزمان (٢٣٣٤ – ٢١٥٤ ق.م)[٣٩].

ومن المُرَجَّح كثيرًا، أن سرجون شغل نفسه في هذه الحقبة الزمنية التي سبقت تشكيل الدولة الأكدية بتثبيت استقلاله، وتأسيس عاصمة مملكته. وكان هذا مظهرًا من مظاهر استقلاله[٤٠]. ومن منطلق التحليل التاريخي والسيكولوجي ممكن ترجيح هذا الرأي بشكل واضح لانسجامه مع الوقائع التاريخية وطبيعة البشر. وبذلك، يمكن القول، أن الملك سرجون قاد أول انقلاب سياسي – عسكري، كان قد أحدث تغيرًا جذريًا في بنية الدولة العراقية العريقة[٤١].

وبعد أن استتبت له الأمور في المدينة المذكورة اقتاد ملكها (لوكال زاكيزي) إلى مدينة (نفر) بعد أن وضع على رقبته قيدًا خشبيًا خاصًا بالأسرى، ووضعه رهينة لدى معبد الإله المزعوم (أنليل) إله مدينة نفر الرئيس[٤٢]. و(مدينة نفر) كانت مدينة دينية وفكرية مثلت نواة فكرية عرفت باسم (مدرسة نفر). وكانت هذه المدرسة تؤمن بأن الإله المزعوم (أنليل) يعد خالق الكون والإنسان. وأن البشر ظهروا على الأرض مثلما يظهر الحشيش منها. وأن البشر الأوائل كانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم، وما كانوا يعرفون الملابس ولا أكل الخبز، إنما كانوا يعلفون العشب، ويشربون الماء من السواقي[٤٣].

أما المدرسة الفكرية الأخرى، فكانت (مدرسة أريدو)، والتي تعد من أقدم المدن السومرية وأَجَلَّهَا شأنًا. وكان إتباعها يعتقدون بأن الإله المزعوم (اينكي) يعد خالقًا

للإنسان وللكون. وهو إله الماء والأرض والحكمة. وأن الإنسان خُلِق من الطين، ولم يكن بدائيًا، إنما كان فيه شيء من حكمة الآلهة[٤٤].

و يبدو أن اقتياد الملك سرجون لخصمه الملك (لوكال زاكيزي) إلى مدينة نفر، يؤكد على أنه من أنصار هذه المدرسة الفكرية. ولذلك لابد من أنه قصد بعمله هذا دعم هذه المدرسة على حساب مدرسة أريدو الفكرية.

وفي هذا الأثناء كانت الدويلات السومرية ترقب تحركات الملك سرجون من أجل معرفة نواياه الكاملة. وعندما تأكد لها أنه سوف لا يكتفي بالسيطرة على مدينة الوركاء، إنما سوف يواصل استيلاءه على بقية المدن السومرية الأخرى. فقد تحالفت مدينة أور مع مدينة لكش لخلق جبهة دفاعية قوية. مع ذلك، فإن القيادة البارعة للملك سرجون قد أفشلت تلك التحالفات الرامية إلى منعه من تحقيق هدفه. وأشارت النصوص المسمارية إلى أنه قد تمكن من الاستيلاء على مدينة أور. ثم توجه بعد ذلك للاستيلاء على مدينة لكش[٤٥].

وبعد أن تم له ذلك، قام بتهديم أسوار المدينتين لكي يمنع عنهما الفرصة لأن يتمردوا على زعامته. وذلك لأن المدن المحصنة يصعب الاستيلاء عليها من جهة، وتغري سلطتها المحلية على التمرد من جهة أخرى[٤٦].

وبعد ذلك، أخذت تتساقط بيده المدن السومرية الواحدة تلو الأخرى، حتى وصل إلى ساحل الخليج العربي. فاستطاع بذلك أن يضمن لدولته منفذًا بحريًا لتجارته الخارجية. وقد تأكد ذلك، من أحد النصوص التي تخصه. حيث ذكر فيه أنه غسل سلاحه في ماء البحر. وأن سفن ميلوخا ومكان (عمان)، ودلمون (البحرين والإمارات) بدأت ترسو في ميناء عاصمته أكد[٤٧].

ويبدو أن نجاح الملك سرجون في توحيد بلاد الرافدين راجع إلى أسباب عديدة منها:

١ - أسباب ترجع إلى قدراته السياسية والعسكرية والإدارية. فضلًا عن قوة شخصيته وبراعتها. وامتلاكه لمشروع سياسي طَمُوح قادر على تجاوز الوضع الراهن، والانتقال به إلى وضع جديد متقدم عليه.

٢- أن الموقع المركزي الذي تميزت به عاصمته (أكد) بوصفها طريق للقوافل القادمة من الشرق والغرب، قد مكن الملك سرجون من أن يتمتع بمركز ممتاز فيما إذا فكر في الاستيلاء على الأقاليم الواقعة ما بين (سيبار) و(أوبيس). ويبدو أنه كان قد استفاد فعلًا من هذا الموقع المركزي للاستيلاء على تلك الأقاليم[٤٨]. وقد تَطَلَّب تحقيق وحدة بلاد سومر وأكد من الملك سرجون الدخول، كما يذكر أحد النصوص الأكدية، إلى أربع وثلاثين معركة، انتصر بها على جميع المدن، وضمها إلى حدود مملكته[٤٩].

٣- كما أن الدولة المُوَحَّدة التي أقامها الملك سرجون ما هي إلاَّ دليل إيمان الأقوام الجزرية المهاجرة من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين بضرورة تحقيق الوحدة. إذ أن هجرة الأكديين من الجزيرة العربية (موطنهم الأصلي)، وانتشارهم في مناطق واسعة من الهلال الخصيب، وبوادي الشام، وبلاد الرافدين، وَلَّد لديهم الرغبة الملحة من أجل تحقيق وحدتهم ما دامت هذه الفرقة قد حدثت بسبب شحة الأمطار في الجزيرة العربية. وهي أسباب تقع خارج إرادتهم. والذي يوثق هذا الإيمان يَكْمُن في الحدود الثابتة للإمبراطورية الأكدية التي أقامها الملك سرجون. حيث أنها ضمت بنحو خاص أقوامًا تعود في أصولها إلى الجزيرة العربية. أما المناطق المسكونة من أقوام غريبة عن الجزيرة العربية، والتي دخلت تحت لواء الإمبراطورية الأكدية، فإن دخولها كان مؤقتًا لأنه حدث لأسباب عسكرية أو سياسية قاهرة. بينما الحدود الثابتة للإمبراطورية الأكدية قد ضمت تحت زعامتها أقوامًا من الجزيرة العربية فقط؛ لأن هذه الأقوام كانت تحمل في داخلها أمنية الوحدة[٥٠].

٤- أضف إلى ذلك، يبدو أن العراق الجنوبي القديم، في ذلك العصر، كان مهيأ للحكم المركزي. وذلك لأنه بدون الدولة المركزية كان الاقتصاد القائم على الري عاجزًا عن التطور. كما أن التجارة كانت تجد ما يعرقلها في المدن المتعددة المتناثرة، والتي كانت تتمتع كل واحدة منها بوحدة قياس خاصة بها[٥١]. وقد استثمر الملك سرجون هذه المعطيات للعمل من أجل توحيد البلاد في دولة مركزية مُوَحَّدة.

وبعد أن تمت له السيطرة التامة على أنحاء العراق جميعها، وبوجه خاص على بلاد سومر وأكد، وتوطيده حكمه الداخلي. فإنه بدأ بتوجيه نشاطه العسكري لتحقيق هدفه في إقامة إمبراطورية مترامية الأطراف. لذلك فإن أهم ما ميز السلوك السياسي الأكدي تمثل بكثرة الفتوحات الخارجية التي أنجزها مؤسس الدولة الملك سرجون. وأسفرت تلك الفتوحات عن تكوين إمبراطورية واسعة[٥٢]. الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى وصفها بأنها أول إمبراطورية عرفها التاريخ القديم[٥٣].

وضمن هذا التوجه الفكري، قام الملك سرجون بضم المدن الواقعة على طول نهر الفرات مثل توتولي (هيت)، وماري (تل الحريري قرب البوكمال)، وبارموتي (شمال غرب مدينة ماري)، وايبلا (تل ماريخ ٧٠ كم جنوب حلب)، حتى بلغ غابات شجر الأرز (جبال لبنان). ومنها توجه إلى جبال الفضة (جبال طوروس). وبعدها توجه لفتح الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى، ولا سيما منطقة كبدوكيا. ثم وصل إلى جزيرة كريت التي ورد اسمها بصيغة (كفتارا)[٥٤].

وبعد ذلك، توجه إلى بلاد آشور التي انضمت تحت لواء الإمبراطورية من دون قتال[٥٥]. ثم توجه نحو الأقاليم الشرقية، وتمكن من السيطرة على مدن إيرانية متعددة واقعة على نهر الزاب الأسفل الواقعة شمال شرق عيلام، بما فيها عيلام نفسها[٥٦]. ويبدو أن مما ساعد على هذا التوسع، أن أرض العراق كانت عبارة عن قوة متجمعة تتمكن من أن ترسخ في جميع البلاد المجاورة، التي أصحابها دون العراق قوة وتمدنًا وحضارةً. ويظهر أن تجمع هذه القوى وازدحامها في مركز واحد هما من خصائص ذلك الزمن وليس من خصائص الخضوع لملك واحد في العصور الخالية الموغلة في القدم. وأن كان هذا الملك تملكته طموحات أعلى. إذ كان في نيته أن يكون سلطانًا مطلق الأمر والنهي. مما دفعه إلى ما وراء تخوم العراق شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا[٥٧]. وبذلك امتدت الإمبراطورية الأكدية من جبال زاجروس شرقًا وحتى البحر الأبيض المتوسط غربًا، ومن جبال طوروس شمالًا حتى الخليج العربي جنوبًا[٥٨].

وعمومًا، فإن حملات عسكرية متتابعة من هذا النوع أدت في النهاية إلى إنشاء

إمبراطورية عراقية لأول مرة في التاريخ، ضمت بلدانًا غير معروفة حتى ذلك الحين لأغراض تجارية[٥٩].

ويبدو أن هذه الدولة، تعد الإمبراطورية الأولى في التاريخ، والتي وصفها (موسكاتي) بأنها تمثل (ظهور الميل إلى الملكية العالمية. ذلك الميل الذي سيتخلل فيما بعد كل تاريخ غربي آسيا حتى العصر الإسلامي)[٦٠].

والراجح أن هذه التجربة الإمبراطورية الأولى في التاريخ، تعد تجربة جديدة غير مألوفة من قبل، الأمر الذي فرض على الملك سرجون أن يتخذ إجراءات تتناسب وهذه التجربة السياسية الجديدة. ولعل أهم تلك الإجراءات تمثلت بما يأتي:

الإجراء الأول: تأسيس العاصمة أكد

لقد قام الملك سرجون بتأسيس العاصمة أكد، الذي يُنسَب إليها اسم الأكديين[٦١]؛ لأن هذا التأسيس كان قد مثَّل أحد المستلزمات الضرورية لوحدة الإمبراطورية الأكدية. إذ لم يكن من المعقول أن يتخذ الملك سرجون إحدى المدن القائمة سابقًا، ويجعلها عاصمة لإمبراطوريته؛ لأن ذلك سوف لن يميزها عن المدن الأخرى. لذلك كان من الضروري على الملك سرجون أن يبتني عاصمة خاصة بدولته، ليحفظ بذلك وحدة البلاد التي قام بصياغتها وتشكيلها بالوسائل كافة.

ورغم أهمية هذه العاصمة، بيد أن جهود الآثاريين المستمرة لم تتمكن من العثور على بقاياها، رغم أنها عاصمة أول إمبراطورية في التاريخ[٦٢]. لذلك رأى (اندريه بارو) أنها ربما كانت قرية للدين واقعة على مقربة من ناحية اليوسفية[٦٣]. وأشار (سيتون لويد) إلى أن هذه المدينة تمثل إحدى المراكز السياسية المهمة القليلة في العراق، والتي لم يُعْرَف موقعها بعد. ورجح أنها كانت شمال بلاد سومر الرئيسية[٦٤]. بينما رجح (ساكز) أنها مدينة تقع على نهر الفرات طالما كان فيها ميناءً مهمًا للنقل في الخليج العربي[٦٥]. بينما قال عامر سليمان عنها (يمكن القول بشيء من الثقة أنها تقع في موضع ما بين المحمودية وبابل. وربما أُسِسَت بالقرب من كيش أو بالقرب من مدينة سبار، أو أنها أُسِسَت في موضع مدينة بابل

نفسـها. وبالتأكيد فإن سرجون قد اختار لها موقعًا متوسـطًا من البلاد، وقريبًا من شـواطئ نهر الفرات)[٦٦].

ويبـدو أن عدم اكتشـاف هذه العاصمـة حتى هذه اللحظة، كان قد دفـع (طه باقر) إلى وضع احتمالَين لموضعها. فأما أنها تقع في مدينة بابل الأثرية نفسها. حيث ذكرت النصوص الكتابية أن الملك سرجون أخذ تراب بابل لتأسـيس مدينة تنافسـها. أو أنها تقع في مكان ما بين المحمودية والحلة[٦٧].

وتتفق الروايات كلها على أن العاصمة أكد كانت تتمتع برخاء اقتصادي لا بأس به. وأن هذا الرخاء لابد أنه ضَمَن للملك سرجون تأييد السكان وحماسهم للتجربة الجديدة[٦٨].

ورغـم عـدم العثور عـلى موقـع العاصمة (أكد) بيـد أنها مثلـت تطورًا مهمًا اتسـق مع التطورات الفكرية والسياسـية، التي رافقت نشـوء أول إمبراطوريـة في التاريخ. فضلًا عن أنهـا لعبـت دورًا محوريًا في إدارة البـلاد وحمايتها من الأخطار الداخليـة والخارجية على حد سواء.

الإجراء الثاني: استراتيجية الجيش الجديدة

إن تكوين الملك سرجون لإمبراطورية واسـعة، قد استوجب إعادة بناء الجيش بالمقدار الذي يتناسب في تنظيماته وتسليحه وتدريبه مع حجم الإمبراطورية الأكدية، وحماية طرقها التجارية.

لذلك، فإن الملك سرجون كان أول من أوجد الجيش الدائم. وأحدث تغيرات أساسية في أساليب القتال والسلاح، واستخدام سياسة الفتوحات العسكرية ضمانًا لأمن دولته[٦٩]. وهذه السياسة قد تتطابق مع سياسة (المناطق الحيوية) في المفاهيم السياسية المعاصرة.

وتشـير المعلومـات المتوافرة، إلى أن طموحات الملك سرجـون كانت بعيدة المدى. وأن السياسة التي رسمها، وكان يبتغي تحقيقها، كانت تصبوا إلى إنجاز الأهداف الآتية:

١ - توحيد المدن السومرية والأكدية جميعها في دولة مركزية واحدة.

٢- اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على أي تمرد أو عصيان قد يحدث ضد الحكومة المركزية.

٣- ضمان أمن وسلامة الطرق التجارية الموصلة إلى مصادر المواد الخام.

وما كان له أن يحقق تلك الأهداف ما لم يتمكن من بناء جيش قوي قادر على تنفيذ تلك السياسة، ومواجهة أخطار الغزو المتوقع دائمًا، ولا سيما من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية لبلاد أكد(٧٠).

ويلاحظ، أن الفتوحات الأكدية كانت قد استهدفت، بالدرجة الأساس، السيطرة على البقاع الغنية بالموارد والمواد الأولية اللازمة لإزدهار الحضارة في بلاد الرافدين. حيث أشارت النصوص الكتابية، إلى أن السفن التجارية القادمة من مناطق مختلفة من العالم قد رست في ميناء العاصمة أكد، وهي محملة بالمواد والبضائع المتنوعة.(٧١) وحملته الأولى بهذا الصدد كانت نحو عيلام. وحملته الثانية كانت نحو مجرى الفرات إلى شمال سوريا، والتي تشير إلى حصوله على مدخل لغابات الأرز لجبال أمانوس وإلى مناجم الفضة في طوروس. وضمنت الحملات اللاحقة خضوع المدن والمستوطنات الواقعة حوالي وما فوق نينوى. وهناك نص مشهور عُرِف باسم (ملك المعركة)، يظهر تغلغل الملك سرجون في بلاد الأناضول لحماية تجاره من اضطهاد حاكم محلي. وأن حملات متتابعة من هذا النوع أدت في النهاية إلى إنشاء إمبراطورية عراقية لأول مرة في التاريخ تمكنت من استغلال بلدان عديدة لأغراض تجارية. إذ أنه إلى جانب مصادر الخشب الجديدة والمعادن الضرورية التي سهلت وصولها فتح الطرق الشمالية، صار الحصول على البضائع الكثيرة ممكنًا من الشرق عن طريق عيلام. وأصبحت احتمالات وجود تجارة في الخليج العربي محتملة بصورة مطردة. لذلك ورد في أحد النصوص أنه (رست سفن دلمون ومكان وملوخا في المرفأ أمام مدينة أكدة)(٧٢).

وضمن هذا الإدراك السياسي لمتطلبات المرحلة، أجرى الملك سرجون تغيرات أساسية على الجيش، من حيث زيادة أعداده وتدريبه وتسليحه. حيث فضل الأقواس والسهام كقوة

ساندة لتقدم المشاة، بدلًا من راجمات الأحجار؛ لأن الأقواس والسهام سهلة الحمل، ولا تؤثر على حركة الجيش أثناء التقدم أو الانسحاب.

ويتبين من دراسة نقوش المسلة المعروفة باسم (نصب النصر) التي أقامها الملك (نارام – سين) وجود بعض الأسلحة الحربية كالرماح الطويلة، والأقواس والسهام. ويظهر فيها كذلك، بعض أساليب القتال المعتمدة على عنصر الخفة والحركة والمناورة في الهجوم والدفاع. وكذلك طريقة المبارزة رجل لرجل. وتوجد بعض الإشارات منذ العهد الأكدي يتضح منها وجود خوذ مصنوعة من الجلد والبرونز. أما البلطات فكانت من برونز النحاس، وكذلك رؤوس الحراب(٧٣).

وبهذا يكون اختيار الملك سرجون الأسلحة الخفيفة اختيارًا عسكريًا محترفًا وضروريا للمهمة الملقاة على عاتق جيشه. ومسلة النصر العائدة للملك (نرام سين) حفيد الملك سرجون، توضح نوعية التسليح الأكدي، الذي لا يعيق حركة الجيش أثناء مناوراته العسكرية. وهذا تَطَلَّب إلغاء بعض الأنظمة التي كانت تتبعها جيوش دويلات المدن السومرية، بما فيها إلغاء (نظام الصف) أو (الكراديس) الذي كان متبعًا ضمن جيش سلالة لكش الأولى(٧٤).

ويبدو أن نمط إدارة الملك سرجون وأهدافه، كانا قد تحكما، إلى حد كبير في حجم الجيش وتسليحه وتدريبه. فزيادة عدد أفراد الجيش الأكدي كان لغرض أن يترك، في الأماكن التي يسيطر عليها، عددًا من جنوده للحاميات العسكرية التي كان يقيمها في تلك الأماكن لتحمي هيبة السلطة وطرق التجارة. كما أن هدفه الرامي إلى توحيد أقوام الجزيرة العربية، والذي تَطَلَّب منه الوصول إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، قد دفعه لأن يتخلى عن الأسلحة الثقيلة التي كانت تستخدم في عصر فجر السلالات الثالث (٢٥٢٠ – ٢٣٤٠ ق.م)؛ لغرض إسناد تقدم القطعات العسكرية والمتمثلة براجمات الأحجار. وذلك لصعوبة حركة هذا السلاح. وأحل محله الأقواس والسهام لسهولة حملها(٧٥).

وفيما يخص رواتب الجند، فإن المعلومات المتوفرة، تؤكد على أن الدولة كانت تمنح الجنود

النظاميين أراض زراعية يستثمرونها أوقات السلم. وتستثمرها عوائلهم أثناء الحرب. وقد يفقدونها إذا امتنع الجندي عن تأدية الخدمة العسكرية والمهام الملقاة عليه[٧٦].

وبذلك، يمكن القول، أن تأسيس الجيش بصيغته الجديدة، من حيث العدد والتسليح والتدريب كان قد اتسق مع متطلبات التحول إلى إمبراطورية واسعة الأرجاء، وسهل مهمتها بشكل واضح.

الإجراء الثالث: فكرة الولاء للدولة ولحاكمها الأعلى

على الرغم من أن سلطة الملك سرجون كانت مطلقة، بيد أنها كانت مقيدة، في بادئ الأمر، بقيدَين أساسيين هما:

١ – تقاليد الدويلات السومرية القديمة.

٢ – جوهر العقيدة الدينية وتعاليمها.

ثم اضمحلت تلك القيود لاحقًا، إذ لم يعد لمجالس الشيوخ والشباب (الأونكين) أي دور. كما بدأ نفوذ الكهنة بالتراجع منذ العصر الأكدي[٧٧].

وعمل الملك سرجون على تقوية فلسفة الولاء للدولة في مجموعها، ولحاكمها الأعلى، بدلًا عن ولاء الأفراد والجماعات لمدنهم الضيقة، وزعمائهم المحليين. كما دعا إلى نوع من تعظيم أولي الأمر الكبار[٧٨]. لذلك استخدم الروابط العائلية وسخرها لمصلحة أولي الأمر الكبار. ولعل أوضح الأمثلة على هذا التعظيم يَكْمُن في تنصيب ابنته (أنخيدوانا) كاهنة عظمى لإله القمر المزعوم (ننا) في مدينة أور الجنوبية الناطقة بالسومرية. وقد كان هذا المنصب منصبًا مهيبًا يعطي حامله نفوذًا كبيرًا على المدينة وسكانها. فضلًا عن ما يوفره من سلطة على المعبد[٧٩].

ويبدو أن وجود حاكم فرد قوي يدعو نفسه (ملك الجهات الأربع) يذكر الناس دومًا بوحدة الدولة وقوتها. وهو في الواقع، لقب إلهي كان خاصًا ببعض الآلهة المزعومة، لا سيما (آنو)، و(أنليل)، و(شمش) رمزًا لسلطانهم على الكون كله. وبهذا اللقب الجديد أصبح لسلطة الملك سرجون مدلولًا دينيًا[٨٠].

والراجح أن هذا اللقب، الذي اقتبسه الملك سرجون من أسلافه السومريين، بيد أنه لم يقصد به تأليه نفسه، أو جعل نفسه إلهًا، إنما ابتغى من وراء ذلك أن يقنع شعبه بأنه نائب الأرباب على جهات الأرض كلها[٨١].

عمومًا، يتبين أن تلك الفلسفة الجديدة، كانت قد ساهمت بكسر التقييدات الحاكمة التي فرضتها التقاليد السومرية والتعاليم الدينية القديمة. ومهدت الطريق لتقوية الإمبراطورية الأكدية، وتعزيز نظام الحكم فيها.

الإجراء الرابع: ازالة أسوار المدن المحصنة

إن وحدة الإمبراطورية الأكدية، كانت من أولويات الملك سرجون. وأن تلك الأولوية وجبت عليه اتخاذ الوسائل الممكنة كلها، والتي من شأنها أن تحفظ للإمبراطورية وحدتها، وتحول دون عودتها إلى حالة التشرذم التي كانت سائدة في بلاد الرافدين قبل وصوله للحكم. والتي كانت عبارة عن دويلات مدن، لجأت كل منها إلى تحصين نفسها ضد الدويلات الأخرى. وذلك عن طريق بناء أسوار محصنة حولها.

ولتحقيق طموحاته الواسعة في تأسيس دولة مركزية مترامية الأطراف، عمد الملك سرجون إلى هدم تلك الأسوار، التي كانت تتحصن بها المدن الرئيسة. ويبدو أن الهدف من تلك السياسة تُمَثَّل بما يأتي:

١- إن تلك المدن لم تعد بحاجة إلى أسوار تحميها من هجوم الأعداء طالما أصبحت جزءً من دولة كبيرة وقوية ومُوَحَّدة قادرة على حماية حدودها الخارجية قطعات عسكرية ثابتة[٨٢].

٢- إنهاء الشعور الانفصالي لدى مواطني دويلات المدن؛ لأن ذلك الشعور يقف ضد وحدة البلاد.

٣- أن ازالة أسوار المدن، يسهل عملية إفشال أي تمرد مُحْتَمل في المدن بسهولة، وبأقل التكاليف. حيث أن بقاء المدن محصنة بالأسوار يجعلها محصنة ذاتيًا. وأن ذلك قد يدفع حكامها إلى التمرد على السلطة المركزية[٨٣].

عليه، فإن تلك السياسة، كانت قد أدت إلى إحكام قبضة الملك سرجون السياسية والعسكرية على البلاد. وأفضت إلى تغيير فلسفة نظام الحكم من اللامركزية إلى الإدارة المركزية للبلاد(٨٤). وحققت وحدة البلاد. وقللت، في الوقت نفسه، من حركات التمرد والعصيان في البلاد.

ويبدو أن هذا الإجراء الجديد كان قد منح الإمبراطورية الأكدية شيئًا من الاستقرار الداخلي، الذي مكنها من التوسع الخارجي، وحماية طرق التجارة في ظل إمبراطورية مركزية مترامية الأطراف.

الإجراء الخامس: تجديد آليات الحكم

إن مؤهلات الملك سرجون السياسية والإدارية والعسكرية لم تكن كافية لوحدها لإنجاز أهدافه وتطلعاته ما لم يستعن بعدد من الشخصيات القيادية المخلصة له ضمن آليات حكم جديدة، ترتكز على تنصيبهم حكامًا على المدن التي تَمَكَّن من الاستيلاء عليها، وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة(٨٥).

ويبدو أن هذا الإجراء، كان ذات بعدين أساسيين. البعد الأول، هو مكافأة هؤلاء القادة مكافأة لائقة بهم. والبعد الثاني، أنه يضمن لنفسه ولاء تلك المدن، وعدم تمردها على السلطة المركزية التي أنشأها. ويبدو أن هذا الإجراء كان إجراء ناجحًا جدًا في الأقاليم النائية.

وقد قام الملك سرجون، بمنح أراض زراعية كافية لكل حاكم من حكام المدن لسد احتياجاتهم من أجل التفرغ للإدارة والحكم، وعدم التفكير بالكسب المالي(٨٦). بيد أنه لم يسمح لهم بأن يحتسبوا أنفسهم حكامًا دائمين لهذه المدن. ومنعهم كذلك من التفكير بأن أولادهم سيكونون خلفاءهم في الحكم في تلك المدن. بل أن بعض أفراد الأسرة الحاكمة المحلية، كانوا يؤخذون كرهائن لدى البلاط الملكي في العاصمة أكد، زيادة في الحيطة والحذر من أي تمرد أو عصيان قد تقوم به الأسر المحلية الحاكمة(٨٧).

ويبدو أن تلك الآلية الجديدة في الحكم، كانت تهدف إلى ما يأتي:[٨٨]

١- لكي لا تكون المدن ملكًا خاصًا لحاكمها المحلي وأولاده من بعده. لأن هذا الشعور إذا تم تبنيه من الحكام المحليين، فإنه سوف يتنامى للدرجة التي تهدد فيها وحدة الإمبراطورية الأكدية. إذ أن هذا الشعور سوف يشجع حكام المدن على الانفصال، خصوصًا إذا كانت تلك المدن بعيدة نسبيًا عن العاصمة أكد، أو أنها في مكان يصعب الوصول إليه.

٢- وبهذا الإجراء الجديد في آليات الحكم، حاول الملك سرجون أن يزيل عن أذهان الناس والحكام فكرة دويلات المدن، التي كانت سائدة في بلاد الرافدين قبل وصوله للحكم.

٣- فضلًا عن ذلك، أراد الملك سرجون أن يشعر حكام تلك المدن المحليين، أنهم مكلفون من الدولة بإدارة تلك المدن، وليسوا مالكين لها. ولذلك فأنهم معرضون للتغيير في حالات التقصير أو الخلل في أداء واجباتهم. وأن ذلك كله، كان يدفعهم لتفادي أي سلوك قد لا يرضي السلطة المركزية.

ويبدو أن ندرة وقوع حركات التمرد والعصيان ضد السلطة المركزية الأكدية في عهد الملك سرجون، وديمومة الدولة الأكدية لمدة تزيد عن ١٥٠ عامًا، وهي قوية ومكينة، إنما تعد إحدى دلالات صحة آليات الحكم الجديدة التي اتبعها الملك سرجون وفعاليتها في إدارة نموذج الدولة الجديدة في شكلها ومضمونها وآلياتها.

الإجراء السادس: توحيد الإدارة والقضاء والتقويم

يبدو أن الملك سرجون، كان مدركًا لمتطلبات دولته الجديدة. ولذلك انصرف إلى إجراء بعض الإصلاحات في مجال الإدارة والقضاء والتقويم، لتتسق مع ظروف الدولة الجديدة ذات البعد الإمبراطوري.

ومن خلال الوثائق التاريخية، يتبين أن النظام الإداري الذي اتبعه الملك سرجون، كان

نظامًا مركزيًا بشكل لا لبس فيه. حيث أنه أقدم على توحيد الأنظمة التي كانت سائدة في دول المدن السومرية بقالب جديد ذي طابع أكدي خاص[٨٩]. لعل أهمها ما يأتي:

١- أقام تقويمًا موحدًا للدولة كلها، بعد أن كان القوم قبل وصوله للحكم يؤرخون الأحداث طبقًا لأشهر وأعياد خاصة بكل مدينة على حدة[٩٠].

٢- توحيد أسلوب المحاكمات من خلال القسم باسم الملك إلى جانب اسم الإله[٩١]. ومن الأدلة المادية على هذا الإجراء الجديد هي النصوص القضائية الأكدية، التي كانت تضيف إلى فقراتها اسم الملك إضافة إلى اسم الإله. ولذلك نجد أن القسم باسم الملك كان يعد من أهم مستلزمات قرارات المحاكم. وهذا ما نلمسه في النصوص القضائية كلها خلال العصر الأكدي وما بعده[٩٢].

أضف إلى ذلك، أن الأدلة المتوفرة بهذا الخصوص، تشير إلى أن القضاة، قبل مجيء الملك سرجون إلى الحكم، كانوا عبارة عن مُحَكِّمِين لا أكثر. وأن دورهم كان منحصرًا بإبداء وجهات نظرهم في القضايا التي يبتون بها. وأن قراراتهم لا تمتلك صفة الإلزام إلاَّ بعد اقترانها بموافقة حكام المدن. فاذا أبقى الملك سرجون نظام القضاء على حاله، فإن ذلك يعيق دور حكام المناطق البعيدة عن العاصمة أكد من القيام بواجبات القضاء؛ لأن الحصول على موافقة الملك ستكون بحاجة إلى وقت طويل.

عليه، احتسب الملك سرجون القضاة موظفين يعينون بمرسوم منه شخصيًا، ويحكمون باسمه. واحتسب قراراتهم ملزمة ما داموا يحكمون باسم الملك[٩٣].

ويبدو، أن ذلك التنظيم الجديد للقضاء، كان قد مثل إجراء متقدم باتجاه فصل القضاء عن السلطة التنفيذية. وهي السياقات التي درجت عليها الأنظمة السياسية المعاصرة لحد الآن. وبذلك، صارت للدولة الأكدية إدارة مركزية منظمة. وأصبحت مثالًا تحتذي به الدول العراقية التي أنشأها البابليون، والآشوريون، والكلديون في أوقات لاحقة.

الإجراء السابع: الدين بين السياسة والدولة

بحكم الرقعة الجغرافية الواسعة للإمبراطورية الأكدية، فإنها ضمت تحت لوائها أقوامًا مختلفة وآلهة متعددة. ويبدو أن هذا الواقع قد جعل الملك سرجون يواجه وضعًا جديدًا غير مألوف، ويختلف، إلى حد كبير، عن الأوضاع التي كانت سائدة ضمن دويلات المدن السومرية، التي كانت مؤلفة من قومية واحدة، وتمتلك إلهًا مزعومًا واحدًا.

ولذلك، واجه هذا الوضع الجديد وفق مفهوم فكري - سياسي جديد، يرتكز على فصل الدين ورجاله عن السياسة ورجالها، مع الاحتفاظ بالإيمان، ومنح أقوام إمبراطوريته حرية العبادة الكاملة.

ويبدو أن هذ النمط من السلوك السياسي، قد مَكَّن الملك سرجون من كسب ود هذه الأقوام وولائهم. ويمكن تلمس تلك السياسة بالمخلفات الكتابية والنتاجات الفنية للعصر الأكدي.[٩٤] مع ذلك، فإن هذا الإجراء قد استفز رجال المعبد، الذين لعبوا دورًا أساسيًا في التمردات التي استهدفت الملك سرجون ودولته بالاستفادة من الأزمات الاقتصادية التي كانت تحدث أحيانًا. وقد ذكرت بعض النصوص التاريخية، أن حركات التمرد الداخلية والخارجية التي حدثت أواخر حكم الملك سرجون، كانت بتحريض من رجال المعبد. بيد أن الملك تمكن من القضاء على تلك التمردات كلها[٩٥]. وقد تعاظم ذلك التحريض بعد ظهور بوادر الانتقال في العصر الأكدي من اقتصاد المعبد، الذي كان سائدًا في عصر فجر السلالات السابق إلى النظام العلماني في الحياة الاقتصادية والاجتماعية[٩٦].

ومن خلال النصوص الاقتصادية والإدارية الأكدية، التي عثر عليها في أشجالي (على نهر ديالى)، وكاسور (قرب كركوك)، وآوال (قرب السعدية)، يتبين بشكل واضح وصريح الابتعاد عن سيطرة المعبد على الحياة الاقتصادية، التي لعب فيها القطاع الخاص الدور الرئيسي بدلًا منها[٩٧].

ومن دلالات فصل السياسة عن الدين في عهد الملك سرجون، نجد جملة من المعطيات، لعل أهمها ما يأتي:[٩٨]

١ – من خلال النصوص الكتابية، يتبين أن الحكام السومريين الذين حكموا في دويلات المدن السومرية لم يعملوا شيئًا ما إلاَّ وأشاروا إلى أن ذلك العمل كان بإرادة الإله الرئيس للسلالة. في حين كانت كتابات الملك سرجون قد اختلفت كليًا عن تلك الصيغة. حيث كانت أعماله كلها نابعة عن إرادته السياسية الصرفة، وليس تنفيذًا لإرادة أي من الآلهة المزعومة.

٢ – ويلاحظ، أن الملك سرجون كان قد قدس عددًا كبيرًا من الآلهة المزعومة، مع أنه لم يتخذ لعاصمته أكد إلهًا خاصًا بها. وإذا ما ذُكِر اسم إله من الآلهة في نص من النصوص، فلا يرد بصيغة الإله الرئيس للأكديين، إنما يذكر إذا كان فحوى النص له علاقة بالمدينة التي يتحدث عنها.

٣– أن سياسة فصل الدين عن السياسة، اتضحت في النتاجات الفنية الأكدية، التي تميزت بالواقعية والانطباعية. حيث أن النتاجات الرسمية المنفذة بأمر من الدولة، قد صُوِرَت بأسلوب واقعي بدون خلفية دينية، مثل تمثال الملك سرجون، والتمثال العائد بزمنه إلى حقبة حكم الملك (نرام – سين) حفيد الملك سرجون. بينما تبدو المسحة الدينية واضحة على النتاجات الفنية السومرية. أما النتاجات الفنية غير الرسمية، فقد نُفِذَت بأسلوب انطباعي غير واقعي؛ لأن تلك النتاجات عكست الخلفية الدينية للفئة التي أنتجتها.

مع ذلك كله، فإن الملك سرجون لم يفصل الدين عن الدولة كليًا. لأن دعوته إلى شيء من تعظيم أولي الأمر الكبار، كان قد أفضى إلى فكرة تقديس الحكام. ونعتهم بنعوت الربوبية. وإن لم يُسَلِم أهل العراق جميعًا بهذه الفكرة، بيد أنها فرضت وجودها على أرض الواقع السياسي[٩٩].

ورغم أنه، لم تتوفر أي إشارة في النصوص المسمارية العائدة للملك سرجون، ولا في النصوص التي تم استنساخها في العصر البابلي القديم والحقبة الآشورية، أي إشارة تؤكد صراحة أو ضمنًا بأن الملك سرجون كان قد ادعى الألوهية أثناء حياته. بيد أن انجازاته

الكبيرة قد جعلته بمنزلة الإله في نظر سكان الدويلات التي انضوت تحت لواء الإمبراطورية الأكدية[١٠٠].

و من البديهي، أن الملك سرجون لم ينس الاهتمام بأربابه المزعومين. لذلك شيد لهم العديد من المعابد في المدن المختلفة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنه أعاد بناء معبد (آي كور) ومعبد (انليل الكبير)[١٠١].

أضف إلى ذلك، لم يبتعد الملك سرجون كليًا عن الأصل الديني للسلطة السياسية. إذ أنه عندما تمكن من تأسيس دولته احتفظ باللقب الذي اعتمده الملك (لوكال زاكيزي) من قبل. ونعني به لقب (ملك الأرض). ثم اتخذ لنفسه لقبًا جديدًا هو (ملك الجهات الأربع)، و(ملك بلاد سومر وأكد)[١٠٢].

ويلاحظ أن لقب (ملك الجهات الأربع)، كان لقبًا خاصًا بالآلهة المزعومة، لا سيما (آنو)، و(أنليل)، و(شمش) كرمز لسلطانهم على الكون كله. حيث تعني الجهات الأربع الكون والعالم المكون من أربع جهات أو زوايا. وبهذا اللقب الجديد أصبح لسلطة الملك سرجون مدلولًا دينيًا. حيث أصبح الحاكم الأرضي للخليقة. كما يدل أيضًا على اتساع الحكم من دولة صغيرة إلى مملكة كبرى، ثم إمبراطورية واسعة الأطراف.

مع ذلك، فإن اللقب الجديد لا يعني محاولة الملك سرجون معادلة نفسه بالإله، إنما يعني انتخاب الإله وتفويضه له ليكون ممثلًا له في حكم الكون[١٠٣]. وأن ما يميز هذا اللقب، كونه دليل طموح الملك سرجون ورغبته في سيادة حكمه مناطق واسعة من العالم. رغم أن تلك الطموحات الحربية كانت قد أثقلت ميزانية الدولة وأرهقتها كثيرًا، وربما كانت إحدى أسباب سقوطها[١٠٤].

عليه، يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

١ - أن الملك سرجون كان قد اعتمد على سياسة فصل الدين عن السياسة، بيد أنه لم يفصل كليًا ما بين الدين والدولة. حيث بقي للدين دورًا في تأملات السلطة السياسية وحيثياتها.

٢- الراجح أن فصل الدين عن السياسة في مسلمات الملك سرجون لم يكن متبنى فكريًا خالصًا، إنما كان محاولة لأضعاف سلطة المعبد ورجاله بوصفهم ندًا ومنافسًا لسلطة الملك، وينازعونه على الحكم.

٣- مع ذلك، كان هذا المنهج قد واكب عملية الانتقال من دويلات المدن السومرية إلى نموذج الدولة المركزية الموحدة. وساهم في كسب ود أغلب الأقوام التي انضوت تحت لواء الدولة الأكدية.

الإجراء الثامن: عبادة الشخصية

يشير مفهوم (عبادة الشخصية) إلى نوع من الأنظمة السياسية التي ترتكز على حاكم قوي يمتلك خصالًا متفوقة على أفراد المجتمع. وغالبًا ما يوصف على أنه أب البلاد، وبأنه الحكمة بعينها، وبأن خصاله تفوق خصال أي بشر.

وعلى مر التاريخ، كان معظم الملوك والحكام الأقوياء يتمتعون بتقديس هائل، أوصلهم إلى حالة عبادة الشخصية. استند ذلك في جانب منه، على مبدأ الرعاية الإلهية للملوك، وتوليهم الحكم وفقًا لإرادة الله، أو استند على مؤهلاتهم الشخصية والكاريزما التي يتمتعون بها، والإنجازات التي ينفذونها على الأرض.

ورغم أنه، لا توجد أي إشارة في النصوص المسمارية العائدة إلى الملك سرجون، ولا من خلال النصوص التي تم إعادة استنساخها في العصر البابلي القديم وفي الحقبة الآشورية، تؤكد صراحة أو ضمنًا، بأن الملك سرجون قد ادعى الألوهية أثناء حياته[١٠٥]. بيد أن هناك معطيات عديدة كانت قد ساهمت في ولادة ظاهرة عبادة الشخصية واقترانها بالملك سرجون لعل أهمها ما يأتي:

١- كانت شخصية الملك سرجون من بين الشخصيات النادرة التي عُرِفَت في تاريخ العراق القديم. فقد كان قائدًا عسكريًا مرموقًا، وإداريًا محترفًا. أن هذا الوصف لا يمثل رأي المؤرخين المحدثين فحسب، بل أن هناك العديد من القصص والروايات القديمة التي نُسِجَت حول شخصية الملك سرجون ومنجزاته إلى درجة أن اثنين

من الملوك الآشوريين تسموا باسم سرجون، ربما تيمنًا به. وذلك بعد أكثر من ألف عام من تاريخ حكمه[١٠٦].

٢- أن الملك سرجون لم يبتعد كليًا عن الدين كمدخل لتعزيز ظاهرة (عبادة الشخصية). وذلك من خلال ما يأتي:

أ- أنه لم يبتعد كليًا عن الأصل الديني للسلطة السياسية، عندما احتفظ بلقب (ملك الجهات الأربع)، والذي يعد لقبًا خاصًا ببعض الآلهة المزعومة، ولا سيما (أنو)، و(أنليل)، و(شمش) كرمز لسلطانهم على الكون كله. وبهذا اللقب أصبح لسلطة الملك سرجون مدلولًا دينيًا، حيث أصبح الحاكم الأرضي للخليقة[١٠٧].

ب- كما أن دعوة الملك سرجون إلى شيء من تعظيم أولي الأمر الكبار، كان قد أفضى إلى فكرة تقديس الحكام، ونعتهم بنعوت الربوبية، بما فيهم الملك سرجون نفسه[١٠٨]. وضمن هذا الاتجاه، شَيَّد الملك سرجون العديد من المعابد في المدن المختلفة. لعل أبرزها معبد الإله المزعوم (أنليل الكبير)[١٠٩]. فضلًا عن اقتران اسم الملك باسم الآلهة في جميع النصوص القضائية التي صدرت خلال العصر الأكدي[١١٠].

٣- كما أن الإنجازات الكبيرة للملك سرجون في مجال وحدة البلاد العراقية، وتحويلها إلى إمبراطورية واسعة الأرجاء، وإنجازاته في ميدان العمران، عَظَّمَت من شخصيته في عيون مواطنيه، ودفعتهم نحو تبني مفهوم عبادة الشخصية وإضفاءها على الملك سرجون كل حسب مدركاته.

٤- كما أن اعتماد الملك سرجون على استراتيجية القوة المفرطة ضد كل من يخرج على طاعته، كان قد ساهم في تعزيز ظاهرة عبادة الشخصية للملك سرجون من الناحية السيكولوجية؛ لأن المجتمعات تهاب القوة.

مع ذلك، وقعت أحداثًا محدودة من التمردات المسلحة ضد الملك سرجون لأسباب متعددة، لعل أهمها ما يأتي:[١١١]

١ - لأن الملك سرجون كان قد تجاوز على المقدس الديني من خلال اقتطاعه مساحات من أراضي المعبد وإعطائها إلى أعوانه من الأكديين. فضلًا عن اتخاذه ألقابًا ذات صبغة دينية أغضبت رجال المعبد. باحتساب أن ذلك يعد تجاوزًا على سلطات المعبد. أن هذا الغضب يصبح أكثر إدراكًا إذا ما علمنا أن الدين في العراق القديم، كان أداة للسلطة، وضمانة لشرعيتها، وأحد الذرائع التي تستخدم كغطاء للشرعية السياسية.

٢ - أضف إلى ذلك، أن أسلوب القوة المفرطة، وتدمير المدن التي أخضعها الملك سرجون لحكمه، كانت قد تركت في نفوس أهالي تلك المدن رغبة للثأر والانتقام عندما تحين الفرصة.

المبحث الثالث

ملامح الدولة العراقية ما بعد سرجون الأكدي

حسب وثيقة إثبات الملوك السومرية حكم العراق منذ عهد الملك سرجون، أحد عشر ملكًا لمدة ١٩٧ عامًا[١١٢]. اشتهر منهم الملوك الخمسة الأوائل.

وكان أولهم نجل الملك سرجون (**ريموش**)، الذي حكم العراق لمدة تسع سنوات (٢٣١٥ - ٢٣٠٧ ق.م). وفي عهده، اجتاحت الدولة الأكدية الفتن والاضطرابات والتمردات[١١٣].

ويبدو أن تلك التمردات الداخلية والخارجية، قد واجهته منذ بداية توليه الحكم بعد والده الملك سرجون؛ لأن الإمكانات الخارقة التي امتلكها الملك سرجون، والتي رفعته، فيما بعد، إلى مصاف الآلهة لم تكن متوفرة في خلفه. وهذا الانطباع كان قد دفع دويلات المدن السومرية وغيرها من الدويلات الأخرى، إلى الاعتقاد بأنها سوف تستطيع أن تنفصل عن الإمبراطورية الأكدية بمجرد أن يموت الملك سرجون؛ لأن خليفته لا يمكن أن يكون بهذه الإمكانات نفسها. لذلك تمردت فعلًا دويلات المدن السومرية (أور، لكش، أوما، أوب، الوركاء، كزالو). الأمر الذي دفع الملك ريموش إلى شن حملة عسكرية على تلك المدن المتمردة. وتَمَكَّن من إخضاعها بشيء من القسوة[١١٤]. خصوصًا مع التمرد الذي قاده (كاكو) حاكم أور، والذي تمكن من أسره، وتدمير المدينة. وهذا ما أشار إليه نص (أنخدوانا) أخت الملك ريموش[١١٥].

ثم زحف الملك ريموش إلى أعدائه في الخارج. وخصوصًا في المناطق الشرقية. حيث تمكن من مدينة (كازالو) وأسر حاكمها. ثم قام بحملة نحو عيلام، وحقق فيها نصرًا مؤزرًا. لذلك أطلقت نقوش ريموش عليه لقب (سيد عيلام)[١١٦].

ويبدو أن من أسباب التمردات التي واجهت الملك ريموش هي:

١ - لأنه عمل بكل قوة من أجل الاحتفاظ بسلطان أسرته، وعدم التفريط بالأراضي

التـي في حوزتـه. وذلـك عن طريق الإفـراط بالقـوة (وهذا الاحسـاس جعل من العنف جوهر السلطة، والاستبداد والقوة أداة للحكم)[١١٧]، على حد قول الأستاذ الدكتور مزهر الخفاجي.

٢- وربما كانت الرغبة الكامنة لبعض المدن السومرية في إعادة سيطرة الحكام المحليين عليها، والعودة إلى اللامركزية، أحد العوامل الأساسية الدافعة لتلك التمردات.

وفي النهايـة، لقـي الملـك ريموش حتفه إثر تمـرد حدث داخل القصر، ربـما كان لأخيه (**مانيشتوسـو**) دورًا في قتلـه[١١٨]. والذي تـولى عرش الدولة الأكدية لمدة خمسـة عشر عامًا حسب وثيقة إثبات الملوك السومرية[١١٩]. ولعل من أهم آثاره مسلته المعروفة باسم (المسلة السوداء)، التي سجل عليها جهوده السياسية والعسكرية[١٢٠].

وقد اتسم عهده بالهدوء والاستقرار في الداخل. حيث انشغل بتوطيد السلام في أرجاء الإمبراطوريـة.[١٢١] بيد أنه وقعت عدة تمردات عليـه في الخارج. وتحديدًا في عيلام وغيرها مـن المـدن الواقعة على جانـب البحر. لذلك شـن حملتـين عسـكريتين، الأولى اتجهت نحو الـشرق حيث قاتل في عيـلام، وأحرز نصرًا على حكام مدن (أنشـان) و(شريخوم). والثانية اتجهت لمحاربة اثنين وثلاثين حاكمًا على جانب البحر. وتمكن من الاسـتيلاء على تلك المدن التي حكموها.

ويبـدو أن تلـك الحملات اسـتهدفت توطيد الدولة والسـلطان عن طريق اسـتعراض القـوة[١٢٢]. مـع ذلك، فقد أشـار أحد ألواح الفـأل إلى اغتيال الملك (مانيشتوسـو) على إثر مؤامرة دُبِرَت ضده داخل القصر الملكي[١٢٣].

وقـد خلفـه في حكم الدولة الأكدية في العراق الملك (**نارم - سـين**)، الذي تولى الحكم لمدة ٥٦ عامًا، حسـب وثيقة إثبات الملوك السومري[١٢٤]. بينما ذهب باحثون آخرون إلى أنه حكم لمدة تتراوح ما بين ٣٧ - ٦٦ عامًا[١٢٥].

وقد كان هذا الملك، ذا مقدرة توازي مقدرة الملك سرجون. وتمكن مثله أن يصبح بطلًا أسـطوريًا[١٢٦]. ويبدو أن ما ميزه عن أسـلافه، أنه جنح نحو بدعة تأليه نفسـه. إذ أنه ادعى

الألوهية أثناء حياته[١٢٧]. حيث وضع الإشارة المخصصة الدالة على الإله أمام اسمه[١٢٨]. ولُقِب في نقوش بعض الأختام التي أهداها إليه رعاياه بلقب (إله أكد). كما ظهر في لوحة النصر وهو يلبس على رأسه التاج والقرون التي تعد من علامات الألوهية[١٢٩].

ويبدو أن ذلك التوجه الديني – الفكري، كان قد مَثَّل أسلوبًا جديدًا في الفكر السياسي العراقي القديم. حيث أن هذا الفكر كان قد درج على احتساب الملك بشرط أن يعمل في خدمة الآلهة كوكيل لها أو نائب عنها. بيد أنه، في الأحوال كلها، لا يرقى إلى مصاف الآلهة مهما بلغ من القوة والمكنة والسمات الشخصية. لذلك لم تكن فكرة تأليه الملك مقبولة عند العراقيين.

وقد كان الملك (نارم – سين) من أبرز أفراد الأسرة الأكدية الحاكمة بعد جده سرجون. وقد كانت قدراته السياسية والعسكرية، قد ساهمت بالمحافظة على وحدة الإمبراطورية الأكدية. فضلًا عن مساهمته في تمددها لتصبح إمبراطورية بعيدة الأطراف. وقد دون انتصاراته الخارجية في لوحة مشهورة تسمى (نصب النصر)[١٣٠].

وفي عهده، بلغت مملكة أكد أقصى ذروتها ومجدها. وربما هذا هو الذي أباح لهذا الملك أن يطلق على نفسه لقب (ملك أقاليم العالم الأربع). وقد زاد من تمسكه بهذا اللقب هيمنته على إقليم (ماري)، وإخضاعه القبائل الجبلية الرابضة في هضاب زاجروس، واجتياحه لمدن عيلام ليبلغ جبال أرمينيا[١٣١].

مع ذلك، واجه الملك (نارم – سن) تمردات واسعة في غرب البلاد وشمالها وشرقها. وقد تزعمت مدينة (كيش) حلفًا من حوالي عشرين حاكمًا للتمرد على الدولة الأكدية. أن هذا التمرد كان قد شمل تقريبًا الأراضي الواقعة غربي الفرات كلها[١٣٢]. وتشير الوثائق التاريخية، إلى أنه تمكن من قهر تلك التمردات. وأخضع مدنها إلى سلطانه. وبذلك حفظ للإمبراطورية الأكدية وحدتها. ومن هنا أطلق عليه، لقب (ملك الجهات الأربع)[١٣٣].

ويبدو أن هناك عاملان أساسيان ساهما بإفشال تلك التمردات التي واجهت الملك سرجون وخلفاؤه، هما:

١ – الصعوبات التي واجهت المتمردون في إعلان الإنفصال.

٢ – رد الفعل العسكري المباشر من الملك سرجون وخلفاؤه إزاء أي معارضة محتملة[١٣٤]. إذ كان الملك سرجون وخلفاؤه مستعدون لاستعمال القوة المفرطة ضد الخصوم مهما كان عدد الخسائر البشرية أو المادية)[١٣٥].

ومن الواضح، أن تلك التمردات كان قد وقف وراءها كهنة مدينة (نفر)، الذين أرادوا أن يجعلوا الحكام جميعًا يعترفون بالحاجة إلى إظهار الولاء للمعبد[١٣٤]. ولذلك، فإن الروايات المتأخرة، أشارت إلى نهاية عهد الملك (نارم – سن) بكارثة حلت بالبلاد كعقاب من الآلهة، بسبب دعوى التأليه التي زعمها[١٣٧].

ثم خلفه على عرش العراق ابنه الملك (**شار كالي شارى**)، الذي حكم البلد لمدة ربع قرن، حسب وثيقة إثبات الملوك السومرية[١٣٨].

وهناك من يشير، إلى أن هذا الملك حاول أن يزيل ما تركه أبوه الملك (نارم – سين) من آثار سلبية في نفوس العراقيين، بسبب مزاعم التأليه التي أضفاها على نفسه. وذلك عن طريقين هما:

١ – أنه أعاد الاعتبار إلى الإله الأكبر المزعوم (أنليل). ونالت مدينة نيبور رعايته[١٣٩].

٢ – تخليه عن لقب (ملك الجهات الأربع) ذي المدلول الديني، والذي اعتمده والده الملك (نارم – سين). واكتفى باللقب الأكثر تواضعًا ونعني به لقب (ملك أكد)[١٤٠].

وفي عهد هذا الملك، وُلِدَت ظواهر أساسية جديدة من أهمها ما يأتي:

١ – أن الشعوب التي دُمِجَت قسرًا تحت لواء الإمبراطورية الأكدية، أخذت تبحث عن حريتها. لذلك اندلعت تمردات في مناطق الإمبراطورية كلها[١٤١].

٢ – ظهور قبائل الكوتيين التي تسكن الجبال الشمالية الشرقية، كقوة جديدة كانت قد مثلت خصمًا شديد المراس في مواجهة السلطة الأكدية[١٤٢].

٣- تخلصت عيلام في ذلك الحين من سيادة أكد، وانتهت تبعيتها لها. لترتبط معها بمعاهدة سبق أن عقدها الملك (نارم - سين).

أن ذلك كله، شجع العيلاميين على مهاجمة ملك أكد في أرض بابل نفسها[١٤٣]. كما تعرضت أكد لغزو القبائل الآمورية في العام التالي للغزو العيلامي. ورغم انتصار الملك (شار كالي شارى) عليهما، بيد أن هذا النصر كان نصرًا دفاعيًا لم يترتب عليه متابعة الغزاة إلى مناطقهم الخاصة[١٤٤].

وبعد وفاة الملك (شار كالي شارى) سرعان ما انتشرت الفوضى في ربوع الإمبراطورية الأكدية لمدة ثلاث سنوات. تولى الحكم خلالها أربعة ملوك هم (ايكيكي، نانم، ايمي، ايلولو).

ثم استقرت الأحوال في الإمبراطورية الأكدية، إلى حد ما، عندما تولى العرش الملك **(دودو)**، الذي حكم لمدة ٢١ عامًا. ثم خلفه ابنه **(شو- دورول)** لمدة ١٥ عامًا. ثم سقطت الدولة الأكدية بعد وفاته. لينتقل الحكم الملكي إلى مدينة (أوروك)، التي حكم فيها خمسة ملوك لمدة ٣٠ عامًا. ثم نقلت الملوكية إلى قبائل الكوتيين الغزاة الذين حكموا ٩١ عامًا حسب وثيقة إثبات الملوك السومرية[١٤٥].

وعلى الرغم من، أن اجتياح قبائل الكوتيين للدولة الأكدية كان مؤثرًا بالضرورة في هذا السقوط، كونه ساهم بقطع هؤلاء الغزاة لخطوط التجارة الدولية، التي كانت مصدرًا لرخاء أكد. بيد أنه لم يكن السبب الوحيد لسقوط الدولة الأكدية. لأن الكوتيين كانوا أقل ثقافة من المدنية الأكدية. بل أنهم يوصفون في الكتابات التاريخية بأنهم (متوحشون). لذلك رفضوا مناهل المعرفة والثقافة العراقية بشقيها السومرية والأكدية على حد سواء[١٤٦].

ومع أن هجمات الكوتيين على المدن الأكدية لم تكن في ذاتها كافية لتقويض الإمبراطورية الأكدية، بيد أنها كانت قد أقنعت دويلات المدن الخاضعة لها أن أكد ليست بالقوة التي لا تقهر. وهي إمبراطورية أصبحت ضعيفة بشكل واضح بسبب عوامل متعددة[١٤٧]. خصوصًا أن الملوك الأكديين، كانت قد واجهتم صعوبات في محو فكرة الاستقلال

المحلي الذي كان سائدًا في عصور فجر السلالات، والذي هيمن على أذهان العراقيين القدماء[١٤٨].

عليه، يمكن القول، أنه إضافة إلى الغزو الأجنبي وتداعياته، فإنه كان هناك عوامل أخرى ساهمت بسقوط الإمبراطورية الأكدية، لعل أهمها ما يأتي:

١- أن سياسة تدمير المدن المتمردة، وتنصيب حكامًا عليها من غير أهلها، وبمعونة الحاميات العسكرية، لم تعد ذات جدوى، حيث تعلمت تلك المدن بالتدريج كيف تصدها، وكيف تتعاطى معها.

٢- كما أن التغيرات المناخية التي حدثت خارج بلاد الرافدين، وبالتحديد في سوريا، التي مرت بحقبة جفاف مستمرة، كانت قد أفضت إلى حدوث هجرة جديدة تسببت في أحداث ضغوط مضافة على جنوب بلاد الرافدين. مما أثر سلبًا على خطوط التجارة الخارجية.

٣- كما يمكن أن يكون للاستنزاف الواضح للقوى البشرية في حروب إمبراطورية أكد، أثره الواضح في سقوطها[١٤٩]. حيث استمر ملوك أكد في عسكرة المجتمع والدولة.

٤- وكان استمرار الدور الاقتصادي للمعبد ورجاله، رغم تراجعه، كان قد مثل واحدًا من أسباب انهيار الدولة الأكدية، إذ غالبًا ما كان رجال المعبد يتحينون الفرص للانقضاض على سلطة الملوك الأكديين. وكانوا من المحرضين على التمردات التي واجهت ملوك أكد.

٥- وقد اقترن ذلك كله، بتولي الحكم بعد الملك (نرام - سن) ملوكًا ضعفاء لم يستطيعوا السيطرة على أجزاء الإمبراطورية المترامية الأطراف. فانسلخت عن هيكل الدولة أقاليم وأقوام عديدة. وسادت الفوضى، التي وصفها أحد الكتاب الأكديين بعبارة (من هو الملك، ومن هو غير الملك)[١٥٠]، كدلالة على شعوره بالفوضى التي سادت البلاد أواخر عهدها.

المبحث الرابع

ملامح الدولة العراقية
ما بعد سقوط الدولة الأكدية

واقعًا تمكنت قبائل (الكوتيين) من إسقاط الدولة الأكدية. ثم حكمت بلاد الرافدين من بعدها، خصوصًا بعد أن أوقعوا الخراب والتدمير في أغلب المدن العراقية العامرة.

ويبدو أن قبائل الكوتيين لا يُعْرَف عنهم سوى أنهم من سكان الجبال. وهم من القبائل البدائية التي كانت تستوطن أواسط زاجروس في منطقة همدان. ورغم تمكنهم من بسط سيطرتهم على سومر لمدة حوالي أربعة قرون، بيد أنهم لم يسهموا بما من شأنه تطوير ثرواتها وثقافتها[١٥١]. وحسب وثيقة إثبات الملوك السومرية، دام حكمهم ٩١ عامًا، تولى العرش خلالها ١٢ ملكًا[١٥٢].

ولا يعلم، على وجه التأكيد، هل كانوا من الأقوام الهندية – الأوروبية؟ خصوصًا أنهم لم يتركوا وثائق مدونة بلغتهم. إذ لا يعرف شيء عن لغتهم. وهم من الأقوام التي حُفِرَت في الذاكرة العراقية كأقوام (متوحشين أجلافًا وبرابرة مخربين)[١٥٣].

والملاحظ أن حكم الكوتيين لم يكن شاملًا للبلاد كلها. حيث أنهم لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على أرجاء البلاد كلها[١٥٤]. إنما تركزت سيطرتهم على المدن الأكدية فقط، بينما بقيت المدن السومرية في الجنوب بعيدة عن سيطرتهم، بيد أنها كانت تدفع الجزية للحكام الجدد مقابل استمرارهم في إدارة الأمور من حكامهم المحليين[١٥٥].

وقد أجمع المؤرخون على أن حقبة حكم الكوتيين، كانت قد مثلت أولى الحقب المظلمة في تاريخ بلاد الرافدين. وذلك للأسباب الآتية:

١ – لأنها حقبة تميزت بندرة واضحة في الكتابات التاريخية.

٢ – لأنها حقبة تميزت بغموض ملحوظ اكتنف أوضاعها السياسية[١٥٦].

٣- لأنها من الحقب التاريخية، التي توقفت فيها عجلة التقدم الحضاري في مجالات الحياة كلها[١٥٧].

وقد أخذت سيطرة الكوتيين على بلاد الرافدين، تتقلص شيئًا فشيئًا قبل أن يتم طردهم بشكل نهائي[١٥٨]. وقد تزعم حرب التحرير ضد الكوتيين ملك الوركاء **(أوتو خيكال)** الذي نجح في هزيمتهم، وتخليص البلاد منهم. لذلك كان الوحيد الذي حظي بلقب الملك في أسرة الوركاء الخامسة (٢١٢٠ - ٢١١٣ ق.م)، والذي حكم البلاد لمدة ٧ سنوات و٦ أشهر و١٥ يومًا، حسب وثيقة إثبات الملوك السومرية[١٥٩].

وقد دون الملك (أوتوخيكال) قصة انتصاره في نص تاريخي كُتِب باللغة السومرية. ونُسِخ على لوح كتابي مؤرخ بداية الألف الثانية قبل الميلاد[١٦٠].

ثم سرعان ما دحرت أوروك، ونقلت ملوكيتها إلى أور. حيث بدأ حكم أسرة أور الثالثة وملوكها[١٦١]، التي نجحت في توحيد البلاد بأجزائها كافة على يد مؤسس الأسرة **(أور - نمو)**. وأصبحت (أور) عاصمة للدولة بدلًا من أكد[١٦٢].

وتعد هذه الأسرة، آخر أسرة سومرية حكمت في التاريخ العراقي القديم. وقد أطلق على ذلك العصر اسم (عصر الإحياء السومري)، الذي حكم فيه خمسة ملوك لمدة مائة وثمانية أعوام[١٦٣]. وأحيانًا يُطْلَق عليه اسم (العصر السومري الجديد)[١٦٤].

وفي هذا العهد، تفتحت الشخصية السومرية من جديد بحيوية ملحوظة حينما استعاد السومريون سلطتهم لمدة معينة. وإلى هذا العهد ترقى معظم الأعمال الكبيرة المتوفرة بالسومرية[١٦٥]. وقد مَثَّل هذا العهد، حقبة لنهضة اللغة السومرية والتداول بها. فضلًا عن إعلاء مجد السومريين مرة أخرى. كما شهدت هذه المرحلة انتعاشًا سياسيًا، واقتصاديًا، وعمرانيًا واضحًا[١٦٦].

ولعل أهم أصول الحكم التي أدخلتها أسرة أور الثالثة تمثلت بما يأتي:

١ - الاستعانة بعناصر من السومريين والساميين على حد سواء في الجيش والإدارة. وجمعت بين اللغتين السومرية والأكدية في بعض الوثائق الرسمية والأدبية. وذلك

من أجل تجنب العوامل السلبية التي نخرت كيان الدولة الأكدية من جراء التفرقة ما بين السومريين والساميين. وبهذا الإجراء، تم تفعيل نوع من (المصالحة الوطنية) التي جعلت شعب بلاد الرافدين شعبًا واحدًا موحدًا[١٦٧]. ولعل احتفاظ الملك (أور – نمو) باللقب السابق (ملك الجهات الأربع)، كان بقصد التقريب ما بين الأكديين (الساميين) والسومريين[١٦٨]. علاوة على استخدامه لقبًا آخرًا هو (ملك سومر وأكد) للدلالة على هذا التقريب والتصالح[١٦٩].

٢- مع ذلك، أن هذه السياسة الواقعية، لم تمنع ملوك أور الثالثة من مركزة الحكم في عاصمتهم. تلك العاصمة التي بقيت تشرف على شؤون المدن والأقاليم الأخرى. والراجح أنها استعانت على ذلك باستحداث نظام يشبه نظام الوزارة. والعناية بنظام العدائين لتبليغ أوامرها إلى ولاة الأقاليم. واحتسبت أولئك الولاة مجرد موظفين كبار معرضون للنقل من إقليم إلى آخر على غرار ما كان سائدًا إبان عصر الدولة الأكدية[١٧٠]. لذلك كان الملك مسؤولًا عن تعيين حكام المدن المختلفة، والذين يمثلونه في السلطة. حيث كان الملك رأس السلطة، ومصدرها[١٧١]. كما أن عدد الموظفين التابعين للقصر الملكي وهيكلية المؤسسة الإدارية للدولة قد ازداد في ذلك العهد بشكل ملحوظ. حيث ظهر منصب (سوكال ماخ)، والذي يعني (مستشار الملك)، والمقابل لمنصب (الوزير الأقدم)[١٧٢].

٣- بدأت عملية (تأليه ملوك أسرة أور الثالثة) أكثر وضوحًا من السابق. حيث وردت أسماؤهم مسبوقة (بشارة الإله). كما صوروا في النصب والرسومات وهم يرتدون (الخوذات ذات القرنين)، ويقدم لهم نوعًا من النذور بالطريقة نفسها التي يقدم بها للآلهة مع تراتيل خاصة بهم. كما خصصت معابد لهؤلاء الملوك المتألهين. وسرعان ما أصبحت تماثيل الملوك تعامل منذ عهد الملك (شوسين)، (٢٠٣٨ – ٢٠١٣ ق.م) على قدم المساواة مع تماثيل الآلهة من ناحية تقديم النذور[١٧٣].

٤- أضف إلى ذلك كله، يلاحظ أن قعقعة السلاح وعسكرة المجتمع والدولة التي ميزت تاريخ الدولة الأكدية، كانت قد خفت في هذا العهد بشكل ملحوظ. وحل

محلها عصر السلام والهدوء النسبي. مع ذلك، فقد وجد ملوك هذه الأسرة، أن من الضروري، أحيانًا، استخدام القوة لإعادة وحدة البلاد السياسية، والمحافظة عليها.

ولعل الملك (أور – نمو) مؤسس أسرة أور الثالثة، يعد من أشهر ملوكها، والذي تمرد على الملك (أوتو خيكال)، وأنهى حكمه. وقد خضعت لحكمه الكثير من المدن السومرية والأكدية. لذلك أطلق عليه لقب (ملك سومر وأكد)، و(ملك الجهات الأربع) رغم أن حجم مملكته كان أقل بكثير مما كانت عليه في العصر الأكدي[١٧٤].

وقد اهتم الملك (أور – نمو) بالعمران والبناء كثيرًا. إذ شملت أعماله العمرانية، إلى جانب العاصمة أور، كثيرًا من المدن السومرية، كالوركاء، ولكش، ونفر، وأريدو. ولعل بناءه الزقورة في معبد إله القمر المزعوم (نانا) يعد من أشهر إنجازاته[١٧٥]. كما اهتم كثيرًا بعاصمته أور، فأُعِيد تسويرها. وقام ببناء معابد المدينة الكبرى المخصصة للإله المزعوم (ننا)[١٧٦].

كما اهتم بشق القنوات، التي مثلت أهمية قصوى في جنوب العراق للمحافظة على المجاري المائية، وحمايتها من الترسبات الطينية لكي لا تفقد قيمتها كوسيلة ري ومواصلات في آنٍ واحد[١٧٧].

ولعل أبرز إنجازاته، كانت قد تمثلت في قانونه الذي عُرِف (بقانون أور – نمو) الشهير، والذي كُتِب باللغة السومرية. وأن هذا القانون يعد أقدم وثيقة قانونية في التاريخ. وقد تَعَذَّر الحصول على الصيغة الكاملة لهذا القانون، إنما عُثِر على اثنتين وعشرين مادة منه فقط[١٧٨].

ويلاحظ في مقدمة القانون إشارة إلى الأصل الديني للسلطة السياسية. حيث نصت على أن الإله المزعوم (ننا) قد فوض الملك (أور – نمو) في حكم الدولة. ووصفه بالملك التقي والعادل والورع. وأن توليه للحكم، إنما كان ايذانًا بالقضاء على الفساد، والفوضى، وسوء الإدارة، والجور على حقوق الآخرين. أما المواد القانونية الأخرى، فإنها عالجت (مبدأ التعويض) وبعض المخالفات، وتحديد العقوبات الملائمة لكل حالة. كما عالجت مواد

أخرى مسألة (توحيد الأوزان والمكاييل)، والأحوال الشخصية. كما وُضِعَت بعض المواد القانونية لضبط العمل القضائي وسير المحاكم.

وفي المدة (٢٠٩٥ – ٢٠٤٨ ق.م) تولى عرش أور الملك (**شولجى**)، بعد وفاة أبيه الملك (أور – نمو). وقد حكم هذا الملك في حدود ٤٨ عامًا. وقد صرف معظم النصف الأول من حكمه في إقامة مشاريع عمرانية، وفي مقدمتها استكمال بناء المعابد والأبراج. وكان قد أصلح نظام التقويم ووحده. كما جعل الموازين والمكاييل على قياس واحد[١٧٩].

واستهل عهده بالاهتمام بالشؤون الدينية، الأمر الذي أفضى إلى تأليه نفسه أسوة بأبيه[١٨٠]. لذلك قام باستكمال بناء زقورة أور، التي شيدها والده. فضلًا عن إعادة بناء عدد من المعابد الدينية. ولذلك أُقِيمَت لهذا الملك المؤله هياكل للعبادة. وقُدِمَت له النذور والقرابين في بعض المدن السومرية[١٨١]. كما اهتم بمدينة أور والوركاء ولكش[١٨٢]. كما اهتم بطرق المواصلات[١٨٣].

وكان هذا الملك، من المهتمين بالأدب والمعرفة. وأبدى عناية فائقة بالمدارس، لدرجة أنه كان يفخر بتحصيل العلم في المدرسة أيام طفولته. وأنه أتقن فنون الكتابة المسمارية[١٨٤]. وأضاف الكَتَبَة إلى ذلك، أنه كان أول موسيقار في المملكة. إذ كان يحسن العزف على ما لا يقل عن ثماني آلات موسيقية، من بينها قيثارة وُصِفَت بأنها ذات (ثلاثين وترًا)، وآلة موسيقية سُمْيَت باسم أحد ملوك كيش القدامى هو (أور – زبابا)[١٨٥].

وقد تمكن الملك (شولجي) من إقامة حكم قوي في البلاد، مكنه من السيطرة على البلاد كلها. وفرض سيطرته على بلاد عيلام. ونشر الثقافة السومرية فيها، من أجل تثبيت سيادة الحكومة المركزية.

ثم تولى العرش ابنه (**آمار – سين**) لمدة تسع سنوات (٢٠٤٧ – ٢٠٣٩ ق.م). ومما يقال عن حكمه، بشكل عام، أنه سار على خطى أبيه في الاهتمام بالبناء والعمران من جهة، وبالنشاط العسكري والسياسي من جهة أخرى، ولا سيما في الأقاليم الشرقية والشمالية

الشرقيـة، وهـي الأقاليم التي لم تخضع خضوعًا تامًا لسـلطان إمبراطوريـة أور، الأمر الذي اضطره إلى إرسال الحملات العسكرية منذ بداية حكمه.

ولعـل أبـرز مـا كان يتميز به نظـام الحكـم والإدارة في عهد هذا الملـك، يكمن في بروز السلطة المركزية وتعاظمها. وتجلى ذلك في طريقة ارتباط الولايات التابعة للحكومة المركزية وعاصمتها (أور). حيث كان يحكم فيها حكامًا يعينهم ملك أور[١٨٦].

وقد ركزت بعض المصادر على نشاطه المعماري في نيبور، وأور، وأريدو. كما أضافت إلى ألقابه ما يعبر عن تأليهه. وتفضيل الإله المزعوم (أنليل) له[١٨٧]. فهذا الملك، كان قد وصل إلى مرحلة التقديس. بل بلغ درجة الألوهية مثل أبيه. ونعت في كتاباته بأنه (الإله الشـمس الذي يَهِب الحياة إلى البلاد). وشُـيِّد له قبر في مدينة أور بجوار قبر أبيه. وأُقِيم فوق سرداب اللحد معبدًا لعبادته، وتقديم النذور والقرابين والصلوات إليه[١٨٨].

ثم تولى العرش الملك (**شو – سين**)، لمدة تسع سنوات (٢٠٣٨ – ٢٠٣٠ ق.م). والذي سار على سُنَّة أبيه من حيث التمسك بهالة الملك المقدسة[١٨٩].

ورغم أن عهده اتسم بالاستقرار، وسيادة السلم في الإمبراطورية كلها، بيد أن عهده لم يخل من جهود عسكرية عندما واجهته بعض المتاعب من القبائل الجبلية في الشمال الشرقي. وتمكن من القضاء على تلك التمردات عبر حملتين عسكريتين[١٩٠].

وبعـد وفاتـه، خلفـه في الحكـم ابنه (**أبي – سـين**)، الذي حكـم لمـدة ٢٤ عامًا (٢٠٢٩ – ٢٠٠٦ ق.م)، الـذي يوصـف بأنـه كان شـخصية ضعيفـة، ولا يمتلك الخبرة السياسـية والإدارية اللازمة لإدارة البلاد[١٩١].

وقـد كان هـذا الملـك، آخر ملـوك سـلالة أور الثالثـة. وكانت سـنوات حكمـه مليئة بالأحداث التـي واجهتها المملكة في الداخل والخارج. وبدأت مؤشرات الضعف بالظهور في وقت مبكر من حكمه. حيث بدأت بعض المدن السومرية بإيقاف تدوين الوثائق المسمارية بحوادث سنوات حكمه. كما أن بعضها الآخر، توقف عن إرسال النذور إلى معبد إله القمر في العاصمة أور[١٩٢].

لذلك، هاجمتها القبائل الآمورية من الغرب، والقبائل العيلامية من الشرق، مما أدى، في نهاية الأمر، إلى سقوط أسرة أور الثالثة.

ولعل أهم أسباب سقوطها تَمَثَّل بما يأتي:

١- على المستوى الداخلي، تَمَثَّل بضعف السلطة المركزية، وضعف السيطرة على المدن والأقاليم التابعة للملكة. مما دفع بعض حكام المدن إلى الاستقلال عن الحكومة المركزية، ورفض الاعتراف بسيادتها[١٩٣]. وضاعف من حدة هذه المشاكل ارتباك الأوضاع الاقتصادية، وشحة المواد الغذائية الأساسية كالحنطة والشعير وما شابه ذلك[١٩٤]. وقد ترافق ذلك، مع إهمال مشاريع الري، حيث لم يعد هناك أي مشاريع لفتح القنوات أو كريها. لذلك قلت المواد الغذائية، ولم يعد بالإمكان توفير الغذاء الكافي لسكان العاصمة[١٩٥].

٢- وترجع النصوص الدينية، كعادتها؛ سبب سقوط إمبراطورية أور، إلى غضب الإلهين المزعومين (آنو، وأنليل) على المدينة بسبب عدم اهتمام ملوكها بالمعابد[١٩٦].

٣- وعلى المستوى الخارجي، كان لهجوم القبائل الآمورية من جهة الغرب، وهجوم القبائل العيلامية من جهة الشرق أثرًا واضحًا في سقوط سلالة أور الثالثة[١٩٧]. بيد أن الضربة القاضية التي أسقطت سلالة أور الثالثة جاءت من الشرق، حيث قامت مملكة عيلام، التي كانت قد انفصلت عن أور، واستقلت عنها، بهجوم عسكري مفاجئ دمروا خلاله مدينة أور، وأسروا ملكها (أبي - سين)[١٩٨].

وقد كان ذلك، ايذانًا بنهاية عهد شهد توحيد بلاد الرافدين، وبداية عهد جديد اتسم بالتمزق والاضطراب. كما أن نهاية أسرة أور الثالثة، كانت بمثابة نهاية لحياة السومريين السياسية. حيث لم تنشأ بعدها أي أسرات حاكمة من السومريين، إنما اندمجوا بالساميين، وذابوا فيهم. وقد مهد ذلك الذوبان لولادة دول وحضارات جديدة أُقِيمَت على أرض العراق القديم لاحقًا.

ويبدو أن انهيار أسرة أور الثالثة عام (٢٠٠٦ ق.م)، كان قد أفضى إلى عودة بلاد

الرافديـن إلى نظـام دويلات المـدن. حيث أعلنت الكثـير من المدن عن اسـتقلالها. ومن ثم ظهـرت عـدة أسر حاكمة. كان أبرزها أسرة (آيسـن)، وأسرة (لارسـا) في الجنوب. وأسرة (آشـور)، وأسرة (أشـنونا) في الشـمال. وقـد أضفى حكام هـذه الأسر على أنفسـهم، ألقابًا ضخمة توحي بالسيادة المطلقة على البلاد كلها[١٩٩]، مع أن الواقع كان خلاف ذلك.

ولعـل أهم إنجـازات تلك المرحلـة، كان قد تمثـل بالتشريعات القانونيـة المبكرة. منها (قانـون لبت عشـتار)، والذي عُثِر عـلى ٣٨ مادة منه[٢٠٠]. كذلك (قانون أشـنونا)، والذي عثـرت عليـه البعثـة العراقية للآثـار في تل حرمل قـرب بغـداد، والذي يعـد أول القوانين التـي كتبت باللغـة الأكدية، ولم يتبق منه سـوى (٦١) مادة، عالجت أهـم جوانب الحياة في حينه[٢٠١].

وعمومًا، فإن تلك التطورات السـلبية والإيجابية، على حد سـواء، مهدت لولادة دولة جديـدة على أرض العراق، أُطْلِق عليها (الدولة البابلية القديمة). وهذا ما سـنعرج عليه في المبحث الآتي.

هوامش الفصل الثالث

(١) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٢) فوزي رشيد، سرجون الأكدي: أول إمبراطور في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص ١١- ١٢.
(٣) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية ١٩٧١، ص ٣٤.
(٤) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٥) رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين، تعريب: وليد الجادر، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣، ص ١٦ - ١٧.
(٦) للتفصيل انظر: عبد الكريم عبد الله، ملامح الوجود السامي في جنوب العراق، مجلة سومر، العدد ٣٠ لسنة ١٩٧٨، ص ٦٥ - ٧١.
(٧) محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٢٢.
(٨) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤.
(٩) مزهر الخفاجي، الشخصية العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.
زهير صاحب، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، ج ٢، دار ومكتبة عدنان، بيروت - لبنان ٢٠٢٠، ص ١٥.
(١٠) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٢.
(١١) لمزيد من التفصيل حول اللغة السومرية وسماتها انظر: عامر سليمان، التراث اللغوي في حضارة العراق، ج ١، بغداد ١٩٨٥، ص ٣٠٧ - ٣١٧.
(١٢) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤ - ٧٥.
(١٣) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.
(١٤) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦.
(١٥) سفر التكوين: ١٠: ١٠.
(١٦) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١.
(١٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٣.
(١٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(١٩) للتفصيل انظر: المصدر السابق، ص ١٢ - ٧٨.
(٢٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.
(٢١) مزهر الخفاجي، جذور الثورة والعنف والاستبداد في المجتمع العراقي القديم، منشورات زين الحقوقية، بيروت ٢٩١٩، ص ١٤١ - ١٤٢.
(٢٢) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.
(٢٣) المصدر السابق، ص ١٥٩ - ١٦٠.
(٢٤) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.
(٢٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٩.
(٢٦) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠.
(٢٧) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ - ١٨

(٢٨) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.
(٢٩) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠ - ١٠١.
(٣٠) المصدر السابق، ص ١٠١.
(٣١) طه باقر، مقدمة، ص ٢٩٤.
(٣٢) حسن ظاظا، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤ - ٣٥.
(٣٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.
(٣٤) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.
(٣٥) للتفصيل انظر: فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤ - ٩٧.
(٣٦) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.
(٣٧) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(٣٨) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.
(٣٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.
(٤٠) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.
(٤١) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.
(٤٢) صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، منشورات جمعية المترجمين العراقيين، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، بغداد ١٩٧١، ص ٧٤ - ٧٥.
(٤٣) المصدر السابق، ص ١٠٤ - ١٠٧..
(٤٤) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.
(٤٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٤٦) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.
(٤٧) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.
(٤٨) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤.
(٤٩) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٥٠) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦ - ٩٧.
(٥١) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٥٢) انظر: سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢. طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٥. هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، موصل ١٩٨٢، ص ٦٩. عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره. ص ١٤٩.
(٥٣) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠ - ١٤٣. زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ - ١٤.
(٥٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤.
(٥٥) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.
(٥٦) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٥٧) بنيتو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

(٥٨) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢.
(٥٩) بنيتو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(٦٠) حسن ظاظا، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤ - ٣٥.
(٦١) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١ - ٥٢
(٦٢) اندريه بارو، بلاد آشور، ترجمة: عيسى سلمان، وسليم التكريتي، بغداد ١٩٨٠، ص ٣٣١.
(٦٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ١٦٢.
(٦٤) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.
(٦٥) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.
(٦٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٢.
(٦٧) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩.
(٦٨) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥.
(٦٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٧٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٧١) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢ - ١٦٣.
(٧٢) ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال، ومراجعة: عبد المنعم أبو بكر، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧. ص ٧٦.
(٧٣) فوزي رشيد، الجيش والسلاح، ضمن كتاب: حضارة العراق، ج ٢، بغداد ١٩٨٥، ص ٤٨ - ٤٩.
(٧٤) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(٧٥) المصدر السابق، ص ٣٨.
(٧٦) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٧٧) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣ - ١٢٤.
(٧٨) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٨.
(٧٩) محمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(٨٠) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج ١، مصر والعراق، القاهرة ١٩٦٧، ص ٤١٧.
(٨١) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٠.
(٨٢) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢.
(٨٣) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٨٤) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦.
(٨٥) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤.
(٨٦) المصدر السابق نفسه، ص ١١٥.
(٨٧) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.
(٨٨) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.
(٨٩) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥.

(٩٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.
(٩١) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(٩٢) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩.
(٩٣) فوزي رشيد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(٩٤) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠ - ٣١.
(٩٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٦.
(٩٦) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠ - ٤١.
(٩٧) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢.
(٩٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤.
(٩٩) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧ - ٧٨
(١٠٠) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ١٩٦٣، ص ١٣٦.
(101) C. J. Gadd, The Dynasty of Agada and Gutter invasion, in C A H, 1 Art, 11, p. 420 - 421.
(١٠٢) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(١٠٣) مزهر الخفاجي، الشخصية العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.
(١٠٤) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
(١٠٥) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.
(١٠٦) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(١٠٧) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤.
(١٠٨) نجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٦.
(١٠٩) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(110) S. N. Kramer, The sumerniane, Thien History, culture and chancter (chiecago 1963, p. 193).
(١١١) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.
(١١٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦.
(١١٣) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.
(١١٤) C. J. Gadd, op. cit, p. ٤٣٥ - ٤٣٦.
(١١٥) محمد عبد اللطيف، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.
(١١٦) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
(117) C.J. Dadd, op. cit, p. 437 - 438. S. N. Kramer, op. cit. p. 61 - 62.
(١١٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.
(١١٩) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣.
(١٢٠) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.
(١٢١) نجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩ - ١٤٠. S. N. Kramer, op. cit, p. 61 - 62.
(122) C. J. Gadd, op. cit, p. 440.

(١٢٣) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.
(١٢٤) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٤.
(١٢٥) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(١٢٦) فوزي رشيد، سرجون الأكدي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
(١٢٧) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.
(١٢٨) ديلا بورت، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.
(١٢٩) حسن ظاظا، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(١٣٠) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(131) C. J. Gadd, op. cit, p. 440.
(١٣٢) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(١٣٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.
(١٣٤) المصدر السابق، ص ١٠٦.
(١٣٥) المصدر السابق، ص ١١٣.
(١٣٦) محمد عبد اللطيف، مصدر سبق ذكره، ٢٧٨ - ٢٧٩.
(١٣٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤.
(١٣٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.
(139) C. J. Gadd, op. cit. p. 455.
(١٤٠) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(١٤١) عبد المنعم أبو بكر وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، مكتبة مصر، القاهرة (د. ت)، ص ٢٩٠.
(١٤٢) محمد عبد اللطيف، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
(١٤٣) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦.
(١٤٤) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
(١٤٥) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، ص ٨٢.
(١٤٦) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.
(١٤٧) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.
(١٤٨) ساكز، البابليون، ص ١٢٣.
(١٤٩) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(١٥٠) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦.
(١٥١) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٥.
(١٥٢) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.
(١٥٣) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(١٥٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(١٥٥) ستيفن همسلي لونكريك، فرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز ١٩٥٨، ترجمة: مصطفى محمود أحمد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي. بغداد ٢٠٠٩، ص ٤٠.

(١٥٦) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.
(١٥٧) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.
(١٥٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٥.
(١٥٩) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢.
(١٦٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٥.
(١٦١) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢. سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.
(١٦٢) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.
(١٦٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.
(١٦٤) رينيه لابات، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(١٦٥) للتفصيل انظر: عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ - ١٢٣.
(١٦٦) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.
(١٦٧) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(١٦٨) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.
(١٦٩) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٣.
(١٧٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، ص ٨٣.
(١٧١) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.
(١٧٢) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.
(١٧٣) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣١ - ٤٣٢.
(١٧٤) محمد عبد القادر محمد، الساميون في العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨، ص ٧٨.
(175) C. J. Gadd, op. cit, p. 559 - 560.
(١٧٦) محمد عبد اللطيف، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٩.
(١٧٧) انظر نص القانون في: J. T. Finkelstein, The Laws of ur - Nammu, hn JCS, 22، 1968 - 1969, P. 66 - 82.
(١٧٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٥.
(١٧٩) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩.
(١٨٠) محمد عبد اللطيف، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٣.
(١٨١) نجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦.
(182) S. n. Kramer, op. cit, p. 585.
(١٨٣) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.
(١٨٤) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٧.
(١٨٥) المصدر السابق، ص ٣٨٨.
(186) C. J. Gadd, op. cit, p. 607 - 608.
(١٨٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٨.

(١٨٨) للتفصيل انظر: صموئيل نوح كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، شيكاغو ١٩٥٦، ص ٣٦٦ - ٣٦٩
(١٨٩) محمد عبد اللطيف، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢١.
(١٩٠) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.
(١٩١) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢.
(١٩٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.
(١٩٣) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢.
(١٩٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.
(١٩٥) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، ص ١٦٦.
(١٩٦) فاضل عبد الواحد، السومريون والأكديون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢.
(١٩٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.
(١٩٨) للتفصيل انظر: سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤ - ١٨٩. محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣ - ٢١٠.
(١٩٩) حول نص تشريع (لبت عشتار) انظر: أحمد أمين سليم، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.
(٢٠٠) حول نص تشريع (أشنونا) انظر، المصدر السابق، ص ٢٤٧ - ٣٥٤.

الفصل الرابع

ملامح الدولة العراقية في العصر البابلي القديم

سنعرج في هذا الفصل على المحاور الآتية:

المبحث الأول: التعريف بالأموريين.

المبحث الثاني: ملامح الدولة العراقية في عصر آيسن – لارسا.

المبحث الثالث: ملامح الدولة العراقية في عهد حمورابي.

المبحث الرابع: ملامح الدولة العراقية ما بعد حمورابي.

المبحث الخامس: ملامح الدولة العراقية في الحقبة المظلمة الثانية.

❋❋❋

أجمع الباحثون على تسمية المدة الواقعة ما بين انهيار سلالة أور الثالثة عام ٢٠٠٦ قبل الميلاد، ونهاية سلالة بابل الأولى عام ١٥٩٥ قبل الميلاد بالعصر البابلي القديم. وذلك تمييزًا له عن العصور البابلية الوسيطة والحديثة [١].

وقد تميزت هذه المدة، الممتدة لحوالي أربعة قرون، بالازدهار الحضاري للعراق القديم. كما أنها حقبة ذات أهمية خاصة في تاريخ العراق القديم. حيث تم الكشف عن آلاف من النصوص المسمارية لهذا العصر. وقد ألقت تلك النصوص الضوء على جوانب حضارية مختلفة من هذا العصر، والتي تميزت بخصائص سياسية، وعرقية، واقتصادية، واجتماعية مثلت قمة النضوج الحضاري الذي شهده العراق القديم. لذلك اتخذها الباحثون نموذجًا متميزًا لحضارة العراق القديمة.

إن أهمية سلالة بابل الأولى في تاريخ الحضارة العراقية القديمة تنحصر بجملة من المعطيات لعل أهمها ما يأتي:

١ – كونها صبغت حضارة بلاد وادي الرافدين وثقافته بصبغة سامية. وأكسبته الطابع السامي بلغته، وثقافته، واتجاهاته الفكرية، والسياسية.

٢- كما كانت عاملًا مهمًا في تحقيق ما لم يستطع تحقيقه الأكديون (٢٣٥٠ ق.م)، في جعل الوشاح الأخضر من شمال شرقي الجزيرة العربية ثابتًا على صدر الجزيرة العربية إلى الأبد، بحيث لم يستطع انتزاعه الغزاة الأجانب[٢].

ولعل أبرز ما ميز العصر البابلي القديم كان قد تَمَثَّل بسيادة الأقوام الأمورية وتأثيرها الواضح على الأوجه الحضارية المختلفة. وهذا ما سنعرج عليه في المبحث الآتي.

المبحث الأول

التعريف بالأموريين

يعد الأموريون فرعًا من الأقوام الجزرية (السامية)[٣]، التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى بَوَادي الشام والعراق. حيث توغلت تلك الجماعات، منذ نهاية الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد، عن طريق الفرات بشكل أفراد وجماعات مسالمة منذ العصر الأكدي وما قبله. كما تدفق الأموريون نحو العراق في أواخر سلالة أور الثالثة[٤]. وهناك ما يدل على وجود أعداد كبيرة منهم كانت تعمل في المعابد العراقية القديمة وفي الجيش والخدمات.

والراجح أن هناك عوامل ساعدت على تلك الهجرة منها:[٥]

١- أن الانفتاح الجغرافي على الآخر لبيئة بلاد الرافدين، كانت عاملًا مشجعًا لهجرة الأقوام الأمورية إلى بلاد الرافدين.

٢- الرغبة في الإفادة من خيرات أرض بلاد الرافدين المعطاء.

٣- تَلَقِي المعرفة في مراكز الحضارة المتقدمة، والتي أفاضت بها العواصم العراقية المشهورة على الفكر البشري بكل سخاء.

ومن الجدير بالذكر، أن الهجرات الأمورية إلى بلاد الرافدين، لم تكن على شكل موجة واحدة. كما أنها لن تنحصر في استيطانها على منطقة السهل الرسوبي[٦].

ويمكن تمييز موجتين من الهجرات الأمورية جاءتا في حقبتين من الزمن. واستوطنتا في أجزاء مختلفة من العراق القديم. فالموجة الأولى، جاءت في أواخر سلالة أور الثالثة. وذلك في عهد الملك (أبي - سين). وتمكنت من تأسيس عدد من السلالات الحاكمة، أشهرها سلالتا (آيسن)، و(لارسا)، و(أشنونا). أما الموجة الثانية فقد جاءت بعد حوالي مائة عام على الهجرة الأولى. حيث انحدرت من جهة الفرات الأعلى والأوسط جماعات أخرى من الأموريين إلى العراق. وتمكن بعضهم من تأسيس سلالات حاكمة، أشهرها (سلالة

بابل الأولى)، التي أسسها (سومو – ايم). كما قامت منهم ممالك أخرى في آشور، وسبار، والوركاء، وغيرها من المدن[٧]. حيث أتاحت الظروف السياسية، والنزاعات العسكرية التي نشبت بين الممالك الأمورية المتعددة والمنتشرة في أجزاء مختلفة من بلاد الرافدين، والتي استغرقت ما يزيد على القرن، الفرصة لتدفق الهجرة الأمورية الثانية[٨].

ولفظة (أمورو) هي الصيغة الأكدية للتسمية السومرية (مار – تو)، والتي تعني حرفيًا (أرض مستقر الشمس) أي جهة الغرب. وهي إشارة إلى الاتجاه الذي جاءت منه تلك الأقوام الأمورية. لذلك أطلق السومريون لفظة (الأموريون) على القبائل البدوية القادمة من جهة الغرب. وعرفت هذه اللفظة في المصادر المسمارية (بالأمورو). كما أُطْلِق هذا اللفظ على الإله الخاص بالأموريين. أما الباحثون المحدثون فيدعونهم بالكنعانيين الغربيين (الفينيقيين). وهم الأقوام التي استوطنت في الأجزاء الساحلية من بلاد الشام[٩].

لقد جاء الأموريون من الفلوات فاستحكمت بلاد الرافدين. وأنشأت ممالك فيها. ثم اقتبست الحضارة عند استيلائها على البلاد، ودفعتها إلى أقصى غاية. وجرت على عادات أهاليها الدينية. وتخلقت بأخلاق ملوك البلاد[١٠]. وقد أسهم الأموريون، بصورة فعالة، في إقامة الحضارة البابلية على أرض الرافدين بحكم التواصل والتتلمذ على أيدي أساتذتهم السومريين والأكديين[١١].

عليه، يمكن القول، أن جماعات منهم تمكنت من السيطرة سياسيًا على عدد من المدن التابعة لإمبراطورية أور الثالثة. ونجحت في تشكيل دويلات مدن أمورية لكل منها نظامها السياسي الخاص، وسلالتها الحاكمة، والتي عُرِفَت ب (دويلات المدن الثانية) إلى أن تَمَكَّن سادس ملوك بابل القديمة الملك حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م) من القضاء على تلك الدويلات، وإعادة الوحدة الوطنية العراقية من جديد[١٢].

وبذلك، حدث تغير في الشريحة السياسية في السنوات الأولى للألف الثاني قبل الميلاد، والذي تمخض عن انحلال إمبراطورية أور الثالثة، والاستقلال التام لعدد من الدويلات العراقية، الأمر الذي يسوغ تقديم استطراد تاريخي عنها[١٣]. حيث استمرت الأقوام

الأمورية بالتوغل في البلاد لتؤسس بعد ذلك مدنها، والتي عرفت باسم الممالك الأمورية[١٤]. إذ ازدهرت سلالات أمورية في مدن عديدة منها (ماري) على الفرات الأوسط، والتي استمرت حتى عام ١٧٠٠ ق. م. وفي خانة (عانة) على الفرات. وفي أشنونا، وفي (يموت بعل) شرق دجلة باتجاه نهر ديالى. وفي سبار، وفي آيسن، وفي لارسا وغيرها[١٥].

وقد اختار الأموريون مدينة بابل عاصمة لمملكتهم. وهي مدينة قديمة تقع على الفرات على بعد ٩٠ كم جنوبي بغداد، والتي لم تكن قبل استيلائهم عليها سوى بلدة عادية، بيد أنهم حولوها إلى حاضرة مدنية كبيرة[١٦]. وبذلك انتقل المركز السياسي بكل بطء إلى الأعلى عن طريق آيسن ولارسا، فأستقر في مدينة صغيرة معروفة من زمن أور الثالثة هي مدينة بابل. وقد حدثت عن ذلك الانتقال السياسي مراحل عديدة في عصر تميز بعدم الاستقرار[١٧].

ويبدو، أن اختيار الأموريين بابل عاصمة لمملكتهم، إنما كان اختيارًا موفقًا؛ لأنها تقع في وسط العراق بصفة عامة. فضلًا عن منعتها الجغرافية، ووقوعها وسط المناطق التي يتركز فيها العمران والسكان. إضافة إلى وقوعها على الفرات، وهو من الأنهار الصالحة للملاحة، وطريقة الري فعالة في تلك الأراضي البابلية. حيث وصفها (أدي شير) رئيس أساقفة سعرد الكلداني الآشوري بقوله: (أن مدينة بابل كانت أعظم مدن آسيا وأبعدها ذكرًا، وأرفعها علمًا، وأوسعها ظلًا، وأكثرها ثروة وعمرانًا، وأمنعها عزة وسلطانًا. صحبت الملوك دهرًا طويلًا، وتقلبت في الخصب والدولة أمدًا مديدًا حتى لم يكن لها مثيل في جميع المدن التي تقدمتها في تاريخ المدن)[١٨].

ونظرًا لأهمية مدينة بابل في العصور القديمة، ورد ذكرها في العهد القديم أكثر من مائتي مرة بوصفها العاصمة العظيمة لمملكة بابل القديمة، التي أطلق عليها سفر التكوين لفظة (شنعار). وذهب سفر التكوين إلى القول أن مؤسس بابل هو الملك (النمرود) بقوله: (وكان أول مملكته بابل وأرك وأكد وكلنه في أرض شنعار)[١٩].

ويبدو أن ملوك بابل، كانوا قد استفادوا من الموقع الممتاز الذي كانت تشغله مدينة

بابـل. حيـث أنها تقع عند نقطة تقـارب النهرين دجلة والفـرات، وفي ملتقى تقاطع الطرق التجارية الخاصة بالشرق الأوسط[٢٠].

وقـد تباينت التفسـيرات في أصـل لفظة (بابل). حيث سُـمِيَت بابل من بلبلة الألسـن حسـب نصـوص العهد القديم، التـي روت أن بني نوح عندما ارتحلوا مـن الشرق، ونزلوا بأرض شنعار (العراق) أخذوا في بناء برج بقصد البلوغ إلى السماء. فبلبل الله تعالى ألسنتهم حتـى صـار بعضهم لا يفهم كلام بعض. لذلك كفوا عن بناء الـبرج. ولذلك دُعِيَت المدينة بابل. وهي كلمة عبرانية معناها حسـب هذا التفسـير (البلبلة). حيث ورد في سفر التكوين مـا يأتي: (ولذلك سـميت بابل لأن الـرب هناك بلبل لغة الأرض كلها. ومن هناك شـتتهم الرب على كل وجهها)[٢١].

وفي رواية أخرى، أن قومًا من الأقدمين بنوا هناك هيكلًا يجلسون ببابه لقضاء دعاويهم وفض خصوماتهم. فسُـمِيَت مدينة بابل. وأصلها على هذا (باب ايل) أي (باب الإله)[٢٢]. وقيل أصل اللفظة (باب ايلو)، وهو إله لقدماء السـاميين. وهو المُسَـمَى آشـور أيضًا. وإلى غير ذلك من الأقاويل المبنية على ما تحتمله اللفظة من التفسير والتأويل[٢٣].

وذهب (انسـتاس مـاري الكرملي) إلى القـول: (هي مدينة كانت واقعـة على الفرات لم تكن ذات شـأن في مدن القطر اسـمها (بابل ايلو)، ومعناها (بابل الآلهة). وهي التي نحت منها العبريون اسم بابل، فصحفها اليونان وقالوا (بابلون)[٢٤].

ومثلـما احتلـت بابل مكانة عظيمة بـين المدن، فإن إلهها المزعوم (مـردوخ) احتل مكانة عظيمة بين الآلهة. والراجح أن السـمو المتعالي الـذي أحاط بالإله المزعوم (مردوخ) لم يكن إلاَّ جانبًا من آيات المجد لمدينة بابل بوصفه رمز المدينة ورايتها[٢٥].

وقد حكم هذه السـلالة أحد عشر ملكًا، واسـتغرق حكمهم حـوالي قرنين من الزمان. فكانوا كالآتي:[٢٦]

- الملك (سمو – ايم) ١٨٣٠ – ١٨١٧ ق. م.
- الملك (سمو – لا ايلو) ١٨١٦ –١٧٨١ ق. م.

- الملك (سابيئوم) ١٧٨٠ –١٧٦٧ ق. م.
- الملك (ابل – سن) ١٧٦٦ – ١٧٤٩ ق. م.
- الملك (سن – مبلط) ١٧٤٨ – ١٧٢٩ ق.م.
- الملك (حمورابي) ١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق. م.
- الملك (شمسو – ايلونا) ١٦٨٥ – ١٦٤٨ ق. م.
- الملك (أبيشو) ١٦٤٧ – ١٦٢٠ ق. م.
- الملك (أمي – ديتانا) ١٦١٩ – ١٥٨٣ ق. م.
- الملك (أمي – صدوقا) ١٥٨٢ – ١٥٦٥ ق. م.
- الملك (شمسو – ديتانا) ١٥٦١ ١٥٣٠ ق. م.

ويبدو أن الوضع السياسي العام في البلاد كان قد خدم الملوك البابليين ومكنهم من توحيد قسم كبير من البلاد. فقد أصاب الضعف كلًا من مملكة أشنونا ومملكة ماري بسبب صراعهما مع مملكة آشور، التي بدأت قوتها العسكرية تتعاظم. في حين أن لارسا كانت قد وجدت نفسها ملزمة على مقاومة اندفاع العيلاميين الغزاة[٢٧]. حيث قامت بلاد بابل خلال تولي العرش خمسة ملوك قبل حمورابي، بفتوحات عسكرية على طول نهر دجلة. ومن المحتمل أن بابل لم تكن من أكثر المراكز الجنوبية المهمة مقارنة بمدن لارسا وآيسن. وأن صعودها إلى السلطة والصدارة بدأ في عهد والد حمورابي الملك (سن – مبلط)[٢٨].

وقد شغل مؤسس هذه السلالة (سمو – ايم) معظم سنوات حكمه الأربعة عشر في توطيد سلطته في مدينة بابل، وتقوية وسائل دفاعها وحصونها، حيث أنه شَيد سورًا للمدينة. وتمكن من ضم عدد من المدن المجاورة مثل (دلبات، وكيش، وسبار، وكزاللو). فضلًا عن جهوده في إعمار المعابد[٢٩].

أما الملك الثاني في الأسرة (سمو – لا ايلو) الذي حكم ستة وثلاثين عامًا (١٨٨٠ – ١٨٤٥ ق.م)، فإنه وأن لم يكن ابنًا لسلفه، بيد أنه يُحْتَسب المُؤَسِس الحقيقي لهذه الدولة

القويـة، والـذي بقيت ذكـراه خالدة عند خلفائه لأنـه عمر البلاد، وسـاهم بتقويتها، وصد الهجمات المعادية[٣٠]. حيث أنه قضى جزءً كبيرًا من سنوات حكمه في حروب مع الدويلات المجاورة. ومد نفوذه السـياسي إلى مدن (نفر، وآيسـن، ومراد، وكوثا). كما عمل على تقوية تحصينات مدينة بابل وسورها، وأقام المعابد ومشاريع الري فيها[٣١].

وتـولى العـرش من بعـده الملك (سـابيئوم)، الذي حكم لمـدة أربعة عـشر عامًا. ولعل تشـييد معبد بابل الشـهير (أي – سـاك – ابلا) المخصص للإله المزعوم (مـردوخ) كان من أهم إنجازاته.

ثـم خلفه ابنه الملك (ابل – سـن)، الذي حكم لمدة ثمانيـة عشر عامًا (١٨٣٠ – ١٨١٣ ق.م)، والـذي رمم أسـوار بابل. وقام بأعمال عمرانية في بابـل والمدن التابعة لها. فضلًا عن قيامه بمشاريع الري[٣٢].

ثم خلفه على عرش المملكة الملك الخامس من ملوك سـلالة بابل الأولى (سن – مبلط) والد الملك المشهور حمورابي. لقد حكم هذا العاهل لمدة عشرين عامًا، تعاظمت فيها المملكة بشكل ملحوظ. وشغل نفسه في أعمال البناء وتوطيد العاصمة. وعمل على تقوية سلطانه في المـدن التابعـة لبابل. وفي عهده انتقلت بابل من موقـف المتربص والدفاع إلى موقف الهجوم والمبـادرة. وذلـك في عـام حكمه الرابع عشر. إذ اسـتطاع أن يدحر لارسـا. كـما هاجم أور وآيسن. ومَهَّد الطريق لابنه حمورابي لاستكمال إنجازاته العسكرية ضد خصومه[٣٣].

ويمكن للباحث أن يميز في العصر البابلي القديم ما بين ثلاثة أوضاع مختلفة شهدتها هذه الحقبة الزمنية وهي:

١ – **الوضع الأول**: هذا الوضع الذي تَمَيَّز بظهور عدد من دول المدن الأمورية المسـتقلة في أرجـاء العـراق القديم. والذي يوصـف بأنه عصر الانقسـام والتجزئة، والذي أطلـق عليه بعض الباحثين (عصر آيسـن – لارسـا). والبعض الآخـر أطلق عليه (عصر دول المدن الثانية).

٢ – **الوضـع الثاني**: لقد تميز هـذا الوضع بعودة البلاد إلى واقع الدولة المركزية المُوَحَّدة،

والتي ضمت المدن العراقية كلها تحت إدارة مركزية واحدة. وقد مَثَّل الملك حمورابي المحور الرئيسي لهذه المرحلة.

٣- **الوضع الثالث**: لقد تميز هذا الوضع بوقوع الدولة البابلية القديمة تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، والذي أطلق عليه أغلب الباحثين تسمية (الحقبة المظلمة الثانية). إن تلك الأوضاع الثلاثة ستكون محور دراستنا في المباحث الآتية.

المبحث الثاني

ملامح الدولة العراقية في عصر آيسن – لارسا

أطلق الباحثون تسمية (عصر آيسن – لارسا) على الحقبة الأولى من العصر البابلي القديم، والممتدة من (٢٠٠٠ – ١٧٦٠ ق.م) نسبة إلى أهم سلالتين أموريتين حكمتا بابل في أعقاب سقوط سلالة أور الثالثة وهما سلالة آيسن وسلالة لارسا. فضلًا عن ولادة سلالات أخرى أقل شأنا مثل أشنونا وماري وآشور وغيرها.

وكانت سلالات آيسن ولارسا في حالة صراع فيما بينهما من أجل فرض الهيمنة على جنوب وادي الرافدين ووسطه. بيد أنه لم تُوَفَق أي منهما في تحقيق تلك السيطرة[٣٤]. علاوة على الصراع على مزاراتها الدينية[٣٥].

أضف إلى ذلك، أطلق الباحثون تسميات أخرى على تلك الحقبة مثل تسمية (العصر البابلي الأقدم)، وتسمية (عصر دول المدن الثاني)؛ لأنه كان عصرًا مشابهًا من حيث الوضع السياسي العام لما كان سائدًا في العهد السومري الأقدم.

سلالة آيسن

تعد سلالة آيسن أهم سلالة في العهد البابلي في مرحلته الأولى، من حيث سعة رقعتها الجغرافية، ونشاط ملوكها ومآثرهم التي خلفوها[٣٦]. وكانت في البداية رفيعة المركز، رغم كثرة أعدائها المتمثلة بمملكة لارسا، وأشنونا أيضًا التي كانت متحالفة مع العيلاميين[٣٧].

وتقع مملكة آيسن في قضاء عفك الحالي في محافظة القادسية[٣٨]. ويعد الملك (أشبي – ايرا) مؤسس هذه السلالة، والذي دام حكمه زهاء ثلاثة وثلاثين عامًا[٣٩]. حيث استغل هذا العاهل ثلاثة معطيات أساسية لنجاح مشروعه السياسي وهي:[٤٠]

١ – الارتباك السياسي الذي ساد أرجاء إمبراطورية أور الثالثة في عهد آخر ملوكها (أبي – سين).

٢- تفاقم الأزمات الاقتصادية التي اقترنت بغلاء الأسعار الملحوظ.

٣- تدفق الأقوام الأمورية من جهة الغرب باتجاه بلاد الرافدين.

ويبدو أن تلك المعطيات الثلاثة مكنت الملك (أشبي - ايرا) من الاستقلال بمدينة آيسن، التي كان قد عين حاكمًا محليًا عليها من سلالة أور الثالثة. ثم أعلن نفسه ملكًا عليها. وأقام سلالة جديدة تَوَالَى على حكمها من بعده أربعة ملوك من أسرته[٤١].

وبعد أن حدث تغير في الشريحة السياسية للعراق مع انحلال إمبراطورية أور الثالثة، والاستقلال التام لعدد من الدويلات العراقية[٤٢]. صادف بعد ذلك بمدة وجيزة أن هجم العيلاميون الغزاة على العاصمة أور ودمروها، وأسقطوا سلالتها الحاكمة[٤٣]. إن هذا الهجوم كان قد مثل فرصة مؤاتيه لاستقلال مدينة آيسن لتكون الوريثة الشرعية لسلالة أور الثالثة. وفعلًا تمكن الملك (أشبي - ايرا) من السيطرة على عدد من المدن السومرية التي كانت تابعة إلى أور. ثم توجه إلى مدينة أور نفسها وطرد الحامية العسكرية العيلامية منها، وفرض سيطرته عليها[٤٤]. وبما أن آيسن سيطرت على مدينة (نفر) بوصفها مدينة الإله القومي المزعوم (أنليل)، فقد احتسبتها وثيقة إثبات الملوك السومرية الوريث الشرعي لإمبراطورية أور الثالثة، رغم أنها لم تسيطر على بلاد بابل سيطرة كاملة أبدًا. إذ كانت تشاركها دائما في السلطة دويلات المدن الأخرى، ولا سيما مدينة لارسا في الجنوب[٤٥].

لذلك، كان مؤسس السلالة (أشبي - ايرا) يحتسب مملكته وريثة سلالة أور الثالثة. ووريثة السومريين عمومًا في ملوكية بلاد سومر وأكد. وقد تجلى ذلك في تعلق ملوك هذه السلالة بالثقافة السومرية. وسار عددًا من ملوكها على غرار ملوك أور في ألقابهم، وأسلوب حكمهم، وألقابهم، وتأليه بعضهم على غرار ملوك أور، بحيث نظمت لهم التراتيل الدينية الخاصة بهم.

كما لقبوا أنفسهم بلقب (ملك أور) أحيانًا، و(ملك سومر وأكد) أحيانًا أخرى. فضلًا عن استخدامهم اللغة السومرية كلغة رسمية إلى حد كبير[٤٦].

وكَمَلِك تبنى (أشبي - ايرا) بعض التقاليد الملكية لأسلافه في أور، ومنها، الادعاء

بالملوكية الإلهية عن طريق وضع علامة (دنكر) أي (إله) قبل اسمه. كما انتحل لنفسه ألقابًا تفرض له السيادة على البلاد كلها، مثل (ملك الجهات الأربع)، و(ملك البلاد)، وحتى (إله البلاد)[٤٧]. كما حاول أن يستعيد الأيدلوجية السومرية الملكية القديمة، ومؤسسات الدولة، والألقاب والمسؤوليات الرسمية إلى أبعد ما يمكن[٤٨].

ومع ندرة المعلومات المتوفرة عن حكم الملك (أشبي – ايرا)، بيد أنها تشير إلى أنه وخلفاؤه تمكنوا من تثبيت سلطة مدينة آيسن، ومد نفوذها إلى مناطق جديدة. كما نشطت فيها التجارة الخارجية، وَحَدَّت من الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بالبلاد في أواخر عهد سلالة أور الثالثة، والتي نشبت بسبب إهمال مشاريع الري التي تعتمد عليها الزراعة في العراق القديم[٤٩].

وعلى العموم، تأثر ملوك سلالة آيسن بالثقافة السومرية على الرغم من أنهم كانوا من أصول أمورية. فاستعملوا اللغة السومرية في تدوين مكاتباتهم الرسمية. واستنسخوا النصوص الأدبية السومرية. واستخدموا ألقاب الملوك السومريين والأكديين.

وقد استمرت سلالة آيسن بالتوسع والازدهار، ولا سيما في عهود الملوك الأربعة الذين خلفوا مؤسس السلالة. حيث عمل كل من الملك (شو – اليشو)، والملك (اشمي – دكان) على توسعة رقعة المملكة شمالًا وجنوبًا إلى أن سيطرت على نصف بلاد سومر وأكد تقريبًا[٥٠].

ويعد الملك (لبت عشتار) أهم خلفاء مؤسس السلالة، وأشهر ملوكها. الذي تولى الحكم للمدة من (١٩٣٤ – ١٩٢٤ ق.م). وتدل الشواهد على أنه كان يتمتع بميل قوي نحو العدالة الاجتماعية. ومن مظاهر هذا المنحى ادعاؤه بأنه (أوجد العدالة). ويشير هذا الادعاء إلى إلغاء الأوامر الملكية المتعلقة ببعض الديون التي كانت تكره النبلاء على بيع أنفسهم أو عوائلهم بيع العبيد[٥١].

وكان الملك (لبت عشتار) واحدًا من الحكام القلائل الذين نشروا مجموعة من القوانين التي عرفت باسمه (قوانين لبت عشتار) التي تتكون من ثلاثة أجزاء، هي المقدمة،

والنصوص القانونية، والخاتمة. وهي قوانين مكتوبة باللغة السومرية، والتي لم يتبق منها سوى النصف تقريبًا[٥٢].

وبعد الملك (لبت عشتار) تولى العرش الملك (أور ننورتا) للمدة من (١٩٢٤ - ١٨٩٦ ق.م) والذي لم يكن من العائلة الحاكمة. وقد ادعى هذا العاهل السيطرة على أور. وتم العثور على تراتيل تنعته بالقوة والصرامة. وبأنه ملك مُؤَلَّه. وعُرِضَت عليه جريمة قتل أحالها إلى مجلس شعب مدينة نفر. أن هذا السلوك السياسي إنما يدل على أن الحق كان قد أخذ مجراه دون تدخل من السلطة التنفيذية.

وكان خليفته (ايرا - ايمتي)، الذي حكم المدة من (١٨٧٠ - ١٨٦٤ ق.م). حيث وقع في عهده حدث غريب لا تُعْرَف تفاصيله على وجه الدقة. فقد تم اختيار ملك بديل له حسب العادة المعروفة آنذاك، التي تقتضي اختيار ملك بديل عندما يكون الملك الحقيقي محفوف بالخطر حسب تقديرات العرافين ليحكم مدة معينة ريثما يزول الخطر. وعندئذ يحكم الملك البديل عوضًا عن الملك الأصيل. وقد تم اختيار البستاني (أنليل باني) ليكون الملك البديل. ولعل مفارقة موت الملك الحقيقي (ايرا - ايمتي) إبان هذه المرحلة الانتقالية، كان قد أفضى إلى أن يكون الملك البديل (أنليل باني) ملكًا أصيلًا بدلًا منه للمدة من (١٨٦٤ - ١٨٤١ ق.م)[٥٣].

ويبدو أن الملوك الثلاثة الذين تولوا العرش بعد الملك (أنليل باني) لا تربطهم مع بعضهم صلة قرابة. مما يدل على اضطراب داخلي عانت منه الدولة والسلالة على حد سواء. لذلك تمكن ملك لارسا (ريم - سين) من ضم مملكة آيسن إلى مملكته بسهولة[٥٤]. وبذلك أثبتت سلالة لارسا أنها الخصم الجنوبي الأكثر بقاءً[٥٥]. وهذا ما سنعرج عليه في المحور الآتي.

سلالة لارسا

تأسست هذه السلالة الأمورية في العهد البابلي القديم، على إثر هجرات القبائل الأمورية. والتي نجحت في تأسيس سلالة حاكمة في مدينة لارسا الواقعة غرب مدينة

الناصرية الحالية على يد مؤسسها الملك (نبلانم)، والذي كان شيخًا لإحدى القبائل الأمورية. وقد حكم هذا العاهل مملكة لارسا للمدة من (٢٠٢٥ - ١٩٠٦ ق.م). لتصبح مملكة لا تقل شأنًا عن مملكة آيسن[٥٦].

وحكم من سلالة لارسا أربعة عشر ملكًا. وقد بدأت كفتها ترجح على مملكة آيسن في عهد ملكها الخامس (كنكونم)، الذي حكم المدة من (١٩٣٠ - ١٩٢٤ ق.م) وكان معاصرًا لحكم ملك سلالة آيسن الملك (لبت عشتار)، والذي يعد أقوى الخصوم الذين وقفوا بوجه مملكة آيسن، والتي كانت، حتى ذلك الحين، تتمتع بتفوق سياسي كبير في البلاد.

وبسقوط سلالة آيسن على يد سلالة لارسا، أصبح الجو السياسي مهيأ أكثر من أي وقت مضى، لزحف حمورابي على لارسا. فكانت تلك خطوة مهمة لتحقيق سيطرته الكاملة على بلاد الرافدين.

سلالة أشنونا

قامت سلالة أمورية أخرى في مثلث الأراضي الخصبة الواقعة ما بين نهر دجلة ونهر ديالى وصولًا إلى سفوح زاجروس شرقًا[٥٧]. وقد أُطْلِق عليها في النصوص المسمارية (مملكة أشنونا) نسبة إلى عاصمتها مدينة أشنونا (تل أسمر حاليًا)[٥٨]. وهي أولى الولايات التي انفصلت عن إمبراطورية أور الثالثة في عهد آخر ملوكها (أبي - سين). وذلك في حدود عام ٢٠٢٨ ق. م. فأخذت أشنونا تستبدل التقويم السومري بتقويمها الخاص، وتستبدل أسماء الأشهُر والحوادث المعتمدة بتقويم خاص بها[٥٩].

ثم امتد نفوذها، فشمل عددًا من المدن الواقعة ما بين بغداد وديالى. حيث تم الكشف عن عدد من المدن والمراكز الإدارية الصغيرة في أطراف بغداد كانت تابعة لمملكة أشنونا منها (تل حرمل) و(تل الضباعي) و(خفاجي). وكانت تل حرمل قديمًا مركزًا إداريًا هامًا للمملكة بعد استقلالها في أواخر عهد سلالة أور الثالثة. وقد عُثِر فيها على ألواح تتضمن نواحي من المعرفة والتشريعات[٦٠].

وقد لعبت أشنونا دورًا كبيرًا في ذلك الحين. إذ كانت بلدة ثرية لاستحواذها على

أراضٍ خصبة تغذيها شبكة من القنوات الإروائية وفروع الأنهار إلى جانب موقعها الجغرافي المتوسط، والذي كان له الأثر الأكبر في ازدهارها[٦١].

ويبدو أن موقع مملكة أشنونا الجغرافي جعل تأثيرات حضارة وادي الرافدين تلتقي بالتأثيرات الثقافية الآتية من الجهات الأخرى. حيث أنها كانت مجاورة لبلاد عيلام وبلاد آشور وبلاد أكد في الوسط مما جعلها ذات أهمية خاصة في تاريخ وحضارة وادي الرافدين. بالإضافة إلى تأثرها الحضاري والاقتصادي من الجهات الشمالية، والشرقية، وبلاد سومر وأكد من الجنوب. لذلك تميزت حضارة تلك المملكة بخصائص محلية تارة، وإقليمية تارة أخرى. ولعل ذلك يبدو واضحًا من أسماء بعض آلهتهم، وأسماء ملوكها، وحكامها، ومعابدها. مع ذلك بقيت تحتفظ بالسمات العامة التي اتصفت بها الحضارة العراقية القديمة.

ولمملكة أشنونا أهمية خاصة، حيث أسفرت التنقيبات عن الكشف عن آلاف الرقم الطينية ذات الأهمية، من بينها لوحين سُجِل عليهما نسختان من قانون سبق قانون حمورابي بما يقرب من ثمانين عامًا. وقد أُطْلِق عليه (قانون أشنونا) لعدم معرفة اسم الملك الذي أصدره. وقد ضم القانون المذكور، والمدون باللغة الأكدية، ما يقرب من ستين مادة قانونية. ويعد هذا القانون على درجة كبيرة من الأهمية لأنه تضمن موادًا كانت قد مَثَّلت الأساس الذي قام عليه قانون حمورابي فيما بعد[٦٢].

إن أول حاكم استقل بمدينة أشنونا كان (ايلشو – ايليا) في حدود عام ٢٠٢٥ ق.م. وقد بلغت مملكة أشنونا في الحقبة الأولى من استقلالها مستوى ملحوظًا من الازدهار السياسي والاقتصادي.

والمرجح أنه كان قد حكم المملكة عددًا من الملوك وهم:

١ – الملك ايليشو – ايليا.

٢ – الملك نور – آخم.

٣ – الملك كير بكيرى.

٤ – الملك بلالاما.

ويبـدو أنـه قد حلت حقبة مظلمة على هذه المملكة ما بعد حكم الملك (بلالاما). حيث أنها وقعت تحت نفوذ (آيسن) تارة، وتحت نفوذ ملك (دير) تارة، وتحت سلطة (كيش) تارة أخرى. إلى أن ظهر فيها سلسلة جديدة من الملوك كان أولهم الملك (ابق – ادد الثاني). وذلك في حدود عام ١٨٥٠ ق. م. فاستعادت المملكة في عهده استقلالها وازدهارها.

وخلفه ابنه الملك (نرام – سـين)، الذي وَسَّـع نفوذ المملكة إلى الفرات الأوسـط غربًا، وإلى مدينة آشور شمالًا. ولقب نفسه (ملك بلاد آشور).

ثم تولى العرش من بعده الملك (دادوشـا). وكان ملكًا قويًا طموحًا في مجال الفتوحات الخارجيـة. حيـث أنـه شـن الحرب عـلى مدينـة ماري. وأسـهم في إنهـاء الحكم الآشـوري فيها[٦٣].

وقد بدأت ملامح سـقوط تلك السـلالة تلوح في الأفق، عندما أخذت تدخل في دائرة الـصراع والتنافـس المحتدم ما بـين دويلات المدن العراقية القديمة، ولا سـيما في عهد الملك حمـورابي. حيث كانت تنظـم أحيانًا إلى الحلف المضاد إلى حمـورابي، وأحيانًا أخرى تتحالف مع حمورابي تبعًا لتطور الأحداث السياسية التي تتزامن مع توازن القوى.

مـع ذلـك فإن طموحات حمورابي وسياسـاته الهادفة إلى تأسـيس دولـة مركزية واحدة تضم دويلات المدن القائمة كلها، كان قد حد من قوة أشنونا وغيرها من الدويلات القائمة آنذاك، إلى أن تمكن الملك حمورابي من القضاء على سـلالتها الحاكمة في أشـنونا، وضمها إلى حدود مملكته المتنامية[٦٤].

سلالات أخرى

لقد شهد العهد البابلي القديم مجموعة أخرى من السلالات الحاكمة، بيد أنها لم تكن لها أهمية كبيرة، ربما للأسباب الآتية:

١ – أغلـب تلك السـلالات كانت عبارة عن مشـيخات أو إمارات صغـيرة، لم تتجاوز حدود منطقة صغيرة كحد أدنى، أو المدينة التي اتخذتها مركزًا للحكم كحد أقصى.

٢- كما أن تلك السلالات لم تعمر زمنًا طويلًا. حيث أنه لم يقم منها إلاَّ عدد محدود من الحكام، بحيث لم يتجاوز، في بعض الحالات، الملك الواحد أو الملكين كحد أقصى.

٣- أضف إلى ذلك، يلاحظ أن هناك تفاوت في زمن تأسيسها. فبعضها تأسس في الطور الأول من العصر البابلي القديم من هجرات الأموريين الأوائل. وظهر بعضها الآخر أثناء الهجرات اللاحقة لهؤلاء الأقوام.

ولعل أبرز تلك السلالات، كانت (سلالة ماري) و(سلالة آشور). وفي عام ١٩٠٠ ق.م تكونت في بابل سلالة جديدة كانت مقرًا لملكها السادس حمورابي الذي تمكن من إعادة تكوين الهيكل السياسي كله للعراق القديم(٦٥).

وتقع مملكة ماري على ضفة تل الحريري قرب البوكمال على نهر الفرات. وبحكم موقعها على الطريق التجاري الرابط ما بين العراق وبلاد الشام، فإنها أصبحت تمثل مركزًا تجاريًا هامًا ذات علاقة مع كل المدن الجنوبية ومصادر المواد الخام في بلاد الأناضول.

وقد ازدهرت فيها الحضارة منذ عصر فجر السلالات كما بينت ذلك التنقيبات الأثرية التي أجريت فيها. ثم دخلت ضمن الأقاليم التابعة للدولة الأكدية، ومن بعدها أصبحت جزءً من إمبراطورية أور الثالثة.

وكانت منطقة ماري من المناطق الأولى التي شهدت هجرة الأقوام الأمورية إليها، واستقرارها فيها. وبعد أن إنهارت سلالة أور الثالثة، استقلت ماري كغيرها من المدن العراقية القديمة. وأقامت لها سلالة محلية مستقلة امتد نفوذها على طول نهر الفرات والخابور وشملت منطقة عانة أيضًا. وفي هذه المدة الزمنية قامت سلالة أمورية قوية في آشور، التي استغلت فرصة اغتيال ملك ماري على إثر مؤامرة داخلية، وضمتها إلى حدود مملكتها. وذلك في عهد ملكها (شمشي - أدد)، الذي نصب ابنه الأصغر نائبًا له على ماري.

وبعد وفاة الملك (شمشي - أدد) استقلت ماري مرة أخرى، وعاد إليها ملكها الذي كان قد لجأ إلى إحدى الممالك السورية.

وحاولت ماري المحافظة على استقلالها عن طريق دخولها دائرة الصراع ما بين دويلات المدن العراقية تارة، أو عن طريق دخولها في تحالفات حسب توازن القوى، بيد أن تعاظم قوة الملك حمورابي بعد أن ضم إلى حدود مملكته لارسا وأشنونا وآشور حال دون بقاء ماري مملكة مستقلة. فوقعت هي الأخرى تحت سلطة الملك حمورابي، لتصبح جزءً من مملكته القوية.

وقد كشفت رسائل ماري عن بعض الملوك المجهولين الجزريين (الساميين). كما قدمت صورة واضحة عن الإدارة العامة والعلاقات الشخصية بين العوائل الحاكمة[٦٦].

أضف إلى ذلك، قامت سلالات حاكمة أخرى أقل شأنًا منها مثل (سلالة دير) ومركزها مدينة دير، و(سلالة الوركاء)، و(سلالة كيش)، و(سلالة سبار). وغيرها من السلالات الصغيرة[٦٧].

المبحث الثالث

ملامح الدولة العراقية في عهد حمورابي

ذهب بعض الباحثين إلى احتساب اسم حمورابي مركب من كلمتين هما (حمو)، والذي يعني اسم إله سامي من الآلهة الشمسية. وكلمة (رابي) تعني عظيم أو كبير[٦٨]. وبذلك يصبح المعنى الاجمالي لاسمه (إله عظيم) أو (إله كبير).

بينما ذهب قاموس الكتاب المقدس إلى احتساب اسم حمورابي اسم أكادي يعني (الرب أمو عظيم). وحمورابي هو اسم ذلك المحارب الشهير الذي أقام الكثير من المنشآت والمباني. كما أنه صاحب القوانين التي عُرِفَت باسمه، والذي حكم بابل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد[٦٩].

ومن حيث النسب، فإن حمورابي بن سن – مبلط بن أبل – سين بن سابيئوم بن سومو لائيل من عشيرة أمنانوم إحدى عشائر قبيلة (بني اليمين)[٧٠].

ويحظى حمورابي بمكانة رفيعة في بلاد الرافدين. لذلك احتسبه الدكتور فوزي رشيد واحدًا (من أبرع الشخصيات في تاريخ العالم كله. وأعظم الشخصيات التي حكمت بلاد ما بين النهرين). وقد أسس قناعته تلك على الوقائع الآتية: (أن الإنتصار على أربعة ملوك أقوياء، وتوحيد وادي الرافدين يكفيان، بحد ذاتهما، كمنجزين عظيمين لتمييز حمورابي كواحد من أعظم ملوك وادي الرافدين)[٧١].

ولخص الباحث (طراد الكبيسي) عظمة حمورابي في جانبين أساسيين هما:[٧٢]

١ – تمكنه من توحيد بلاد وادي الرافدين، وحمايتها من الأعداء الخارجيين.

٢ – الظهور بمظهر الملك العادل الراعي لشعبه، والباعث الخير في بلده.

في حين وصفه (أنستاس ماري الكرملي) بقوله: أنه (أكبر مشترعي بلاد شنعار في التاريخ، وبه دخلت البلاد مرة أخرى تحت جناحي ملك واحد، بعد أن أصبحت كتلة واحدة عجنتها يداه)[٧٣]. ووصفه الباحث (أحمد ربيع عبد المنعم) بأنه قد (جُمِعَت في شخصيته خصالًا فذة جعلت منه قائدًا سياسيًا ومصلحًا ومشرعًا)[٧٤].

ولعل الملك حمورابي يعد أول مَنْ تُرْوَى أخباره عن يقين، بحكم كتاباته على الآثار. حيث كان معظم جهده مُنْصَبًّا نحو تشييد المباني واتخاذ الهياكل والقصور[٧٥]. وقد سلطت عليه الأضواء أكثر من أي وقت مضى، عندما اكتشف علماء الآثار المسلَّة الحجرية التي تسمى (مسلَّة حمورابي) عامي ١٩٠١- ١٩٠٢.

وقد اعتلى حمورابي عرش بابل لمدة ٤٢ عامًا (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م). وكان تسلسله السادس في سلالة بابل القديمة، في ظل ظروف صعبة للغاية. لعل أبرز معالمها ما يأتي:

١- كانت بابل في بداية عهده لا تُمَثِّل سوى مملكة صغيرة، قليلة الشأن. حيث أنه ورث من أبيه مملكة صغيرة نوعًا ما لا تتجاوز مساحتها ١٢٨ كم طولًا، وحوالي ٤٠ كم عرضًا. وتمتد من مدينة سبار شمالًا إلى مدينة (مرد) جنوبًا. أي إلى حدود مدينة الديوانية الحالية تقريبًا[٧٦]. وحتى هذه المساحة الضئيلة لم تكن محكمة النسج. إنما كانت عرضة للتقلص من جهاتها كلها، وللهجمات الخارجية من كل صوب[٧٧].

٢- وعندما استلم الحكم كانت بلاد الرافدين محكومة من سلالات متعددة تتنازع على السلطة فيما بينها. منها سلالة آيسن، وسلالة لارسا، وسلالة أشنونا، وسلالة ماري، وسلالة آشور وغيرها[٧٨].

لذلك يمكن القول، أنه جاء للحكم في أصعب العهود السياسية في تاريخ العراق القديم. ففي الشمال كان الملك الآشوري القوي (شمشي أدد الأول) ومملكة ماري. وفي الشرق مملكة أشنونا. لذلك تجنب كل ما من شأنه الاصطدام مع القوى المحيطة به، وانصرف إلى تقوية جبهته الداخلية[٧٩].

مع كل تلك الظروف الصعبة، بيد أن طموح حمورابي وقدراته، كانت قد رفعت من شأن بابل تدريجيًا، حتى غدت عاصمة لأكبر دولة في المنطقة. وقد عمل حمورابي في سنوات حكمه الأولى على بناء قوته العسكرية، وتنظيم جهازه الإداري. ثم بدأ التعرض للدويلات المجاورة من أجل الشروع في إنجاز أهدافه بعيدة المدى[٨٠]. بيد أن قوة الممالك المعاصرة حالت دون ذلك. وكانت التحالفات بين بعض الممالك ضد البعض الآخر تُعْقَد

مـن أجـل المحافظة على توازن القوى. وغالبًا ما نجـد مملكة معينة تنضم إلى هذا الحلف، ثم بعد مدة تنسحب منه لتنضم إلى الحلف المضاد، وحسب تَطَوُّر الأحداث السياسية وموازين القوى[٨١].

وعندمـا اطمـأن حمورابي، منذ عـام حكمه الثلاثين، إلى متانة موقفـه الداخلي، تفرغ إلى توحيد دويلات المدن العراقية المتعددة. مما يدل على نشـوب عمليات حربية مهدت الطريق للحملة الكبرى، التي قام بها في سـنة حكمه الحادية والثلاثين، والتي احتل فيها (ياموت – بالو) شرقي دجلة، وأسر الملك (ارم – سين) حاكم لارسا الشهير. ثم سحق جيوش أشنونا ومـاري وضمهما إلى مملكته[٨٢]. حيث آمن حمورابي بـضرورة القضاء على الذين لا يرغبون بوحدة البلاد[٨٣].

وعـلى أي حـال، ليس هنـاك من شـك، في أن حمورابي قد نجـح نجاحًا بعيـد المدى في السـيطرة على بلاد الرافدين كلها. لذلك أطلق على نفسـه ألقابًا متعددة منها (الملك القوي: ملك بابل، ملك كل بلاد أمورو، وملك سومر وأكد، وملك الجهات الأربع)[٨٤]. حتى بدا وكأن إمبراطوريـة سرجون الأكـدي قد عادت من جديد. والراجـح أن وراء ذلك النجاح تنظيمًا دقيقًا، وقيادة سليمة لرجل قوي ومحنك.

ويبـدو أن الظروف قد سـاعدت حمـورابي على إنجاز هدفه. حيث تحطـم الطوق الذي كان مفروضًـا عليـه. إذ بـدأ الحظ يخدمه في إزاحـة أقوى أعدائه الملك (شـمشي أدد الأول) الـذي كان مهيمنًـا على البلاد، والذي كان يمسـك بزمام الحلف القـوي المناوئ لحمورابي. وكان نفـوذه في زمـن حمورابي يمتد حتى شـمالي مدينة بابل بقليل. وكان قـد أحاط حمورابي بطوق قوي من التحالفات المكونة من سلالات متعددة (ماري، أشنونا، لارسا، عيلام).

فلما توفي هذا العاهل القوي خلفه ابنه (أشمي داكان)، الذي لم يتمكن من مسك مكانة أبيه في الحكم وفي قيادة التحالف الذي كان والده قد شـكله ضد بابل. فاسـتغل (ريمسـن) تلك الظروف فسيطر على هذا التحالف بمعونة العيلاميين. وأخذ يشن الهجمات على بابل. فما كان من الملك حمورابي إلاَّ أن يشـتبك معه في معركة عنيفة في السـنة الحادية والثلاثين من حكمه، فدحره، واقتاده أسيرًا إلى بابل. وبذلك استولى حمورابي على العراق كله[٨٥].

ثم واصلت القوات البابلية انتصاراتها فيما يليها من أرض عيلام، وسيطرت على أجزاء منها. ومد نفوذها إلى بلاد سوريا، وسيطرت قواته على مراكز الأموريين فيها. كما خضعت له المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية من العراق[٨٦]. وبذلك، غدت بابل، ومنذ عام حكمه الثامن والثلاثين، عاصمة لبلاد واسعة، امتدت من بلاد سوريا حتى الخليج العربي.

وعلى هذا الأساس، أصبح حمورابي حاكمًا أوتوقراطيًا مطلقًا. وهذا ما نلمسه في خاتمة مسلته القانونية. حيث وصف نفسه بأنه (الملك الكفء)، و(الملك الكامل)، و(الملك البارز بين الملوك)، و(كلماتي هي المختارة، وقدرتي ليس لها مثيل)، و(أنا ملك العدالة)[٨٧].

و قد بدأ الملك حمورابي عهده بإعادة تخطيط عاصمته بابل على نحو غير مسبوق في تاريخ البلاد. بحيث انطفأت أمام بهائها وفخامتها العواصم الأخرى كلها. وأصبحت حديث الأمم والشعوب وموضع إعجابهم. بل تسربت عظمتها إلى الأساطير، وأصبحت المدينة الساحرة والخرافية والهائلة. ومنطلق الخير والشر، وبؤرة العمار والدمار في الوقت نفسه[٨٨]. وغدت بابل حاضرة الشرق الثقافية بشوارعها الفسيحة المنظمة تنظيمًا حضاريًا جميلًا، وبأحيائها السكنية المهمة، التي من أشهرها (حي الدبلوماسيين)، الذي يلتقي فيه سفراء العالم من كل صوب للتعرف على ثقافة وفنون البلاد. فضلًا عن التداول في الشؤون السياسية. وأصبحت اللغة البابلية المدونة بالخط المسماري لغة المراسلات الدبلوماسية بين عواصم العالم[٨٩]. وكانت مدينة بابل مبنية على جانبي نهر الفرات. وكانت بيوتها ترتفع إلى دورين أو ثلاثة أو أربعة، وشوارعها كانت مستقيمة[٩٠].

والراجح أن الملك حمورابي كان يدرك أهمية (المدينة النواة) كمركز عضوي للفعاليات السياسية والاقتصادية. وقد ركزت تطبيقات علم الآثار في بلاد الرافدين على موضوعة المدن الحضرية الأوائل، التي تحولت بالتعاقب إلى مراكز (نواة) إمبراطورية. فالتنقيبات التي جرت في مدن النمرود، ونينوى، وآشور، وأور، كشفت عن مدن نواة مركزية لإمبراطوريات عتيقة. وقد عثر المنقبون على آثار ضخمة اشتملت على قصور ومعابد نخبة المجتمع، وهي مبان صُمِمَت وأُنْشِأَت كمظهر عضوي لتبرز تفوقه الإداري والعسكري والفكري[٩١].

ويبدو أن تأسيس عاصمة إمبراطورية مثل بابل، قد صبت في تثبيت السلطة والهوية المتميزة لحاكم بعينه. وهي عملية توصف على أنها قمة أعمال الملك حمورابي.

ومن المحتمل، أن يكون الانتظام ما بين النواة والضواحي قد كَوَّن الشكل السائد في الإمبراطورية البابلية القديمة. وبمجرد توسع الإمبراطورية، فإن إدارة المركز للضواحي سيتحقق بواسطة السيطرة العسكرية والإدارية والتفاعلات الاقتصادية المنتظمة، علاوة على القوة الفكرية المبدئية[٩٢].

وقد تمكن الملك حمورابي من القضاء على الدويلات العراقية الصغيرة واحدة تلو الأخرى. وتَفَرَّد في نهاية المطاف، بزعامة البلاد وتوحيدها[٩٣]. **وذلك لأسباب عديدة لعل أهمها ما يأتي:**

١ – لقد تم ذلك كله، بفضل بعض العوامل. لعل في طليعتها ضعف الطبقة الحاكمة السومرية. أن هذه الطبقة الحاكمة كانت قد وجدت طريقها إلى الزوال الكلي بسهولة بفعل الضربات التي وجهها لهم الأموريون والعيلاميون. يضاف إلى هذا، أن الإمبراطورية الأكدية التي أصبحت في عهد الملك سرجون الإقليم الزراعي الرئيسي، كانت قد خضعت للمعاناة المادية بشكل أقل مما خضع له الإقليم السومري. كما أن الغزو الأموري، كان قد تم بشكل متدرج. وكان سكان أكد قد ارتبطوا بالأموريين بشكل من أشكال القرابة بقدر ما كانوا من أصل واحد، ويتكلمون اللغة نفسها، ويعبدون الآلهة نفسها، ويتشابهون بالعادات والتقاليد. أن ذلك كله كان قد سَهَّل من امتداد سلطة الملوك البابليين إلى هذه الأصقاع[٩٤]، بما فيهم الملك حمورابي.

٢ – لقد تَمَكَّن حمورابي من توحيد بلاد الرافدين كلها، بفعل ما تميز به من سمات شخصية مميزة في إدارة الدولة وتنظيمها. وبفعل براعته في الحرب والإدارة، وبفعل قدراته القيادية المتعددة الجوانب. حيث تَمَكَّن من إسقاط السلطة السياسية للممالك الأمورية الصغيرة المنتشرة في بلاد الرافدين واحدة تلو الأخرى. ليعلن في نهاية حكمه وحدة البلاد السياسية. بل أنه تَمَكَّن من مد نفوذه إلى أجزاء من بلاد الشام، ووسع سيطرته إلى الخليج العربي[٩٥].

و لعل شريعة حمورابي كانت قد كشفت جانبًا من شخصيته بشكل واضح. إذ وصفته بأنه (الأمير التقِي الذي يخشى الإله). والشجاع (البطل حامي بلاد لارسا)، و(الحامي للبلاد الذي جمع شمل سكان مدينة آيسن المشردين)، والعادل (الذي ساعد على إظهار الحق، الذي يقود الشعب في الطريق المستقيم)، والمنصور (والمنتصر على المشاغبين)، والمحبوب الذي أرسلته العناية الإلهية (لقيادة سكان البلاد في الطريق السوي).

و هكذا كان اختيار حمورابي (الأمير اللامع)، و(السيد الذي أشبه بالأب الحقيقي للشعب)، قد تم بناء على تقدير خصائص وأبعاد نموذجية وعناصر استثنائية في شخصيته. إذ هو الذي حمل الشعب في أحضانه، وخصهم بحمايته ورعايته، وحماهم بحكمته وسياسته، وشملهم بعدالته، ووحدهم تحت رعايته. وصد عنهم كيد المشاغبين والطامعين بشجاعته وحنكته (وفي أحضاني حملت شعب بلاد سومر وأكد. وقد نعموا بحمايتي، وسايستهم بسلام، وحميتهم بحكمتي العميقة لكي لا يظلم القوي الضعيف، ولكي ترعى العدالة اليتيم والأرملة)[٩٦].

أضف إلى ذلك، كان حمورابي دبلوماسيًا ماهرًا. إذ هناك مئات الرسائل من مستشاريه تُبيِّن كم كان ودودًا في مراسلاته. وتُبيِّن مقدار العناية التفصيلية التي أولاها لإدارة مملكته.

لقد جعلت ثلاثة عقود من الدبلوماسية الماهرة والسياسة الحكيمة من حمورابي أعظم قوة في بلاد الرافدين. فأنطلق يتوسع توسعًا هامًا[٩٧].

٣ – وأضاف حمورابي إلى دبلوماسيته خصلة ثمينة أخرى وهي استراتيجية الصبر وحسن التدبير السياسي والتخطيط الاستراتيجي. إذ أنه بالرغم من طموحاته الكبيرة بيد أنه لم يندفع بشكل غير مخطط لإنجازها. ويمكن إيجاز أهدافه بما يأتي:

أ – العمل على تثبيت دعائم حكمه.

ب– السعي إلى توحيد العراق سياسيًا، وضمان حدود آمنة له يسهل الدفاع عنها.

ج – القضاء على الرؤوس الحاكمة المعاصرة له داخل بلاد الرافدين.

د – الحد من النفوذ العيلامي في جنوب العراق.

و – ومن ثم تثبيت دعائم هذا الإنجاز السياسي واستكماله من النواحي السياسية والإدارية والقانونية والاجتماعية والثقافية والدينية[٩٨].

ولتحقيق تلك الأهداف، لجأ حمورابي إلى استراتيجية الصبر. حيث أبقى البلاد مُجَزأة بين زعامات متعددة. وحافظ خلال سنوات حكمه الثلاثين الأولى على علاقات طيبة مع ملوك كل من أشنونا، ولارسا، وماري، رغم حدوث بعض الاحتكاكات الظرفية التي كانت تحدث أحيانًا[٩٩]. وقد تجنب كل ما من شأنه الاصطدام مع القوى الخارجية المحيطة به[١٠٠]. وأمضى سنوات حكمه الأولى في تقوية البلاد بإقامة الحصون، وبناء الجيش، وتنظيم الإدارة، وإقامة المشاريع العمرانية المختلفة، ووضع الخطط الدقيقة لإدارة مقاطعاته إدارة مركزية[١٠١]. وكان حارسًا حريصًا على إدارة بلاده. وتشهد على ذلك، رسائله التي أنفذها إلى الضباط الملكيين وعماله الذين كانوا في جنوبي المملكة، والتي تظهر حرصه على إسقاء الأراضي وإروائها لأن حياة السكان وعمرانهم متوقف عليها[١٠٢].

وعندما اطمأن إلى متانة وضعه الداخلي بدأ بخطوات توحيد البلاد منذ عام حكمه الحادي والثلاثين، إلى أن آلت إليه بعد ذلك السيادة الكاملة على بلاد الرافدين، ولم يعد ينازعه أحد على الإطلاق.

٤ – وقد ساعده تنامي الشعور الوطني البابلي، في إنجاز أهدافه. إذ يلاحظ تنامي هذا الشعور الوطني كلما تنامت الحضارة البابلية، التي تمكنت من امتصاص كل المخلفات الحضارية التي كانت قائمة من قبل في بوتقة الوطنية البابلية، لتبلغ قمة التطور الاقتصادي والسياسي[١٠٣].

٥ – كما نجح حمورابي في إنجاز أهدافه، لأنه أولى الإنسان جُل اهتمامه. فعالج إشكالاته المادية والروحية على حد سواء. فكانت شريعته القانونية بمثابة وسيلة لتحقيق طمأنينة الإنسان، ورسم حدود حقوقه وواجباته في كل ما يتعلق بحياته الخاصة والعامة[١٠٤].

وفي الميدان الاقتصادي للإنسان، نظم حمورابي البلاد من جديد وأصلحها بالتوسع

في الزراعة، وشـق القنوات. حيث أقام نقشًـا كتب فيه (حمورابي فيض الشـعب) على ضفة أهم هذه القنوات[١٠٥]. لذلك قال عنه (أدي شـير) رئيس أسـاقفة سـعرد ما يأتي: (فبلغت المملكة بأيامه أعظم مبلغ من الثروة والترف وتنامى حالها في المعارف والفنون)[١٠٦].

٦- أضـف إلى ذلـك، اسـتفاد حمـورابي في إنجاز أهدافه مـن العاصمة بابـل، التي تقع وسـط العراق تقريبًا، ووسـط المناطق التي يتركز فيها العمران والسـكان إلى جانب منعتها الجغرافيـة[١٠٧]. إذ أن بابـل، التـي كانـت تمثـل مدينة صغيرة قليلـة الأهمية في عهـد الملوك الأموريـين الأوائـل، كانـت قد أصبحـت، فيما بعـد، مركـزًا تجاريًـا وثقافيًا وسياسـيًا مهمًا في عهـد حمـورابي. واسـتطاعت أن تحافظ على دورهـا القائد في بلاد الرافديـن حتى العصر الهيليني[١٠٨].

وربـما أسـهمت العوامل الطبيعيـة في نهوض بابل. إذ أنـه عند نهاية الألفيـة الثالثة قبل الميلاد تقريبًا، تغير مجرى الفرات، الذي كانت قناته الرئيسـة تشـق طريقها وسط البلاد عند مدينـة نفـر باتجاه الـشرق، فصارت بابل في الطرف الشـمالي لمجـرى قناة الفرات الرئيسـية. وهـذا التحول أضفى على بابل أهمية متزايدة تجاريًا وعسـكريًا معًا[١٠٩]. كما أن طريقة الري الفعالـة لـلأراضي الصالحة للزراعة في بابل وما جاورهـا زاد من أهميتها، خصوصًا أنها تقع عـلى الفرات. وهو من الأنهار الصالحـة للملاحة، الأمر الذي عاد بفائدة كبيرة على التجارة والملاحة في آن واحد[١١٠].

لذلك، بلغت بابل ذروة مجدها في عصر حمورابي. حيث وصفها (هيرودتس) بأنها مدينة تقع في سـهل عظيم خصيب مربع الشكل[١١١]. واشتهرت بابل، منذ ذلك الحين، بفخامتها وحسن رونقها[١١٢]. حيث كانت هذه المملكة معمورة بالمدائن الكبيرة، والأسـوار الحصينة، والقصور الرفيعة، والهياكل الشامخة، والأبنية المشهورة حتى كانت تُسَمَى (سيدة الممالك)[١١٣].

و أصبحـت بابـل مَجْمَعًا لأمم من الناس، وأجيال شـتى، قد تباينت من حيث الأصول الاجتماعية والعادات. بدلالة ما نص عليه العهد القديم بقوله: (وهتف مناد بصوت شديد قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة)[١١٤]. وتحولت بابل إلى عاصمة للحضارة وللفنون

فيما يشبه (المدينة الفاضلة). حيث كان بمقدور من أختلف على شيء مراجعة الشريعة المعروضة في معبد الإله المزعوم (مردوخ) وسط العاصمة. وكان بمقدور أي مواطن أن يرفع شكواه إلى الملك مباشرة، ويعرض عليه الظلم الذي تعرض له، أو الغبن الذي لحق به. والملك كان يبادر إلى دراسة تلك الشكاوى شخصيًا، ويصدر أوامره فيها[١١٥].

وبناء على ذلك، تمكن الملك حمورابي من تحقيق الوحدة السياسية العراقية ضمن حدود آمنة يسهل الدفاع عنها. ومن أجل تثبيت دعائم هذا الإنجاز السياسي الكبير، عمل على استكماله من النواحي الإدارية والسياسية والدينية والقانونية والاجتماعية والثقافية. وذلك بالشكل الآتي:

أولاً: من الناحية الإدارية – السياسية

من هذه الناحية، اتبع الملك حمورابي نظامًا مركزيًا، بحيث ربط حكام الولايات والأقاليم بشخصه وبعاصمته بابل. وأشارت الرسائل التي تعود إلى عهد حمورابي بوضوح إلى حرصه على معرفة القضايا الصغيرة والكبيرة في البلاد. فضلًا عن حصر السلطة في شخصه. وجعل عماله في الولايات يستمدون أوامرهم منه شخصيًا. وتشهد نُصُب حمورابي، وللمرة الأولى، صورة واضحة للأعمال اليومية والمسؤوليات الدائمة للملك حمورابي. حيث تقدمه جالسًا في ديوانه بمدينة بابل، يملي بها أوامره إلى الحكومات المحلية في المدن البابلية التي أصبح حمورابي السيد المُطْلَق عليها[١١٦]. وقد تم العثور على مجموعتين من رسائله إلى اثنين من ولاته هما (سين – أدنام)، و(شمش – خاصر) تفيد هذا المعنى[١١٧].

وكجزء من إشاعة فلسفة الحكم المركزية القوية التي انتهجها حمورابي في إدارة شؤون الدولة، فقد سعى إلى تشكيل إدارة مركزية قوية من أجل إنجاز أمرين أساسيين هما:[١١٨]

أ – الاستمرار في مراقبة منجزات حكام المدن والأقاليم بشكل دائم.

ب – تنفيذ أوامره بشكل صارم من خلال متابعته الدائمة.

و قد تجسد ذلك بشكل واضح، من خلال الرسائل شديدة اللهجة التي كان يخاطب

بهـا ولاته. ومنها رسـالته الموجهة إلى أحـد ولاته، والتي نصت على ما يـأتي: (أنهم معك – الناس – منذ ثمانية أشهر ولم تستجب لطلبهم. اعطي وَثَبِت لهم الأراضي، وارسل لي تقريرًا بما عملت.... وفي حالة عدم تنفيذ ذلك بسرعة فسـوف لن تُسَامَح.... وكأنك اقترفت ذنبًا كبيرًا...)[١١٩].

ويبـدو أن العراقيـين كانوا قد تقبلـوا الإدارة المركزيـة المدنية الحازمة للملـك حمورابي، من أجـل التخلص مـن الفوضى وعدم الاسـتقرار الذي أعقب سـقوط سـلالة أور الثالثة. ليصبح حمورابي الحاكم المُطْلَق، وسيد بلاد الرافدين بلا منازع. وليتخذ لنفسه ألقابًا عدة منها (ملك بلاد الأموريين)، و(ملك بلاد سومر وأكد)، و(ملك الجهات الأربع)، و(الملك العظيم)[١٢٠].

وكانـت عمليـة مراقبـة واردات الدولـة، بـما فيها الضرائـب، تعد من أولويـات الملك حمورابي، حيث كان يحتسب عدم إرسال الضرائب من الجرائم التي لا تغتفر[١٢١].

ورغـم أنـه كان لكل مدينة مجلس يتكون من الذكور، مهمته البت في المسـائل القضائية الكبرى. وأحيانا كان الملك يرسل قضايا إلى هذا المجلس للبت فيها. وهناك مجلس مماثل في كل مدينة أيضًا يشارك في تسيير دفة الحكم، بيد أن نزوع الملك حمورابي نحو تجريد السلطات المحلية من اختصاصاتها كان قد اتضح من خلال الرسـائل التي أرسـلها إلى حاكم لارسـا (سـن – أبدينام). وأشـار (دلابـورت) إلى هذه المعنـى بقوله: (لقد كانت السـلطة المركزية تأخـذ بسياسـة المملكة، وتوجه عنايتهـا إلى دقائق الأمور فيها. وكانـت في مدينة بابل تنظم سـير شـؤون الدولة في طول البلاد وعرضها. لقد أصبحت وحدة الدولة أمرًا نافذًا)[١٢٢]. كـما يلاحـظ أن قوانين حمورابي لم تكن تمثـل الأوامر الإلهية الصادرة عـن الآلهة مباشرة، إنما كانت قرارات يتخذها الملك في حالات متعددة. لذلك أطلق حمورابي عليها في خاتمة مسلته (قرارات البلاد)[١٢٣].

وبذلـك، تحولـت الحكومـات المحليـة إلى مجـرد وحـدات إداريـة يرأسـها موظفـون ملكيون.

وعلى هذا الأسـاس، كانت الملكية التي اتخذت شكلها المتكامل في عهد الملك حمورابي،

أخذت تمثل ظاهرة نموذجية. إذ أصبح الملك رئيسًا أوتوقراطيًا للدولة. وكان في الوقت نفسه، يتمتع بسلطة مطلقة لأنه لم تكن هناك هيئات حكومية مستقلة عن إرادته. وكانت شرعيته تعتمد على قدرته في أن يمارس في الولايات التابعة له وظيفة الكاهن الأعظم. بالإضافة إلى ممارسته، وبشكل مُطْلَق، للسلطة التشريعية والتنفيذية والإدارية والقضائية[١٢٤].

ولتسهيل إدارة حكمه، اهتم الملك حمورابي في نظام البريد السريع، لما في ذلك من فائدة في ربط أجزاء البلاد كلها. وإيصال أوامره بالسرعة المطلوبة. وكان رسله ذوي أهمية خاصة، حيث أنهم أصبحوا ضمن إدارة جديدة يستخدم فيها الرجال العداؤون. حيث قُسِمَت الطرق إلى مراحل يقف عندها هؤلاء السعاة لإيصال ما يتسلمونه بالسرعة إلى ساعي المرحلة اللاحقة وهكذا بالتتابع. وكانوا يحملون الرسائل مغلقة ومختومة. وكان كاتم سر الملك يفض الأجوبة، ويتلوها على مسامع الملك. وبعدها يملي الملك أجوبته التي تكتب وترسل في الحال[١٢٥].

ثانيًا: من الناحية الدينية

ومن أجل توطيد دعائم الإمبراطورية المترامية الأطراف، أدرك حمورابي أهمية الدين بهذا الصدد. لذلك تعاطى مع الظاهرة الدينية وفق المستويات الآتية:

أ – أخضع قانون حمورابي رجال الدين، ولأول مرة، لأحكام القانون المدني. وقد كان القضاء والمحاكم قبل ذلك من اختصاص المعبد ورجال الدين[١٢٦]. إن حمورابي بعمله هذا، إنما يؤكد فصل القضاء عن الهيمنة الدينية، وربطه بعجلة الإدارة المدنية. لذلك لم نعد نسمع من عهده شيئًا عن محاكم الآلهة. وبذلك يكون حمورابي قد اجتهد في جعل دولته مدنية بالمقدار الذي يتسق وظروف عصره.

وهذا المنحى يفسر اضمحلال منصب (الانسي)، الذي كان يجمع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية في حكم المنطقة التي تَعْهَد إليه. وصار موظفًا يستمد أوامره من موظف آخر أقل مرتبة من الملك[١٢٧]. وبذلك حدد صلاحيات الكهنة بشكل ملفت للنظر.

وعلى هذا الأساس، أصبح حمورابي مشرفًا إشرافًا مباشرًا على رجال الدين. كما كان

لـه السـلطان الأعلى على القضاء. ولقد كان من أثر هـذا الإشراف أن وضعت أملاك المعابد تحـت رعايته المباشرة. كما كان المشرفون على أمـلاك التاج وأملاك المعابد يرفعون تقاريرهم إلى الملك مباشرة[١٢٨].

ب- كما شهد عهد حمورابي، ظاهرة تعاظم سلطة الملك، وانفصال السلطات التشريعية والتنفيذية المتمثلة بالملك عن السـلطة الدينية المتمثلة بالمعبد وطبقة الكهنة. وعلى الرغم من احتفـاظ الملـك بصفتـه الدينية بوصفه ممثـلًا عن الآلهة في حكـم البشر، بيد أنه صار السـيد المُطْلَـق عـلى أرجاء مملكتـه كلها. وبلغـت تلك الخاصية في نظـام الحكم أوجهـا إبان حكم الملك حمورابي. إذ تم نقل جميع السلطات من هيمنة المعبد إلى القصر، فأصبح صنف القضاة وشؤون المحاكم وطبيعة الحياة في معظم تفصيلاتها علمانية النزعة.

لذلـك، يمكـن احتسـاب عصر حمـورابي بمثابة عـصر الأنـوار في بنية حضـارة وادي الرافديـن، عـلى غـرار عصر الأنـوار الـذي شـهده الفكـر الأوروبي في القـرن الثامن عشر الميـلادي، الذي أزاح الكنيسـة بوصفها السـلطة المقررة لنظم المعتقدات، والوسـيط ما بين الإنسـان وربه، إلى أن تكون العلاقة ما بين الإنسـان وربه علاقة ذاتية وخاصة جدًا، يقررها نظام المعتقدات الكامن في دواخل كل إنسان على حد تعليمات مارتن لوثر[١٢٩].

ج - أن مدنيـة الدولة التي اعتمدها الملك حمـورابي، لم تحل دون توحيد البلاد عقائديًا. حيث ذهبت النصوص الدينية إلى مطابقة الكثير من المعبودات البابلية الهامة مع الإله المزعوم (مردوخ). واحتسبتها أوجهًا له. فالعاصمة بابل لابد أن يكون لها رب مزعوم هو الأسمى بين الآلهة ليتناسـب وعظمة الإمبراطورية التي صـار مركزها بابل. ومن ثم فقد انتقل الإله المزعوم (مردوخ)، إله بابل من معبود المدينة إلى مركز الصدارة. وانتحل بالتالي صفات الإله المزعوم (أنليل) المعبود السومري الأول[١٣٠].

وبذلـك، صار إلههم المزعوم مـردوخ رأس مجموعة الآلهة البابلية[١٣١]. واتخذ الصفات التي كانت، حتى ذلك الحين، خاصة بالآلهة السومرية القديمة.

ومثلـما عظم شـأن الملك حمـورابي بين الملـوك، فقد عَظُمَـت أيضًا مكانة الإلـه المزعوم

مـردوخ بين الآلهة، لأنه رمـز مدينة بابل ورايتها[١٣٢]. وللتأكد من كون عظمة الإله المزعوم مردوخ مستمدة من عظمة بابل وزعمائها، فإن الباحث يستشهد بقطعة أدبية دونت باللغتين السـومرية والبابليـة والمخصصـة لتمجيـد الإلـه المزعـوم مـردوخ، وكيف صار ملـكًا على الآلهة. حيث أن فكرة ملوكية مردوخ على الآلهة تتناسـب مع الزعامة السياسـية التي تبوأتها بابل[١٣٣].

إن الإعلان عن الإله المزعوم مردوخ ملكًا على الآلهة جميعًا، كان يعني، في الواقع، تأكيد الوحدة الدينية للملكة الجديدة. والسـير بها باتجاه تعزيز الطابع المركزي للسـلطة السياسية. وتجلى ذلك بشـكل أكثر وضوحًا في ملحمة الخليقة البابلية، التي تشـير إلى أن كل مدينة كان لها إله خاص، ثم جاء الإله المزعوم (مردوخ) ليتفوق على كل تلك الآلهة التي منحته ملكية العالم كله. وبذلك أصبح الإله الأسمى، وأصبحت أرادته هي الأعلى[١٣٤].

ويبدو أن ارتقاء الإله المزعوم مردوخ إلى تلك المكانة الرفيعة، قد تزامن مع ضم شطري منطقـة بابل المكونة من سـومر وأكد في مملكة واحدة زمن السـلالة الأمورية. وكان للملك حمـورابي اليـد الطولى في تحويل الإله المزعـوم مردوخ من مجرد إله محـلي، إلى الإله الأول بين الآلهة كلها[١٣٥].

وخلاصة القول، يبدو أن الإعلان عن سمو إله من الآلهة في وادي الرافدين على الآلهة الأخرى، كان يراد منه بالدرجة الأساسية توحيد المملكة وتماسكها من جهة، وتعزيز الطابع المركزي للسلطة السياسية من جهة أخرى.

ومـن الجدير بالذكر، أن تلك الدعـوة لا تمت بصلة لدعوة التوحيد الخالص لله الواحد الأحـد. إذ من الضروري أن نميز ما بين الدعوة للتدرج الإلهي وقضية التوحيد الخالصة لله وحده. ويلاحظ أن الدعوة البابلية لا تتعدى قضية التدرج الإلهي.

ثالثًا: من الناحية القانونية

و مـن أجل توحيد البلاد قانونيًا، سـن حمورابي قانونًـا موحدًا للبلاد عام ١٧٧٠ ق. م. وصارت الدولة في عهده هي التي تشرف على تطبيق القوانين. إذ جردت السلطة الفرد من

مهمـة التنفيـذ وجعلتها بيد الدولة حصرًا. فقـد منعت قوانين حمورابي الفـرد من أخذ الثأر بنفسه من ظالميه. وصارت العقوبة محددة بقانون، وتطبقها الدولة دون تدخل الفرد المتضرر ولا حتى إشرافه[١٣٦].

ويعـد قانون حمورابي المكون مـن (٢٨٢) مادة، من أنضج سلسـلة القوانين التي دُوِنَت في بـلاد الرافديـن. وذلك لتميزه بالرقـي التنظيمي، والنضج الفكـري. إذ كُتِب بلغة قانونية دقيقة، وبأسلوب علمي وتشريعي لتنظيم شؤون الحياة كلها. واتبع طريقة الإشهار المعروفة في نفاذ القوانين المعاصرة. حيث كُتِب على مسلة حجرية ونُصِب في وسط البلاد ليطلع عليه المواطنون. وقد وصف الباحث (زهير صاحب) تلك المسلة بقوله: (لو أقيم معرض من دون جدران لروائع الفنون العالمية، لآليت إلاَّ أن تمثل بلاد الرافدين فيه مسلة حمورابي)[١٣٧].

و رغـم أن قانـون حمورابي لا يمثـل أفكار حمورابي فحسـب، إنما يمثل أفـكار التشريع والأخلاق السـائدة في العراق القديم، وبالتحديـد في الألف الأول قبل الميلاد[١٣٨]. بيد أنه تميز بما يأتي:[١٣٩]

أ – أهمية الأفكار الإنسانية التي وردت في نصوص تلك المسلة.

ب – أهمية المنجز من الناحية التشكيلية والبلاغة الفكرية.

ولا ريـب مـن القول، أن شـهرة حمـورابي في التاريخ، إنما تعتمـد في الدرجة الأولى على قانونه الشهير المكتوب باللغة الأكدية أكثر مما تعتمد على أي منجزات أخرى.

وقد تم العثور على مسـلته القانونية في مدينة سوسـة عاصمة عيلام جنوب غربي إيران عام (١٩٠١ – ١٩٠٢م) من البعثة الفرنسية. وحُفِظَت في متحف اللوفر في باريس[١٤٠].

ويمكن تصنيف قانون حمورابي إلى المحاور الآتية:[١٤١]

١ – مواد تختص بالأموال، بما فيها مواد تختص بالسرقات وما شابه.

٢ – مواد تختص بالعقارات والأراضي الزراعية.

٣ – مواد تختص بالقضايا التجارية.

٤- مواد تختص بشؤون الدعاوى القضائية.

٥- مواد تختص بقضايا الأحوال الشخصية.

٦- مواد تختص بالجرائم والمخالفات القانونية.

٧- مواد تختص بقضايا المهن.

٨- مواد تختص بالفلاحين، والماشية، والآلات الزراعية.

٩- مواد تختص بالأجور والأسعار.

١٠- مواد تختص بشؤون العبيد.

رابعًا: من الناحية العسكرية

ومن أجل تقوية الدولة وحمايتها، اهتم الملك حمورابي بالجيش بوصفه الدرع الحصين لدولته. بحيث صار التجنيد في عهده إجباريًا. وعُرِف باصطلاح (الذهاب في طريق الملك). ولم يسمح حمورابي لأي جندي أن يرسل بديلًا عنه إلى الخدمة العسكرية[١٤٢].

وكان الملك البابلي يمثل رأس القوات المسلحة. وكان الجيش يتألف من القوات المجندة التي مهمتها الدفاع عن الدولة. والجيش الدائم الذي يقوم بالغزوات العسكرية. وبالمقابل كانت الدولة توزع عليهم الحقول والمزارع والبيوت السكنية. كما لوحظ في أحد النصوص أنه كان يوجد ضمن صفوف الجيش البابلي مجندات من النسوة[١٤٣].

وقد ورد في قانون حمورابي العديد من النصوص ذات الصلة بشؤون الجيش، والتي كان الهدف منها معالجة السلبيات التي قد تظهر من جراء الممارسات العسكرية، ومنها المواد من (٢٦ - ٣٦). فالمادة (٢٦) جعلت عقوبة الإعدام لكل مَنْ يتخلف عن الخدمة العسكرية. إذ نصت على (إذا جندي أو سماك طُلِب التحاقه في حملة الملك. فلم يذهب أو أجر بديلًا عنه. وأرسله في مكانه، فإن ذلك الجندي أو السماك يُعْدَم. أما الذي أُجِر من قِبَله فإنه يُؤْخَذ بيته).

و يتضح من نص تلك المادة، أن الخدمة العسكرية كانت إجبارية، ولا يجوز للمُكَلَّف بها أن يتخلف عنها أو يستبدل غيره بأدائها. وأن تغليظ العقوبة في هذه المادة التي تصل إلى حد الإعدام، إنما يبين ضرورة الالتزام بأداء الخدمة العسكرية لمن يُكَلَّف بها(١٤٤).

أما المادة (٣٤) فإنها وضعت عقوبة الإعدام على الحاكم الذي يغتصب أموال أو ممتلكات بيت الجندي. حيث نصت على (إذا حاكم أو رئيس اغتصب أموال أو أثاث بيت الجندي... أو سلب من جندي هدية كان الملك قد منحها له، فإن هذا الحاكم أو الرئيس يُعْدَم).

وفي عهد الملك حمورابي، وُجِدَت جماعة عسكرية أُطْلِق عليها اسم (ريدوم) المكلفون بقيادة الأسرى، وتهيئة الحملات العسكرية، والقيام بأعمال التعبئة العامة من أجل الجيش. كما وُجِدَت جماعة أخرى تعنى بالشؤون العسكرية أُطْلِق عليها اسم (بيروم)، التي تقوم بأعمال الشرطة. وكان على كل شخص من أعضائها عندما يُدْعَى إلى خدمة الملك في حالة الحرب أن يلبي الدعوة ولا خيار له بالتملص من هذا الواجب(١٤٥).

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه قد وُجِد في عهد حمورابي جهاز للمخابرات. كان من مهامه الحد من نشاط ما يُسَمَّى بالطابور الخامس، وجمع المعلومات الضرورية عن العدو. وكان هذا الجهاز مرتبط مباشرة بالملك(١٤٦). حيث ورد في المادة (٢٩) من قانون حمورابي ما يفيد هذا المعنى: (إذا تَجَمَّع متآمرون في حانة لبائعة الخمر، ولم تلق القبض على هؤلاء المتآمرون، ولم تقدمهم إلى القصر، فإن بائعة الخمر هذه تُعْدَم)(١٤٧).

ويبدو أن تلك المادة كانت قد أشارت إلى أن جميع الأماكن التي يرتادها الناس الذين يميلون إلى الاخلال بالأمن كانت توضع تحت الرقابة. وأن أصحاب هذه الأماكن ملزمون بإخبار السلطة بكل تحركات الأشخاص، التي من الممكن أن ينجم عنها الاخلال بالأمن والنظام أو يهدد سلامة البلد.

ومما يرجح وجود جهاز المخابرات في عهد حمورابي ذلك التكامل الذي وُجِد في جهاز المخابرات في العهد الآشوري. إذ لو لم تكن بداية هذا الجهاز قبل العهد الآشوري لما وجدناه بهذا التكامل في العهد الآشوري(١٤٨).

خامسًا: من الناحية الثقافية

و مـن أجـل توحيد الدولة ثقافيًا، أسـس الملك حمـورابي عددًا من المـدارس. حيث تم العثور على مدرستين ترجعان إلى عهده. الأولى في (سبار)، والثانية في (كيش). كما استمرت مكاتب تعليم الأطفال في المعابد وفق الرؤية الثقافية الجديدة للملك حمورابي.

كما شـهد عصره، حركة واسـعة النطاق لجمع التراث الفكري المدون بلغة بلاده. وهذه الحركـة تبـين مدى إدراك الملك حمـورابي لأهمية التراث في بناء المجتمـع الموحد ذات الثقافة المشتركة[١٤٩].

سادسًا: إشاعة العدالة في البلاد

كان حمـورابي قـد أدرك أهمية العدالة في ديمومة الملك. لذلك كان شـديد العناية برعاية المواطنين، وإشاعة العدالة بينهم. وذلك من خلال ما يأتي:

أ - جعـل القانـون محـورًا للعدالـة في المجتمـع، لمـا تضمنـه من بيـان الحقـوق وطرق استحصالها، والتمتع بها. كما بين الواجبات وطرق تنفيذها.

ب- كـما كان شـديد العنايـة برعاية شـؤون المواطنـين. إذ أن أي مواطـن يخفق في نيل حقوقـه أو يتعرض للمظالم داخل مدينته، كان من حقه أن يأتي إلى الملك حمورابي، الذي لا يرد أحدًا خائبًا. وهناك الكثير من الرسـائل التي تعبر عن اهتمامه بشؤون المواطنـين. فعـلى سـبيل المثال لا الحصر، هناك رسـالة من الملك حمـورابي إلى أحد ولاته (سـين - أدينـام) يأمره بالنظر في شـكوى مواطن ادعى بـأن أحدهم سرق حبوبه. وفي رسـالة أخرى، يأمر بإجبار أحد ولاته (سين - ماجير) على إرجاع ما اقترض من حبوب إلى صاحبها الذي كان أحد التجار.

ج - كان الملـك حمورابي يتـولى القضاء بنفسـه إذا اقتضت العدالة ذلـك. حيث تصدر منصـة القضـاء في الدعوى التـي رفعها أحـد التجار ضد أحد رؤسـاء الوحدات الإدارية. وكان الحكم فيها لصالح التاجر[١٥٠].

مـع ذلك كله، فإن فلسـفة حكم الملـك حمورابي القائمة على اسـتخدام القوة والصرامة مـن أجل تثبيت دعائم الملك، وتوحيد البلاد، لم تحل دون اندلاع حركات تمرد ضده. حيث اندلعت ثورتين فاشـلتين في عهده، وهما ثورة ضباط لارسا عام ١٧٦٢ ق.م، وثورة سكان ماري عام ١٧٦٣ ق. م[١٥١].

و قـد أرجـع الدكتـور (مزهر الخفاجي) مسـوغات نـدرة وقوع التمـردات ضد الملك حمورابي إلى العوامل الآتية:[١٥٢]

أ – أن الملك حمورابي كان ملكًا قويًا وربما قاسيًا. وهذا يبدو واضحًا من خلال النصوص القانونيـة الواردة في مسـلته القانونية، وما تضمنته مـن عقوبات رادعة. لذلك كان المواطنـون يخشـون من عملية الخـروج على الحاكم كي لا يطالهـم العقاب الصارم، خصوصًا أن تلك القوانين تقف خلفها دولة قوية ذات هيبة.

ب– عبقريـة الملـك حمورابي، التـي مكنته مـن معرفة مزاج الشـخصية العراقيـة، التي توصف بالقلق والتمرد.

ج – اعتـماد الملك حمورابي على نظرية الحكـم المُطْلَق والإدارة المركزية، الأمر الذي كان يحول دون جنوح حكام المدن والأقاليم نحو فكرة التمرد والانفصال.

المبحث الرابع

ملامح الدولة العراقية ما بعد حمورابي

كانت وفاة الملك حمورابي ايذانًا بزوال إمبراطورية بابل القديمة المترامية الأطراف. إذ لم يكن خلفاءه الخمسة من القوة، وحسن الإدارة، بحيث يتمكنون من المحافظة على وحدة الدولة وتماسكها. ولم يتمكنوا أيضًا من الحفاظ على قوة السلطة وطابعها المركزي. كما أنهم لم يتمكنوا من ضمان أمن أقاليمها كافة. حيث بدأ تغلغل الأقوام الأجنبية القادمة من الشرق إلى بلاد بابل. وانفصلت فعلًا بعض الأقاليم عن بابل.

وقد أعقب الملك حمورابي في الحكم ابنه (سمسو – ايلونا)، والذي حكم من (١٧٤٩ – ١٧١٢ ق.م)، والذي واجه المتاعب التي قامت في دولته في أعقاب موت أبيه الملك حمورابي. وهي المتاعب التي لم تهدد عرشه فحسب، إنما هددت كيان الأسرة والدولة بأسرها[١٥٣].

وقد تميز عهده بكثرة التمردات الانفصالية. ولعل في طليعتها التمرد الذي اندلع في أحد الأقاليم المتاخمة لبلاد عيلام، والذي دام سنتين. كما ظهرت في عهده بوادر العودة إلى قيام دويلات المدن من جديد[١٥٤]. إذ يلاحظ أن هذا العاهل قد واجه تمرد (أهل يموت بعل)، و(تمرد الأهوار)، و(تمرد أهل أور والوركاء)، و(تمرد أهل كيش وأشنونا)[١٥٥].

أما في القسم الجنوبي من البلاد، فقد اندلع تمرد داخلي عارم ضد سلطة بابل ونفوذها. قام به (ايلوما – ايلوم)، والذي تمكن من الاستقلال في المناطق الجنوبية من البلاد. مؤسسًا بذلك ما يعرف في تاريخ العراق القديم باسم (سلالة القطر البحري) لمجاورتها لمناطق الخليج العربي، والتي عرفت أيضًا باسم (سلالة بابل الثانية) (١٧٤٠– ١٥٠٠ ق.م). وقد خصصت لها وثيقة إثبات الملوك السومرية أحد عشر ملكًا[١٥٦].

ويبدو أن الأهوار وطرق المواصلات الرديئة، كانت قد أوجدت مأوى طبيعيًا لتلك الجماعات البعيدة والمنعزلة عن السلطة لنجاح مشروعها الانفصالي[١٥٧].

وقد ترتب على قيام هذه السلالة نشوب الحروب بينها وبين سلالة بابل الأولى. بحيث

اقترنت تلك الحروب بخراب الكثير من المدن وعلى رأسها مدينة أور[١٥٨]. كما تطلب إجراءات ومحاولات آنية لاسترداد السلطة السياسية من سلالة القطر البحري[١٥٩]. وفي حدود عام ١٥٠٠ ق. م سقطت هذه السلالة على يد القوات الأجنبية الكشية. أن قيام هذه السلالة كان مشجعًا لمدينة آشور لتعلن انفصالها عن مملكة بابل.

ويبدو أن الخطر الأكبر الذي واجه هذا العاهل تَمَثَّل بالخطر الخارجي، الذي جَسَّدَه الكشيين الذين كانوا يحكمون في منطقة الفرات الأوسط. وإذا كان هذا العاهل قد استطاع أن يدرأ خطر هؤلاء الغزاة، بيد أنه كان مؤشر ضعف دب في ربوع المملكة. لذلك، فإن الملوك اللاحقين سيجدون أنفسهم عاجزين، خصوصًا بعد أن بدأت الإمبراطورية البابلية تسير في طريق التفتت شيئًا فشيئًا[١٦٠].

وقد انتهز ملك لارسا (ريم – سين) فرصة تقدم الكشيين ليثير القلاقل في جنوب بابل. ونجح في الاستيلاء على الوركاء وآيسن، الأمر الذي حتم على العاهل البابلي استعادة لارسا، والقبض على خصمه (ريم – سين) وتم حرقه في قصره[١٦١].

ثم تولى عرش بابل ابنه الملك (أبي – ايشو)، الذي حكم للمدة (١٧١١ – ١٦٨٤ ق.م)، والذي كان مصممًا على وضع نهاية لأسرة القطر البحري لكنه لم يفلح في ذلك. وبدأ يفقد أجزاء من مملكته، حيث فقد مدينة أور. كما أنه فقد منطقة الفرات الأوسط. ثم عاود الكشيون الغزو في عهده مرة أخرى دون جدوى. لذلك كثفوا تغلغلهم السياسي في البلاد كصناع وأصحاب حرف[١٦٢].

وتولى العرش من بعده الملك (أمي – ديتانا)، الذي بذل جهده في تحسين مرافق البلاد. حيث تمكن من شق قناة مائية، وشيد حصونًا. وعمل على تقوية أسوار المدن. وتمكن من بناء قصور فخمة في ضواحي بابل. وصد هجوم جيوش القطر البحري. ومن ثم اصطنع لنفسه لقب (ملك سومر وأكد)، مما يرجح أنه قد يكون استعاد مؤقتًا بعض السلطان الذي كان يضمحل تدريجيًا.

وجاء بعده للحكم ولده (أمي – صادوقا)، والذي أولى اهتمامه بأحوال السكان.

وأعفى بعض المواطنين من الديون. وهناك رسالة إلى هذا العاهل من أحد ولاته الكبار في (سبار) تكشف عن الصعوبات، التي كانت تلاقيها الإدارة المحلية في جمع الضرائب[١٦٣]، مما يدل على ضعف السلطة الواضح.

وقد كان الملك (سمسو – ايتانا) آخر ملوك أسرة بابل الأولى، والذي قلت أخبار عهده ما عدا الهدايا السخية التي كان يمنحها إلى المعابد البابلية، التي سجلتها النصوص البابلية[١٦٤].

وفي عهد هذا الملك، الذي يعد الملك الحادي عشر من سلالة بابل الأولى وآخر ملوكها، والذي انهارت المملكة في عهده بحدود عام ١٥٩٥ ق. م على يد الحثيون الغزاة بقيادة ملكهم (مرشيليش الأول). حيث حلت الفوضى في بابل، الأمر الذي مهد لسيطرة الأقوام الغازية الكشية على بلاد بابل. وأقامت فيها سلالة حاكمة جديدة، استمرت في حكم البلاد عدة قرون[١٦٥]. وهذا ما سنعرج عليه في المبحث القادم.

أن انهيار إمبراطورية بابل الأولى، كانت ظاهرة سياسية ملفتة للنظر، ومثيرة للجدل. إذ تَعَارَف المؤرخون على تعداد أسباب متشابهة في تفسير سقوط الدول والإمبراطوريات. بيد **أن العَلاَّمَة الدكتور (طه باقر) كان قد تفرد في التطرق إلى عوامل خاصة في تفسير سقوط سلالة بابل الأولى عام ١٥٩٥ ق.م، منها:**

١ – أن إمبراطورية بابل كانت من صنع رجل واحد هو حمورابي نفسه. حيث اعتمد وجودها وديمومتها على ميزاته الشخصية، وثقافته، وحنكته الإدارية، وشجاعته، وقدراته العسكرية.

٢ – أن تراث نظام دولة المدينة المفضل لدى سكان العراق القديم، كان أحد عوامل سقوط إمبراطورية بابل الأولى، خصوصًا أن حمورابي ضم تلك الدويلات إلى مملكته بالقوة ضمن وحدة سياسية كبرى.

٣– كما أن سياسة حمورابي وخلفاءه، كانت قد ركزت اهتمامها على العاصمة بابل. وركزت أوجه النشاط الاقتصادي والثقافي والديني فيها على حساب المدن والأقاليم الأخرى التابعة لها[١٦٦].

٤- كما أن الملك حمورابي، لم يعمل على تدريب خلف له على العرش. حيث أن خلفاءه لم يكونوا على ما كان عليه حمورابي من الحنكة السياسية والقدرات القيادية[١٦٧]. إذ يُلاحَظ أن خلفاء حمورابي، انصرف اهتمامهم، بصفة عامة، نحو رعاية المعابد والمعبودات، وحفر القنوات وتنظيفها، أكثر من اهتمامهم بالحروب والسياسة شأن أسلافهم[١٦٨]، في عصر يُمَجِّد القوة ويعتمدها بشكل ملحوظ.

٥- وقد تزامن ذلك كله، في عهد حمورابي عندما برزت ظاهرة اقتصادية جديدة، تمثلت في مركزية الاقتصاد بيد الدولة. وهو ما يُطْلَق عليه حاليًا مصطلح (رأسمالية الدولة). واقترن ذلك مع تعاظم رقابة الدولة وسيطرتها على الحياة الاقتصادية ولكن بأشكال تختلف عن الأشكال التي كانت موجودة في عهد سلالة أور الثالثة[١٦٩].

ويبدو أن هذا التحول، وأن ساهم في بناء مجتمع بابلي متماسك وقوي، بيد أنه وَلَّد نوعًا من الكراهية لحكام بابل. أن تلك الكراهية المتنامية، كانت قد عجلت في سقوط الإمبراطورية البابلية. كما نمت مسوغات الكراهية، بشكل أكثر وضوحًا، لحكام بابل المتأخرين في كثير من المعطيات السلوكية، والاجتماعية، والثقافية، التي عبرت عن عملية الرفض لحكام بابل عبر نصوص الشكوى وقصائد الجزع والتذمر.

٦- والراجح، أن منطِق القمع كأسلوب لنظام الحكم، كان واحدًا من العوامل التي نفرت الكثير من المواطنين من نظام الحكم البابلي القديم. حيث كانت معارضة سلطة الملك تُحْتَسَب جريمة كبرى، بحيث يُنَكَّل بفاعلها بقسوة شديدة. إذ ورد في أحد النصوص البابلية ما يأتي: (أن الإنسان إذا ثار يذبح، ويسلخ جلده وهو حي، وتقلع عيناه)[١٧٠].

أضف إلى ذلك، أن القارئ التاريخي المدقِق لكثير من نصوص شريعة حمورابي، يلمس علوية مبدأ العقاب على مبدأ الثواب. لذلك ساد في شريعة حمورابي مبدأ (العقوبة الحتمية المستندة على قوة السلطة). كما ساد مبدأ (الغلظة والتعزير) في كثير من مواد هذا القانون)[١٧١].

إن ذلك كله، كان قد ضيق من حدود الحرية ومساحتها في تلك القوانين، وربما دفع بعض المواطنين إلى التذمر تارة، والتمرد تارة أخرى، وحسب الظروف الذاتية المتاحة.

٧- ويلاحظ أن ثقافة دولة المدينة التي كانت سائدة في العهد السومري، كانت إحدى عوامل سقوط إمبراطورية بابل الأولى. حيث أن المدينة العراقية القديمة كانت قد تكونت وهي مجبولة على العزلة. وكانت في الواقع تتوزع على سهل واسع وكأنها جزر معزولة الواحدة عن الأخرى. وكانت تحيط بكل مدينة أقاليم يتم إروائها صناعيًا، وتتحدد مساحتها بسعة حاجات الجماعة القاطنة فيها. وما بين هذه الجزر المأهولة بالسكان، كانت تمتد مساحات واسعة من الأراضي القاحلة تجتازها القوافل بين الحين والآخر.

ويبدو، أن مثل هذا الواقع الذي كانت عليه المدن العراقية القديمة، كان قد شجع على تشبثها باستقلالها. ومن الممكن تلمس ذلك بشكل واضح إذا تذكرنا بأن خط سير نشاطات المدن سواء الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية، كان يتم باتجاه مركزها المتمثل بالمعبد وليس العكس[١٧٢].

والذي ترتب على ذلك ما يأتي:

أ - أن المدن كانت ترفض التخلي عن استقلالها لصالح الدولة المركزية القوية التي أسسها الملك حمورابي[١٧٣]، وتعمل على التحرر منها، الأمر الذي تَسَبب، في نهاية المطاف، بانهيار الإمبراطورية البابلية القديمة.

ب- والذي ترتب على ذلك، أن خصوصية المدن بقيت شاخصة رغم خضوعها للسلطة المركزية البابلية.

المبحث الخامس
ملامح الدولة العراقية
في الحقبة المظلمة الثانية

تعرف الحقبة التي تولى فيها الغزاة الأجانب الكشيون، والحثيون، والعيلاميون، مقاليد الحكم في بلاد الرافدين، بأنها الحقبة المظلمة الثانية التي مرت على الدولة العراقية القديمة، والتي أعقبت سقوط سلالة بابل الأولى[١٧٤]..

ورغم أن حمورابي، كان قد ترك مملكة مساحتها أوسع من مساحة العراق الحديث بكثير. حيث كانت حدود العراق تمتد من الخليج العربي صعودًا إلى غرب الفرات حتى حلب تقريبًا. وشمالًا تمتد إلى جبال طوروس الشرقية. وشرقًا تمتد حتى جبال زاجروس. وإلى الجنوب الشرقي فإنها تمتد حتى حدود عيلام في جنوب إيران، يبد أن تلك المملكة الواسعة لم تدم طويلًا. إذ لم يتمكن خلفاء حمورابي الخمسة من مواجهة الضغوط الخارجية المتزايدة[١٧٥].. حيث أنهم لم يتمكنوا من صد هجمات الكشيين. إذ أن جماعة منهم كانت قد تغلغلت في بلاد بابل. بحيث تمكن زعيمهم (كاشتلياس الأول) من تأسيس كيان سياسي في منطقة عانة الواقعة على الفرات الأوسط[١٧٦].

أن مؤشرات سقوط سلالة بابل الأولى، كانت قد اتضحت من حالة الوهن التي وصلت إليه المملكة في عهد آخر ملوكها (سمسو – ديتانا) من جهة، ومن قيام دولة الحثيين القوية في جنوب تركيا من جهة أخرى.

والحثيون من الأقوام الهندية – الأوروبية التي دخلت آسيا الصغرى منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وأسست لها مملكة قوية في حدود عصر حمورابي. وقد امتدت بنفوذها، وضمت أجزاء كبيرة من شمال سوريا[١٧٧]. ولأسباب غير معروفة حتى الآن، قام الملك الحثي (مورسيليس) بحملة عسكرية قوية قادها بنفسه، وباغت بها سوريا، ومنها إلى بلاد بابل. واكتسح خلالها جميع الأقاليم والمدن الواقعة على الطريق حتى وصل إلى العاصمة

بابل نفسها، ودخلها عام ١٥٩٥ قبل الميلاد، وأنهى سلالتها الحاكمة[١٧٨]. واستولى على تمثال كبير آلهة المدينة المزعوم مردوخ وزوجته. وفي الواقع، لا تُعْرَف دوافع تلك الغارة، ولكن بما أن ملكهم (مورسيليس) كان قد انسحب، ولم تصدر عنه أي محاولة للاحتلال الدائم، فربما كانت تلك الغزوة لا تمثل سوى غزوة لاجتلاب الغنائم من مدينة مشهورة، ومعروفة بثرائها، وهي في طور لفظ أنفاسها الأخيرة[١٧٩].

وبما أنه كانت هناك جماعة من الكشيين، قد أقاموا أنفسهم على الفرات الأوسط تحت حماية الحثيين، فإن هذا يفسر لماذا تمكن الملك (مورسيليس) من عبور المنطقة دون مقاومة. كما يفسر كيف استولت السلالة الكشية على بابل تفسيرًا مقبولا[١٨٠].

على أي حال، ربما لم يبق (مورسيليس) ملك الحثيين في بابل طويلًا عندما علم بنبأ ثورة كانت قد اندلعت ضده في عاصمته (بوغاز كوى)، مما دفعه للرجوع إلى بلاده على وجه السرعة. وبذلك ترك بابل فريسة سهلة للكشيين، الذين سرعان ما احتلوها عام ١٥٩٥ قبل الميلاد[١٨١].

لذلك يمكن القول، أن الغزاة الكشيون هم الذين خلفوا سلالة بابل الأولى في السيطرة على بلاد الرافدين، بيد أن نهاية السلالة البابلية كانت على يد الحثيين. حيث زحف الملك الكشي (أكوم الثاني) على بلاد بابل، واعتلى عرشها في حدود ١٥٩٥ قبل الميلاد، خصوصًا أن العرش كان قد بقي شاغرًا بمقتل آخر ملوك سلالة بابل الأولى (سمسو – ديتانا) على يد الحثيين. وبذلك سيطر الغزاة الكشيون على حكم البلاد. واستمر حكمهم أكثر من أربعة قرون (١٥٩٥ – ١١٥٧ ق.م)[١٨٢].

وقد بدأ حكمهم بالملك (أكوم الثاني)، الذي يعد أول ملك كشي سيطر على بلاد بابل كلها[١٨٣]. ومن المصادر المتاحة، يمكن القول، أن الملوك الحثيين حكموا بلاد الرافدين ضمن مملكة واحدة من أقصى الجنوب إلى حدود بلاد آشور في الشمال[١٨٤]، خصوصًا بعد تَمَكُّن الملك الكشي (أولام- بورباش) من القضاء على سلالة القطر البحري[١٨٥].

وبما أنهم كانوا أقلية حاكمة بالمقارنة مع الغالبية من سكان البلاد، فقد طغت عليهم حضارة بابل فتكيفوا معها، وصهرتهم في بودقتها. فاتخذوا لغة البلاد وثقافتها العامة. ولم

يخلفوا أشياء يُعْتَد بها مدونة بلغتهم، باستثناء أسماء أعلام كشية، وأسماء ملوكهم، وآلهتهم، ومفردات كشية محدودة[١٨٦]. وفي عهدهم، تملكت القبائل التي استقرت في وسط العراق وجنوبه مقاطعات زراعية واسعة. وامتلكت كل قبيلة اقطاعية كبيرة، شيدت بها مدنًا وقرى. وبذلك يتبين أن النظام القبلي المرتبط بحق الأرض، كان قد أُدْخِل إلى العراق في بداية العهد الكشي[١٨٧].

ويبدو أن اسم الكشيين مشتق من الكلمة البابلية (كشو) التي لا يعلم أصل اشتقاقها على وجه الدقة. ولعلها تعني في اللغة (القوة والبأس). ويحتمل أنها مأخوذة من اسم الإله القومي للكشيين[١٨٨]. والكشيون من الأقوام الجبلية التي كانت تقطن منطقة جبال زاجروس جنوب همدان. ولا يُعْرَف شيئًا دقيقًا عن أصلهم ولغتهم وموطنهم الأول. ولعلهم كانوا من جملة الأقوام الهندية – الأوروبية، التي انحدرت من منطقة السهوب الواقعة بين قزوين وبحر آراك. واتجهت نحو الشرق القديم طمعًا في خيراته[١٨٩]. وهناك من يؤكد على أن الكشيين كانوا في الأصل مربيِّ خيول يعيشون في شمال بلاد عيلام. وقد هبطوا في العراق ليستقروا في شماله ووسطه[١٩٠].

لقد ساد الكشيون جزءً كبيرًا من العراق القديم، ولكن أعدادهم كانت قليلة، وحضارتهم القومية كانت خشنة ومحدودة. لذلك اكتفوا باحتساب أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة بين السكان الأصليين. وانتفعوا من حضارة وادي الرافدين، وقلدوا فنونهم العمرانية، واعتمدوا اللغة البابلية السامية لغة للكتابة إلى جانب لغتهم الخاصة. كما ساوى الكشيون بين آلهتهم والآلهة البابلية، فجعلوا الإله المزعوم (شيباك) مساويًا لإله بابل المزعوم (مردوخ)، والإله المزعوم (خارجي) مطابقًا للإله المزعوم (أنليل). ولعل هذا يدل على أن الكشيين قد عبدوا آلهة بلاد الرافدين إلى جانب آلهتهم القوميين[١٩١].

وتعد حقبة حكم الكشيين لبلاد الرافدين، رغم طول مدتها، التي تمتد من (١٥٩٥ – ١١٥٧ ق.م)، من أكثر حقب التاريخ البابلي غموضًا. وذلك للأسباب عدة منها:

أ – قلة المصادر المدونة والآثار الخاصة بهم[١٩٢].

ب- كما لم يكن لهم أثر ملحوظ في البلاد على المستوى القومي أو اللغوي[١٩٣].

ج - وكذلك بسبب الركود الحضاري النسبي الذي ساد تلك المرحلة.[١٩٤]

ولذلك كله، احتسبها الكثير من الباحثين حقبة مظلمة في تاريخ بلاد الرافدين.

وعَدَّت وثيقة إثبات الملوك السومرية ٣٦ ملكًا كشيًا حكموا حوالي ٥٦٧ عامًا[١٩٥]. وإذا صَحَّت هذه الأرقام، فلابد أنها ضَمَّت ملوكًا حكموا خارج البلاد قبل استيلاء الكشيين عليها. وما دامت السلالة الكشية لم تحكم سيطرتها على بابل حتى عام ١٥٩٥ قبل الميلاد، وبلغت نهايتها بحدود عام ١١٥٧ قبل الميلاد، فإن الحكم الكشي لا يمكن أن يزيد عن ٤٤٠ عامًا[١٩٦].

ويمكن للباحث أن يُشَخِّص شيئًا من السياسة التي اتبعها الملوك الكشيين في حكم بلاد الرافدين. لعل أهمها ما يأتي:

أ - اتبع الملوك الكشيون سياسة ملوك الشرق القديم في اكتساب رجال الدين إلى جانبهم. فضلًا عن تأكيد القربى من الأرباب عن طريق منح الهبات والاقطاعيات للمعابد، واعفائها من الضرائب[١٩٧].

ب- كما اعتمد الملوك الكشيون على العناصر الكشية المسلحة بالدرجة الأساس. بيد أن ذلك لم يحل دون إيجاد حلفاء جدد لهم من كهنة بابل، وبشكل خاص كهنة (نيبور)[١٩٨].

ج - كما يلاحظ، أن أهم ما ميز السلوك السياسي للملوك الكشيين، قلة الصدامات الحربية مع جيرانهم الآشوريين من جهة، وقلة الصدامات الحربية مع ممالك الشرق الأدنى التي عاصرتهم[١٩٩]. حيث سارت علاقتهم مع ملوك آشور على مبدأ التعايش السلمي ما دام الطرفان متعادلين في القوة. وكان الوضع يتغير في حالة ضعف أحدهما. وأُبْرِمَت بين الطرفين معاهدات لإقرار الوضع الراهن، ورسم الحدود بين المملكتين[٢٠٠].

د – ويوضح غياب أي تمرد أو أخبار معادية للحكام الكشيين، أن حكمهم لم يكن قائمًا على القمع. وتعزز الأوامر الملكية هذا الاستنتاج. إذ أنها تبين أن هؤلاء الملوك كانوا حرصين على التدقيق في رعاية حقوق المواطنين الثابتة، ولم يقم ملوكها بما من شأنه تقليص الخصوصيات الفردية، والرخاء والتقدم[٢٠١].

و بما أن الكشيين، كانوا أغرابًا عن بلاد الرافدين، لذلك فإن البلاد لم تخلص لهم أبدًا. إذ بقيت تنازعهم السيادة مملكة (القطر البحري) في المناطق الجنوبية من جهة. كما تحكم الآشوريين في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من نهر دجلة من جهة أخرى[٢٠٢].

إن ذلك كله، لا يمنع من القول، أن الكشيين قد أضافوا لمسات إلى حضارة بلاد الرافدين. لعل أهمها ما يأتي:

أ – أدخل الكشيون (الحصان) إلى بابل. إذ أن البابليين لم يكونوا يعرفون الحصان قبل عهد حمورابي[٢٠٣].

ب– ولعل من أهم ما أدخلوه إلى العراق، إنما كان (طريقة التوقيت)، التي تعتمد على سنوات حكم ملوكهم.

ج – كما قاموا بتغيير بعض وحدات الأوزان والمقاييس[٢٠٤].

وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقعت بابل تحت هيمنة الغزاة العيلاميين. وذلك بعد معركة طاحنة بين القوات الكشية من جهة، والقوات العيلامية من جهة أخرى. وقد اندحر فيها ملك الكشيين. فتدخل الآشوريون في الوضع، وسيطروا على بلاد بابل لمدة سبع سنوات. نَصَّب خلالها الملك الآشوري (توكلتي – ننورتا الأول) (١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م) ثلاثة ملوك كشيين تابعين له[٢٠٥].

ثم استعاد الكشيون سيطرتهم على البلاد. وظلوا يحكمون فيها حتى جاءت نهايتهم في عهد أخر ملوكهم (أنليل – نادن – اخي) عام ١١٥٧ ق. م. حيث قام الملك العيلامي (شوتروك – ناختي) بغزو بابل وتدميرها، والقضاء على آخر ملوك الكشيين[٢٠٦].

مـع ذلـك، لم يدم احتـلال الغزاة العيلاميـين لبابل مـدة طويلة. حيث انسـحب الملك العيلامي (شـيلاك – انشوشـناك)، وترك حامية من جنده فيها. فاغتنم زعماء مدينة (آيسن) الفرصة، وأعادوا اسـتقلال البلاد، وطردوا العيلاميين[٢٠٧]. وبذلك قامت في البلاد سلالة وطنية حاكمة، عُرِفَت باسـم (سـلالة آيسـن الثانية)، والتي حكم فيها أحد عشر ملكًا، دام حكمهم زهاء قرن من الزمان (١١٥٧ – ١١٠٥ ق.م). وكان أولهم الملك (مردوخ – كابت – اخيشو)[٢٠٨].

ويعـد ملكهـا الرابع (نبوخذ نـصر الأول) (١١٢٤ – ١١٠٣ ق.م)، واحدًا من أشـهر ملوكها. حيث استطاع مقارعة العيلاميين، ووضع حدًا لتجاوزاتهم واعتداءاتهم على البلاد. وفي حملته الثانية تمكن من غزو بلاد عيلام. وقد دُوِن ذلك الانتصار في (وثيقة النصر). وهي وثيقة رسمية مدونة، تضمنت وصفًا لأحداث المعركة وصفًا دقيقًا ممتعًا. وقد عُثِر على تلك المدونة في مدينة سبار (أبو حبة) أو بالقرب منها عام ١٨٨٢م[٢٠٩].

أن تلك الوثيقة التاريخية، قُسِمَت إلى أربعة أقسام أساسية هي:

أ – القسم الأول: تَضَمَّن تفاصيل حملة الملك نبوخذ نصر ضد عيلام.

ب– القسـم الثاني: تَضَمَّن تفاصيل الامتيـازات التي منحها الملك نبوخذ نصر إلى قائد العربات للجناح الأيمن واسمه (رتي – مردوخ) تقديرًا لبطولاته في المعركة.

ج – القسم الثالث: تَضَمَّن تفاصيل الأشخاص الذين حضروا إعلان الوثيقة بصفتهم شـهودًا على ما تسـجله من أحداث تاريخية، وما تمنحه من امتيـازات لأفراد قبيلة (كرز يابكو). وقد بلغ عدد هؤلاء الشـهود ثلاثة عشر شخصًا. إضافة إلى الناسخ الذي كتبها.

د – القسـم الرابـع: تَضَمَّن تفاصيل الدعـاء الموجه إلى الآلهة المزعومـة كلها، من أجل إنزال الشر بكل من يحاول تحريف مضمون الوثيقة أو كسرها أو حرقها[٢١٠].

وقد أكسبه انتصاره الساحق على العيلاميين شهرة واسعة بين معاصريه، وبين الأجيال اللاحقة. حيث أصبحت هذه الواقعة التاريخية مناسبة عظيمة، دفعت المغنون والشعراء إلى

التغني بها. كما أن صداها بقي يتردد عبر أجيال عديدة لاحقًا. إذ أشارت إليه نصوص الفأل الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد[٢١١]. خصوصًا بعد أن استرد الملك نبوخذ نصر تمثال الإله المزعوم (مردوخ)، الذي سبق وأن نهبه العيلاميون من بابل في نهاية السلالة الكشية. وأعاده رسميًا إلى المعبد الرئيسي في بابل.

ويبدو أن تلك المناسبة، كانت المناسبة التي قبل فيها (مردوخ) بوصفه المعبود الأول في مجمع الآلهة البابلية. وربما تكون تلك المناسبة الأولى، التي يُعْلَن فيها رسميًا سيادة الإله المزعوم (مردوخ) في مجمع الآلهة كمذهب ديني للدولة، بعد أن كان يُعْرَف قبل ذلك بقرون على أنه الإله الأسمى في المعتقدات الدينية[٢١٢].

ويلاحظ، أنه حالما تولى الملك (نبوخذ نصر) العرش، أمر بإحراق السجلات والكتابات المحفوظة، ليمحوا ذكر كل مَنْ مُلِّك قبله من الغزاة الأجانب على بلاد بابل[٢١٣].

أما العهود التي أعقبت حكم الملك (نبوخذ نصر)، فإنها تميزت، بصورة عامة، بتعرض سلالة آيسن الثاني إلى تحديات قوية. تمثلت من جهة، بانتعاش الآشوريين، وعودتهم كقوة مؤثرة في شمال بلاد الرافدين[٢١٤]. ومن جهة أخرى، فقد تعرضت بلاد بابل إلى ضغوط من الأقوام الآرامية، وتدخلها في شؤون السلطة السياسية. وقد تزايد شأنهم بمرور الزمن في بلاد بابل. إذ توالت على الحكم سلالات آرامية لا يُعْرَف الكثير عنها[٢١٥].

وفي نهاية المطاف، تعرضت بابل إلى حملات عسكرية من الملوك الآشوريين (سنحاريب)، و(اسر)، و(حدون)، و(آشور بانيبال). وتمكنوا من توحيد البلاد. وعندما تمرد (شمش – شوم – اوكن) ضد شقيقه الملك (آشور بانيبال)، وبتحريض من الأقوام العيلامية، شن حملة عسكرية على بابل والأمراء المتمردين فأخضعهم جميعًا، وفتح بلاد عيلام، ودمر عاصمتهم سوسة. كما فتح مدينة بابل. وتم توحيد البلد مجددًا[٢١٦]. لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ بلاد الرافدين. وهذا ما سوف نعرج عليه في الفصل الآتي.

هوامش الفصل الرابع

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر: طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣. عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧. سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي القديم، ضمن كتاب العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣. مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٤١. سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨. عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

(٢) قوانين حمورابي: صفحة رائعة من حضارة وادي الرافدين، ترجمة: محمود الأمين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧، ص ٧.

(٣) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.

(٤) مزهر الخفاجي، جذور الثورة والعنف والاستبداد في المجتمع العراقي القديم، منشورات زين الحقوقية، بيروت ٢٠١٩. ص ١٨٩.

(٥) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٦) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

(٧) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

(٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦.

(٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩.

(١٠) أنستانس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.

(١١) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(١٢) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨.

(١٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.

(١٤) سبتينو موسكاتي، الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.

(15) Abdul - Kader. J.Mustafa, The Old Babylonian Tablets From Me - Turan, Glasgow University, 1983, p. 234.

(١٦) نخبة من اللاهوتيين، قاموس الكتاب المقدس، دائرة المعارف الكتابية المسيحية، ط ١٠، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٥، شرح لفظة (بابل).

(١٧) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦.

(١٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

(١٩) سفر التكوين: ١٠: ١٠.

(٢٠) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

(٢١) سفر التكوين: ١١: ٩.

(٢٢) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

(٢٣) جميل نخلة المدور، تاريخ بابل وآشور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢، ص ١٦.

(٢٤) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦.

(٢٥) لمزيد من التفصيل انظر: رضا جواد الهاشمي، مردوك: عظيم آلهة بابل، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، مج ١٦- العدد ٣ لسنة ١٩٨٧، ص ٤٠ - ٤٨.

(٢٦) قوانين حمورابي، مصدر سبق ذكره، ٨.

(٢٧) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

(٢٨) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢٩) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨.

(٣٠) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٣١) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

(٣٢) لمزيد من التفصيل انظر: نجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤ - ١٨٦. بلا بورت، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣ - ٤٧.

(٣٣) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٢.

(٣٤) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

(٣٥) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٣٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٠.

(٣٧) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٣٨) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.

(٣٩) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.

(٤٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٠.

(٤١) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

(٤٢) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٤٣) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.

(٤٤) فاروق الراوي، الصراع مع العيلاميين، ضمن كتاب: الصراع العربي - الفارسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٥، ص ١٩٥.

(٤٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٤٦) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥. طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤١١.

(٤٧) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥.

(٤٨) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٤٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٠.

(٥٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤١١.

(٥١) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦.

(٥٢) من الجدير بالذكر، أنه قام (فرنسيس ستيل) بنشر مواد هذا القانون لأول مرة عام ١٩٤٨. انظر: F.R. Steele, in AJA. Vol. L 11, 1948, p. 425 - 450.

(٥٣) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.

(٥٤) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٧.
(٥٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥.
(٥٦) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.
(٥٧) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.
(٥٨) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢.
(٥٩) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٦.
(٦٠) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.
(٦١) المصدر السابق، ص ٨٨.
(٦٢) للتفصيل انظر: أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦ - ٢٥٤.
(٦٣) طه باقر، مقدمة، ص ٤١٧ - ٤١٨.
(٦٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣.
(٦٥) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.
(٦٦) المصدر السابق، ص ١٨٥.
(٦٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥.
(٦٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠.
(٦٩) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (حمورابي).
(٧٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥.
(٧١) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، بغداد ١٩٧٩، ص ١٦٨.
(٧٢) طراد الكبيسي، حمورابي ملك بابل وعصره، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، مج ١٦ - العدد ٣ لسنة ١٩٨٧، ص ١٧٥.
(٧٣) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكراه، ص ٣٦.
(٧٤) أحمد ربيع عبد المنعم، نبوخذ نصر ومملكة بابل، دار مشارق للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٨، ص ١٤.
(٧٥) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(٧٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٩.
(٧٧) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢١.
(٧٨) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.
(٧٩) قوانين حمورابي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠ - ١١.
(٨٠) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٨١) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥.
(٨٢) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (حمورابي)
(٨٣) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١.
(84) G. Rouk, Ancient Iraq, London 1980, p. 18.
(٨٥) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٧.

(٨٦) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤.
(٨٧) للتفصيل انظر: قوانين حمورابي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠ - ٨٩.
(٨٨) حسن ظاظا، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.
(٨٩) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.
(٩٠) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (حمورابي)
(٩١) روجر ماثيو، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.
(٩٢) المصدر السابق، ص ١٩٤ - ١٩٥.
(٩٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦.
(٩٤) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.
(٩٥) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٩٦) طراد الكبيسي، مصدر سبق ذكره، ص ٣.
(٩٧) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
(٩٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.
(٩٩) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
(١٠٠) قوانين حمورابي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠.
(١٠١) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.
(١٠٢) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.
(١٠٣) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.
(١٠٤) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٨
(١٠٥) سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(١٠٦) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.
(١٠٧) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١
(١٠٨) آرنست كاسيرر، الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٧٩ - ٨٠.
(١٠٩) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧.
(١١٠) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧.
(١١١) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (بابل)
(١١٢) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(١١٣) المصدر السابق، ص ١٥.
(١١٤) سفر دانيال: ٣: ٥.
(١١٥) محمد الأعظمي، حمورابي، بغداد ١٩٩٠، ص ٩٧.
(١١٦) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٩.
(١١٧) لمزيد من التفصيل انظر: سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ٩١ - ٩٣.

(١١٨) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(119) Leo - openhiem, A. L. Babylonian and Assyrian Historical Texts, in 1969, p. 267.

(١٢٠) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.

(121) Kaus. F. R. Briefe Ansder, Archive des Samas - Hazir, Vol. 4, London 1968. No. 11. P. 7.

(١٢٢) نقلًا عن عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.

(١٢٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.

(١٢٤) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.

(١٢٥) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢.

(١٢٦) محمد جواد الهاشمي، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.

(١٢٧) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.

(١٢٨) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ٢٥٣.

(١٢٩) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(١٣٠) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣.

(١٣١) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (بابل)

(١٣٢) رضا جواد الهاشمي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

(١٣٣) المصدر السابق، ص ٤٣.

(١٣٤) انظر ملحمة الخليقة في: رينيه لابات، المعتقدات الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨ - ٨٠.

(١٣٥) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢.

(١٣٦) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.

(١٣٧) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٨.

(١٣٨) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.

(١٣٩) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٨.

(١٤٠) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩.

(١٤١) انظر النص الكامل لقانون حمورابي في: قوانين حمورابي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٩٠. كذلك، أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩ - ٣١٠. كذلك، ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢ - ١٦١.

(١٤٢) عبد العزيز الياس الحمداني، ص ١٠١.

(١٤٣) المصدر السابق، ص ١٠٠ - ١٠١.

(١٤٤) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.

(١٤٥) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦.

(١٤٦) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦.

(١٤٧) قوانين حمورابي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

(١٤٨) فوزي رشيد، الجيش والسلاح، فصل ضمن كتاب حضارة العراق، ج ٢، بغداد ١٩٨٥، ص ٥٣.

(١٤٩) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.

(١٥٠) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١ - ٢٣٢.
(١٥١) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٠.
(١٥٢) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦.
(١٥٣) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٨.
(١٥٤) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.
(١٥٥) للتفصيل انظر: مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩ - ٢١٢.
(١٥٦) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩.
(١٥٧) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩.
(١٥٨) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.
(١٥٩) ليو مينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩.
(١٦٠) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.
(١٦١) مجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٩ - ٢٠٠.
(162) Georges Roux, Ancient Iraq, Pengmin Books, 1980, p. 225.
(١٦٣) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧.
(164) Georges Roux, op. cit. p. 2255.
(١٦٥) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤.
(١٦٦) عبد العزيز الياس الحمداني، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤.
(١٦٧) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(١٦٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.
(١٦٩) حول هذه التغيرات الاقتصادية انظر: مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢ - ٢١٦.
(١٧٠) وليد الجادر، المحاورة التشاؤمية، مجلة الأقلام - بغداد، العدد ١٠ - حزيران ١٩٦٩، ص ٥٠.
(١٧١) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.
(١٧٢) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٣.
(١٧٣) كريمر، السومريون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٥.
(١٧٤) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٠.
(١٧٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩.
(١٧٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٧.
(١٧٧) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩. سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦ - ١٨٧.
(١٧٨) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(١٧٩) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠.
(١٨٠) المصدر السابق، ص ١٧١.
(١٨١) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٩.
(١٨٢) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤.

(١٨٣) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣
(١٨٤) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩١.
(١٨٥) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.
(١٨٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٩.
(١٨٧) سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤ - ١٠٥.
(١٨٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٦.
(١٨٩) نجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩ - ٢١١. عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٨.
(١٩٠) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.
(191) S. Moscayi, The Face of the Ancient Orient, London 1960, p. 154.
(١٩٢) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨١. سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣
(١٩٣) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٧.
(١٩٤) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.
(١٩٥) حول الملوك الكشيين انظر: ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤ - ١٧٩. محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٤ - ٣٠٧.
(١٩٦) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧١.
(١٩٧) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٤.
(١٩٨) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.
(١٩٩) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩١.
(٢٠٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥١.
(٢٠١) ستيفن همسلي لونكريك، العراق منذ فجر التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.
(٢٠٢) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٧.
(٢٠٣) جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة: سليم التكريتي، بغداد ١٩٨٦، ص ١٠٤.
(٢٠٤) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠ - ٣٠١.
(٢٠٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦١.
(٢٠٦) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.
(٢٠٧) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.
(٢٠٨) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.
(٢٠٩) المصدر السابق، ص ١٦٠.
(٢١٠) للتفصيل حول تلك الوثيقة انظر: سامي سعيد الأحمد، العصر البابلي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠ - ١١٧.
(٢١١) للتفصيل انظر: زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٥ - ٣٠٢.
(٢١٢) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨.
(٢١٣) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.

(٢١٤) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٥.
(٢١٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٣.
(٢١٦) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.

الفصل الخامس

ملامح الدولة العراقية في العصر الآشوري

سوف نقسم هذا الفصل إلى أربع مباحث أساسية هي:

المبحث الأول: التعريف بالآشوريين.

المبحث الثاني: مرحلة ما قبل الإمبراطورية العراقية الآشورية.

المبحث الثالث: المرحلة الممهدة للإمبراطورية العراقية الآشورية.

المبحث الرابع: مرحلة الإمبراطورية العراقية الآشورية.

المبحث الأول

التعريف بالآشوريين

مـن أجـل تقديم صـورة واضحة عن الآشـوريين، لابد من تسـليط الضـوء على أصل تسمية (آشور)، وبيان أصولهم العرقية ولغتهم، ومعتقداتهم الدينية، وموطنهم وهجراتهم، ومدنهم، وتحديد زمن نهوضهم، وأطوارهم.

المطلب الأول
إشكالية التسمية

رغـم كثـرة البحوث والدراسـات التي تناولت الحضارة الآشـورية، بيد أنـه لا يُعْرَف معنـى لفظة (آشـور)، على وجـه الدقة. **حيـث وردت في نصوص العهد القديـم على أربعة معان هي:**[1]

أ – تارة تشير تلك النصوص إلى (آشور بن سام).

ب– وتارة تشير تلك النصوص إلى (بلاد آشور)، أو (شعب آشور).

ج – وتارة تشير تلك النصوص إلى (آشور بانيبال).

د – وتارة أخرى تشير تلك النصوص إلى (آشور ناصر بال).

وأطلق عليها رئيس أسـاقفة سـعرد الكلداني الآشوري (أدي شير) لفظة (آثور). وهي المنطقة التي يُطْلق عليها حاليًا (قلعة شرقاط). وقد ورد اسمها في تواريخ الكلدان النصارى بلفظة (شهر كرد)، أو (شهر قرد)[2].

وذهـب العلامـة (طه باقر) إلى أن لفظة (آشـور) كانـت تكتب على هيئة (آ – أوسـار) (A – USAR)، والتي يبدو وكأنها كتابة سومرية رمزية. بيد أن الكتابة المألوفة بصيغة آشور (Ashur – k i) هي أقدم ما جاء في النصوص الأكدية المكتشفة في مدينة (نوزي). وغلب في الاستعمال في الأدوار الآشورية الحديثة أن يضعف حرف الشين فيقال (Ash – shur)[3].

وقد وردت كلمة (آشور) في المصادر الآرامية تحت اسم (آثور). أما في المصادر المسمارية فقد عُرِفَت بلاد الآشـوريين باسـم (مات آشور) أي (بلاد آشـور). أما في المصادر المصرية، فقد ذُكِرَت، لأول مرة، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسـم (آسـور) في عهد الفرعون (تحوتمـس الثالـث) (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م). حيث ذكـرت أن أميرها قد أهدى إلى فرعون مصر كمية من اللازورد الحر وأحجار كريمة[٤].

وذهبت (ايفا كانجيك) إلى القول، أن لفظة (آشور) مأخوذة من اليونانية. وكان سكان اليونـان قـد أخذوهـا بدورهم من الصيغـة الأكديـة (Mat Ashur) أي (بلاد الإله آشـور)، وعدلوه بشـكل يتناسـب مع لغتهـم الخاصة. واسـتخدموه، بالدرجـة الأولى، للدلالة على المقاطعة المنضوية تحت سـيادة آشـور. ولم يكن لاسـتخدامه في المصادر الكلاسيكية أي بُعْد عرقي[٥].

مـع ذلـك كله، لا زال الغموض يكتنف أصل هذه التسـمية. فهل أن تسـمية (آشـور) كانت قد أُطْلِقَت في بداية الأمر على البلاد التي اسـتقر فيها الآشـوريين؟ أم أنها كانت تُطْلَق على الآشوريين ثم سُمِيَّت البلاد بهذا الاسم؟ أم أنها أُطْلِقَت على إلههم القومي (آشور)، ثم جُعِلَت صفة نُعِت بها الآشوريون؟

والراجح أن تسمية (آشور) مشتقة من اسم عاصمتهم. وذلك للأسباب الآتية:

أ - أن تسمية الأقوام بأسماء المدن أمر مألوف في تلك الحقبة الزمنية، مثل تسمية الأكديين نسبة إلى عاصمتهم أكد، وكذلك تسمية البابليين نسبة إلى عاصمتهم مدينة بابل.

ب- ويلاحـظ أن الأقـوام القديمـة التـي اسـتقرت في بـلاد الرافديـن كالسـومريين والأكديين والبابليين لم يطلقوا على أنفسهم اسم إلههم القومي، إنما نسبوا أنفسهم لمكان استقرارهم.

ج - كما ورد في بعض النصوص القديمة كلمة (Gasur) المشـابهة للفظة (آشور)، لتدل على قدم هذه التسمية[٦].

د - أضـف إلى ذلك، يدل مصطلح (بلاد آشـور) في الاسـتخدام اللغوي المعاصر على

إطـار جغرافي وتاريخي، شـكل جزءً مـن موطن حضارات الـشرق الأدنى القديم عمومًـا، وجزءً من بلاد وادي الرافدين خصوصًـا. وهي الدلالة التاريخية المحددة على كيان سـياسي كانت مناطقه المركزية الأساسـية تمتد غربي دجلة وشرقها ما بين الـزاب الأعلى والزاب الأسـفل. هذا إذا اسـتبعدنا جانبًا توسـعاته الجغرافية التي بلغهـا عـبر قرون من الزمان. وبذلك يتوافق إطار المناطق المركزية لبلاد آشـور بين محيط المدن (نينوى وأربيلا وآشور) مع الوضع الحالي لشمال العراق[٧].

عليـه، يتبين، أن كلمة (آشـور) إنما تعني، في الواقع، الإقليم المعروف بهذا الاسـم. كما تعنـي المدينـة التـي تحمله، والمعبود الـذي كان يُعْبَد هنـاك. ومن ثم أُطْلِق الاسـم على الإله القومـي للآشـوريين. وظلـت هذه التسـمية ملازمة لهم حتـى بعد زوال كيانهم السـياسي، وسقوط عاصمتهم نينوى عام ٦١٢ ق. م.

المطلب الثاني
إشكالية أصل الآشوريين

لم يكن الآشوريين من الأقوام الأجنبية عن سكان العراق الآخرين الذين عاشوا قبلهم أو بعدهم. إذ أنهم ينتمون إلى الأصول الاجتماعية نفسها، وإلى الشجرة ذاتها، والتي تفرعت عنهـا الأقوام الأكديـة والبابلية والكلدية والآراميـة والعربية. وهي الأقوام الرئيسـية التي اسـتوطنت العراق منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد وما بعده. وكان منبت تلك الشـجرة الأولى في شـبه الجزيرة العربيـة[٨]. لذلك اتصفت معتقداتهم الدينيـة، وأفكارهم، وحياتهم الاجتماعية، والاقتصادية بالصفات العامة التي اتصفت بها مثيلاتها عند بقية سـكان العراق القديـم[٩]. حيـث وصلت مظاهر الحضارة السـومرية إلى شـمالي بلاد الرافديـن منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وبشـكل خاص عبر طرق القوافل التجارية. وظهرت شـبكة من المحطـات التجاريـة التي تربط دويلات المـدن في جنوبي بلاد الرافدين مع المناطق الشـمالية البعيدة. وبذلك انتقل نظام التدوين الكتابي واللغة السـومرية وتقاليدها الكتابية إلى الشمال مع البضائع المتنوعة. وذلك في الألف الثالث قبل الميلاد[١٠].

عليه ذهب أغلب الباحثين إلى القول أن الآشوريين من الأقوام السامية الجزرية التي هاجرت من الجزيرة العربية بوصفها مهد الأقوام الجزرية[١١]، والتي كانت تُسمى سابقًا بالأقوام السامية كما كان متفق عليه لحد الآن بين الباحثين[١٢]. وربما يرجع سبب اندفاعهم نحو بلاد الرافدين يَكْمُن في تغير الظروف المناخية في الجزيرة العربية، ووجود مناطق جذب ذات عناصر حضارية متميزة كونتها لهم بلاد الرافدين خلال تلك الحقبة الزمنية.

وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية الجزرية. إذ أن اللغة التي تكلم بها سكان بلاد آشور هي اللغة الآشورية. وهي إحدى فروع اللغة الأكدية القديمة، والتي انتشرت في كثير من مناطق بلاد الرافدين منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد[١٣]. وربما كان الآشوريون يؤلفون مع الأكديين الذين استقروا في الجنوب، موجة جزرية واحدة جاءت عن طريق الغرب[١٤]. كما استخدموا الخط المسماري ذاته الذي ابتدعه السومريون[١٥].

وفي ملمح آخر، أكد العلامة (طه باقر) بأن الكثير من أسماء الأعلام الآشورية تحتفظ بالصيغ الأكدية وعلى الأخص في العهد الآشوري القديم، الأمر الذي حمل بعض الباحثين على القول بأن الكثير من الآشوريين ينتمون إلى أصل أكدي. وفي الوسع الوقوف على أثر الثقافة الأكدية في بلاد آشور من صيرورة الملوك الأكديين مثلًا يُحْتَذَى بهم من جانب الملوك الآشوريين في العصور اللاحقة[١٦].

وقد ترتبت نتائج سياسية – فكرية على هذا التأثر منها:

أ – ابتعاد الفكر السياسي الآشوري عن نموذج دولة المدينة الذي كان سائدًا في العصور السومرية رغم أنه كان نظامًا مفضلًا لدى سكان جنوب بلاد الرافدين. وبدلًا من ذلك، تبنوا فكرة المملكة الموحدة الواسعة ضمن إطار فكر إمبراطوري تتحكم، إلى حد كبير، في السلوك السياسي لملوك بلاد آشور.

ب– كما احتسب الآشوريون الملوك الأكديين بمثابة ملوكهم القدماء. لذلك احتفظ الملوك الآشوريين بألقاب الملوك الأكديين. ومن الألقاب الأكدية التي احتفظ

بها ملوك بلاد آشـور (ملك جميع الأقطار) و(ملك العالم). وذلك كله يفصح عن عمق أثر الثقافة الأكدية في بنية الحضارة الآشورية.

وتدور على بسـاط البحث نظريتان تبحثان في خط مسـار الآشوريين من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين هما:

أ - **النظرية الأولى**: ذهبت إلى القول أن الآشـوريين اسـتوطنوا بعد هجرتهم البعيدة في الموصل مباشرة. وذلك في الألف الثالث قبل الميلاد[١٧].

ب- **النظريـة الثانية**: وهـي النظرية الأقدم، حيث يرى أصحابها أن هجرة الآشـوريين من الجزيرة العربية إبان الألف الثالث قبل الميلاد، كان في وسـط العراق وجنوبه، ثـم ارتحلوا إلى الشـمال ليسـتقروا في موطنهم الـذي يمتد لمسـاحات مختلفة حول مدينـة الموصـل. وتعد هذه النظرية مـن أطروحات نصوص العهـد القديم الذي ورد فيه (وكوش ولد نمرود، وهو أول جبار في الأرض... وكان أول مملكته بابل وأرك وأكـد وكلنـة في أرض شـنعار. ومن تلك الأرض خرج آشـور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالح، وراسن بين نينوى وكالح وهي المدينة العظيمة)[١٨].

وهذا ما ذهب إليه القس (أدي شـير)، الذي أشـار إلى أنهم خرجوا من كلدو (أكد) إلى (آشور) واستوطنوا فيها. وقد استدل على وجهة نظره على نصوص العهد القديم من جهة، وكذلك على تَدَاخُل لغة الآشوريين والأكديين، وديانتهم، وتمدنهم من جهة أخرى[١٩].

كما رجح العلاَّمة (طه باقر) صحة هذه النظرية بقوله أن الآشوريين لم يأتوا مباشرة من الجزيرة العربية إلى شـمال العراق، إنما استوطنوا بعد هجرتهم البعيدة في بوادي الشام وبادية العـراق كـما كان حـال الأموريـين. ثم حلـوا في زمن ما من الألـف الرابـع أو مطلع الألف الثالث قبل الميلاد في بلاد آشور[٢٠].

أضف إلى ذلك، يمكن احتساب التشابه الكبير ما بين اللهجة الأكدية القديمة واللهجة الآشـورية المسـتخدمة دليل على أن الآشـوريين كانوا يعيشـون إلى جنب الأكديين أولًا، ثم هاجروا إلى القسم الشمالي من العراق القديم.

وقد عرفت منطقة استقرارهم في شمال العراق باسم (بلاد آشور)، التي تقع في بقعة استراتيجية مهمة امتازت تحصيناتها بالمتانة، فسيطرت على الطريق الذي يربط ما بين سومر وأكد من جهة، والأقاليم الشمالية وأراضي الجزيرة العليا من جهة أخرى[٢١]. حيث حل الآشوريون بعد هجرة طويلة، بدائرة جغرافية من الأرض الخصبة وفيرة المياه. مركزها مدينة الموصل. يخترقها نهر دجلة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. ويمر بها الزابان الأعلى والأسفل. فحين يقترب الإنسان إلى بلاد آشور، فإنه يلحظ تغيرًا مهمًا في طبيعة الأراضي العراقية. إذ تتحول تلك الأراضي المنبسطة إلى حزم من السلاسل التلية التي تغدوا خضراء في فصل الربيع بما تحمله من محاصيل الحبوب والمراعي المزدهرة. وتخترق خطوط الوديان تلك السهول المتماوجة التي تمتلئ بالمياه بعد سقوط أمطار الربيع. عندها تلوح في الأفق سلاسل التلال العالية، التي تمثل مقتربات السلاسل الجبلية الشمالية[٢٢].

وتشمل بلاد آشور الأصلية مدينتي آشور (قلعة شرقاط) ونينوى وما حولهما. وتحتسب هذه المنطقة الجزء الشمالي من بلاد الرافدين. وتدل آثارهم على أنهم كانوا قد تواجدوا في تلك المنطقة، وعُرِفُوا بهذه التسمية في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد[٢٣].

وتقع بلاد آشور على نتوء من الحجر الجيري ذو ارتفاع كبير عند زاوية تكونت من مجريين اثنين لدجلة. وأعطى هذه المدينة حماية طبيعية من جهتين. من جهة اليابسة، فكانت وسائل دفاعها كاملة على شكل تشكيلة من جدران قوية هلالية تحيط بمنطقة عرضها ثلاثة أرباع الميل. ومن جهة أخرى يمكن تتبع محيط التحصينات الكامل كاشفًا البوابات الرئيسية، ومرافئ لجانب النهر، والمزايا الأخرى. وقد أظهرت حفريات (اندره) الرئيسية بأن الملوك الآشوريين المتتابعين قاموا بإعمار البنايات والتحصينات بعد زمن طويل من توقف المدينة كعاصمة إدارية لهم[٢٤].

و يقسم سطح أرض بلاد آشور إلى ثلاثة أقسام أساسية هي:[٢٥]

أ – السلاسل الجبلية التي تتكون من ثلاثة مجموعات رئيسية. الأولى تمتد من جبال حمرين إلى سنجار. والثانية تمتد من الحدود العراقية وتنتهي شرق كركوك. والثالثة

عبارة عن سلاسل جبلية منعزلة تحيط بها هضاب منخفضة. وقد تمكنت الأنهار من تقطيع هذه السلاسل والهضاب. فضلًا عن منطقة الجبال العليا، والتي تمثل ربع مساحة المنطقة الشمالية. وتقع بين المنطقة شبه الجبلية والحدود العراقية – الإيرانية والحدود العراقية التركية.

ب- السهول التي تتكون من سهل حمرين، وسهل أربيل، وسهل ويبكة.

ج- الهضاب وهي مناطق أكثر ارتفاعًا وتموجًا من السهول عُرِفَت منها هضبة كركوك والموصل.

أضف إلى ذلك، تَكْمُن قوة بلاد آشور في أراضيها الخصبة الصالحة للزراعة، خصوصًا في سهول الموصل وأربيل[٢٦]. وكان أسلوب الري (الديمي) وطبيعة الأراضي المتموجة سببًا في كون بلاد آشور لم تعاني من مشكلة الملوحة في تربة أراضيها الزراعية، بخلاف ما كانت عليه بلاد سومر، وبابل، وأكد التي كانت تعاني دائمًا من مشكلة الملوحة[٢٧].

ورغم ثراء البيئة الطبيعية الآشورية بالأمطار والأراضي الخصبة الملائمة لقيام الزراعة الديمية، إلاَّ أنها في سنوات الجدب، تضع الإنسان أمام تحديات حقيقية. لذلك يمكن احتساب البيئة الآشورية ضمن إطار البيئة الوسط لأنواع البيئات. إذ تهاجم الإنسان في عقر داره وتدفعه للصراع، فتخلق في كينونته اشتراطات سيكولوجية ترتكز على فعل التحسب والترقب واقتراح الحلول. فحين يهاجم المحفز البيئي المهدد، يستدعي الفكر لإيجاد الحلول، فيتم بناء القفزة الحضارية الأولى في سلم الحضارة، وبفعل تصاعد جولات الصراع، يتم بناء الخبرة المستندة إلى التجريب مع ضغوط عوامل البيئة كنظم علاقات متفاعلة في جدل مستمر[٢٨].

ومن الجدير بالذكر، أن بلاد آشور لم تكن أرضًا جرداء أو فضاء أرضي خال، إنما سكنوا بقاعًا سبقهم إليها قوم آخرون أُطْلِق عليهم (سوبارتو)[٢٩]، لذلك كانت بلاد آشور تسمى (بلاد سوبارتو)، وهو المصطلح الذي ظل مستعملًا في المصادر البابلية رغم تحاشي الآشوريين إطلاقه على مناطقهم[٣٠].

مع ذلك ظلت الجماعات البسيطة في بلاد آشور مستمرة في حياتها البدائية ردحًا من الزمن. ربما لأن التحديات الطبيعية التي واجهها الإنسان في بلاد آشور لم تدفعهم إلى توحيد تلك الجماعات في وحدات كبيرة ومتطورة على غرار ما حدث في جنوب بلاد الرافدين[٣١].

وبقي الإنسان في بلاد آشور يعيش على هذا المنوال إلى أن تحفز عقله لمواجهة الحياة والطبيعة بشكل أفضل. وذلك لأسباب عديدة منها:

أ - الأخطار والتحديات المحيطة ببلاد آشور من كل صوب.

ب- سنوات الجدب التي مثلت تحديًا حقيقيًا لحياة الإنسان في بلاد آشور، والتي تقتضي التغلب عليها بالعمل الجماعي المنظم وتفعيل العقل والإرادة.

ج- خاصية الانفتاح الجغرافي على حضارات بلاد الرافدين وتمدنها. فتعكزت الذاكرة الآشورية على معطيات سومر، وأكد، وبابل باحتسابها وريثتها الوحيدة في خاصية الهوية العراقية.

لذلك كان النضوج الحضاري في بلاد آشور نتيجة تفاعل الإنسان مع الطبيعة وتحدياتها من جهة، ومع الانفتاح على حضارات بلاد الرافدين من جهة أخرى. إذ اتصفت معتقداتهم الدينية، وأفكارهم، وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية، ونظمهم الأخرى المختلفة، بالصفات العامة التي اتصفت بها معتقدات ونظم وأفكار بقية سكان العراق، حتى غدا من الصعب على الباحث أن يميز بين أصول العناصر الحضارية العراقية، أهي سومرية؟ أم أكدية؟ أم بابلية؟ أم آشورية؟.

ورغم أن الفكر الآشوري، كان قد تبنى قائمة طويلة من الأشكال الرمزية للآلهة التي تعود أصولها إما إلى الظواهر الطبيعية، أو مستوحاة من التراث السومري والأكدي والبابلي، بيد أنهم تبنوا تقديس الآلهة المشهورة لديهم، ومنها الإله المزعوم (أدد) إله الزوابع الرعدية والأمطار، والذي قفز إلى مركز مرموق في تراتبية القوى الماورائية في مسلمات الفكر الآشوري.

وعلى غرار البلاد البابلية، عرفت بلاد آشور أيضًا، تجديدًا في عبادة عشتار (الصلاة). ولكن بعد ذلك عانت الآلهة القومية (عشتار نينوى) من الاستعباد الأجنبي حينما خضعت البلاد للغزاة الحوريين. لذلك كان الملك الآشوري (آشور ناصر بال الأول) يفتخر بميلاده السري، وادعى أنه بذلك افتتح سلالة جديدة. فكان يريد أن يضع هذه السلالة تحت راية دورة جديدة للآلهة. كما فعل قبله سرجون الأكدي.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه العبادة (الصلاة) التي ظلت شهيرة لم تكن مجرد عمل أملته الظروف. وإذا قام الملك (آشور بانيبال) بعد ثلاثة قرون بإنجاز نسخة منها لمكتبة بلاط نينوى[٣٢]؛ فذلك لأنها كانت بالتأكيد مازالت تعد شهادة مهمة في التقليد الديني للملكة الآشورية.

المطلب الثالث
عواصم بلاد آشور

عمل الآشوريون باندفاع لا تحده حدود، وانجزوا مراكز سكانية مزدحمة، وبنوا حضارتهم المميزة بين شعوب العالم، بعد أن اكتشفوا أن سر وجودهم يَكْمُن بالعمل الجمعي والتعاون الاجتماعي واسع النطاق. مثل هذا الشعور بحميمية صفة الهوية لدرجة أنه فعل صفة المواطنة داخل كل مواطن آشوري. فكانت العواطف المشتركة عامل وحدة وطنية ملحوظة في بلاد آشور[٣٣].

ويلاحظ من الأدلة الأثرية، أنه كان يقع في وسط المدن الآشورية كافة، برج عال ذو سبع طبقات يسمونه (زقرته) أي (زقورة). ويعد ذلك هيكلًا يشيدونه لإكرام آلهتهم وتعظيمها[٣٤]. وكان لكل مدينة آشورية إله خاص بها، بيد أن (الإله المزعوم آشور) مثَّل أعظم الآلهة لديهم[٣٥].

وفي هذا الصدد، سوف لن ينصرف الباحث إلى الحديث عن المدن الآشورية كلها، إنما سيركز على عواصم بلاد آشور بحكم أنها أهم المدن التي شهدتها البلاد.

١- العاصمة آشور

تعد مدينة آشور أولى عواصم الآشوريين. وقد استمرت مركزًا سياسيًا للبلاد مدة طويلة من التاريخ العراقي القديم. وتقع على الضفة الغربية من نهر دجلة. وتبعد حوالي ٤٠ ميلًا جنوب الزاب الأعلى. وأنها كانت العاصمة القديمة لبلاد آشور. وقد تم التنقيب فيها من الجمعية العلمية الشرقية الألمانية في المدة ما بين ١٩٠٣ - ١٩١٤م. وقد اهتم بها الملوك الآشوريين، بيد أن الملك (آشور بانيبال) نقل عاصمته إلى مدينة نمرود[٣٦].

وتظهر القطع الفخارية العائدة إلى الألفين السادس والخامس قبل الميلاد، المُكْتَشَفَة في منطقة شرقي دجلة، أن هذا الحيز الجغرافي كان مأهولًا بالسكان منذ عصور ما قبل التاريخ. ومن المحتمل أن الموقع الاقتصادي المتميز، كان يتمتع، منذ زمن مبكر، بأهمية فائقة لدى السكان القاطنين في محيطها. ويمكن افتراض أنه كان يشكل نقطة التقاء محورية[٣٧].

أضف إلى ذلك، تعد آشور العاصمة الدينية المقدسة للآشوريين. من هنا أصبحت سطوتها تشبه سطوة (الفاتيكان) الدينية على أوروبا في عالمنا المعاصر. إذ كانت بمثابة المكان المقدس الذي دُفِن فيه عددًا من الملوك الآشوريين، أو في معابدها كانت تقام الطقوس الدينية للملكية الرسمية. وفي العادة يُتَوَّج الملك الجديد فيها، بعد أن يعمده كهنتها بوصفهم كبار رجال الدين في البلاد[٣٨].

٢- العاصمة نمرود (كالح)

وهي مدينة آشورية بناها (النمرود) أو (شعب النمرود) حسب نصوص العهد القديم، التي وصفت المدينة بأنها (هي المدينة العظيمة)[٣٩].

سماها الآشوريون (كلخو)[٤٠]، وأطلق عليها في العهد القديم اسم (كالح)[٤١]. وقد أعاد بناءها الملك الآشوري (شلمنصر الأول) بعد أن اعتراها الخراب في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد. ثم رممها الملك (آشور ناصر بال)، وبنى فيها قصرًا، وجعلها مقرًا ملوكيًا. وبقيت

(نمرود) مسكن الملوك الآشوريين المفضل مدة من الزمن تزيد على ١٥٠ سنة. وأطلالها الموجودة الآن على بُعد ٢٠ ميلًا جنوبي نينوى يُطْلَق عليها اسم نمرود[٤٢].

وتعد نمرود من المدن الكبيرة التي تقع شمالي بلاد ما بين النهرين العليا، وقد صممها مجددًا الملك (آشور ناصر بال) (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م) خلال سنوات حكمه الأولى. وكانت على شكل مربع مع أبعاد تصل في حدها الأقصى ١,٢٥ ميلًا على وجه التقريب. ويحد موقعها من الجانب الغربي نهر دجلة، وإلى الجنوب قناة يتحول لها الماء من نهر الزاب الأعلى، وفي الزاوية الجنوبية الغربية، هناك تل تكون من بقايا المستقرات الأولى، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية، هناك أيضًا منطقة مسيجة تحوي مخزنًا ملكيًا[٤٣].

٣- العاصمة (كار – توكتلي – ننورتا)

أسس هذه المدينة الملك الآشوري (توكتلي – ننورتا الأول)، (١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م)، واتخذها عاصمة لدولته، وأضفى عليها اسمه (كار – توكتلي – ننورتا). وتقع هذه المدينة على بعد ثلاثة كيلومترات من مدينة آشور. وقد شيد بها قصرًا بقيت منه أطلال طفيفة صورت بها الملك يقاتل بعربته الحربية منفردًا حينًا، ومشتركًا في الحرب إلى جوار جنوده حينًا آخر[٤٤].

وقد قام هذا الملك بتأسيس هذه المدينة تخليدًا لتحريره مدينة بابل من الاحتلال العيلامي. وأطلق عليها اسم (كار – توكتلي – ننورتا)، والتي تعني حصن أو مدينة. وتُعْرَف أطلالها الآن باسم (تلول العقر) على الضفة اليسرى من نهر دجلة[٤٥]. وهي العاصمة الثالثة للمملكة الآشورية.

٤- العاصمة دور شروكين (خرسباد)

وهي العاصمة الرابعة للملكة الآشورية. أسسها الملك (سرجون الأكدي) في سبع سنوات[٤٦]. وتقع على بعد اثنتي عشر ميلًا شمال شرق نينوى.

وقد قام بالتحري عن هذه المدينة منقبون منذ عام ١٨٤٢م. ويبدو أنها استمرت مقرًا

للحكم لمدة قرن تقريبًا. وأن عمليات التنقيب أظهرت مخطط المدينة بقلعتها وتماثيلها وبعض الألواح الطينية، التي من بينها قائمة الملوك الآشوريين المشهورة[٤٧]. وكان من جملة ما كشفه المُنَقِب الآثاري (الموسيو بوتا) فيها قصر الملك سرجون ولي عهد الملك (شلمنصر الرابع) وحواليه أبنية أخرى تعزى إليه[٤٨].

وفي أقسام المراسيم وغرف الدولة في القصر الملكي، مُلِئَت بتشكيلة منحوتات الثيران المجنحة التي تحرس المداخل الثلاثة لغرفة العرش[٤٩].

٥- العاصمة حران

وهي العاصمة الخامسة للمملكة الآشورية، والتي ورد اسمها في العهد القديم بصيغة (حاران). إذ ورد فيه: (حاران، وكنة، وعادان، وتجار شبأ، وآشور، وكلمند متجرون معك)[٥٠].

تقع هذه المدينة شمالي بلاد ما بين النهرين العليا. وقد تم إثباتها منذ وقت مبكر في نصوص حثية عُثِر عليها في منطقة (بوغاز كوي). كما ثبت وجودها في نصوص العهد القديم كما أسلفنا، وفي نصوص ملكية آشورية من الثلث الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد فصاعدًا. لقد قام بفتحها الآشوريون الذين اتجهوا نحو غرب البلاد. ثم أصبحت جزءً مكملًا لبلاد آشور الرئيسية أثناء حكم الملك (سرجون الثاني). وأخذت تنافس المدن الآشورية الرئيسية في أهميتها[٥١].

ومن الجدير بالذكر، أن إله القمر المزعوم كان الإله الرئيسي لهذه المدينة. حيث كان المعبد الكبير لإله القمر في مدينة حران. ويبدو أن إشعاع عبادة هذا الإله المزعوم لم يكن مرتبطًا بالوضع السياسي لهذه المدينة فحسب، إنما فرضت هذه العبادة ذاتها بنوع مستديم على بلاد ما بين النهرين برمتها. وغالبًا ما وجدت ارتباطات شخصية بين ملوكها وبين هذا الإله المزعوم. ولأهمية هذا الإله المزعوم عين الملك (آشور بانيبال) أحد أصغر أخوته حبرًا عظيمًا لمعبد حران[٥٢].

٦- العاصمة نينوى

وهي العاصمة السادسة والأخيرة للملكة الآشورية، والتي تم ذكرها عدة مرات في العهد القديم. إذ أن نصوص العهد القديم، كانت قد أشارت إلى أن مؤسسها أما الملك نمرود أو شعب النمرود (ومن تلك الأرض خرج آشور فبنى نينوى)[٥٣].

وزعم المؤرخ اليوناني (أكتازيس) أن مؤسس مدينة نينوى كان الملك (نينب)، أو (نينوس) كما يسميه الإغريق. وجلب إليها ما عدا الآشوريين أقوامًا غريبة متعددة. وقام بزخرفتها حتى صارت أعظم مدينة في العالم[٥٤].

وكانت نينوى تدين بالولاء لآشور، التي كانت تبعد عنها حوالي ستين ميلًا، إلى أن بنى الملك شلمنصر قصرًا له في نينوى حوالي عام ١٢٧٠ ق. م. واحتسبها عاصمة ملكه. واستمر خلفاؤه يسكنونها، ويعتنون بها لتزداد عظمة وغنى وجمالًا. وإلى جانب القصور الشاهقة، والشوارع الواسعة، والهياكل، والأسوار، والقلاع التي عرفت بها نينوى، بنى الملك (آشور بانيبال) حوالي عام ٦٥٠ ق.م، مكتبة عظيمة فيها، ضم إليها جميع الوثائق الحكومية، والإدارية، والرسائل الدبلوماسية، والمعاملات الداخلية، والأوامر الملكية، ونسخًا من المعاملات، والوثائق، والمراسلات، التي عثر عليها في بابل[٥٥].

وتقع مدينة نينوى على الضفة الشرقية من نهر دجلة. وقد قام الملك سنحاريب بتوسيعها إلى درجة كبيرة، وأعاد بناء أسوارها. وشيد فيها القصور والمباني الملكية والمعابد[٥٦].

وقد أصبحت نينوى من أشهر المدن في عصر الملك (سنحاريب) وخلفاءه؛ لأنها كانت عاصمة الحكم، حيث تُسَاق إليها الأرزاق، وتحشد إليها الناس من كل جهة. والملك يزيدها جاهًا وفخامة، حتى بلغت من العز والسطوة والغنى ما لم تبلغه مدينة أخرى في ذلك العهد[٥٧].

ويبدو أن أهمية المدينة لم ترتبط بمركزها السياسي فحسب، إنما قد ارتبط أيضًا بمعبد عشتار التابع لها. إذ قامت بلاد آشور بتجديد عبادة الإله المزعوم (آشور) على غرار بلاد بابل، والتي أصبحت من التقاليد الدينية للمملكة الآشورية[٥٨].

مع ذلك، فإن السلطة السياسية لمدينة نينوى كانت قصيرة الأمد، حيث أنها سقطت عام ٦١٢ ق. م على يد التحالف الثلاثي (الميدي - الكلدي - الأمانماندا) بعد حصار دام ثلاثة أشهر[٥٩].

المطلب الرابع
الأطوار التاريخية للعهد الآشوري

يمتد العصر الآشوري المتواصل بأطواره المختلفة، منذ بداية عصر ما قبل التاريخ حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية عام ٦١٢ ق. م.

وقد درج المؤرخون، وفق المنهجية التاريخية المعتمدة لديهم، على تقسيم العصر الآشوري إلى أربعة أطوار أساسية هي:

١- عصر ما قبل التاريخ: وهذا العصر يمتد من ظهور أقدم استيطان للإنسان في المنطقة، حتى بداية ظهور الكتابة في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد.

٢- العصر الآشوري القديم: وهذا العصر يمتد منذ عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، حتى عام ١٥٢١ قبل الميلاد.

٣- العصر الآشوري الوسيط: وهذا العصر يمتد منذ عام ١٥٢١ قبل الميلاد، حتى عام ٩١١ قبل الميلاد.

٤- العصر الآشوري الحديث: وهذا العصر يمتد منذ عام ٩١١ قبل الميلاد، حتى عام ٦١٢ قبل الميلاد.

وقد ارتأى الباحث الاستفادة من هذه المنهجية التاريخية دون التقيد بتحديداتها. لذلك انصرف إلى تقسيم العصر الآشوري، وفق منهجية سياسية - فكرية أكثر مما هي تاريخية.

وفي ضوء ذلك تم تقسيم العصر الآشوري إلى ثلاثة مراحل أساسية هما:

أولًا: مرحلة ما قبل الإمبراطورية العراقية الآشورية: وهذه المرحلة تمتد من عصر ما قبل التاريخ، حتى عام ١٥٢١ قبل الميلاد.

ثانيًا: المرحلة المُمَهِدة للإمبراطورية العراقية الآشورية.: وهي المرحلة التي تمتد من عام ١٥٢١ - ٩١١ ق. م.

ثالثًا: مرحلة الإمبراطورية العراقية الآشورية: وهي المرحلة التي تمتد منذ عام ٩١١ - ٦١٢ ق. م.

وبناء على ما تقدم كله، يتبين أن الآشوريين من الأقوام العراقية القديمة، بدلالة الجغرافية التي شغلتها، والتاريخ المشترك الذي جمعها مع الأقوام العراقية الأخرى.

المبحث الثاني

مرحلة ما قبل الإمبراطورية العراقية الآشورية

يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين أساسيين هما:

أولًا: العصر العراقي الآشوري ما قبل التاريخ.

ثانيًا: العصر العراقي الآشوري القديم (٢٠٠٠ – ١٥٢١ ق.م).

المطلب الأول

العصر الآشوري العراقي ما قبل التاريخ

يمتد هذا العصر من بداية عصر فجر السلالات في جنوب العراق حتى نهاية حكم سلالة أور الثالثة عام ٢٠٠٤ قبل الميلاد. حيث كانت بلاد آشور ضمن النطاق السياسي والثقافي للدولة العراقية القديمة في تلك المرحلة.

ويبدو أن المعلومات المتاحة عن تلك المرحلة نادرة جدًا؛ لأنها تعتمد على ما يمكن استنتاجه من الآثار المادية التي خلفها الإنسان العراقي القديم في مستوطناته.

و قد دلت مخلفات العصر الحجري القديم في الكهوف والمغارات الواقعة في شمال العراق على أن بلاد آشور كانت من أولى مستوطنات العصر الحجري القديم في بلاد الرافدين[٦٠].

وكان الإنسان في بلاد آشور يعيش في تلك العصور حياة بدائية بسيطة، معتمدًا في بداية الأمر، على ما يمكن اصطياده من الحيوانات، وما يمكن جمعه من أشجار وبذور برية. لذلك سُمِيَّت هذه المرحلة (مرحلة جمع القوت). وبعد أن اهتدى الإنسان إلى الزراعة، وتدجين الحيوانات، تَحَوَّل الإنسان إلى مرحلة جديدة سُمِيَّت (مرحلة إنتاج القوت)[٦١]. حيث بدأ الناس يخرجون من الكهوف إلى مواقع استيطان مكشوفة. حيث يسكنون الخيام أو الأكواخ، فانتشروا في المنطقة. وقد وجدت أولى مواقع الاستيطان البشري في موقع (زاوي جمي) القريب من كهف شانيدر في أربيل[٦٢].

وشهد الموطن الآشوري ولادة حضارة حسونة (٧٥٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م)، التي تمركزت في السهول الخصبة الكائنة حول مدينة الموصل. وبذلك تَمَكَّن الإنسان العراقي من ابتداع فكرة تأسيس القرى الزراعية الأولى في تاريخ الفكر البشري، والتي تكللت بدورها في تحقيق ثورة الاقتصاد الإنتاجي والاستقرار المكاني بجوار الأراضي الزراعية. فضلًا عن امتلاكه حظيرة الماشية. فكانت صيرورة الفكر البشري بالتحول من العفوية إلى مرحلة التخطيط[٦٣].

وقد استطاع إنسان دور حسونة، أن يحل طبيعته الإنسانية محل سجيته الطبيعية. وفي عملية أنسنة طبيعته لم يواجه الطبيعة كفرد، إنما واجهها كجماعة. حيث أنه لم يدرك ذاته إلا عن طريق علاقاته الجمعية[٦٤].

كما طغت على شمال العراق فيما بعد (حضارة العبيد)، التي صارت الحضارة الرئيسية المنتشرة في أرجاء بلاد الرافدين كلها، والتي كانت تعرف في الحقبة الأولى (بلاد سوبارتو)[٦٥]. وأعقب ذلك دور (حضارة حلف)، التي برزت في الموطن الآشوري بحدود (٥٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م)، والتي وضعت الجذر التاريخي للمعالم الجغرافية للفتوحات الآشورية اللاحقة[٦٦].

كما تم العثور على قرية (جرمو)، التي ما تزال تتمتع بأولوية بوصفها أقدم قرية زراعية مكتشفة لحد الآن في بلاد الرافدين، والتي تقع أطلالها قرب بلدة (جمجمال) الواقعة في السليمانية[٦٧].

وقد ظلت تلك الجماعات الآشورية ردحًا من الزمن مستمرة على نمط حياتها البدائية، إلى أن بدأت بوادر الحضارة الناضجة تظهر في بلاد سومر، والتي امتد تأثيرها إلى بلاد آشور[٦٨].

وفي ذلك العصر كان حكام بلاد آشور عبارة عن شيوخ وزعماء قبائل رحل يتصفون بحياة البداوة؛ لأنهم وصفوا بسكان الخيم[٦٩].

المطلب الثاني
العصر العراقي الآشوري القديم

يمتد العصر العراقي الآشوري القديم للمدة من (٢٠٠٠ - ١٥٢١ ق.م). وقد ابتدأ هذا العصر باعتلاء الحاكم الآشوري (زرقيم) عرش آشور في حدود عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد[٧٠].

وتميز هذا العصر بتدفق هجرات الأقوام الجزرية إلى بلاد وادي الرافدين، بما فيها بلاد آشور، التي نالت نصيبًا من تلك الهجرات[٧١]. كما تميز بقيام أسر حاكمة مستقلة في بلاد آشور، والتي استمرت في الوجود إلى أن ضمها الملك حمورابي إلى مملكته[٧٢].

ورغم أن بلاد آشور لم تكن ضمن الاثنتي عشرة مدينة التي شكلت جغرافية الدويلات السومرية، بيد أن امتدادات الحضارة السومرية قد شملت معظم بقاع بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد[٧٣]. حيث كانت بلاد آشور خاضعة للنفوذ الحضاري وربما السياسي للدويلات السومرية التي قامت في جنوب العراق ووسطه. حيث نشأت عدة مدن ومراكز حضارية في بلاد آشور منها مدينة آشور ونينوى وغيرها. وربما كان بعضها على هيئة دويلات مدن صغيرة مستقلة على غرار المدن السومرية[٧٤].

ثم وقعت بلاد آشور ضمن مناطق نفوذ الدولة الأكدية. وهناك ما يدل على أن مدينة آشور كانت قد مثلت أحد المراكز الإدارية المهمة التابعة للدولة الأكدية منها:

١- تم العثور داخل معبد عشتار في نينوى على إسطوانات حجرية منقوشة بكتابة ترجع إلى عهد الملك الأكدي (نارام - سين)، (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق.م)[٧٥].

٢- تم الكشف في بلاد آشور عن عدد من النصوص القصيرة، التي تذكر اسم الملكين (ريموش) (٢٣١٥ - ٢٣٠٧ ق.م) و(مانيشتوسو)، (٢٣٠٦ - ٢٢٩٢ ق.م). كما ظهرت في الموقع نفسه بعض النصوص الإدارية العائدة إلى تلك الحقبة. ولذلك يمكن الحكم بأنها كانت جزءً من مناطق المملكة الأكدية[٧٦].

٣- كما تم الكشف عن أبنية ضخمة من بينها قصر واسع، وجزء من زقورة معبد الإله

المزعوم أنليل، تحمل طابعًا أكديًا من حيث الأساليب والطرز المعمارية والفنية والدينية.

٤- وشملت التأثيرات الأكدية في بلاد آشور اللغة والكتابة أيضًا. فاللهجة الآشورية القديمة، إنما تحمل تأثيرات اللهجة الأكدية القديمة. كما اقتبس الآشوريون الكتابة المسمارية من السومريين والأكديين. ثم استخدموها في التدوين طوال حياتهم السياسية(٧٧).

٥- أضف إلى ذلك، يمكن احتساب مسألة احتفاظ الآشوريين بذكرى طيبة عن الأكديين كدليل مضاف على ذلك التأثر. حتى أن عددًا من ملوكهم قد سموا أنفسهم بأسماء أكدية معروفة. كما فعل الملك (سرجون الثاني) نسبة إلى الملك (سرجون الأكدي)(٧٨). كما يمكن احتساب فكرة المملكة الموحدة التي تَمَسَّك بها ملوك آشور، ونمط السلوك السياسي الإمبراطوري لديهم، وما تعلق بذلك من ألقاب سياسية احتفظ بها ملوك بلاد آشور على أنها من أدلة التبعية الآشورية للمملكة الأكدية.

وعندما قامت أسرة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٠ ق.م)، وقعت بلاد آشور تحت نفوذها. وقد كشفت الحفريات في نينوى عن معبد أقيم فيها من أجل ملك أور (آمار - سين) (٢٠٤٧ - ٢٠٣٩ ق.م). مما يدل على تبعية بلاد آشور لحكم السومريين في أور(٧٩).

ورغم أنه لم تتضح درجة ارتباط بلاد آشور بمملكة أور بعد، ولا متى تمكنت آشور من التحرر عن حكمها. وما هي الظروف التي ساعدتها على ذلك؟، بيد أنه، يمكن القول، وعلى أقل تقدير، أن بلاد آشور استعادت استقلالها التام مع الانهيار الكامل لمملكة أور. لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الآشوريين. يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل أساسية هي:

المرحلة الأولى

وهي المرحلة الممتدة من (٢٠٠٤ - ١٨١٤ ق.م). وفي هذه المرحلة تَمَكَّن (بوزور آشور الأول) أن يؤسس أسرة حاكمة في بلاد آشور. ونجح حفيده (ايلوشوما) في أن يوطد

دعائمهـا، والـذي ادعى أنه حرر مدينتي أور ونفر اللتان كانتـا تقعان على الطريق التجاري إلى الخليج العربي[٨٠].

ثـم بدأ الغموض يخيم على تاريخ بلاد آشـور بعد ذلك، وربـما وقعت تحت نفوذ مملكة (أشـنونا)[٨١]. بيد أنه سرعان ما تتوافر معلومات عن علاقة بلاد آشـور التجارية مع شرقي بلاد الأناضول، حسـب النصوص المسمارية المكتشفة في منطقة (قيارو قيا)، التي أشارت إلى وجود جماعات من التجار الآشوريين كانت تقطن في شرقي بلاد الأناضول في مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها[٨٢].

ومـن الجدير بالذكـر، أن مدينة آشـور كانت أول مسـتوطنة لحكم الآشـوريين، وأول عاصمة لهم. حيث بقيت عاصمة للدولة الآشـورية في العصر الآشـوري القديم في مراحله الثلاثة[٨٣].

وقد حكم بلاد آشور خلال تلك المرحلة الأولى عشرة حكام آشوريين، وهم:[٨٤]

١- زرقيم (أكيا).

٢- بوزور - آشور الأول.

٣- شاليم - آحوم.

٤- ايلوشوما.

٥- أيرشوم الأول.

٦- ايكونوم.

٧- سرجون الأول.

٨- بوزور - آشور الثاني.

٩- نرام - سين.

١٠- ايرشوم الثاني.

المرحلة الثانية

يشير اعتلاء الملك (شمشي أدد الأول) للعرش الآشوري عام ١٨١٣ قبل الميلاد إلى بداية مرحلة جديدة في تاريخ الآشوريين السياسي. حيث أصبحت بلاد آشور في عهد هذا الملك، ولأول مرة، مملكة قوية تضم جميع بلاد آشور الأصلية، وتتجاوزها إلى المناطق والأقاليم المجاورة إلى درجة أن بعض الباحثين أطلق عليها (إمبراطورية شمشي - أدد الأول)[٨٥].

وأفادت بعض الإشارات على أن الملك (شمشي أدد الأول) كان فاتحًا أجنبيًا، استولى على بلاد آشور، وحاول خلق دولة قوية فيها[٨٦]. بينما ذهب آخرون إلى القول، أنه كان ينتمي إلى أسرة أمورية حاكمة في مدينة (اكلاتم) غير البعيدة عن مدينة آشور، ولكن لم يستطع الباحثون من تحديدها بشكل مؤكد لحد الآن[٨٧].

ويعد هذا الملك من أهم الشخصيات الحاكمة في العصر الآشوري القديم. ويمكن إرجاع سر نجاحه في توحيد جغرافية مملكته وتوسيعها إلى المرتكزات الآتية:

١- أنه كان إداريًا كفؤًا، وشخصية سياسية متميزة. لذلك اهتم بالأمور الصغيرة والكبيرة على حد سواء. ولا سيما تلك الأمور التي لها علاقة بتسيير شؤون مملكته. إذ كتب قائلًا: (إنني عينت حكامي في كل مكان. ومن بعدهم سلسلة من الإداريين، وناقلي الأخبار، وموظفي الإحصاء)[٨٨]. لذلك خلص (ليو وينهايم) إلى القول بأن الملك (شمشي أدد الأول) استطاع تنظيم مملكته باعتماده على أتباع أقوياء؛ لكي يتمكن من معالجة أمور شعب تَعَوَّد على أساليب مختلفة في الحياة. وضمن هذا السياق، أنشأ مستوطنات جديدة، وأحدث طرقًا زراعية حديثة. وحاول رفع مستوى رعيته[٨٩].

٢- وكان لحملاته العسكرية الناجحة تعبويًا، وإداريًا، ولوجستيًا دورا مهمًا في هذا النجاح. إذ بلغ عدد الجند في إحدى حملاته نحو ستين ألفًا. وذلك يعد أمرًا مدهشًا إزاء بساطة الماكنة العسكرية الآشورية في عهده.

٣- كما لعبت مهارته الدبلوماسية دورًا بارزًا في هذا النجاح. إذ كان شخصية دبلوماسية متميزة. حيث وضع خططًا دبلوماسية ارتكزت على عقد المعاهدات والمصاهرات مع الحكام، ولا سيما في منطقة سوريا. لذلك تمكن بمدة قياسية من توحيد المملكة الأم بإحكام السيطرة على مدينة أربيلا (أربيل) نزولًا إلى مدينة أرابخا (كركوك)[٩٠].

٤- أضف إلى ذلك، لعب الرخاء الاقتصادي الذي عم بلاد آشور بسبب نشاط المراكز التجارية الآشورية في (كبدوكيا) في عهده، دورًا أساسيًا في نجاحه[٩١].

٥- كما أنه سلك منهجًا غير مألوف لضبط مناطق سيادته الواسعة. حيث عين ولديه كحاكمين نائبين عنه. إذ حكم ابنه (شمشي داكان) في (اكلاتم) والقسم الشرقي من المملكة. وحكم ابنه الآخر (يسمخ أدد) في (ماري). وكان يراقب منها منطقة وادي الفرات. أما هو فقد اختار مدينة (شخنا) الواقعة في وسط المملكة مقرًا له، بيد أنه غير اسمها إلى (شبت أنليل) أي (مقر الإله أنليل). وبذلك جعل السلطة السياسية في قبضة أسرته. كما صار الحضور الملكي في مقر المملكة ثلاثيًا. وحمل (شمشي أدد الأول) لقب (الملك الكبير)، بينما لقب ولداه بلقب (الملك) فقط[٩٢].

وتولى العرش من بعده ولده (شمشي داكان الأول)، الذي حكم قرابة أربعة عقود من الزمان. بيد أنه أخفق في الحفاظ على مملكة أبيه. حيث انسلخت عنه بعض الأقاليم التي تَمَكَّن الملك حمورابي من إنهاء استقلالها، وضمها إلى مملكته[٩٣].

المرحلة الثالثة

وهي المرحلة التي خضعت فيها بلاد آشور إلى حكم الملك حمورابي. وذلك بعد سقوط حكم الملك الآشوري (شمشي داكان الأول). حيث أصبحت بلاد آشور تحت سيطرة الدولة البابلية[٩٤]. وربما تكون قد نالت استقلالها بعد وفاة الملك حمورابي. حيث حاول (أداسي) الانفصال عن تبعيته للدولة البابلية عام ١٧٠٠ قبل الميلاد، والذي ذكرته وثيقة إثبات الملوك الآشورية بوصفه أول ملك من الملوك الآشوريين الذي خلص بلاد آشور من التبعية للدولة البابلية[٩٥].

مع ذلك بقيت بلاد آشور مضطربة. كما كانت حدودها مقتصرة على بلاد آشور الأصلية فقـط. وبقي الأمر على ذلك المنوال حتى اعتلاء الملك (بوزور آشـور الثالث) عرش آشـور عـام ١٥٢١ قبـل الميـلاد[٩٦]. لتبدأ مرحلة جديدة في التاريخ السـياسي الآشـوري ممكن أن نطلق عليها (المرحلة الممهدة للإمبراطورية الآشورية).

المبحث الثالث

المرحلة الممهدة للإمبراطورية العراقية الآشورية

أطلق المؤرخون على هذه المرحلة (العصر الآشوري الوسيط)، وأطلقنا عليه لمسوغات فكرية – سياسية (المرحلة الممهدة للإمبراطورية العراقية الآشورية). والذي يمتد من (١٥٢١ – ٩١١ ق. م). وبذلك يكون هذا العصر، قد دام زهاء أربعة قرون. وكان يعاصر العصر البابلي الوسيط، الذي شغل معظمه بحكم السلالة الكشية.

وقد ابتدأ هذا العصر منذ تولي الملك (بوزور – آشور الثالث) عرش البلاد، ولغاية تولي الملك (أدد – نراري الثاني) عرش آشور عام ٩١١ قبل الميلاد.

وشهدت بلاد آشور، خلال هذا العصر، أحداثًا مهمة، وتقلبات سياسية وعسكرية واجتماعية ذات أهمية قصوى، يمكن احتسابها من ممهدات نشوء الإمبراطورية الآشورية. وكانت معظم أسباب تلك التقلبات الجذرية في حياة الآشوريين، نتيجة متوقعة لما كان يحدث في الشرق الأدنى في تلك الحقبة. حيث أن بلاد آشور كانت جزءً من المنطقة، تتأثر بما يحدث فيها، وتؤثر أحيانًا في وقوع الأحداث، إلى أن تبلورت السياسة الآشورية، ونظمت قوتها، وغدت القوة المؤثرة الأولى في الشرق الأدنى القديم في ذلك العصر[٩٧].

وشكلت هذه المرحلة التاريخية، بداية إفاقة حقيقية للدولة الآشورية.اذ تم إعادة بناء أسوار مدينة آشور. ويبدو أن هذا الإجراء كان ذات دلالة كبيرة في الشرق القديم، لأنه يعني ضمنًا أنها أصبحت مستقلة[٩٨]. وبذلك انتقلت بلاد آشور، في هذا العصر، من الضعف إلى القوة، ومن التبعية والاحتلال إلى السيادة النسبية. إذ حكم خلال هذا العصر (٣٨) ملكًا[٩٩].

ويلاحظ أن وثيقة إثبات الملوك الآشورية، لا تتضمن إشارات إلى حكام غرباء في بلاد آشور، إنما تورد دون انقطاع سلسلة من أسماء الملوك الآشوريين. وتدل بعض الإشارات، وبوضوح، على ممارسات سياسية مستقلة لملوك آشور[١٠٠].

وقد تميزت بلاد آشور في هذا العصر بعدة سمات منها:

١- بدأت بلاد آشور كدويلات مدن مستقلة كغيرها من جاراتها من الممالك في جنوب العراق، وتأثرت في ذلك بنموذج الحضارة السومرية[١٠١]. حيث كانت الحاجة إلى الأمن والاستقرار قد ارتبطت بغريزة الإنسان منذ أقدم العصور من أجل البقاء. ثم بدأ الإنسان بتشييد المستوطنات والقرى الزراعية في بلاد آشور بحكم انتقاله من مرحلة (جمع القوت) البدائية إلى مرحلة (إنتاج القوت)[١٠٢]. ثم تطورت تلك المستوطنات إلى مدن كبيرة في هذا العصر، خصوصًا بعد أن زاد الاستيطان فيها، وكَثُر العمران، وتم بناء أسوارها، وحفر الخنادق حولها، لتصبح مدنًا كبيرة مهَدَّت لنشوء دولة قوية[١٠٣].

٢- إن نظرية عسكرة المجتمع كانت واحدة من استراتيجيات الدولة الآشورية في عصرها الوسيط.. أن هذه الاستراتيجية زادت من قوة الدولة، ووسعت من هيمنتها. حيث تصاعدت القوة الآشورية، وأصبحت تمثل إحدى خصائص المجتمع الآشوري. إذ سعى ملوك الدولة الآشورية نحو تكريس عقيدة عسكرية تَكْمُن مبادئها في مباغتة الخصم من أجل حماية حدود الدولة، وضمان أمنها. وذلك لقناعة ملوك آشور من أن أي ضعف ينتاب الدولة الآشورية، فإنه سيكون مدعاة لانتشار الفوضى والتمرد في البلاد[١٠٤].

٣- أضف إلى ذلك، سادت في هذا العصر، فلسفة الدولة الاستبدادية ذات الحكم المُطْلَق، والتي أصبح بموجبها الملك قابضًا على مقاليد الدولة كلها بشكل مُطْلَق. حيث جمع ملوك آشور ما بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ليصبح (ملك وكاهن أعظم)، لدرجة بدأ يطلق على ملوكها لقب (ملك الكون)[١٠٥].

مع ذلك، واجهت بلاد آشور، خلال هذا العصر، تحديات صعبة، كادت أن تقضي عليها، لولا ظهور عدد من القادة البارزين الذين تمكنوا من إنقاذ البلاد من المِحَن التي تعرضت لها. أن تلك التحديات كانت قد أفضت إلى سنوات من الضعف والتدهور، وقعت خلالها بلاد آشور تحت الاحتلال الأجنبي المباشر.

وبما أنه، كان للظروف الدولية التي مرت بها المنطقة بصورة عامة، تأثير مباشر على سير الأحداث السياسية في بلاد آشور وتطورها، لذا كان لابد من إلمامة مقتضبة بما كان يجري على الساحة الدولية، آنذاك، لفهم تطور تلك الأحداث[١٠٦].

ففي آسيا الصغرى وشمال سوريا، تمكنت الأقوام الحثية من تأسيس مملكة حثية قوية في حدود عام ١٧٠٠ ق. م. وأصبحت تلك المملكة مصدر تهديد للممالك المجاورة، بحيث حدت من نشاطها، وعرقلت طرق مواصلاتها. وكان من بين تلك الممالك المهددة مملكة آشور ومملكة بابل[١٠٧].

كما تمكن الحوريون من تأسيس دولة قوية عُرِفَت باسم (دولة ميتاني)، التي امتدت بنفوذها من بحيرة وأن إلى نهر الفرات، ومن جبال زاجروس إلى الساحل السوري. وتمكنت من السيطرة على بلاد آشور[١٠٨].

والحوريون من الشعوب التي لا تُعْرَف أصولهم على وجه الدقة. إذ أن (سيتون لويد) ذهب إلى القول أنهم ليسوا جزريين، ولا هنود أوروبيين[١٠٩]. بينما احتسبهم (زهير صاحب) من الأقوام الهندو – أوروبية[١١٠]. وذهب (هاري ساكز) إلى القول، أن أصولهم تعود إلى مرتفعات أرمينيا، بيد أنهم تمكنوا من الاستيطان في شمال بلاد الرافدين[١١١].

وربما يكون مصدر الالتباس، الذي ذهب إلى القول أنهم من الأقوام الهندو – أوروبية، راجع إلى أن هذه المملكة كانت قد حكمتها ارستقراطية هندو أوروبية[١١٢].

عمومًا، بدأت الإمارات الحورية المتعددة القائمة في أعالي بلاد الرافدين، بتوحيد نفسها تحت قيادة ملك واحد. وذلك خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد[١١٣]. لتصبح دولة قوية تمكنت من السيطرة على بلاد آشور برمتها في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وبذلك دخلت بلاد آشور حقبة مظلمة في تاريخها. تحولت بموجبها إلى إدارات متعددة تابعة للدولة الميتانية. وقد ذكرت وثيقة إثبات جداول الملوك الآشوريين عددًا من الملوك الآشوريين الضعفاء التابعين لمملكة ميتاني[١١٤]. الذين كانوا يدفعون الجزية إلى حكام ميتاني[١١٥].

وفي جنوب بلاد آشـور، كانت بلاد بابل خاضعة (للسـيطرة الكشـية). وكانت علاقة مملكة آشور بالكشيين متأرجحة ما بين الحرب والسلام. تتحكم فيها قوة المملكة الآشورية أو ضعفها. وكان الكشـيون يسعون بشكل دائم إلى السيطرة على بلاد آشور، خاصة بعد أن اسـتقلت بلاد آشـور، ونبذت عنها نفوذ الاحتلال الميتاني. وهذا ما أفصحت عنه الرسـائل الموجهة من بابل، وآشور، والحثيين، والكشيين إلى فرعون مصر، والمُكْتَشَفَة في موقع العمارنة في مصر الوسطى[١١٦].

أمـا الأقـوام الجبلية في الجهـات الشرقية والشـمالية الشرقية من بلاد آشـور (الكوتيين، واللولوبو وغيرها)، فكانت تهدد بشـكل دائم حدود الدولة الآشـورية كلما وجدت ضعفًا من حكومتها المركزية. حيث كانت تلك الأقوام الجبلية شديدة المراس في الحرب[١١٧].

وفي ذلك العهد، تأسست مملكة قوية في مصر بحدود عام ١٥٨٠ قبل الميلاد، وبالتزامن مع ظهور الدولة الحثية في الأناضول. وتوطدت علاقة تحالف وصداقة ما بين فرعون مصر ودولة ميتاني اسـتمرت لغاية عام ١٣٦٧ قبل الميلاد. وهذا ما أشـارت إليه الرسائل المتبادلة بين الميتانيين، والحثيين، والكشيين مع فرعون مصر[١١٨].

ويبـدو أن ذلـك كلـه، كان قـد زاد من العـبء الواقع عـلى المملكة الآشـورية في ذلك العصر. ودفعها للانكماش داخل حدودها، وهي تترقب الأحداث وتتحين الفرص المؤاتية، وتكتفي بدفع الأخطار الخارجية قدر المستطاع.

وقد ظلت بلاد آشور على هذا المنوال، إلى أن تمكنت من إنجاز استقلالها في عهد ملكها القـوي (آشـور – أوبالـط الأول)، (١٣٦٥ – ١٣٣٠ ق.م)، والـذي وُصِف في النصوص الآشـورية بأنـه الملك القوي الذي وضع أسـس الدولـة المتينة، وحدد سياسـتها العامة إزاء الأخطار الخارجية التي كانت تهددها.[١١٩] فضلًا عن كونه أول من استعمل كلمة (آشور) مسبوقة بعلامة البلد اسما لدولته، كما جاء ذلك في خاتم إسطواني الشكل[١٢٠].

ويمكـن احتسـاب مدة حكمه، بداية مرحلـة طويلة من التطور، الذي ارتفع فيه شـأن بلاد آشور إلى موقع السيادة في الشرق الأدنى خلال العصر الآشوري الوسيط، حيث غدت

قـوة يُحسـب حسـابها في المنطقة[١٢١]. لدرجة أن بعـض الباحثين، احتسـب بداية حكم هذا الملك، بداية للعصر الإمبراطوري الآشوري[١٢٢].

وقد نجح الملك (آشور – أوبالط الأول) في تخليص بلاده من الاحتلال الأجنبي. وذلك لأسباب عديدة، منها:

١ – أنـه قـام بتقوية الجبهـة الداخلية. وقـاد البلاد قيـادة مركزية حكيمـة. وهيأ الدولة والشـعب لمواجهة القوات الأجنبية المحتلة، والتخلص مـن جور الاحتلال[١٢٣]. وبذلك نهض في مسألة تحرير بلاده من احتلال دولة ميتاني. بل أنه ساهم في إسقاط مملكة ميتاني بعد أن نشـب الصراع بين أفراد العائلة الحاكمة من الميتانيين. مسـتفيدًا من تدخل الحثيون في شـؤونها من جهة[١٢٤]، ومـن العلاقات الطيبة التي بناها مع كل من المملكة الحثية والمملكة المصرية من جهة أخرى[١٢٥].

كذلـك انتفـع من ضعف الدولـة المصرية في عهـد فرعون مصر (اخناتـون)، الذي تسـببت ثورتـه الدينيـة في إضعاف المملكـة المصريـة في الداخل والخـارج على حد سـواء[١٢٦]. إذ كان تـولي (اخناتـون) لعـرش مـصر، ايذانًا باندلاع الـصراع ما بين العرش وكهنة طيبة. لذلك عمل الملك على إحياء عبادة الشمس بغية إضعاف كهنة الإله (آمون)، الذين امتلكوا العصا الغليظة في إدارة شؤون الدولة[١٢٧].

٢ – وعدَّت نشـاطات الملك (آشور – أوبالط) الدبلوماسية الخارجية الواسعة من أهم أسـباب نجاحه. حيث أنه عمل على تحسـين علاقته بالسـلالة الكشـية الحاكمة في بـلاد بابل. واتبع معها سياسـة التعايش السـلمي. فأقام علاقـة ودية معها، ختمها بمصاهرة سياسية زوج فيها ابنته من ولي العهد الكشي[١٢٨].

أضف إلى ذلك، كانت علاقته مع الملك المصري (اخناتون)، علاقة صداقة متكافئة، عـلى الرغم من محاولات الملك الكـشي تقويض تلك الصداقة لكي تتاح له الفرصة المناسـبة للاستيلاء كليًا على بلاد آشـور[١٢٩]. وقد نشـطت العلاقات الدبلوماسية بـين البلاط المصري والبلاط الآشـوري. وأفضت تلك العلاقـات إلى ولادة تجارة

نشـطة بين الدولتين[١٣٠]. وهذا ما كشفت عنه مجموعة من الألواح الطينية المنقوشة بالكتابة المسـمارية، والتـي تمثِّل الجزء الأكبر منها مراسـلات دبلوماسـية بين ملوك مصر، وحكام بلاد آشور وبلاد بابل، وحكام الحثيين، والميتانيين، والتي عرفت فيما بعد باسم (رسائل تل العمارنة)[١٣١].

٣- كما احتسـبت الحملات العسـكرية الناجحة، التي قام بها الملك (آشـور - أوبالط) إلى الجبهة الشـمالية الشرقية والشرقية لمواجهـة التهديدات التي كانت تقف وراءها القبائل الجبلية، واحدة من عوامل نجاحه في تحرير البلاد[١٣٢].

عليه، يمكن القول أن هذا الملك القوي قد نجح في وضع أسس الدولة الآشورية القوية، وحدد سياساتها العامة إزاء التهديدات الخارجية الآتية:[١٣٣]

١- حدد أخطار الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية التي مثلتها الأقوام الجبلية (الكوتيين واللولوبو وغيرها). وذلك لأن تلك الأقوام شـديدة المراس في الحروب من جهة؛ ولأن تلـك الأقوام مثلت خط الصراع الدائم الذي عزل بلاد آشـور عن شـعوب الجبال من جهة أخرى.

٢- وحـدد أهميـة الجبهة الغربية والشـمالية الغربية، حيـث الأقوام السـامية القاطنة في بوادي ما بين النهرين، والتي تشكل واسطة الاتصال البري بموانئ البحر الأبيض المتوسط.

٣- وفي الجنوب، هناك بلاد بابل التي ما انفكت تنازع الآشـوريين على تمددهم صوب الجنوب، لما في ذلك من خيرات وموارد اتصال بالخارج عن طريق الخليج العربي.

وتـولى بعـد ذلك، عرش بلاد آشـور عددًا من الملـوك الأقوياء. عمل بعضهم على توسـيع سـلطان الآشـوريين إلى جهـات الـشرق الأدنى القديم. فنشـأت بـذرة الإمبراطوريـة العراقية الآشورية التي نمت وترسخت فيما بعد. وكان من أبرز هؤلاء الملوك الذين خلفوا الملك القوي (آشـور أوبالـط الأول)، الملـك (شـلمنصر الأول) (١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق.م). والملـك (توكتلي ننورتا الأول) (١٢٤٤ - ١٢٠٨)، والملك (تجلات بلاسر الأول) (١١١٥ - ١٠٧٧ ق.م).

ويبدو أن الملك (شلمنصر الأول) كان من أهم الملوك الآشوريين، لا سيما في ميدان الفتوحات الخارجية. حيث تميز عهده بالفتوحات العسكرية المتتالية باتجاه الأقوام الجبلية، وعلى مملكة (أورارتو)، و(أرمينيا)، و(خان جلبات) الميتانية التي ضمت أراضيها إلى الدولة الآشورية. وفي عام ١٢٥٠ قبل الميلاد، تمكَّن من قتل الملك الميتاني، وحوَّل بلاده إلى مقاطعة تابعة للدولة الآشورية[١٣٤].

ولعل من أهم أعماله العمرانية، كان تأسيس مدينة نمرود (كالح) بعد أن اعتراها الخراب في القرن التاسع قبل الميلاد[١٣٥].

ثم جاء على عرش آشور ولده (توكتلي ننورتا الأول)، والذي اتبع سياسة أبيه في حملاته العسكرية. حيث امتدت معاركه شمالًا حتى (بحيرة وأن)، وغربًا حتى مدينة ماري. فضلًا عن اتباعه منهجًا جديدًا إزاء البلدان المتمردة، مفاده تهجير سكان الأقاليم والبلدان المتمردة إلى أماكن أخرى. وهي السياسة التي سار عليها الملوك الآشوريين من بعده[١٣٦].

وعندما ساءت العلاقات بين الكشيين والبابليين، تمكنت آشور من السيطرة على بلاد بابل ودخولها تحت النفوذ الآشوري المباشر. وذلك بعد هزيمة الملك البابلي (كاشتلياش الرابع) على يد الملك الآشوري (توكتلي ننورتا الأول)، الذي اتخذ لقب (ملك سومر وأكد). وأقام لنفسه عاصمة جديدة، أضفى عليها اسمه وهي (كار توتكتلي ننورتا) على بعد ثلاثة كيلومتر عن مدينة آشور[١٣٧].

وبعد اغتيال هذا الملك، دخلت البلاد في حقبة من الضعف. حيث تقلصت حدودها. وفي نهاية الأسرة الكشية قامت أسرة جديدة في بابل تُسمى (أسرة آيسن الثانية)، والتي انتهزت الفرصة لكي تتخلص من السيطرة الآشورية، وفرضت نفوذها على بلاد آشور حينا من الدهر. فضلًا عن استردادها لكرامتها الدينية بحكم استردادها تمثال إلهها الأكبر (مردوك)[١٣٨].

وسرعان ما تغير هذا الوضع عندما اعتلى عرش آشور الملك (تجلات بلاسر الأول) عام ١١١٥ قبل الميلاد، الذي نجح في القضاء على الأخطار المحدقة بالدولة الآشورية.

حيث تمكن من القضاء على أقوام (المشكو الفريجيين)، والتي كانت تتدفق بمجموعات كبيرة من آسيا الصغرى باتجاه بلاد آشور. فضلًا عن قضائه على القبائل الجبلية التي كانت تمدهم بالعون. كما قضى على أخطار المدن السورية، التي كانت تعرقل التجارة الآشورية. كما سدد ضربات للقبائل الآرامية التي كانت تشن غارات على حدودها الغربية. بل أنه تمكن من السيطرة على مدينة بابل نفسها رغم أنها لم تعاملها معاملة الأعداء المهزومين[١٣٩]، ربما بسبب الهوية العراقية التي تجمعهما.

وبذلك استطاعت بلاد آشور، أن تنهض من جديد لتصبح شيئًا فشيئًا دولة قوية إلى أن تمكنت من إخضاع كل المنطقة المحيطة بها، ووصلت في جيوشها حتى البحر الأبيض المتوسط[١٤٠].

وعلى أي حال، فإن أعمال الملك (تجلات بلاسر الأول) لم تقتصر على الحرب فحسب، إنما شملت كذلك أعمالًا عمرانية كثيرة، لعل أهمها تعمير العاصمة آشور القديمة، والتي انتقل إليها واتخذها عاصمة لدولته[١٤١].

إن هذه الحقبة، سرعان ما انتهت بمقتل الملك (تجلات بلاسر). وبذلك، دخلت بلاد آشور مرة أخرى في مرحلة الضعف والارتباك، حتى نهاية العصر الآشوري الوسيط عام ٩١١ قبل الميلاد.

وقد تمخض عن ذلك كله معطيات فكرية وسياسية وعسكرية، أفضت إلى وضع بلاد آشور على درب القوة الإمبراطورية العظمى. لعل أهمها ما يأتي:

١ - كانت العاصمة آشور قد نمت خلال تلك المرحلة. وتمكن الملوك الآشوريون بفضل غنائم الحروب، من بناء تحصينات المدينة وتوسيعها، وتجديد الأماكن الدينية، وتوسيع المنطقة الجنوبية من المدينة، وتشييد القصور الفخمة[١٤٢]. وبذلك أصبحت النهضة الاقتصادية والسياسية واضحة من خلال التجهيزات التي تمت في العاصمة آشور.

وعلى ضوء ذلك، بدأت مقدمات تحوُّل بلاد آشور إلى إمبراطورية، على الرغم من

عـدم وجود مفردة في العصـور التاريخية لبلاد وادي الرافدين، تعبر عن معنى كلمة (الإمبراطورية) لا تصريحًا ولا تلميحًا[١٤٣].

عليـه، أصبحت العاصمة آشـور (نـواة الإمبراطورية العراقية الآشـورية) حسـب مـدركات (روجر ماثيو)، الذي ذهـب إلى القول: (لـكل الإمبراطوريات المعروفة مركـز أو نـواة، يكون مركزًا عضويًـا للفعاليات السياسـية والاقتصادية والتعبدية، والذي يعد على أنه مركز الكون)[١٤٤].

٢- ظـل الآشـوريون في حالـة يقظـة دائمـة إزاء الأخطـار التي تهـدد كيانهـم. وكانوا يكتسبون الخبرات العسكرية من مواجهتهم لتلك التحديات الخارجية والداخلية. بحيث أنهم خرجوا من ذلك الامتحان العسير شعبًا محاربًا قويًا، لدرجة استغرقت عملية التحول هذه جميع العصر الآشـوري الوسـيط[١٤٥]. وبذلك تحولت فلسـفة القوة التي اعتمدها ملوك بلاد آشـور في العصر الآشـوري الوسيط إلى إحدى أهم أدوات نشـوء الإمبراطورية العراقية الآشورية. لذلك أشار (سبتينو موسكاتي) إلى هذا المعنى بقوله: (كانت شـهرتها ترجع أولًا إلى ما كان يتحلى به جيشـها من حظ كبير من التنظيم والتماسك)[١٤٦].

ولعل من أبرز ما سـاعد في ذلك يَكْمُن في إقامة مؤسسـات إدارية آشـورية، وتمركز وحـدات عسـكرية دائمـة. وقد انتهـى تنفيـذ ذلك خـلال عهد الملك (شـلمنصر الأول). وبذلك تم تشـكيل مقاطعات عديدة خاضعة للإدارة الآشـورية. وكانت السـلطة العليـا في المقاطعة تناط بحاكـم المقاطعة. أما المؤسسـة المركزية لهذا النمط الإمبراطـوري، فـكان يمثلهـا القـصر الملكـي، الـذي يراقـب الوحـدات الإدارية وينظمها[١٤٧].

٣- ويلاحـظ ظهـور الصبغـة الإمبراطوريـة في بنية الشـخصية الملكية خـلال العصر الآشوري الوسيط. إذ وصف ملوك هذا العصر أنفسهم بأنهم ملوك آشور الأقوياء. في حـين تجاوز بعضهم ذلك ليلقب نفسـه (ملك الكون). كـما أضفى بعضهم على

نفسه صفة القدسية، لاعتقادهم بأنهم نواب الآلهة في حكم البشر، بوصفهم ممثلين عنها في إدارة شؤون الدولة(١٤٨).

٤- وقد يكون التمازج الحضاري الذي أفرزته العلاقات الآشورية - البابلية خلال ذلك العصر، مدخلًا لنمو الفكر السياسي الإمبراطوري في بلاد آشور. ويبدو أن وقوع بلاد بابل تحت النفوذ الآشوري المباشر، أثره في تركيز هذا التمازج، ونقل العديد من العناصر الحضارية من وإلى بلاد آشور. ولعل منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

أ - القوانين الآشورية التي ورد فيها مبادئ وأحكام تشابه، إلى حد كبير، ما ورد في القوانين البابلية في عهد الملك حمورابي والعهود السابقة له مع بعض التعديلات والإضافات التي تمثل خصوصية بلاد آشور.

ب- وما يقال عن الأحكام والمبادئ القانونية، ينطبق على التكوين الاجتماعي في كل من بلاد بابل وبلاد آشور. حيث يلاحظ أن المجتمع العراقي في النموذجين يتألف من طبقتين رئيسيتين هما (طبقة الأحرار) و(طبقة الرقيق). وكان يميز بينهما في الأحكام والعقوبات والحقوق والواجبات(١٤٩).

ويبدو أن هذا التمازج الحضاري ما بين بلاد بابل وبلاد آشور، والذي يؤكد وحدة البلاد، والشعور بالانتماء العراقي الموحد، كان قد زود الآشوريين بالفلسفة الإمبراطورية التي كانت سائدة في العصر العراقي البابلي. لذلك غالى (ستيفن همسلي لونكريك) بقوله: (كانت الدولة الآشورية قانعة بالتمتع على نحو غير إبداعي بالثقافة البابلية)(١٥٠).

وبناء على ذلك كله، يتبين أن التطورات السياسية - الفكرية التي شهدتها المنطقة برمتها في داخل بلاد آشور وخارجها، مهدت الطريق لولادة الإمبراطورية الآشورية، التي ارتكزت في انطلاقتها الخارجية على أرض العراق القديم.

المبحث الرابع

العصر الإمبراطوري العراقي الآشوري

امتد عصر الإمبراطورية العراقية الآشورية لمدة ثلاثة قرون من الزمان (٩١١ – ٦١٢ ق.م). وقد ابتدأ هذا العصر بتولي الملك الآشوري (أدد – نراري الثاني) لعرش آشور عام ٩١١ ق.م، وانتهى في عهد آخر ملوك بلاد آشور (سين – شار – أوشكن) عام ٦١٢ ق.م[١٥١].

وقد تميز هذا العصر بتعاظم قوة الآشوريين، وبازدهار حضارتهم، وامتداد نفوذهم، حتى شملت حدود دولتهم معظم أقاليم الشرق الأدنى القديم.

ولعل أهم ما ميز هذا العصر الإمبراطوري بوجه عام يكمُن في ما يأتي:

أ – أنه العصر الذي بلغت فيه الدولة الآشورية من القوة العسكرية مبلغًا مكنهم من أن يسيطروا على الشرق الأدنى القديم لمدة ثلاثة قرون.

ب– في هذا العصر، تم تأسيس إمبراطورية كبرى، كانت أوسع من الإمبراطوريات التي شهدها تاريخ الشرق القديم[١٥٢].

وأُطلق على هذا العصر وصف (العصر الآشوري الإمبراطوري). وذلك وفق دلالتين أساسيتين هما:

أ – بدلالة هيمنة التفكير الإمبراطوري على السلوك السياسي لملوك بلاد آشور.

ب– بدلالة الحدود الجغرافية الواسعة التي امتدت إليها حدود الإمبراطورية الآشورية.

وعلى ضوء تلك الدلالات، تعاظمت قوة الدولة الآشورية في عصرها الإمبراطوري، فتمخض الهوس الإمبراطوري الآشوري عن ولادة أكبر إمبراطورية عرفها العراق القديم. امتدت حدودها من منطقة الأناضول في تركيا شمالًا، حتى أعماق الخليج العربي في أقصى

الجنـوب. ومن عيلام وهمدان في الأراضي الإيرانية شرقًـا، حتى مدينة طيبة عاصمة الدولة المصرية في الغرب[١٥٣].

ولذلـك أكد المـؤرخ الروماني (أميليوس سـورا) في مطلع القرن الثـاني قبل الميلاد على أن الآشـوريين كانوا قد سـبقوا الشعوب كلها في فرض سـيادتهم بالقوة. وأن تاريخ القوى العظمـى الإمبرياليـة لدى بعـض المؤرخين القدمـاء يبـدأ بالإمبراطورية الآشـورية. إذ أن الآشـوريين كانـوا أصحاب أول نمط من أنماط السـيادة المختلف عـن كل الأنماط المعروفة السابقة له من حيث الاتساع والعظمة والمسوغات[١٥٤].

ويبدو أن العاصمة آشور كانت قد نمت خلال تلك المرحلة. حيث تمكن الملوك الآشوريون، بفضل أسلاب الحروب، من بناء تحصينات المدينة وتوسيعها. وتجديد الأماكن الدينية، وتوسيع المنطقـة الجنوبيـة مـن المدينة لتكـون النواة المناسـبة للإمبراطورية الآشـورية. إذ باتـت النهضة السياسـية والاقتصاديـة واضحة من خـلال التجهيزات التي تمت في مدينة آشـور. وبدأ الملوك يكلفون الكتَّاب بتدوين إنجازاتهم الداخلية والخارجية في نقوش كتابية مفصلة[١٥٥].

ورغـم خصوصيـة التجربـة الآشـورية الإمبراطورية، بيـد أنها لم تنفصـل عن حضارة العـراق القديم. إذ يلاحظ أن حضارتها وديانتها وعلومها وصناعاتها وكتاباتها مقتبسـة من العـراق القديـم، بيد أنها أدخلت عليها من التحسـين والتجديد والإصلاح ما يكشـف عن روح جديدة في جميع ما تأتيه. مع ذلك فإن بلاد آشور كانت مغرمة بالغزو والفتح والتبسط في مناكب الأرض[١٥٦].

وقد قسم أغلب المؤرخين والباحثين هذا العصر إلى حقبتين أساسيتين هما:

أولًا: الإمبراطورية الآشـورية الأولى: التي أسسها الملك (أدد – نراري الثاني) وامتدت زهاء القرن والنصف (٩١١– ٧٤٥ ق.م)، وحكم فيها تسعة ملوك هم:[١٥٧]

١– أدد نراري الثاني (٩١١ – ٨٩١ ق.م).

٢– توكتلي نينورتا الثاني (٨٩٠ – ٨٨٤ ق.م).

٣– آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م).

٤- شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م).

٥- شمش أدد الخامس (٨٥٨ - ٨١١ ق.م).

٦- أدد نراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م).

٧- شلمنصر الرابع (٧٨٣ - ٧٢٢ ق.م).

٨- آشور دان الثاني (٧٧١ - ٧٥٤ ق.م).

٩- آشور نراري الخامس (٧٣٤ - ٧٤٥ ق.م).

ثانيًا: عصر الإمبراطورية الآشورية الثانية: وهي الإمبراطورية التي تأسست على يد الملك (تجلات بلاسر الثالث)، والتي شغلت الحقبة الزمنية الممتدة من (٧٤٤ - ٦١٢ ق.م). وانتهت بسقوط العاصمة نينوى. وقد تولى العرش ثمانية ملوك في هذا العهد هم:[١٥٨]

١- تجلات بلاسر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م).

٢- شلمنصر الخامس (٧٢٦ - ٧٢٢ ق.م).

٣- سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م).

٤- سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م).

٥- أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ف.م).

٦- آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م).

٧- آشور أطلي ايلي (٦٢٦ - ٦٢٤ ق.م).

٨- سين شار أوشكن (٦٢٣ - ٦١٢ ف.م).

إن هذا التفوق الآشوري الملحوظ في تاريخ الشرق القديم، لابد أن يكون قد اقترن بجملة من العوامل والمعطيات التي ساعدت على ولادة إمبراطورية آشورية بهذا الاتساع، وبهذا الارتقاء الحضاري. أن دراسة تلك العوامل والمعطيات ستكون محور بحثنا القادم.

المطلب الأول
عوامل نهوض الإمبراطورية العراقية الآشورية

يبدو أن هناك مجموعة من العوامل والمعطيات التي ساهمت في نهوض الإمبراطورية الآشورية. لعل أهمها ما يأتي:

أولاً: البيئة الدولية الجديدة

في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، كانت البيئة الدولية قد تغيرت بشكل ملحوظ. إذ غابت عن المسرح السياسي والعسكري قوى دولية عديدة، كانت تمتلك تأثيرات واضحة على المنطقة. كما تقلص نفوذ قوىَ دولية أخرى كانت تمتلك مكانة دولية في الماضي القريب.

و لعل أهم تلك التغيرات التي طرأت على البيئة الدولية ما يأتي:

١- في حدود القرن الثاني قبل الميلاد انتهت الدولة الحثية، التي كانت تحد من نشاط الآشوريين بحكم سيطرتها على آسيا الصغرى وشمال سوريا.

٢- أما الدولة الميتانية، التي أسسها الحوريون، فكانت قد انقسمت على نفسها إلى دولتين. انتهت مملكتها الصغرى (مملكة خاتي كلبات) إلى الضم ضمن إطار المملكة الآشورية، وغدت إحدى مقاطعاتها[١٥٩].

٣- أما الدولة الكشية، فقد انتهت أثر الهجوم العيلامي عليها في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. لتحل محلها سلالة (آيسن الثانية)، والتي أصبحت لاحقًا ضمن حدود الدولة الآشورية المتنامية بقوة[١٦٠].

٤- أضف إلى ذلك، كانت المملكة الفرعونية في مصر (١٥٨٠ - ١٠٨٥ ق.م)، قد تقلصت في نهاية حكمها، وبداية حكم المملكة الفرعونية الأخيرة (١٠٩٠ - ٦٦٣ ق.م)، والذي يقابل بدوره نهاية العصر الآشوري الوسيط وبداية العهد الأشوري الإمبراطوري الحديث[١٦١].

أن تلك التغييرات التي طرأت على البيئة الدولية، وأن ساعدت على ولادة الإمبراطورية الآشورية، بين أنها لا تعني أن الدولة الآشورية في ذلك العصر، تفردت بالقوة والزعامة في المنطقة. إذ أن زوال أو تراجع القوى الدولية القديمة، قد تسبب بولادة قوى دولية جديدة أقوى من القوى القديمة، وأكثر تأثيرًا على الدولة الآشورية والشرق الأدنى القديم. أن تلك القوى الجديدة، كانت قد مثلت تحديات جديدة للدولة الآشورية الصاعدة. ومثلت إحدى الأسباب التي حفزت الآشوريين، ودفعتهم نحو توحيد جهودهم، وتقوية أنفسهم للانطلاق نحو الأفق الإمبراطوري.

ومن الجدير بالذكر. أن علة تلك التحديات والأخطار الجسيمة، التي واجهها الآشوريون منذ أن وجدوا في المنطقة، ترجع إلى سببين رئيسيين هما:

أ – من أجل السيطرة على بلاد آشور الغنية بمواردها الزراعية مقارنة بالمناطق الفقيرة المحيطة بها.

ب– من أجل السيطرة على الموقع الاستراتيجي والتجاري المهم لبلاد آشور، بوصفه موقعًا يربط بين بلاد بابل والخليج العربي من جهة، وبين بلاد الشام وساحل البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

ولعل أهم التحديات الجديدة التي واجهت الدولة الآشورية في ذلك العصر هي:

١ – في الجبهة الغربية والشمالية الغربية، ازدادت ضغوط القبائل الآرامية، وازدادت غاراتها الحدودية. وكانت تلك القبائل قد شكلت عددًا من الممالك الصغيرة في أنحاء بلاد الشام المختلفة. بينما لم يشكل الآراميون في بلاد بابل جماعة موحدة، إنما كانوا يتألفون من أربعين قبيلة آرامية، تتميز كل منها باسم معين[١٦٢].

ويبدو أن تعاظم قوة الدولة الآشورية، كان قد أحال سلطة الآراميين إلى نوع من العدم[١٦٣]. وتمت إعادة بلاد بابل لسيادة السلطة الآشورية. وذلك في عهد الأسرة السرجونية[١٦٤].

فضلًا عن التحديات التي مثلتها (دولة إسرائيل)، التي انقسمت، في عهد (يربعام بن

سـلمان)، إلى دولتين صغيرتين هما (دولـة إسرائيل) وعاصمتها (السـامرة)، و(دولة يهوذا) وعاصمتها (أورشليم)[١٦٥].

ومـما زاد مـن خطورة تلك الدويلات، أنها كانت تعقد أحلافًا سياسـية وعسـكرية فيما بينهـا مـن جهة، وأنها كانت تتلقى العون من قـوى دولية أخرى كالمملكة المصرية من جهة، من أجل مواجهة الدولة الآشورية والحد من قوتها[١٦٦].

٢- أمـا في المناطـق الشـمالية والشـمالية الشرقية، فكانت تحـركات القبائـل الجبلية على أشـدها. حيث كان رجالها رجال أشداء، تعينهم الجبال المنيعة[١٦٧]. وكاد ضغطها أن يقضي على الدولة الآشـورية لولا ثبات القوات الآشورية، وشجاعة قادتها. فكان تجهيز الحملات العسكرية المتتالية على تلك المناطق قد شكل محور سياسة الملوك الآشوريين الأقوياء، بقصد الحـد من غارات القبائـل الجبلية، وفرض السـيطرة عليها، وتأمين طـرق المواصلات المارة عـبر أراضيها. وكان من أبرز تلك القوى الجبلية (قبائل أوراراتو) في أرمينيا، وأقوام أخرى تقطن في جنوب شرق بلاد الأناضول (منطقة زامو) وغيرها[١٦٨].

عليه، يتبين أن الحملات العسكرية التي قامت بها القوات العسكرية الآشورية، كانت تبتغي تثبيت أركان الدولة الآشـورية، وحماية حدودها. لذلك شنت حملات حربية متتالية على الجبهات المختلفة. بحيث لا يخلوا أي عهد من عهود ملوكها من حملة عسكرية أو أكثر. وقد وثَّق الآشوريون تلك الحملات في منحوتات بارزة لتكون شاهدًا على تلك الحملات العسكرية[١٦٩].

ونخلص إلى القول، أن البيئة الدولية الجديدة والحملات العسكرية الآشورية، لا يمكن أن تحقق أهدافها المتوخاة ما لم ترافقها عوامل أخرى. سنعرج عليها في المحاور الآتية.

ثانيًا: المعادل البشري

و إذا كانت هذه الأسـباب مجتمعة، تكمن وراء قوة الدولة العراقية الآشورية، وتعاظم نفوذهـا خـلال العـصر الإمبراطوري، فإنـه كان لظهور عدد مـن الملوك والقـادة من ذوي الشخصية القيادية القوية، والمقدرة المتميزة، أكبر الأثر في استثمار تلك الأسباب، وتوجيهها لصالح نهوض الإمبراطورية الآشورية.

ويمكن احتساب سلسلة الملوك، التي تبدأ بالملك (أدد نراري الثاني)، والملك (آشور ناصر بال الثاني)، والملك (شلمنصر الثالث)، والملك (تجلات بلاسر الثالث)، والملك (سرجون الثاني)، والملك (سنحاريب)، والملك (أسرحدون)، والملك (آشور بانيبال)، هي الشخصيات التي صنعت مجد بلاد آشور، وصنعت إمبراطوريتها القوية. إذ كانت الثقة بالنفس صفة واضحة لدى ملوك آشور في عهدهم الإمبراطوري. فتباهوا بصفاتهم ومؤهلاتهم الشخصية، ومنجزاتهم الوطنية.

كما اشتهر هؤلاء الملوك بسهرهم ويقظتهم في إدارة شؤون الدولة. وكانوا على اتصال دائم بولاة وحكام الأقاليم التابعة لهم عن طريق الرسائل المتبادلة. إن ذلك كله تطلب وجود أعداد كبيرة من المستشارين والسكرتاريين والكَتَبَة في دائرة البلاط الملكي. حيث ذكرت الكتابات الملكية وجود عدد من الكَتَبَة الأجانب ممن يجيدون فن الكتابة، ويتقنون عدة لغات، بغية تحرير الرسائل الملكية المتعلقة بالاتصالات الخارجية[١٧٠].

وتصاعدت القوة الآشورية، بحكم سياسة ملوك بلاد آشور، التي اهتمت بالزراعة والتجارة وحماية طرق المواصلات الرابطة بينها. إذ سعى ملوك آشور إلى تطوير الزراعة، وتوفير الإجراءات الضامنة لتأمين الغلة الزراعية حتى وإن لم يسقط المطر. فضلًا عن الأهلية التجارية التي أرسى دعائمها ملوك آشور[١٧١].

ومع توسع المساحة الجغرافية لبلاد آشور، فقد توسعت آفاق ملوكها الذهنية أيضًا. فأبدوا اهتمامًا كبيرًا بطرائق الحياة عند الشعوب المختلفة التي احتكوا بها، وقبلوا فكرة الانفتاح على الآخر المختلف، وأغنوا وسائلهم المعرفية بالعديد من الإبداعات الحضارية التي جلبوها من أماكن بعيدة. إذ تبنوا أساليب معمارية جديدة، وبحثوا عن مصادر جديدة للخامات لتحديث منجزاتهم الفنية، وأدخلوا زراعة القطن، واستقدموا نحاتو العاج ومهندسو صناعة السفن[١٧٢].

وقد كان لكثرة المعارك التي قام بها الآشوريون، خلال سنوات حكمهم، قد فرضت عليهم إيجاد الوسائل المحكمة لترسيخ الروح العسكرية عند الآشوريين بشكل دائم[١٧٣].

وسعى ملوك الدولة الآشورية نحو تكريس عقيدة عسكرية محورها مباغتة العدو، كاستراتيجية حربية يتم بموجبها حماية الحدود. وهذه الاستراتيجية مكَّنت الملوك الآشوريين من إيقاف زحف الأقوام القادمة من أواسط آسيا وأوروبا، وإخضاعها لسيطرتها. وعلة هذه الاستراتيجية، تَكْمُن في قناعة ملوك آشور من أن أي ضعف ينتاب الدولة الآشورية فإنه سيكون مدعاة لانتشار الفوضى والتمرد، الذي يسببه توغل الأقوام الغازية داخل البلاد. وهذا ما حدث في بداية العصر الآشوري الوسيط، عندما زحف الميتانيون، والحوريون، والأموريون، والآراميون على بلاد آشور[١٧٤].

ويبدو أن هذا المنحى، كان في مقدمة الأسباب التي حفَّزت الآشوريين نحو توحيد جهودهم، وبناء جيشهم، وضمان تفوقهم العسكري على الأقوام الأخرى، حتى غدا الجيش الآشوري خلال أوائل الألف الأول قبل الميلاد أقوى جيش في الشرق الأدنى القديم.

وعن طريق سياسة (العصا والجزرة) تَمكَّن ملوك آشور من ضم أقوام مختلفة تحت سلطة الإمبراطورية الآشورية. خصوصًا أنه كان يجلس على عرش آشور ملوك (ذوو حزم وبأس أقاموها من سقطتها)[١٧٥].

وكان من عوامل تفوق سلطة هؤلاء الملوك، يتمثل في الحفاظ على التقاليد السياسية والحضارية في مناطقهم[١٧٦]. ولعل من مؤشرات الحكمة لدى الملوك الآشوريين، أنهم كانوا ينظرون إلى بلاد بابل على أنها النصف الثاني المكمل لبلاد آشور، وبأنها تمثل جزءً رئيسيًا من مملكتهم العراقية. ولذلك ركزت سياساتهم على توحيد أرض العراق كلها، وإقامة دولة مركزية واحدة تهيمن على المنطقة برمتها.

ويبدو أن تلك السياسة، قد اصطدمت مع عقبتين أساسيتين هما:[١٧٧]

أ - اصطدمت مع مصالح بعض القبائل الكلدية، التي كانت قد استقرت في أقصى جنوب العراق، والتي أقامت من هناك سلالات محلية مستقلة مناوئة للنفوذ الآشوري.

ب- اصطدمت بدعم مملكة عيلام للقبائل الكلدية، التي كانت ترمي إلى الحد من

نفوذ الآشوريين في المنطقة. ولم ينتهي هذا الدعم إلاَّ في عهد الملك (آشور بانيبال) عام ٦٣٩ قبل الميلاد، والذي تمكن من القضاء على مملكة عيلام، وإنهاء كيانها السياسي.

ويبدو أن النهضة الحقيقية لبلاد آشور، كانت قد بدأت في عهد الملك (أدد نراري الثاني)، والذي كان قائدًا متميزًا. ويعد مؤسس الإمبراطورية العراقية الآشورية الحديثة. إذ لعب دور المنقذ الذي خلَّص بلاد آشور من الأخطار المحدقة بها. وتمكَّن من تثبيت قواعد الحكم الآشوري، ووسَّع من نفوذ الدولة الآشورية إلى تخوم المنطقة الغربية حول نهري الفرات والخابور[١٧٨]. واستطاع إيقاف زحف الأقوام الآرامية نحو الأراضي الآشورية. ومن ثم أنجز ست حملات حربية سنوية ضدهم، تُوجت بإخضاعهم لسلطة الدولة الآشورية[١٧٩].

كما بدأ حملة عسكرية على الأراضي الواقعة جنوبي الزاب الأسفل، بغية تثبيت مركز الدولة الآشورية في المنطقة، وإشعار سكانها باستعادة الآشوريين لقوتهم. وقد تمكنت الحملة من ضم مدينة (آرانجا – كركوك)، وبعض المدن الأخرى الواقعة إلى الجنوب منها إلى حدود الدولة الآشورية[١٨٠].

وفي الوقت نفسه، نجح في إبرام معاهدة صلح مع البابليين، ختمت بمصاهرة سياسية بين الأسرتين الحاكمتين في كل من بلاد بابل وبلاد آشور[١٨١].

وعلى العموم، يمكن القول أن اعتلاء هذا الملك عرش بلاد آشور، كان قد مثل نهاية حقبة الضعف العسكري والاضطراب السياسي في البلاد. وبداية عهد جديد برزت فيه الدولة الآشورية كإمبراطورية قوية بشكل ملحوظ، حتى غدت أقوى دولة في الشرق الأدنى القديم. لدرجة بدأت فيها تتحكم، إلى حد كبير، في سير الأحداث داخل البلاد وخارجها.

أما عصر الملك (آشور ناصر بال الثاني)، فيعد واحدًا من العهود التي وصلت فيها الدولة الآشورية إلى الذروة. حيث تميز عهده بازدهار حضاري، وتفوق عسكري واضح[١٨٢]. وقد

جمع هذا الملك ما بين صفات القائد العسكري المتميز، والإداري المنظم. وامتاز بشخصية حازمة في إدارته السياسية والعسكرية. لذلك يعد من أهم الشخصيات التي حكمت بلاد آشور. وكان من الملوك الأشداء في الحكم رغم مهارته في البناء والعمران[١٨٣]. وقد استهل عهده، بتجديد شامل للنظم العسكرية، فكون جيشًا جديدًا متطورًا[١٨٤].

وقاد حملات عسكرية موجهة نحو المناطق الجبلية في الشرق. حيث بسط سيطرته على تلك الأقاليم، وضمن الاعتراف بسيادة بلاد آشور في تلك المناطق. كما قام بالاستيلاء على إقليم (تشخان). وأنشأ فيه إقليمًا إداريًا جديدًا تابعًا له، مركزه مدينة (تشخان). كما شن حملة على دولة (بيت عديني) الآرامية، ونصَّب حاكمًا صوريًا عليها. وبذلك ضمن إخضاع العصاة والمتمردين. كما زحفت جيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط. وتمكن من أخذ الجزية من جميع الدويلات الصغيرة الواقعة في الطريق. فضلًا عن المدن الساحلية جنوبًا إلى مدينة صور وصيدا وجبيل وغيرها[١٨٥].

ورغم أن بعض المؤرخين، ينتقد هذا العاهل الآشوري. لصراحته في الحديث عن القسوة التي أنزلها بالبلدان المفتوحة[١٨٦]، بيد أن إنجازاته العمرانية، كانت أكثر خلودًا من إنجازاته العسكرية. إذ قام بإعادة بناء مدينة (نمرود) بعد أن كانت عبارة عن أنقاض، لتصبح في عهده عاصمة عسكرية لبلاد آشور[١٨٧].

كما أقيمت في عهده مشاريع إرواء عديدة، لعل أهمها حفر قناة (باني خيجالي) بقصد زيادة خصوبة التربة في المنطقة. وكذلك المشروع الإروائي الذي جلبه من نهر الزاب الأعلى. كما قام بتشييد المعابد وزخرفتها[١٨٨].

أما الملك (شلمنصر الثالث)، فقد أثبت بأنه كان جديرًا بحكم الإمبراطورية الواسعة التي ورثها عن أبيه الملك (آشور ناصر بال). وذلك لأنه لم يكتف بالمحافظة عليها، إنما تمكَّن من توسيع حدودها، حتى غدت تضم جميع المناطق الممتدة من الخليج العربي إلى جبال أرمينيا، ومن تخوم الأراضي الميدية شمال غرب إيران إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط[١٨٩].

وقد دام حكمه خمسة وثلاثون عامًا. قاد خلالها سلسلة من الحملات العسكرية، جعلته يلقب (سيد الشرق الأدنى وآسيا الغربية)[١٩٠]. وبلغ في فتوحاته أقاليم لم تصل إليها الجيوش الآشورية من قبل. وذلك في جبهات أرمينيا وجبال زاجروس وكيلكيه في آسيا الصغرى، وإلى قلب جبال طوروس، وإلى أبعد الأجزاء الجنوبية في منطقة الخليج العربي. كما وجه حملات حربية نحو بلاد الشام.

كما وجه إلى بلاد بابل حملة حربية عام ٨٥١ قبل الميلاد، في عهد سلالتها الثامنة لنجدة الملك البابلي (مردوخ زاك رشومي)، الذي كانت تهدده الدويلات الآرامية في الأجزاء الجنوبية من بلاد بابل. فتمكَّن من دحر المعتدين، ودخل مدينة بابل، وطارد فلول الآراميين إلى سواحل الخليج العربي[١٩١].

وفي الجبهة الغربية، قضى على مملكة (بيت ادیني)، التي تمردت ضد السلطة الآشورية، وضمها إلى أراضي الدولة الآشورية. وفي عام ٨٤٩ قبل الميلاد، شن حملة عسكرية ألحق بموجبها (مملكة كركمين) بالدولة الآشورية، والتي تعد آخر الدويلات المستقلة في أعالي الفرات. كما قام بحملة جديدة على المنطقة بسبب الاضطرابات التي كانت تغذيها مملكة دمشق. وقد أحرز في تلك الحملة انتصارات واضحة على دويلات إسرائيل وصور وصيدا ودمشق. وأسفر عن ذلك أن تلك الممالك بدأت بدفع الجزية إلى حكام آشور. بينما أظهرت مصر الفرعونية الود والصداقة مع بلاد آشور، وسارعت إلى إرسال الهدايا إلى الملك الآشوري. كما أرسل عددًا من الحملات العسكرية نحو الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية. وذلك للحد من نشاطات القبائل الجبلية التي نافست آشور في السيطرة على الطرق التجارية[١٩٢].

ثم حدث في بلاد آشور تمردًا داخليًا ضد الملك (شلمنصر الثالث)، تزعمه أحد أبنائه (آشور دانن ايلي)، والذي ضمن تأييدًا واسعًا شمل ٢٧ مدينة آشورية، بما في ذلك المدن الآشورية القديمة، كمدينة آشور، ونينوى، وأربائيلو، وآرابخا. وبحكم شيخوخة الملك آنذاك، فإنه عهد إلى ابنه (شمشي أدد) مهمة إخماد التمرد، الذي استمر لمدة أربع سنوات. وقد توفي الملك أثناء ذلك. لذلك اعتلى العرش ابنه (شمشي أدد) عام ٨٢٤ قبل

الميلاد. وبذلك حلت حقبة من الضعف والانكماش في الدولة الآشورية دام زهاء الثمانين عامًا[١٩٣].

وقد تباين الباحثون في تحديد أسباب هذا التمرد. إذ احتسبها (طه باقر) متأتية من ظلم كبار الموظفين والنبلاء وحكام الأقاليم واستغلالهم السكان الأحرار، ولا سيما الفلاحين والمزارعين[١٩٤]. بينما هناك من ذهب إلى القول أن ذلك التمرد له صلة مباشرة بتجديد الملك الآشوري (شلمنصر الثالث) مدة ولايته لثلاثين سنة أخرى. حيث أنه رعى احتفال عيد رأس السنة (انيسان من كل عام) في سنة حكمه الحادية والثلاثين، مما يشير إلى أنه قد بدأ مدة جديدة من حكمه، وجدد مدة ولايته لمدة (ثلاثينية) جديدة[١٩٥].

وكان من نتائج ذلك التمرد، أن تزعزعت السلطة المركزية مما سمح بتمرد الأقاليم الحدودية. وازداد ضغط القبائل المناوئة للآشوريين مما اضطر الملك الجديد إلى تجهيز عدة حملات عسكرية لقمع التمردات، واستعادت سيطرة الدولة[١٩٦].

ويبدو أن تعدد الحملات العسكرية التي خاضها الجيش الآشوري، والتمردات الداخلية التي نشبت في بابل وآشور، كانت قد سببت ضعف الجبهة الداخلية. فكان ذلك ايذانًا بنهاية العصر الإمبراطوري الآشوري الأول، خصوصًا بعد أن تعاقب على العرش الآشوري عددًا من الملوك الضعفاء، الذين لم يتمكنوا من مواجهة التحديات الخارجية. لذلك انكمشت سلطة الملوك الآشوريين، وتقلص نفوذهم، وعمت البلاد ضائقة اقتصادية حادة بسبب قطع الطرق التجارية المؤدية إلى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد بابل. فاجتاحت بلاد آشور ثورة شعبية عارمة، قضت على الملك (آشور نراري الخامس) وأفراد أسرته[١٩٧]. ونصَّبت بدلًا عنه الملك (تجلات بلاسر الثالث) عام ٧٤٢ قبل الميلاد. ليمثل بداية عصر الإمبراطورية العراقية الآشورية الثانية.

وفي خضم التمزق والاضطراب الذي ساد الإمبراطورية الآشورية، اعتلى العرش هذا الملك الجديد. وكان عليه أن يستوعب الأوضاع العامة، التي حكمتها الثورة الشعبية التي أتت به إلى العرش. وأن يبادر إلى معالجتها، ووضع الحلول الناجحة لها[١٩٨]. خصوصًا أنه

كان شـخصية قوية وذكية عرف كيف يسـتغل التمرد لأنه من المؤيدين له. وبذلك أخذ يعد العدة لإعادة مجد الدولة بمقدرة سياسية – عسكرية فائقة[١٩٩]..

وقد أثبت هذا الملك، أنه كان سياسـيًا قديرًا، وإداريًا ناجحًا، وقائدًا عسـكريًا متمكنًا. اسـتطاع خـلال سـنوات حكمه التي بلغت حـوالي عشرين عامًـا (٧٤٥ – ٧٢٣ ق.م)، أن يقـضي عـلى الفوضى السياسـية، والارتباك الاقتصـادي الذي عم البـلاد. وأن يعيد للدولة هيبتها وسلطانها، ويؤمن استقرارها، ويزيد من نفوذها، ويوسع من حدودها[٢٠٠].

عليـه، احتسـبه (جميل نخلـة المدور) من أفضل ملوك آشـور، وله على الآثار من شـهد بأنه كان من جُلة ملوك آشـور الموصوفين بالإقدام، وكثرة الغارات، ووفرة العمارات[٢٠١]. وقـضى أيام ملكـه كلها في الحروب غير مبـال بالتعب والخطر[٢٠٢]. وكـرَّس مدة حكمه في اسـترجاع المناطق التي انفصلت عن بلاد آشـور. وفرض نفسـه كقوة اقتصادية وعسـكرية رائدة في الشرق الأدنى. وبذلك برهن على أنه كان الحاكم الملائم لتلك المرحلة[٢٠٣].

وقاد حملات عسـكرية متعـددة، من أجل إعادة هيبة الدولة، وضـمان مصالحها. ولعل أهمها الحملة التي سـيرها إلى جنوبي بلاد الرافدين لضرب الآراميين. والحملة الموجهة نحو سوريا للقضاء على الدويلات التي قامت فيها، والتي أسفرت عن فتح دمشق عنوة، وإزالة الدولـة الآراميـة فيها عام ٧٣٢ قبل الميلاد. كما غزا المناطـق الشرقية الإيرانية[٢٠٤]. وكذلك ضـم نصف مملكة إسرائيل، بعد أن اسـتنجد(ملك يهـوذا) الموالي للدولة الآشـورية بالملك (تجـلات بلاسر) خوفًا من حلف شـمال سـوريا، الذي ضـم عددًا من الدويلات السـورية ومملكة إسرائيل[٢٠٥].

وبعد أن ثارت بلاد بابل بزعامة أحد شيوخ الآراميين (أوكن زير)، أرسل الملك (تجلات بلاسر) حملة عليها. وقضى على حكم هذه السـلالة[٢٠٦]. مع ذلك، فإن الملك الآشـوري لم يتعرض لحرية بابل، بخلاف ما فعل مع الممالك الأخرى. إنما تركها وشأنها متمتعة بعوائدها وولاياتهـا. وذلك لأن بابل كانت مدينة مقدسـة لدى الآشـوريين. لذلك أحبـه البابليون، واقتدى به خلفاؤه أيضًا[٢٠٧].

لقد اقتضت المكانة الخاصة لبابل، أن يبحث الملك الآشوري عن حل جديد. فكان ارتقاؤه شخصيًا عرش بابل. وبهذا الحدث اكتسبت عملية إخضاع بلاد بابل مظهرًا مختلفًا تمامًا عن كل الممارسات العسكرية أو الدبلوماسية التي قامت بها آشور حتى ذلك الحين[٢٠٨].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الملك (تجلات بلاسر) كان قد اتبع ثلاثة وسائل لتثبيت قبضته على أطراف الإمبراطورية وهي:[٢٠٩]

١- تعيين حكام آشوريين على مدنها الكبيرة، دون الاكتفاء بحكامها المحليين. وإيفاد مندوبين فوق العادة لتفقدها، ولتنفيذ أوامر الدولة. وربما كان من أولئك المندوبين من يُلقبون بلقب (ابشاق).

٢- فرض عبادة أرباب الآشوريين على بعض المدن العنيدة، مثل (غزة).

٣- تشريد أهل المناطق المفتوحة الخطرة، وتهجير أغلب الأيدي العاملة منهم إلى بلاد أخرى بعيدة عنهم، حتى لا تقوم لبلادهم قائمة، مع إحلال غيرهم من مناطق بعيدة محلهم، حتى يضغطوا على السكان الأصليين.

أضف إلى ذلك، قام الملك (تجلات بلاسر) بإصلاحات إدارية وسياسية وعسكرية اقتضتها الظروف التاريخية والسياسية، التي ترتبت على عملية توسع الدولة. إذ قام هذا الملك بإعادة النظر في النظام الإداري في البلاد. حيث اتبع نظامًا جديدًا، قوامه تقسيم البلاد إلى أقاليم ومقاطعات أصغر حجمًا مما كان سابقًا. وقسم تلك المقاطعات إلى وحدات إدارية أصغر، بحيث يمكن السيطرة عليها من خلال تعيين موظفين أكفاء مرتبطين بالملك من جهة، وبحكام الأقاليم من جهة أخرى[٢١٠]. وذلك لمنع حصول حكام الأقاليم على قوة كبيرة قد تحفزهم على التمرد على الدولة الآشورية من جهة، ومن أجل التوصل إلى إدارة حازمة تسهل إدارتها من جهة أخرى.

أما الأقاليم المفتوحة، فقد عزل معظم حكامها. وحول الكثير منها إلى ولايات يدير شؤونها ولاة يعينهم الملك بنفسه. وفي حالة الأقاليم التي لم يتم دمجها بالإمبراطورية، فقد

عين الملك مع حكامها المحليين، مراقبين آشوريين يُسمَّى كل منهم (قيفو)[٢١١]. وذلك من أجل ضمان الرقابة الدائمة على كفاءة وموالاة حكام المقاطعات والأقاليم.

كما ألزم حكام المقاطعات والأقاليم على تقديم تقارير دورية عن شؤون مقاطعاتهم وأقاليمهم[٢١٢]. فضلًا عن كونه نظم وسائل المواصلات والبريد بين تلك المقاطعات والأقاليم من جهة، والحكومة المركزية من جهة أخرى. بما يضمن الاتصال الدائم بينهما في أرجاء الإمبراطورية كلها[٢١٣].

أما إصلاحاته السياسية، فقد شملت ما يأتي:

أ – عمل على تقوية سلطة الملك، والتقليل من نفوذ النبلاء، وأمراء الاقطاع. وبذلك قضى على الفوضى، والارتباك السياسي والاقتصادي، الذي عم بلاد آشور في أعقاب الثورة الشعبية التي اجتاحتها[٢١٤].

ب– تمكن هذا الملك من إعادة الهيبة والسلطان لبلاد آشور. لذلك استطاع، بعد خمس سنوات من توليه العرش، أن يفخر بأنه أخضع ٤٢ شعبًا بملوكهم تحت سلطته[٢١٥].

ج – اتبع أسلوبًا جديدًا للتعامل الدبلوماسي مع الدول الواقعة خارج الحدود الآشورية. حيث قام بتعيين ممثل آشوري في بلاط حكامها، للإشراف على مصالح الدولة الآشورية ورعاياها في تلك الدول. والاعتماد على أسر محلية تحكم تلك البلدان، بدعم من الإمبراطورية العراقية الآشورية في مقابل دفع الجزية، والقبول بتوجيهات الممثل الآشوري في البلاط في شؤون السياسية الخارجية والتجارية[٢١٦].

د – كما أنه قام بتدوين تقارير مُفصلة عن أعماله ونشاطاته السياسية الخارجية بطريقة متقدمة[٢١٧].

عليه، يمكن القول أن العمليات العسكرية التي قام بها، ومن جاء من بعده من الملوك، ما كان لها أن تؤتي ثمارها لولا الإصلاحات التي قام بها في جهاز الدولة الإداري، والتنظيمات

الجديدة التي أُعيد بموجبها إصلاح الجيش. فضلًا عن جدارة السياسة التي اتبعها تجاه العالم الخارجي. لذلك كان عهده، قد مثّل بداية عصر إمبراطوري جديد.

مع ذلك، يؤخذ على سياسة الملك (تجلات بلاسر) أنه أدخل (سياسة التهجير) في سلوكه السياسي مع الأقاليم المفتوحة، التي تتكرر فيها أحداث التمرد والعصيان. ويبدو أن تلك السياسة وأن حققت أهدافها أحيانًا، بيد أنها تسببت بزيادة ثورات الشعوب المفتوحة بشكل لم ينقطع.

ثم لعبت (السلالة السرجونية)، التي أسسها الملك (سرحون الثاني)، دورًا مهمًا في ارتقاء الإمبراطورية الآشورية. حيث حكمت هذه السلالة بعد عهد الملك (شلمنصر الخامس)، والذي لم يحكم سوى مدة قصيرة دامت خمس سنوات[٢١٨].

والملك (سرجون الثاني) يكتب اسمه في اللغة الأكدية (شر – كين) ومعناه (الملك الشرعي). ومن الراجح أنه شارك في الثورة الشعبية التي أطاحت بالملك (آشور نراري الخامس). حيث كان جنرالًا في الجيش الآشوري حينها[٢١٩]. لذلك يعتقد بعض الباحثين أنه كان غاصبًا للسلطة، خصوصًا أنه لا تُعرف صلته القرابية بسلفه. مع ذلك تمكّن من تأسيس سلالة ملكية جديدة حكم فيها أربعة من أشهر ملوك العراق القديم[٢٢٠]. وقد لعبت (السلالة السرجونية) دورًا مهمًا في ارتقاء الإمبراطورية العراقية الآشورية.

وقد أيقن الملك (سرجون الثاني) بضرورة بناء عاصمة جديدة، تجعله أكثر استقلالية من ضغط العناصر الدينية والطبقة الارستقراطية، وتدخلهم في الحكم. ومن هنا جاءت فكرة تأسيس العاصمة الجديدة لبلاد آشور (دور شروكين) في موقع غير معروف ما كان يمثِّل سوى قرية زراعية صغيرة، لتكون مقرًا للحكم من جهة، ومقرًا لولاية العهد من جهة أخرى، ولتكون نقطة دفاعية للمراقبة والسيطرة على الحدود الشمالية، التي تشغلها ممالك قوية في بلاد الأناضول[٢٢١].

وتشير المصادر المسمارية، إلى أن الأوضاع العامة في بلاد آشور، كانت مرتبكة عندما تولى الحكم. حيث استغلت بعض المقاطعات الحدودية فرصة انتقال الحكم، وربما بشكل

غير شرعي، وأعلنت التمرد على السلطة المركزية بتحريض من مملكة أوراراتو وعدد من الممالك السورية والمملكة الفرعونية. إضافة إلى القبائل الجبلية في الشمال، والقبائل الكلدية في الجنوب[٢٢٢].

عليه، قضى الملك (سرجون الثاني) السنة الأولى من سنوات حكمه الثمانية عشر في إخماد تلك التمردات، عبر سلسلة متتالية من الحملات الحربية. لعل أهمها الحملة التي شنها على مملكة أوراراتو التي تحالفت مع أقوام أخرى، وتمكنت من الإطاحة بالحكام المحليين الآشوريين، وعرقلت نشاط التجارة. لذلك شن حملة محفوفة بالمخاطر، بحكم صعوبة التضاريس الأرضية. فخضعت المنطقة كلها لسطوة الإرادة الآشورية[٢٢٣].

كما شن حملة حربية ضد (دويلة إسرائيل)، وحاصر عاصمتها (السامرة) لمدة ثلاثة أعوام. وتمكن من فتحها، وإجلاء الآلاف من سكانها اليهود إلى ناحية حران وضفة الخابور وميديا[٢٢٤].

وبعد أن تمكن الملك (سرجون الثاني) من توطيد مركزه في الجبهة الغربية، توجه نحو بلاد بابل المدعومة من عيلام، وفتح مدنها. ونصَّب نفسه ملكًا عليها. بيد أنه أعاد تنصيب الزعيم الكلدي (مردوخ بلادان الثاني) بعد أن قدم له الخضوع والطاعة. والزعيم (مردوخ بلادان) كان شيخ قبيلة (بيت ياكيني) الكلدية. ويعد شخصية دبلوماسية قديرة، سبق وأن نصَّب نفسه شيخًا على الكلديين بالتحالف مع بلاد عيلام، التي صارت تعلِّق عليه الآمال كزعيم للحركة الانفصالية البابلية عن الإمبراطورية الآشورية[٢٢٥].

ويبدو أن سلوكه السياسي إزاء بلاد بابل، كان يدل على إدراكه لوحدة بلاد الرافدين التي تتكون من بلاد بابل وبلاد آشور. لذلك أعاد تنصيب (مردوخ بلادان) عليها، ومنحها بعض الامتيازات[٢٢٦].

وبذلك، أصبح الملك (سرجون الثاني) سيد الموقف في المنطقة كلها، بعد انتصاراته في الميادين المختلفة. إذ أنه أخضع بلاد الشام، وأزال (دويلة إسرائيل) من الوجود، وأعاد بلاد بابل إلى سلطة الدولة الآشورية.

ثم اعتلى الملك (سنحاريب) عرش آشور. وكانت الدولة الآشورية حينها، قد وصلت إلى أقصى حدودها باستثناء مصر التي لم تكن قد ضمت إليها بعد. كما وصلت الحضارة الآشورية إلى أوج ازدهارها[٢٢٧].

وقد وصف القس (أدي شير) هذا الملك بقوله: (أن سنحاريب كان ملكًا عظيم الشأن، شديد الوطأة، بعيد الهمة، كثير الغزوات والفتوح. وقد أتى في أيامه من عظائم الأمور ما لم يأته ملك قبله)[٢٢٨].

وكانت الإمبراطورية الآشورية عند توليه الحكم، تنعم باستقرار نسبي بفضل الجهود العسكرية التي بذلها الملك (سرجون الثاني)، لا سيما في الجبهة الشمالية. فكان عهد الملك (سنحاريب) عهد رخاء اقتصادي، وازدهار حضاري متميز تمثل بنشاطاته العمرانية الكثيرة، التي شملت معظم المدن الآشورية. بيد أنها تركزت في مدينة نينوى التي اتخذها عاصمة له عند توليه الحكم[٢٢٩]. حيث أعاد بناء قصورها ومعابدها وأسوارها وبواباتها. وأقام فيها الحدائق والبساتين. وجلب إليها المياه من مناطق بعيدة. وقد تم العثور على قصر سنحاريب الرئيسي أثناء عمليات التنقيب التي جرت عام ١٨٤٧م[٢٣٠].

وفي ظل هذه الأجواء، نظم قواعد ولاية العهد عام ٦٨٣ قبل الميلاد. وعين ابنه الأصغر (أسرحدون) أميرًا، ومن ثم وليًا للعهد. وبذلك تجاوز في مسألة تعيين (أسرحدون) وليًا للعهد عددًا من أبنائه الأكبر سنًا. وكذلك تجاوز العادات والأعراف الدارجة. لذلك اتخذ إجراءات احترازية بهدف أضفاء طابع شرعي على اختياره، وتأمين حماية تثبيته لولي العهد (أسرحدون). وذلك عبر معاهدة مفصلة ومعززة بالقسم، تقتضي بوجوب حماية ولي العهد المختار من أي مخاطر، ولا سيما من مطالبات بالملك من أفراد الأسرة الملكية الحاكمة. أن هذه الخطوة، قادت إلى معارضة شديدة داخل الأسرة السرجونية الحاكمة[٢٣١].

ويبدو أن حقبة الاستقرار النسبي، الذي تمتعت به بلاد آشور، لم تدم طويلًا. حيث ما لبثت الأوضاع أن اضطربت في بلاد بابل. ثم أعقبها تمردات في المدن السورية والفلسطينية.

وكان على الملك الجديد أن يعمل بقوة لإعادة الهدوء إلى تلك المناطق[٢٣٢]. لذلك شغلت نشاطاته الحربية معظم سنوات حكمه.

إن تلك العمليات كانت مركزة على جبهتين رئيسيتين هما الجبهة الغربية والجبهة الجنوبية الشرقية. أما الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية، فيبدو أن العمليات العسكرية الواسعة التي سبق وأن قام بها الملك (سرجون الثاني)، كانت قد ضمنت للدولة الآشورية استقرارًا نسبيًا في تلك المنطقة ردحًا من الزمن[٢٣٣].

وفي الجبهة الغربية، قامت بعض المدن الفينيقية والفلسطينية، بما فيها (مملكة يهوذا) بإعلان التمرد ضد الحكم الآشوري، بتحريض من فرعون مصر. لذلك شن الملك (سنحاريب) حملة عسكرية عام ٧٠١ قبل الميلاد، أخضع بموجبها المدن المتمردة، وحاصر عاصمة يهوذا، وضيق الخناق عليها. ولم يرفع الحصار عنها إلاَّ مقابل دفع الجزية[٢٣٤].

أما قضية بلاد بابل، فكانت سياسة الملك (سنحاريب)، كغيره من الملوك الآشوريين البارزين، تقضي بالمحافظة على وحدة بلاد وادي الرافدين، أي وحدة بلاد بابل وبلاد آشور. لذلك اتخذ جميع الإجراءات من أجل تحقيق ذلك. حيث أوْلَى اهتمامًا خاصًا لحل المشكلة البابلية. وذلك من خلال القضاء على مملكة عيلام التي كانت تثير الفتن والاضطرابات في بلاد بابل، وتستميل بعض القبائل الكلدية، وتمدها بالعون المادي والعسكري من أجل التمرد ضد الآشوريين.

وقد ساءت الأوضاع في جنوبي بلاد بابل بعد وفاة الملك (سرجون الثاني). حيث استغل ذلك زعيم الكلديين (مردوخ بلادان) للمطالبة بعرش بابل بدعم من مملكة عيلام. فتوجه زعيم الكلديين إلى بابل وخلع الحاكم الذي عينه (سرجون الثاني) حاكمًا على بابل. ونصَّب نفسه ملكًا بدلًا منه. لذلك سارع الملك (سنحاريب) بتجهيز حملة حربية ضده.

مع ذلك، عادت بابل وتمردت مرة أخرى، فوجه لها الملك الآشوري حملة عسكرية أطاحت برؤوس التمرد. وقرر الملك مهاجمة مملكة عيلام في عقر دارها لأنها كانت تقف وراء تلك التمردات دون حسم المعركة[٢٣٥].

و في عـام ٦٨١ قبـل الميلاد، تـم اغتيال الملك (سـنحاريب) من أحـد أبنائه في ظروف غامضة. وتولى العرش من بعده ولي العهد ابنه (أسرحدون)[٢٣٦].

لقـد بلغ الملـك (أسرحدون) الهـدف الأعلى لطموحـات بـلاده الإمبراطورية. وذلك بغـزوه مملكة مصر الفرعونية[٢٣٧]. حيث أن فرعون مـصر، كان وراء الفتن والاضطرابات التي قامت بها المدن الفينيقية، ولا سـيما صور وصيدا. لذلك قرر (أسرحدون) القضاء على فرعـون مـصر. وبدأ بالإعـداد لذلك من خلال إقامة علاقات دبلوماسـية مـع حكام المدن الواقعـة عـلى الطريـق، وتجهيز حملات عسـكرية صغـيرة إلى بعضها لضمان سـلامة الطريق المؤدي إلى مصر، وتحييد بعض المدن والقبائل.

وفي عام ٦٧٥ قبل الميلاد، عبر (أسرحدون) الحدود المصرية، بيد أنه توقف ربما بسـبب العواصف الرملية. ثم أعاد الكرة مرة أخرى عام ٦٧١ قبل الميلاد. وتمكن من هزيمة الجيش المصري، وحاصر مدينة منفس. فهرب فرعون مصر، وسارع بقية الأمراء بالاعتراف بسيادة الملك (أسرحدون)، الذي قام بتعيين الموظفين الآشوريين لرعاية المصالح الآشورية في مصر. وأعلن نفسه ملكًا على مصر العليا والسفلى وأثيوبيا. غير أن القائد المصري (تهراقا) تمكن من تجميع عدد من الأمراء حوله لمقاومة السيطرة الآشورية على مصر. وتمكن من استعادة مدينة منفـس. فقام (أسرحدون) عـام ٦٦٩ قبل الميلاد بتجهيز حملة جديـدة إلى مصر إلاَّ أنه توفي وهو في طريقه إلى مصر. فقام بإكمال المهمة ابنه (آشور بانيبال) عندما تولى العرش[٢٣٨].

ومـن الجديـر بالذكـر، أن الملك (أسرحدون) حاول حل المشـكلة البابليـة. وذلك عن طريـق تعيين ابنه (آشـور بانيبـال) وليًا للعهد. وعين ابنه الآخر (شـماش – شـوم – أوكن) حاكـمًا عـلى بابـل[٢٣٩]. واتبع سياسـة جديدة في معالجـة المشـكلة البابلية، اتصفـت باللين وترضيـة السـكان. وفي أولى سـنوات حكمـه، بـذل جهدًا ملموسًـا في تجديد أسـوار بابل، وقصورها، ومعابدها[٢٤٠].

وقـد لاقـت هذه السياسـة ترحيبًا شـعبيًا في بـلاد بابل. واسـتقرت المنطقة طـوال مدة حكمـه. مـع ذلك، قامت بعض القبائل الكلدية بالتمرد ضده. مما اضطره إلى إصدار أوامره

للقضاء عليها، وعلى زعيمها الذي قُتِل بعد المعركة[٢٤١]. ولعله استفاد في ذلك من الأخطاء التي ارتكبها والده في معالجة المشكلة البابلية من جهة، ومن الممارسات الفعلية التي قضاها في حكم بابل في زمن أبيه من جهة أخرى[٢٤٢].

وكان الملك (أسرحدون) قد وضع الترتيبات الدقيقة الخاصة بولاية العهد، واعتلاء العرش من بعده. ربما كرد فعل طبيعي لما عاناه من مشكلات إثر مقتل والده. ففي عام ٦٧٢ قبل الميلاد، أعلن في اجتماع كبير في العاصمة نينوى، عن تعيين ابنه (آشور بانيبال) وليًا على عرش البلاد. وقد حضر الاجتماع حكام المقاطعات وقادة الجيش وكبار الموظفين. فضلًا عن الأمراء والملوك التابعين والموالين. وذلك بعدما أُجريت جميع الطقوس الدينية والمراسيم الخاصة بذلك. وأبرمت سلسلة من المعاهدات مع الأمراء التابعين، ومنهم الأمراء الميديون. وأخذت منهم المواثيق على ضمان تنفيذ وصية الملك. وحددت العقوبات واللعنات القاسية التي ستنزلها الآلهة بكل من يخالف الترتيبات التي وضعها الملك بهذا الصدد[٢٤٣].

وفي ضوء تلك الترتيبات، اعتلى (آشور بانيبال) عرش البلاد، بعد وفاة والده. بينما اعتلى أخوه (شمش – شموكين) ولاية بابل التابعة لبلاد آشور. وذلك بعد موافقة مجلس العائلة الملكي[٢٤٤].

وكان الملك (آشور بانيبال) من الشخصيات اللامعة. حيث جمع ما بين شخصية القائد الشجاع والمقاتل العنيد والسياسي المحنك من جهة، وبين شخصية الملك المثقف، المولع بطلب العلم والمعرفة، والمهتم بجمع علوم ومعارف الأجيال الماضية[٢٤٥]. حيث أنه يعد من خيرة ملوك أرض الرافدين حبًا للأدب والثقافة. فقد جمع معظم الكَتَبَة الماهرين في عهده. وبدأ حملة توثيق التراث الأدبي للحضارة العراقية خوفًا عليه من الضياع. وبذل جهودًا علمية دقيقة حفاظًا على الأمانة العلمية في عملية النسخ. إذ شارك بنفسه في نسخ عدد من القطع الأدبية البابلية القديمة[٢٤٦].

كما وصف (آشور بانيبال) بأنه كان أديبًا ميالًا للعلوم، فارسًا مغوارًا، وقائد عربات

لا يُشق له غبار. يعرف كيف يصوب للهدف بقوسه وسهامه. كما تعلم ممارسة السياسة والإدارة حتى أتقنهما على خير وجه[٢٤٧]. كما وصفه القس (أدي شير بأنه (كان متبصرًا في أمور السياسة)[٢٤٨].

وبلغت الإمبراطورية الآشورية، أقصى السعة والامتداد في عهده. إذ أن جيوشه صعدت أعالي النيل، حتى وصلت إلى عاصمة الصعيد (طيبة) فاكتسحوها، وساقوا أهلها أسرى بعيدًا عن بلادهم[٢٤٩]. وقد اعتمد السياسة نفسها التي وضعها أبوه، فاعتمد على الأمراء المحليين بعد أن انسحب الجيش الآشوري. بعد ذلك تحسنت العلاقات الآشورية – المصرية. حيث سارع فرعون مصر إلى إرسال المساعدات العسكرية للآشوريين عندما تعرضوا لهجوم الميديين والكلديين.

أما المشكلة الرئيسية التي واجهت الملك (آشور بانيبال) بعد مشكلة مصر، كانت مشكلة بلاد بابل ومن ورائها مملكة عيلام. حيث حاولت مملكة عيلام والقبائل الكلدية المناوئة للآشوريين التفريق بين جناحي العراق القديم (ملك بابل وملك آشور). والسعي لزيادة شقة الخلاف بينهما. وبقي الوضع على هذا المنوال، إلى أن تمكن الملك الآشوري من القضاء على مملكة عيلام عام ٦٣٩ قبل الميلاد[٢٥٠].

وبناء على ذلك كله، يتبين بوضوح دور المعادل البشري الآشوري في نهوض بلاد آشور، وتحولها إلى إمبراطورية واسعة الأرجاء.

ثالثًا: نظام الحكم الآشوري

كان للدور الفعال الذي لعبه الملوك الآشوريين على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى القديم، قد أفضى إلى تبني فلسفة الدولة الاستبدادية المطلقة، والتي أصبح الملك بموجبها قابضًا على مقاليد الدولة كلها. بحيث أصبح متحكمًا في السياسة العامة للبلاد بشكل مُطْلَق.

وتُعرف النظم الاستبدادية، على أنها شكل من أشكال الحكم، التي أخذت حيزًا كبيرًا من نشاطات السياسات الحاكمة في العصور كلها، وفي بلدان مختلفة. ولا تزال تلك الأنظمة

تعد إحدى الخيارات التي تطرح في العديد من البلدان. وتطلق كمصطلح سياسي، على نظام الحكم الذي تتمركز فيه السلطة بيد حاكم بشكل فردي. وفي العادة يتولى المستبد سلطته عن طريق القوة أو الإرث. وأحيانًا يتم توليها بطرق ديمقراطية تفضي فيما بعد إلى تمركز السلطة بيد شخص واحد، يحكم دون رقيب. وقد تظهر نظم الحكم الاستبدادية نتيجة لظهور حالة من الخلاف السياسي في المجتمع. ومن هذا الاختلاف تولد ضرورة وجود قائد قوي يقود الجماعات المختلفة ويوجهها. من هنا تتبلور الزعامة الفردية في المجتمع.

ويبدو أن نظام الحكم الآشوري ذات الطبيعة الاستبدادية، قد ساهم بشكل فعَّال في ارتقاء الإمبراطورية الآشورية، وتفوقها في الشرق الأدنى القديم كله. **وذلك لأن هذا النظام، رغم سلبياته، بيد أنه اتسم بالعديد من المزايا. لعل أهمها:**

أ – اتسم بسرعة الإنجاز، الذي أفضى إلى تقدم الدولة ورفاهيتها وتعزيز قوتها بشكل سريع للغاية.

ب– تمكن هذا النظام من توحيد الشعب، وبث الروح فيه من جديد، إثر تعرضه لظروف صعبة في تاريخها الطويل.

ج – تمكَّن هذا النظام من بناء مؤسسة عسكرية قوية، ساهمت في حماية حدود الدولة الآشورية وتَوْسعتها إلى أقصى حد ممكن.

وقد ارتكزت شخصية الملك الآشوري المستبد على ركنين أساسيين لترسيخ سلطته هما:[٢٥١]

أ – **الركن الأول:** اعتمد على احتساب الملك (وكيل الإله آشور) في حكم الشعب الآشوري على الأرض. وأن هذا الدور كان قد فرض نوعًا من التقديس المشوب بالاحترام الديني لشخص الملك.

ب– **الركن الثاني:** اعتمد على سطوة الملك التي تظهر بوضوح إثر سيطرته المُطْلقة على جميع الشؤون التنفيذية والتشريعية في إدارة إمبراطوريته المترامية الأطراف.

وفي ضوء ذلك، اعتنق ملوك الدولة الآشورية استراتيجية الحكم المركزي الشمولي. وبذلك تم قطع الطريق على أي محاولة للانسلاخ عن الدولة المركزية. مما أدى إلى تقوية سلطة الملك والدولة. وقد تكللت جهود هؤلاء الملوك في الحد من سطوة حكام المقاطعات المحلية، وإعادة تنظيمها[٢٥٢]. وكان الملك الآشوري مطلق السلطة، وغير مسؤول أمام أحد سوى الآلهة المزعومة. مع ذلك كان يمارس السلطة بمعونة الطبقة الارستقراطية. وكان يختار منها الولاة وقادة الجيش وكبار موظفي الدولة[٢٥٣].

وامتاز النظام الملكي الآشوري، بأنه كان نظامًا وراثيًا على غرار النظام البابلي[٢٥٤]. إذ كان الملك يختار ولي العهد أثناء حياته من بين أبنائه. ثم تُعْرَض البيعة والولاء له على الأمراء من العائلة الحاكمة، وعلى جميع وجهاء المملكة، وكبار قادة الجيش، وأحرار الأقاليم التابعة. ويفترض في ذلك التعيين أنه كان تنفيذًا لإرادة الإله المزعوم آشور، واستشارة كبار الآلهة عن طريق الفأل والكهانة[٢٥٥].

وقد جرت العادة، أن يترك ولي العهد قصر أبيه الملك، ليعيش في قصر خاص عرف بقصر ولي العهد، والذي تتم فيه عملية تأهيل ولي العهد لمهام الحكم. إذ يعلم وظائف الملوكية وواجباتها، وأساليب الحكم. وتُعْهَد إليه مهام عسكرية وإدارية مهمة نيابة عن الملك عند غيابه[٢٥٦]. وأشار (آشور بانيبال) إلى التدريبات التي تلقاها في قصر ولاية العهد[٢٥٧].

وكان الملك الآشوري، بالإضافة إلى مهمته كملك وواجباته المرهِقة، فقد كان يعد الكاهن الأعلى للإله آشور ورئيس الكهنة الأعلى[٢٥٨]. لذلك كانت تقع على عاتقه مهمة إجراء الشعائر والطقوس الدينية. فبصفته ملكًا وكاهن أعلى، فقد كان يقوم بالشعائر الخاصة بتقديم الطعام والشراب يوميًا إلى الإله المزعوم آشور وكبار الآلهة. ثم يتناول الطعام المقدس بعد أن يأكل منه الإله المزعوم بوجه رمزي[٢٥٩].

وبذلك طوى الملك الآشوري سلطة المعبد تحت عباءته بوصفه الكاهن الأعلى للإله آشور ورئيس مجلس الكهنة الأعلى. لذلك امتلك الملوك الآشوريين نوعًا من القداسة

بوصفهم ظل الله في الأرض. فضلًا عن واجباتهم الملكية المرهِقة، والتي تقتضي التدقيق بأصغر تفاصيل الحياة ومتطلباتها[٢٦٠].

ويبدو أن تلك الطقوس والممارسات الدينية والسياسية، كانت قد مثلت استراتيجية عمل البلاط الملكي الآشوري. مع ذلك، لم يدع الألوهية أي من ملوكها، مثلما فعل فراعنة مصر.

وفي نظام الحكم الآشوري، يعد الملك القائد العام لجيش الإله المزعوم آشور. ويتولى الملك بنفسه قيادة الجيش في معظم الأحيان[٢٦١].

ويبدو أن الطبيعة العسكرية التي اتخذتها الدولة الآشورية، قد أبرزت، بشكل واضح، الأهمية الاجتماعية للفئة العسكرية في نظام الحكم. إذ كان الملك يعنى بالدرجة الأساسية بالشؤون العسكرية. أن قوة هذه الفئة لم تكن قاصرة على حقبة الضعف الذي يصيب السلطة الملكية أحيانًا، إنما نستطيع أن نتلمس قوة هذه الفئة في المراحل التاريخية الآشورية المختلفة كلها[٢٦٢].

أضف إلى ذلك، خلص نظام الحكم الآشوري إلى إيجاد منصب رئيس للوزراء. ليكون على رأس الإدارة المدنية. ويتمتع بأهمية ملحوظة في النظام السياسي[٢٦٣].

وإلى جانب رئيس الوزراء، وجد عدد كبير من الموظفين الكبار. فهناك حامل أختام الملك، ورئيس التشريفات، ورئيس الحاشية الملكية، ورئيس الموائد، ورئيس السقاة، ورئيس الاسطبلات، ورئيس الأطباء، وطبيب الملك الخاص، وكاتب القصر، وكاتب الحريم، والمشرف على قطعان المواشي، ورئيس الخصيان، وحامل سلاح الملك، وحامل صولجانه، ورئيس الصناعة، ورئيس المغنين، ورئيس القصابين، ورئيس الحاكة، ورئيس حراس الباب الأول في القصر. إلى جانب كبار الموظفين، والموظفين الصغار والتابعين من الكَتَبَة والمستخدمين[٢٦٤].

كما اهتم الملوك الآشوريين بإدارة المدن. لذلك عينوا للإدارة المدنية في المدن موظفًا بمثابة المحافظ يُدعى (الخزانو)[٢٦٥].

كما نجح نظام الحكم الآشوري في تحقيق أهدافه عن طريق التوظيف الديني. فمن أجل رفع معنويات الجند المقاتلين، كان لابد من الادعاء بأن الحملات العسكرية ما كانت توجه إلى أي جبهة إلاَّ تنفيذًا لرغبات آلهة بلاد آشور، ووفق توجيهاتها التي أوحتها إلى الملك كما كانوا يظنون. لذا كان الملك يقوم، وقبل كل شيء آخر، باستخارة الآلهة من خلال الكهنة لأخذ موافقتها على بدء الحملة. ثم يستخيرها مرة أخرى لتحديد الوقت المناسب لبدئها. وقد يؤجل الموعد أن لم تكن تنبؤات الكهنة ملائمة. وكان بعض الكهنة يرافقون الحملة العسكرية، ويقومون بإجراء الطقوس الدينية في كل مناسبة من أجل رفع معنويات الجند[٢٦٦].

لذلك، كان الملك الآشوري يوصف على أنه (القائد الأعلى لجيوش الإله آشور، الذي يطير فوقه بجناحيه الزرقاويين، مطلقًا سهامه النارية التي اخترقت حدود المدن والأقاليم من دون استثناء، ليقدم نصره المؤزر لنائبه على الأرض بطبق من ذهب). وفي ضوء ذلك الوازع الديني، (اندفعت جحافل الجيش الآشوري لتشييد إمبراطورية الإله آشور)[٢٦٧].

لقد أدى الضاغط الديني دورًا مهمًا في تحقيق دولة الإله المزعوم آشور العالمية. حيث اعتقد الآشوريون أن إلههم القومي يجب أن يحكم العالم، ويجب خضوع البشرية كلها لإرادته. لذلك فإن الانتصارات الآشورية التي حققها ملوك بلاد آشور، قد تحققت بفعل أرادة الإله القومي للدولة الآشورية على حد اعتقادهم.

وقد تَمَخَّض هذا الهوس الإمبراطوري الآشوري عن ولادة أكبر إمبراطورية عرفها الشرق القديم. حيث امتدت حدودها من بحيرتي (وأن وأورميا) في منطقة الأناضول التركية حتى أعماق الخليج العربي في أقصى الجنوب. ومن همدان وعيلام في الأراضي الإيرانية شرقًا، حتى عاصمة طيبة عاصمة فراعنة مصر غربًا[٢٦٨].

وبهذا التوظيف الديني الذي استخدمه نظام الحكم الآشوري، أزالت الإمبراطورية العالمية الحدود الإقليمية بين الدول والحضارات. وساهمت في إضعاف الشعور بالأثنيات العرقية، وصهرتها في بوتقة ثقافية – سياسية واحدة.

وعلى هذا الأساس، وضعت الأيديولوجية اللاهوتية، فكرة التوسع الإمبراطوري الآشوري بمستوى أعلى من الدوافع السياسية والاقتصادية. مع ذلك لا يمكن فصلها عن تلك الأهداف النفعية.

ومع مرور الزمن، ترشحت مجموعة من العوامل الفاعلة، التي ساعدت نظام الحكم الآشوري على النجاح. أن تلك العوامل وحدت البلاد تحت سطوة الملوك الآشوريين بوصفهم نواب الآلهة في حكم البشر. فكانت وحدة الأرض والتاريخ المشترك، واللغة الرسمية للبلاد من المهيمنات الفكرية – السياسية التي وحَّدَت الشعوب المختلفة في إطار الإمبراطورية الآشورية القوية.

رابعًا: الإدارة العامة

أما الجبهة الداخلية، فكان يديرها جهاز إداري كفوء، ساهم في ارتقاء الإمبراطورية الآشورية. ويرجع الفضل في وضع أسس هذا الجهاز الكفوء إلى الملك (تجلات بلاسر الثالث)، الذي أعاد تنظيم الدولة الآشورية، ووضع لها نظامًا إداريًا غاية في الدقة والفعالية[٢٦٩].

وقد ارتكز هذا النظام الإداري على ما يأتي:

أ – تقسيم الإمبراطورية إلى مقاطعات وأقاليم رئيسية. يشرف على كل مقاطعة شخص يُسمى (بيل بيخاتي) أي (سيد المقاطعة)، الذي يمثل الملك فيها.

ب– كانت مدينة آشور تدار من مجلس منتخب من كبار السن، على رأسهم شخص يُدعى (الخزانو)، وهو لقب يقابل منصب المحافظ في عصرنا الحاضر.

ج– ومن جانب الحيطة والحذر من احتمال اندلاع تمرد أو عصيان، عين الملك حاكمًا ملكيًا فيها، يكون إلى جانب (الخزانو) يُدعى (الرجل على المدينة)، والذي يلعب دور رقيب الملك على حسن إدارة المدينة، وأسلوب جباية الضرائب، والإشراف على التجنيد. فضلًا عن تنفيذ سياسة الملك وتعليماته[٢٧٠]. يعاونه مجموعة من

الموظفين الأكفاء المختارين وفق كفاءتهم وولائهم. وكان كل حاكم مسؤول عن الشؤون المالية والعسكرية والدينية والإدارية في المقاطعة. وينطبق ذلك على حكام الوحدات الإدارية الأصغر. وكان الاتصال بالملك يتم وفق التسلسل الإداري، وفي حالات نادرة، يتم الاتصال بالملك مباشرة دون المرور بهذا التسلسل الإداري[٢٧١]. ولضمان الاتصال الدائم والسريع بين الملك وحكام المقاطعات والمدن، كان هناك نظام بريد واتصالات على درجة كبيرة من الكفاءة والسرعة[٢٧٢].

د – أما أسلوب إدارة البلدان والأقاليم التابعة أو الموالية، فكان يختلف حسب طبيعة العلاقة التي تربطها بالدولة الآشورية. ومن الممكن تصنيفها إلى ثلاثة أساليب إدارية هي:[٢٧٣]

- **الأسلوب الأول**: اتبع مع البلدان الموالية للدولة الآشورية سواء كان بدافع الخوف أو الحذر من سيطرة الدولة الآشورية عليها. فكانت تلك البلدان تعترف بسلطان الدولة الآشورية، وتدفع الجزية لها مقابل امتياز الحماية العسكرية التي توفرها الدولة الآشورية عند حدوث أي اعتداء خارجي عليها، أو عند حدوث تمرد داخلي ضد السلطة الحاكمة فيها. وإذا امتنعت تلك البلدان عن دفع الجزية أو سحبت اعترافها بالسلطة الآشورية أو عقدت حلفًا أو معاهدة مع دولة معادية للدولة الآشورية، كان الرد يتمثل بتجهيز حملة عسكرية تأديبية عليها، وتغيير حاكمها بآخر موال للسياسة الآشورية، ليضمن حماية القوافل التجارية الآشورية والرعايا الآشوريين، وتقديم التسهيلات اللازمة لهم.
- **الأسلوب الثاني**: أُتبع مع بعض البلدان التابعة. حيث يعين موظف آشوري في بلاطها المحلي مع قوة عسكرية صغيرة تدعمه. وتعقد مع الحاكم الجديد اتفاقية تلزمه بالقسم أمام الآلهة العظمى المزعومة بالمحافظة على بنود الاتفاقية. أما إذا حنث بالقسم، ونبذ عنه السلطة الآشورية، وطرد الممثل الآشوري، وأعلن عصيانه، عندها تتخذ الإجراءات العسكرية السريعة للسيطرة الكاملة على ذلك البلد وإلحاقه بحدود الدولة الآشورية، لتُحكم من حكام آشوريين

بصورة مباشرة. وغالبًا ما يرحل سكانها إلى منطقة أخرى، ويُؤتى بسكان آخرين بدلًا منهم. ولعل أبرز نموذج لتطور هذه العلاقة بهذا الشكل، كان مع مملكة (خانيكليان) الميتانية.

- **الأسلوب الثالث**: أما إدارة الأقاليم والمقاطعات التابعة للحكم الآشوري المباشر، فكانت تدار من موظفين أكفاء تعينهم السلطة المركزية، وتتابع تنفيذهم السياسة الآشورية العامة. وكانت السياسة الآشورية في تلك الأقاليم، اعتمدت على ترضية السكان المحليين، وتقديم المساعدات لهم.

خامسًا: السياسة العامة

كانت السياسة العامة الآشورية على درجة كبيرة من النضج، وبعد النظر. حيث لم تكن الحملات العسكرية تُجهز إلاَّ بعد دراسة مستفيضة للأوضاع الداخلية والخارجية للمنطقة المزمع توجيه الحملة ضدها. كما كان يسبق أي حملة عسكرية اتصالات مكثفة مع حكام البلدان المجاورة، لضمان ولائهم للدولة الآشورية أو تحييدهم على أقل تقدير. وذلك لضمان أمن وسلامة الخطوط الخلفية المارة بحدود ممالكهم. وقد تُعقد المعاهدات مع بعض الأمراء، وتُوثَّق بالمصاهرات السياسية من أجل ذلك[٢٧٤].

أضف إلى ذلك، كان رجال الاستخبارات الآشوريون المبعوثون إلى تلك المناطق، يقومون بدراسة الأوضاع الداخلية، ويرسلون بتقاريرهم التفصيلية إلى الملك الآشوري. وقد وثقت تقارير بعض أولئك المخبرين، ولا سيما فيما يتعلق بالحملة الثامنة للملك (سرجون الثاني)، التي وجهها نحو بلاد آراراتو. وقد يضطر الملك إلى إيقاف الحملة قبل الشروع بها، أو حتى بعد انطلاقها، من أجل معالجة موقف مستعجل في مكان آخر. كما فعل الملك (سرجون الثاني) عندما أوقف الحملة التي كانت ستوجَه إلى بلاد بابل ريثما تتم معالجة الموقف في الجبهة الغربية[٢٧٥]. وقد يقدم الملك بعض التنازلات المؤقتة في جبهة معينة من أجل تحقيق هدف أكبر في جبهة أخرى. كما فعل الملك (أسرحدون) لأحد الأقاليم الآشورية الحدودية في الجبهة الشمالية الشرقية.

وفي الحملات العسكرية المهمة، كان الملك يقود الجيش بنفسه. في حين كان يتولى قيادة الحملات الأقل أهمية أحد القادة العسكريين أو أحد حكام المقاطعات القريبة. وقد يقود الجيش أحيانًا ولي العهد.

وكان تنفيذ تلك السياسات يعتمد على قوات عسكرية آشورية امتاز أفرادها بالشجاعة والصبر على تحمل المصاعب. كما امتازت بخبرتها الطويلة المكتسبة من خوض الجيش الآشوري معارك كثيرة وفي ظروف ومواسم وبيئات مختلفة، مما أكسب تلك القطعات العسكرية قوة قتالية عالية(٢٧٦).

ونظرًا لكثرة الحملات العسكرية التي قام بها الملوك الآشوريون، فقد وصفها بعض الباحثين المحدثين بأنها دولة عسكرية بحتة. فتولد لديهم انطباع خاطئ عن السياسة الآشورية، وعن أساليبهم العسكرية التي استخدموها في قمع التمردات وحركات العصيان. لذلك وصفوا سياستهم بالاستعمارية. كما وصفوا أساليبهم بالوحشية، وحكمهم بالظلم والطغيان، دون أن يأخذوا بالحسبان الظروف والملابسات المحيطة بها ومنها:

أ - لم يأخذوا بالحسبان الأسباب التي دفعت الملوك الآشوريين للقيام بحملاتهم العسكرية، ولا دواعي اتباعهم أسلوب القسوة والشدة في قمع التمردات.

ب- لم يأخذوا بالحسبان الأخطار المحدقة بالدولة الآشورية، ومواجهة التحديات الأجنبية المُحتمَلة. من أجل المحافظة على أمن البلاد وسلامتها من الغزاة الطامعين. فضلًا عن المحافظة على طرق المواصلات التجارية، وإزالة الأخطار التي كانت تهدد كيانها السياسي بشكل دائم.

ج- كما أنهم لم يأخذوا بالحسبان المنجزات الحضارية المهمة التي أنجزها الآشوريون في تلك الحقبة من تاريخهم الطويل. إذ أن الانتصارات العسكرية الكثيرة التي حققوها لم تكن سوى نتيجة من نتائج سياستهم العامة الناجحة داخليًا وخارجيًا، والتي رسم معالمها المعادل البشري الكفوء المتمثل بعدد من الملوك الآشوريين المتميزين.

د – أضف إلى ذلك، كان لسياسة التوسع العسكري التي اتبعها ملوك الدولة الآشورية، أثـر ملموس في زيادة نشـاط الحيـاة الاقتصادية في البلاد، وتدفـق الأموال إلى بلاد آشـور من البلدان المفتوحة. فضلًا عن مساهمتها في نشر الرفاهية، وإنجاز المشاريع الضخمـة والأعـمال العمرانية الملحوظـة. كما أفضت إلى تمـازُج حضاري بين بلاد آشور والبلدان المفتوحة.

المطلب الثاني
عوامل سقوط الإمبراطورية العراقية الآشورية

مع أن سـقوط الإمبراطورية الآشـورية، يشترك في علله وأسـبابه العامة مع الكثير من الأسـباب التـي درج المؤرخون على تعدادها عن سـقوط الـدول والإمبراطوريات، **بيد أن سـقوط الإمبراطورية الآشـورية يتفرد في بعض العلل الخاصة به، على حد قول العلاَّمة (طه باقر)، والتي يمكن تشخيصها بما يأتي:**

١ – تطرف الملوك الآشوريين في سياسة الفتح والغزو والإغراق في النواحي العسكرية والـروح الحربيـة. بحيث تـكاد أن تكون أعوام حكـم ملوكها حروبًـا متواصلة، لدرجة حملـوا فيها مواردهم فوق طاقتها، ومدوا فتوحاتهم إلى جهات نائية يتعذر الاحتفاظ بها. ولعـل أوضـح مثال عـلى ذلك كان فتح مصر، الـذي أنهك ماكنة الحرب الآشـورية عدة سنوات[٢٧٧].

ويبـدو أن فكرة التوسـع، ومـد حدود الدولة الآشـورية إلى أقصى بقـاع الأرض، وإن أرهقـت مـوارد الدولـة الاقتصادية، بيد أنها كانت مدعاة إلى خشـية الملوك الآشـوريين من عودة احتلال بلادهم من أي محتل جديد. فبعد أن تحررت بلادهم من نير الاحتلال الميتاني ومن بعده الآرامي، فقد بقي ملوك البلاد وشعبها، على حد سواء، في حالة ترقب دائم لكي لا يقعـوا لقمة سـائغة لمحتل آخـر. فوجدوا بفكرة التوسـع حماية لوطنهم مـن خطر تكرار الاحتلال والتبعية للآخر. حيث بقي هذا الهاجس السـيكولوجي من خطر الآخرين كامن في أعماق ملوك العصر الآشوري الإمبراطوري من دون استثناء [٢٧٨].

٢ – كما أن سياسة الملوك الآشوريين التي اتسمت بالقسوة والتدمير، والقتل الجماعي، والتمثيل بالأسرى، وسياسة تهجير الشعوب والأقوام برمتها، ومحو البعض منها، كان قد ولَّد ضدهم نقمة الشعوب وسخطها[٢٧٩]. ومما زاد من تعميق هذا الانطباع، ما أوردته نصوص العهد القديم، التي تطرقت بشكل سلبي إلى تاريخ الآشوريين والبابليين[٢٨٠]، ربما لأنهم تمكنوا من القضاء على مملكة إسرائيل عام ٧٢٢ قبل الميلاد في عهد الملك (سرجون الثاني). لذلك فإن ما تعكسه مثل هذه الأسفار لا يمثل وجهة نظر محايدة.

ويبدو أن من الأسباب الرئيسية التي دفعت الكثير من الباحثين إلى وصف الآشوريين وسياساتهم بهذه الصفات البغيضة، هي طبيعة المصادر التي اعتمدوا عليها في استنباط المعلومات حول السياسات الآشورية، والتي مثلتها، بالدرجة الأساس، النصوص الملكية التي خلفها الملوك الآشوريين أنفسهم، والمنحوتات الجدارية التي صورت مشاهد حربية مختلفة. فضلًا عما ورد ذكره في أسفار العهد القديم من إشارات عن الآشوريين وحملاتهم العسكرية، وأساليبهم الحربية.

ويمكن رد جانب من تلك التفسيرات، رغم صحة بعضها، بالشكل الآتي:

أ – أن النصوص الملكية والمنحوتات الجدارية، التي أسهبت في وصف الحملات العسكرية الآشورية، وأن كانت صادرة عن الملوك الآشوريين، بيد أنها لا تعكس الصورة الحقيقية التي اتصفت بها الحملات العسكرية، طالما كان هدفها إعلاميًا بالدرجة الأولى بقصد إدخال الرعب لدى الخصوم. شأنها في ذلك شأن جميع وسائل الإعلام الحربية في العصور كافة.

ب– أما أسفار العهد القديم، فليس غريبًا أن نجد فيها ما يُسيء إلى الآشوريين الذين قضوا على مملكتهم، وأسروا العديد منهم. لذلك فإن تلك النصوص فقدت طابعها المحايد[٢٨١].

ج – أضف إلى ذلك، أن تلك الأساليب، إن وجدت، فإنها لم تكن تختلف عن أساليب الأقوام القديمة الأخرى. فضلًا عن كونها أساليبًا وقائية – دفاعية.

د – ويلاحظ أن تلك الأساليب، ربما تتعارض مع كينونة الآشوريين، لأنهم كانوا أقوامًا متحضرة. ازدهرت في عصرهم الحضارة العراقية القديمة في مختلف جوانبها المادية والعلمية والثقافية، والتي تم اكتشافها في بلاد آشور.

ويكفي القول، أنهم اكتشفوا شكل الكتاب الذي نتداوله حاليًا للدلالة على الحضارة. فيما احتسبت مكتبة (أشور بانيبال) التي اكتشفت في قصره الكائن في نينوى، من أكثر مكتبات الحضارة الشرقية أهمية، بحكم مرافقها البنائية، وحسن تنظيمها، وأرشيفها الضخم الذي ضم موضوعات أدبية متنوعة[٢٨٢].

وفي ضوء ذلك، يبدو أن الآشوريين لم يكونوا قساة في الأحوال كلها، إنما كانوا قساة في معالجة التمردات في حالة تكرارها في منطقة معينة فقط[٢٨٣]. مع ذلك فإن تلك القسوة كانت قد أخذت من رصيدهم، وأوهنت كيانهم السياسي.

٣– وتشير المعلومات المتوفرة إلى الارتباك والفوضى التي سادت البلاد ما بعد وفاة الملك (آشور بانيبال). حيث حدث نزاع حول وراثة العرش. وقد وقع عبء ذلك على ولدِه وخليفته في الحكم (آشور أطلي ايلي)، والذي لم يدم حكمه زمنًا طويلًا (٦٢٦ – ٦٢٤ ق.م)، وقضى مدة حكمه القصيرة في الدفاع عن عرشه[٢٨٤]. **وقد ترافق ذلك مع مسألتين هما:**

أ – جاء إلى الحكم من بعد الملك (آشور بانيبال) ثلاثة ملوك ضعفاء، لم يتمكنوا من حكم الإمبراطورية بشكل يتناسب مع حجمها المترامي الأطراف[٢٨٥]. فضلًا عن إخفاقهم في إنقاذ البلد من الوضع المتدهور. ولم ينجزوا سوى اتخاذ موقف الدفاع إزاء الأخطار المحدقة[٢٨٦].

ب– وقد ترافق ذلك، مع ظهور زعيم قوي في بلاد بابل يُدعى (نبو بولاصر) ملك الكلديين، الذي تمكن من تنصيب نفسه ملكًا على بابل عام ٦٢٦ قبل الميلاد. وبدأ يعد العدة للقضاء على الدولة الآشورية بالتحالف مع الميديين[٢٨٧].

٤ – أن ظاهرة عسكرة الدولة والمجتمع، وإن وسَّعت من سيطرة الدولة الآشورية، بيد أنها، في الوقت نفسه، فاقمت من فكرة الرفض، وعجلت من فعل الثورات والتمردات ضد

السلطة الآشورية، وأضعفتها إلى حد كبير[٢٨٨]. فضلًا عن أن أولئك الشعوب المتمردة، كانوا ميالين دائمًا إلى فكرة العصيان. والملوك الآشوريون، عوضًا عن أن يعمروا البلدان المفتوحة، ويصلحوا أحوالها، كانوا على العكس يوقعون فيها الخراب والدمار. ولهذا نلحظ أن ملوك آشور، منذ يوم جلوسهم على العرش حتى مماتهم، يباشرون الغزوات[٢٨٩]. وبذلك بدأت الدولة بالانحطاط والنزول.

٥- يبدو أن استمتاع أحفاد الملك (سرجون الثاني) بهالة المجد، كان قد شجعهم على مزيد من الاستبداد، رغم أن بنيان الدولة كانت قد نخرت به عوامل عديدة. لعل أهمها روح الصراع والتنازع العائلي. أن الصراع الأسري السياسي استمر حتى نهاية هذه الدولة. وأن هذا الصراع لم يجعل الدولة متماسكة، بعد أن أضاع على السلطان صواب ملوكها، وأطاح الطمع والرغبة بالهيمنة على السلطة بالسلم المجتمعي. فتجرَّأ الابن على اغتيال أبيه، وتجرَّأ الأخ على اغتيال أخيه.

إن ظاهرة (الاغتيال السياسي) مجتمعيًا وأسريًا، كانت قد عجلت من إعلان الآشوريين ثوراتهم على ملوكهم الذين أطلقوا عليهم صفة (مغتصبي السلطة)، أو (الحكام غير الشرعيين)، أو (الحكام القساة). فصارت الثورة أو العصيان أو التمرد ملمحًا من ملامح الحياة السياسية في المدن الآشورية كلها. بل امتدت لتشمل المدن التابعة للتاج الآشوري في كل مكان من بلاد الشام حتى أقصى بلاد آرارات[٢٩٠].

٦- علاوة على ذلك كله، فقد حظيت بلاد آشور بظروف سياسية بالغة التعقيد. تمثلت بجوار جغرافي أو مناطقي كان ينظر إلى توسعها بحسد. وقد تمثل هذا الجوار الجغرافي أو المناطقي، الذي عبَّرت عنه تطلعات الشاميين، والميديين، والمصريين، والعيلاميين، واليهود، والذين ما برحوا يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الآشورية، والحد من قوتها[٢٩١].

ويبدو أن تلك البلدان، إذا لم تتمكن من الإطاحة بالدولة الآشورية، فإنها ظلت تثير الاضطرابات والقلاقل داخلها. وقد ترافق ذلك مع هشاشة الجبهة الداخلية لبلاد آشور

في منطقتين جغرافيتين متباعدتين عن بعضهما، إلاَّ أنهما كانتا معاقل للثورات والاضطرابات المحلية، وهما بلاد بابل، وبلاد الشام[٢٩٢].

٧- نقص الخبرة في تدبير شؤون إمبراطورية بهذا الحجم، من حيث المساحة، ومن حيث تعدد الشعوب والمعتقدات والثقافات، كان قد ساعد في تفكك الإمبراطورية الآشورية. مما أعطى الفرصة للكلدانيين للإطاحة بهم، وإقامة مملكة بابلية جديدة بقيادة الملك (نبو بلاصر)[٢٩٣].

٨- كما يمكن احتساب الثغرة التي أحدثها فيضان دجلة في السور الشمالي للمدينة، عاملًا مساعدًا على سقوط العاصمة الآشورية[٢٩٤].

ومن ذلك كله، نخلص إلى القول، أن الدولة العراقية في العصر الآشوري، كانت قد اتخذت نمطًا جديدًا لم تألفه في ما مضى. حيث تميزت بأمرين أساسيين هما:

١- أخذت الدولة العراقية في العصر الآشوري طابعًا تصاعديًا على المستوى الجغرافي، حيث أنها لم تتوقف عند حدود العراق الجغرافية، إنما توسعت تدريجيًا إلى أن وصلت إلى نموذج الدولة الإمبراطورية المترامية الأطراف.

٢- أخذ نظام الحكم العراقي في العصر الآشوري طابعًا تصاعديًا على مستوى ممارسة السلطة السياسية. حيث وصل إلى مستوى النظام الاستبدادي الشمولي، والذي يجمع فيه الملك، وبشكل مطلق، ما بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية.

هوامش الفصل الخامس

(١) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (الآشوريون).
(٢) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.
(٣) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧١.
(٤) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٤.
(٥) ايفا كانجيك، كيرشباوم، تاريخ الآشوريين القديم، ترجمة: فاروق إسماعيل، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٨، ص ١٠ - ١١.
(٦) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦.
(٧) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٩ - ١٠.
(٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٤. عامر سليمان، العصر الآشوري، ضمن كتاب العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.
(٩) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(١٠) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧.
(١١) على سبيل المثال لا الحصر انظر: عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤ - ١٥. أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الرشيد للنشر، ط ٥، بغداد ١٩٨١، ص ٢٠٠. عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢، ص ١٣. مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.
(١٢) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.
(١٣) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.
(١٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.
(١٥) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦
(١٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٦.
(١٧) أحمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠.
(١٨) التكوين: ١٠: ٨ - ١٠.
(١٩) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(٢٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٤.
(٢١) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥.
(٢٢) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(٢٣) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٢٤) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٠.
(٢٥) جاسم محمد الخلف، جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦٧ - ١٠٩.

(٢٦) هاري ساكز، عظمة آشور، ترجمة: عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٩٩، ص ١٧.
(٢٧) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣
(٢٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.
(٢٩) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.
(٣٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبقبق ذكره، ص ١٩٣.
(٣١) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(٣٢) للتفصيل انظر: رينيه لابات، المعتقدات الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٩ - ٣٢٤.
(٣٣) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.
(٣٤) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٥.
(٣٦) ج. أي، برنكمان، علم تاريخ وتقويم العصر التاريخي لبلاد ما بين النهرين، ملحق كتاب: ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٢.
(٣٧) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩.
(٣٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، ص ١٥٠.
(٣٩) التكوين: ١٠: ٨ - ١٢.
(٤٠) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٣.
(٤١) التكوين: ١٠: ١٢.
(٤٢) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (كالح).
(٤٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.
(٤٤) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٨.
(٤٥) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.
(٤٦) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٩.
(٤٧) برنكمان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٨.
(٤٨) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦.
(٤٩) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٨
(٥٠) حزقيال: ٢٧: ٢٣.
(٥١) برنكمان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧١.
(٥٢) رينيه لابات، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.
(٥٣) التكوين: ١٠: ١١.
(٥٤) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(٥٥) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، شرح لفظة (نينوى).
(٥٦) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.
(٥٧) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢ - ٣٣.

(٥٨) رينيه لابات، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٩.
(٥٩) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٩.
(٦٠) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨، ص ٨٣.
(٦١) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(٦٢) تقي الدباغ، الوطن العربي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.
(٦٣) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦.
(٦٤) المصدر السابق، ص ٢٨.
(٦٥) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨.
(٦٦) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٦٧) تقي الدباغ، الوطن العربي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.
(٦٨) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(٦٩) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦.
(٧٠) فرج بصمه جي، كنوز المتحف العراقي، منشورات مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٧٢، ص ٤٧٠.
(٧١) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(٧٢) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٥.
(٧٣) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.
(٧٤) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠.
(٧٥) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.
(٧٦) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠ - ٣١.
(٧٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٦.
(٧٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ٣٣٤.
(٧٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢ - ١٢٤.
(٨٠) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.
(٨١) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.
(٨٢) تقي الدباغ، العراق في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥.
(٨٣) أحمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٩.
(٨٤) فرج بصمه جي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢.
(٨٥) لمزيد من التفصيل انظر: أحمد إبراهيم هبو، تاريخ الشرق القديم، ج ٢، دار الحكمة، بغداد ١٩٩٦، ص ١٩٦. عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦. سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥. مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(٨٦) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(٨٧) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ٣٨.
(٨٨) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

(٨٩) ليو و ينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨ - ١٩٩.
(٩٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.
(٩١) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٧.
(٩٢) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.
(٩٣) محمد عبد القادر، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢. عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ٤٩٨.
(٩٤) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(٩٥) المصدر السابق، ص ٥٢.
(٩٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧ - ١٢٨.
(٩٧) تقي الدباغ، العراقي في عصور ما قبل التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨.
(٩٨) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(٩٩) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.
(١٠٠) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(١٠١) جيمس برستد، انتصار الحضارة، القاهرة (د. ت)، ص ١٩٩.
(١٠٢) عدنان مكي، نشأة وتطور القرية في العراق، مجلة سومر، العدد ٣٩ لسنة ١٩٨٣، ص ٩.
(١٠٣) فاروق ناصر الراوي، اقتصاد المدينة العراقية القديمة، ضمن كتاب: المدينة والحياة المدنية، ج ١، بغداد ١٩٨٨، ص ٢٣٧.
(١٠٤) محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة، ج ١، دار أسامة للنشر، عمان ٢٠٠٢، ص ١١٨.
(١٠٥) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق كره، ص ٢١٠.
(١٠٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.
(١٠٧) عامر سليمان، جوانب من حضارة العراق القديم، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ٢٠٧ - ٢٠٨.
(١٠٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.
(١٠٩) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦.
(١١٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ٥٣.
(١١١) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.
(١١٢) المصدر السابق، ص ١٧٣.
(١١٣) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(١١٤) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٣.
(١١٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٦.
(١١٦) للتفصيل انظر: صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧، ص ٤٤٣ - ٥٠٢.
(١١٧) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.
(١١٨) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩ - ١٣٠.
(١١٩) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

(١٢٠) للتفصيل انظر: G. Roux, op. cit, p. 229 - 233.
(١٢١) عبد العزيز الياس الحمداني، ج٤، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.
(١٢٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩. محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٤.
(١٢٣) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.
(١٢٤) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٤.
(١٢٥) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
(١٢٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.
(١٢٧) للتفصيل انظر: زهير صاحب، تصادم الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٢ - ٢٨٦.
(١٢٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.
(١٢٩) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.
(١٣٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج٣، ص ٥٥.
(١٣١) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.
(١٣٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
(١٣٣) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(١٣٤) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨.
(١٣٥) قاموس الكتاب المقدس، شرح لفظة (كالح).
(١٣٦) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.
(137) G.Roux. op. cit. p. 243 - 244.
(١٣٨) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٤.
(١٣٩) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٧.
(١٤٠) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩ - ٧٠.
(١٤١) ديلا بورت، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠ - ٣٠١.
(١٤٢) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(١٤٣) روجر ماثيو، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.
(١٤٤) المصدر السابق، ص ١٨٤.
(١٤٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٧ - ٤٨٨.
(١٤٦) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(١٤٧) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(١٤٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
(١٤٩) للتفصيل انظر: إيمان هاني العلوش، طبقات المجتمع الآشوري في ضوء المصادر المسمارية، مجلة دراسات موصلية، العدد ٣٠ لسنة ٢٠١٠، ص ٨٣ - ٩١.
(١٥٠) ستيفن همسلي لونكريك، فرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز ١٩٥٨، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، مؤسسة مصر ومرتضى للكتاب العراقي، بغداد ٢٠٠٨، ص ٤٢.

(١٥١) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٠.
(١٥٢) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٨.
(١٥٣) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
(١٥٤) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٥.
(١٥٥) المصدر السابق، ص ٤٦.
(١٥٦) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣.
(١٥٧) لمزيد من التفصيل انظر: عبد العزيز الياس الحمداني، ج٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩ - ١٨٥.
(١٥٨) لمزيد من التفصيل انظر:المصدر السابق، ص ١٨٩ - ٣٤٨.
(١٥٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٩.
(١٦٠) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.
(١٦١) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠ - ١١١.
(١٦٢) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(١٦٣) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨١ - ١٨٢.
(١٦٤) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(١٦٥) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧.
(١٦٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠ -٢٢١.
(١٦٧) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣.
(١٦٨) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧.
(١٦٩) لمزيد من التفصيل حول تلك الحملات العسكرية انظر: أحمد زيدان الحديدي، المنحوتات البارزة شاهدًا للحملات العسكرية الآشورية، مجلة دراسات موصلية، العدد ٧٢ لسنة ٢٠٠٩، ص ١١٩ - ١٤٣.
(١٧٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١١١.
(١٧١) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.
(١٧٢) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١١٧.
(١٧٣) فوزي رشيد، الجيش في العراق القديم، ضمن كتاب: موسوعة حضارة العراق، بغداد ١٩٨١، ص ٥٩.
(١٧٤) محمود شاكر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨.
(١٧٥) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.
(١٧٦) عيد مرعي، فيصل عبد الله، تاريخ الوطن العربي القديم، دمشق ٢٠١٤، ص ٢٦٨.
(١٧٧) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨.
(١٧٨) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٠.
(١٧٩) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦١.
(١٨٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٨.
(١٨١) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦١.
(١٨٢) المصدر السابق، ص ٣٦٣.

(١٨٣) انظر: شيبان ثابت الراوي، آشور ناصر بال الثاني: سيرته وأعماله، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مقدمة إلى جامعة بغداد ١٩٨٦

(١٨٤) عبد القادر خليل، السياسة الخارجية للملك آشور ناصر بال الثاني، المجلة التاريخية المصرية، مج ٣٤ لسنة ١٩٨٧، ص ٤٥.

(١٨٥) حول حملاته العسكرية انظر: محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٥ - ٣٧٠. عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠ - ١٥٣.

(١٨٦) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢. عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٥١٣.

(١٨٧) للتفصيل انظر: سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٧ - ٢٣١.

(١٨٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٠.

(١٨٩) عامر سليمان، مقدمة، ص ٢٣٠.

(١٩٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٢.

(١٩١) المصدر السابق، ص ٥٠٤.

(١٩٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(193) G. Roux, op. cit. p. 267 - 277.

(١٩٤) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٥.

(١٩٥) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ١١٧.

(196) Graysoni. A. K, Assyria, in Cambridge Ancient History, Lomdon 1982, p. 266.

(١٩٧) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠ - ١٥١.

(١٩٨) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠.

(١٩٩) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧، ص ١٨٤.

(٢٠٠) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨١ - ٣٨٢.

(٢٠١) جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.

(٢٠٢) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.

(٢٠٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.

(٢٠٤) لمزيد من التفصيل انظر: أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤ - ٨٩.

(٢٠٥) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.

(٢٠٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤.

(٢٠٧) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

(٢٠٨) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

(٢٠٩) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٢١٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٩.

(٢١١) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.

(٢١٢) ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨.
(٢١٣) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٥١٨ - ٥١٩.
(٢١٤) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.
(٢١٥) ديلا بورت، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠. مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠.
(٢١٦) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣.
(٢١٧) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
(٢١٨) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣.
(٢١٩) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.
(٢٢٠) انظر: طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥١١. عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥. محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩١.
(٢٢١) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢ - ١٩٣.
(٢٢٢) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.
(٢٢٣) لمزيد من التفصيل انظر: ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠ - ٧٣.
(٢٢٤) أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، منشورات مركز الدراسات الفلسطينية - جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٨، ص ٢٦.
(٢٢٥) لمزيد من التفصيل انظر: عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١ - ٢١٣.
(٢٢٦) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.
(٢٢٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧.
(٢٢٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.
(٢٢٩) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨.
(٢٣٠) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣.
(٢٣١) ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.
(٢٣٢) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢.
(٢٣٣) حول أعماله الحربية انظر: عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٨ - ٢٤١.
(٢٣٤) أخبار الأيام الثاني: ٣٢: ١ - ٣٢.
(٢٣٥) سامي سعيد الأحمد، تاريخ العراق في القرن السابع قبل الميلاد، دار الحكمة، بغداد ٢٠٠٣، ص ١٠٠. جميل نخلة المدور، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩ - ٧٠.
(٢٣٦) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤.
(٢٣٧) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.
(٢٣٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٨ - ٤١٩.
(٢٣٩) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.
(٢٤٠) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.
(٢٤١) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦.

(٢٤٢) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧.

(243) G. Roux, op. cit, p. 304.

(٢٤٤) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٦.

(٢٤٥) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠.

(٢٤٦) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢.

(٢٤٧) نجيب ميخائيل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٢٤٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٢٤٩) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥ - ٤٦.

(٢٥٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٢٥١) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.

(٢٥٢) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢.

(٢٥٣) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٨.

(٢٥٤) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.

(٢٥٥) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠.

(٢٥٦) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١١٣.

(257) G. Roux, op. cit, p. 314 - 315.

(٢٥٨) أحمد أمين سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦.

(٢٥٩) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٢.

(٢٦٠) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨.

(٢٦١) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦.

(٢٦٢) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢٦٣) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.

(٢٦٤) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.

(٢٦٥) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢٦٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.

(٢٦٧) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢٦٨) المصدر السابق، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٢٦٩) عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢٧٠) لمزيد من التفصيل انظر: عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨ - ١٣٤.

(٢٧١) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

(٢٧٢) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢٧٣) المصدر السابق، ص ١٤٢ - ١٤٣. عبد القادر الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ١٨٦ - ١٨٧.

(٢٧٤) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢٧٥) هاري ساكز، عظمة آشور، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.
(٢٧٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.
(٢٧٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٦.
(٢٧٨) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩.
(٢٧٩) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٦.
(٢٨٠) قاموس الكتاب المقدس، شرح لفظة (آشور)، و(آشور بانيبال)، و(آشور ناصر بال)، و(بلاد آشور - شعب آشور).
(٢٨١) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦.
(٢٨٢) زهير صاحب، تقابل الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٠.
(٢٨٣) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧.
(٢٨٤) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٢.
(٢٨٥) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٤.
(٢٨٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٧.
(٢٨٧) عامر سليمان، العصر الآشوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.
(٢٨٨) لمزيد من التفصيل حول تلك الثورات والتمردات انظر: مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨١ - ٣١٢، ص ٣٢١ - ٣٦٥.
(٢٨٩) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٢٩٠) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٢.
(٢٩١) للتفصيل حول جغرافية البلاد المحيطة ببلاد آشور انظر: أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٨١ - ٨٣. ستيفن همسلي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣. ايفا كانجيك، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨ - ١٠٠.
(٢٩٢) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.
(٢٩٣) أحمد ربيع عبد المنعم، نبوخذ نصر ومملكة بابل، دار مشارق للنشر والتوزيع، الجيزة ٢٠٠٨، ص ١٥.
(٢٩٤) المصدر السابق، ص ٣١.

الفصل السادس

ملامح الدولة العراقية في عصر الكلدييين

سوف نعالج في هذا الفصل المحاور الآتية:

أولًا: نبذة عن الكلديين وعصرهم.

ثانيًا: المعادل البشري للدولة الكلدية.

ثالثًا: عوامل سقوط الدولة الكلدية.

المبحث الأول

نبذة عن الكلديين وعصرهم

مثَّل عصر الكلديين مرحلة مهمة في تاريخ العراق القديم رغم قِصر المدة التي ساد فيها. حيث حكمت الدولة العراقية الكلدية قرابة تسعة عقود فقط (٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م)[١].

وقد أطلق الباحثون على هذا العصر مصطلح (العصر البابلي الحديث)، تمييزًا له عن العصور البابلية القديمة والوسيطة. ومثَّل عهدها آخر عهود الحكم الوطني المستقل في العراق القديم[٢]. كما مثل آخر دور في حياة هذه الحضارة، التي شهدت إحياءً وانبعاثا جديدين على أرض العراق، وخلفت آثارًا وبقايا مهمة في معظم مدن العراق القديم[٣].

وعلى العموم، كان عهد الدولة الكلدية من العهود المميزة في تاريخ العراق القديم من الناحيتين السياسية والحضارية.

فأما من الناحية السياسية، فقد ورثت الإمبراطورية الآشورية، وحلت محلها. لدرجة أنها ضمت أنحاء العراق كافة تحت سلطانها. وامتدت بنفوذها حتى وصلت إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالًا، وإلى سواحل الخليج العربي جنوبًا[٤]. حيث أخذ الكلديون يتسربون رويدًا رويدًا إلى بابل، وانتشروا في تلك البقاع حتى تبسطوا في البلاد كلها. بحيث أصبح فيما بعد معنى (كلدية) و(بلاد بابل) شيئًا واحدًا[٥]. خصوصًا بعد أن أمسكوا بمقاليد السلطة السياسية في بلاد الرافدين، لأن سلوكهم السياسي اتصف بالإدراك والوعي بضرورة التواصل مع المسيرة السياسية، والفكرية، والحضارية لإرث الدولة العراقية القديمة. لذلك لم يكن في عهدهم أي توقف في تطور الحضارة العراقية، ولا أي ثغرة في حراك الفنون وتطورها. فاندفعت السجية الكلدية لتفرض نزعتها الخاصة على المنجزات الفنية دون الانقطاع عن إرث الماضي[٦].

أما من الناحية الحضارية، فقد وصلت بلاد بابل في عهدها إلى قمة مجدها وازدهارها الحضاري. وغدت أروع وأوسع مدن العالم القديم برمته. إذ فاقت بسعتها وشهرتها العواصم

الآشورية كلها. كما فاقت مدينة أثينا وروما والإسكندرية وغيرها من المدن القديمة. وغدا اسمها يطلق على العراق بأسره قديمًا وحديثًا[٧].

وأصبحت مدينة بابل في عهد الملك (نبوخذ نصر الثاني) أكبر مدن العالم القديم. وبهرت العالم القديم، بحيث احتسبها المؤرخون والكُتَّاب القدماء، أنها مدينة لا تضاهيها في عظمتها، وسعتها مدينة أخرى. وبلغت هذه المدينة من الشهرة درجة بحيث صارت عنوان حضارة وادي الرافدين، ونُسب إليها البلد كله. فقيل بلاد بابل (بابلونيا) وأهلها (البابليون). وغدت أسوارها وجنائنها المعلقة من عجائب الدنيا السبعة[٨].

ويعد عصر الدولة الكلدية، من العهود المزدهرة في مسيرة الحضارة العراقية. إذ شهد إحياءً مميزًا للفكر العراقي، وخلف منجزات حضارية مهمة في معظم مدن البلاد. مثَّلت نتاجًا لحركة نشطة في البناء والإعمار، ودعوة لإحياء التراث العراقي الأقدم. كما مثلت ازدهارًا اقتصاديًا ملحوظًا، واهتمامًا متميزًا بالفنون من ملوك بابل الجدد[٩]. وخلفت هذه الحضارة آثارًا وبقايا مهمة في معظم مدن العراق القديمة. بالإضافة إلى ما وصل من نصوص مدونة، سواء كانت سجلات ملكية رسمية أم وثائق خاصة بشؤون العقود التجارية والاقتصادية، وما شابه ذلك من السجلات الخاصة بشؤون الحياة والمعاملات اليومية. مما يضع بين أيدي الباحثين مادة قيمة لدراسة الأوجه الحضارية المتنوعة للعراق القديم[١٠].

وقد حققت حضارة بلاد الرافدين، في هذا العصر، انتشارًا حضاريًا واسعًا، بفعل الفتوحات البابلية التي كونت إمبراطورية مترامية الأطراف. فاستعارت الكثير من الشعوب التي وطأتها الماكنة الحربية الكلدية نظام الخط المسماري لتدوين لغاتها المختلفة. وأصبحت اللغة البابلية لغة المراسلات الدبلوماسية العالمية. وانتشرت الملاحم والأساطير العراقية في مناطق شاسعة من العالم. فكانت عاملًا مهمًا في تمدن الكثير من الشعوب المجاورة لحدود إمبراطورية الملك القوي (نبوخذ نصر الثاني) في القرن السادس قبل الميلاد[١١].

إن تلك المؤشرات، تدل على أنه قد طغى على بلاد بابل في عصر الدولة الأكدية، شعور بالقوة والاعتداد بالنفس، والذي ولَّد بدوره شعورًا وطنيًا ملحوظًا. وهذا ما يمكن تلمسه من المعطيات الآتية:

أ - رغبتهم الواضحة في جعل عناصر حضارتهم متميزة، قدر الإمكان، عن أسلافهم الآشوريين.

ب- وظهر ذلك بشكل واضح في فنون العمارة، وفي الكتابات التاريخية. حيث كانت فنونهم المعمارية، قد مثَّلت مع عمارة العصر السومري الأقدم وحدة تاريخية في طراز البناء وتخطيطه. كما استعملت في الأختام الأسطوانية صور تمثل مواضيع مستوحاة من العصور القديمة، مثل (البطل) الذي يمسك بحيوانين والمستوحاة من العصر الأكدي.

لقد ورد مصطلح (الكلدانيين) في سفر أيوب بقوله: (افترق الكلدانيون ثلاث فرق وهجموا على الإبل وأخذوها وقتلوا الغلمان بحد السيف وأفلتُ أنا وحدي لأخبرك)[١٢]. وذهب (ساكز) إلى القول أن أول إشارة إلى الكلدانيين (كلدو)، تعود إلى عام ٨٧٨ قبل الميلاد بوصفهم قومًا في جنوب بابل[١٣]. حيث جاء أقدم ذكر للكلدانيين في الحوليات الآشورية للملك (آشور ناصر بال)[١٤].

و مع أن أغلب الباحثين يتفقون على أن الكلديين من الأقوام الجزرية التي قدمت أصلًا من شبه الجزيرة العربية، وحلت في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، على أقل تقدير. بيد أن آراءهم قد اختلفت بشأن الطريق الذي سلكته تلك القبائل في هجرتها إلى وادي الرافدين، وبالأصول التي انحدرت منها.

فمنهم من يرى أنهم من جملة القبائل الآرامية أصلًا. وهذا ما ذهب إليه (طه باقر) بقوله أنهم: (إحدى القبائل الآرامية في العراق، وهي القبيلة المسماة كلدو أو كشدو أو كسدو)[١٥]. وإلى هذا الرأي ذهب (عبد القادر الشيخلي) بقوله: (هم فرع من الأقوام الآرامية الجزرية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية في أوائل الألف الأول قبل الميلاد)[١٦]. وأيد ذلك القس

(أدي شير) بقوله هم: (آراميين نسبة إلى آرام بن سام الذي استوطن هذه البلاد وعمرها بنسله)[١٧]. ومال (محمد بيومي مهران) إلى ذلك بقوله: (كانوا فرعًا من الآراميين الرعاة الذين جعلوا ضفاف الفرات قبلتهم منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد أو نحوه)[١٨].

عليه، فإن أصحاب هذا الرأي يفترضون أن الكلديين يمثلون هجرة أخرى للآراميين الذين استوطنوا الأهوار الجنوبية، مما هيأهم لأن يكونوا مجموعة عرقية متميزة. والواقع لا يوجد برهان يؤكد صحة هذه الفرضية، بقدر ما هناك ما يفندها. **ولعل من أهم أوجه التفنيد ما يأتي:**

أ - يلاحظ أن المصادر المسمارية تميزت تمييزًا واضحًا ما بين الكلديين والآراميين. إذ أن الكلديين قد ظهروا في تلك النصوص بشكل يختلف عن القبائل الآرامية التي استوطنت في المناطق المرتفعة من نهر الفرات[١٩].

ب - وهناك سمات تميز ما بين الكلديين والآراميين. ولعل أول علامة مميزة هي توزيعهم الجغرافي. فبينما يمكن العثور على الآراميين ليس فقط في عموم المناطق الريفية في شمال بلاد الرافدين وجنوبها فحسب، إنما أيضًا في سوريا ووادي الأردن. بينما لا نجد الكلديين، في الأصل، إلاَّ في مناطق محصورة في جنوب بابل، حيث بقوا دائمًا القوة الأبرز هناك.

ج - أضف إلى ذلك، أن تكلمهم باللغة الآرامية لاحقًا، لا يدل على أنهم من أصول آرامية، لأن أغلب الشعوب القاطنة بين فلسطين وجنوب العراق تبنت اللغة الآرامية. ثم لا يوجد أي تلميح يشير إلى أنهم ينحدرون من خلفية لغوية غير سامية. إذ ينحصر كل ما يعرف عن لغتهم في أسماء أماكن وأعلام قليلة معظمها مستمدة من اللغة الأكدية وليس من الآرامية.

د - كما كان الكلديون يختلفون اختلافًا كليًا في تنظيمهم الاجتماعي عن الآراميين. وبالقياس إلى أربعين قبيلة آرامية، كان الكلديون ينتظمون في عدة قبائل يشار إليها جميعًا بكلمة (بيت - Bit) ثم يردفها اسم علم. حيث تعني (بيت أسرة فلان).

ويمثِّل الاسم المضاف اللقب الأبوي الكبير للعائلة. بينما احتفظ الآراميون ببنيتهم القبلية[٢٠].

و - ويبدو أن قوة العلاقة بين الكلديين والآراميين، قد حملت البعض إلى احتسابهم قبيلة واحدة. بينما تفصل الحوليات الآشورية بينهما تمامًا. حيث أشارت إلى كل واحد منهم بشكل مستقل عن الآخر. وكان الأشخاص يُمَيَّزون حسب انتمائهم إلى إحدى هاتين المجموعتين[٢١].

في حين يرى آخرون، أن الكلديين من القبائل العربية التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية، وانتشرت في سواحل الخليج العربي والأقسام الجنوبية من العراق. وهذا ما احتسبه (عامر سليمان) بأنه (التسمية الأكثر شيوعًا وقبولًا للآن)[٢٢]. وهذا ما ذهبت إليه (حياة إبراهيم محمد) بقولها: (أن الأدلة الكتابية هذه علاوة على ما جاء عند سترابون وما رواه العهد القديم، يحملنا إلى الاستدلال، بأن الكلديين من القبائل العربية التي نزحت من جنوبي الجزيرة العربية، وانتشرت على ساحل الخليج العربي والأقسام الجنوبية من العراق. واستقرت أخيرًا في المنطقة الممتدة من ساحل الخليج العربي والجزء الأسفل من وادي دجلة والفرات وصولًا إلى بابل. وذلك في الألف الأول قبل الميلاد)[٢٣].

وقد أشرت نتائج بعض التنقيبات الأثرية في مواقع جنوبي العراق والخليج العربي رجاحة هذا الرأي، حيث عثرت البعثة على كتابات كلدية حروفها تشبه الحروف العربية الجنوبية القديمة[٢٤].

وأشار (عبد العزيز الحمداني) في أكثر من موقع إلى أن الكلديين (هم مجموعة من العشائر العربية)[٢٥]. وأيده في ذلك (زهير صاحب) بقوله: (هم من القبائل العربية الكلدية التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية)[٢٦].

وهناك عبارة وردت في سفر أيوب، تدل على أن موطن الكلديين كان قرب مساكن السبأيين. إذ ورد النص الآتي: (فأقبل رسول إلى أيوب وقال كانت البقر تحرث والأتن ترعى بجانبها. فوقع عليها أهل سبأ وأخذوها وقتلوا الغلمان بحد السيف. وأفلتُ أنا

وحدي لأخبرك. وفيما هو يتكلم أقبل آخر وقال قد افترق الكلدانيون ثلاث فرق وهجموا على الإبل وأخذوها وقتلوا الغلمان بحد السيف...)[٢٧].

ويبدو أن هذا النص يدل على أن مرابع الكلديين كانت قرب مساكن السبأيين. فهل أن الكلديين كانوا يقطنون قرب السبأيين في بلاد العرب الجنوبية، أم أن السبأيين كانوا يسكنون إلى جانب الكلديين في تخوم جزيرة العرب الشمالية خلال تقدمهم إلى هناك؟

عليه، يمكن القول أنه من جنوب جزيرة العرب الغربية خرجت، على الأغلب، الموجة الكلدية في وقت يصعب تقديره متبعة طريق البحر العربي، ثم الخليج العربي ليبسطوا سيادتهم عليه. وربما كان هذا سندًا لمن اعتقد باحتمال هجرتهم إلى العراق من عمان بالجنوب الشرقي من جزيرة العرب اعتمادًا على وجود بعض الكتابات باللغة العربية الجنوبية الأولى في مواقع من جنوب العراق مثل أور والوركاء ونفر[٢٨].

ومهما تباينت الآراء حول أصل الأقوام الكلدية، وطرق هجرتهم إلى بلاد الرافدين، بيد أنهم، بكل الأحوال، يُعدون من الأقوام العراقية التي استقرت في جنوب العراق، وعاشوا بين سكانه. ثم انتشروا في أرجاء المنطقة لدرجة سُميت المنطقة التي حلوا فيها باسمهم (بلاد كلدو)[٢٩]. وسعوا إلى إحياء الثقافة العراقية السومرية والأكدية القديمة على الرغم من أن الآرامية كانت قد أصبحت اللغة اليومية المتداولة في بابل. وبقيت الأكدية لغة الإدارة والثقافة. كما اختصرت العلامات المسمارية من أجل تسهيل الكتابة[٣٠].

ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد، عُرف بلد في جنوب العراق يُسمى (كلدو). وعرف سكانها أنهم (الكلديين) الذين على ما يبدو عاشوا في منطقة الأهوار والبحيرات على طول المجرى السفلي لنهري دجلة والفرات، بين سواحل الخليج العربي والمدن الواقعة في أقصى جنوبي بلاد بابل. واعتمدوا على الزراعة وصيد الأسماك، وتربية الماشية للحصول على نوع بسيط من المعيشة[٣١]. لذلك لم يلاقوا صعوبات في الاتصال بالأكديين الذين سبقوهم في استيطان المنطقة، أو في استلامهم الحكم بعد حين.

وفي أواخر حكم الدولة الآشورية، كان الكلديون يسكنون معظم مدن جنوب العراق

ووسطه. وقد غمرتهم مظاهر الحضارة البابلية في نواحي عديدة، منها اللغة والدين والثقافة والأدب.

ويبدو أن القبائل الكلدية، كانت على هيئة (مشيخات) كل منها سُميت باسم زعيمها أو رئيسها. وقد ورد ذكر هذه المشيخات في حوليات عدد من الملوك الآشوريين المتأخرين ابتداء من عهد الملك (شلمنصر الثالث). وقد قُسمت بلاد كلدو إلى مجمعات قبلية تُسمى (بيوت). وكان يتزعم كل بيت زعيم اتخذ لنفسه لقب (ملك) أو (أمير). واعتمدت قوة الزعيم السياسية على تأثيره الشخصي بالدرجة الأولى[٣٣]. ولفظة (بيت) تعني (قبيلة). إذ يعبر عن القبيلة أو العشيرة أو المشيخة في اللغة البابلية بكلمة (Bitu – بيت). أما شيخ أو رئيس القبيلة فيُسمى (Bil Bit)[٣٣].

وقد عُرف من القبائل الكلدية، سبعة عشائر هي: (بيت سالي، بيت ياكيني، بيت عموكاني، بيت عديني، بيت شيلاني، بيت داكوري)[٣٤]. وقد لعبت تلك العشائر دورًا مهمًا في خلق مصاعب جمة للسلطة الآشورية، بسبب موقفها المناوئ لها، والمعزز بقربها من بلاد عيلام التي كانت تمدهم بالأسلحة والأموال من أجل الحد من نفوذ السلطة الآشورية[٣٥]. ولعل أبرز تلك العشائر كانت (بيت ياكيني)، التي برز أحد شيوخها المُسمى (نبو بلاصر) مؤسس الدولة الكلدية، والذي أنجب ولدين هما (نبوخذ نصر الثاني، ونابو شام ليشير).

وليست هناك دلالة على أن الكلديين تكلموا بلغة خاصة بهم، إنما تكلموا بلهجة عربية قديمة تشبه اللغة الأكدية. ويلاحظ أن معظم الأشخاص المذكورين في النصوص التاريخية وفي المراسلات، كانت أسماء من العهد البابلي الحديث[٣٦].

أما ديانة القبائل الكلدية، فإنهم عبدوا الآلهة والأوثان البابلية عندما حلوا في بلاد بابل، واستوطنوا جنوب بلاد وادي الرافدين. حيث تم ترميم المعابد البابلية، وإنشاء معابد أخرى بعد تدمير السلالة السرجونية مدينة بابل مرتين في عهد الملك سنحاريب وحفيده الملك آشور بانيبال. واهتموا بالدين والاحتفالات الدينية. وأخذوا بالتقليد القديم الذي أرساه الملك سرجون الأكدي بتعيين بنات الملوك بمنصب (كاهنة عظمى)[٣٧].

وقد ارتبطت المجمعات القبلية الكلدية ارتباطًا وثيقًا ببعض الزعماء البارزين. وحاربوا في سبيل الحفاظ على استقلال أحدهم عن الآخر من جهة، وعن الآشوريين الذين يحاولون أن يسيطروا على المنطقة من جهة أخرى[٣٨].

وعلى ضوء ذلك، يتبين أن الكلديين يمثلون إحدى الجماعات العراقية، التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين، بدلالة التكامل الذي حدث بينهم وبين الحضارات العراقية القديمة. حيث أنهم لم يواجهوا أي صعوبة في الاندماج بسكان العراق القدماء، والتفاعل مع حضارتهم ذات الصبغة العراقية.

مع ذلك، خضعت القبائل الكلدية إلى الحكم الآشوري بشكل مباشر تارة، وبشكل غير مباشر تارة أخرى للمدة من (٩١١ – ٦١٦ ق.م) عندما كانت القوات الآشورية تكتسح أراضيهم وتدمرها، وتفرض الجزية على القبائل والحكام في الجنوب، أو يتم تعيين حكام محليين لإدارة المنطقة نيابة عن الملك الآشوري، أو تمنح الامتيازات العقارية والإدارية لهم، أو تعقد معهم معاهدات تجبرهم بموجبها على الطاعة وتقديم الجزية[٣٩]. حيث كان الحكام الكلديون قبل الملك (نبو بلاصر) يعينون من الملك الآشوري كحكام محليين تابعين للسلطة الآشورية.

مع ذلك، كانوا يستغلون أي فرصة مناسبة للثورة على الحكم الآشوري. إذ توالت ثورات عدد من الشيوخ الكلديين ضد الآشوريين من أجل توحيد جنوب بلاد الرافدين، وإقامة دولة مستقلة عن الدولة الآشورية. حيث حدثت ثمانية محاولات للانفصال جنوب بلاد وادي الرافدين، خلال عصر الإمبراطورية الآشورية. بيد أن جميعها باءت بالفشل نتيجة لعزم الآشوريين في اتباع سياسة الحزم والصرامة في القضاء على تلك التمردات. وكانت جميعها تقوم بتحريض ودعم من العيلاميين. وكان زعماء هذه المحاولات الانفصالية هم: (مردوخ بلاطو أقسي، أوكن زير، مردوخ بلادان الثاني، نركال أوشيزيب، مشيزروب مردوخ، نابو بيل شوماته، نابو أور شاليم، شمشي شم أوكن)[٤٠].

ويُلاحَظ. منذ أن حلت القبائل الكلدية في جنوب العراق، كان هؤلاء الزعماء يحاولون

توحيد بلادهم من أجل الوقوف بوجه السلطة الآشورية من خلال تأسيس مملكة محلية تحكم بلاد بابل. وغالبًا ما كانت تتفق مع القبائل الأخرى في المنطقة لتشكل تحالفًا قويًا ضد الآشوريين. وكانت مملكة عيلام تستغل ذلك، وتقدم العون المادي والعسكري للكلديين من أجل الحد من نفوذ الآشوريين[٤١]. وقد كانت القبائل الكلدية من أكثر القوى التي تثير المشاكل للسلطة الآشورية عن طريق قيامها بالتمرد والعصيان ضدها. لذلك عانت بلاد كلدو من الحصار والتدمير مرتين[٤٢].

وعلى هذا الأساس، كان الملوك الآشوريون يقومون بتجهيز الحملات العسكرية المتعاقبة على المنطقة للقضاء على أي حلف مناوئ. وكثيرًا ما وجهوا حملاتهم إلى بلاد عيلام نفسها. كما فعل الملك سنحاريب والملك آشور بانيبال[٤٣].

مع ذلك، تمتعت القبائل الكلدية بمصادر قوة ساعدتهم على التمرد الدائم ومنها:[٤٤]

أ – كان الكلديون مستعدون دائمًا للحرب. وأن أساليب الكر والفر المفاجئة، وفنون التحركات والتسلل الحربي لديهم، أدى إلى صعوبة تحرك الجيش الآشوري.

ب– كما أن بلاد عيلام، كانت على استعداد دائم لتزويد القبائل الكلدية بالذخيرة والجنود. فضلًا عن استعدادها لمنح اللجوء للقادة المتمردين.

وليس هناك من يصوِّر ذلك الموقف أفضل من الثائر الذي لا يكل وهو (مردوخ بلادان الثاني)، والذي ظهر في البداية كملك لبلاد البحر أثناء حكم الملك (تجلات بلاسر الثالث). وذلك لادعائه بالانحدار الملكي من أربيا – مردوخ منذ بداية القرن الثامن قبل الميلاد. وقد قدم الطاعة والولاء إلى الملك الآشوري. وفي مقابل ذلك، سمح الآشوريون له بأن يبقى ملكًا على بابل إلى أن عاد الملك سرجون الثاني عام ٧١٠ قبل الميلاد ونصَّب نفسه ملكًا على تلك المدينة. أما فيما بعد فقد ظهر (مردوخ بلادان) مرة أخرى أثناء حكم الملك سنحاريب. لذلك قام الملك سنحاريب بالاستيلاء على بابل بثلاث حملات عسكرية. انتهت بتدمير المدن الساحلية، ونُفي (مردوخ بلادان) إلى بلاد عيلام. وبهذا اختفى هذا الثائر ولم تسمع أخباره بعد ذلك[٤٥].

وقد تغير هذا الوضع كليًا بعد ثلاثة أجيال من التمرد الذي قاده (مردوخ بلادان الثاني). وذلك للأسباب الآتية:

أ – تغير هذا الوضع بتحالف الكلديين والميديين والقبائل الاسكشية بغية إسقاط الدولة الآشورية.

ب– وبعد ثلاثة أجيال من التمرد الذي قاده (مردوخ بلادان الثاني)، تدهورت السلطة السياسية الآشورية. كما تراجعت القوة العسكري الآشورية، لتحل بدلًا عنها القوة الكلدية.

ج – وترافق ذلك مع صعود آخر الزعماء الكلديين الذين تزعموا حركة الانفصال وهو الملك (نبو بلاصر)، الذي تمكن من تأسيس الدولة الكلدية، والتي تُسمى بالدولة البابلية الحديثة.

وبذلك عادت بابل عاصمة لبلاد الرافدين الموحدة. وازدهرت الحياة الاقتصادية، وارتفع الإنتاج الزراعي، وكَثُرت المشاريع المعمارية، وتعززت الحضارة العراقية.

المبحث الثاني

المعادل البشري للدولة العراقية الكلدية

تحركت في المشهد السياسي للعصر الكلدي الجديد، أسماء ستة ملوك مثَّل بعضهم المعادل البشري للدولة العراقية الكلدية. وهم نبو بلاصر (٦٢٦ – ٦٠٥ ق.م)، ونبوخذ نصر (٦٠٤ – ٥٦٢ ق.م)، وأميل مردوخ (٥٦٢ – ٥٦٠ ق.م)، ونركال شار أوصر (٥٦٠ – ٥٥٦ ق.م)، ولاباشي مردوخ، الذي استغرق حكمه للبلاد سنة واحدة (٥٥٦ ق.م)، ونبونائيد (٥٥٦ – ٥٣٩ ق.م).

وتشير مجريات الأحداث التاريخية إلى أن الملك الأول (نبو بلاصر) كان المؤسِس للدولة الكلدية. أما خليفته على العرش (نبوخذ نصر) فيعد باني مجدها. في حين احتسب المؤرخون أن الملوك (أميل مردوخ، نركال شار أوصر، لاباشي مردوخ) كانوا قليلي الشأن، بحيث لم يرتق أي منهم إلى مستوى الدولة العراقية الكلدية. أما آخر ملوك بابل (نبو نائيد)، فعلى الرغم من كفاءته ودوره الحضاري المهم، فإنه لسوء حظه شهد لحظة سقوط بابل بأيدي الغزاة من الفرس الأخمينيين.

وقد اتسم السلوك السياسي لملوك الدولة الأكدية بما يأتي:

أ – اتسم سلوكهم السياسي، بنزعة ملكية ارتبطت بشخصية الملك بالدرجة الأساس. ولذلك ملأت تماثيل الملوك الكلديين، ومشاهد حملاتهم الحربية متاحف العالم. وتحركت البنية السيكولوجية لملوك بابل الجدد وفق نزعتان هما: السطوة الذاتية للملك بوصفه ملكًا للبلاد من جهة، والنزعة الدينية باحتسابه كاهنًا أعلى ممثلًا للآلهة، ومسؤولًا عن إدامة طقوسهم الدينية من جهة أخرى. فبرز من خاصية تلك النزعة ظاهرة تفوُّق سطوة الفكر الديني في بنية الأعمال الفنية. وربما يبدو ذلك واضحًا في أشكال رموز الآلهة على بوابة عشتار.

ب– حين أمسك الملوك البابليون الجدد بزمام السلطة السياسية في بلاد الرافدين، فإنهم

اتصفوا بالإدراك والوعي بضرورة استكمال المسيرة العراقية القديمة. إذ لم يكن هناك أي توقف في تقدُّم المدنية في وادي الرافدين، ولا أي ثغرة في حراك تجديد الفنون وتطورها[٤٦]. إذ حافظ الملوك الكلديون على التراث الحضاري والسياسي الذي ورثوه عن العصور العراقية القديمة. واستطاعوا بكل جرأة أن يطوروا تلك القيم، ويشكلوها بآليات إظهار جديدة تتجاوب والظروف الموضوعية لمرحلتهم التاريخية[٤٧].

وبذلك حدث امتزاج ما بين الكلديين والعراقيين الآخرين. بحيث اقتبست كل مجموعة ما ينقصها من الآخر. إذ استعار الملوك الكلديون تقليد إكرام الآلهة القديمة من العراقيين القدماء، وعبدوها بأشكالها المعروفة منذ العهد البعيد، واتخذوا الكتابة المسمارية لتوثيق أشغالهم وأمور معاشهم. كما أخذ البابليون القدماء علم النجوم وعلم التنجيم من الأقوام الكلدية[٤٨].

ولعل أهم ملوك الدولة العراقية الكلدية هم:

أولا: الملك نبو بلاصر

يُعد الملك (نبو بلاصر) مؤسس الدولة الكلدية الجديدة، التي قامت على أثر انهيار الإمبراطورية الآشورية. حيث انتزع عرش بابل، ليؤسس الأسرة البابلية الحادية عشرة. وذلك في حقبة الاضطراب الذي حل ببلاد آشور في أواخر عهدها[٤٩].

ويرجع نسب الملك نبو بلاصر إلى القبيلة المسماة (كلدو) من بيت (ياكيني) المعروف. وقد كان يشغل قبل استيلائه على العرش منصب (حاكم القطر البحري)، التابع للملك الآشوري[٥٠].

لقد حارب نبو بلاصر الآشوريين عدة مرات في كل من مدينة (نفر) التي حاصرها مرارًا، ومدينة (شازان) الواقعة قرب الوركاء. وأخيرًا استقر ملكًا في مدينة (سبار) قبل استيلائه على مدينة بابل، وطرد الحاكم الآشوري منها. وذلك في عام ٦٢٦ قبل الميلاد[٥١]. حيث شن هجومًا على الحامية الآشورية في مدينة نفر، ثم قصد بابل واستقل بعرشها، وأخذ يصفي الحاميات الآشورية الأخرى في بلاد بابل[٥٢].

وبعد انسحاب الملك الآشوري مع بقية جيشه إلى نينوى، سقطت بيد نبو بلاصر مدينة نفر التي تُحتسب آخر قاعدة عسكرية آشورية في جنوب بلاد وادي الرافدين. وبذلك سيطر نبو بلاصر على جنوب العراق، وحوَّل سياسته العسكرية من دفاعية إلى هجومية. وبسقوط مدينة نفر انتهى الحكم الآشوري في جنوب العراق إلى الأبد[٥٣]. وبعد قتال عنيف، انتزع نبو بلاصر العرش على بابل عام ٦٢٦ قبل الميلاد. وفي السنة اللاحقة، تمكن من أحكام سيطرته على بابل بحيث أخفقت الهجمات الآشورية في زحزحته[٥٤].

وقد عمل الملك نبو بلاصر في السنوات الأولى من حكمه على تثبيت مركزه كملك على بلاد بابل، وتوحيد القبائل الكلدية وغيرها من القبائل الآرامية القاطنة في المنطقة. كما قام بعدد من الحملات العسكرية على طول نهر الفرات. وبسط سيطرته على المنطقة. وحاول أن يسيطر على مدينة آشور نفسها عام ٦١٥ قبل الميلاد، بيد أنه لم يتمكن من ذلك.

وفي السنة اللاحقة، قام ملك ميديا (كي أخسار) بهجوم كاسح على مدينة آشور، وتمكن من هدم أسوارها، ونهب قصورها ومعابدها. وحينها عُقد اتفاق بين ملك ميديا والملك نبو بلاصر يقضي بالتعاون بينهما. ويبدو أن الاتفاق ختم بمصاهرة سياسية تزوج بموجبها ولي العهد البابلي (نبوخذ نصر) من ابنة ملك ميديا. وفي عام ٦١٢ قبل الميلاد توجه نبو بلاصر على رأس الجيش البابلي وبمشاركة ملك ميديا وجيشه نحو نينوى، التي تم حصارها لمدة ثلاثة أشهر إلى أن تم فتح بواباتها، وإضرام النيران فيها، واكتساح أسوارها، وإنهاء كيانها السياسي[٥٥]. وقد ساعد على سقوط نينوى انهيار سورها نتيجة فيضان نهر دجلة، الأمر الذي أحدث ثغرة كبيرة في السور تعذر إصلاحها. وبذلك تم احتلال المدينة، ونهب قصورها ومعابدها، وأضرمت النيران فيها، ومات ملكها الآشوري (سين شار أوشكن) في لهيب تدميرها. ثم انسحبت قوات ملك ميديا بعد سقوط نينوى لترسيخ توغلها في شرق الأناضول، تاركين الملك نبو بلاصر في سيطرة تامة على بلاد آشور[٥٦]. مكتفين بما استطاعوا حمله من الغنائم. وبذلك توج نبو بلاصر ملكًا على بلاد الرافدين كلها، ليؤسس نهضتها الجديدة التي شهدها عصر الدولة البابلية الجديدة للمدة (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م)[٥٧].

وكان الملك نبو بلاصر، آنذاك، مضطرًا لبذل جهوده بصورة رئيسية للنهوض باقتصاد جنوب العراق، وإعادة تعمير المدن التي تهدمت خلال عصر السيطرة الآشورية.

مع ذلك، فإنه أدرك أن الخطر المحدق بالدولة الجديدة آت من المصريين، الذين امتلكوا مركزًا عسكريًا على معابر الفرات عند (كركميش). وقد عهد إلى ولي العهد (نبوخذ نصر الثاني) مهمة مواجهة جيوشهم، وتخليص مدن سوريا الشمالية وفلسطين منهم[٥٨]. حيث أعطى أهمية كبرى للاستيلاء على سوريا وفلسطين. وذلك للحد من توسع نفوذ المصريين فيها، خصوصًا أن فرعون مصر (نيخو الثاني) الذي حكم مصر للمدة (٦١٠ – ٥٩٥ ق.م) كان قد جرد حملة عسكرية من أجل نجدة حليفه الملك الآشوري. فضلًا عن استيلائه على سوريا وفلسطين (مملكة يهوذا)، ثم كركميش على الفرات، والتي تعد ذات أهمية فائقة لسلامة الدولة الكلدية. ولذلك أرسل الملك نبو بلاصر حملة عسكرية عهد بقيادتها إلى ابنه وولي العهد (نبوخذ نصر الثاني) لطرد المصريين[٥٩].

وعلى الرغم من وصول قوة مصرية لمساعدة فلول الجيش الآشوري المنسحب إلى مدينة حران، بيد أن الجيش الكلدي بقيادة (نبوخذ نصر الثاني) كان قد دمر المدينة. وضم فلسطين إلى السيادة الكلدية، وتمكن من مطاردة الجيش المصري. وعند مدينة العريش، وهي الحد الفاصل النهائي للمجال الحيوي الذي يمكن السيطرة عليه وإدارته، وصل خبر وفاة الملك نبو بلاصر في أواخر عام ٦٠٥ قبل الميلاد. لذلك عاد نبوخذ نصر الثاني إلى بابل ليستلم العرش الملكي طبقًا لوثيقة من سبار[٦٠].

وبناء على ذلك، يمكن القول، أن الملك نبو بلاصر قد تمكن من تحقيق هدفه، بحيث ترك لابنه نبوخذ نصر الثاني مملكة واسعة تمتد حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وحدود مصر.

ثانيًا: الملك نبوخذ نصر الثاني

إذا كان الملك (نبو بلاصر) قد اُحتسب مؤسس الدولة الكلدية، فإن نجله الملك (نبوخذ نصر الثاني) يعد باني مجدها. لذلك وصفه (الكرملي) بأنه (رافع لوائها، وباني مجدها)[٦١].

وقال (ستيفن لونكريك همسلي) عنه (تمتع الكلديون... بازدهار استثنائي من ناحية القوة والرخاء في ظل الحاكم العظيم نبوخذ نصر الثاني)[٦٢]. وأشار (أحمد ربيع عبد المنعم) إلى أن المملكة الكلدية، كانت قد وصلت إلى (قمة مجدها في عهد نبوخذ نصر)[٦٣]. وقالت عنه حياة إبراهيم محمد (بلغت بابل في عهده أوج عظمتها وعزها وجمالها وسعتها)[٦٤].

وحظي الملك نبوخذ نصر الثاني، بشهرة واسعة في العصور القديمة والحديثة على حد سواء. فقد ذكرته المصادر الكلاسيكية، وكتب المؤرخين. وكشفت عن آثاره المعمارية التنقيبات الأثرية التي أجريت في مدينة بابل وغيرها. كما جاء ذكره في نصوص العهد القديم لأهمية دوره في التاريخ. وشغلت أخباره الكثير من نصوص العهد القديم، خاصة أسفار (الملوك، الأخبار، عزرا، ناحوم، ارميا، دانيال)[٦٥].

وقد ورد اسمه في الكتب الدينية والتاريخية بصيغ مختلفة. فتارة يرد اسمه في العهد القديم بصيغة (نبوكدنصر)[٦٦]، وتارة أخرى يرد بصيغة (نبوكد ناصر)[٦٧]. بينما أطلق عليه القس (أدي شير) لفظة (نبوكد ناصر)، وادعى أن العرب يسمونه (بختنصر)[٦٨]. وأطلق عليه (الكرملي) لفظة (بنوكدنصر)[٦٩]. ويبدو أن هناك تقاربًا أساسيًا في الاشتقاق مع اللفظة التي وردت في المصادر المسمارية.

لذلك يمكن القول، أن تلك الصيغ، إنما هي تهجئات للاسم الأصلي المعتمد في المصادر المسمارية. وأن الصيغ التي يوردها العهد القديم للاسم تعد أقربها للأصل المسماري[٧٠]. علمًا بأن التغيير الذي نلمسه في أحد أحرف الاسم (الراء والنون) وارد في اللغة الأكدية والآرامية والعبرية، وإنه يُحصل غالبًا لفك الإدغام. إضافة إلى أن هناك من يعتقد أن الصيغة التي تحتوي على النون أُشتقت من الصيغة الآرامية للاسم[٧١].

ومع ذلك التباين، بيد أنه تم استخدام اسم (نبوخذ نصر) أكثر من غيره في المصادر التاريخية.

وقد اختلف الباحثون حول معنى اسم (نبوخذ نصر). فمنهم من ذهب إلى القول أنه يعني (الإله نابو يحمي ذريته)[٧٢]. ومنهم من فسره على أنه (الإله نابو يحمي التاج)[٧٣]. بينما

فسره (زهير صاحب) على أنه (يحمي نابو تاج الحكم)[٧٤]. وذهب قاموس الكتاب المقدس إلى القول بأن معنى اسمه (نبو حامي الحدود)[٧٥].

أما عن ظروف توليه عرش بابل، فإنها وُلِدت عندما كان يقود الجيش البابلي في بلاد الشام، وربما كان في طريقه إلى الحدود المصرية. حيث سمع بوفاة والده الملك (نبو بلاصر). لذلك عاد إلى بابل ليُنصَب ملكًا عليها عام ٦٠٥ قبل الميلاد[٧٦].

ويبدو أن اعتلائه العرش، كان قد تم بدون صعوبات جدية. ربما لأسباب عديدة، لعل أهمها ما يأتي:

أ – كونه كان قد نُصِب وليًا للعهد في حياة والده الملك (نبو بلاصر)، مما جعل انتقال السلطة إليه سلسًا حسب تقاليد الحكم في الفكر السياسي القديم.

ب– أن السمعة الحسنة التي اكتسبها نبوخذ نصر، وخاصة بين صفوف جيشه الذي قاده للنصر، كان لها أبعد الأثر في استمالتهم، وكسب تأييدهم له، الأمر الذي سهَّل صعوده على العرش دونما أي معارضة حال عودته إلى بابل عام ٦٠٥ قبل الميلاد[٧٧]. وبذلك تولى عرش بابل، واستمر حكمه للدولة الكلدية (٤٣) عامًا.

ويبدو أن الإشارة الخاصة برحلة الملك نبوخذ نصر المبكرة إلى سوريا، تؤكد على أن الوضع العام في بابل حال استلامه العرش كان هادئًا. بحيث لم يواجه أي مشاكل بهذا الصدد، وإلاَّ لما جازف بترك العاصمة. كذلك فإن تجواله في المنطقة دون معارضة، دليل آخر على عدم وجود أي عصيان أو تمرد فيها. لذلك أصبحت الصورة التي تقدمها حملته على سوريا، إنما كانت من قبيل استعراض القوة العسكرية البابلية، وهي تحت قيادة ملك بابل الجديد[٧٨].

وكرس الملك نبوخذ نصر، الكثير من وقته لاستكمال ما بدأه والده في إعادة بناء المدن السومرية القديمة. وفي بابل نفسها يمكن إرجاع غالبية الخطة للبنايات العامة والتحصينات التي كشفت في عصرنا الراهن إلى خطة نبوخذ نصر الطموحة، ونبوغه المبكر[٧٩].

وبعد أن استقر الحكم له على عرش بابل، وانتهى من تأمين مملكته وحمايتها، أخذ يفكر في أمرين أساسيين هما:

١ – كان هاجس سقوط بابل يشغل تفكيره بشكل دائم. وهذا الهاجس مستمد من الآلية التي سقطت بها العاصمة الآشورية نينوى في أواخر العصر الآشوري. لذلك اتخذ التدابير اللازمة لحماية بابل عن طريق امتلاك أسطول بحري كبير يمكنه من السيطرة الأمنية على البحر. وهذا ما كانت تفتقده العاصمة نينوى زمن الآشوريين. إضافة إلى أنه قرر أن يخفض مستوى مياه الخليج العربي حتى مستوى المرفأ الذي سيحفره في حمى أسوار بابل، وسوف تقصده أساطيل العالم لترسو في مياهه. وبذلك لا يبقى في البحر والبر إلاَّ سلطته في بابل[٨٠].

٢ – كان هاجس القلق يراوده من الممالك الكائنة حوله. من حيث مدى خطرها على المملكة، ومزايا السيطرة عليها. وذلك وفق النسق الآتي:

أ – مملكة يهوذا التي تستمد قوتها من البعد الروحي المسيطر عليها، والمثل العليا الموعودة بها دائمًا. كما تستمد قوتها من تحالفها مع فراعنة مصر الذين يجيدون كسب ود ملوك يهوذا[٨١].

ب– مملكة صور، التي يحكمها الفينيقيون، فقد كانت تستمد قوتها من اقتصادها القوي وثرواتها. فضلًا عن تحالفها مع (نخو) فرعون مصر.

ج – شبه الجزيرة العربية التي تستمد قوتها من موقعها الجغرافي. فاذا تمت السيطرة عليها، فإنها تُمَكِّن الدولة الكلدية من امتلاك البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ونهر الفرات. وتضيق الخناق على فرعون مصر (نخو) الذي سيبقى أمام خيارين إما الخضوع وإما الهزيمة[٨٢].

د – أما مصر فكانت حسب تقديرات الملك نبوخذ نصر تمثل التهديد الأكثر خطورة على المقاطعات الآشورية التي استولى عليها الكلديين، خصوصًا بعد أن تملكوا مركزًا عسكريًا آنذاك على معابر الفرات عند كركميش[٨٣]. كما قام فرعون

مصر بتحريض ملك يهوذا (يهو ياقيم) على التمرد ضد السلطة البابلية، وخلع الطاعة للكلدييين[٨٤].

إن تحريض فرعون مصر لملك يهوذا على التمرد ضد السلطة البابلية، كان الغرض منه ما يأتي:[٨٥]

أ - إشغال الكلدييين، وإبعاد خطرهم عن بلاد النيل.

ب- لتكون مملكة يهوذا حاجزًا بينه وبين بلاد بابل.

ج - لكي لا تقطع طرق تجارتهم المعتمدة على الموانئ الفينيقية.

وفي مقابل ذلك، كان الملك نبوخذ نصر الثاني مُصِرًّا على الاحتفاظ بفلسطين حتى الحدود المصرية على أقل تقدير[٨٦]. لذلك جاء إلى أورشليم وحاصرها ثلاث مرات حتى دمرها، وأحرق الهيكل. ففي عام ٦٠٥ قبل الميلاد، استولى على أورشليم، بيد أنه سمح للملك (يهو ياقيم) أن يحكم باسمه، كتابع له، وخاضع لسلطانه[٨٧]. وفي عام ٥٩٧ قبل الميلاد، جاء مرة أخرى، وأخذ بقية أواني الهيكل وكنوزه، ونقلهم إلى بابل. وأخذ ملك يهوذا (يهو ياقيم) مع آلاف من وجهاء المدينة، وساقهم أسرى إلى بابل[٨٨]. وفي عام ٥٨٦ قبل الميلاد، جاء للمرة الثالثة ليعاقب ملك يهوذا الجديد (صدقيا) على تمرده عليه. فحاصر المدينة، ثم كسر أسوارها، وأحرق الهيكل وبيت الملك. ومنذ ذلك التاريخ لم تقم مملكة يهوذا مرة أخرى من حيث الحكم والسيادة[٨٩].

وبعد أن قضى على الدولة اليهودية، أخذ يعاقب المدن الفلسطينية والسورية التي تمردت عليه. فتمكن من إعادة السلطة البابلية بسرعة إلى تلك المدن ما عدا مدينة صور التي قاومت الحصار ولم تسقط بيد الجيش البابلي إلاَّ في عام ٥٧١ قبل الميلاد.

أما مصر، فإنها لم تتخل عن تحريض الدويلات السورية للتمرد على السلطة البابلية. لذلك صمم الملك نبوخذ نصر الثاني على غزو مصر في عهد الفرعون (أماسيس) عام ٥٦٨ قبل الميلاد كما يشير إلى ذلك نص غير كامل في المتحف البريطاني[٩٠]. وقد لمح (حزقيال) إلى أن نبوخذ نصر بدأ بغزو مصر بقوله: (لذلك هكذا قال السيد الرب ها أنذا أعطي نبوكد

نصر ملك بابل فيأخذ جمهورها ويسلب سلبها وينهب نهبها فيكون ذلك أجرة لجيشه. لقد أعطيته أرض مصر عمالة له...)[٩١].

أضف إلى ذلك كله، نظَّم الملك نبوخذ نصر عدة حملات عسكرية لإخضاع بعض القبائل العربية في بادية الشام، من أجل ضمان سلامة الطرق التجارية التي تربط العراق ببلاد الشام، ثم بموانئ البحر الأبيض المتوسط. ويبدو أنه نجح في إخضاع بلاد الشام، واستقامت له الأمور فيها طوال مدة حكمه[٩٢].

وعمومًا، يبدو أن الملك نبوخذ نصر، كان قد نجح في إدارة الحكم في بابل. وذلك لأسباب عديدة. لعل أهمها ما يأتي:

١ - كفاءته الشخصية

إن كفاءته الشخصية قد شهد بها أغلب الباحثين. حيث وصفته (حياة إبراهيم محمد) بأنه رجل حرب وإدارة وبناء[٩٣]. وقال عنه (عبد القادر الشيخلي) بأنه (يعد أبرز شخصية عرفها العالم القديم. إضافة إلى كونه رجل دولة من الطراز الأول، فإنه كان قائدًا عسكريًا فذًا، ومشيدًا ذا خيال واسع وطموح بعيد)[٩٤]. كما وصفه (ساكز) بقوله: (قائدًا جريئًا وناجحًا، وأظهر مزايا سياسي مميز في الحفاظ على العلاقات الطيبة بالميديين الذين ضموا إليهم الأجزاء الشمالية من الإمبراطورية الآشورية السابقة. وكان مسؤولًا، إلى حد كبير، عن إعادة بناء بابل بوصفها مدينة متألقة. ظلت جنائنها المعلقة، وأسوارها في نظر بعض الكُتَّاب الكلاسيكيين أعجوبتين من عجائب العالم السبع)[٩٥]. وتحدث عنه (عبد العزيز الحمداني) قائلًا: (أن حنكة الملك الكلدي نبوخذ نصر الثاني ونجاحه كقائد عسكري قد جعلت منه أحد أشهر ملوك العالم القديم)[٩٦].

ويبدو أن تلك المؤهلات وما حظي به من قوة، كانت قد دفعت (ارميا) إلى التوصية بطاعته، والخضوع لسلطانه. حيث قال: (ضعوا أعناقكم تحت نير ملك بابل وتعبدوا له ولشعبه فتحيوا) وأضاف قائلًا: (أما الأمة التي تضع عنقها تحت نير ملك بابل وتتعبد له فاني أبقيها في أرضها يقول الرب فتحرثها وتسكن فيها)[٩٧]. وحذر من الخروج على سلطة

الملـك نبوخـذ نصر بقوله: (والأمة والمملكة التي لا تتعبـد لنبو كد نصر ملك بابل وكل من لا يجعل عنقه تحت نير ملك بابل فاني أفتقد تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء يقول الرب إلى أن أفنيهم بيده)[٩٨].

٢- نشأته وخبرته

يبـدو أن ظروف نشـأته، والخبرة التي تنامـت لديه إبان حياته، سـاعدتا على نجاحه في حكـم بابـل. إذ أن الملك نبوخذ نصر الثاني ينتسـب إلى الكلدييين الذين اسـتقروا في جنوب العراق ووسـطه. وكان والده (نبو بلاصر) من شيوخ (بيت ياكيني). تلك المشيخة الكلدية التي ظهر فيها أبرز القادة السياسـيين الكلدييين ممن حكموا بلاد أرض البحر أو بابل لحقب متقطعة قبل تأسيس سلالة نبو بلاصر الحاكمة عام ٦٢٦ قبل الميلاد[٩٩].

وقـد قضى شـطرًا من حياتـه الأولى في بلاد أرض البحـر الواقعة جنـوبي العراق بكنف ورعاية (بيل ابني) الحاكم الكلدي الذي عينه الملك (آشور بانيبال) حاكمًا محليًا على هذا الجزء الجنوبي من العراق[١٠٠]. ثم انتقل مع والده نبو بلاصر عند استلامه العرش في بابل[١٠١].

ومـما زاد من خبرته، توليه لقيادة الجيش البابلي في السـنة التاسـعة عشر من حكم والده نبـو بـلاصر. وهي أول إشـارة عن قيادته العسـكرية حينـما كان وليًا للعهـد. وتعززت ثقة والـده في قدراتـه العسـكرية بانتصـاره في معركـة كركميش عـلى (نخو) فرعـون مصر عام ٦٠٥ قبل الميلاد، وإحكام سـيطرته على سـوريا كلها، وملاحقتـه فلول المصريين إلى حدود بلادهم[١٠٢].

عليـه، لا غرابـة أن يتـولى الحكم وهو شـاب لا يتجـاوز العقد الثالث مـن عمره، لأنه كان يمتلـك درايـة وخبرة واسـعتَين في الإدارة والحكم وقيادة الجيش. فضـلًا عن كونه قد ورث عن أبيه دولة مسـتقرة الأوضاع، ومسـتتبة الأمن. وربما أنه سـاهم، إلى حد بعيد، في اسـتقرارها. ممـا أتاح له ذلك الفرصـة لتكريس جهوده في تنظيم شـؤون المقاطعات الغربية وإدارتهـا، والانصراف إلى تعمير بابل والمدن القديمة الأخرى. وبذلك ارتفع اسـم بابل في عهده، وخطفت أبصار العالم إلى قصورها وأسوارها وكنوزها وفنونها.

٣- سياسته العامة

اتبع الملك نبوخذ نصر ذات الأساليب التي كان أسلافه الآشوريون قد اتبعوها من قبل. حيث اتبع سياسة توسعية متأثرًا بالتقاليد الإمبراطورية الآشورية، ومدعيًا أنه مخول من الإله المزعوم مردوخ[١٠٣]. وكان يحلم بغزو العالم كله، معتقدًا أن ذلك لن يتحقق إلاَّ بالقوة والسيف. لذلك كان يستخدم القوة دائمًا. ولم يعقد أي معاهدة مع أحد إلاَّ مرة واحدة مع (نخو) فرعون مصر لأنه أراد من جراء ذلك ضمان سيطرته التامة على عرش بابل[١٠٤]، ليكون منطلقًا للتوسع بالقوة.

ورغم أن المعلومات المتاحة عن السياسة العامة في عهد الملك نبوخذ نصر قليلة جدًا إذا ما قورنت بما معروف عن عهد الملوك البابليين والآشوريين. مع ذلك يستدل من إحدى كتابات الملك نبوخذ نصر، أن القصر الملكي كان يمثل المركز السياسي والإداري الذي تصدر عنه الأحكام والقرارات والأوامر الملكية، وتقام فيه الاحتفالات الرسمية، ويعد مكانًا لاستقبال الوفود القادمة إلى بلاد بابل لتقديم الجزية للملك[١٠٥].

ويعد الملك نبوخذ نصر، صاحب السلطة العليا في الدولة، لأنه كان يجمع في شخصه ما بين السلطتين المدنية والدينية. فضلًا عن كونه قائد الجيش الأعلى، ورأس الدولة وعقلها المدبر. يتبعه جهاز إداري كبير يتألف من مجموعة من الموظفين يتم تعيينهم من الملك بنفسه[١٠٦]. وهذا ما كشفت عنه وثيقة بابلية يُسْتَدل منها على أسماء مجموعة من الموظفين الذين يشغلون مناصب مختلفة في مرافق الدولة المدنية والعسكرية[١٠٧]. **إذ أشارت تلك الوثيقة إلى أنواع من الوظائف التي يشغلها عدد من الموظفين، منها ما يأتي:**[١٠٨]

أ - **الماشينوم**: وهم الموظفون الذين يشغلون المناصب الإدارية العليا في البلاط الملكي.

ب- **نبو - زبر - ايدينا**: وتعني الموظف الذي يشغل منصب (رئيس الخبازين) المسؤول عن توزيع الخبز على ذوي المناصب العليا.

ج - **نبو - زبر - ابني**: وتعني رئيس مجموعة الدروع أو قائد المائة جندي.

د - كما أشارت الوثيقة إلى شخص كان يتولى الإشراف على جهاز الشرطة ويدعى (زبلا) المسؤول عن توطيد الأمن داخل العاصمة. ويستدل من هذا المنصب، أن الملك نبوخذ نصر قد أوْلى مسألة المحافظة على أمن البلاد واستقرارها الداخلي أهمية فائقة بحكم أنه عين موظفًا مختصًا بشؤون الأمن يكون على اتصال مباشر به.

أما فيما يتعلق بإدارة المقاطعات والمدن البابلية، فإنه اتبع نهج الملوك السابقين في إدارتها. إذ كانت بابل مقسمة إلى ثلاث وعشرين وحدة إدارية، يدير شؤونها موظف يُعيَّن من الملك، ويكون على اتصال مباشر به. و فيما يتعلق بإدارة المقاطعات الغربية، التي أصبحت من ممتلكات الدولة الكلدية، فقد انتهج الملك نبوخذ نصر الخط العام للسياسة الآشورية القاضية بتعيين أحد مواطني المدينة التابعة حاكمًا محليًا يدير شؤونها باسم الملك، ويقدم له الجزية السنوية[١٠٩].

٤- سياسة البناء والإعمار

كان الملك نبوخذ نصر، من أبرز ملوك العراق القديم في ميدان البناء والإعمار[١١٠]، بالنظر إلى همته الملحوظة، وطول مدة حكمه التي بلغت (٤٣) عامًا. حيث أنه جدد المعابد والقصور في كل مدينة ذات شأن في البلاد. وركز جهوده لإعادة بناء العاصمة بابل بعد أن تردت أوضاعها من جراء الإهمال، وأعمال التدمير والتخريب إبان الحروب التي شنها ملوك الدولة الآشورية (سنحاريب، آشور بانيبال).

لذلك يصح القول، أن الملك نبوخذ نصر قد بنى بابل من جديد[١١١]. وجعلها عاصمة الدولة الكلدية، بل أنها أصبحت مدينة عالمية بقياسات ذلك الزمن، بأبراجها، وخنادقها، وأنهارها، وجسورها، وهندستها، وبساتينها، وأبنيتها، وقنواتها المائية، ومعابدها، وبواباتها، وتماثيلها، وشوارعها[١١٢]. وبذلك غدت بابل، في عهد الملك نبوخذ نصر، أكبر مدن العالم القديم. فعدها المؤرخون والكتَّاب الكلاسيكيون مدينة لا تضاهى في عظمتها وسعتها[١١٣].

٥- المتغيرات الدولية:

لقد ساعدت المتغيرات الدولية في نجاح الملك نبوخذ نصر الثاني في مهمته. وذلك من الزوايا الآتية:

أ - يلاحظ أن التقلبات السياسية التي حدثت في آسيا الصغرى، أغنته عن بعض الغزوات العسكرية. إذ أن ممالك (آراراتو، ومناي، وبارسو، والليبي، وعيلام) كانت قد انقرضت.

ب- كما أنه جمد خلافاته مع الماذيين عن طريق مصاهرتهم مصاهرة سياسية. ولذلك ركز على أعدائه في الغرب والجنوب(١١٤).

إن تلك التغيرات الدولية، كانت قد خففت العبء الخارجي عن الملك نبوخذ نصر الثاني، وساعدته على توطيد أركان الدولة الكلدية في الداخل والخارج، خصوصًا في المنطق الغربية والجنوبية.

ثالثًا: خلفاء نبوخذ نصر الثاني

تعاقب على عرش بابل ما بعد وفاة الملك نبوخذ نصر الثاني، ثلاثة من الملوك الضعفاء، وقليلي الشأن. لذلك لم يتمكنوا من المحافظة على منجزات نبوخذ نصر، ولم يتمكنوا من المحافظة على حدود الدولة البابلية الحديثة ونفوذها. فانتاب الإمبراطورية البابلية الضعف والتدهور في عهودهم(١١٥). حيث أن حكمهم، في الواقع، كان قد مثَّل حقبة ضعف سبقت انهيار الدولة الكلدية(١١٦).

وعلى العموم، يلاحظ أن بلاد الرافدين، كانت قد مرت، بعد وفاة الملك نبوخذ نصر، بمرحلة اضطراب سياسي. وذلك لسببين أساسيين هما:

أ - لأن الملك نبوخذ نصر لم يدرب أي من أبنائه على فن إدارة الدولة والحكم، ليملأ الفراغ من بعده، ويكون بمستوى قوته وإمكاناته الإدارية والعسكرية والسياسية مثلما فعل أبوه معه. إذ يلاحظ أن خليفته على عرش بابل (أميل مردوخ) كان يعد من الملوك الضعفاء وغير مؤهل لإدارة الدولة(١١٧).

ب- انغماس الملوك الثلاثة الذين أعقبوا الملك نبوخذ نصر على عرش بابل في الفتن التي وقعت في القصر الملكي[١١٨]. إذ لم يدم حكم الملك (أميل مردوخ) سوى عامين. حيث أنه قُتِل على يد زوج أخته (نركال شار أوصر)، والذي استولى على عرش بابل بعده. أما الملك (لباشي مردوخ) فلم يحكم سوى تسعة أشهر. حيث ذهب ضحية مؤامرة قادها قائد الجيش (نبو نائيد) ليتولى العرش من بعده[١١٩].

١- الملك أميل مردوخ:

تولى هذا الملك عرش بابل بعد وفاة والده الملك نبوخذ نصر الثاني. وحكم البلاد لمدة عامين (٥٦٢ - ٥٦٠ ق.م) كما جاء في وثيقة من سبار[١٢٠].

وقد أخفق في إدارة الدولة والحكم، ربما لأن والده نبوخذ نصر لم يدربه على ممارسة الإدارة والحكم[١٢١]. مع ذلك، فإنه كان قد أظهر حسن المعاملة مع حاكم مملكة يهوذا (يهو ياقيم) الأسير في بابل منذ زمن والده نبوخذ نصر. وقام بإطلاق سراحه من السجن. وربما كانت هذه الخطوة تبتغي كسب الأعوان، أو ربما كانت إشارة ود لفرعون مصر لأن ملك يهوذا ووالده كانا من حلفاء فرعون مصر[١٢٢].

لذلك طلب نبي اليهود (ارميا) من قومه الدعاء بالخير لبلاد بابل وملوكها بقوله: (واطلبوا سلام المدينة التي أجليتكم إليها وصلوا من أجلها إلى الرب فإنه بسلامها يكون لكم سلام)[١٢٣]. وحذر دعاة التمرد على السلطة البابلية بقوله: (لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لا يضلنكم أنبياؤكم الذين بينكم والعرافون ولا تسمعوا لأحلامكم التي تحلمون)[١٢٤].

وأخيرًا، تم اغتياله في مؤامرة من وريثه ونسيبه الملك (نركال شار أوصر)، وبتأييد من كهنة بابل[١٢٥]، ربما بسبب موقفه الودي من اليهود الأسرى في بابل، وسماحه لهم بممارسة نشاطاتهم الدينية بحرية، رغم تعارضها مع ديانة بابل الوثنية، والمتعددة الآلهة المزعومة.

٢- الملك نركال شار أوصر:

تـولى هذا الملك عرش بابل، بعد اغتيال سـلفه الملك (أميـل مردوخ)، وحكم لمدة أربع سنوات (٥٦٠ - ٥٥٦ ق.م)[١٢٦].

ورغـم أنـه لا يوجد ما يدل على خبرته الإدارية والسياسـية، بيد أنه يعد قائدًا عسـكريًا لامعًا. وكان له دورًا بارزًا في حصار أورشـليم عاصمة مملكة يهوذا. وقد عرفت عنه بعض النشـاطات العمرانيـة. وكان أكثـر قربًـا للمعبد ورجاله مـن والده. لذلك فاضـت كتاباته مدحًـا ودعـاءً إلى الإلهـين المزعومين (مـردوخ، ونبو). فضلًا عـن إعماره معبديهـما في بابل وبورسبا[١٢٧].

٣- الملك لباشي مردوخ:

لقد تولى هذا العاهل عرش بابل عن طريق الوراثة. ويلاحظ أنه لم يحكم سـوى تسـعة أشـهر. حيـث لقي حتفه عام ٥٥٦ قبل الميلاد عن طريق انقـلاب داخلي[١٢٨]. وكان قاصرًا عنـد توليه العرش، فانتاب الإمبراطورية البابلية مزيدًا من الضعف والتدهور، الذي أفضى إلى انـدلاع ثـورة في البلاد، انتهـت بمقتله عام ٥٥٦ قبل الميـلاد، وتنصيب ملك جديد على البلاد يسمى (نبونائيد)[١٢٩]، والذي يعد أحد المتآمرين على الملك المقتول[١٣٠].

ويبدو أن، قصر مدة حكمه، وعدم حزمه في اتخاذ القرارات، وندرة الأخبار من عهده، وقلـة الوثائـق التي تـدون إنجازاته، إنما تدل عـلى ضعف هذا الملك، وعـدم جدارته لحكم البلاد.

٤- الملك نبو نائيد:

اعتـلى (نبـو نائيد) عرش بابل للمدة (٥٥٦ - ٥٣٩ ق.م)، بمسـاعدة كهنة بابل. وكان في العقد السادس من عمره[١٣١].

و لم يكن الملك نبو نائيد من عائلة الملك نبوخذ نصر الثاني[١٣٢]، إنما كان من الشخصيات المنحدرة من أسرة عريقة. حيث تشـير المصادر المسمارية إلى أن والده كان أحد وجهاء مدينة

حـران. في حين كانت أمه تشـغل وظيفة الكاهنة العليا في معبد الإله المزعوم القمر (سـين) الكائـن في مدينـة حـران. لذلك ورث عـن أمه الاهتمام بالشـؤون الدينية، وبشـكل خاص الاهتمام بعبادة إله القمر (سـين). مما أثار عليه سـخط كهنة معبد الإله المزعوم (مردوخ) في بابل [١٣٣].

مـع ذلـك، فإنه لم يدع أنه مؤسـس سـلالة حاكمة جديدة، إنما احتسـب نفسـه امتدادًا للسلالة الكلدية الحاكمة.

وتولى عدة مناصب عسكرية رفيعة في زمن الملك نبوخذ نصر الثاني. وكان في عهده من رجال الدولة البارزين[١٣٤].

وقد اقتنع الملك نبوخذ نصر بشخصية نبو نائيد، بحكم كفاءته من جهة، وتأثيرات أمه من جهة أخرى. لذلك ارتقى بسرعة في عهده ليصبح دبلومآسـيا بارعًا. حيث توسط لعقد معاهدة سـلام بين مملكة ليديا ومملكة ميديا في آسـيا الصغرى عام ٥٨٥ قبل الميلاد. رغم أن عمره، آنذاك، لم يتجاوز خمس وثلاثين سنة[١٣٥].

ومن أجل توطيد شرعية سلطته، فإنه اتخذ الخطوات الآتية:

أ – ادعـى أن الـرؤى والآيـات تعاقبت لتبشره بأنه سـيكون خليفة الملـك نبوخذ نصر الثاني، ومتبعًا لسنته برضا من الإله المزعوم مردوخ وبقية الآلهة.

ب– أسرف بعد توليه العرش بتجديد المعابد وزيادتها[١٣٦]. حيث كان الاهتمام الرئيسي له في بواكير حكمه، كان مُنصَّبًا على المعابد. وكان واحدًا من أهدافه الأولى يكمن بضرورة اسـترجاع معبد إله القمر (سـين) إلى مدينة حران، والذي تداعى أنقاضًا منذ عام ٦١٠ قبل الميلاد. وقد ادعى في نقش يعود إلى سنة حكمه الأولى، أن الإله القمـر (سـين) ينوي العـودة إلى معبده في حـران، وعلى الملك نبو نائيد اسـترداده بكل السـبل. وقد احتسـب نبو نائيد تلك المناسـبة عيـدًا يُحتفى بـه[١٣٧]. وقد بدأ بإعادة تشـييد هذا المعبد في السـنة الثالثة من حكمه، عندما اضطرت ثورة كورش ملـك ميديا إلى الانسـحاب من منطقـة حران. وأبقـى العمل في المعبـد متواصلًا

حتى فرغ من تشييده تمامًا مع نهاية حكمه[١٣٧]. وبذلك يتبين رفضه الدائم للإله المزعوم مردوخ معبود بابل، وتفضيل إله القمر (سين) عليه، الذي كان قد عبده في حران[١٣٨].

ج - وبعد أن صار ملكًا على بابل، فإنه بدأ يحث الخطى نحو تأكيد خلافته الشرعية. عندما ادعى أن الآلهة قد أوكلت إليه قيادة الجيش. وسرعان ما شن حملة حربية على (قليقيا)، والتي كانت من النجاح بحيث تمكن من إهداء ما يقارب ثلاثة آلاف أسير حرب كرقيق للمعابد[١٣٩].

د - وكتوكيد لخلافته الشرعية أيضًا، فإنه أراد التدخل في شؤون المعبد، وإخضاع نشاطاته الاقتصادية للإشراف الملكي. لذلك أقدم عام ٥٥٣ قبل الميلاد على تعيين موظفين ملكيين بذريعة حماية مصالح الملك داخل المعبد، وهما (سيد التعيينات الملكي) و(الموظف الملكي على خزانة الملك)[١٤٠].

وقد تباينت وجهات نظر الباحثين في تقييم شخصية الملك (نبو نائيد). حيث تبنى بعض الباحثين وجهات نظر سلبية عنه، لأنهم يعتقدون بعدم جدارته لقيادة الدولة وإدارة الحكم، كونه كان منشغلًا عن تصريف أمور الدولة والحكم، بدراسة الآثار فقط. ولم يتقن فن إدارة الدولة والحكم، ولم يدرك جدية الأخطار المحدقة بالدولة الكلدية من جهة الجبهة الشرقية للبلاد[١٤١].

لذلك وصفه القس (أدي شير) بأنه (واهي العزيمة متغافلًا عن أمور المملكة)[١٤٢]. وقال عنه (سيتون لويد) بأنه (شخصًا غريب الأطوار وغير مؤثر)[١٤٣]. ووصفه (أنستاس الكرملي) بأنه (كان رجلًا تقيًا كثير الولع بالأبنية إلاَّ أن شعبه لم يحبه)[١٤٤]. ووصفه (هاري ساكز) بأنه (كان شخصية ملغزة، حاول القيام بمآثر وإصلاحات دينية، واقتصادية، وملكية، لكنها كانت خرقاء ضعضعت أساس الإمبراطورية البابلية الجديدة، وتسببت في سقوطها)[١٤٥].

بينما تبنى باحثون آخرون وجهات نظر إيجابية في تقييم شخصية الملك (نبو نائيد). إذ

قال عنه (ليو وينهايم) بأنه (كان متصفًا بالدهاء من أجل استقلال بابل)[١٤٦]. ووصفه (عامر سليمان) بأنه (كان رجل سياسة ذا قابلية فائقة)[١٤٧]. ووصفه (طه باقر) بأنه (كان إداريًا ورجل دولة من الطراز الأول)[١٤٨]. وقال عنه (عبد العزيز الحمداني) بأنه (كان قائدًا عسكريًا بارعًا... والدبلوماسي القدير... وكان متصفًا بالدهاء)[١٤٩].

ومهما قيل عن الملك (نبو نائيد) سلبًا أو إيجابًا، فإن الواقع، يدل على أنه كان إداريًا ناجحًا، وسياسيًا محترفًا، ورجل دولة من طراز خاص، لأنه تمكن من معالجة قضايا خطيرة شغلته إبان مدة حكمه، وركز جهده لتلمس الحلول الناجحة لها. ولعل أهم تلك المشكلات هي:

١- المشكلة الدينية:

أن منبع المشكلة الدينية التي واجهت الدولة الكلدية في عهد الملك (نبونائيد) آتية من التحديات الآتية:

أ - تحدي تيار التوحيد الذي نشره اليهود الأسرى في بابل، والذي يتعارض مع معتقدات الشرك، وتعدد الآلهة، وعبادة الأصنام، وهي الصفات الغالبة على ديانة وادي الرافدين.

ب- تحدي كهنة معبد بابل، الذين كانوا يؤمنون بأن الإله المزعوم (مردوخ) يمثِّل الإله الأعلى للبلاد. وهذا الاعتقاد الديني جعل كهنة المعبد في موقع التنازع على السلطة مع الملك نبونائيد.

ويبدو أن تلك التحديات، كانت من الأسباب التي دفعت الملك نبونائيد لإجراء تغييرات جوهرية في المعتقدات الدينية السائدة. حيث أنه آمن بأن الإله القمر (سين) يمثِّل الإله الأعلى في أرجاء الإمبراطورية كلها، بدلًا من الإله المزعوم (مردوخ). وذلك للحد من نفوذ كهنة المعبد، الذين كانوا يعبدون الإله (مردوخ) بوصفه الإله الأعلى لبلاد بابل، خصوصًا بعد أن ازدادت أملاك المعبد، وازدادت نشاطاته الاقتصادية. وأصبح ينافس سلطة الملك نفسه وبوضوح تام. ومن هنا يمكن تفهم تدخله المباشر في شؤون المعبد من خلال تعيين موظفين ملكيين في المعابد الرئيسية[١٥٠].

والراجـح أن مقاصد اتخاذ إله القمر (سـين) إلهًا عامًا للدولـة، في ذلك التوقيت، تَكْمُن وراءه الأبعاد الآتية:

أ – يبدو أن تعاظم خطورة الملك الأخميني (كورش) على الدولة الكلدية، قد اضطر الملك نبونائيد إلى اتخاذ الدين جوهرًا أساسـيًا في سياسته. لذلك عمل على توحيد القبائل الآراميـة في منطقـة الفرات الأوسـط، والتي مثلـت مدينة حران مركـزًا لتجمعها. وكذلـك توحيد القبائل العربيـة، التي كانت متواجدة حول مدينة (تيماء) تحت راية إله القمر سين، لأنه ذات صلة بعلاقة الناس بالأرض والطبيعة[١٥١]. وبذلك جعل مـن إله القمر قوة لتوحيـد الدولة وتقويتها[١٥٢]. خصوصًـا أن إله القمر، كان يعد من الآلهة التي تعبدها الأقوام المختلفة تحت راية الإمبراطورية البابلية الحديثة. بينما كانت عبادة الإله مردوخ عبادة محلية غير معروفة خارج حدود بابل وآشور[١٥٣].

ب– ينبغـي أيضًا، أن ينظر إلى اهتمام الملك نبونائيد بعبادة إله القمر على ضوء التيارات الدينية الجديدة، التي تعرضت إليها المعتقدات الدينية في وادي الرافدين من جراء الاحتكاك باليهود. وبوجه خاص انتشـار معتقدات التوحيد ومزاحمتها لمعتقدات الـشرك، وتعـدد الآلهـة، وعبـادة الأصنـام السـائدة في وادي الرافديـن. أن تلك التيارات الجديدة، حملت الملك نبونائيد على إحداث تغييرات في المعتقدات الدينية والطقوس الخاصة بها، بغية التخفيف من حدة الشرك. وذلك بجعل العبادة تتركز حـول إله القمر، دون نبـذ عبادة الآلهة الأخرى[١٥٤]. ويمكن مقارنة تلك الدعوة مع دعوة فرعون مصر (اخناتون) التي دعا فيها إلى عبادة قرص الشمس (آتون). بيـد أن الفـرق بينهـما يكْمُن في كون الملـك نبونائيد لم يحرِّم عبـادة الآلهة الأخرى، وظل يعتقد بتعددها[١٥٥].

ج – كما أن وقوع اختيار الملك نبونائيد على إله القمر دون غيره، فراجع لأسباب عائلية وقوميـة. إذ أن جدتـه لأبيـه، وكذلك أباه وأمـه كانوا من كهنة معبـد هذا الإله في مدينـة حـران. ثم أن عبادة إله القمـر، كانت العبادة المفضلة عند الأقوام السـامية البدويـة من آراميـة وعربية بخلاف عبـادة الإله مردوخ، الـذي يرجع إلى أصول

سومرية بعيدة عن أمزجتهم. لذلك وجه الملك عنايته إلى معابد إله القمر، وبذل الجهود الكبيرة على معبده في مدينة أور. كما دلت على ذلك التنقيبات الأثرية في هذه المدينة[١٥٦].

٢- المشكلة الاقتصادية:

لقد واجهت الملك نبونائيد أزمة اقتصادية حادة مرت على البلاد. وأدت إلى ارتفاع الأسعار، وزيادة التضخم، ونقص المواد الغذائية لدرجة حلت بالبلاد المجاعة.

ولعل منبع تلك الأزمة راجع إلى عوامل عديدة، لعل أهمها ما يأتي:[١٥٧]

أ - النشاطات العمرانية الواسعة التي اضطلع بها الملك نبوخذ نصر الثاني في مدن متعددة بما فيها مدينة بابل، كان لها آثار سلبية على الناحية الاقتصادية، لأنها أثقلت خزينة الدولة من جهة، وسحبت أعدادًا كبيرة من الأيدي العاملة للعمل في مشاريع غير ذات جدوى من جهة أخرى.

ب- كما أن للحملات العسكرية المتكررة، ومشاركة أعداد كبيرة من الأيدي العاملة فيها، كانت قد مثلت سببًا مضافًا لتردي الأوضاع الاقتصادية في البلاد.

ج - أضف إلى ذلك، كان لسيطرة الميديين الفرس على طرق التجارة المتجهة شرقًا وشمالًا، واندلاع التمردات ضد السلطة البابلية في بلاد الشام، أثرها في قطع طرق المواصلات المؤدية إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط. وبذلك تفاقمت الأزمة الاقتصادية، وزادت حدتها. مما دفع الملك نبونائيد إلى اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ذلك الواقع الصعب. وذلك عن طريق التوجه نحو غزو شمال الجزيرة العربية.

وفي سنة حكمه الثالثة، أحدث الملك نبونائيد قطيعة، مثيرة للدهشة، مع العرف السائد في بلاد الرافدين. حيث قام بتعيين ابنه (بيلشاصر) نائبًا عنه في حكم بابل. وساق الجزء الأكبر من الجيش إلى غرب الإمبراطورية ليصل إلى مدينتي (تيماء) و(يثرب) في الجزيرة العربية، والتي تبعد حوالي (ألف كم) عن مركز الدولة البابلية.

ويمكن تحديد أسباب هذه الخطوة بما يأتي:

أ – عـزا الملك نبونائيد رحيله في نقش متأخر له، إلى عدم تقوى (أهل بابل، وبورسـبا، ونفر، وأوروك، ولارسا). وذلك لإهمالهم الطقوس المستحقة لإله القمر. خصوصًا بعد أن واجهت دعوته إلى إعلاء شأن إله القمر في المجمع الإلهي، معارضة ملحوظة في تلك المدن.

ب– وربما كان توجهه نحو مدينة (تيماء) الواقعة غرب الجزيرة العربية، بسـبب التمرد الـذي حدث في سـوريا ووادي الأردن في أوائل سـنة حكمه الرابعـة. ومن تلك القاعدة بسـط نفوذه المبـاشر جنوبًا، فوصل إلى أبعد ما وصـل إليه حاكم عراقي. حيث فتح جميع المستوطنات العربية الأساسية حتى بلغ مدينة يثرب.

ج – وربما كان العامل الرئيسي وراء تلك الخطوة، يَكْمُن في العامل الاقتصادي. حيث أن جنـوب غـرب الجزيرة العربيـة والمناطق المقابلـة لها في أفريقيـا، كانت المصدر الوحيد للبخور والتوابل، الأمر الذي جعل تجارة القوافل من المنطقة التي تمتد من المدينـة إلى الأردن ومصر والعراق برمتها مناطق بالغة الغنى[١٥٨]. ولذلك، وضع يـده على واحات أخرى جنوب مدينة (تيـماء)، بما فيها واحة يثرب. وأقام في تلك الواحات حاميات عسـكرية. وأسـس فيها مسـتوطنات أسـكن فيها جماعات من بلاد الشام ومن بلاد بابل. ولعل من بينهم يهودًا من الأسر البابلي[١٥٩].

ويبدو أن تلك الإجراءات، كانت قد مثلت محاولة جادة لحل الأزمة الاقتصادية التي عصفـت بالبلاد. حيـث وفرت للدولة مـوارد جديدة آتية من الطرق التجارية في شـمالي الجزيـرة العربيـة وجنوبهـا. بعد أن أغلقت بوجـه الدولة الطرق التجاريـة المارة عبر بلاد الشـام وموانئ البحر الأبيض المتوسـط. وبذلك سـيطر الملك نبونائيـد على ملتقى طرق تجارية مهمة، مثلت أحد مفاتيح التجارة العالمية إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى.

ومـن هذا التفكير الاسـتراتيجي، حصـل الملك نبونائيد على مدينـة (حران) عام ٥٥٣

قبل الميلاد، بموجب الاتفاق الذي عقده مع ملك الأخمينيين الفرس (كورش)، والذي تمكن من إزالة دولة الماذيين من بلاد فارس، وأصبح ملكًا عليها[١٦٠].

ثم استغل الملك (كورش) حالة الضعف التي عانت منها الدولة الكلدية. فقاد جيشه لاحتلالها. فواجه الجيش البابلي في منطقة (سلوقية – المدائن) وتمكن من هزيمته، وقتل قائده الميداني. ثم أسرع إثر ذلك النجاح غير المتوقع، ليتقدم نحو مدينة بابل، فواجه بقايا الجيش البابلي في منطقة اليوسفية جنوب بغداد. وحدث ما لم يكن في الحسبان، عندما استسلم القائد البابلي مع جيشه، للجيش الأخميني، الذي دخل العاصمة بابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد. وأسقط السلطة السياسية الوطنية في بابل[١٦١].

إن غرابة هذه الواقعة وملابساتها، دفعت الباحث لدراسة العوامل الأساسية التي سببت سقوط الحكم الوطني في العراق بهذا الشكل غير المتوقع في المبحث الآتي.

المبحث الثالث

عوامل سقوط الدولة العراقية الكلدية

تباينت وجهات نظر الباحثين في تحديد عوامل سقوط الدولة العراقية الكلدية. كل حسب خلفيته الفكرية، أو العقائدية، أو السياسية، أو حسب ما توفر لديهم من دلالات تاريخية. مع ذلك، يمكن أن نحدد تلك التفسيرات بما يأتي:

أولا: ظاهرة عدم الاستقرار السياسي ما بعد نبوخذ نصر

احتسب بعض الباحثين، أن ظاهرة عدم الاستقرار السياسي ما بعد وفاة الملك نبوخذ نصر، كانت من أهم أسباب سقوط الدولة الكلدية. ويبدو أن ظاهرة عدم الاستقرار السياسي ما بعد نبوخذ نصر، تعزى إلى عوامل عدة. لعل أهمها ما يأتي:

أ – أن تعاقب ثلاثة ملوك ضعفاء، وقليلي الشأن، على عرش بابل ما بعد وفاة الملك القوي نبوخذ نصر، كان قد ساهم في نمو ظاهرة عدم الاستقرار السياسي، التي أفضت إلى انهيار الدولة البابلية الحديثة.[١٦٢] فضلًا عن قلة خبرتهم في إدارة الدولة ومقاليد الحكم، وفقدانهم لشرعية الإنجاز. حيث لم يرد في الوثائق المسمارية أي شيء عن إنجازات الملك (أميل مردوخ). كما أنه لا يوجد أي دليل على امتلاك الملك (نركال شار أوصر) للخبرة الإدارية. بينما كان الملك (لباشي مردوخ) قاصرًا عندما تولى العرش[١٦٣].

ب– كما أن قصر مدة حكم كل من الملوك الثلاثة، كان قد مثل أحد مغذيات ظاهرة عدم الاستقرار السياسي في الدولة الكلدية. إذ أن الملك (أميل مردوخ) لم يحكم سوى عامين. والملك (نركال شار أوصر) كان قد حكم أربعة أعوام. والملك (لباشي مردوخ) لم يحكم سوى تسعة أشهر فقط[١٦٤]. وإذا ما قارنا المدة التي شغلها كل من هؤلاء الملوك مع مدة حكم الملك نبوخذ نصر البالغة ٤٣ عامًا، لتبين مدى الضعف الذي اتسم به هؤلاء الملوك الثلاثة، ومقدار تأثير ذلك على عدم الاستقرار السياسي.

ج – أضـف إلى ذلك، كانت ظاهـرة الصراع داخل الأسرة الحاكمة مـا بعد وفاة الملك نبوخذ نصر، قد شـكلت إحدى عوامل سـقوط الدولة الكلدية. حيث قُتِل الملك (أميل مردوخ) على يد أحد أخوته، مما حدا بخليفته الملك (نركال شار أوصر) إلى التدخل لحفظ الأمن والنظام، ومن ثم الاستيلاء على العرش في خضم ذلك[١٦٥].
أما الملك (نركال شار أوصر) فقد توفي عام ٥٥٦ قبل الميلاد على أثر حملته الحربية الفاشـلة، التي شـنها على (كيليكيا – الإسـكندرونة)، مما دفع بعـض الباحثين إلى الاعتقاد بأن منافسـيه الشـخصيين في بابل، قد اسـتغلوا فقدان منزلتـه الاعتبارية بسـبب فشـله في تلك الحملـة، فعجَّلوا في نهايتـه. أما الملك (لباشي مـردوخ) فقد ذهـب ضحيـة مؤامـرة قادها الملـك اللاحـق نبونائيد عندمـا كان قائـدًا للجيش الكلدي. ومن ثم اختار المتآمرون واحدًا منهم ليتولى عرش بابل، وهو الملك (نبو نائيد)[١٦٦].

وفي ضوء ذلك الصراع المحتدم داخل الأسرة الحاكمة، انتقل العرش خارج أسرة الملك نبوخذ نصر الثاني. حيث تولى العرش الملك (نبو نائيد)، الذي لم يكن من العائلة نفسها، إنما كان صهـرًا للملـك نبوخذ نصر. وبهـذا الصدد قال عنه القس (أدي شـير) ما يأتي: (وأن لم يكن من آل بنوكد نصر في الظاهر، إلا أنه توفق إلى رعاية الملك)[١٦٧].

ثانيًا: التفسير الديني

إن التفسـير الدينـي لسـقوط الدولة الكلدية، تفـردت به نصوص العهـد القديم، التي فسرت سـقوط الدولة البابلية الحديثة على أنه حتمية ربانية؛ لأن هذا السـقوط كان جزءً من تنبـؤات أنبياءهم منذ عهد الملك نبوخذ نصر الثاني عندما راودته أحلامًا أزعجته، وأذهبت منامه. وهذا ما أشارت إليه نبوءة دانيال بقوله: (وفي السنة الثانية من مُلك نبوكد نصر حلم نبوكد نصر أحلامًا فانزعجت نفسه وذهب عنه منامه)[١٦٨].

وفحـوى حلـم الملـك نبوخذ نـصر، كان يفيد بأن المملكـة البابلية كانت أشـبه بصورة كبيرة، صنع رأسـها من الذهب الخالص، وجسـدها من الفضة والنحاس الأصفر، وساقها

مـن الحديـد، وقدميها من الطين. وهناك حجر أصاب الصورة في القدمين، فتهاوى الذهب والفضـة والنحـاس والحديد، وتحطمت كلها إلى قطع صغـيرة. إذ قال دانيال: (أما ما رأيت مـن أن حجـرًا انقطع من الجبل لا باليدين فسـحق الحديد، والنحـاس، والخزف، والفضة، والذهـب، فهـو أن الإلـه العظيـم أعلـم الملـك ما سـيكون بعد ذلـك. الحلم حـق وتعبيره صدق)[١٦٩].

ثالثًا: الظلم والاستبداد وشخصنة السلطة

وهناك من احتسب الظلم والاستبداد وشخصنة السلطة، من أهم عوامل سقوط الدولة البابليـة الحديثة. إذ لاحظ القس (أدي شـير) أن سـقوط الدولة الكلديـة من ذروة العظمة، كان بغتـة لا تدريجيًـا حالهـا حال الدولة الآشـورية والدولة الماذية. وذلـك لأن تلك الدول كانـت قائمة بشـخص الملك لا بقوانينها وشرائعها ونظامهـا. فتحيا الدولة إذا نهض الملك، وتموت إذا مات ولم يخلفه أحد بمستواه[١٧٠]. لذلك لاحظ أنه حالما مات الملك نبوخذ نصر الثاني، مات معه هذا المُلْك العريض. إذ أنه في سـبع سنوات (٥٦٢ – ٥٥٥ ق.م) توالى على أريكة الحكم ثلاثة ملوك انغمسوا في فتن وقعت في القصر الملكي، فانقرضت تلك الأسرة، وزالت كل الزوال، وكأنها لم تكن[١٧١].

أضـف إلى ذلـك، أن الدولـة الكلدية، حالها حـال الممالك القديمة، التي لم تؤسَـس على إجـراء العدل في البـلاد، وتعميرها، وترقيتها. فالغزاة الشرقيـون القدماء بما فيهم الكلديين، كانـوا يخربون البلدان المفتوحـة، ويتخذون أهلها عبيدًا. وهذا مـا كان يجعلهم مبغوضين في عيون الأهالي الذين يجتهدون من أجل التخلص من وزرهم الثقيل، ويفتحون أبوابهم بطيبة خاطر لقبول أول ملك فاتح يأتي إليهم. كما حدث مع كورش ملك الأخمينيين في بابل[١٧٢].

رابعا: الأزمة الاقتصادية

و هنـاك مـن ذهب إلى القـول، أن الأزمة الاقتصاديـة التي عصفت ببـلاد بابل، كانت إحدى مسـببات سقوط الدولة الكلدية. حيث ارتفعت الأسـعار، وشحت المواد الغذائية،

وحلت بالبلاد المجاعة، لدرجة أضطر بعض الفقراء إلى بيع أولادهم أو تقديمهم، على أقل تقدير، إلى المعابد تخلصًا من نفقات عيشهم. كما لجأوا إلى الاقتراض من البيوتات المالية وبفوائد عالية[١٧٣].

ويمكن تتبع ارتفاع الأسعار ما بين بداية هذا العهد ونهايته، من خلال فحص الوثائق الاقتصادية التي وردت من هذا العهد، مثل سجلات البيع والشراء، والأجور، والقروض[١٧٤].

وسبق وأن تحدثنا عن منابع هذه الأزمة الاقتصادية في عهد الملك نبونائيد. يُضاف لها أن احتكارات المعبد، كان قد ترتب عليها، تضاؤل واردات الملك وحكومته إلى درجة لا تتماشى مع متطلبات الدولة إلى الإنفاق على المشاريع، وعلى نفقات الجيش، الذي أصبح، منذ عهد الملك نبوخذ نصر الثاني، جيشًا نظاميًا قائمًا يتطلب الإنفاق لإعالته وتجهيزه. فلم تسد الثروة الزراعية تلك الحاجة، بالنظر إلى مزاحمة المعبد في امتلاك الأراضي الزراعية الواسعة[١٧٥].

و كان لغياب الملك نبونائيد مدة عشر سنوات في شبه الجزيرة العربية، وتركه بابل تحت أمرة ابنه وولي عهده، أثره الملموس في زيادة تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية في بلاد بابل[١٧٦].

إن ذلك التدهور الاقتصادي، كان قد نشط الحرب الدعائية المعادية للملك نبونائيد، والتي شنها كهنة معبد بابل، وأسرى اليهود في بابل، الذين نسبوا إلى الملك تهمة تردي الوضع الاقتصادي، وسوء الأحوال المعيشية للسكان. فضلًا عن إهماله معابد الإله مردوخ.

خامسًا: التحريض الديني

وهناك من احتسب التحريض الديني الموجه ضد الملك نبونائيد، من أهم عوامل سقوط الدولة الكلدية. ويبدو أن هناك جهتين رئيسيتين، كانت قد اضطلعتا بمهمة التحريض الديني ضد الملك. وكل منهما لها مسوغاتها. وهما:

١- كهنة بابل:

لقد لعب كهنة بابل دورًا رئيسيًا في سقوط الدولة العراقية الكلدية. وذلك بحكم التقاطع العقائدي والاقتصادي الذي حدث بينهم وبين الملك نبونائيد. ولعل أهم محاور الخلاف المحتدم بينهما يَكْمُن في ما يأتي:

أ - قيام الملك نبونائيد بإحداث تغييرات جوهرية في العقائد الدينية لبلاد بابل، عن طريق ثورة الإصلاحات الدينية التي تبناها. حيث أظهر ولاءً متزايدًا لإله القمر المزعوم، وفضله على الإله القومي لمدينة بابل (مردوخ)، لدرجة ارتقى فيها إله القمر، في عهده، إلى منزلة أعلى من منزلة الإله مردوخ. لذلك وجهت منظومة الكهنة نقدًا شديدًا لتلك التغييرات الدينية في منظومة أدبية عرفت باسم (منظومة نبونائيد)[١٧٧].

ولاحظ الكهنة، أن طقوس معبد الإله القمر في أور، قد تبدلت بخلاف ما كانت عليه في عهد الملك نبوخذ نصر الثاني. حيث أدخل الملك نبونائيد تعديلات جوهرية على تلك الطقوس لتلائم اعتقاده الجديد في إله القمر وعبادته التي رفضها كهنة بابل، الذين فضلوا عليها ما كان قائمًا في عهد الملك نبوخذ نصر الثاني[١٧٨].

كما أدى غياب الملك نبونائيد المستمر عن احتفالات رأس السنة البابلية (الأكيتو)، إلى توقف تلك الاحتفالات لأن من اشتراطاتها الدينية حضور الملك فيها بنفسه، الأمر الذي زاد من غضب كهنة معبد الإله مردوخ في بابل[١٧٩].

ومن الواضح، أن الملك نبونائيد، في خطواته هذه، إنما حاول إيجاد الوحدة السياسية تحت الغطاء الديني.

مع ذلك، فإنه اصطدم بتيار معارض قوي داخل بابل، تمثَّل في كهنة معبد مردوخ في بابل. وهناك نصًا مطولًا، يكشف عن الصراع ما بين الملك من جهة، والكهنة من جهة أخرى، ويبين موقف رجال المعبد من إجراءات الملك، والاتهامات التي وجهوها إليه. أن هذا النص، يوضح بشكل كبير طبيعة الصراع الذي بدأه الكهنة ضد الملك نبونائيد باحتسابه قد جاء ببدعة دينية على حد زعمهم[١٨٠].

عليه، لم يقف الكهنة أمام تلك المحاولات مكتوفي الأيدي، حيث واجه الملك صعوبات جمة، حال عودته من الجزيرة العربية. لعل أهمها كانت معارضة كهنة الإله مردوخ، الأمر الذي أدخل الصراع بين الملك والكهنة طورًا جديدًا. إذ ادعى الكهنة، أن الملك نبونائيد، قد أهمل شؤونهم، وقطع الأموال عنهم، وأنه أمر بتبديل أغطية رؤوس الكهنة، وتجاوز على صلاحياتهم.

مما تَقدَّم، يتضح جليًا، مدى العداء السافر الذي شنه الكهنة على الملك نبونائيد، الأمر الذي كان له أثره السيء على مستقبل البلاد وسقوطها. حيث كانت إصلاحاته الدينية، بمثابة مغامرة فكرية وعقائدية وسياسية، لم يحسب هذا الملك ردود أفعالها بدقة، ربما كلفته تلك المغامرة التاج والدولة على حد سواء.

٢- التحريض الديني اليهودي:

كان اليهود الذين أجلاهم الملك نبوخذ نصر الثاني من مملكة يهوذا إلى بابل، أحد مصادر التحريض الديني ضد الملك نبونائيد. وذلك من جهتين أساسيتين هما:

أ - تارة يظهرون تعاطفًا مع معتقدات كهنة بابل، ويحرضون الجمهور على الدفاع عنها، والتصدي لمحاولات الإصلاح الديني، التي نهض بها الملك.

ب- وتارة أخرى يحرضون الجمهور ضد الملك نبونائيد تحت غطاء المعتقدات التوحيدية التي يؤمنون بها، والتي تتقاطع كليًا مع معتقدات الملك الجديدة.

عليه، عملوا على تحريض سكان بابل على ما قام به الملك نبونائيد عندما أدخل عبادة إله القمر إلى مدينة بابل. حيث صور هؤلاء اليهود، بأن ذلك يعد انتقاصًا من مكانة الإله مردوخ إله مدينة بابل. وكذلك احتسبوا ذلك إنتقاصًا من البابليين أيضًا[١٨١]. وقد ساعدوا الملك الأخميني كورش في تحقيق هدفه باحتلال بابل. ورحبت جموع الأسرى اليهود في بابل باحتلال كورش العاصمة بابل. واحتسبوه بمثابة المنقذ والمحرر، الذي سمح لهم بالعودة إلى أورشليم، وإعادة بنائها في السنة الأولى من حكمه كما ورد في سفر عزرا[١٨٢].

سادسًا: المعادلة الدولية الجديدة

وهناك من احتسب المعادلة الدولية الجديدة، من عوامل سقوط الدولة العراقية الكلدية. إذ كانت بوادر الخطر على الدولة الكلدية ماثلة في المعادلة الدولية الجديدة. ولا سيما الأداة التي استجدت في بلاد فارس والمتمثلة بقيام الملك الفارسي الأخميني (كورش الثاني)، وأخذه السلطة من الماذيين في عهد الملك (أستياجس) جده لأمه. بحيث استطاع هذا الملك الجديد، أن يؤسس بسرعة فائقة إمبراطورية واسعة، شملت آسيا الصغرى، وبلغت تخوم الهند[١٨٣]، الأمر الذي حرم الدولة الكلدية من موارد تجارية مهمة مع الأقاليم الشمالية والشرقية[١٨٤].

وبذلك يمكن القول، أنه طغت على الأحداث السياسية الدولية، زمن الملك نبونائيد، توسع الإمبراطورية الفارسية بقيادة ملكها الجديد كورش[١٨٥]. الذي وصفه (الكرملي) بأنه (يعتبر من كبار الفاتحين الذين فتحوا الفتوحات الواسعة، وفرشوا على الأرض بساط ملكهم الضخم... وأصبح مالكًا لدولة أوسع من كل دولة سبقتها من جهة الوحدة والارتباط والرجوع إلى الرأس الواحد. وأرصد بقية حياته ليزيد في بسط ملكه)[١٨٦].

وبعد أن أمضى الملك نبونائيد زهاء عشر سنوات في مدينة (تيماء) الكائنة في الجزيرة العربية، عاد إلى بابل عام ٥٤٦ قبل الميلاد ليواجه هذه المعادلة الدولية الجديدة.

ويبدو أن الملك نبو نائيد لم يتعاط مع تلك المعادلة الدولية الجديدة بشكل مناسب. حيث يسجل عليه ما يأتي:

أ - لم يتفهم تلك المعادلة الدولية الجديدة، ولم يتحسب لها، ولم يتخذ أي احتياطات احترازية لتفادي تلك الأخطار المحدقة[١٨٧].

ب- لم يقدر الملك نبونائيد بدقة تلك المعادلة الدولية الجديدة، ولم يدرك أبعادها، ولم يستقرأ تبعاتها. لذلك راهن على الحصان الخاسر عبر تحالفه مع الملك (كروسس)، الذي كان ينازعه كورش على عرش الدولة الفارسية الأخمينية[١٨٨]. وأساء تقدير الموقف أيضًا، بتحالفه مع فرعون مصر (أماسيس) بقصد الوقوف بوجه كورش[١٨٩].

ج – لم يقدِّر الملك نبونائيد قوة شخصية الملك الأخميني كورش، ولا طموحاته التوسعية التي لا حدود لها، بما فيها طموحاته في الاستيلاء على بابل[١٩٠].

ويبدو أن الملك كورش، كان قد استغل ضعف الدولة الكلدية، والصعوبات التي واجهتها في عهد الملك نبونائيد، فبدأ بالإعداد لغزو بابل، وإنهاء وجودها السياسي. وانشغل في البداية، بالحرب الدعائية ضد الملك نبونائيد. حيث تركزت تلك الحرب حول التشهير بالملك وتصويره على أنه شخصًا قام في انتهاك حرمات المعابد، الأمر الذي وجد أرضًا خصبة بين السكان المحليين البابليين، الذين نعتوه بصاحب العقلية المحررة[١٩١]. ولعل أقوى تأييد حصل عليه الملك كورش، كان من اليهود وكهنة بابل. لذلك تمت مكافأة الكهنة لعدم الولاء لملكهم نبونائيد. وأُعِيدَت الآلهة المنهوبة بكل تكريم إلى معابدها في بابل. كما تم إعادة ترميم تلك المعابد[١٩٢]. واستمرت الطقوس الدينية في سبيلها المعتاد. بل وشارك ولي العهد الفارسي (قمبيز) شخصيًا في طقس السنة البابلية الجديدة لإضفاء الشرعية على حكم والده الملك كورش[١٩٣].

ثم تقدمت الجيوش الأخمينية الغازية نحو بابل. ودارت معركة حامية بين الجيش الكلدي بقيادة (بليشاصر) ابن الملك نبونائيد والجيوش الغازية في منطقة (سلوقية – المدائن). قُتل فيها قائد الجيش، وسقطت سلوقية بيد الغزاة، الأمر الذي شجعه للتقدم نحو مدينة بابل. فواجه بقايا الجيش البابلي في منطقة اليوسفية جنوب بغداد. واستسلم قائد الجيش الكلدي (غوبارو) مع جيشه إلى الملك الفارسي. وفتح بنفسه أبواب العاصمة بابل، ليدخلها الجيش الأخميني. ويأخذ الملك نبونائيد أسيرًا، وربما يكون قد قُتِل[١٩٤].

ويبدو أن (غوبارو) كان على اتصال بالفرس، وأنه قد تآمر معهم ضد بابل. واتفق معهم على أن يهاجموا المدينة بعد منتصف رأس السنة البابلية (الأكيتو)[١٩٥]. ومن دلالات خيانة (غوبارو) ما يأتي:

أ – عهد إليه الملك الفارسي كورش قيادة الجيش الذي تقدم لاحتلال بابل.

ب– وربما أرسل الملك كورش بعد معركة (أوبس) قوتين، واحدة إلى سبار، وأخرى

إلى بابل. فاحتلت الأولى سبار. وسارت الثانية بقيادة (غوبارو) نحو بابل؛ لأنه ابن البلد، ويعرف أفضل خطة لاحتلالها، تلك الخطة التي تمحورت حول تحويل مياه الفرات، بحيث ينخفض فيها مستوى الماء انخفاضًا كبيرًا، لدرجة بانت نتيجة لذلك كل القنوات التي تدخل المدينة. فسلك وجنوده من تلك القنوات، واحتلوا المدينة[١٩٦].

عليه، يمكن القول، أنه لولا الخيانة لما تمكن الفرس من احتلال بابل الحصينة.

ولذلك نسب المؤرخ (هيرودوتس) أسباب سقوط بابل على أيدي الغزاة الأخمينيين إلى خدعة فارسية. تضمنت كسر نهر الفرات، الذي كان يشكل جانبًا من دفاعات مدينة بابل. فانخفضت مناسيب المياه فيه، وأصبح من الممكن عبوره. وبهذا الشكل دخل الملك كورش بابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد، وأسر الملك نبونائيد، وربما قتله[١٩٧]. كما أن عدم اهتمام الملك نبونائيد بخطة الدفاع عن بابل، لدرجة أنه لم يترك فيها قوة احتياطية تتولى الدفاع عنها عندما خرج بجميع جيشه لملاقاة الملك كورش في مدينة (أوبس). مما جعل العاصمة بابل خالية من الجيش، وواهنة إزاء الجيش الأخميني الغازي[١٩٨]

وكان اليهود الأسرى في بابل من الذين ساعدوا الغزاة على احتلال بابل[١٩٩]. وربما تكون هناك أكثر من دلالة على الموقف اليهودي منها: [٢٠٠]

أ – احتسابهم الملك كورش بمثابة المخلص.

ب– سماحه لهم بالعودة إلى فلسطين، وبناء الهيكل من جديد في القدس.

ج – إعادة ما حمله الملك نبوخذ نصر من غنائم إلى الهيكل.

د – كما أن مساعدته لهم، وتوصياته لمبعوثيهم كلها مؤشرات على أنهم لابد وأن قاموا بمساعدة جيوش الملك كورش لدى إحلالها بابل.

ويبدو أن كل هذه العوامل مجتمعة، قد ساهمت بسقوط بابل بيد الغزاة الفرس الأخمينيين عام ٥٣٩ قبل الميلاد.

وربما كانت بعض الخطوات التي اتخذها الملك كورش من أسباب ترحيب البابليين بالمحتل الجديد منها:

أ – أن الملك كورش كغيره من المحتلين في التاريخ، سرعان ما نشر بيانه، الذي كتب باللغة البابلية وبالخط المسماري، والذي جاء فيه، أنه جاء ليحررهم بأمر من الإله مردوخ وإلاله نبو اللذين رحبا بحكمه.

ب– كما أن اتخاذه ألقاب الملوك البابليين مثل (الملك العظيم، ملك العالم، الملك القوي، ملك بابل، ملك بلاد سومر وأكد، ملك الجهات الأربع)[٢٠١]، قد زادت من قاعدة القبول الشعبي بالمحتل الجديد لدى سكان بابل.

وهكذا وصفت هذه الواقعة بأنها مثلت، نهاية ثلاثة آلاف عام من الحكم الوطني العراقي المستقل لبلاد الرافدين، والذي انتهى في أفول يدعو للدهشة[٢٠٢]. وكان هذا الحدث، مؤشرًا على نهاية بابل كعاصمة عالمية. وانتقل دورها إلى مدينة سوسة جنوبي غرب إيران. بيد أن بابل بقيت المحور الإداري لبلاد الرافدين. إذ لم تنقطع الإدارة فيها، واستمرت الطقوس الدينية في سبيلها المعتاد[٢٠٣].

وبناء على ذلك كله، انتهت آخر سلالة وطنية حكمت العراق القديم. ودخل العراق تحت الحكم الأجنبي، على الرغم من الانتفاضات الوطنية التي قادها البابليون تحت قيادة نبوخذ نصر الثالث ونبوخذ نصر الرابع. بيد أن البلاد لم تتحرر إلاَّ بعد معركة القادسية عام ٦٣٦م، التي اندلعت بين العرب المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والإمبراطورية الفارسية بقيادة (رستم فرخزاد) في عهد الملك الفارسي (يزدجرد) وعهد الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب).

إن مرحلة وقوع العراق تحت وطأة الاحتلال الأجنبي ستكون محور الاهتمام في المبحث الآتي.

هوامش الفصل السادس

(١) عبد العزيز صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٦، محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٧.
(٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٥.
(٣) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٥.
(٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٥.
(٥) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٦) زهير صاحب، تصادم الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٠.
(٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٥.
(٨) حول مدينة بابل ومعالمها القديمة، انظر: سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢ - ٢٧١.
(٩) زهير صاحب، تصادم الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٠.
(١٠) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٥.
(١١) زهير صاحب، تصادم الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.
(١٢) سفر أيوب: ١: ١٧.
(١٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٩.
(١٤) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، لفظة (كلداني - كلدانيون - كلديًا).
(١٥) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٦.
(١٦) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣.
(١٧) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤.
(١٨) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٧.
(١٩) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣.
(٢٠) للتفصيل انظر: ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٩ ٠ ٢٠١.
(٢١) حياة إبراهيم محمد، نبوخذ نصر الثاني، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد ١٩٨٣، ص ٣٦.
(٢٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦.
(٢٣) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣ - ٣٤.
(24) Albright. w. The Chaldean Inscripitions in Proto - Arabic, in Basor, 128, 1952, p. 40.
(٢٥) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٩٩، ٢٠٧، ٢١٣.
(٢٦) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٢.
(٢٧) سفر أيوب: ١: ١٤ - ١٨.
(٢٨) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل الحديثة، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(٢٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦.
(٣٠) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧، ص ٢٢٨.

(٣١) ليو و ينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.
(٣٢) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.
(٣٣) ليو و ينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.
(٣٤) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٤.
(٣٥) ليو و ينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.
(٣٦) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣.
(٣٧) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.
(٣٨) ليو و ينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣ - ١٩٤.
(٣٩) صلاح رشيد الصالحي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٨.
(٤٠) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧ - ٢١٨.
(٤١) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧.
(٤٢) صلاح رشيد الصالحي، ج ٣، مصدر سبق ذكره.
(٤٣) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧.
(٤٤) ليو و ينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.
(٤٥) المصدر السابق، ص ١٩٥.
(٤٦) لمزيد من التفصيل، انظر: زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٨ - ٣٧٠.
(٤٧) المصدر السابق، ص ٢١١.
(٤٨) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٤٩) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.
(٥٠) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(٥١) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.
(٥٢) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(٥٣) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.
(٥٤) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٤.
(٥٥) للتفصيل، انظر: سفر ناحوم: ١ - ٣.
(٥٦) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(٥٧) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٨.
(٥٨) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(٥٩) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢ - ١٨٣. سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١. سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.
(٦٠) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
(٦١) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(٦٢) ستيفن لونكريك، فرانك ستوكس، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

(٦٣) أحمد ربيع عبد المنعم، نبوخذ نصر ومملكة بابل، دار مشارق للنشر والتوزيع، الجيزة ٢٠٠٨، ص ١٥.
(٦٤) المصدر السابق، ص ١٤.
(٦٥) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، لفظة (نبوخذ نصر).
(٦٦) دانيال: ١: ١.
(٦٧) ارميا: ٢١: ٢.
(٦٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢.
(٦٩) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(٧٠) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.
(71) Wiseman. D. New Bible Dictionary, London 1962, p. 312.
(٧٢) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٥. سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥.
(٧٣) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١.
(٧٤) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٠.
(٧٥) قاموس الكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره، لفظة (نبوخذ نصر).
(٧٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٩.
(٧٧) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.
(٧٨) المصدر السابق، ص ٦١.
(٧٩) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(٨٠) أحمد ربيع عبد المنعم، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣ - ٦٤.
(٨١) المصدر السابق، ص ٦٢.
(٨٢) المصدر السابق، ص ٦٣.
(٨٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(٨٤) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣.
(٨٥) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢.
(٨٦) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧.
(٨٧) دانيال: ١: ١ - ٣.
(٨٨) أخبار الأيام الثاني: ٣٦: ٦ - ٨.
(٨٩) أحمد ربيع عبد المنعم، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥ - ٦٦.
(٩٠) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٨.
(٩١) حزقيال: ٢٩: ١٩ - ٢٠.
(٩٢) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٨ - ٥٤٩.
(٩٣) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.
(٩٤) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٨.

(٩٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ٢٤٦.
(٩٦) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١.
(٩٧) ارميا: ٢٧: ١١ - ١٢.
(٩٨) ارميا: ٢٧: ٨.
(٩٩) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.
(100) Olmasted. A. History of Assyrian, New York 1923، p. 211.
(١٠١) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.
(١٠٢) المصدر السابق، ص ٥٩.
(١٠٣) أحمد ربيع عبد المنعم، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.
(١٠٤) المصدر السابق، ص ٦١.
(١٠٥) المصدر السابق، ص ٨٤.
(١٠٦) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٠.
(١٠٧) حياة إبراهيم محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.
(١٠٨) للتفصيل انظر المصدر السابق، ص ٨٥ - ٨٧.
(١٠٩) المصدر السابق، ص ٨٧، ص ٨٩.
(١١٠) حول إنجازاته العمرانية انظر: ساكز، البابليون، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.
(١١١) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٩. سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨ - ١٧٠.
(١١٢) لمزيد من التفصيل انظر: سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣ - ٢٧١. أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨ - ١٨٩.
(١١٣) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦١.
(١١٤) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣.
(١١٥) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١. محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥١.
(١١٦) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(١١٧) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٧.
(١١٨) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(١١٩) للتفصيل انظر: عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٥ - ٢٤٨.
(١٢٠) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣.
(١٢١) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠.
(١٢٢) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١.
(١٢٣) ارميا: ٢٩: ٧.
(١٢٤) ارميا: ٢٩: ٩.
(١٢٥) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣.
(١٢٦) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١. عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.

(١٢٧) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.
(١٢٨) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٠.
(١٢٩) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
(١٣٠) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤.
(١٣١) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، بغداد ١٩٨٤، ص ٥١١.
(١٣٢) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.
(١٣٣) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١ - ٢٥٢.
(١٣٤) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.
(١٣٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١.
(١٣٦) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٢.
(١٣٧) للتفصيل انظر: ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢ - ٢٥٤.
(١٣٨) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(١٣٩) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢.
(١٤٠) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧.
(١٤١) سبتينو موسكاتي، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.
(١٤٢) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.
(١٤٣) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(١٤٤) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(١٤٥) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.
(١٤٦) ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦ - ١٩٧.
(١٤٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢.
(١٤٨) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥١.
(١٤٩) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.
(١٥٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣.
(١٥١) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٠ - ٣٨١.
(١٥٢) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.
(١٥٣) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣.
(١٥٤) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥١.
(١٥٥) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣.
(١٥٦) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥١.
(١٥٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
(١٥٨) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
(١٥٩) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٣.

(١٦٠) محمد بيومي مهران، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.
(١٦١) زهير صاحب، تصادم الحضارات، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢. أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣.
(١٦٢) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(١٦٣) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
(١٦٤) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.
(١٦٥) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧١.
(١٦٦) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.
(١٦٧) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.
(١٦٨) دانيال: ٢: ١.
(١٦٩) لمزيد من التفصيل حول حلم الملك نبوخذ نصر انظر: دانيال: ٢: ٣٧ - ٤٩
(١٧٠) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.
(١٧١) المصدر السابق، ص ٥١.
(١٧٢) المصدر السابق، ص ١٩٤.
(١٧٣) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤.
(١٧٤) حول ارتفاع الأسعار انظر: Dubberstein, Comparative Prices in Later Babylonia, in A J S L, 1930, 20 ff. نقلاً عن طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٨.
(١٧٥) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٨.
(١٧٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.
(١٧٧) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١.
(١٧٨) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.
(١٧٩) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.
(١٨٠) مزهر الخفاجي، جذور الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٥.
(١٨١) مجموعة باحثين، تاريخ العراق القديم والحديث، بغداد ١٩٩٩، ص ٤٥.
(١٨٢) عزرا: ٦: ٣ - ١٢.
(١٨٣) طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٤.
(١٨٤) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٥.
(١٨٥) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ٢٦٢.
(١٨٦) أنستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.
(١٨٧) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦.
(١٨٨) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(١٨٩) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦.
(١٩٠) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠.
(١٩١) هاري ساكز، عظمة بابل: موجز حضارة وادي الرافدين القديمة، ترجمة: عامر سليمان، بغداد ١٩٧٩، ص ١٨٢.

(١٩٢) صالح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦.
(١٩٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦.
(١٩٤) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٦.
(١٩٥) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠.
(١٩٦) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧ - ١٧٨.
(١٩٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩.
(١٩٨) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(١٩٩) عبد الرضا الطعان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٢٠٠) عزرا: ١، ٥.
(٢٠١) زهير صاحب، تاريخ الفن، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٦.
(٢٠٢) سيتون لويد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢.
(٢٠٣) ساكز، البابليون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦.

الفصل السابع

العراق بين الاحتلال الأجنبي والفتح العربي الإسلامي

في هذا الفصل سيتم معالجة مبحثين أساسيين هما:

المبحث الأول: العراق تحت وطأة الاحتلال الأجنبي.

المبحث الثاني: العراق في عهد الخلافة العربية الإسلامية.

المبحث الأول

العراق تحت وطأة الاحتلال الأجنبي

بناء على ما تقدم من البحث في جذور الدولة العراقية، يتبين أن الحكم الوطني في العراق كان قد انتهى بسقوط بابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد على أيدي الغزاة الفرس الأخمينيين.

وقد ترتب على هذا الاحتلال ظاهرتين أساسيتين هما:

أ - نكوص الدولة العراقية، التي أخذت ترزح تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، والذي دام حوالي عشرة قرون من الزمان بدون أن يقدح بشرعية وجودها وديمومتها.

ب- والأدهى، أن العراق خلال حقبة الاحتلال الأجنبي، أصبح مسرحًا لحروب طاحنة بين الدول الغازية، الأمر الذي دمر البنية التحتية للبلاد، وأدخلها في أتون الفقر والتخلف وخراب العمران.

ويبدو أن تمتع العراق بمجموعة من المميزات، جعلته هدفًا للغزاة الأجانب. ولعل أهم تلك المزايا ما يأتي:

أ - من ناحية الموقع الجغرافي، فإن العراق يمثِّل ملتقى الطرق التجارية الرئيسية البرية والبحرية. فالعراق يتوسط بحرين هما البحر العربي، والذي يُسمى (البحر الأسفل)، والبحر الأبيض المتوسط، الذي يُسمى (البحر الأعلى). كما أنه يقع ما بين القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا.

ب- كما أن توفر مصادر المياه العذبة، والسهول المنبسطة، جعلت خيرات العراق وفيرة. كما أودعت الطبيعة بطون الديار العراقية كنوزًا من المعادن (وهذا الذي جعل البلاد العراقية مطمحًا للفاتحين والطامعين)[١].

وقد استهدف الغزاة الأجانب، عددًا من المقاصد، التي يمكن إيجازها بما يأتي:[٢]

أ - استغلال خيرات العراق الزراعية والمعدنية.

ب- استغلال منجزاته الحضارية، التي أسسها أبناء العراق القديم، والاستفادة منها.

ج - السيطرة على طرق التجارة الدولية البرية والبحرية.

د - الحيلولة دون قيام دولة عراقية قوية ما بعد العصر الكلدي.

ز - الحد من التطور الحضاري المضطرد لبلاد وادي الرافدين.

أما الدول الغازية للعراق ما بعد سقوط بابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد ولغاية الفتح العربي الإسلامي عام ٦٣٧م، فكانت حسب سياقها التاريخي كما يأتي:

أولًا: الغزو الفارسي الأخميني (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م).

ثانيًا: الغزو المقدوني - السلوقي (٣٣١ - ١٢٦ ق.م).

ثالثًا: الغزو الفارسي الفرثي (١٢٦ ق. م - ٢٢٦م).

رابعًا: الغزو الفارسي الساساني (٢٢٦ - ٦٣٧م).

المطلب الأول
الغزو الفارسي الأخميني (٥٣٩ - ٣٣١ ق. م)

يعد الفرس الأخمينيون من الأقوام الهندية - الأوروبية (الآرية)، التي استوطنت، في مطلع الألف الأول قبل الميلاد في الجزء الجنوبي الغربي من إيران، والذي يُدعى (بلاد فارس)[٣]. وهم من أشد القبائل الآرية تأثيرًا في بلاد إيران. وذلك بحكم كثرتهم العددية.

إن هذه الكثرة، كانت قد ساعدتهم على تشكيل كيان سياسي له ثقل سياسي في الشرق الأدنى القديم عمومًا، وفي إيران خصوصًا[٤].

وقد نظر الفرس بعين الطمع إلى الديار العراقية[٥]. ومن هذه الزاوية، تمكن الملك الأخميني (كورش الثاني) (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) من الاستيلاء على بلاد بابل، لتدخل ضِمن إمبراطوريته منذ عام ٥٣٩ قبل الميلاد. ومن ثم استطاع هذا الملك القوي أن يؤسس إمبراطورية واسعة تمتد من تخوم الهند إلى بحر ايجة وآسيا الصغرى[٦].

ولهذا احتسب المؤرخون (كورش الثاني) المؤسس الحقيقي للسلالة الأخمينية[٧].

ويمتد العهد الفارسي الأخميني في العراق منذ احتلال الملك كورش الثاني لبابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد لغاية احتلال الإسكندر المقدوني للعراق عام ٣٣١ قبل الميلاد. وبذلك يكون هذا الاحتلال قد دام زهاء القرنين من الزمان[٨].

وقد عين الملك كورش الثاني ولده (قمبيز) نائبًا له على بابل بعد احتلالها[٩]. وبذلك أصبحت بلاد وادي الرافدين، منذ عهد كورش الثاني، ولاية من ولايات الدولة الأخمينية. لذلك قال (عبد الرزاق الحسني) ما يأتي: (وبانقراض الكلديين طويت أعلام الساميين التي كانت تخفق على روابي العراق وقلاعه. ونشرت عوضها رايات الشعب الآري الغريب عن هذه البلاد. فانحطت حالة البلاد العراقية التي كانت حتى ذلك الوقت وحدة سياسية وجغرافية. وتردت حتى صارت ولايتها تابعة إلى سيطرة أجنبية)[١٠].

وقد اتبع ملوك الفرس الأخمينيين في العراق السياسة الآتية:

أ - عينت على ولاية بابل وآشور حاكمًا فارسيًا من بين أفراد الأسرة الحاكمة أو من المقربين إليها يُلقب (ستراب). وكان المسؤول المباشر أمام الملك الفارسي عن شؤون ولايته.

ب- كان لحاكم بابل وآشور أن يفرض الضرائب التي يراها مناسبة على السكان لسد الضريبة السنوية التي يدفعها لملك فارس من جهة، ولسد النفقات الأخرى اللازمة لإدارة الولاية وشؤون القصر الحاكم فيها.

ج - كما كان من سياسة الملوك الأخمينيين ترك الولايات التابعة وشأنها فيما له علاقة بمعتقداتها الدينية، وعاداتها، وتقاليدها، وأسلوب إدارة شؤونها طالما كان الحكَّام الفرس مستعدون لتقديم الضريبة السنوية المفروضة على الولاية في وقتها المحدد[١١]. لذلك قال القس الكرملي (وكان المبدأ المألوف في الإدارة الفارسية، أن لا يتدخل القابضون على زمام الأمر في شؤون داخل الأقوام التي أخضعت لحكمهم)[١٢].

د – منحت الأسر الفارسية في بابل جميع الحقوق والامتيازات. وتم إعفاءهم من الضرائب والالتزامات التي كانت تُفرض على السكان المحليين بهدف تشجيعهم على الاستيطان في وادي الرافدين.

ز – كما شجع الحكام الكهنة المجوس على الاستيطان في وادي الرافدين، والسماح لهم بنشر معتقداتهم الدينية بين الناس[١٣].

مع ذلك، لم يحمل الملك كورش الثاني أهل العراق على الدخول في الديانة الزرادشتية. وأسس لهذا الغرض مجلسًا قضائيًا يسير على ما جاءت به شريعة البلاد[١٤]. لذلك فإن (الكرملي) قال: (وأما الديانة نفسها فإنها بقيت سائرة في وجهها بدون أن يحل بها تغيير)[١٥].

ورغم أن الملك كورش الثاني، كان قد اتبع سياسة الانفتاح والتسامح مع أهالي بلاد بابل، بحيث تحاشى التدمير والبطش، واحترم معتقداتهم الدينية، وحرر أهالي بابل من عبادة إله القمر (سين) الذي فرضه الملك الكلدي (نبو نائيد) على البلاد برمتها كبديل للإله مردوخ إله بابل القديم[١٦]، بيد أن الطبقة الحاكمة العراقية وأتباعها، كانت تنظر إلى الحكم الفارسي الأخميني على أنه احتلال أجنبي يجب التخلص منه. بينما عامة الناس لا ترى فيه إلاَّ أنه مجرد تغير في الإدارة وأسلوب الحكم[١٧]. لذلك بذلت الطبقة الحاكمة العراقية وأتباعها جهدها مرارًا من أجل التحرر وطلب الاستقلال[١٨].

ومثلت القلعة والقصر الملكي الجنوبي أولى طلائع المقاومة العراقية ضد الاحتلال الفارسي. حيث تصدى القصر والقلعة للغزاة لمدة أكثر من شهر. ولم يتم التغلب على الحامية المحاصرة فيها إلاَّ بالمكيدة والحيلة. حيث كان الفرس قد يئسوا من الاستيلاء على بابل، فوضع عليهم (زبورا)، أحد أمرائهم، حيلة تمكن الفرس بموجبها من الاستيلاء على بابل[١٩]. وعندما استسلم رجال القلعة والقصر قضي عليهم، وانكمشت المقاومة الوطنية[٢٠].

وقد احتسب (أدي شير) أن تلك الحيلة كانت ساذجة وملفقة ولا أصل لها أبدًا (وإنما الداعي إلى استنباطها تمادي محاصرة بابل ومدافعة الكلدان الشديدة عن مدينتهم)[٢١]. وهي إشارة إلى شدة المقاومة الوطنية العراقية ضد الغزاة.

وعلى الرغم من قوة الدولة الأخمينية، وسعة نفوذها، وقسوتها في قمع الثورات التي اندلعت منذ عهد الملك (دارا الأول)، فإن بلاد بابل كانت تتحين الفرص للثورة ضد الحكم الأجنبي، وإعلان العصيان على الحاكم الفارسي بشتى الوسائل[٢٢]. إذ اغتنم بعض الوطنيين من أهالي بابل الاضطرابات الناجمة عن وفاة الملك (قمبيز)، فأعلنوا استقلال بابل بزعامة (ند نتو بيل) الذي أطلق عليه اسم (نبوخذ نصر الثالث). وادعى هذا الثائر العراقي بانه سليل الملك الكلدي (نبو نائيد). وقد حكم بابل لمدة وجيزة جدًا تمتد من شهر تشرين الأول عام ٥٢٢ قبل الميلاد، حتى كانون الثاني من عام ٥٢١ قبل الميلاد. حسب رقم طين مؤرخ أثناء مدة حكمه[٢٣].

وقد أشار إلى تلك الواقعة الملك (دارا الأول) في نصه المنقوش على حجر (بهستون). حيث ذكر فيه أن شخصًا من بابل يُدعى (ند نتو بيل) قد جهز جيشًا بعد أن ادَّعى بأنه (نبوخذ نصر بن الملك نبو نائيد). وتولى عرش بابل، فزحف عليه (دارفوس) بنفسه، وسحق الجيش البابلي على دجلة والفرات. ثم القى القبض على هذا الثائر وأعدمه[٢٤].

ولم تمض سنة على إخماد الثورة البابلية الأولى، إلاَّ وثارت بابل مرة ثانية في شهر آب من عام ٥٢١ قبل الميلاد، بينما كان الملك الأخميني مشغولًا في تصفية الثوَّار في بلاد ماذي. وادَّعى الثائر بأنه (نبوخذ نصر الرابع ابن الملك الكلدي نبو نائيد). مما اضطر الملك (دارا الأول) إلى إرسال (ويندافارنا) على رأس جيشه ليقضي على الجيش البابلي. وبعد حرب ضَروس قضى على الثائر وجيشه، ونهب الجيش الفارسي المدينة، وسرق قبور الملوك فيها ودمرها. وتشير المصادر إلى أن ثلاثة آلاف رجل بابلي نكل بهم عقابًا على ثورتهم ضد الملك (دارا الأول)[٢٥].

ثم حدثت الثورة البابلية الثالثة بقيادة أحد الزعماء البابليين (بيل شماتي)، الذي استقل في مدن بابل وسبار ودلبات لمدة شهر واحد من عام ٤٨٤ قبل الميلاد. وتمكن الملك (احشويرش الأول) من القضاء على تلك الثورة. وبعدها حدثت الثورة البابلية الرابعة عام ٤٨٢ قبل الميلاد. تزعمها شخص يدعى (شومي أربا) في عهد الملك الأخميني (احشو يرش الأول). وقد نجح هذا الثائر في قتل الوالي الفارسي على بابل، والسيطرة على الحكم فيها زهاء شهر واحد. لذلك غضب الملك الفارسي غضبًا شديدًا على بابل. إذ أرسل القائد

(ميكابيسوسش) لإخمادها[٢٦]. وفعلًا قمع الثورة بعنف وقسوة، ونكل بقادتها والقائمين عليها، ودمر مدينة بابل، ونهب تمثال الإله مردوخ، وخرَّب معبد (أي سكيلا) والزقورة. وقد ترتب على تلك الثورة النتائج الآتية:

١- تخلى الملك الأخميني (احشويرش الأول) من بعد قضائه على الثورة البابلية عن لقب (ملك بابل) الذي أوجده الملك (كورش الثاني). واقتصر في لقبه على لقب (ملك الفرس والماذيين).

٢- تحددت ثقة ملوك السلالة الأخمينية بالفرس حصرًا. وذلك منذ زمن الملك (احشويرش الأول) إلى زمن الملك (دارا الأول).

٣- بدأ ملوك الدولة الأخمينية بالتعاطي مع سكان الأقاليم الأخرى على أنهم مجرد رعايا تابعين للفرس.

٤- أصبحت الثورات المتكررة في بلاد بابل، مصدر قلق للحكومة المركزية الأخمينية، وشغلتها كثيرًا إلى درجة كانت الحملات العسكرية تُوجَه إليها للقضاء على الثورات، ويبدو أن تلك السياسة كانت إحدى أسباب الوهن الذي أصاب الدولة الأخمينية في نهاية عهدها.

٥- ومن خلال تلك الوقائع، يتبين أن الدوافع الوطنية كانت أهم أسباب المقاومة الوطنية العراقية ضد الاحتلال الفارسي الأخميني. علاوة على فداحة الضرائب المفروضة عليهم.

٦- كما يلاحظ أن البابليين لم يكتفوا بالثورات المسلحة ضد الاحتلال الأخميني، إنما اتخذوا بعض التعبيرات الدالة على رفض الاحتلال. لعل أهمها ما يأتي:

أ- تم استخدام اسم الملك (نبوخذ نصر الثاني) مجددًا كرمز وطني، وكمرادف لكلمة الملك الوطني العراقي المستقل عن السيطرة الفارسية الأخمينية[٢٧]. إذ نلاحظ أن بعض زعماء بابل اتخذوا من هذا الاسم شعارًا لهم. كما فعل زعيم الثورة البابلية الأولى، وزعيم الثورة البابلية الثانية[٢٨].

ب- كما يمكن احتساب الرفض البابلي للديانة الزرادشتية بوصفها الديانة الرسمية للدولة الفارسية الأخمينية، بمثابة نوع من أنواع المقاومة السلبية للاحتلال الفارسي الأخميني. إذ لم تذكر المصادر التاريخية والبقايا الأثرية أي آثار للمعابد الزرادشتية في العراق القديم.

ج - وتتبين حالة النفور والرفض للحكم الفارسي الأخميني من جرد الأسماء الشخصية التي تدل على رفض البابليين الاندماج في المجتمع الفارسي. حيث أن عددًا مَنْ سمَّى من البابليين أبناءهم بأسماء فارسية أقل بكثير من الفرس الذين أطلقوا على أبنائهم أسماء بابلية[٢٩].

٧- أن حالات التمرد والثورة التي قام بها سكان بابل، أودت بالمكانة المتميزة التي كانت بابل تحظى بها. إذ تم إزالة تمثال الإله مردوخ من بابل، وإلغاء مملكة بابل ليعلن الملك كورش الثاني نفسه ملكًا على بابل. وفرض عليها نظام حكم أكثر صرامة[٣٠].

٨- ومن مفارقات الاحتلال الفارسي الأخميني، أن الأخمينيين لم يكونوا من ذوي الحضارة الناضجة والمتطورة، إنما كانوا حديثي عهد بالسياسة والإدارة مقارنة ببلاد بابل ذات الحضارات العريقة التي تمتد إلى آلاف السنين. فضلًا عن امتلاك بابل شخصيتها الحضارية المميزة، ونظمها وتقاليدها الخاصة. وقد ترتب على هذه المفارقة ما يأتي:

أ - بقيت بلاد بابل وآشور تعيش في ظل الحضارة العراقية القديمة بمختلف مظاهرها رغم الاحتلال الفارسي الأخميني[٣١].

ب- ويمكن القول، أن الاحتلال الفارسي الأخميني لبلاد بابل وآشور، قد ساعد بشكل غير مباشر على نقل المقومات الحضارية العراقية القديمة إلى بلاد فارس نفسها. وهذا ما يلاحظ جليًا في الأساليب، والنظم الإدارية والاقتصادية، ونظام البريد، والتي ترجع بأصولها إلى النظم البابلية والآشورية[٣٢]. بل أن (حكامها أنفسهم نهلوا الكثير من الإرث المتحضر لبابل)[٣٣].

ولذلك بقيت بابل المدينة حاضرة الدولة الفارسية الأخمينية شتاءً. وكان قصر الملك نبوخذ نصر الثاني نفسه قصر الملك الفارسي، الذي كان بجانب الجنائن المعلقة. وكان ملك فارس يقضي فيه أشهر الشتاء[٣٤].

وقد كانت نهاية الإمبراطورية الفارسية الأخمينية التي بسطت سيطرتها على معظم بلدان الشرق الأدنى القديم، بما فيها بلاد وادي الرافدين، على يد (الإسكندر المقدوني). ليبدأ طور (الاحتلال المقدوني – السلوقي) للعراق. وهذا ما سنعرج عليه في المطلب القادم.

المطلب الثاني
الاحتلال المقدوني – السلوقي (٣٣١ – ١٢٦ ق.م)

عندما تولى (الإسكندر المقدوني) زعامة بلاد اليونان ومقدونيا بعد وفاة والده الملك (فيليب المقدوني)، فإنه عمل على المستويات الآتية:[٣٥]

أ – عمل على توحيد مقدونيا والمدن الإغريقية كافة.

ب– عمل على القضاء على التمردات التي حدثت في عدد من المدن بعد توليه الحكم.

ج – قيادة جيشه نحو الشرق، بقصد الهجوم على الإمبراطورية الفارسية الأخمينية في البلدان التي كانوا يحتلونها. وبذلك نقل موقف بلاد اليونان من الدفاع إلى الهجوم.

ويبدو أن بلاد اليونان كانت جذوة نار دائمة في تخوم الإمبراطورية الفارسية الأخمينية من جهتها الغربية[٣٦].

وبعد عدد من الحملات العسكرية التي قادها الإسكندر المقدوني على البلدان الواقعة تحت الهيمنة الفارسية الأخمينية في آسيا الصغرى وسوريا ومصر، فإنه توجه نحو شمال بلاد وادي الرافدين عام ٣٣١ قبل الميلاد لغزو الإمبراطورية الفارسية الأخمينية في أهم مواقعها. وبعد سلسلة من المعارك التي دارت رحاها على أرض العراق، لعل أهمها (معركة أربيلا) التي مثَّلت المعركة الفاصلة بين الجيش المقدوني والجيش الفارسي الأخميني، والتي انتهت بانتصار الجيش المقدوني[٣٧].

ثم سار الإسكندر المقدوني قاصدًا بابل. فنزلها وطارد فلول الجيش الفارسي الأخميني حتى وجد الملك الفارسي (دارا) قد قُتِل بجوار (بلخ). وبمقتله انقرضت الدولة الفارسية الأخمينية، فورثتها الدولة اليونانية، التي وضعت يدها على كل ما كانت تمتلكه من البلدان والممالك المحتلة، بما فيها العراق القديم[٣٨].

وبعد ذلك، توجه الإسكندر المقدوني نحو بابل، واستولى عليها سلميًا. حيث استسلم الحاكم الأخميني (ماز يوس) وسلم المدينة إلى الإسكندر المقدوني في العام نفسه[٣٩].

وقد استطاع الإسكندر المقدوني، على مدى ثلاثة أعوام، من تحطيم الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، والاستيلاء على أقاليمها كافة[٤٠]. وبذلك انتهى العصر الفارسي الأخميني نهائيًا على يده، بحيث انتزع بلاد وادي الرافدين من الأخمينيين عنوة.

ولد الملك (الإسكندر المقدوني) ابن الملك (فيليب المقدوني) عام ٣٥٦ قبل الميلاد. وتولى العرش بعد اغتيال والده عام ٣٣٦ قبل الميلاد. وكان عمره ٢٣ عامًا[٤١]. وأُطْلِق عليه لقب (الإسكندر الكبير) في الأدبيات الغربية. بينما أُطْلِق عليه عند العرب لقب (الإسكندر ذي القرنين)[٤٢]. كما أُطْلِق عليه لقب (الإسكندر المقدوني) نسبة إلى بلاد مقدونيا التي تشغل الجزء الأوسط من شبه جزيرة البلقان[٤٣].

ويبدو أن هناك عوامل مهمة، ساعدت على نجاح الإسكندر المقدوني، وفي مدة وجيزة، لعل أهمها ما يأتي:

أ – مؤهلاته الشخصية، وقابلياته، وتربيته العسكرية الخاصة. وما ناله من ثقافة، منذ سن مبكرة، على يد الفيلسوف الإغريقي (آرسطو طاليس)[٤٤]. لذلك وصفه (ستيفن همسلي لونكريك) بأنه (رجل ينطوي على مواصفات عبقرية)[٤٥]. كما وصفه (عبد الرزاق الحسني) بأنه كان رجلًا طموحًا. وأن طموحاته ليس لها حدود. حيث قال عنه: (كانت خطته ترمي إلى فتح جزيرة العرب كلها، وإلى جعل العالم تحت زعامة واحدة)[٤٦].

ب– كان على اطلاع واسع على أحداث التاريخ الخاص بالحروب اليونانية – الفارسية.

فضلًا عن أن والده قد مهد طريق النجاح أمامه، بما أحدثه من تحسين في أنظمة الجيش، وأساليب القتال والمناورة[٤٧].

ج - ومما ساعد على ذلك التفوق كله، نمو عوامل الانحلال والتفسخ في بنيان الدولة الفارسية الأخمينية. فالطبقة السياسية الحاكمة، كان قد نخرها الفساد، وأضعفتها حدة الصراعات الداخلية فيها[٤٨]. حيث يلاحظ أن الضعف كان قد حل بالإمبراطورية الفارسية الأخمينية منذ وقت مبكر. لذلك بدأت مقدونيا (شمال اليونان) تتخلص من التبعية لبلاد فارس. وتكوِّن لنفسها كيانًا سياسيًا مستقلًا بفضل جهود الملك (فيليب الثاني) والد (الإسكندر المقدوني)[٤٩].

د - أضف إلى ذلك، أن أرسطو كان قد علم الإسكندر المقدوني مراعاة عقول الشعوب، واحترام الديانات (وكيف لا يكون ذلك وهو تلميذ أرسطو طاليس وخريجه)[٥٠]. على حد قول (الكرملي).

ر - كما أن (الثورة الفكرية) التي شهدتها بلاد اليونان ساعدت الإسكندر المقدوني على النجاح والتفوق. حيث أن فلاسفة الإغريق ولجوا مقامًا جديدًا من الأفكار التي ساهمت بتمدن الغرب. إذ أنهم أخذوا يحررون أفكارهم مما كان يُنقل عن السلف من العوائد والعقائد تحريرًا لم يسبقهم إليه أحد. لذلك كانوا يمحصون كل شيء بعد أن يعرضوا ذلك على دليل العقل لمعرفة زائفه من خالصه. ومنذ ذلك الحين، بدأ أهل اليونان ينظرون إلى الطبيعة بعين البصيرة. كما برزت لديهم الآداب اللغوية[٥١].

وعندما آل أمر العراق إلى الحكام المقدونيين بزعامة الإسكندر المقدوني عام ٣٣١ قبل الميلاد، فإنه اتبع سياسة مغايرة في حكم بلاد بابل بقصد احتواء سكانها. لذلك تعامل مع سكانها، وأفكارها، وعقائدها، تعاملًا إيجابيًا بلغ حد اشتراك الإسكندر المقدوني بنفسه في الاحتفالات الدينية الوطنية التي كانت تشهدها مدينة بابل[٥٢].

وعندما عاد الإسكندر المقدوني من بلاد الهند إلى بابل، فإنه أراد أن يتخذ هذه المدينة

عاصمة لدولته الواسعة. بيد أن الموت لم يمكنه من ذلك. حيث توفي في قصر الملك نبوخذ نصر الثاني في بابل عام ٣٢٣ قبل الميلاد[٥٣].

ولما مات الإسكندر المقدوني، حدثت صراعات شديدة الوطأة ولمدة طويلة ما بين قادته البارزين (بطليموس، انطيغونس، سلوقس). وفي النهاية تم تقسيم الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام هي:

أ – تولى خلفاء (انطيغونس) مقدونيا وبلاد اليونان.

ب – وتولى (بطليموس) مصر وفلسطين.

ج – وتولى (سلوقس) معظم ما كان يعرف بمملكة الفرس في آسيا، بما فيها العراق القديم. ومن هنا نشأت الدولة السلوقية في العراق منذ عام ٣١١ قبل الميلاد.

ومن الجدير بالذكر، أن الملك الإسكندر المقدوني عندما تولى العرش عام ٣٢٣ قبل الميلاد، لم يترك وريثًا للعرش قادرًا على تسلم زمام الحكم في إمبراطورية مترامية الأطراف، ضمت معظم العالم القديم.

وعندما أشرف الإسكندر المقدوني على الموت سأله أحد كبار رجال الدولة: من تخلف على هذه المملكة الضخمة؟ فأجاب قائلًا: (خليفتي عليكم أجدركم برعاية المُلْك والصراط المستقيم. وأني لأرى وقوع الشقاق والنفاق بينكم فحذار حذار منه)[٥٤]. ومثلما توقَّع فعلًا، عم الاضطراب والصراع الدموي العنيف بين خلفاء الإسكندر المقدوني الثلاثة من الذين تنافسوا على العرش لمدة تزيد عن أربعين عامًا. وبعد إخفاق الجميع في نيل عرش الإمبراطورية، حاول كل منهم الانسلاخ عن جسم الإمبراطورية بالإقليم الذي يحكم فيه.

وعلى ضوء ذلك الصراع الدموي، أسس (بطليموس) مملكة البطالمة في مصر و فلسطين. وأسس (انطيغونس) إقليم بلاد اليونان ومقدونيا. وصارت الأقاليم الشرقية، بما فيها بلاد بابل وآشور من حصة (سلوقس).

ولم تتوطد سلطة (سلوقس) في بلاد بابل إلاَّ في عام ٣١١ قبل الميلاد، والذي أحتسب التاريخ الرسمي للعهد السلوقي في العراق[٥٥]. وكانت المملكة التي أسسها الملك (سلوقس) تعد أهم أجزاء الإمبراطورية التي أسسها الإسكندر المقدوني من حيث المساحة. حيث أنها تمتد من تخوم الهند شرقًا إلى حدود مصر غربًا، ومن البحر الأسود شمالًا إلى الخليج العربي جنوبًا. وضمت بلدانًا وأقاليم متباينة وغير متجانسة، بيد أن بعضها كان ذات حضارة عريقة كبلاد بابل وآشور[٥٦].

وكان الملك (سلوقس) يشغل منصب جنرال في جيش الإسكندر المقدوني. وعرف عنه الطموح، والشجاعة، والمقدرة العسكرية[٥٧].

وعندما آل الأمر في بلاد الرافدين إلى الحكام السلوقيين، فإنهم اضطروا إلى اتباع سياسة مغايرة في حكم مراكزه، التي قصدوا من ورائها احتواء الشعوب التي خضعت لحكمهم. وتعاملوا مع سكانها وأفكارها وحضارتها وعقائدها تعاملًا إيجابيًا بلغ حد اشتراك ملوكهم وحكامهم بالاحتفالات الدينية – الوطنية في مدينة بابل وغيرها من المدن[٥٨]. إضافة إلى إجراءات عديدة اتخذها ملوكهم في الأقاليم الشرقية من النوع الذي هيأ لهم الفرصة للتحرك في منطقة الشرق الأدنى القديم[٥٩].

وقد تضمنت التغيرات التي أجراها السلوقيون ما يأتي:

أ – أصبحت روح التسلط الفردية المباشرة أقل قسوة من تلك التي عرفها أهل العراق لدى الحكام الفرس الأخمينيين.

ب– كما أن المعبد البابلي، كان قد استرد جزءً من هيبته السابقة.

ج – وأصبح علماء اليونان طلابًا لدى علماء بابل وكهنتها.

د – وبذلك انتقلت نواة الفكر العلمي البابلي إلى أوروبا عن طريق الإغريق القدامى. لتصبح أساسًا للعلوم الغربية الحديثة.

ز – وأصبحت بابل ركنًا أساسيًا من أركان الإمبراطورية السلوقية بالرغم من أنها

لم تعد العاصمة. بعد أن أسس الملك (سلوقس) عاصمة جديدة له على أنقاض مدينة (أوبيس) القديمة سميت (سلوقية) نسبة إلى اسمه. وهي المدينة الواقعة على نهر دجلة عند التقائه بنهر ديالى من جهته الشرقية. وسكن في العاصمة الجديدة (سلوقية) ما يقارب (ستمائة ألف نسمة)، بينهم من سكان مدينة بابل المرحلين[٦٠]. وتُسمى أطلالها اليوم (تل عمر) الواقعة على ضفة نهر دجلة الغربية مقابل مدينة (طيسفون – طاق كسرى)، التي تقع على بعد ٣٥ كم جنوب بغداد. واللتان تسميان اليوم كلاهما باسم (المدائن) يفصل بينهما نهر دجلة[٦١]. وأصبحت مقرًا للديوان الملكي[٦٢]، وغدت هذه العاصمة تضاهي مدينة بابل بالثروة والعمران والنفوذ[٦٣]. وكانت تمثل أكبر مدينة في الشرق الأدنى[٦٤].

ويبدو أن الملك (سلوقس) أراد تخريب مدينة بابل من جراء تأسيس العاصمة سلوقية. وهذا ما ذهب إليه القس (أدي شير) بقوله أنه أراد (أن يخرب بابل، ويمحو من أذهان سكانها ذكر الملوك العظام الذين ملكوا فيها. لا بل أنه أبطل كل التواريخ المستعملة عند أجدادنا، وأحرق كل الكتب التي كانت تذكرها. وابتدأوا منذ ذلك الحين يستعملون تاريخ السلوقيين المعروف أيضًا بتاريخ إسكندر وبدؤه سنة ٣١١ قبل المسيح)[٦٥].

وبذلك وجهت إلى مدينة بابل ضربة موجعة من بعد تأسيس العاصمة الجديدة (سلوقية)، وانتقال الدوائر الحكومية والمصالح التجارية إليها، ولا سيما في عهد الملك (انطيوخس الأول)، الذي فرض على الكثير من سكان بابل الانتقال إلى العاصمة الجديدة[٦٦].

ويبدو أن الخوف، كان قد تملك كهنة بابل من قيام مدينة سلوقية؛ لأنها سوف تنافس بابل، وتحتل مركز العاصمة للدولة الجديدة. وحتما سينتقل إليها سكان بابل. وبذلك يحل الخراب في معابدها، ويفقد الكهنة امتيازاتهم وسيطرتهم على العباد[٦٧].

مع ذلك كله، بقيت بابل تمثل العاصمة المقدسة، في مقابل سلوقية التي مثَّلت مركز القوة السياسية والاقتصادية للدولة السلوقية.

ويبدو أن الحقبة السلوقية، كانت أكثر استقرارًا من الحقبة الفارسية الأخمينية في العراق. وذلك للأسباب الآتية:

أ - كانت وجهة نظر الإسكندر المقدوني ومن بعده السلوقيون إلى بابل تشير إلى نوع من الاعتراف بالقيمة الحضارية التي تتمتع بها هذه البلاد العريقة. بينما كانوا يحتسبون الفرس الأخمينيين من البرابرة غير المتحضرين مقارنة مع أهل بابل.

ب- كما أن التسلط الفارسي الأخميني على بلاد الرافدين، اقترن بعبادة غريبة عن التصورات الدينية للعراقيين القدماء. بينما يُلاحظ أن مجمع الآلهة اليوناني (البانثيون) يشبه مجمع الآلهة البابلي. بل أنه اقتبس منه الكثير من صفات الآلهة وقصصها وتسلسلها وواجباتها، مما ساعد على استقرار المعابد، وهدوء كهنتها الذين قدم لهم الغزاة السلوقيون ثمنًا تَمَثَّل بإعادة تعمير المعابد التي هدمها الفرس الأخمينيون(٦٨).

ج - أضف إلى ذلك، كانت الحقبة التي وقع فيها العراق تحت حكم الإسكندر المقدوني ومن بعده حكم السلوقيين، والتي امتدت لأكثر من مائتي عام، ذات أهمية خاصة من الناحية الحضارية. فالمتتبع لتطور الأحداث التي مرت على بلاد الرافدين منذ أقدم العصور التاريخية وحتى غزو الإسكندر المقدوني لبلاد بابل، يلاحظ دون عناء كبير، أن العراق قد تعرض إلى غزو عدد من الأقوام القادمة من المناطق الجبلية وما وراءها شرقًا، كالقبائل الكوتية، والكشية، والحورية وغيرها. كما تعرض لهجرة الأقوام البدوية الجزرية القادمة من الغرب والشمال الغربي. وكانت تلك القبائل كلها، سواء كانت الغازية أم المهاجرة أقل حضارة من سكان بابل وآشور الأصليين. لذلك، وفي أحسن الأحوال، اندمجت تلك القبائل بالسكان المحليين، وعاشت في ظل الحضارة العراقية القائمة في بابل وآشور، ولم تؤثر فيها حضاريًا إلاَّ بقدر محدود(٦٩).

أما غزو الإسكندر المقدوني وخلفائه السلوقيين، فقد ترك آثارًا واضحة على المنطقة

كلهـا، لأنـه كان غـزوًا حضاريًـا. فضلًا عـن كونه غـزوًا سياسـيًا وعسـكريًا. حيث عمل الإسكندر المقدوني وخلفاءه من بعده، على نقل (الحضارة الهيلينية) اليونانية إلى جميع البلدان التـي وقعـت في قبضتهم، بما فيهـا بلاد بابل وآشـور[٧٠]. حيث حاول الإسـكندر المقدوني وخلفاءه السلوقيين، التأثير على بلاد بابل وآشور من خلال خلق مناخ حضاري إغريقي – بابلي تمتزج فيه التقاليد والعادات المحلية مع الحضارة الإغريقية[٧١].

ويبدو أن الإسكندر المقدوني وخلفاءه السلوقيين، قد عملوا على نشر (الثقافة الهيلينية) في بلاد بابل وآشور من خلال ما يأتي:

١ – تأسـيس المدن الجديدة في العراق، أو إعادة تشـييد المدن القديمة على طراز إغريقي حديث. حيث طبق السلوقيون سياسة جديدة مفادها إقامة مناطق (هيلينستية) في قلب الإمبراطورية الشرقية. وجعل المناطق والأقاليم المحيطة بها توابع لها. فأقاموا مدنًـا جديـدة متعددة، لعل أبرزها (مدينة سـلوقية) على نهر دجلة. والتي شـاعت فيهـا الطرز الفنية والمعمارية اليونانيـة[٧٢]. وقد قال عنها (الكرملي) ما يأتي: (كانت سـلوقية تتيه عجبًا بكونهـا مدينة يونانية حديثة الغضارة والنضارة ينشـق منها نور ومدنية جديدة يتدفق متصببًا على أنهار وجنات أرض شنعار)[٧٣].

والراجح، أن تأسـيس المدن الجديدة أو إعادة تشـييد المدن القديمة على طراز يوناني حديث، مثَّل سـببًا أساسـيًا لانتشـار (الثقافة الهلنسـتية) في أرجاء المملكة السلوقية عمومًا، وفي بلاد بابل وآشور خصوصًا[٧٤].

٢ – نشـطت (الثقافـة الهيلينية) لدى الطبقة الحاكمة والمتنفـذة في بلاد بابل. إذ أن الملك (سـلوقس) أبىَ إلاَّ أن يبقى يونانيًا خالصًا. ولذلك أصرَّ على تشـييد مدينة سلوقية على الطراز اليوناني[٧٥]. واشتهر الملك (انطيوخس الرابع) بحماسه في نشر (الثقافة الهيلينية)[٧٦].

٣– وللحفاظ على ثقافتهم الهيلينية، انعزل اليونانيون والسـلوقيون أينما حلوا في مدنهم الخاصـة في بلاد بابل. حيث حاولوا الانعزال عن المدن العراقية القديمة وسـكانها

في مجمعات سكنية خاصة بهم[٧٧]. وتمت إعادة تسمية بعض المدن القديمة واستبدالها بأسماء يونانية مثل سلوقية وغيرها[٧٨]. وقامت تلك المدن بأدوار مهمة في ازدهار (الثقافة الهيلينية) بجميع أوجهها ومقوماتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية. وبذلك برز دور نظام المدينة على غرار ما كان سائدًا في بلاد الإغريق[٧٩].

عليه، يتبين أنه كان هناك صراعًا حضاريًا محتدمًا ما بين (الحضارة الهيلينية) من جهة، وحضارة وادي الرافدين من جهة أخرى. ولم يكن من السهل على (الحضارة الهيلينية) أن تطغى على حضارة وادي الرافدين أو أن تقضي عليها، بيد أنها أثرت فيها، وامتزجت معها. ونتج عن هذا التفاعل ما يُسمى (بالحضارة الهلنستية) أي (الحضارة الشبيهة بالهيلينية).[٨٠] وهي في الواقع، تسمية أوروبية تنُم عن رغبة الأوروبيين في التركيز على تأثير (الحضارة الهيلينية) على الحضارات الشرقية عمومًا، والعراقية خصوصًا.

ويبدو أن مستوى تأثير (الحضارة الهيلينية) على الحضارة العراقية، لم يكن بالعمق الذي تمناه الغرب. إذ أن المُلاحظ، أن تلك الحقبة كانت تعتمد في معظم مقومات حضارتها الأساسية على الأسس الحضارية العراقية، وإن اكتسبت مسحة هيلينية برزت في بعض الطرز المعمارية والفنية. **في حين ظلت بلاد الرافدين تسير وفق الأسس العامة التي سارت عليها في العصور السابقة لغزو الإسكندر المقدوني. وذلك للأسباب الآتية:**

أ – لم يفلح السلوقيون بإسكان مجموعة كبيرة من اليونانيين والمقدونيين في بلاد بابل. مما اضطرهم إلى الاعتماد على سكان بابل الأصليين وعلى مدنهم الكبرى كبابل والوركاء. أما اتجاههم نحو تحويل تلك المدن إلى مدن إغريقية الطراز، فإنه لم يقو على تجاهل المعطيات الحضارية القائمة في بلاد بابل. لذلك دفعوا وفقًا لمبدأ الامتزاج فيها[٨١].

ب– ومن المرجح أن الثقافة الإغريقية التي تلقفتها الطبقة البابلية المثقفة وكهنة بابل، أوجدت الكثير من الاستهجان والشك بالقدر نفسه الذي حظيت فيه بالإعجاب[٨٢].

ج – وفي عهد الملك (انطيوخس الرابع) ظهرت ممالك عراقية صغيرة على طول نهر الفرات كنزعة توكيدية للتمسك بالحضارة العراقية الصرفة. وكانت أهمها (إمارة بيت عديني الكلدية) وكان اسمها (اوزورينة)، والتي حكمها عام ١٣٠ قبل الميلاد ملك عربي اسمه (أبجار)[٨٣].

إن ظهور الإمارات العربية الصغيرة جنوب العراق وعلى ضفاف الخليج العربي، كانت قد مثَّلت بداية لعصر جديد لنمو القوة العربية قبل أن تتحرك على مسرح الأحداث بفاعلية كبيرة بعد الفتح العربي الإسلامي لبلاد الرافدين.

ولعل أهم أسباب فشل الثقافة الهيلينية في بسط هيمنتها على بابل وآشور ما يأتي:

أ – كانت المدن اليونانية الجديدة مبثوثة بثًا في أنحاء البلاد العراقية المختلفة. ولم تمثِّل سوى ظلًا ضئيلًا لحياة أثينا في عهد أفلاطون.

ب– كما أن اختلاف اللغة كانت عاملًا أساسيًا في فشل الثقافة الهيلينية في العراق القديم (أن اللغة لا تجود إلاَّ في أرض مصدرها، ولا تريع إلاَّ فيها. وأما في مستنبتها أو متنقلها فلا تكون إلاَّ عائشة لا نامية)[٨٤]. على حد قول (الكرملي).

وبعد حروب طويلة بين السلوقيين والفرثيين للاستيلاء على بلاد الرافدين. استتب حكم الفرثيين في العراق في حدود عام ١٢٦ قبل الميلاد؛ بسبب الضعف المتزايد الذي حل بالسلوقيين من جراء صراعهم مع روما ومع البطالمة في مصر. وهذا ما سنعرج عليه في المطلب الآتي.

المطلب الثالث
الاحتلال الفارسي الفرثي (١٢٦ ق.م – ٢٢٦م)

ورد ذكر (الفرثيين)، لأول مرة، في الأخبار المنقولة من زمن الملك الأخميني (دارا الأول) (٥٢١ – ٥١٥ ق.م). حيث ذكروا في نقش (بهستون) باسم (بارثاو). ثم اختفت أخبارهم بعد ذلك.[٨٥] وأُطلق عليهم تسمية (الفرثيون) نسبة إلى بلاد (فرثية) المسماة حاليًا

(خراسان)، والتي سكنوها تحت ظل حكومات مختلفة، كان آخرها الدولة السلوقية التي قامت في العراق عام ٣١١ قبل الميلاد[٨٦].

وقد احتسب أغلب الباحثين أن (الفرثيين) قبائل بدوية هندو - أوروبية من الجنس الفارسي الآري. وتدل على ذلك أزياؤهم، وعاداتهم، ولغتهم[٨٧]. بينما انصرف (ستيفن همسلي لونكريك) إلى القول بأنهم مجموعة من القبائل نصف إيرانية. وحدتها أسرة ذات هيمنة وسطوة. فضلًا عن تمتعها بثراء ناجم عن ما تمتلكه من الأراضي الزراعية الخصبة، والمدن التي كانوا قد استحوذوا عليها. ثم اتحد الشعب الفرثي في ظل حكم ملكي بسط نفوذه عبر شمالي فارس. واستوعب المزيد من السكان الإيرانيين الأصليين. واتخذ من مدينة (همدان) عاصمة للحكم[٨٨]. وكان هذا الملك يُدعى (أرشاق الأول) الذي يتمتع بشخصية قيادية ومهارة سياسية جعلته قائدًا للفرثيين. كما أنه احتسب نفسه وريثًا للدولة الفارسية الأخمينية. وقد خلد اسمه كمؤسس لهذه المملكة، ولُقب باسمه جميع الملوك الفرثيين تيمنًا بمؤسس سلالتهم، وتخليدًا لذكراه[٨٩].

وفي ضوء ما ذهب إليه (ستيفن همسلي لونكريك)، لم تحظ الإمبراطورية الفرثية، في ظل حكم سلالة (أرشاق) بقبول الفرس الأصلاء، لأنها لم تكن تمثِّل سوى جماعة اغتصبت السلطة بنظرهم. فضلًا عن كونها تمثِّل جنسًا متوحشًا همجيًا على حد قول (لونكريك)[٩٠]. وعلى الأرجح، أن هذا الرأي صحيحًا، لأن الفرس الساسانيين الذين أطاحوا بالفرثيين كانوا يحتسبون أنفسهم الجنس الآري الأصيل بالمقارنة مع الفرثيين.

وعلى هذا الأساس، ذهب (الكرملي) إلى القول: (لكن الفرس لم ينظروا إلى الفرثيين نظرهم إلى ملوك فرس حقيقيين لما في دمهم من البداوة، وفي أخلاقهم من الفظاظة والعنجهية)[٩١].

وقد نزحت القبائل الفرثية من السهوب الممتدة بين بحر قزوين وبحر آرال[٩٢]، إلى شرقي إيران بحدود منتصف الألف الأول قبل الميلاد. ونجحت في التمركز في إقليم (فرثية - خراسان) في بادئ الأمر. وعندما بدأ الضعف والاضمحلال يسريان في جسد الدولة

السلوقية بحكم انشغالها بالحروب الطاحنة مع الرومان ومع البطالمة في مصر، فإن بعض الأقاليم النائية نجحت في الانسلاخ من حكم الدولة السلوقية. وكان ذلك مشجعًا لتحرك الفرثيين السياسي بحدود عام ٢٥٠ قبل الميلاد بقيادة (أرشاق) الذي تنسب إليه أحيانًا، فتدعى (الدولة الأرشاقية).

ثم نجح الفرثيون في السيطرة على العاصمة سلوقية في العراق بحدود عام ١٢٦ قبل الميلاد. فانتقل الحكم في العراق بموجب ذلك من أيدي السلوقيين إلى أيدي الفرثيين[٩٣].

ولم يرق للفرثيين اتخاذ (مدينة سلوقية) عاصمة لهم، ولم تكن بابل مؤهلة لأن تكون عاصمة لهم؛ بحكم التدمير الذي ألحق بها من جراء الحروب الطاحنة. لذلك شيدوا مدينة جديدة على الضفة اليسرى من نهر دجلة مقابل سلوقية تُسمى (طيسفون) المعروفة (بالمدائن) في أرض طاق كسرى[٩٤].

وقد استمدت الدولة الفرثية قوتها من المعطيات الآتية:

أ – استفادت من مصادر قوة الدولة اليونانية – السلوقية من جهة، ووظفتها في خدمة أهدافها.

ب– كما استفادت من الزرادشتية المجوسية، التي أظهرتهم ممثلين للمسألة القومية الفارسية المقاومة للأوروبيين.

ج – وقد أجاد حكام الدولة الفرثية كونهم أغرابًا عن وادي الرافدين، بابتكار حضارة خليطة مكونة من المقومات البدوية، والإيرانية، والهيلينية. ولم تقم إلاَّ بالقليل لاقتلاع الشواهد الإغريقية أو محوها (كمدينة سلوقية مثلًا). إنما كان ملوكها الأوائل سعداء بتبني الألقاب والأذواق والإجراءات الحكومية الإغريقية.

وقد شهد النصف الثاني من هذه الحقبة تلاشيًا تدريجيًا لهذه المؤثرات. لينمو بدلًا عنها الوعي الذاتي الشرقي ضد الغرب. حيث قبلوا بديانة إيران الزرادشتية، وتكلموا باللهجة البهلوية، التي كانت تستخدم في بلاد فارس القديمة. وأصبحوا في صراع متواصل مع الغرب بالاعتماد على وطنية شرقية جياشة سادت بين طبقتهم الحاكمة[٩٥]. ولذلك تميَّز

العهد الفرثي في العراق بكثرة الحروب، تارة مع السلوقيين، وتارة أخرى مع الرومان والبطالمة[٩٦]. وكان شمال العراق ميدانًا للكثير من المعارك التي نشبت ما بين الفرثيين والرومان[٩٧].

حكمت الدولة الفارسية الفرثية في العراق مدة (٣٥٢) عامًا (١٢٦ ق. م - ٢٢٦م). وغدت الملكية الوراثية نظامًا للحكم فيها، على غرار الحكم الملكي السائد في الشرق برمته. بيد أن الملوكية لم تبق محصورة في أسرة واحدة. إذ يمكن انتقالها من بيت لآخر حسب الظروف والمعطيات[٩٨]. وقد توالى على الحكم فيها (٣٨) ملكًا[٩٩]. وتم تقسيم المملكة إلى ولايات صغيرة. جعلوا لكل واحدة منها أميرًا يحكمها. ويخضع للملك الفارسي الفرثي الجالس على عرش (طيسفون - المدائن)، فأحسن الأمراء إدارتها وتنظيمها[١٠٠].

وكان للزعماء المحليين، وبخاصة رؤساء المناطق والأقاليم دورًا بارزًا في كيان الدولة الجديدة. حيث بقيت للبيوتات الرئيسية وزعمائها المكانة العالية في العهد الجديد. بحيث أنها تمتعت بسلطات متوارثة تقليديًا. لذلك كانت وطأة السيطرة الفارسية الفرثية على الأقاليم التي خضعت لحكمهم، وبخاصة العراق، الذي كان يعد من أهم تلك الأقاليم، أخف كثيرًا من هيمنة الحكومات السابقة[١٠١].

عليه، اتسمت أحوال العراق في العهد الفارسي الفرثي بالشكل الآتي:

أ - استمرت معظم المدن العراقية التي أُسِسَت في العصر السلوقي، في الازدهار والاتساع. وتضاعف العمران فيها كما بينت ذلك التنقيبات الأثرية.

ب- كما أعيدت الحياة للكثير من المدن القديمة التي أُنشأت قبل العهد السلوقي، وتجدد الاستيطان فيها، مثل بابل والوركاء وكيش ونفر.

ج - وأعيد الاستيطان والازدهار في عدة مدن قديمة في الأجزاء الشمالية من العراق. ويمكن القول، أن مدينة آشور القديمة كانت قد شُيدت من جديد تقريبًا. فأصبحت مدينة كبيرة في ذلك العهد.

د - أضف إلى ذلك، تم تجديد معابد الآلهة القديمة في العراق، مثل معبد الإله آشور في

مدينة آشـور، ومعبد الإله نابو في بورسـيا. أما معبد الإله مردوخ في بابل، فلم ينل العنايـة الكافية في تجديده[١٠٢]، ربما بحكـم الرمزية الوطنية التي مثَّلها في الوجدان البابلي القديم.

وبنـاء على ذلك، أخـذ العرب يسـتجمعون قواهم. وظهرت لهم مراكـز حكم قوية في جنوب العراق وشـماله. كذلك واصلت بعض المراكـز العربية الخليجية ازدهارها التجاري والحضاري. وغدت مملكة ميسـان واحدة من المراكـز التجارية المهمة في جنوبي العراق. بل أن أحد ملوكها لقب (ملك العرب). وكان مسـتقلًا في حكم عرب العراق الجنوبيين بعيدًا عن هيمنة الفرثيين.

وشـهدت منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات تجمعًا كبيرًا لقبائل عربية تمركزت بحدود القـرن الأول قبـل الميـلاد حول مدينة الحـضر، التي تحولـت، بمرور الزمـن، إلى دولة قوية نسبيًا بحيث أنها صمدت بوجه الجيوش الرومانية مرارًا. ونشطت على طرق التجارة البرية الواسـعة التي كانت تربط العراق بمناطق الشـام وسـواحل البحر الأبيض المتوسط وشمالي الجزيرة العربية[١٠٣].

وتقـع دولة الحـضر في منخفض بادية جزيرة بـلاد الرافدين بين نهـري دجلة والفرات في منطقـة منعزلة على بعد ١١٠ كم جنوب غربي الموصل على يمين الطريق المؤدية إلى بغداد من الموصل، في وسـط بادية تكاد أن تنعدم فيها الحياة لقلة مياهها وزرعها. ومع ذلك، فقد نشأت دولة الحضر، وازدهرت في ظروف خاصة أملتها طبيعة العلاقات الدولية بين الرومان والفرثيين[١٠٤]. وامتد نفوذها من جبل سنجار شمالًا حتى مشارف المدائن جنوبًا[١٠٥].

وتعد الحضر من الدول العربية الآرامية[١٠٦]. سكانها من العرب الآراميين (الجرامقة)، الذيـن نزحوا إليها بعد سـقوط الدولة الآشـورية عام ٦١٢ قبل الميـلاد. واجتمعت حولهم بعض القبائل العربية، وكوَّنوا دولتهم في ضوء ذلك[١٠٧].

وقد حكمت في دولة الحضر سلالة من أصل عربي كانت تحت نفوذ الفرثيين. ولعل من أبرز ملوكها كان (سـنطروق الثاني) الذي لقب نفسه (ملك العرب)[١٠٨]. وكانت تقاليدها

وعاداتها وعباداتها وآلهتها قريبة الصلة بعرب تدمر والبتراء. كما يقرن بعض الباحثين بين الشكل المعماري للكعبة المشرفة وبين كعبة الحضر، ويرون فيها انعكاسا لأفكار وطقوس عربية مشتركة[١٠٩].

ولم يكن بمقدور العراقيين، وهم مشتتون، ازاحة الحكم الفارسي الفرثي عن كاهل العراق. بخاصة وأن الفرثيين اعتمدوا العراق قاعدة عسكرية رئيسية لتجميع جيوشهم في حروبهم مع الرومان. فضلا عن أن (طيسفون – المدائن) كانت مقرا للحاكم الفرثي قبل اعتمادها عاصمة من الساسانيين[١١٠]. مع ذلك تبلورت بوادر المقاومة الوطنية العراقية ضد الاحتلال الفارسي الفرثي.

ولعل أولى خطوات المقاومة العراقية ضد الاحتلال الفرثي، كانت قد اندلعت في مدينة بابل عندما عين عليها حاكما يدعى (حيميروس)، الذي أساء استخدام السلطة، وباع عددا من البابليين أرقاء في بلاد ميديا، مما خلق تذمرا لدى سكان بابل وسلوقية والمدن الأخرى. فثاروا عليه. وقد ساعدهم في ثورتهم قائد عربي يدعى (يوسف بن ساغد أودوناق) والذي كان ملكا على مدينة (اسكندرية – انطاكيا)، التي تقع على مقربة من رأس الخليج العربي. وقام بتأسيس (مملكة ميسان الكرخ). وحارب (حيميروس) عام ١٢٧ قبل الميلاد، وتمكن من الاستيلاء على بابل، بيد أن (حيميروس) استطاع السيطرة على بابل مجددا، ليعلن نفسه ملكا على بابل لمدة قصيرة.

وقد عاقب (حيميروس) مدينة بابل، وأحرق مجلس الشيوخ وأحد المعابد. كما قام بترحيل السكان المحليين إلى خارجها[١١١]. ولعل اهمال بابل، وعدم تعمير معبد الإله مردوخ، يعزى إلى الثورة التي نهضت بها بابل ضد الاحتلال الفارسي الفرثي.

وعلى العموم، سرعان ما تراجع نفوذ الدولة الفارسية الفرثية. وذلك لأسباب متعددة، لعل أهمها ما يأتي:

١ – لعل الإمبراطورية الفرثية كانت منذ البدء غير متماسكة، وتفتقر إلى قوة وصرامة الفرس الاخمينيين من جهة، وإلى حذاقة الإغريق ومهارتهم من جهة أخرى.

٢- كما عانت الإمبراطورية الفرثية من احتدام الخلافات بين أفراد السلالة الحاكمة من جهة، مثلما عانت من التمردات الداخلية التي أدت إلى انفصال بعض الأقاليم عن السلطة المركزية من جهة أخرى.

٣- كما عانت الإمبراطورية الفرثية من الحروب المتواصلة مع الرومان تارة، ومع البطالمة في مصر تارة أخرى، الأمر الذي أدى إلى توقف طرق التجارة[١١٢]، خصوصًا بعد أن انتزع الرومان سوريا من الدولة الفرثية، وصاروا يطمحون بالاستيلاء على العراق[١١٣]. كما زحفت القبائل البدوية عبر القوقاز، وهاجمت المدن الواقعة تحت السيطرة الفرثية، وخربت الاقطاعيات الزراعية فيها.

٤- أضف إلى ذلك، ساهمت الثورات الساسانية ضد الفرثيين بسقوط الدولة الفرثية. إذ تمكن قائد الساسانيين (أردشير الأول) من إخضاع الحكام المتواجدين في جبال فارس عن طريق استمالة حكامها الصغار. ثم انقض على بلاد وادي الرافدين، فظفر بها عام ٢٢٦م، في عهد الملك الفرثي (أردوان). وذلك في واقعة (هرمز). ولقب نفسه (شاهنشاه) أي (ملك الملوك). وعرفت دولته (بدولة الساسانيين)[١١٤].

وتأسيسًا على ذلك كله، يتبين ما يأتي:

أ- الراجح أن تلك العوامل والمعطيات كلها كانت قد ساهمت بسقوط الدولة الفرثية في العراق.

ب- أنجز أهل العراق في هذا العهد، استقلالًا جزئيًا ومنقوصًا عبر إقامة مملكة الحضر العراقية - العربية، التي تصدت، إلى حد ما، للاحتلال الأجنبي. كما عبروا عن رفضهم للاحتلال عن طريق مقاومة وطنية محدودة.

ج - وأن هذا السقوط، كان قد أفضى إلى ولادة مملكة فتية جديدة تُدعى (المملكة الساسانية)، التي حكمت العراق منذ عام ٢٢٦ م.

وهذا ما سنعرج عليه في المبحث القادم.

المطلب الرابع
الاحتلال الفارسي الساساني (٢٢٦ - ٦٣٧م)

مما تقدَّم، يتبين، أن الحكم الفرثي في العراق، كان قد انتهى عام ٢٢٦ م. ليقع تحت احتلال أجنبي آخر عُرف (بالدولة الساسانية). حيث دخل الملك الساساني (أردشير الأول بن بابك) إلى (طيسفون - المدائن) عاصمة الفرثيين في العراق، بعد أن قضى على الملك الفرثي (أرطبان الخامس). وأعلن نفسه ملكًا على بابل وآشور[١١٥].

ويعد الساسانيون، إحدى القبائل الكبيرة للأقوام الفارسية الآرية، التي استوطنت في إقليم فارس. وقد حافظوا على كثير من التقاليد والمعتقدات التي كانت شائعة في العهد الأخميني. كما أن أمراء هذا الإقليم بقوا محافظين على كثير من جوانب التراث الأخميني، وخاصة أسماء الأشخاص والأعلام. لذلك احتسبوا أنفسهم الورثة الشرعيين للدولة الأخمينية. وكانت مخططاتهم تكمُن في السعي لتحقيق المطامح التوسعية للدولة الأخمينية[١١٦].

وينسب الساسانيون إلى جدهم الأعلى (ساسان)، الذي كان كاهنًا أعلى في معبد آلهة النار (أناهيتا) في مدينة (اصطخر). ثم خلفه ابنه (بابك) في هذه الوظيفة، والذي لعب دورًا مهمًا في تأسيس الدولة الساسانية. لذلك احتسبه المؤرخون المؤسس الحقيقي للسلالة الساسانية[١١٧].

وقد لعب الملك (أردشير بن بابك) حفيد ساسان، دورًا مهمًا في ميدان تطوير أيديولوجية الدولة الساسانية. حيث ظهر في (نقش رستم) راكبًا حصانه، وهو يقف على جسد الملك الفرثي (أرطبان الخامس)، وأمامه الإله (هورامزدا)، ويحمل في يديه الاكليل رمز الملكية، ويقدمه إلى (أردشير). أن هذا النقش ولَّد فكرة لدى عامة الناس مفادها بأن الملك (أردشير) قد تم تعيينه من الإله (هورامزدا). ويحكم إقليم أطلق عليه في النقش (إيرانشهر) أي (عالم الإيرانيين)[١١٨].

ويبدو أن الدولة الفارسية الساسانية، قد اتسمت بما يأتي:

١ - أحيت السلالة الساسانية النزعة القومية الفارسية المتشددة. وذلك من خلال ما يأتي:

أ - عملت على إحياء التراث الفارسي القديم، وخصوصًا إرث الفرس الأخمينيين في ميدان اللغة والسياسة.

ب- كما أحيت الديانة الزرادشتية المعروفة بعدم التسامح الديني والقومي. فضلًا عن قوة تأثير كهنتها. لذلك اتخذت الدولة الساسانية خطوات عدة لقمع المسيحية التي كانت قد انتشرت في أوساط الإمبراطورية الساسانية في ذلك الحين[١١٩].

٢ - ظهرت في عصر الدولة الساسانية، حركات دينية جديدة. لعل أهمها (المانوية)، التي ظهرت في عهد الملك (شابور الأول). وكان مؤسسها (ماني) يُرجح أن أصله من جنوبي العراق. وهي ديانة خليطة من العبادات البابلية القديمة والزرادشتية والمسيحية والبوذية[١٢٠]. وقد انتشرت المانوية في بابل والمدائن[١٢١]. كما ظهرت أيضًا (الحركة المزدكية) في عهد الملك (قباذ الأول)، والتي تعزى إلى مؤسسها (مزدك). وقد تبعها جماهير من الناس، وساندها الملك الساساني في بادئ الأمر. بيد أنه اضطهدها من بعد ذلك، وقضى على مؤسسها. وكانت المزدكية، في جوهرها، مشاعية على غرار الشيوعية[١٢٢].

أضف إلى ذلك، انتشرت الديانة المسيحية في هذا العصر انتشارًا واسعًا في بلاد فارس. وازدهرت مدارسهم وكنائسهم بالرغم من الاضطهاد الذي مارسه الساسانيون ضدهم، وبتحريض من كهنة الزرادشتية المتشددين[١٢٣]. كما انتشرت المسيحية انتشارًا واسعًا في الحيرة والكوفة ونواحيهما قبل الفتح العربي الإسلامي. وأن كثرة الأديرة المبثوثة في هذه المدن دليل على نصرانيتها[١٢٤]. كما عثر الأثريان (رتلنكر، ودايس) على آثار نصرانية عام ١٩٣١ م في أطلال عاصمة اللخميين (الحيرة)[١٢٥].

٣- كما يُلاحظ، استمرار الحروب الكثيرة بين الرومان والساسانيين. وكان شمالي العراق وبلاد بابل مسرحًا لتلك المعارك. حيث عانت تلك البقاع العراقية من التدمير الناجم عن تلك الحروب، علاوة على تدمير مدينة الحضر. ثم تدهورت أحوال العراق في أواخر العصر الساساني. حيث أهملت شؤون الري والسدود.

٤- وفي مقابل ذلك، ازدهرت في هذا العصر مدينة (طيسفون - المدائن)، التي بدأ تأسيسها في العهد الفرثي، لدرجة أصبحت فيها مقرًا للملوك الساسانيين.

٥- كما دون، إبان هذا العصر، (التلمود البابلي) عن طريق مدارس اليهود الكائنة في مدينة بابل[١٢٦].

٦- قامت إبان هذا العصر، مملكة الحيرة العربية التي تقع على نهر الفرات جنوبي الكوفة. وسكانها وملوكها من عرب اليمن الذين عرفوا (بالمناذرة) و(اللخميين)، ويعتنقون الديانة المسيحية. وانتهى حكم سلالتها الحاكمة في عهد ملكها (النعمان الثالث). حيث صار الملوك الساسانيون يتدخلون في شؤونها[١٢٧].

ورغم ما حظيت به الدولة الفارسية الساسانية من قوة، وسعة انتشار، وقسوة في التعامل مع الأقاليم التابعة لها، فإن أهل العراق لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء الاحتلال الفارسي الساساني لبلادهم. إذ أنه إلى الغرب من نهر دجلة في الجنوب الغربي من مدينة الموصل، استقرت أعدادًا من القبائل العراقية - العربية منذ زمن سابق، وأنشأت دولة الحضر. وقد تهيأت الظروف الموضوعية لهذه القبائل للتحرك السياسي المستقل عن هيمنة مراكز الحكم الأجنبية في العراق بحدود الأف الأول قبل الميلاد. إذ أنها تحولت بمرور الزمن إلى مركز عربي أمامي بوجه مطامع الفرس والرومان على حد سواء. وقد اجتمعت حولها القبائل العربية، وأصبحت معابدها وكعبتها محجًا للعديد من هذه القبائل. لذلك اجتمعت في مدينة الحضر مزايا سياسية ودينية، تستندان على شروط اقتصادية متقدمة، لتتظافر كلها لتجعل من مدينة الحضر الهدف الأول للفرس الساسانيين.

وقد نجح سكان الحضر في صد هجومين كبيرين قام بهما الرومان ضدهم. وأجهضت

خططهم التوسعية في العراق. كما وقفت بوجه الأطماع الفارسية الساسانية، وأحبطت محاولة الملك (أردشير) لاحتلال المدينة. وربما أراد الملك (شابور) من تأييده للمانوية احتواء القبائل العربية في العراق، التي أخذت تميل إلى المسيحية كتعبير عن معارضتها لدين الفرس الرسمي (الزرادشتية). وتشير المصادر إلى أن (أمرئ القيس) كان أول من اعتنق المسيحية من آل نصر بن ربيعة حكام الحيرة زمن الملك الساساني (شابور)[١٢٨].

وكان العراقيون ينفرون من حكم الاحتلال الفارسي الساساني. لذلك صمدت مدينة الحضر بوجه حصار الملك شابور الذي دام ما بين ٢ - ٤ سنوات. ولم يدخلها إلاَّ من ثغرة السور عن طريق الخيانة والحيلة، فأجهز على المدينة وسكانها وثروتها. وكانت ضربته لها من الشدة، بحيث عمها الخراب بعد ذلك، وهجرها السكان، وتحولت إلى أنقاض وخرائب[١٢٩].

ثم تعرضت الدولة الساسانية بعد وفاة الملك (شابور الأول) إلى حالة من الضعف والتردي بسبب الخلافات الداخلية، والتي كان مطلعها قتل (ماني) واضطهاد أتباعه. فضلًا عن تعاظم دور كهنة الزرادشتية في إدارة الحكم.

إن تلك الأوضاع، كانت مشجعة للقبائل العربية في العراق وأطرافه للتحرك، وتعويض الخسائر التي الحقها بهم أردشير وشابور. وكانت فرصتهم السانحة في زمن الملك (شابور الثاني) (٣٠٩ - ٣٧٩م) وبخاصة أنه تولى العرش دون سن الرشد. وكانت أمه وصية عليه في شؤون الحكم بمعونة النبلاء والأشراف. لذلك سار جمع كبير من بلاد أياد وناحية بلاد عبد القيس والبحرين وهجر وكاظمة إلى أطراف العراق فكانت لهم الغلبة. وكذلك هجمت جموع كبيرة من القبائل الغسانية، وأغاروا على أرض السواد[١٣٠].

لذلك استهدف الملك شابور عرب العراق، فأوقع بمن في أطراف السواد من بني اياد حتى تركهم كالرميم.ثم سفك دماء كثيرة من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس. ومما يؤكد وحدة المصير العربي منذ القدم، أن أفعال الملك شابور القمعية، لم تقتصر على العراقيين فحسب، إنما امتدت لتطال بقية القبائل العربية في الشام والجزيرة[١٣١].

ورغم كل الإجراءات القمعية التي تعرض لها العراقيون على أيدي الفرس الساسانيون، بيد أن المقاومة الوطنية العراقية سرعان ما نهضت من جديد في (مملكة الحيرة) العراقية، التي أنشأت في القرن الثاني الميلادي إبان ما يعرف (بحكم الطوائف) الذي ساد عصر الفرثيين.

إن سكان الحيرة، كانوا يشكلون تآلفا من ثلاثة مجاميع بشريه هم:[١٣٢]

أ - تنوخ: النازحون من الجزيرة العربية.

ب- عباد: وهم السكان الأصليين من قبائل كلدة.

ج - الأحلاف: وهم عرب مهاجرون نزلوا في المنطقة، وتحالفوا مع تنوخ وعباد.

أن سكانها من العرب الذين انتشرت في أوساطهم الديانة المسيحية منذ الأجيال الأولى[١٣٣].

ويبدو أن العنصر العربي كان سائدًا في الحيرة. وذلك للأسباب الآتية:[١٣٤]

أ - بحكم موقع الحيرة الجغرافي القريب من بادية الشام محط رحال البدو من العشائر والقبائل والأفخاذ العربية.

ب- بحكم أن السلالتين العربيتين اللتين سادتا فيها كانت سلالة (التنوخيين) وسلالة (اللخميين). حيث ذكر في تاريخهما قبائل العرب من (مذحج، وطي، وكلب، وتميم).

وقد حكم الحيرة (٢٥) ملكًا. كان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي أول ملوكها (٢٨٨ - ٣٢٨م)[١٣٥]. ومن أشهر ملوكها (النعمان الأول) (٤٠٠ - ٤١٨م)، الذي ربى الأمير (بهرام جور) الساساني لديه، وساعده على ارتقاء العرش في المدائن فيما بعد[١٣٦]. وكذلك (المنذر بن ماء السماء)، الذي رفض الأخذ بالمزدكية. وقد حاول الحارث الكندي إزاحته عن العرش. ونجح، لمدة قصيرة، لكن المنذر تمكن من استرداد عرشه بعد حين[١٣٧].

وقد حظيت الحيرة بأهمية خاصة، نظرًا إلى وضعها الجيو - سياسي، بوصفها تمثل حاجزًا بين دولتين عظيمتين هما دولة القياصرة في الغرب، ودولة الأكاسرة في الشرق[١٣٨].

كما حاول الملوك الساسانيون أن يجعلوها حاجزًا ما بين أرض السواد العراقية، وأرض الجزيرة العربية. وذلك للأسباب الآتية:[١٣٩]

أ - لأن السياسة الساسانية أدركت خطورة التواصل بين عرب العراق وعرب الجزيرة على وجودهم في وادي الرافدين. لذلك حاولوا إيقاف الاندفاع العربي نحو العراق عبر تأسيس دولة حاجزة بين عرب العراق وعرب الجزيرة. وقد لعبت الحيرة هذا الدور برهة من الزمن.

ب- لأن منطقة السواد الممتدة ما بين دجلة والفرات، تكاد أن تخلو من الوجود الفارسي. لذلك كان الفرس يدركون أن العراق غريب عليهم، وأنهم غزاة.

ج - ترافق ذلك مع تدابير وإجراءات تعسفية لمنع القبائل العربية من الاتصال بسواد العراق. مثل الغارات على القبائل، وردم العيون والآبار.

مع ذلك، فإن الحيرة غدت، على العكس من ذلك، نقطة جذب لقبائل الجزيرة واستقرارها. وقد استمر هذا التواصل بين العراق والجزيرة. واستمر التدفق العربي نحو العراق حتى كان المد العربي الجديد مع الفتح العربي الإسلامي عام ٦٣٧م.

وكان (الملك (النعمان بن المنذر) (٥٨٠ - ٦٠٢م) آخر ملوك اللخميين في الحيرة. وقد شعر هذا الملك بالأوضاع غير الطبيعية التي تمر بها الدولة الساسانية؛ بسبب صراعها مع الرومان، وانقسام الأسرة الحاكمة.

عليه فإنه حاول أن يوظف تلك الظروف من أجل التخلص من الاحتلال الساساني للعراق عبر التمهيد لذلك مع العمق العربي للعراق. وبالشكل الآتي:

١ -عندما شعر أن الملك الساساني (أبرويز)، كان يستخف بالعرب إذا ذُكروا أمامه. فإنه حشد له رجالات من العرب البارزين، ونظم لقاءً ثقافيًا مع (أبرويز) يؤصل فيه للجنس العربي، ويبرز مزاياه.

٢ - عمل على توطيد علاقاته مع جزيرة العرب. حيث كثف من لقاءاته مع حكام

العرب ورموزهم من رؤساء القبائل. إذ التقى مع (أكثم بن صيفي) رئيس حكومة عكاظ، و(حاجب بن زرارة) من تميم. كما التقى (خالد بن جعفر)، و(علقمة بن علاثة)، و(عامر بن طفيل) من عامر بن صعصعة. والتقى (عمرو بن شريد السلمي) من بني سليم، و(عمرو بن معدي كرب الزبيدي) من مذحج، و(الحرث بن ظالم المري). ولابد أن يكون هؤلاء قد شكلوا قاعدة تحالف واسع على أمور كثيرة قد يكون تحرير العراق واحدًا منها.

٣- كما اتخذ من (خالد بن جعفر الكلابي)، و(الربيع بن زياد العبسي) مستشارين له في الحيرة.

٤ كما توطدت علاقته بشعراء عصره العرب مثل (حسان بن ثابت)، و(النابغة الذبياني)، و(المنخل اليشكري)، و(المثقب العبدي)، و(الأسود بن يعفر)، و(حاتم الطائي). مما مهد له أن يكون على صلة بالرأي العام العربي. حيث كان الشعراء من أبرز أدوات التأثير فيه.

٥- وتوطدت علاقاته بمكة خلال تردد رجالاتها على الحيرة في رحلاتهم التجارية. إذ يشار إلى علاقات تجارية مع (عبد الله بن جدعان) و(سهيل بن عمرو). وقد ساهمت هذه العلاقات في تكوين مناخ ثقافي مؤثر في بلاط النعمان، ولابد أيضًا أنهم كانوا ينقلون أخبار لقاءاتهم إلى قبائلهم، ويسهمون في تكوين رأي عام عربي عراقي مشترك في قضايا تتجاوز المكاسب والمفاخر القبلية[١٤٠].

٦- أضف إلى ذلك، كان اعتناق الملك النعمان للمسيحية على المذهب الموحد، قد أوجد مناخًا ثقافيًا - دينيًا جديدًا يتقاطع مع ديانة الساسانيين الزرادشتية من جهة، ويتقاطع مع البيزنطيين الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب المكاني من جهة أخرى.

وفي ضوء ذلك كله، شعر الملك (أبرويز) بخطورة الأوضاع الجديدة في بلاط النعمان. فقرر إقصاءه عن الحكم. فترك النعمان الحيرة والتجأ إلى قبيلة طي الذين رفضوا الوقوف

معه. ولذلك كافأهم الملك (أبرويز) عندما عين (اياس بن قبيصة) ملكًا على الحيرة بدلًا عن النعمان. ثم التجأ النعمان إلى قبيلة بكر بن وائل التي وقفت معه بأكبر قبائلها (بني شيبان) بقيادة هانئ بن مسعود وبني عجل. بيد أن كتيبة عسكرية تابعة للملك أبرويز اعترضت طريقه، وأخذته أسيرًا إلى العاصمة طيسفون حيث قتل.

ويبدو أن هناك أسبابًا سياسية لقتله. حيث ورد في جواب الملك أبرويز إلى ابنه حول سبب مقتل النعمان ما يأتي: (وأما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وإزالتي المُلْك عن آل عمرو بن عدي إلى اياس بن قبيصة، فإن النعمان وأهل بيته واطئوا العرب، وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم. وقد كانت وقعت إليهم في ذلك كتب فقتلته، ووليت الأمر أعرابيًا لا يعقل من ذلك شيئًا)[١٤١].

عليه، يتبين، أن مقتل النعمان كان بسبب تطلعاته التحررية. وتحالفه مع العرب من أجل إزالة الحكم الفارسي عن العراق والبلاد العربية. إذ كانوا عرب الحيرة عمومًا ممتعضين من الحكم الفارسي، وميالين إلى بني قومهم العرب.

وبعد مقتل النعمان، ولى كسرى (اياس بن قبيصة الطائي) على الحيرة، وجعل إلى جانبه رجلًا فارسيًا يُسمى (الهمرجان). وبذلك ارتكب الفرس الساسانيون خطأ بتقويض سلطة اللخميين عن الحيرة ما بعد النعمان[١٤٢].

وكان النعمان قبل اقتياده إلى كسرى، استودع (هانئ بن مسعود بن عامر ابن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان) ماله وأهله[١٤٣]. لذلك أمر كسرى (اياس بن قبيصة) أن يضم ما كان للنعمان، ويرسله إليه. فأرسل اياس إلى هانئ يطلب منه أن يرسل ما استودعه النعمان لديه. فأبى هانئ أن يسلم الأمانة. لذلك غضب عليه كسرى، وعقد النية على أن يستأصل (بكر ابن وائل). فدارت معركة حامية الوطيس ما بين الطرفين في ذي قار، والتي انهزم فيها الفرس بشكل غير متوقع. وأُطلق على هذه المعركة (معركة ذي قار).

وقد عرف العرب هذه الموقعة (يوم ذي قار). وكان لانتصار عرب العراق على الفرس الساسانيين، في هذا اليوم، شكل مفخرة عربية خلدتها الأجيال. وأن النبي محمد ﷺ

عندما بلغه خبر هذا الانتصار قال: (هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي انتصروا)[١٤٤].

وتحظى معركة ذي قار بأهمية كبيرة، من حيث أبعادها الوطنية والقومية. إذ تجرأ عرب العراق على مواجهة الفرس الساسانيين في معركة طاحنة، ساهمت في رفع معنوياتهم. ومع أن عددًا من القبائل العربية، كانت في جانب الفرس، بيد أن شعورهم كان مع العرب. وقد دل على ذلك اصطفاف (بني أياد) مع العرب في اللحظة الحاسمة من المعركة. كما تضامن (بني سكون) وبعض من (بني تميم) مع بكر وشيبان. وربما كان ذلك قد حدث بسبب التواصل المستمر بين عرب العراق وعرب الجزيرة العربية.

حيث وردت إشارات إلى هجرات قبلية عربية إلى العراق حوالي عام ٥٢٠ قبل الميلاد بسبب الوضع السياسي تارة، والوضع الاقتصادي تارة أخرى. حيث سكن أطراف السواد قبائل (اياد، وبكر بن وائل، وتميم، وتغلب، والنمر، وكلب، وقضاعة، وأسد). أما (اياد) فقد نزلت العراق في بداية القرن الثالث الميلادي، واستقرت في الحيرة. أما (بكر بن وائل) فنزلت كاظمة وذي قار، وانتشرت بين الحيرة والأنبار. أما (تميم) فانتشرت في بادية البصرة ولها بطون في بادية الكوفة. أما (قضاعة وكلب) فقد نزلت بين الأنبار وتكريت[١٤٥]. وعلى أثر ذلك، أقصي (اياس بن قبيصة) من حكم الحيرة. إذ احتسبه الفرس الساسانيون مسؤولًا عن الهزيمة بوصفه القائد الأعلى للجيش المحارب فيها[١٤٦].

ويبدو أن اندحار الفرس الساسانيين في (معركة ذي قار)، سهل سبل الفتح العربي الإسلامي لبلاد الرافدين في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. وهذا ما سنعرج عليه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني

العراق في عصر الخلافة العربية – الإسلامية

يمكن تقسيم هذا العصر، الذي مر على العراق، بثلاثة عهود أساسية هي:

أولًا: العراق في عهد الخلافة الراشدة.

ثانيًا: العراق في عهد الخلافة الأموية.

ثالثًا: العراق في عهد الخلافة العباسية.

المطلب الأول

العراق في عهد الخلافة الراشدة (٦٣٢ – ٦٦١م)

اتفق الباحثون والمؤرخون على إطلاق تسمية (الخلافة الراشدة) على أنموذج الحكم الذي تم تأسيسه بعد وفاة النبي محمد ﷺ. والذي امتد من عام (٦٣٢ – ٦٦١م). **وقد تعاقب على الحكم فيه خمسة خلفاء راشدين هم على التوالي:**[١٤٧]

١ – أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢ – عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣– عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤ – علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥ – الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان لقب (خليفة رسول الله) هو اللقب الوحيد المستعمل في مكاتبات الخليفة أبي بكر الصديق، ووثائق الحقبة التي حكم فيها. إذ لم يرد في مكاتباته ووثائق عصره لقب سواه[١٤٨].

وقد اتضحت الطبيعة السياسية لهذا المصطلح من رفض الخليفة أبي بكر الصديق دعوة

الناس له (بخليفة الله) عندما قال: (لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله)[١٤٩]. وفي هذه الكلمات أرسى دعائم نظام حكم جديد يميز ما بين (خليفة الله)، والتي تعني النبوة والرسالة والتبليغ، وهي الأمور التي انتهت بوفاة الرسول محمد ﷺ. ولم يتبق منها سوى الجانب الزمني والسياسي، وهو ما تحمَّله الخليفة أبا بكر الصديق عندما تولى الخلافة الأولى بعد وفاة الرسول محمد ﷺ.

وبذلك، أصبحت الخلافة الراشدة أولى دول الخلافة العربية - الإسلامية التي قامت بعد وفاة الرسول محمد ﷺ عام ٦٣٢ م. وهي دولة الخلافة الوحيدة التي لم يكن الحكم فيها وراثيًا، إنما تأسس على (قاعدة الشورى)[١٥٠]. وهي القاعدة المُستمَدة من القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١٥١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١٥٢].

أولاً: تحرير العراق

منذ أن تولى الخليفة أبا بكر الصديق زمام الخلافة، فإن تحرير العراق من الاحتلال الفارسي الساساني، كان هدفًا مركزيًا في سياسته الجديدة. وذلك للأسباب الآتية:

أ - لأن أرض العراق تعد جزءً من الأرض العربية المحتلة من الفرس الساسانيين. وأن مسئولية تحريرها تقع على عاتق العرب المسلمين.

ب- لأن عرب العراق كانوا قد بدأوا عملياتهم التحررية ضد الفرس الساسانيين منذ وقت مبكر. لعل معركة (ذي قار) تعد أبرز محطاتها.

ج - لأن موقع العراق الاستراتيجي، يحظى بأهمية خاصة للدولة العربية - الإسلامية، باحتسابه قاعدة الانطلاق نحو الشرق برمته[١٥٣].

د - أضف إلى ذلك، أن تراث العراق الحضاري القديم بوصفه مركزًا لإمبراطوريات قديمة لها نظمها السياسية والإدارية، ضاعف من مركزه المتميز في الدولة العربية الإسلامية[١٥٤].

وقد بدأت حملة تحرير العراق عام ٦٣٢ م. ويحتسب (المثنى بن حارثة الشيباني) أول من بدأ بمهاجمة الدولة الساسانية على حدود العراق. وقد اشتبك الطرفان في عدة معارك، كان أهمها (معركة ذي قار) التي انتصر فيها العرب. بيد أن تلك المعارك لم تكن سوى غزوات غير منظمة وعفوية. لذلك لم تكن لها نتائج حاسمة.

وعندما بلغ الخليفة الصديق خبر تحركات (المثنى بن حارثة الشيباني) فقد اهتم به، واستعمله على قومه، وأعانه على قتال الفرس الساسانيين[١٥٥]. وكانت أبرز نشاطاته العسكرية في منطقة الحيرة العربية[١٥٦].

ثم بدأت مقدمات تحرير العراق، عندما عهدت قيادة الجيش العربي - الإسلامي إلى (خالد بن الوليد) في عهد الخليفة (أبي بكر الصديق)، والذي اشتبك مع الفرس، وانتصر عليهم في معركة (ذات السلاسل). ثم تقدم نحو الحيرة، وحررها من الاحتلال الساساني[١٥٧].

وقد انحاز عرب الحيرة إلى خالد بن الوليد في فتحه لأجزاء من العراق عام ٦٣٣م. وقاموا بعمليات عسكرية على طول المنطقة الواقعة غرب الفرات[١٥٨]. ويبدو أن عرب الحيرة، ساعدوا العرب المسلمين في تحرير العراق لأنهم كانوا مناوئين للفرس الساسانيين، خصوصًا منذ اغتيال ملكهم (النعمان بن المنذر) على يد الساسانيين[١٥٩].

ومن الجدير بالذكر، أن حدود مملكة الحيرة العراقية، تمتد من بلاد بابل على الفرات حتى الخليج العربي. وبهذا الموقع الاستراتيجي، ساعدت على إقامة رأس الجسر العربي للفتوحات العربية الإسلامية المندفعة بقوة لتحرير بلاد الرافدين[١٦٠].

وبذلك أتم خالد بن الوليد (المرحلة الأولى) من مراحل تحرير العراق من أيدي الفرس الساسانيين. حيث أنجز تحرير الحيرة، والأنبار. ولم يستكمل تحرير أجزاء العراق الأخرى لأن ظروف الحرب العربية الإسلامية مع الرومان في بلاد الشام، اقتضت تكليفه للالتحاق في جبهة الشام. واستخلف على العراق (المثنى بن حارثة الشيباني)[١٦١].

ثم بدأت المرحلة الثانية من عمليات تحرير العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

حيث أصبحت العمليات العسكرية أكثر تنظيمًا بوصفها خطة كاملة لفتح منظم وليست مناوشات أو غزوات خاطفة. حيث تولى الصحابي (سعد بن أبي وقاص) قيادة الجيش العربي الإسلامي المكلف بتحرير العراق. وذلك لحكمته وشجاعته في الحرب[١٦٢]، والذي تمكن من دحر الفرس الساسانيين في (معركة القادسية) الحاسمة على مدى أربعة أيام ابتداءً من ١٩ شباط ٦٣٦م[١٦٣].

وبعد انتصار القادسية، أصبح الطريق سالكًا أمام العرب المسلمين نحو مدينة المدائن العراقية، والتي اتخذها الفرس الساسانيون عاصمة لهم. حيث تقدموا لفتحها بدون مقاومة. ومن ثَم تم القضاء على الدولة الساسانية بعد معركتي جلولاء ونهاوند. حيث استسلمت المدن الفارسية الواحدة تلو الأخرى. وبذلك هرب آخر الملوك الساسانيين (يزدجرد الثالث) مع حاشيته إلى شرق بلاد إيران. ليتم قتله بالقرب من مدينة مرو عام ٦٥١م. وبذلك انتهى حكم السلالة الساسانية بعد أن دام حكمها أربعة قرون ونيف من الزمان (٢٢٦ - ٦٥١م)[١٦٤].

ومن الجدير بالذكر، أن الخليفة عمر بن الخطاب، كان قد أمر الجيش العربي الإسلامي أن لا يتعدى الحدود الجبلية لبلاد فارس. وذلك لسببين هما:[١٦٥]

أ - لأن بلاد فارس تمثِّل بلادًا غريبة عليهم. حيث تكثر فيها التضاريس والجبال والوديان الوعرة. فضلًا عن مناخها الذي عُرف بشتائه القارص، وثلوجه الكثيرة.

ب- لأن سكان بلاد فارس يختلفون عن سكان الجزيرة العربية من حيث اللغة والثقافة والعادات والتقاليد والدين والعرق.

وبادئ ذي بدء، اتخذ الفاتحون العرب المسلمون من مدينة الحيرة حاضرة لحكمهم. ثم انتقلوا إلى الأنبار. وتعد البصرة أولى المدن العراقية التي بُنيت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ٦٢٩ م. ثم بنى الصحابي سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة في عهد الخليفة نفسه[١٦٦].

وبعد ذلك، اتجهت الخلافة إلى تنظيم شؤون العراق. فأرسل الخليفة عام ١٧ للهجرة

(أبـا موسـى الأشـعري) قائدًا لمنطقة البـصرة. وأصبح (سـعد بن أبي وقاص) قائـدًا لمنطقة الكوفـة. ثـم ولى (هرثمـة بن عرفجـة البارقي) عـلى منطقة الموصـل، والتي جعلهـا قاعدة للحركات العسكرية في الشمال[١٦٧].

وفي هذه الأثناء، كانت الكوفة والبصرة قد مصرتا لتكونا قاعدتين للمقاتلة. فاختصت الكوفة بحد الأراضي من نهاوند جنوبًا إلى الدينور شـمالًا. واختصت البصرة بحد الأراضي من نهاوند إلى مهرجان قذق جنوبًا. وبذلك أصبح المصران (الكوفة والبصرة) مقرًا للإدارة العربية الإسلامية في جهة الشرق[١٦٨].

وعلى هذا الأسـاس، قال هنري فوسـتر (وبذلك أصبح العراق هو النجم الهادي لمركز السلطة)[١٦٩].

ويبـدو أن هنـاك عوامـل عديدة، جعلت العراق دون سـواه، يتحمـل كل ذلك العبء الثقيل من المسؤولية إبان عهد الخلافة الراشدة. لعل أهمها ما يأتي:[١٧٠]

أ – عاش أهل العراق تحت الأخطار المحدقة بشـكل دائم، بسـبب أهمية موقع بلادهم وازدهارها الاقتصادي والحضاري. أن هذه الأخطار أرهفت حسـهم، وشـحذت وعيهـم، وعمقت من إمكانيات الانفتاح لديهم. وبالتالي زادت من إمكانياتهم على تحمل المسـؤولية بحكم الزخم الهائـل من التجارب والخـبرات المتأتية من تاريخهم العميق، وحضارتهم العريقة.

ب– وبما أن العراق بقي مُسـتهدَفًا عبر تاريخه الطويـل، لذلك كان، على الدوام، يعمل على بناء قوته الذاتية المؤثرة من أجل البقاء.

ج – أضـف إلى ذلـك، فإن الخطـر الدائم غالبًـا ما يأتي مـن جهة الـشرق. وأن العديد مـن محـاولات الغـزو جاءت من بـلاد فارس. لذلـك وقع على العراق مسـؤولية الاستعداد الدائم لمواجهة التحديات.

ثانيًا: التحولات الاجتماعية في العراق إبان العصر الراشدي

كان سكان العراق متنوعين في العصر الراشدي، مثلما كانوا في العصر الساساني المتأخر. ويبدو أن الفوارق الأثنية لم تكن عائقًا أمام الاندماج الثقافي أو الإبداع المعتبر. بل لعلها شجعتهما، في الواقع. بيد أن الامتزاج تحقق بكل صورة لدى الأفراد الذين انتزعوا من بيئاتهم الاجتماعية السابقة، واندمجوا كأفراد في مجتمع جديد. وقد حفظت الهويات الجماعية والفروقات الثقافية في العهد الراشدي حين بقيت تلك الجماعات مترابطة كوحدات عسكرية[١٧١].

لذلك قال (ستيفن همسلي لونكريك) كان العراق (بلد لطيف متمازج من الأعراق). وأضاف قائلًا: (وقد استوعب العراق ما تعرض له من عمليات غزو وتسلل)[١٧٢].

وقد حدث بعض التغيير في تركيبة الجماعات التي شكلت هذا الخليط الاثني في العهد الراشدي. لعل أهم هذه التغييرات ما يأتي:

١ - ازداد عدد العرب في العراق خلال القرن السابع بحكم مجيء أعداد كبيرة من العرب قادمين من شبه الجزيرة العربية إلى العراق، وتأسيسهم مراكز حضارية جديدة كمدن أمصار ليستقروا فيها[١٧٣].

٢ - كما تَزايد التنوع الاثني للعراق في القرن السادس بحكم مجيء العديد من الجماعات الاثنية الأصغر، مثل: الكرد، والسريان، واليونان، والترك، والهنود، والأفارقة. وفيما عدا الكرد فقد قدم هؤلاء السكان كعمال أو جنود لكنهم ساهموا في التوليفة الاجتماعية - الثقافية للعراق خلال تلك الحقبة[١٧٤].

٣- كما انتشرت في العراق لغات عدة في تلك الحقبة. فالآرامية انتشرت بين الأوساط الحضرية. والفارسية كانت لغة الخطاب الحكومي والطبقة الحاكمة. والإغريقية كانت لغة الطبقة المثقفة والدور التجارية الأجنبية. إضافة إلى العربية التي سادت بلاد الرافدين بعد الفتح العربي - الإسلامي[١٧٥].

٤- ولم يضاهي التنوع الاثني للعراق في العصر الراشدي شيء سوى تنوعه الديني. إذ كان هناك مجوس (الديانة الزرادشتية)، ويهود، ومسيحيون (نساطرة ومونوفيزيون معًا)، ووثنيون، وغنوصيون، ومندائيون، ومسلمون[١٧٦]. ولعل أبرز التغيرات التي حدثت على المستوى الديني ما يأتي:

أ- كان التغيير الديني الأكبر الذي حدث في العراق، يكمُن في مجيء العرب المسلمين إلى العراق. حيث حلوا محل الفرس المجوس كجماعة حاكمة. ولقد اصطحب هؤلاء العرب المسلمون معهم بأصول شرعهم وعقيدتهم الدينية بصيغة عبادة جماعية، وضمن مكان محدد للعبادة (المسجد). كما جاء العرب المسلمون معهم بفكرة (الجماعة الدينية)، التي استبدلت عرى القرابة بأخوة الإيمان[١٧٧].

ب- وكان أحد أبرز التغيرات التي حدثت في العراق في العصر الراشدي، تمثلت بتشكل بنية اجتماعية وفق خطوط دينية. حيث شكل مجيء العرب المسلمين تحولًا كبيرًا في التنظيم الاجتماعي للعراق. حيث ولَّد هذا التغيير مجتمعًا يتكون من جماعات دينية كانت تمثّل بنى اجتماعية، وتمتلك مؤسسات دينية خاصة بها تتحكم بأمور الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والإرث.

وبالرغم من أن الهوية الدينية أصبحت هي النمط السائد في العراق، بيد أنها تقاطعت أحيانًا مع الهويات الاثنية. حيث تمكنت الهويات الاثنية من البقاء رغم تلك الأجواء الدينية السائدة[١٧٨].

ثالثًا: إدارة العراق في العصر الراشدي

أقام العرب المسلمون، في أول الأمر، في المدائن، بيد أنهم سرعان ما تركوها. وذلك للأسباب الآتية:

أ- لقربها من بلاد فارس، وبعدها عن الحجاز حيث مركز الخلافة.

ب- كما أن العرب المسلمين لم يستسيغوا مناخها الرطب[١٧٩].

ج – أضف إلى ذلك، كان فيها عددًا من أنصار الفرس الذين قد يشكلون عبئًا على دولة الخلافة.

د – كما أنها منطقة منفصلة عن الصحراء بأراضي مغطاة بالمزارع وأشجار النخيل والترع، وهي منطقة كانت موبوءة بالملاريا[١٨٠].

لذلك اختار العرب المسلمون موقع الكوفة واختطوها على غرار البصرة التي بنيت قبلها لتكون مقرًا لحكم الوالي في العراق. وكان المسجد الجامع ودار الإمارة أول أبنيتها[١٨١]. ويبدو أن اختيار الكوفة دون سواها لأنها على طرف الريف ولا يفصلها عن الجزيرة حاجز مائي من جهة؛ ولأن مناخها جاف وملائم لرعي الإبل من جهة أخرى[١٨٢].

أما البصرة، فقد بقيت مقرًا لحكم أميرها. وسرعان ما توسعت، وأصبحت تعادل الكوفة بسعة الرقعة، وكثرة السكان في عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ونظرًا لأهمية العراق المتميزة، فقد كان الخليفة يولي اهتمامًا خاصًا له. ويحرص على اختيار ولاته من أكفأ الإداريين ومن الشخصيات البارزة[١٨٣].

وقد تحولت مسؤوليات ولاة العراق من مسؤوليات (قائد ميداني) إلى مسؤوليات (مسؤول إداري وعسكري) يعين مرؤوسين، ويؤسس قوة لحفظ النظام، ويرسل أفواجًا من القوات نحو الجبهة الشرقية، وللتصدي للخارجين على السلطة[١٨٤]. لذلك اعتمد ولاة العراق في تعزيز سلطانهم على قوات من الحرس والشرطة. وكانت لهم تنظيمات إدارية خاصة، ويتبعون الأمير، ويعملون على تنفيذ أوامره.

وفي كل من البصرة والكوفة، قاض عربي يعينه الأمير لكي ينظر في القضايا التي تُرفع إليه. ويجرى له لقاء عمله أجر سنوي تدفعه الدولة. كما يوجد ديوان يحفظ السجلات المتعلقة بالجبايات والخراج يُسمى (ديوان الخراج)، وآخر يحفظ سجلات المقاتلين يُسمى (ديوان الجند). ويشرف على كل ديوان رئيس له صلاحيات في إدارته[١٨٥].

أضف إلى ذلك، كانت مسؤوليات أمير الكوفة وأمير البصرة تمتد لتشمل تعيين العمال على ما يتبعهم من وحدات إدارية. وكذلك تعيين الولاة على الأقاليم الأخرى التي تقع

خـارج حـدود العراق، والتي كانت تقع ضمن مسـؤوليات العراق الإداريـة، كأقاليم بلاد فارس وأقاليم الخليج العربي. وكان الخلفاء الراشـدون يأخذون بآراء أهل المصرين الكوفة والبصرة في تعيين الأمراء والعمال عليهم وفي عزلهم(١٨٦).

ومن الجدير بالذكر، أن مسؤوليات والي العراق كانت تتسع لتشمل أقاليم أخرى عديدة تقـع خارج حـدوده الجغرافيـة. إذ أن من ولي العراق فقـد ولي البصرة والكوفـة. فكان من اختصاص والي البصرة بلاد فارس، وكرمان، وخراسان، وسجستان واصبهان، والأحواز. أمـا أمـير الكوفة فتُحدد صلاحياتـه في أقاليم بلاد فارس الشـمالية، مثـل قزوين، وزنجان، وطبرستان، وأذربيجان، والري، وقومس، ونهاوند(١٨٧).

وكان العراق مقسمًا إلى اثنتي عشرة وحدة إدارية. تُسمى كل منها (كورة) أو (أستان). ولـكل كورة مركز يقيم فيه عامل مسـؤول عن إدارته وجبايـة أمواله(١٨٨). وربما يكون هذا النظام مستمد من العصر الساساني المتأخر على حد قول (مايكل موروني)(١٨٩)، الذي لاحظ أن هناك استمرارية ما بين العهد الساساني والإدارة العربية – الإسلامية الجديدة في العراق، والتي شخصها بالشكل الآتي:

أ – الدرجة الأكبر من الاستمرارية قد حصلت على مستوى إدارة (الكورة). حيث أبقى العرب المسـلمون على الأسماء الساسانية. لكن حدثت تغييرات في العهد الراشدي المبكر على مسـتوى الوحـدات الإدارية الأكـبر والوحدات الإداريـة الأصغر التي شكلتها الإدارة الجديدة.

ب– كما يمكن أيضًا تلمس الاسـتمرارية (بدرجة الهرمية)، التي اتسمت بها الإدارة في العهد الراشـدي في العراق. حيث أن تلك الإدارة الجديدة كانت شـديدة الهرمية عـلى غرار الإدارة الساسـانية المتأخرة، خاصة في الكوفـة التي توارثت العديد من الوحدات الخاضعة للساسـانيين. بيد أن شـكل الهرمية كان مختلفًا، ومنظمًا بشكل مغاير. وكان خضوعها للكوفة بدلًا من المدائن معاكسًا للتنظيم الساساني.

ج – كـما كانت هناك اسـتمرارية في الاحتفـاظ بالطبيعة العسـكرية للعديد من نواحي

الجبهة، مثل الأنبار، وعين التمر في ظل العرب المسلمين[١٩٠]. كما تطلبت الأوضاع الجديدة للدولة العربية – الإسلامية اتخاذ مراكز جديدة تقام فيها حاميات عسكرية لحماية حدود الدولة، وضمان استتباب الأمن فيها. وبهذا تضاءلت أهمية المدائن والأنبار، وحل محلها مراكز أخرى سرعان ما تطورت إلى مراكز حضرية بارزة، لعل أهمها الكوفة والبصرة[١٩١].

أضف إلى ذلك كله، اتبع العرب المسلمون سياسة جديدة في انعاش المدن العراقية ونموها. حيث تم توحيد أقاليم الشرق الأوسط في إقليم واحد ساد فيه الأمن والنظام، وزالت بين أقاليمه الحواجز والعقبات. وكان العراق من أكثر الأقاليم التي انتفعت من هذه السياسة. إذ أصبح العراق ممرًا للتجارة بين أقاليم المشرق والمغرب من جهة، وبين بلدان المحيط الهندي والشرق الأقصى وبلدان البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى[١٩٢].

رابعًا: فتنة الخلافة وأثرها على العراق

وبعد اغتيال الخليفة عثمان بن عفان في الحجاز سنة ٣٥ للهجرة حدثت فتنة بين المسلمين[١٩٣]، غيرت مجرى التاريخ العربي الإسلامي، وطعنت الوحدة الإسلامية طعنة بالغة الأثر.

ثم جاءت الوفود إلى الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطلبت إليه أن يتولى أمر المسلمين (الخلافة). فحاول أن يتخلص من هذا المسؤولية الكبرى، والتبعة العظمى لما رآه من انفتاح أبواب الفتن مشرعة. بيد أنه لم يتمكن من ذلك، فتمت بيعته في المدينة عام ٦٥٦م من الصحابة جميعًا[١٩٤]. ثم سار إلى العراق فبايعه أهل العراق. ثم نزل الكوفة عام ٦٥٧م، واتخذها عاصمة له[١٩٥]. وبذلك أفضت الفتنة إلى انتقال مركز الخلافة من الحجاز إلى العراق لتقع عليه مسؤولية إدارة أمة كبيرة وإمبراطورية مترامية الأطراف.

ويبدو أن الصراع على السلطة، في نهاية ولاية الخليفة عثمان بن عفان كان قد أخذ طابعًا حادًا ودمويًا. ثم استمر هذا الصراع أثناء خلافة علي بن أبي طالب، لدرجة قال عنها محمد عمارة (بل كانت سنواته صراعًا دمويًا على هذه السلطة)[١٩٦].

وقد بدأ الصراع مع شركاء الشورى من هيئة المهاجرين الأولين (طلحة والزبير)، والذي انتهى (بموقعة الجمل). ثم اندلعت (حرب صفين) مع جيوش معاوية بن أبي سفيان والي الشام، والتي أفضت إلى وقوع (التحكيم)، الذي تسبب بتمرد (الخوارج) على السلطة، مما أدى إلى (موقعة النهروان). ثم تم اغتيال الإمام علي بن أبي طالب من نفر من الخوارج[١٩٧]. التي مثَّلت الثورة المستمرة، والخروج الدائم على السلطة في التاريخ العربي الإسلامي[١٩٨].

ويبدو أن عهد الخلافة الراشدة قد انتهى بواقعتين هما:

أ – اغتيال الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة عام ٦٦١م.

ب– تنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة، التي شغلها حوالي ستة أشهر لصالح (معاوية بن أبي سفيان) وفق شروط اتفق عليها الطرفان[١٩٩]. وبذلك بدأت حقبة جديدة في تاريخ العراق. لعل أهم معالمها انتقال مركز الحكم من العراق (الكوفة) إلى دمشق.

عليه، يمكن أن نخلص إلى ما يأتي:

١ – أن عملية تحرير العراق على يد العرب المسلمين في (معركة القادسية)، كانت قد قلبت موازين النظام الدولي لصالح العرب المسلمين، ليصبحوا القوة الدولية الأولى، خصوصًا بعد الإطاحة بأهم قوتين دوليتين هما (الدولة الساسانية) في الشرق، و(الدولة البيزنطية) في الغرب.

٢ – لعب العراق دورًا محوريًا إبان العهد الراشدي. وذلك من جهتين هما:

أ – أصبح العراق محورًا للحكم الراشدي ليس في العراق فحسب، إنما في البلدان الواقعة شرقًا كلها.

ب– لعب العراق دورًا رئيسيًا في الأحداث التي وقعت إبان العهد الراشدي، وأحيانًا ساهم بصياغتها أو التأثير بها وبأبعادها.

٣- وفي عهد خلافة الإمام علي بن أبي طالب، أصبح العراق مركزًا للخلافة العربية الإسلامية. حيث اتخذ الإمام علي بن أبي طالب من الكوفة عاصمة له.

٤- أن حقبة الاضطراب السياسي والصراع الدموي، الذي ساد العهد الراشدي منذ أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان، مرورًا بخلافة الإمام علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وخلافة الإمام الحسن بن علي القصيرة، كان قد أفضى إلى مسألتين أساسيتين هما:

أ- انتقال مركز الخلافة من الكوفة إلى الشام. وقد انعكس ذلك سلبًا على العراق.

ب- انتقال الخلافة إلى (بني أمية). وهذا ما سوف نعرج عليه في المطلب الآتي. وبيان مدى تأثيره على العراق.

المطلب الثاني
العراق في العهد الأموي (٦٦٢ - ٧٥٨م)

يرجع الأمويون في نسبهم إلى (أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة)، والذي ينتمي إلى قبيلة قريش. وكان للأمويين أدوارًا هامة في العصر الجاهلي وفي العصر الإسلامي على حد سواء[٢٠٠].

وقد تعاقب على الحكم في العهد الأموي ثلاثة عشر خليفة أمويًا. كان أولهم (معاوية بن أبي سفيان)، وآخرهم (مروان بن محمد)[٢٠١].

ويبدو أن عوامل تولي معاوية الخلافة، اكتملت بتنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة. وبذلك تهيأت له أسبابها، فتمت بيعته عام ٤١ للهجرة، وسمي هذا العام (بعام الجماعة)[٢٠٢].

أولا: التحولات الفكرية – السياسية في العهد الأموي

وقد حدثت في العهد الأموي، تحولات فكرية – سياسية جديدة لم تكن مألوفة في العهد الراشدي. لعل أهمها ما يأتي:

١ – فبعد أن كان نظام الحكم في العهد الراشدي، نظامًا قائمًا على (الشورى). وربما يصفه البعض على أنه كان يمثل (نظامًا شبه رئاسي)[٢٠٣]. فإنه أصبح نظامًا ملكيًا صرفًا في عهد معاوية. حيث جعل ابنه (يزيد) وليًا للعهد. وبذلك أدخل فكرة (ولاية العهد) في الأدبيات العربية – الإسلامية لأول مرة[٢٠٤].

٢ – كما أخذ معاوية عن البيزنطيين بعض مظاهر الحكم والإدارة بحكم الاحتكاك بهم أثناء توليه ولاية الشام. إذ جعل الخلافة وراثية، واتخذ عرشًا وحراسًا، وأحاط نفسه بأبهة الملك، وبنى له مقصورة خاصة في المسجد. وكلها ممارسات لم تكن مألوفة في العهد الراشدي، ربما أملتها عليه تطورات الزمن أو جنوحه للاستئثار بالسلطة.

وبذلك ظهرت في عهده نظرية سلطوية أشد تطورًا. وهذا ما عبر عنه والي العراق (زياد بن أبيه) (٦٦٩ – ٦٧٣م) في خطبته الأولى في البصرة عام ٦٦٥ م. إذ أسست هذه الخطبة السلطة الأموية الجديدة على الشرعية الإلهية. حيث بات النظام يُعرف (بسلطان الله)، والقوات العسكرية تُعرف (بجند الله)، ولم تعد الخزانة تُسمى (مال المسلمين)، إنما (مال الله). كما أن (حارثة بن بدر النداني) لقب معاوية (بخليفة الله). وذلك في قصيدة له ألقاها أمام الوالي (زياد بن أبيه)[٢٠٥].

٣– كما ظهرت بعض الممارسات الساسانية في الإمارة العربية – الإسلامية في العهد الأموي في العراق من خلال ما يأتي:[٢٠٦]

أ – أصبح منصب والي العراق يجمع المسؤوليات العسكرية، والسياسية، والمالية، والدينية، على نحو قريب من التصور الساساني عن أنماط الحكم الملكي.

ب- أدخل ولاة العراق العادات الملكية (البلاط الملكي، والحرس الخاص، والحاجب وغيرها).

ج - استخدم ولاة العراق آليات هرمية في الإدارة. حيث تم فصل السلطات على مستوى الولايات فيما يلي منصب الوالي، على غرار الحكم الساساني.

٤- كما أن انتقال مركز الخلافة من الكوفة إلى الشام، كان قد مثل تطورًا سياسيًا مهمًا ربما انعكس سلبًا على العراق[٢٠٧].

٥- وفي عهد الأمويين نفذت كلمة العرب المسلمين في آسيا وأفريقيا وأوروبا. حيث امتدت سلطتهم في آسيا من قفار جبل الطور إلى فلوات ما وراء النهر، ومن وادي كشمير إلى منحدر الطورس على بحر الروم. ووضعوا أيديهم على أنحاء آسيا الصغرى (الأناضول)، وسائر ديار مملكة الأكاسرة. كما فتحوا ما وراء نهري جيجون والسند وبلاد بخارى والصغد، وجعلوها (كورة واحدة). ودان لهم من كان على بحر جرجان من الأهالي (سكان خوارزم). وسيطروا في أوروبا على بلاد الأندلس، وبلدان جنوب فرنسا، وجزيرة قبرص، وجزائر ميورقة، ومنورقة، وأقربطش، ورودس. وسيطروا في شمال أفريقيا على جميع البلاد الممتدة من مضيق جبل طارق إلى برزخ السويس[٢٠٨].

٦- وفي أواسط العهد الأموي، تم تأسيس (مدينة واسط) العراقية، لتكون ثالث مدن العراق الرئيسية بعد الكوفة والبصرة. حيث قام بتأسيسها والي العراق (الحجاج بن يوسف الثقفي) في عهد الخليفة (عبد الملك بن مروان). وذلك لتوسطها ما بين البصرة والكوفة[٢٠٩].

ويبدو أن أسباب تأسيسها كانت راجعة إلى العوامل الآتية:

أ - لأن والي العراق (الحجاج بن يوسف الثقفي) شعر أن أهل الكوفة غير متعاونين معه.

ب- قد يكون تأسيسها راجع إلى موقعها الجغرافي، كونها تشغل موقعًا وسطًا ما بين

الكوفة والبصرة. بحيث يتمكن من خلالها أن يمضي ستة أشهر في الكوفة، ومثلها في البصرة، تحسبا لتمرد إحداهما.

ج - تم تأسيسها أيضًا من أجل زيادة السيطرة الإدارية على العراق. وقد نقل عن (الحجاج) قوله: (أتخذ مدينة بين المصرين، أكون بالقرب منهما، أخاف أن يحدث في إحدى المصرين حدث وأنا في المصر الآخر)[٢١٠]. وهذا يدل على أن هدفه من تأسيس مدينة واسط، كان هدفًا إداريًا وعسكريًا. وقد نقل إليها من وجوه البصرة والكوفة ومن معه من أهل الشام، وأسكنهم فيها، واتخذها مقرًا لولايته على العراق.

٧- أصبحت حدود العراق، في العهد الأموي، أكثر وضوحًا من العهد الراشدي، لأن الفتوحات العربية الإسلامية في العهد الراشدي لم تكن قد توقفت. بل أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يرغب بسواد العراق فقط، ويتمنى أن يكون بينه وبين بلاد فارس جبل من نار، لا يصلون إليه، ولا يصل إليهم. لذلك تم تحديد حدود العراق في العهد الأموي من الشرق حلوان إلى العذيب في الغرب، ومن تكريت في الشمال إلى عبادان في الجنوب. أما القسم الشمالي من العراق المُسمى (بلاد آشور) أو (الجزيرة) فلم يدخل ضمن التحديد الجغرافي للعراق إلاَّ في ولاية (الحجاج بن يوسف الثقفي) على العراق. حيث تمكن من ضم الموصل إلى الكوفة، وولى عليها (إبراهيم الأشتر)[٢١١].

٨- تكثفت عملية تعريب العراق في العهد الأموي بشكل غير مسبوق. فأصبح أهل العراق شعبًا عربيًا مسلمًا بشكل إجمالي منذ ذلك الحين[٢١٢].

ويبدو أن العراق، كان قد تهيأ، خلال هذه الحقبة، ليحتل مركز القيادة للعالم العربي - الإسلامي في العصر العباسي اللاحق. إذ لعب العراق دورًا رئيسيًا بالأحداث والتطورات السياسية والدينية والاجتماعية التي حفل بها العهد الأموي. وكان يمثل المسرح الحقيقي للتاريخ العربي - الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية.

ثانيًا: موقف العراق من الخلافة الأموية:

كان موقف العراق موقفًا مناوئًا للخلافة الأموية، بحكم النزاع الذي اندلع بين العراقيين والأمويين حول مبدأ الخلافة وتأويلاتها الفقهية والسياسية. لذلك تفرقت الأمة إلى فرق وأحزاب (كالشيعة، والخوارج، والمعتزلة، والمرجئة)[٢١٣]. وقد شكل الوضع القلِق والمقاوِم للعراق إرباكًا دائمًا للدولة الأموية، الأمر الذي استوجب القيام بحملات عسكرية في العراق لإخماد التمردات فيه[٢١٤].

وعلى هذا الأساس، أصبح العراق منطقة مضطربة في العصر الأموي كله. حيث اشتعلت فيه الحركات المناهضة للأمويين، لدرجة أنها هددت الدولة الأموية سياسيًا واقتصاديًا. وقد ترتب على ذلك، من وجهة أموية، ما يأتي:

أ - أخذت السلطة الأموية تنظر إلى العراق على أنه منطقة مناوئة، وغير مستقرة، ويتطلب سياسة خاصة.

ب- جعلت السلطة في المنطقة الشرقية كلها بيد والي العراق، الذي بمقدوره أن يعين ولاة أو أمراء على أقاليم الشرق ليكونوا تحت إشرافه المباشر[٢١٥].

ج - تم اختيار ولاة أشداء على العراق، لا يترددون عن استخدام أي وسيلة لقمع التمردات فيه[٢١٦]. إذ أن استعراضًا عابرًا لهؤلاء الولاة يدل دلالة واضحة على ذلك. فقد اختار معاوية (المغير بن شعبة)، ثم (زياد بن أبيه)، ثم أعقبه (عبيد الله بن زياد). وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كان والي العراق (بشر بن مروان)، وأعقبه (الحجاج بن يوسف الثقفي)، ثم أعقبه (يزيد بن المهلب) في عهد سليمان بن عبد الملك. وعين الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه (مسلمة بن عبد الملك)، ثم أعقبه (عمر بن هبيرة)، أما الخليفة هشام بن عبد الملك فقد اختار (خالد بن عبد الله القسري). وكان آخر ولاة العراق هو (يزيد بن عمر بن هبيرة)، في عهد الخليفة محمد بن مروان آخر خلفاء بني أمية[٢١٧].

ولعل أهم الحركات العراقية المناوئة للخلافة الأموية كانت هي:

أ - الحركات العلوية: (٢١٨)

ظل أنصار العلويين في العراق موالين لقضيتهم، ويتحينون الفرصة للتحرك. وقد واتتهم الفرصة الأولى بعد عشر سنوات من حكم الأمويين. حين تحرك (حجر بن عدي الكندي) في الكوفة عام ٦٧١م، ليعرب عن تذمره من الإدارة الأموية في العراق.

ثم تحرك الإمام (الحسين بن علي) بعد أن تولى (يزيد بن معاوية) الخلافة عام ٦٦١م. بيد أن حركته أخفقت في الإطاحة بالحكم الأموي؛ لأنه لم يساندها أنصار العلويين في الكوفة مثلما كان متوقعًا.

ثم تحرك (التوابون) بقيادة (سليمان بن صرد الخزاعي)، بيد أنه قتل في موقعة (عين الوردة) على يد الجيش الأموي عام ٦٨٣م.

ثم قامت حركة (المختار الثقفي) في الكوفة، والتي رفعت شعار (يا لثارات الحسين) عام ٦٨٤م. ورغم أن هذه الحركة تمكنت من إقامة حكومة مؤقتة في الكوفة، بيد أنه لم يكتب لها النجاح في نهاية الأمر.

ثم تحرك (زيد بن علي) في الكوفة عام ٧٣٨م، بيد أن والي العراق الأموي (يوسف بن عمر) تمكن منه. ثم تبعها ثورة (يحيى بن زيد) عام ٧٤٢م، والتي أخفقت أيضًا.

ورغم أن الحركات العلوية المناوئة للخلافة الأموية في العراق، لم تتمكن من الإطاحة بها بيد أنها أضعفت من نفوذها في العراق. وهذا ما سوف يتضح من خلال الثورة العباسية التي أطاحت بالخلافة الأموية انطلاقًا من الكوفة.

ب- حركات الخوارج:

كما نشطت في العراق حركات الخوارج ضد الخلافة الأموية، وهددوا تجارة البصرة، وقطعوا خطوط مواصلاتها مع المشرق الإسلامي. وبذلك أصبح الخوارج خطرًا حقيقيًا يهدد واردات الدولة الأموية واستقرارها. ثم انتشرت حركاتهم في الكوفة وبلاد فارس.

وأعلن الخوارج عدم شرعية الخلافة الأموية لأنها قامت على الغصب. ولذلك أعلنوا وجوب الخروج بحد السيف على السلطة الأموية للإطاحة بها، والعودة إلى الشورى. ومن هذا المُنطلَق قاموا بعدة تمردات مسلحة ضد السلطة الأموية لم تحقق أهدافها[٢١٩].

ثالثًا: إدارة العراق في العصر الأموي

في مطلع الحكم الأموي اتبع خلفاء بني أمية النظام الإداري الراشدي الذي كان معمولًا به في العراق. بيد أن هذا النظام كان لابد، ومع مرور الزمن، أن يتعرض لتغيرات هامة. ولعل أول تغيير أساسي كان جمع المصرين (الكوفة والبصرة) للوالي (زياد بن أبيه) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان عام ٥٠ للهجرة. وكان زياد أول أمير يُجمع له (العراقان). وقد سار معظم الخلفاء الأمويين على هذه الطريقة في إدارة العراق.

وكان الوالي الأموي على العراق، يستقر في أحد المصرين، إما البصرة أو الكوفة، ويعيِّن نائبًا عنه في المصر الآخر، ويخوله أغلب الصلاحيات الإدارية التي يتمتع بها[٢٢٠].

وكان أمراء العراق، في العصر الأموي، يتمتعون بنفوذ قوي في سياسة الدولة الأموية. لذلك كانت مدة ولايتهم طويلة في العادة. فقد حكم (الحجاج بن يوسف الثقفي) عشرين سنة، وقضى (خالد القسري) خمسة عشر سنة واليًا على العراق. وكان يساعد أمير العراق في الإدارة أمراء وعمال يعينون في الأقاليم التابعة له. فضلًا عن رؤساء الدواوين، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة، وكاتب الرسائل[٢٢١].

مع ذلك كله، فإن الخلافة الأموية لم تستمر طويلًا. وذلك لأسباب عديدة منها:

أ - من الناحية الموضوعية، ربما كانت سعة الإمبراطورية الأموية واحدة من أسباب سقوطها. إذ امتلكت الخلافة الأموية أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ، بحيث أنها فاقت إمبراطوريات الأكاسرة والقياصرة.

ب- كما أن قضية الوحدة في أواخر العهد الأموي، كانت قد أصابتها عناصر التفرق والشقاق بشكل عميق جدًا لدرجة أوهنتها كثيرًا[٢٢٢].

ج – أضـف إلى ذلـك، أن موقف العراق المناوئ للخلافة الأموية وما تخلله من ثورات وتمردات، كان قد أضعف السلطة الأموية، وحد من نفوذها إلى حد كبير. ويمكن تفهم ذلك بشكل أوضح إذا ما علمنا أن العراق كان محورًا مهمًا في الدولة الأموية، ومسرحًا لأغلب أحداثها السياسية والدينية والعسكرية.

عليه، لم يكن سقوط الدولة الأموية على يد العلويين من بني العباس، أمرًا خارج حدود التوقع. لتؤسـس على أنقاضها دولـة جديدة أُطلِق عليها (الدولة العباسـية)، التي حكمت العراق ردحًا من الزمن. وهذا ما سنتطرق إليه في المطلب الآتي.

المطلب الثالث
العراق في العصر العباسي (٧٥٠ – ١٢٥٨م)

تمثِّل الدولة العباسية ثالث خلافة عربية – إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات العربية الإسلامية الحاكمة. استولت على الخلافة، وتفردت بالحكم، بعد أن تمكنوا من إزاحة الدولة الأموية، والقضاء على سـلالتهم الحاكمة. بحيث لم ينج منهم إلاَّ مَنْ لجأ إلى الأندلس وكان من ضمنهم (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم).

وقد أسـس الدولة العباسـية رجال من سـلالة (العباس بن عبد المطلـب) أصغر أعمام الرسـول محمـد ﷺ[٢٢٣]. وقد قام في الدولة العباسـية الجديدة (٣٧) خليفـة، أولهم الخليفة (أبو العباس السفاح)، وآخرهم (المستعصم بالله)[٢٢٤]. فيكون الملك والخلافة قد استقامت لبنـي العباس لمـدة (٥٢٤) عامًا. أن هذه السـلالة الطويلة من الخلفاء العباسـيين باسـتثناء الخليفة (أبو العباس السفاح)، منحدرة من أبناء الخليفة (أبو جعفر المنصور).

ولعل أبرز هؤلاء الخلفاء كان (أبو العباس السفاح) بوصفه مؤسس السلالة العباسية الحاكمـة، و(أبـو جعفر المنصـور)، الذي يحتسـبه المؤرخون المؤسـس الحقيقـي للخلافة العباسـية، وبـاني مجدهـا، والـذي كان ذا مكانـة اعتبارية كبـيرة من حيث الثـراء والمجد والمؤهلات لأنه اكتسـب سـلطة سياسية ودينية ناجزة. وقد وصِف بأنه (شخصية مبدعة وكفؤة وحازمة). وكذلك (هارون الرشيد) الذي يُوصف بأنه (البطل الأسطوري المبدع

والقوي الشكيمة). و(المأمون) الذي يُوصف بأنه (المثقف والمستنير فكريًا، راعي العلوم والفنون)[٢٢٥].

وقد احتسب العباسيون سيطرتهم على الكوفة، حدثًا حاسمًا في إنهاء الدولة الأموية. لذلك سارعوا بإعلان دولتهم فيها، وبايعوا (أبي العباس السفاح) أول خليفة عباسي، **والذي اتخذ من الكوفة عاصمة للدولة العباسية. وذلك للأسباب الآتية:**[٢٢٦]

أ – لأن الكوفة تحتسب أكبر مدينة عراقية في حينه.

ب– لأن الكوفة متصلة بمنطقة خصبة كثيفة المزارع، وغنية بالموارد.

ج – كما أنها تعد مركزًا للقوى المعارضة للحكم الأموي لسنوات طويلة.

ولعل من أبرز التطورات الفكرية – السياسية، التي حدثت على أثر مجيء العباسيين للحكم، تكمُن في استقرار الخلافة في أسرة واحدة لمدة تزيد على خمسة قرون من الزمان. ويبدو أن هذه الواقعة ثبتت فكرة (الخلافة في قريش)، حتى أصبحت عقيدة راسخة، ساهمت بتوطيد مكانة العباسيين في الخلافة، وأضعفت، في الوقت نفسه، ذرائع الطامعين فيها، وخاصة من العناصر غير العربية.

وقد احتفظ العراق، في العهد العباسي، بخصائص ميزته عن أقاليم الدولة العباسية كلها. ربما للأسباب الآتية:[٢٢٧]

أ – لأن العراق أكثف الأقاليم زراعة، وأغناها ثروة.

ب– لأن العراق يحتسب مركزًا لحضارات قديمة، ترجع أصولها إلى آلاف السنين.

ج – كما أن للعراق صلات بشرية وحضارية مع أهل الجزيرة العربية، تفوق ما للأقاليم الأخرى بشكل ملموس. حيث استوطن فيه على إثر الفتح العربي – الإسلامي من المقاتلة العرب عددًا يزيد على من استوطن في أي أقاليم أخرى.

د – كما أنجز هؤلاء المقاتلة العرب إنجازات كبيرة. إذ قضوا على الدولة الفارسية الساسانية، ووسعوا حدود الدولة العربية – الإسلامية من جهة الشرق إلى أواسط

آسيا. ثم تجمعوا في سكناهم بعد استقرار الدولة في مصرين كبيرين هما (الكوفة والبصرة). وأبدوا اهتمامًا كبيرًا بشؤون الدولة والإدارة والسياسة. ونشطت بينهم تيارات فكرية وسياسية. وتكونت على أرضهم (الفرق الإسلامية) التي لعبت دورًا كبيرًا في الحياة السياسية في العهد العباسي.

ويمكن تقسيم العصر العباسي، بشكل إجمالي، إلى ثلاثة مراحل أساسية هي:

أولًا: عصر التأسيس (٧٥٨ - ٧٦٢م).

ثانيًا: العصر العباسي الأول (٧٦٢ - ٨٣٣م).

ثالثًا: العصر العباسي الثاني (٨٣٣ - ١٢٥٨م).

أولاً: عصر التأسيس (٧٥٨ - ٧٦٢م):

تبوأ الخليفة (أبو العباس السفاح) الخلافة في مرحلة التأسيس لمدة خمس سنوات. أرسى خلالها دعائم العرش العباسي إرساءً محكمًا. واتخذ من الكوفة عاصمة لحكمه وليس خراسان رغم أنها موطن الدعوة العباسية[٢٢٨]، ربما بسبب نزعته العروبية.

ويبدو أن الخليفة (أبا العباس السفاح) كان مقتنعًا بأن العراق هو الإقليم المناسب لكي يكون مركزًا لخلافته، وموطنًا لأنصاره ومواليه. وذلك لأسباب سياسية واقتصادية. أن هذا الانتقال من خراسان إلى الكوفة قد لاقى صدى إيجابيًا لدى أهل العراق الذين رحبوا بالخلافة العباسية لأول وهلة[٢٢٩].

وقد واجهت الدولة العباسية، في مرحلة التأسيس، عددًا من المشاكل التي لابد من تصفيتها كي تترسخ دعائم الخلافة العباسية. ولعل أولى هذه المشاكل تمثلت بضرورة تصفية بقايا الحكم الأموي، الذي ما يزال على رأسه الخليفة (مروان بن محمد) الممتدة سلطته على الأقاليم الواقعة شمالي العراق، وبلاد الشام، والأقاليم الغربية، وواسط. لذلك تمت مطاردة الخليفة الأموي حتى مصر، حيث أُلقي القبض عليه فيها، وتم قتله. وبذلك انتهت الخلافة الأموية[٢٣٠]، وترسخت بدلًا عنها الخلافة العباسية.

وفي أعقاب تلك التطورات، شعر الخليفة (أبو العباس السفاح) بالأخطار التي تواجهه في مقامه بين أهل الكوفة. لذلك شيد في طرف الكوفة الغربي مدينة جديدة سماها (الهاشمية). وانتقل إليها مع حاشيته وأنصاره. ثم قرر الابتعاد عن الكوفة قليلًا، فنقل مقامه إلى مدينة جديدة شيدها بالقرب من مدينة (أبو هبيرة) شمالي شرقي الكوفة، وسمَّاها أيضًا (الهاشمية). ثم انتقل إلى مدينة (الأنبار)، وشيد فيها مدينة جديدة سماها (الهاشمية) أيضًا، فانتقل إليها، واتخذها مقرًا لخلافته إلى أن توفي عام ٧٦٢ م. كما أقام فيها الخليفة (أبا جعفر المنصور) في مستهل ولايته الخلافة[٢٣١].

ويلاحظ أن الخليفة (أبا العباس السفاح) نقل مركز خلافته في مدن عراقية متعددة، بيد أنه لم يفكر إطلاقًا بنقل خلافته خارج العراق. وذلك لمحورية الموقع العراقي.

ثانيًا: العصر العباسي الأول (٧٦٢ – ٨٣٣م)

تعاقب على الخلافة في العصر العباسي الأول ستة خلفاء أقوياء هم على التوالي (أبو جعفر المنصور، ثم المهدي، ثم الهادي، ثم هارون الرشيد، ثم الأمين، ثم المأمون)[٢٣٢].

وكانت الخلافة في هذا العهد تتمتع بسيطرة تامة، وتحظى بمقام رفيع. وكانت الكلمة العليا والسيادة المطلقة للخليفة، بحيث لا ينازعه فيها منازع. لذلك ثبتت قواعد الدولة العباسية في هذا العهد، وضبطت شؤونها، وعمرت مدنها. وانتشرت فيها العلوم والمعارف. وتم القضاء على كل من ناصبهم العداء. ولهذا يشار إلى هذا العهد (بالعهد الذهبي)[٢٣٣].

ويتفق المؤرخون على أن الخليفة (أبا جعفر المنصور) يُحتسب المؤسِس الحقيقي للخلافة العباسية. وقد دامت خلافته عشرين سنة. استطاع خلالها أن يقضي على الأخطار المحدقة بالدولة العباسية الجديدة. وأن يصفي المتمردين عليها في الشام والعراق. ثم تفرغ لبناء الدولة، وإعمارها. حيث شهد عهده تحولات نوعية في الإدارة والنظم. ونهضت خلال خلافته الاتجاهات العامة لسياسة الدولة العباسية، والتي ميزتها، بشكل واضح، عن الدولة الأموية.

إن تلك الإنجازات ما كان لها أن تتم لولا ما تحلى به من سمات استثنائية حددها (جلال الدين السيوطي) بما يأتي: (كان فحل بني العباس هيبةً، وشجاعةً، وحزمًا، ورأيًا وجبروتًا... كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب... وكان فصيحًا بليغًا مفوهًا خليقًا للإمارة)[٢٣٤].

وقد أدرك الخليفة (المنصور)، أن (هاشمية الأنبار) لم تعد تناسب مقام الخلافة. وذلك للأسباب الآتية:[٢٣٥]

أ - لأن الأنبار تقع في مكان متطرف نسبيًا من المناطق الغنية في العراق.

ب- كما أن موقعها العسكري الأمامي، يجعلها عرضة للهجمات المباغتة من الشمال والشمال الغربي. كما أن المرتفعات في أطرافها تحد من توسعها، وتحد من مساحة الأراضي المزروعة حولها.

ج - ثم أن قِدَم أبنيتها وتركيبة سكانها المكونين من خليط من القبائل، يجعلها غير ملائمة لأن تكون قاعدة الخلافة العباسية، التي يمتد سلطانها على أقاليم مترامية الأطراف.

ومن هذا المنطلق، بدأ يبحث عن مكان آخر ينشئ فيه مقرًا لائقًا بخلافته. وقد عني الخليفة (المنصور)، **وهو يستعرض المواضع المقترحة لإنشاء العاصمة الجديدة بتوفر ثلاثة شروط أساسية فيها، هي:**[٢٣٦]

أ - يجب أن تكون المدينة الجديدة وسط الإمبراطورية العباسية لا في أطرافها.

ب- من الضروري أن تتوفر فيها الشروط الصحية، وأن تكون سليمة من مسببات مرض البرداء (الحمى) الشائع في الشرق الأدنى والأوسط.

ج - يجب أن تكون في منأى عن المدن الكبرى القائمة، لكي تحافظ على عزتها. وأن تكون فيها مواصلات نهرية جيدة.

وقد وقع اختيار الخليفة (المنصور) على موضع بغداد ليكون عاصمة للخلافة العباسية. ووضع بنفسه تخطيط المدينة، التي بدأ العمل فيها عام ٧٦٢ م. وانتهى من نقل شؤون الخلافة إلى بغداد في ٢٠ نيسان ٧٦٣م[٢٣٧].

و أطلق الخليفة (المنصور) على عاصمته الجديدة، التي شيدها بنفسه اسم (دار السلام). وقد رجح بعض الباحثين أن اختيار هذه التسمية جاء لأن نهر دجلة التي تقع عليه المدينة كان يقال لها (وادي السلام). بينما ذهب آخرون إلى القول أنها سُميت (دار السلام) تيمنًا بالجنة، لقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[٢٣٨].

وذهب (ريجارد كوك) إلى القول، أن هذه التسمية تلمح إلى وصف الجنة الواردة في القرآن الكريم. كما أن (دار السلام) نجدها في الشعر العربي بمعنى الجنة. وأنها حسب ما ورد في أدب القرون الوسطى، تمثِّل أحد مواضع الدنيا الأربعة المباركة. وقد أصبحت مفردة (دار السلام) هي التسمية الرسمية للعاصمة، والذي دُوِن على المسكوكات، والموازين، والوثائق، والكتب الرسمية[٢٣٩].

مع ذلك فإن تسمية (دار السلام) لم ترق لعامة الناس. لذلك دأبوا على تسميتها باسم (بغداد) حتى يومنا هذا. وذلك لأسباب عديدة منها:

أ – ربما لأن بغداد لم تكن مدينة جديدة كليًا. إذ كان في موضعها عددًا من مستوطنات النصارى النسطوريين قبل عهد المنصور بكثير. وكان لملوك فارس القدامى بساتين واسعة على مقربة من موضعها الحالي. وفي التاريخ أقوال متواترة تشير إلى أن اختيار (المنصور) لموضع بغداد بالتحديد، قد تم إثر استشارة الرهبان النصارى البلديين الساكنين فيها[٢٤٠].

أضف إلى ذلك، كان هناك قرى قائمة على مقربة من موضع بغداد قبل تأسيسها. وكان اسم إحداهما (بغداد)، والأخرى (الكرخ). ثم اندثر اسمها الرسمي (دار السلام)، وشاع بدلًا عنه اسم القرية الصغيرة المسماة (بغداد). وأصبحت الكرخ من الضواحي الرئيسية فيها[٢٤١]. كما كانت هناك قرية في هذا الموضع قبل بناء المدينة يقال لها (الخطابية). وكان شمال هذه القرية دير يُعرف بدير (بستان القس). وكان صاحب هذا الدير أحد الذين استدعاهم الخليفة المنصور، واستنار برأيهم في معرفة مزايا موضع بغداد الذي يسكنون فيه[٢٤٢].

ب- وربما لأن اسم بغداد من الأسماء القديمة الواردة في الكتابات المسمارية، التي ترجع إلى العصرين البابلي والآشوري. حيث وردت بصيغة (بغداد) و(بغدادي) و(بكدادو). وبعض هذه الكتابات جاء من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. ويتبين منها أنها مدينة قديمة تقع قرب بغداد الحالية، وكانت تعرف بهذا الاسم[٢٤٣].

وعلى هذا الأساس، شاع اسم بغداد على غيره من المسميات الأخرى، بما فيها التسمية الرسمية التي اعتمدها الخليفة المنصور (دار السلام).

وكان اليوم الذي شرع فيه الخليفة المنصور بتشييد المدينة يومًا مشهودًا، حضره الأمراء والوزراء والعلماء والقادة والأعيان. ووضع المنصور بيده أول لبنة في الأرض، وقال: (بسم الله والحمد لله وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين... ابنوا على بركة الله)[٢٤٤].

ويبدو أن ثمة أسباب متعددة، دفعت الخليفة المنصور لاختيار موضع بغداد عاصمة لخلافته. لعل أهمها ما يأتي:

أ - أن اختيار موضع بغداد، يدل على حصافة الخليفة المنصور، بحكم حسن اختيار الموقع وملاءمته لمقام الخلافة العباسية[٢٤٥]. والراجح أن موضع بغداد، كان قد استهوى الخليفة المنصور إبان إقامته في الهاشمية. حيث رأى مكانًا يقع على دجلة يمثل خير ما يحقق القصد الذي يسعى إليه[٢٤٦]. إذ أن شبكة الأنهار، كانت تخترق هذه المنطقة منذ أقدم الأزمنة، جعلت منها بقعة من أجمل البقاع في أرض السواد[٢٤٧]. لذلك يمكن القول، أن المسوغات المناخية والاقتصادية، كانت قد لعبت دورًا مهمًا في اختيار المنصور لموضع بغداد[٢٤٨].

ب- أن من أسباب إقدام الخليفة المنصور على بناء بغداد، واتخاذها عاصمة لحكمه، راجع إلى ضرورة سياسية آنية، وليس إلى مطلب اجتماعي بحت. وذلك لأنه شعر أن كيانه الشخصي، وكيان أسرته غير مرتكزين على أساس قويم. لذلك بنى بغداد لتكون مقرًا للإدارتين المدنية والعسكرية[٢٤٩].

ج – شعر الخليفة المنصور، أن الدولة العباسية بلغت مرحلة متقدمة تقتضي قيام عاصمة فذة تتبنى التقدم الثقافي فيه سريعًا. إذ اعتقد أن المدينة والكوفة والبصرة ودمشق، لم تثبت أي من هذه المدن أنها تصلح لأن تكون بمثابة القلب من إمبراطورية توشك أن تتفتح فيها حياة واعية، وينشط فيها تفكير أصيل. (فالمدينة) تقع على بعد من العالم الكبير، والكوفة والبصرة كانتا تتسمان بطابع من التفكير المحلي. أما دمشق فقد كانت مركزًا للدولة الأموية، وتجري على عرق من الجاهلية. لذلك لا تتسق هذه المدن مع المتطلبات التي يجب أن تتوفر في مركز الحضارة العربية – الإسلامية.

عليه كان تأسيس بغداد قد مثَّل تأسيسًا لعاصمة مركزية، ذات طرق صالحة، ومواصلات نهرية، ومناخ معتدل، وهي محاطة ببقاع خصبة تجود عليها بالمؤن اللازمة. وأصبحت بغداد ميدانا للجدل الحر، الذي تتصارع فيه التيارات الفكرية. وغدت بؤرة رائعة تنبعث منها التجارة العالمية. وأصبحت مركزًا اجتماعيًا طليقًا من كل الارتباطات والعقد المعروفة. وغدت مركزًا متفتحًا حرًا لا يعرف التزمت[٢٥٠].

وبلغت بغداد، في عهد المنصور، ذروة الازدهار السياسي والفكري. فأصبحت موئلًا للعلماء، والنحاة، والأدباء، والشعراء، والمؤرخين، والمفسرين[٢٥١].

ثم أصبحت بغداد في أوج تألقها في عهد الخليفة (هارون الرشيد)، الذي يوصف بأنه (كان من أميز الخلفاء، وأجل ملوك الدنيا)[٢٥٢]. وقال (هنري فوستر) عن بغداد في عهده أنها أصبحت (باصرة الاسلام). حيث القصور، والدوائر، والفنادق، والسرادقات، والمساجد، والكليات، والجواسق، وساحات الألعاب، والأسواق، وأماكن الأنس والبساتين.[٢٥٣] ولذلك (فإن العالم لم ير ما يقارع بغداد في ميدان التجارة، ووفرة الثراء. ذلك لأن بغداد بقيت حوالي خمسمائة سنة، خلال العصور الوسطى، لا تدانيها مدينة أخرى في عدد السكان، والغنى، والنفوذ، وفي المنجزات الفكرية)[٢٥٤].

ومن الجدير بالذكر، أن الخليفة هارون الرشيد، كان قد أعطى ولاية العهد إلى ولديه

(الأمين والمأمون). إذ جعل (للأمين) العراق وأقاليم المشرق كافة. وجعل (للمأمون) أقاليم المغرب. وجعل لكل منهما سلطة مطلقة في الأقاليم التي خصصها له. بحيث لا يحق لأي منهما التدخل في الأقاليم التي تخص أخاه. وأخذ من كلاهما عهدًا بتنفيذ قراره[٢٥٥].

وفي القسم الذي اختص به الأمين، كانت تقع بغداد. وقد أدى الاستقرار في بغداد إلى تقوية الصلات بين سكانها من الذين يعتدون بها، ويتمسكون بها، فحلت (الروح البغدادية) محل الروابط والعصبيات القديمة التي كانت في حوزة من جاء بها. وعندما نشب الخلاف بين الأمين والمأمون، ثم اندلع القتال بينهما، لينتهي إلى مقتل الأمين، وسيطرة المأمون على بغداد، ليكون خليفة للدولة العباسية. وبذلك احتفظت الخلافة العربية – الإسلامية بوحدتها[٢٥٦].

وبلغت نظم الدولة الإدارية ذروتها في عهود الخلفاء العباسيين الأوائل. فكانت السلطة مركزية، وانحصرت أعمال الإدارة بدواوين مركزية في العاصمة، يتبعها دواوين أخرى في الأقاليم. كما اهتم الخلفاء بالموازنة بين موارد الدولة ومصروفاتها في أوجه الخدمات المتعددة في ذلك المجتمع الحضاري المركب.

وفي هذا العصر، فصلت المناطق الشمالية من الجزيرة، وغدت منطقة محصنة للدفاع عن الحدود تحت اسم (الثغور) الجزرية. واهتم الخليفة هارون الرشيد بهذه المنطقة العراقية اهتمامًا بالغًا. حيث أوجد منطقة عسكرية – إدارية محصنة جديدة تُسمى (العواصم). وأسند ولايتها إلى ابنه القاسم. إذ كان الخلفاء العباسيون الأوائل يولون إدارتها إلى رجال موثوق بهم[٢٥٧].

كما ظهر، في هذا العهد، ولأول مرة، منصب (الوزير). وتذكر الروايات التاريخية، بأن الجيش الخراساني الذي دخل الكوفة عام ١٣٢ للهجرة، سلم على نقيب الدعوة العباسية (أبي سلمة الخلال) في الكوفة، والذي سماه (وزير آل محمد). وهكذا ظهر هذا المنصب من الناحية العملية. بيد أن سلطة الوزير لم تكن واضحة. وكان بقاء الوزير يتوقف على بقاء الخليفة. ولعل قوة الاتجاه نحو المركزية تطلب وجود شخص مشرف يعاون الخليفة.

وهكذا بدأت صلاحيات الوزير تنمو من البساطة إلى التعقيد. وكان أول وزير لأول خليفة عباسي (أبو سلمة الخلال).

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد، تبلور المنصب، فقد استوزر الرشيد (يحيى البرمكي)، وأعطاه سلطة واسعة. حيث أشرف على كافة الدواوين. وعهد إليه كذلك بالتوقيع على ما يصدر من ديوان الخراج من كتب، بينما كانت هذه التوقيعات المالية من اختصاص الخليفة وحده[٢٥٨].

ثالثًا: العصر العباسي الثاني (٨٣٣ - ١٢٥٨م)

لقد تعاقب على الخلافة، في العصر العباسي الثاني (٨٣٣ - ١٢٥٨م) ثلاثون خليفة عباسي. كان أولهم الخليفة (المعتصم بالله)، وآخرهم (المستعصم بالله).[٢٥٩] ولعل أهم خصائص هذا العصر، تمثلت (بثنائية الحكم). فتارة يكون (عباسي - تركي)، وتارة يكون (عباسي - بويهي)، وتارة أخرى يكون (عباسي - سلجوقي). حيث كان للخليفة العباسي، خلال هذا العصر، السلطة الدينية دون السلطة الدنيوية.

ويبدو أن ازدهار بغداد، في العصر العباسي الأول، كان قد ترتب عليه ولادة نقاط ضعف أساسية، دبت في جسد الدولة وأضعفتها، وربما أنها مهدت الطريق لظاهرة (ثنائية الحكم) في بغداد خلال هذا العصر. ولعل أهم هذه المعطيات ما يأتي:

١ - أن تعاظم (الخراج)، الذي كان يتدفق على الخليفة في بغداد من البلدان التابعة للدولة العباسية، والذي كان يؤلف نهرًا لا ينقطع من الثروة، كان قد ولَّد ظاهرة (الإسراف) في الإنفاق لدى الطبقة الحاكمة، بما فيها الخليفة نفسه. مما أفضى إلى تصاعد حدة الصراع على السلطة، والذي أفضى، بدوره، إلى (ثنائية الحكم) خلال العصر العباسي الثاني.

٢ - ثم أن السلطة المطلقة، والحياة المرفهة التي كان الخليفة يتمتع بهما، قد جعلتا منصبه جذابًا للطامعين بالحكم. وقد ترتب على ذلك أمران أساسيان هما:

أ – تصاعدت حدة الصراعات السياسية على السلطة، بيد أن مكانة الخليفة المقدسة لدى أتباعها، قد حالت دون سقوط بغداد. وبقي الخليفة يتمتع بالسلطة الدينية دون الدنيوية خلال هذا العصر.

ب– ثم تمت إزاحة المزيد من العناصر العربية عن مراكز الدولة الحساسة، ليحل محلهم عناصر من الترك والفرس[٢٦٠]. حيث استأثرت العناصر التركية والبرامكة بالأموال والوظائف المهمة. وتم حصرها في أقاربهم وأتباعهم[٢٦١].

ويُلاحظ، أنه في مستهل هذا العصر، تنامى نفوذ القادة الترك من الذين اصطفاهم الخليفة (المعتصم بالله) لدرء الأخطار المحدقة بالدولة. وصاروا، رويدا رويدا، يتدخلون، في كل صغيرة وكبيرة، من شؤون الدولة[٢٦٢].

ويبدو أن تقريب الخليفة (المعتصم بالله) للجند الأتراك، وتفضيلهم على سائر الأجناد الأخرى، أدى إلى إثارة استياء بقية الجند في بغداد. وهم الجند الذين قاتلوا مع العباسيين، وثبتوا حكمهم. لذلك أدرك الخليفة المعتصم بالله أن بقاءه في بغداد لن يخفف من استياء أهلها، ولا يحول دون الاحتكاك بالجند الأتراك. وأن استمرار ذلك الوضع، قد يؤدي إلى تفاقم الأمور، وزيادة الأخطار. لذلك قرر أن يتخذ مقرًا جديدًا له ولجنده خارج بغداد، ليكون في وضع يستطيع. من خلاله، القضاء على أي محاولة تمرد قد يقوم بها أهل بغداد ضده.

لهذا انتقلت الخلافة إلى (مدينة سامراء) مدة ستة وخمسين سنة (٨٣٦ – ٨٩٢م). فكانت بداية لانحلال الخلافة العباسية، وتداعي صرحها، خصوصًا أن الخليفة كان تحت رحمة هؤلاء المرتزقة، والذي أفضى نفوذهم المتزايد في شؤون الدولة إلى نكبات متوالية[٢٦٣].

وقد قام الخليفة (المعتصم بالله) باختيار مدينة سامراء بنفسه لتكون مقرًا جديدًا للخلافة العباسية. وذلك للأسباب الآتية:

أ – لعل من العوامل التي حملت الخليفة المعتصم على اختيار سامراء عاصمة له، هي التنبؤات التي سمعها من بعض الرهبان عما سيكون للمدينة التي تنشأ في هذا المكان من مستقبل زاهر.

ب- لأن موقع سامراء لا يبعد كثيرًا عن بغداد، ويقع على نهر دجلة ليؤمن مع بغداد الاتصال السهل الذي يساعد على ازدهار العاصمة الجديدة، ويسهل له السيطرة على أهل بغداد في حالة تمردهم عليه[٢٦٤].

ج - ومهما عدد المؤرخون من أسباب انتقال مركز الخلافة من بغداد إلى سامراء، فإن هناك سببًا واحدًا يمكن احتسابه العامل الأهم، الذي جعل أمر الانتقال حتميًا إلاَّ وهو التصادم المحتمل بين مجموعتين مسلحتين في العاصمة بغداد هما (أهل بغداد من جهة، والجند الترك من جهة أخرى).

فاذا كان البلاط العباسي والمؤسسة العسكرية قد تقبلت الأتراك كعنصر جديد، فإن العاصمة نفسها لم تهضم ذلك أبدًا بحكم الفارق الكبير بين المجموعة القديمة والمجموعة الجديدة في الطباع والثقافة، والاتجاهات، والميول، والعادات، والتقاليد. وهذا الأمر جعل الخليفة المعتصم يدرك بأن البحث عن مركز عسكري وإداري جديد أصبح لابد منه إذا أريد للسلطة المركزية أن تثبت وتستقر. خصوصًا أن (أهل بغداد) لا يمثلون الرعاع أو العامة، إنما هم وحدة عسكرية متميزة تتكون مما لا يقل عن خمسين ألفا من الفرسان والمشاة المسجلين في (ديوان الجند). وتُسمى أحيانًا (جند أهل بغداد)، وكان لهم دورًا بارزًا يعود إلى أيام الحرب الأهلية التي اندلعت بين الأمين والمأمون. ولذلك قرر الخليفة المعتصم أن يبتعد عن جند أهل بغداد ليكون في مأمن منهم من جهة، وليستطيع ضربهم، وكسر شوكتهم إذا تمردوا عليه من جهة أخرى[٢٦٥].

ثم أعاد الخليفة (المعتمد على الله) مقام الخلافة إلى بغداد عام ٨٩٢م[٢٦٦]. وذلك لحمايتها من الأخطار التي مثلتها (حركة العباديين) بقيادة (يعقوب بن الليث)، و(حركة الزنج) بقيادة (علي بن محمد)[٢٦٧]. بيد أنه لم ينه (ثنائية الحكم)، التي بدأت تتصاعد لتصبح أكثر وضوحًا.

وفي حدود أواسط القرن العاشر الميلادي، كان أحد السلاطين البويهيين يحكم بغداد. وبعد حوالي قرن آخر حكم السلاجقة بغداد. مع ذلك ما يزال الخليفة العباسي قائمًا، بيد أنه فقد السلطة الفعلية، وبقيت سلطته رمزية فقط[٢٦٨].

ومن الجدير بالذكر، أن (البويهيين) يرجعون في نسبهم إلى ملوك الفرس الساسانيين. وينحدرون من أعالي جبال الديلم. أما (السلاجقة) فيرجعون إلى قبيلة (قنق) إحدى العشائر المتزعمة لقبائل الغز التركية.

وفي عام ٩٤٥ م دخل (أحمد بن بويه معز الدولة) مدينة بغداد، وظهر اسمه وكنيته على الدنانير والدراهم العباسية[٢٦٩].

واستطاعت الدولة البويهية أن تسيطر على مقاليد الأمور السياسية في العراق عام ٩٤٦م. وبذلك كانت الدولة الأجنبية الأولى التي حكمت العراق إبان العصر العباسي.

وقد استبد البويهيون بالأمر دون الخلفاء العباسيين. فأصبحت الأمور الإدارية والعسكرية والمالية كلها بأيديهم. ولم يعد للخليفة العباسي أي صلاحيات، بحيث لم يعد لديه وزيرًا إنما لديه كاتب يدير اقطاعه فقط. ولم يتبق للخليفة سوى بعض النفوذ في الأمور الدينية كإعلان الجهاد، وإقرار المساجد التي تقام بها الجمعة، وإقامة الصلاة، وإقرار تعيين القضاة. وبذلك استبقى البويهيون الخلافة العباسية بعد أن أفرغوها من أي سلطة فعلية[٢٧٠].

وبذلك يتبين، أن البويهيين كانوا أشد تجريدًا للخليفة من سلطانه. إذ لم يكتفي (أحمد بن بويه البويهي) بالسيطرة الفعلية على الخلافة، إنما أرغم الخليفة (المستكفي بالله) على تفويضه شؤون الحكم في مشهد من الناس عام ٣٦٩ للهجرة[٢٧١].

ويبدو أنهم أبقوا على الخلافة العباسية لا لكونها ضرورية، من وجهة نظرهم، إنما كانوا لا يملكون بديلًا يستطيع أن يحل محل الخليفة العباسي كونهم عناصر أجنبية لا تتوفر بهم شروط الخلافة، خصوصًا (الشرط القرشي)، بينما هذا الشرط متوفر لدى الخلفاء العباسيين. ومن هنا استخدمت العناصر الأجنبية لقب (السلطان) وليس لقب (الخليفة).

وفي عام ١٠٥٥ م دخل (طغرلبك السلجوقي) بغداد واستولى عليها، وأنهى الدور البويهي فيها[٢٧٢].

إن احتلال السلاجقة لبغداد قد ترتب عليه النتائج الآتية:

أ – عندما دخل السلاجقة بغداد، تحسن مركز الخلافة نسبيًا، واستعاد الخلفاء العباسيون بعض الاحترام في الظاهر. ولعل نظرة السلاجقة إلى الخلافة، وشعورهم بقدسيتها، فرض عليهم التأدب في حضرة الخلفاء. بيد أن ذلك لا يعني أن الخلافة العباسية استعادت مكانتها اللائقة أو أن الخلفاء استردوا حريتهم في العمل. إذ كان عليهم أن يكونوا مطيعين للسلاطين السلاجقة[٢٧٣].

ب– أن بغداد لم تعد في العهد السلجوقي قاعدة للحكم العربي – الإسلامي، لأن السلاطين السلاجقة لم يتخذوا منها قاعدة لحكمهم كما فعل البويهيون، إنما تنقلوا بين (مرو، وأصفهان، وهمدان)، وتركوا في بغداد نائبًا عنهم يشرف على تنظيم الإدارة فيها. وينقل رغبات السلاطين إلى الخلفاء أو يراقب الخليفة، ويحصي عليه حركاته واتصالاته[٢٧٤].

وقد نجح الخليفة (المقتفي لأمر الله) في إزالة الكثير من مظاهر النفوذ السلجوقي في العراق. وعمل على إضعافهم وتغذية الخلافات بينهم. كما أنه أخذ بتقوية جيشه حتى أصبح القوة الضاربة في العراق. وأخذ يتعرض لبقايا نفوذهم. وكان حصار السلاجقة لبغداد عام ١١٥٦ م هو آخر العمليات الحربية التي واجهت الخلفاء العباسيين. ونجح الخليفة في رد الهجمات، وانسحب الجيش السلجوقي فجأة، فطارده جيش الخليفة مبعدًا إياه عن العراق.

وبذلك حقق العراق استقلاله من السيطرة الأجنبية، وكف السلاطين السلاجقة أيديهم عنه. إذ لم يعد بمقدورهم أن يستعيدوا نفوذهم السابق. كما أن ظهور (صلاح الدين الأيوبي) و(الدولة الأيوبية)، وإعادة الخطبة للخليفة العباسي في مصر قد ضاعفت من قوة الخلافة، وجعلتها في منأى عن التدخلات الأجنبية[٢٧٥].

وفي عام ١١٨٧ م أمر الخليفة العباسي (الناصر لدين الله) بهدم دار السلطنة السلجوقية، التي كانت مقرًا للسلاطين السلاجقة. وعزم على أن يعزز شؤون الخلافة، ويسترجع السلطة

كليًا من السلاجقة، وبذلك عاد سمو الخلافة وعزتها[٢٧٦]. وعاد الدور المحوري للعراق في العهد العباسي.

وفي هذه الأثناء، اكتسح عاهل المغول (جنكيز خان) ما كان في حوزة الملك السلجوقي من الأماكن والبقاع. وأخذ يتطلع إلى ما في يد الخليفة العباسي من البلاد، بيد أن وفاته حالت دون تحقيق أطماعه. ثم تمكن حفيده (هولاكو) من اجتياح بغداد عام ١٢٥٨م، ونجح في تقويض أركان الدولة العباسية في عهد الخليفة (المستعصم بالله)[٢٧٧]. وبذلك وقع العراق مرة أخرى تحت وطأة الاحتلال الأجنبي الجديد. وهذا ما سنتطرق إليه في المحور الآتي.

هوامش الفصل السابع

(١) محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، مج ١، دار الراية البيضاء، بيروت ١٩٢٥، ص ١٣.
(٢) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٢١٥.
(٤) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧، ص ٢٤٥.
(٥) محمد طاهر العمري الموصلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤.
(٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٣.
(٧) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠. مؤيد سعيد، العراق خلال الاحتلال الأخميني - السلوقي - الفرثي - الساساني، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٦. صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧.
(٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢.
(٩) سامي سعيد الأحمد، الصراع خلال الألف الأول قبل الميلاد، ضمن كتاب (الصراع العراقي الفارسي)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣، ص ٨٣.
(١٠) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩، ص ٢٥.
(١١) أمر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(١٢) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤ - ٥٥.
(١٣) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.
(١٤) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.
(١٥) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.
(١٦) مجموعة باحثين، تاريخ العراق القديم والحديث، بغداد ١٩٩٩، ص ٤٥.
(١٧) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢، ص ٣٦.
(١٨) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣.
(١٩) حول تلك الحيلة، انظر: المصدر السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩.
(٢٠) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧.
(٢١) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٩.
(٢٢) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، بغداد ١٩٨٦، ص ٥٤٦.
(٢٣) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(٢٤) جورج رو، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٦.
(٢٥) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٩. رضا جواد الهاشمي، الصراع في زمن الفرثيين والساسانيين، ضمن كتاب: (الصراع العراقي الفارسي)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣، ص ٨٤. طه باقر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٥.

(٢٦) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.
(٢٧) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٤.
(٢٨) جي. أي. برنكمان، ملحق كتاب: ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٥.
(٢٩) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٥.
(٣٠) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٣١) جورج رو، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٤.
(٣٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٤.
(٣٣) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.
(٣٤) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.
(٣٥) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٥.
(٣٦) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.
(٣٧) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(٣٨) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٦ - ١٧.
(٣٩) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(٤٠) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٨.
(٤١) المصدر السابق، ص ٥٨٧ - ٥٨٨.
(٤٢) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.
(٤٣) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٥.
(٤٤) طه باقر، مقدمة، ص ٥٨٨.
(٤٥) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٤٦) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.
(٤٧) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(٤٨) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٤٩) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢.
(٥٠) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.
(٥١) المصدر السابق، ص ٥٩ - ٦٠.
(٥٢) سامي سعيد الأحمد، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣.
(٥٣) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
(٥٤) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.
(٥٥) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٢.
(٥٦) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧.
(٥٧) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٩.
(٥٨) سامي سعيد الأحمد، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣.

(٥٩) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨.
(٦٠) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٨.
(٦١) أحمد سوسة، مفصل العرب، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤٢.
(٦٢) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٥.
(٦٣) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(٦٤) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٧.
(٦٥) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
(٦٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٤.
(٦٧) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠.
(٦٨) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.
(٦٩) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٨.
(٧٠) المصدر السابق، ص ٢٦٩.
(٧١) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤.
(٧٢) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.
(٧٣) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧ - ٦٨.
(٧٤) المصدر السابق، ص ٦٧.
(٧٥) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٩.
(٧٦) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٥.
(٧٧) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٣.
(٧٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٦.
(٧٩) المصدر السابق، ص ٥٩٧.
(٨٠) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.
(٨١) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.
(٨٢) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.
(٨٣) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١.
(٨٤) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(٨٥) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
(٨٦) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ٧.
(٨٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٩. عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣. صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٨. عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧. عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧١. مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.
(٨٨) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨ - ٤٩.
(٨٩) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣١.

(٩٠) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨ - ٤٩.
(٩١) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.
(٩٢) المصدر السابق، ص ٦٩.
(٩٣) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.
(٩٤) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.
(٩٥) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.
(٩٦) للتفصيل حول تلك الحروب، انظر: أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢ - ٢١٧.
(٩٧) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠١.
(٩٨) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣ - ١٩٤.
(٩٩) جي. أي. برونكلن، ملحق: ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٧ - ٤٣٨.
(١٠٠) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.
(١٠١) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.
(١٠٢) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٥ - ٦٠٦.
(١٠٣) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.
(١٠٤) عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣.
(١٠٥) مجموعة باحثين، تاريخ العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.
(١٠٦) جي. أي. برونكلن، ملحق ليو وينهايم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٢.
(١٠٧) أحمد سوسة، مفصل العرب، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢٤.
(١٠٨) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٠.
(١٠٩) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.
(١١٠) المصدر السابق، ص ٩٧.
(١١١) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦.
(١١٢) حول الحروب الفرثية مع الرومان والبطالمة، انظر: صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص٣٧٢ - ٣٨١.
(١١٣) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.
(١١٤) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧.
(١١٥) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٤.
(١١٦) عبد العزيز الياس الحمداني، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٧.
(١١٧) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩. عامر سليمان، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٥.
(١١٨) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٦.
(١١٩) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.
(١٢٠) صلاح رشيد الصالحي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.
(١٢١) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠.

(١٢٢) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٩ - ٦١٠.
(١٢٣) يوسف رزق الله غنيمة، مصدر سبق ذكره، ص٥.
(١٢٤) المصدر السابق، ص ٤١.
(١٢٥) لمزيد من التفصيل، انظر: المصدر السابق، ص ٤٩ - ٥٣.
(١٢٦) المصدر السابق، ص ٤ - ٥.
(١٢٧) لمزيد من التفصيل، انظر: المصدر السابق، ص ١٠ - ١٥.
(١٢٨) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢ - ١٠٣.
(١٢٩) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ط٢، دار المعارف، مصر (د. ت)، ص ٤٨.
(١٣٠) الدينوري (أبو حنيفة)، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٨.
(١٣١) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٦.
(١٣٢) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣.
(١٣٣) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥.
(١٣٤) يوسف رزق الله غنيمة، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.
(١٣٥) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣.
(١٣٦) أدي شير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٦.
(١٣٧) لمزيد من التفصيل، انظر: يوسف رزق الله غنيمة، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠ - ٢١٧.
(١٣٨) المصدر السابق، ص ١.
(١٣٩) فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية - الإسلامية، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٨، ص ١٠.
(١٤٠) مؤيد سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٤ - ٢٦٦.
(١٤١) الدينوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٧، ص ١٠٩.
(١٤٢) يوسف رزق الله غنيمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٦.
(١٤٣) المصدر السابق، ص ٢١٣.
(١٤٤) المصدر السابق، ص ٢١٨.
(١٤٥) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(١٤٦) توفيق برو، تاريخ العرب القديم، ط ٢، دار الفكر المعاصر، دمشق ١٩٩٦، ص ٢٢٨.
(١٤٧) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٤، ص ٤٠.
(١٤٨) للتفصيل انظر: محمد حميد الله الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٥٩ - ٣٥٦.
(١٤٩) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٥.
(١٥٠) للتفصيل انظر: محمد عمارة، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤، ص ٥١ - ٦٦.
(١٥١) سورة الشورى: أية ٣٨.

(١٥٢) سورة آل عمران: آية ١٥٩.
(١٥٣) عبد الرحمن العاني، حسن فاضل زعين، العداء الفارسي في عصر الرسالة الإسلامية والخلفاء الراشدين، ضمن كتاب: الصراع العراقي الفارسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.
(١٥٤) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤.
(١٥٥) عبد الرحمن العاني، العداء الفارسي، مصدر سبق ذكره، ١٣٥.
(١٥٦) نزار عبد اللطيف الحديثي، تحرير العراق، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٤.
(١٥٧) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ - ١٤.
(١٥٨) طه باقر، مقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٦١١.
(١٥٩) يوسف رزق الله غنيمة، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢.
(١٦٠) مؤيد سعيد، العراق خلال عصور الاحتلال، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ٢٦٣.
(١٦١) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤.
(١٦٢) رضا جواد الهاشمي، الصراع، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠.
(١٦٣) نزار عبد اللطيف الحديثي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٧.
(١٦٤) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢، ص ٣٧٧.
(١٦٥) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.
(١٦٦) محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج ١، دار الراية البيضاء، بيروت ١٩٢٥، ص ١٢.
(١٦٧) نزار عبد اللطيف الحديثي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٨.
(١٦٨) المصدر السابق، ص ٣٢٠.
(١٦٩) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦.
(١٧٠) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٧ - ٨.
(١٧١) مايكل. ج. موروني، العراق بعد الفتح الإسلامي، ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد، دار الرافدين بغداد - بيروت، ٢٠١٩، ص ٣١٩.
(١٧٢) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
(١٧٣) حول تلك الهجرات العربية وأنماط الاستيطان الحضري في الكوفة والبصرة والموصل انظر: مايكل. ج. موروني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٨ - ٢٩٧.
(١٧٤) حول تلك الجماعات الاثنية انظر: المصدر السابق، ص ٣١١٠ - ٣٢٠.
(١٧٥) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
(176) F. Barth, Ethnic Groups an Boundarles, Boston 1970, p. 9 - 17.
(١٧٧) حول دور الإسلام في تشكل مفهوم الجماعة الدينية انظر: مايكل. ج. موروني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٨ - ٥٢٤.

(178) F. Barth, op. cit, p. 17.

(١٧٩) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
(١٨٠) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٠.
(١٨١) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
(١٨٢) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٠.
(١٨٣) المصدر السابق، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.
(١٨٤) مايكل. ج. موروني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧ - ٥٨.
(١٨٥) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٥ - ٣٢٧.
(١٨٦) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
(١٨٧) المصدر السابق، ص ٢١ - ٢٢.
(١٨٨) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٤.
(١٨٩) مايكل. ج. موروني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩ - ١٦٠.
(١٩٠) المصدر السابق، ص ٢٠٠.
(١٩١) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.
(١٩٢) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٨.
(١٩٣) جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤ - ١٩٠.
(١٩٤) المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(١٩٥) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي، ج ١، ط ٧، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩، ص ٢٩.
(١٩٦) محمد عمارة، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.
(١٩٧) جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٢ - ٢٠٤.
(١٩٨) محمد عمارة، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.
(١٩٩) جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧ - ٢١٨.
(٢٠٠) حول الجذور التاريخية للأسرة الأموية، انظر: علي محمد الصلابي، الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ج ١، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٨، ص ٢١ - ٢٧.
(٢٠١) جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢١.
(٢٠٢) علي محمد الصلابي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.
(٢٠٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩.
(٢٠٤) للتفصيل انظر: وجيه لطفي طالب ذوقان، ولاية العهد في العصر الأموي، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى جامعة النجاح - كلية الدراسات العليا، نابلس ٢٠٠٥، ص ٤٤ - ٧٧.
(٢٠٥) مايكل. ج. موروني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.
(٢٠٦) للتفصيل انظر: المصدر السابق، ص ٥٧ - ١٢٥.
(٢٠٧) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٢.
(٢٠٨) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.
(٢٠٩) محمد طاهر العمري الموصلي، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.

(٢١٠) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣ - ٤٤.
(٢١١) ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٥، ص ١٩ - ٢٠.
(٢١٢) حول تعريب العراق في العصر الأموي انظر: المصدر السابق، ص ٨٨ - ١٣٣.
(٢١٣) المصدر السابق، ص ٥.
(٢١٤) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠ - ٦١.
(٢١٥) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ٢٣.
(٢١٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، مصدر سبق ذكره، ٢٩.
(٢١٧) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤- ٤٥.
(٢١٨) حول الحركات العلوية انظر: مريم رزوقي وليد عباس، الثورات العلوية، منشورات العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء ٢٠١٧، ص ١٩ - ٢٠٢.
(٢١٩) للتفصيل حول تمردات الخوارج انظر: محمد عمارة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥ - ١٤٨.
(٢٢٠) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣.
(٢٢١) صالح أحمد العلي، إدارة العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٣.
(٢٢٢) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦ - ٣٧.
(٢٢٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠. انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(٢٢٤) حول هؤلاء الخلفاء انظر: باقر أمين الورد، بغداد: خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها. دار التربية، بغداد ١٩٨٤، ص ١٩ - ٧٤. جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧ - ٤٩٩. انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧ - ١٦٨.
(٢٢٥) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.
(٢٢٦) صالح أحمد العلي، بغداد تأسيسها ونموها، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٣.
(٢٢٧) صالح أحمد العلي، العراق مقر الخلافة العباسية، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ٣٦٣.
(٢٢٨) ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.
(٢٢٩) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.
(٢٣٠) صالح أحمد العلي، العراق مقر الخلافة العباسية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٧.
(٢٣١) صالح أحمد العلي، بغداد تأسيسها ونموها، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.
(٢٣٢) حول هؤلاء الخلفاء انظر: جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣ - ٣٦٣. باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣ - ٢٨. انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩ - ١١٥.
(٢٣٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٢٣٤) جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣.
(٢٣٥) صالح أحمد العلي، بغداد تأسيسها ونموها، مصدر سبق ذكره، ٣٧٤.
(٢٣٦) ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: فؤاد جميل، مصطفى جواد، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٤، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢٣٧) باقر أمين الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٩، ص ١١.
(٢٣٨) سورة يونس: آية ٢٥.
(٢٣٩) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢.
(٢٤٠) المصدر السابق، ص ١٧.
(٢٤١) المصدر السابق، ص ٧.
(٢٤٢) راسم الجميلي، البغداديون، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣. ص ٩ - ١٠.
(٢٤٣) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٢٤٤) راسم الجميلي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.
(٢٤٥) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
(٢٤٦) المصدر السابق، ص ٢٩.
(٢٤٧) راسم الجميلي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(٢٤٨) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.
(٢٤٩) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.
(٢٥٠) المصدر السابق، ص ٢٢ - ٢٣.
(٢٥١) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
(٢٥٢) جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٧.
(٢٥٣) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٤١ - ٤٢.
(٢٥٤) المصدر السابق، ص ٣٩ - ٤٠.
(٢٥٥) صالح أحمد العلي، سر من رأى مركزًا للخلافة، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٣.
(٢٥٦) صالح أحمد العلي، الخليفة الأمين يواجه التحدي، ضمن كتاب: العراق في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٧ - ٤٠٨.
(٢٥٧) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩ - ١٨٠.
(٢٥٨) المصدر السابق، ص ١٨٠ - ١٨٢.
(٢٥٩) حول هؤلاء الخلفاء انظر: جلال الدين السيوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٤ - ٥٠٧. باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٣١ - ٧٤. انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦ - ١٤٤.
(٢٦٠) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥ - ٤٦.
(٢٦١) عبد المنعم رشاد محمد، الأبعاد السياسية للصراع العراقي - الفارسي في العصر العباسي، ضمن كتاب: الصراع العراقي الفارسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣.
(٢٦٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، ص ٣٠.
(٢٦٣) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٩ - ١٠.
(٢٦٤) صالح أحمد العلي، سر من رأى مركزًا للخلافة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.
(٢٦٥) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦ - ١٢٧.
(٢٦٦) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

(٢٦٧) صالح أحمد العلي، سر من رأى مركزًا للخلافة، ص ٤٣٥.
(٢٦٨) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٢٦٩) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.
(٢٧٠) عبد المنعم رشاد محمد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧.
(٢٧١) محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف ١٩٧١، ص ١٤ - ١٥.
(٢٧٢) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.
(٢٧٣) محمد صالح داود القزاز، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ - ١٣.
(٢٧٤) المصدر السابق، ص ١٨ - ١٩.
(٢٧٥) عبد المنعم رشاد محمد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.
(٢٧٦) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.
(٢٧٧) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.

الفصل الثامن

العراق من الاحتلال المغولي
حتى الاحتلال البريطاني (١٢٥٨ – ١٩١٧م)

كُـرِس هـذا الفصل لدراسـة أوضاع العراق السياسـية في حقبة الغـزاة الأجانب، التي تعاقبت على حكم العراق ما بعد الخلافة العباسـية للمدة من (١٢٥٨ - ١٩٢١م). وقد تم تقسيم هذا الفصل إلى أربعة محاور أساسية هي:

أولًا: العراق في عهد الاحتلال المغولي - الجلائري (١٢٥٨ - ١٤١١م).

ثانيًا: العراق في عهد الاحتلال التركماني (١٣١١ - ١٥٠٨م).

ثالثًا: العراق في عهد الاحتلال الصفوي - العثماني (١٥٠٨ - ١٩١٧م).

رابعًا: العراق في عهد الاحتلال البريطاني (١٩١٧ - ١٩٢١).

المبحث الأول

العراق في العهد المغولي – الجلائري (١٢٥٨ – ١٤١١م)

ينقسم هذا العهد إلى مرحلتين أساسيتين هما:

الأول: العراق في العهد المغولي.

و الثاني: العراق في العهد الجلائري.

المطلب الأول

العراق في العهد المغولي (١٢٥٨ – ١٣٣٨م)

يُحتسب المغول مجموعة من قبائل استوطنت في منطقة صحراوية قاسية في الشمال الشرقي من آسيا تُعرف (بهضبة منغوليا). وقد دخلت هذه القبائل في صراعات داخلية عنيفة، انتهت، في نهاية المطاف، بتفرد (جنكيزخان) بزعامتهم. وأصبح سلطانه يشمل مناطق واسعة من بلاد الصين وتركستان[١].

وتمكَّن (جنكيزخان) من تأسيس إمبراطورية مغولية كبيرة في زمن لا يزيد مقداره على عمر إنسان. وكان ذلك بصهر قبائل شديدة التمسك باستقلالها. فغدت أداة حربية ماضية بيده[٢]. خاض بها سلسلة من المعارك والانتصارات، التي حصل من خلالها على ملك عظيم، وأعلن ملوكيته عام ١٢٠٣ م رغم أن هناك قبائل بقيت غير منقادة له[٣].

وقد اختلف الباحثون في بيان أصل المغول. فمنهم من ذهب إلى القول بأن المغول من القبائل التركية. ولعل أهمهم (عبد الرزاق الحسني) بقوله: (والتتر والمغول في الأمة التركية مثل ربيعة ومضر في الأمة العربية، يتفرع منها معظم بطون الترك وأفخاذهم، كما يتفرع العرب من هاتين القبيلتين الكبيرتين)[٤].

كما ذهب (عباس العزاوي) بهذا الاتجاه. إذ احتسب المغول إحدى القبائل التركية. وقد استدل على ذلك بما يأتي:[٥]

أ - أن لغة المغول، واشتراك ألفاظها مع الترك، حتى في الأبعد، تدل على أن الأصل واحد مما لا يدع أي شك.

ب- أن جدهم الأكبر كان (النجه خان) قد ترك توأمين، أكبرهما اسمه (تتار)، والأصغر يقال له (مغول). وعلى هذا القول فإن منشأ انقسام الترك يبتدأ من هذين الشخصين على حد قوله.

بينما فندت الباحثة (ايناس سعدي عبد الله) ذلك، بقولها أن احتساب المغول من القبائل التركية تعد وجهة نظر غير دقيقة. وذلك بدلالتين أساسيتين هما:[٦]

أ - ربما يكون هذا الخلط آت من كون المغول شعب يشبه الترك، إلى حد ما، من حيث اللغة وملامح الوجه.

ب- ثم أن علماء الأجناس يفرقون ما بين (التتار، والمغول، والترك) لأنها تتشابه في بعض ملامحها، بيد أنها تختلف في أصولها.

وقد بدأ المغول يهددون أطراف العراق منذ عام ١٢٢١ م. حيث كانت حدوده تمتد من تكريت إلى الفاو، ومن حلوان إلى عانة. ثم ضمت إليها خوزستان عام ١١٩٤ م. وكان مصير العراق معلقًا بمصير (دولة خوارزم)، التي كانت تمثل الحصن المنيع الذي يدفع عنه الأخطار القادمة من الشرق. وذلك لأن الخليفة العباسي لم يكن بمقدوره الصمود أمام الإمبراطورية المغولية المتنامية، التي كانت حين سقوط بغداد، تضم أغلب بلاد الصين وتركستان وجزءً من الهند وأكثر أجزاء إيران وروسيا وآسيا الصغرى[٧].

وبعد سقوط (دولة خوارزم) عام ١٢١٩م على يد المغول، أصبحت أبواب بغداد مفتوحة أمامهم. حيث تم احتلالها عام ١٢٥٨م. وتوالى على العرش فيها أحد عشر سلطانًا مغوليًا. كان أولهم (هولاكو) (١٢٥٨ - ١٢٦٤م)، وآخرهم (موسى بن علي بن بايدوخان) (١٣٣٥ - ١٣٣٧م)[٨].

وفي مدى عدة سنوات حول هولاكو مدينة بغداد التي استولى عليها إلى أنقاض[٩]. حيث ذكر (عباس العزاوي) أنه قد أوقع المغول بالأهالي ما لم يخطر في بال. حيث اتفق

المؤرخون في تدوين الحادث بشكل مفصل، خصوصًا أعمال القتل العام، وسلب الأموال، وحرق الممتلكات. بل وقتل الخليفة العباسي وأتباعه، وسلب ممتلكاتهم[١٠]. وأباح بغداد لجنده، فعاثوا فيها قتلًا وحرقًا ونهبًا[١١]. وقد بقي النهب، على حد قول ابن العبري، في بغداد سبعة أيام حتى حولها إلى خرائب وأنقاض. ثم نُودي بالأمان[١٢].

ولذلك وصفهم (الكرملي) بقوله: (أنهم متلفون للعمران، مهلكون للمجتمع البشري كما شاهدناهم عند هبوطهم بغداد. ففعلوا من الأفاعيل ما ترتعد لها فرائص الإنسانية من قتل ونهب وإفساد وإحراق ومنكرات ليس للقلم إمكان أن يدونها)[١٣]. وقال (ريجارد كوك) أن غزو المغول لبغداد (كان كارثة ثقافية – سياسية أيضًا. وهناك فرق بين ما كانت عليه الكتابة والتفكير قبلها وما كان بعدها. وهذا الفرق ليس في الدرجة حَسْب بل في النوعية أيضًا)[١٤]. وهناك تفاصيل أخرى عن واقعة احتلال المغول لبغداد يمكن الرجوع إليها في مصادرها. حيث أشار (ابن الغوطي) إلى أن عدد القتلى في بغداد وصل إلى (٣٠٠) ألف قتيل[١٥]. بينما أشار (ابن كثير) إلى مليون قتيل[١٦]. في حين أشار (الذهبي) إلى أن عدد القتلى قد وصل إلى مليون وثمانمائة نسمة[١٧].

ويبدو أن هنالك أسبابًا متعددة أفضت إلى احتلال بغداد من القوات المغولية. لعل أهمها ما يأتي:

أ – كان توحيد جنكيزخان للقبائل المغولية، قد أوجَد دولة عظمى لها من المصادر البشرية، والمعنوية، والقيادية، ما أثبت أنه قادر على تحطيم جميع القوى التي وقفت أمام زحفها مما أخل في زمن قصير بالتوازن الدولي[١٨].

ب– أخذت مظاهر الانحلال السياسي تتزايد في الدولة العباسية، بعد أن تولى (المستعصم بالله) الخلافة عام ١٢٤٢ م. حيث تبوأها في أحلك ظرف واجهته الدولة العباسية، ولم يكن هذا الخليفة شخصية مؤهلة لحكم البلاد وزعامة العالم الإسلامي. إذ كان لين العريكة، مستضعف الرأي، ضعيف التدبير، غير ملم بمشاكل عصره، ولا يملك الهيبة التي تعد من مستلزمات الحكم[١٩].

ج – أضف إلى ذلك، كان العالم الإسلامي يعج بعدد كبير من دول الطوائف، التي نشأت على أنقاض الدولتين السلجوقية والأيوبية. وكان السيف قائمًا بينها[٢٠].

د – وعلى غرار ما يحدث لكل حضارة في عالم الشرق الأوسط حين ترتطم بزحف بربري جديد، حيث لم تستطع الدولة العباسية تبيُّن الخطر المحدق بها. وأخطأت في حساب قوة الزحف الجديد أيضًا[٢١].

ر – وكان الضعف الذي أصاب بلاد فارس، والغنى والشهرة اللتين تنعم بهما بغداد، والسهول المثمرة بين النهرين من شأنه أن يكون ثمرة ناضجة وجاهزة أمام المغول.

وعلى هذا الأساس، وقف هولاكو حفيد جنكيزخان عام ١٢٥٨م أمام أبواب بغداد ليطالب بأكثر مما عُرض عليه[٢٢]. بحيث ترتب على احتلال بغداد جملة من النتائج. لعل أهمها ما يأتي:

أ – كان غزو العراق قد مثَّل جزءً من حركة واسعة تستهدف إقامة إمبراطورية مغولية. وقد أنجز (جنكيزخان) جزءً منها عن طريق احتلال أجزاء كبيرة من الصين وأواسط آسيا وإيران وشرقي أوروبا. وكان تقدُّم (هولاكو) نحو العراق متممًا لغزوهم العالم الإسلامي، الذي بدأه جنكيزخان عام ١٢١٩م.

ب– ومثَّل غزو المغول للعراق، جزءً من غزوهم للعالم الإسلامي الشرقي، الذي كان يمثل وحدة ثقافية – سياسية لها وزنها العسكري والسياسي والمعنوي. ولعله من العبث النظر إلى أحداث الغزو المغولي للعراق بمعزل عما يحيط به.

ج – وقد شكلت واقعة الاحتلال، ايذانًا بانتهاء دور العراق بوصفه مركزًا للخلافة العربية – الإسلامية، ومصدرًا للإشعاع الحضاري والفكري في العالم بأسره.

ر – ويعد عام ١٢٥٨م بداية لتحول العراق إلى ولاية من ولايات الإمبراطورية الايلخانية المترامية الأطراف. فبعد أن كانت بغداد قاعدة الخلافة ومحورها، وعاصمة العالم الإسلامي مدة تربو على خمسة قرون، أصبحت (تبريز)،

ثم (سلطانية) قاعدة الايلخانيين الرئيسيتين. وبذلك فقدت بغداد مركزها المتميز في العالم الإسلامي، وحل الدمار والخراب فيها محل الازدهار والعمران.

وقد وصف (ريجارد كوك) هذه الحال بقوله: (وهكذا ختمت صفحة الحضارة الإسلامية الكبرى التي شهدها العصر الوسيط بتخريب عاصمتها، وصيرورة أقاليمها الزاهرة خربة وركامًا. وغدا رأسها معفرًا بالتراب، ولأعدائها الظفر المؤزر في كل مكان)[٢٣]. كما وصفها (جعفر الخياط) بقوله: (كان التخريب الذي أصاب بغداد غداة داهمتها جيوش المغول والتتار في أواسط القرن الثالث عشر قد أنزلها من عليائها، وأطفأ نور الخلافة الإسلامية منها إلى الأبد... فاستحالت بذلك خلال أيام معدودة من كونها قهرمانة الممالك وسيدة البلاد إلى مركز صغير ثانوي من مراكز الإمبراطورية الايلخانية المترامية الأطراف)[٢٤].

و - كما أن احتلال المغول لبغداد، مثل واقعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق. حيث أنه لم يخضع العراق في أي حقبة من تاريخه لحاكم تكمُن قاعدته في منغوليا.

ز - وفي هذا العهد حدثت تغيرات في تركيبة المجتمع العراقي فيما يتعلق بالصفوة أو الأعيان منه. وذلك بظهور سيطرة الأمراء المغول كفئة صغيرة على شؤون البلاد، وازدادت سيطرة الإيرانيين، وتساوى المسلمين وما يُعرف بأهل الذمة أمام السلطان محمود غازان، الذي أعلن إسلامه[٢٥].

وعلى الرغم من انتشار أنباء العنف المفرط الذي استخدمه المغول في تعاملهم مع سكان العراق، فإنه قد وقفت بعض المدن العراقية تقاوم الاحتلال المغولي. حيث شهدت مدن الحلة، وواسط، وأربيل، والموصل مقاومة مسلحة ضد المغول. فكانت خسائر أبنائها نحو (٤٠) ألف شهيد[٢٦]. كما هبَّت القبائل العراقية ملبية نداء الخلافة العباسية للتطوع في جيوشها من أجل رد عدوان المغول. وتمكنت بعض القبائل أن تطرد الجنود المغول من مناطق عديدة. ولم يتبق منها إلاَّ قوات متمركزة في المدن الرئيسية؛ حيث تتركز قوات الاحتلال المغولي. ولعل أهم هذه القبائل كانت (آل ربيعة، وآل فضل الطائيين)[٢٧].

كما أعلن أهالي الموصل ثورتهم التحررية ضد المغول بعد وفاة أميرهم (بدر الدين لولو) عام ٦٥٨ هجرية. وصمدوا أمام الحصار المغولي حوالي سنة كاملة[٢٨].

أما أربيل، فقد كانت قلعة حصينة يكاد لا يكون لها نظير في البلاد. لذلك فإن سكانها العراقيون الكرد قاوموا المغول مقاومة شديدة قبل سقوطها بيد المغول[٢٩].

وفيما يتعلق بإدارة شؤون العراق في العهد المغولي، فإن مهمة الباحث تبدو صعبة بعض الشيء. وذلك لقلة الأخبار عنها من جهة، وتبعثرها بين طيات المراجع العديدة من جهة أخرى.

ويبدو مما متاح من المعلومات، أن صيغ الإدارة المغولية للعراق، كانت قد اتخذت شكلين أساسيين يتراوحان ما بين التجديد والاستمرارية.

فعلى مستوى التجديد، كان من الطبيعي أن يؤدي الاحتلال المغولي إلى إزالة (منصب الخليفة)، ووظائف البلاط المرتبطة به[٣٠]. لأن الخليفة كان يمثِّل رأس المجتمع العراقي، ورمز وحدته وقوته السياسية، ليحل محله (الايلخان)، الذي شغل رأس الإمبراطورية الايلخانية. ومعناه (سيد القبيلة) في اللغة الايغورية[٣١]. وهو ما يدل على الأصول القبلية للحكام الجدد. علمًا أن (الايلخان) كان غير مسلم، لأول وهلة، ويقضي معظم أوقاته بعيدًا عن العراق، وبالتحديد في إيران.

وهناك ألقابًا أخرى استخدمها الحكام الجدد منها (الايلخان الأعظم)، و(قاآن)، و(باد شاه) أي (سلطان). وكذلك تم استخدام لقب (السلطان) بالصيغة العربية. وكانت سلطة (الايلخان) غير محدودة، ولم تكن للشعب أي حقوق إزاء الحاكم المغولي، إنما كان يقع على عاتقهم واجبات عديدة، لعل أهمها الطاعة، ودفع الضرائب[٣٢].

مع ذلك كله، فإن إدارة الايلخانيين للعراق، في كثير من مظاهرها، مثَّلت استمرارًا للإدارة العباسية في عهودها المتأخرة. حيث أبقى هولاكو على الوضع الإداري كما كان عليه. وعهد إلى بعض الإداريين من عهد الخليفة العباسي (المستعصم بالله) بمهمة وضع أسس تنظيم إدارة العراق[٣٣] .

وبذلك تم الاحتفاظ بالترتيبات الإدارية السابقة، بيد أنها جعلت السلطة مرتبطة دائمًا بأمراء المغول. بحيث يرجع إليهم الوزير المحلي في الأمور كلها[٣٤].

ويبدو أن تحول العراق إلى مجرد ولاية من ولايات الإمبراطورية الايلخانية المترامية الأطراف، استلزم إعادة النظر بطبيعة إدارته ووظائفه. حيث تطلب ذلك تقليصها وتبسيطها، وزيادة اللامركزية في إدارتها، لأن إدارة إمبراطورية واسعة وفق الأساليب المركزية يعد أمرًا مستحيلًا في عهد كانت المواصلات فيه بدائية، ومسألة المحافظة على الأمن أمر يستوجب عناية مستمرة من الحكومة، خصوصًا أن رأس الإمبراطورية يسكن في أذربيجان البعيدة عن العراق[٣٥]. لذلك تمتع حاكم العراق بدرجة من الاستقلال في إدارة شؤونه، مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة الإمبراطور المغولي أو إرسال العناصر البشرية المناسبة في حالات اندلاع الحروب[٣٦].

وعلى هذا الأساس، فإن هولاكو ترك حامية من الجنود المغول في العراق منذ أول عهده بالاحتلال. وكان عددًا من أمراء العائلة المالكة الايلخانية يتخذون مقرهم العسكري في العراق ومعهم قوات مغولية كثيرة[٣٧].

وكانت عناية الايلخانات متجهة، منذ البداية، إلى التثبت من ولاء (صاحب ديوان العراق)، على أن يعين إلى جانبه أحد الشخصيات المغولية بمنصب (الشحنة) أي (الحاكم العسكري)، الذي يمسك بزمام الأمور من الناحية الفعلية.

وقد زاوج هولاكو في إدارة العراق ما بين رغبات المغول من جهة، ورغبات العراقيين من جهة أخرى. حيث عين (علي بهادر الخراساني) بمنصب (الشحنة). بينما عين (مؤيد الدين ابن العلقمي) بمنصب (الوزير). علمًا أنه كان وزيرًا للخليفة العباسي الأخير. وعين (فخر الدين بن الدامغاني) بمنصب (صاحب الديوان). علمًا أنه كان يشغل المنصب نفسه في عهد الخليفة العباسي الأخير. وعين (نجم الدين أحمد بن عمران) بمنصب (صدر الأعمال الشرعية). وعين (عبد المنعم البندنيجي) بمنصب (قاضي القضاة). وعين (تاج الدين علي بن الروامي) بمنصب (صدر الأعمال الفراتية)، والذي كان يشغل منصب (حاجب الباب) في عهد الخليفة العباسي الأخير[٣٨].

و يتبين من هذه التعيينات، أن جميع هؤلاء الحكام المحليين باستثناء (علي بهادر الخراساني) كانوا من أهل العراق، والعارفين بشؤونه، والعاملين بإدارته في زمن الخليفة العباسي (المستعصم بالله) كدلالة على نزعة هولاكو التوافقية. ورغم انتقال عاصمة المغول خارج العراق، بيد أن بغداد بقيت مركزًا لدواوين عديدة تُشرف على إدارة شؤون العراق العامة.

كما عين هولاكو أكبر أنجاله (أباقا) حاكمًا مطلقًا على العراق[٣٩]. **وبادر إلى تقسيم العراق إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:**[٤٠]

أ - **العراق**: وهو القسم الأهم من البلد، عاصمته بغداد. ويمتد من الزاب الأعلى إلى عبادان طولًا. ومن القادسية إلى حلوان عرضًا.

ب- **الجزيرة الفراتية**: والتي تتضمن الموصل وسنجار والعمادية وأربيل وماردين.

ج - **بلاد الجبل**: والتي تضم مدينة شهرزور.

وكان يُعين لهذه المناطق موظف كبير يُطلق عليه لقب (الصدر) أي (المُتصرِف). وكل منطقة من هذه المناطق بمنزلة (المحافظة)[٤١]. وكان أول من تَعيَّن لحكم بغداد بموجب الترتيبات الجديدة شخص يُدعى (أحمد بن عمران)، الذي كان من الأرقاء[٤٢].

عمومًا، لم يطل حكم السلالة الايلخانية. وذلك لأسباب عديدة منها:

أ - أنه حكم ارتكز بالدرجة الأساس على شرعية القوة دون أن يهتم بشرعية الإقناع أو شرعية الإنجاز.

ب- كما مثل الصراع على السلطة بين أمراء السلالة الحاكمة، عاملًا أساسيًا في سقوط التجربة المغولية. حيث تبينت معالم هذا الصراع بعد موت الايلخان الثاني (أباقا) بن هولاكو عام ١٢٨٢ م. وقد تصاعد هذا الصراع بعد وفاة الايلخان التاسع (أبو سعيد) عام ١٣٣٥م، والذي لم يترك وريثًا للعرش من بعده. لذلك دخل الطامحون بالعرش إلى حلبة الصراع من أجل الظفر به، مما أدى إلى اندلاع حرب أهلية عمت أرجاء البلاد.

ج - وعندما تولى (موسى خان) منصب (الايلخان) بعد مقتل السلطان (أرباخان) فإن أمراء المغول لم يكونوا راضين به سلطانًا عليهم. لذلك نفروا إلى الأمير الشيخ (حسن الكبير)، الذي كان يشغل موقع (أمير بلاد الروم) آنذاك. واتفقوا معه على إسقاط السلطان (موسى بن خان). فأرسل جيشًا دحر جيش السلطان (موسى خان) الذي يعد آخر السلاطين الايلخانيين. وبمقتله انتهت الدولة الايلخانية التي دامت زهاء قرن[٤٣].

ويبدو أن احتلال بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨م، كان قد مثَّل حدثًا تاريخيًا فاصلًا في تاريخ العراق. إذ أصبح، منذ ذلك الحين، هدفًا لأقوام بشرية كانت تنطلق من أواسط آسيا بين الحين والآخر.

وضمن هذا السياق تَمَكَّن الجلائريون من حكم العراق بصورة مستقلة. وهذا ما سوف نعرج عليه في المحور الآتي.

المطلب الثاني
العراق في العهد الجلائري (١٣٣٨ - ١٤١١م)

يجمع المؤرخون على احتساب الجلائريين إحدى القبائل الكبيرة التي تسكن شرق منغوليا. بيد أنهم يختلفون حول أصل هذه القبائل. فهناك من احتسبهم من الأقوام المنحدرة من أصول تركية. وهذا ما ذهبت إليه (ايناس سعدي عبد الله) لقولها: (ويمكن اعتبار الجلائريين من الأقوام التركية التي تَسَمَّت بالمغولية في وقت متأخر). واستدلت على ذلك بأمرين هم:[٤٤]

أ - عندما وحد جنكيزخان القبائل المغولية والتركية تحت قيادته، كانت القبائل الجلائرية من ضمنها.

ب- هناك روابط مودة وقرابة بين القبائل الجلائرية وقبيلة جنكيزخان المغولية.

وهناك من احتسبهم من القبائل المغولية الصرفة. وهذا ما ذهب إليه (باقر أمين الورد)

بقوله: (يحتسب الجلائريون من الأقوام المغولية. وكان لهم لقب نويان)[٤٥]. ولقب (نويان) عندهم لا تكمُن وراءه رتبة عسكرية معينة، إنما يعني (القيادة العامة)[٤٦].

وهذا ما ذهب إليه (صالح محمد العابد، وعماد عبد السلام رؤوف) لقولهما أن: (جلائر هي إحدى القبائل المغولية التي ارتبطت بجنكيزخان)[٤٧]. كما أكد (ستيفن همسلي لونكريك) هذا الاتجاه لقوله: (هم مغول متفرسون، تمكنوا بحلول ١٣٤٠ من إرساء دعائم سيطرة محكمة على الجزء الأعظم من إمبراطورية جنكيزخان، بضمنها العراق. وقد مد نجل أول السلاطين الجلائريين سلطته على شمالي فارس إلى بحر قزوين. مضيفًا الموصل وديار بكر إلى سلطانه)[٤٨].

كما ذهب إلى ذلك (عباس العزاوي) لقوله: أن الجلائريين (قبيلة كبرى من قبائل المغول. توصلت إلى الحكومة بهمة رجلها واتصاله الوثيق بحكومة المغول)[٤٩].

ورغم التداخل ما بين الجلائريين والأقوام الأخرى، بيد أن هذه السلالة احتفظت بنسبها في سياق الصراع مع السلالات المنافسة للسلطة المغولية. إذ أنهم احتسبوا (ايلكا نويان) الجد الأعلى لهذه القبيلة[٥٠]، والذي كان أميرًا للجيش في عهد هولاكو، وشاركه في احتلال بغداد[٥١].

عمومًا، تمكن الشيخ (حسن الجلائري) من الاستيلاء على بغداد عام ١٣٣٨م، بعد أن قضى على حكومة المغول في العراق. وأسس حكومة جديدة فيه تُسمى (الحكومة الجلائرية). ويقال لها أيضًا (حكومة الشيخ حسنية)؛ لأن أول ملوكها كان الشيخ حسن الكبير، والذي استقر في بغداد[٥٢]. واتخذها عاصمة لدولته الجديدة. ولم تنتقل العاصمة إلى (تبريز) إلاَّ في عهد السلطان (معز الدولة أويس)، الذي اتخذ لنفسه لقب (السلطان) عام ١٣٨٦م[٥٣].

وقد توالى على حكم الدولة الجلائرية ثمانية سلاطين. كان أولهم الشيخ (حسن الكبير) (١٣٣٨ - ١٣٥٦م). وآخرهم امرأة تدعى (دندي بنت حسين)، التي حكمت للمدة (١٤١٠ - ١٤١١م)[٥٤]. بينما احتسب (عباس العزاوي) أن آخر سلطان جلائري كان يُدعى (حسين بن علاء الدولة بن سلطان أحمد) وليست (دندي بنت الحسين)[٥٥].

وقد تخللت هذه الحقبة من حكم السلاطين الجلائريين، سنوات متقطعة استولى فيها (تيمورلنك) على الحكم بعد حملات عسكرية امتدت من (١٣٩٣ - ١٤٠١م). حيث دخل بغداد، واستولى عليها عام ١٣٩٣م. ثم استولى عليها مرة أخرى عام ١٤٠١م[٥٦]. حيث تمكنت قواته من أحكام سيطرتها على بغداد ومدن العراق الجنوبية لمدة وجيزة[٥٧].

وينتسب (تيمورلنك) إلى إحدى القبائل المغولية. وقد نشأ نشأة إسلامية في مدينة كش. وقد مكنته شجاعته من ضم القبائل المغولية تحت لوائه. وأصبح حاكمًا على ما وراء النهر عام ١٣٦٩م، واتخذ (سمرقند) عاصمة له. وقد احتسب نفسه وريثًا لأموال المغول والإمبراطورية الايلخانية كلها.[٥٨] لذلك أقدم على احتلال بغداد مرتين.

ويمكن تسجيل مجموعة من الملاحظات على السياسة الجلائرية في العراق. لعل أهمها ما يأتي:

أ - رغم أن العراق، كان قد شهد هدوءً واستقرارًا نسبيًا في عهد الشيخ حسن الكبير، الذي انصرف نحو تنظيم شؤون الإدارة، وتوطيد السلطة الجلائرية في العراق، بيد أنه استثمر موارد العراق لصالح السلطة الجلائرية حتى وفاته عام ١٣٥٦م.

ب- رغم أن بغداد بقيت عاصمة للدولة الجلائرية طوال عهد الشيخ حسن الكبير، بيد أن خليفته (معز الدولة أويس) كان قد نقل العاصمة من بغداد إلى تبريز. وبذلك صار العراق ولاية جلائرية عادية[٥٩]. ويبدو أن هذه الخطوة، قد أضرت بالعراقيين ومصالحهم بشكل واضح، وولدت النقمة لديهم ضد الجلائريين.

ج - وكذلك يمكن القول، أن الحكومة الجلائرية، وأن كانت حكومة مسلمة، بيد أنها غريبة عن العراقيين. حيث أنها كانت تميل في إدارتها وروحيتها إلى ما اعتادته من المسوغات القومية. إذ لم تتدرب على التربية الإسلامية كما يجب، ولا تخلقت بأخلاقها الفاضلة في الدرجة اللائقة لتوافق المُثل الإسلامية العليا[٦٠]. وبهذه السجايا تقاطعت مع العراقيين الذين كانت توحدهم الخلافة العربية الإسلامية منذ الفتح العربي الإسلامي للبلاد.

د - ورغم أن الجلائريين ساروا على النظم التي كانت قائمة في البلاد العراقية، ولم يضيفوا شيئًا جديدًا إلى ما كان عند أسلافهم من النظم الإدارية والحضارية والاقتصادية[٦١]، بيد أنهم لم يشركوا سكان البلاد العراقيين في الإدارة على خلاف ما فعل المغول في أول عهدهم[٦٢]. وهذا الواقع، كان قد ولد نقمة لدى العراقيين، تمخضت عنه المقاومة العراقية للاحتلال الجلائري.

عليه، شهدت حقبة الاحتلال الجلائري تصاعد دور القبائل العربية في العراق. فاتسعت مساحة المناطق التي تهيمن عليها في المدن والبادية والريف. وضاقت المناطق الواقعة تحت الاحتلال الجلائري، ولم يتبق تحت هيمنتها إلاَّ بعض المدن الرئيسية فقط[٦٣]. **وقد يكون ذلك راجع إلى عوامل عديدة لعل أهمها ما يأتي:**

أ - ما تمتلكه القبائل العربية العراقية من قوات مسلحة ومنظمة، وكثيرة العدد.

ب- الأخطار الخارجية التي تهدد السلطة الجلائرية والتي تمثَّلت بغزو تيمورلنك المغولي للعراق مرتين.

ج - الصراعات المحتدمة بين أمراء السلالة الجلائرية الحاكمة.

لقد بسط (نصير بن حيار) أمير آل فضل نفوذه على جهات الفرات من هيت إلى الأنبار. واستقر أتباعه في نواحي عين تمر والكبيسات. كما انتعشت سطوة قبيلة خفاجة في مناطق الفرات الأوسط. وشهدت مناطق العراق الجنوبية سيطرة (بني عقيل) على البصرة وواسط. واستولت (قبيلة المنتفك) العقيلية على البصرة. وتولى حكمها (صالح بن جولان) أمير القبيلة. أما منطقة البطائح فقد سيطر عليها زعيم قبيلة عبادة. كما تمكنت قوى عربية قبلية من الاحتفاظ بالحلة مستقلة عن سلطة الاحتلال الجلائري مدة تقرب من ربع قرن (١٣١٦ - ١٣٣٩م)، رغم قربها من بغداد. وشكلت إمارة عراقية أقامها الشريف (أحمد بن رميثة ابن أبي نمي). وبعد وفاة السلطان الجلائري (أبي سعيد) أعلن الشريف استقلاله بالحلة، وطرد منها حاكمها الجلائري (علي بن عبد الأمير طالب الدلقني). فقامت بذلك أول إمارة عراقية مستقلة منذ سقوط الدولة العباسية. ثم سقطت عام ١٣٣٩ م بعد معركة حامية الوطيس[٦٤].

ولعـل من أهم الثورات التحررية التي واجهت الجلائريين، كانت ثورة بغداد (١٣٦٣ - ١٣٦٤م). حيـث أجـبر الثوار الوالي (أمـين الدين مرجان) على الثورة، وخلع السـلطان (معز الدولة أويس)، وإعلان استقلال العراق عن العاصمة تبريز[٦٥].

ومع أن الثورة، فشـلت في تحقيق الاستقلال الكامل للعراق، بيد أنها أرغمت السلطان الجلائري على تبديل سياسـته إزاء العراق. حيث أرسـل ابنه الشـيخ (علي) ليحكم العراق بصـورة مسـتقلة نوعًـا مـا، وإعفـاء العراقيين مـن دفـع الضرائـب إلى بيت المـال من أجل إرضائهم[٦٦].

لذلـك اضطربت الإدارة الجلائرية، وفقدت سـيطرتها على كثير مـن المدن التي أعلنت اسـتقلالها. وصـار نفوذ السـلطان الجلائري لا يتعدى المـدن القريبة من بغـداد. مما اضطره إلى منـح إدارة هـذه المدن إلى أبنائه وأمرائه الذيـن يطمئن لولائهم. وهو ضرب من ضروب الإقطـاع، الـذي يدل على ارتباك الأمن على حد قول (ايناس سـعدي عبـد الله)[٦٧]. لذلك انهـار حكم السـلالة الجلائرية عـلى يد قـوة تركمانية عرفت باسـم (قره قوينلـو) أي (دولة الخروف الأسود)، حينما نجح زعيمها (قره يوسف) في دحر السلطان الجلائري، الذي لقي مصرعه عام ١٤١١م. حيث دخلت قوات (قره يوسـف) بغداد، واستولت عليها. وهذا ما سنتطرق إليه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني

العراق في عهد الاحتلال التركماني (١٤١١ – ١٥٠٨م)

تعاقب على حكم العراق في عهد الاحتلال التركماني الممتد من (١٤١١ – ١٥٠٨م) نوعين من الاحتلال هما:

أولًا: احتلال (دولة قره قوينلو) التركمانية، والتي عُرفت باسم (دولة الخروف الأسود).

ثانيًا: احتلال (دولة آق قوينلو) التركمانية، والتي عُرفت باسم (دولة الخروف الأبيض).

وهذا ما سنعرج عليه في هذا المحور بشيء من الإيجاز.

المطلب الأول

العراق في عهد دولة الخروف الأسود (قره قوينلو) (١٤١١ – ١٤٦٩م)

تعد دولة الخروف الأسود (قره قوينلو) في الأصل قبيلة تركمانية، وصلت إلى الحكم عن طريق الرياسة. وتُسمى أحيانًا (البارانية)[٦٨]. وهي من بين الجوار التواقين للسيطرة على العراق، والتي اتسعت من طائفة إلى إمبراطورية في شرقي الأناضول[٦٩]. حيث تمكنت من إقامة كيان سياسي في جنوب شرق الأناضول. وشاع اسمها (الخروف الأسود). وأصبح اصطلاحًا خاصًا بها لاشتهارها باقتناء الخروف الأسود أو لأن رايتها تحمل شارة الخروف الأسود[٧٠].

ويرى (عباس العزاوي) أن ترجمة اسم (الخروف الأسود) خاطئة لأن الخروف الأسود لا يعني (قره قوينلو)، إنما (قره قوبون)، وتعني (سود الغنم) على احتساب الجنس، فيقال (قبيلة سود الغنم). كما يقال (قبيلة بيض الغنم) التي تُطلق على (دولة الخروف الأبيض)[٧١].

وعلى أثر المعركة العسكرية التي دارت بين السلطان (أحمد الجلائري) وغريمه التركماني (قره يوسف) عام١٤١٠م، والتي انتصر فيها (قره يوسف)، تم احتلال عاصمة الجلائريين (تبريز)، وأجبر السلطان أحمد على كتابة صك بولاية (شاه محمد) نجل (قره يوسف) على العراق، وابنه الآخر (بيربوداق) على (أذربيجان). ثم تمت عملية قتل السلطان أحمد في العام نفسه. وبمقتله انقرضت الدولة الجلائرية[٧٢].

ومن ثم بدأت عملية الاحتلال التركماني للعراق منذ ذلك الحين. ففي عام ١٤١١م استولت أسرة الخروف الأسود (قره قوينلو) على بغداد بقيادة (محمد بن قره يوسف) بعد حصار دام حوالي سنة كاملة.

وفي عام ١٤١٢م استولى السلطان (محمد بن قره يوسف) على بقية أجزاء العراق، وضمها إلى مملكته[٧٣]. ويوصف (محمد بن قره يوسف) على أنه ذا فكر ثاقب، ورأي صائب. فأدار شؤون العراق إدارة حسنة إلى حد ما[٧٤]. ثم أضاف إلى ملكه كل ما كان يحكمه والده الذي توفي عام ١٤٢٠م[٧٥]. وبذلك أصبح العراق جزءً من دولة تركمانية، عاصمتها (تبريز). عُرفت في التاريخ باسم (قره قوينلو) أي (دولة الخروف الأسود). وأصبح اصطلاحًا خاصًا بها[٧٦].

وقد تعاقب على حكم العراق من سلالة الخروف الأسود ثمانية حكام تركمان. كان أولهم (محمد بن قره يوسف)، (١٤١١ - ١٤٣٢م). وآخرهم (شاه منصور بن زينل)، (١٤٦٩ -١٤٦٩م)[٧٧].

وكان يقوم بإدارة بغداد، خلال هذا العهد، ولاة من أبناء الملوك التركمان بصورة مستقلة إلى حد ما. إذ لم تكن الحكومة التركمانية في بغداد، آنذاك، تابعة إلى الحكومة المركزية وأوامرها، إنما فكت ارتباطها منها في أكثر الأحيان. وعاشت مستقلة نوعًا ما، خصوصًا أيام (محمد بن قره يوسف)، وأيام (أسبن بن قره يوسف)[٧٨].

ورغم اعتماد (تبريز) عاصمة لدولة الخروف الأسود، فإن بغداد احتفظت بمركزها كعاصمة للعراق إبان هذا العهد[٧٩]. وما يؤخذ على السلطان (محمد بن قره يوسف) أنه

عهد من عاصمته تبريز بنواب للملك، وولاة من أصول مختلفة من ذوي المهارات المتدنية في مجال الإدارة والسياسة لحكم العراق[٨٠]. لذلك تداعى شأن العراق، خلال هذا العهد، في مجالات السياسة والاقتصاد. وهوى من حال سيء إلى حال أسوأ. إذ لم يكن لدى قادة دولة الخروف الأسود من الموارد ما يساعدها على إحياء البلاد العراقية التي استولوا عليها عنوة[٨١].

لذلك أصبح حكمها في بغداد حكمًا مركزيًا، خصوصًا في عهد خلفاء السلطان (محمد بن قره يوسف) إلى أن أطاحت بهم قبيلة تركمانية منافسة تُدعى (آق قوينلو) أي (دولة الخروف الأبيض). وهذا ما سنتناوله في المحور الآتي.

المطلب الثاني
العراق في عهد دولة الخروف الأبيض (آق قوينلو) (١٤٦٩ – ١٥٠٨م)

نزحت قبيلة (آق يوينلو) من تركستان إلى أذربيجان. ثم هاجرت إلى نواحي ديار بكر والموصل[٨٢]. ومنذ ذلك الحين، نزعت هذه القبيلة إلى السيادة والاستقلال. وأسسوا إدارة منتظمة أضفت على القبيلة طابعًا حكوميًا عرف بالقسوة، ربما لأنها تدربت على يد تيمورلنك المغولي، ونهجت طريقته[٨٣].

ثم استولت هذه القبيلة، بمرور الزمن، على عدة قرى في المنطقة نفسها. واستقل زعيمها (علاء الدين بك) وأسس دولته المسماة (آق قوينلو) أي (دولة الخروف الأبيض). وقد سميت بهذا الاسم لأنهم كانوا يرسمون خروفًا أبيضًا على راياتهم[٨٤].

وبعد أن أرست هذه السلالة التركمانية دعائم حكم خاص بها في ديار بكر، أخذت تهدد بلاد ما بين النهرين من الشمال[٨٥]، خصوصًا بعد أن فرضت نوعًا من الاتحاد القسري بين القبائل التركمانية القاطنة جنوب البحر الأسود. وبذلك شكلت تجمعًا سياسيًا قويًا، أسفر عن قيام دولة كبيرة[٨٦].

وفي أيام حكم السلطان (محمد مرزا) برز زعيم تركماني يُدعى (حسن أوزون) أي

(حسن الطويل)، الذي تَمَكَّن من استثمار الظروف والمعطيات للإطاحة بدولة الخروف الأسود، والاستيلاء على ممتلكاتها، وتوحيد القبيلتين عام ١٤٦٨م في دولة واحدة تُدعى (آق قوينلو) أي (دولة الخروف الأبيض)[٨٧].

وفي عهد السلطان (حسن الطويل) نالت هذه القبيلة منزلة كبيرة، خصوصًا بعد احتلاله بغداد عام ١٥٦٩م فصار ملك العراق الأوحد. ومنذ ذلك الحين ابتدأ حكم دولة الخروف الأبيض للعراق. وأصبح (حسن الطويل) سلطانًا قويًا، تمكن من تشكيل حكومة قوية في العراق عاشت من بعده حوالي (٤٠) سنة[٨٨].

و قد تعاقب على العرش، خلال هذا العهد، ثمانية سلاطين تركمان. كان أولهم السلطان (حسن الطويل) (١٤٦٩ - ١٤٧٧م). وآخرهم السلطان (مراد بن يعقوب) (١٤٩٩ - ١٥٠٨م)[٨٩].

مع ذلك يسجل على دولة الخروف الأبيض ما بعد السلطان حسن الطويل ما يأتي:

أ - لم تقم في عهدها حكومة موحَّدة في المناطق كلها، إنما تقاسمها الأمراء وأبناء السلاطين. فكانت أقرب لدويلات المدن المعروفة.

ب- لم تحقق دولة الخروف الأبيض في العراق، سوى المزيد من الحروب بين المتنافسين على العرش، ولم يكترثوا بالعراق إلاَّ بوصفه مصدرًا للموارد المالية، وجباية الضرائب[٩٠]. حيث عمت العراق، خلال هذا العهد، المنازعات والحروب الأهلية، التي كانت جزءً من فوضى عامة في البلاد، سُفكت خلالها دماء غزيرة، وأصبح العراق بموجبها دولة مجزأة يتنافس عليها الطامعون بالعرش[٩١]. لذلك قال (عباس العزاوي) ما يأتي: (والعراق لم ير ذلاً في أزمانه السابقة ما رآه في هذه الأيام. أهملته الحكومة، ولم تنظر إلى غير الحروب، والتنعم بأموال الغنائم والبذخ)[٩٢].

ومن هذا الوضع الذي لا يُطاق، انطلقت المقاومة العراقية ضد هذا الاحتلال التركماني. حيث اضطلعت (إمارة آل فضل) و(إمارة المشعشع) بأدوار مهمة في التصدي للاحتلال التركماني.

ففي المناطق الغربية من العراق استطاعت قبيلة (آل فضل) أن تؤسس إمارة، مركزها الرحبة. وتضم كل من عانة وحديثة في الأنبار. وأصبح لها كيان مستقل عن دولة الخروف الأبيض. وتناوب على رئاستها الأمراء العرب العراقيين. وكان نفوذ هذه القبيلة يمتد أحيانًا إلى مناطق أوسع من ذلك. حيث هاجم (عذرا بن علي بن نعير) أمير آل فضل مدينة الحلة عام ١٤٢١. وتمكَّن من دخولها للحيلولة دون سقوطها بيد (قره قوينلو). وعين نائبًا عنه لحكمها. وفعلًا أخرت هذه العملية العسكرية سقوط الحلة بيد (قره قوينلو) زهاء عشر سنوات.

كما قام الشيخ (مدلج بن علي) بمواصلة العمليات التحررية ضد مراكز (قره قوينلو). لذلك فرضت هذه الإمارة وجودها ونفوذها على مناطق أعالي الفرات والحلة. وهذا ما دفع حكام (قره قوينلو) لاسترضاء شيوخ هذه الإمارة، والاستعانة بهم في صراعاتهم الداخلية. تلك الصراعات التي ساعدت على توسيع نفوذ الإمارة. حيث شملت أيضًا منطقة الجزيرة والموصل[٩٣].

أما الإمارة العراقية الثانية، التي أضعفت وجود الحكم التركماني في العراق، وأرهقتهم عسكريًا فكانت (إمارة المشعشع)، التي أسسها الشيخ (محمد بن فلاح المشعشع) (١٤٤٠ - ١٤٦١م)، والذي اكتسب شعبية واسعة من خلال وقوفه إلى جانب الفقراء والمحرومين، ودفاعه عن حقوقهم. ولعل في هذا ما يفسر تنامي قوته، ونجاحه في تأسيس كيان سياسي مستقل بصيغة (إمارة).

وقد بدأت قوة هذه الإمارة بالتصاعد منذ عام ١٤٥٠ م. وذلك عن طريق انضمام قبائل عربية متعددة تحت سلطته. ثم جهز جيشًا لتحرير مدينة واسط بوصفها مسقط رأسه. بيد أنه أخفق في ذلك رغم إحرازه بعض الانتصارات[٩٤].

ويبدو أن تحرير العراق كان من أولى اهتمامات الشيخ (محمد بن فلاح المشعشع). لذا فإنه قاد حملة جديدة صوب مدينة واسط عام ٨٥٨ للهجرة، وتمكن من تحريرها. ثم زحف إلى النجف وحررها[٩٥]. وتمكن من توسيع الإمارة التي يترأسها لتضم الأحواز وجنوب العراق ووسطه، تعاقب على حكمها أولاده وأحفاده[٩٦].

أضف إلى ذلك، أن هجمات (آل المشعشع) العسكرية على المدن والأرياف في وسط العراق لم تتوقف في عهد (آق قوينلو). إذ قام الأمير (محسن بن محمد المشعشع) بالإغارة على أطراف الحلة وبغداد، مهاجمًا كل المناطق التي كانت تقع تحت سيطرة حكام (آق يوينلو) التركمانية. وفي عام ١٤٧٨ م وصل إلى نواحي بغداد مرة أخرى، ووصل إلى ديالى والخالص.

لذلك كله، قرر السلطان التركماني (يعقوب) عام ١٤٨٤ م توجيه ضربة قوية لإمارة المشعشع. ويبدو أن هذه الضربة قد تمكنت من (آل المشعشع)، والحقت بهم الهزيمة.

كما استولت (قبائل المنتفك) في عهد (آق قوينلو) على الجزائر والبصرة حتى وصلت إلى حدود الرماحية والحلة. كما ظلت سيطرة (آل فضل) من الطائيين في أعالي الفرات وغربه هي الغالبة. وبذلك انحسر نفوذ (آق قوينلو) على بعض المدن الرئيسية[٩٧].

وبعد وفاة الشيخ (محمد بن فلاح المشعشع)، فرضت (إمارة المشعشع) وجودها مرة أخرى في عهد الشيخ (محسن). حيث اتسعت في عهده الرقعة الجغرافية (لإمارة المشعشع) لتمتد من أطراف بغداد إلى البصرة إلى عربستان حتى شواطئ الخليج العربي.

وبعد وفاة الشيخ (محسن) شهدت إيران مخاضات قيام الدولة الصفوية التي أطاحت (بإمارة المشعشع) بذريعة الإطاحة بحكم الغلاة الذين يدَّعون الألوهية للإمام علي بن أبي طالب[٩٨].

ويبدو أن أزمة دولة (آق قوينلو) بدأت تتفاقم منذ عام ١٤٧٧م، نتيجة للصراع على العرش، الذي دار بين الأخوة والأمراء لدرجة حدثت بينهم معارك دامية ذاق العراقيون مرارتها. وقد انتهز الشاه (إسماعيل الصفوي) فرصة الضعف والخلاف المحتدم بين حكام (آق قوينلو)، وتدهوُر الأوضاع في العراق، فجمع قواته عام ١٥٠١م، وخاض حربًا مع أمراء دولة الخروف الأبيض، وانتزع منهم أذربيجان. ثم تَقدَّم إلى همدان فاستولى عليها. ثم سار نحو كردستان وديار بكر فأخضعها لسلطته. وبذلك أسس الدولة الصفوية الكبرى[٩٩].

وفي عام ١٥٠٨م سار الشاه (إسماعيل الصفوي) نحو بغداد فاحتلها. وهرب السلطان مراد إلى كرمان. ويقال أنه قد قُتِل[١٠٠]. وبذلك انقرضت دولة الخروف الأبيض، ليبدأ عهد جديد في العراق تحت الاحتلال الصفوي.

المبحث الثالث

العراق بين الاحتلالين الصفوي – العثماني

(١٥٠٨ – ١٩١٧)

تعاقب على حكم العراق خلال المدة الممتدة من (١٥٠٨ – ١٩١٧م) نوعين من الاحتلال الأجنبي هما:

أولًا: الاحتلال الصفوي: الذي حكم العراق للمدة من (١٥٠٨ – ١٥٣٤م). ثم عاود احتلال العراق للمدة من (١٦٢٢ – ١٦٣٨م).

ثانيًا: الاحتلال العثماني: الذي حكم العراق للمدة من (١٥٣٤ – ١٦٢٢م). ثم عاود احتلال العراق للمدة من (١٦٣٨ – ١٩١٧م).

المطلب الأول

العراق في عهد الاحتلال الصفوي

ينتمي الصفويون إلى أسرة تركمانية صوفية، تنتسب إلى الشيخ (صفي الدين الأردبيلي)، الذي اشتهر بطريقته الصوفية التي حققت نفوذًا واضحًا في أذربيجان[١٠١]. وقد عُرفت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها صفي الدين (١٢٥٢ – ١٣٣٤م)[١٠٢]، والذي ينتسب إلى أسرة ثرية معروفة في مدينة أردبيل الواقعة في الجزء الشرقي من أذربيجان. وقد ذاعت شهرته بوصفه مؤسس طريقة صوفية توارثها عن الجنيد البغدادي عن السري السفطي عن معروف الكرخي[١٠٣].

وتكمُن أهمية (صفي الدين الأردبيلي) في قدرته على تحويل الطريقة الصفوية من مجرد طريقة صوفية محلية إلى حركة دينية لم يقتصر نفوذها وتأثيرها ضمن حدود إيران الجغرافية فحسب، إنما امتد إلى بلاد الشام والأناضول.

وقد بدأت في عهد رئيس الطريقة (صدر الدين موسى) تطلعات الأسرة الصفوية نحو

العمل السياسي، مما أثار ضده الحاكم المغولي في أردبيل (الأشرف جوبان بن تينو)، الذي نفاه إلى تبريز. ولم يعد إلى أردبيل إلاَّ بعد مقتل (جوبان)[١٠٤].

ثم اتخذت الحركة الصفوية طابعًا سياسيًا واضحًا في عهد رئيس الطائفة (الجنيد البغدادي) (١٤٤٧ – ١٤٦٠م). حيث كان الجنيد أول زعيم صفوي يعبر علنًا عن طموحه في أن يصبح ملكًا إلى جانب كونه مرشدًا روحيًا للصفويين. ولتحقيق ذلك نظم الحركة الصفوية على أسس عسكرية، وجعل أتباعه يظهرون مراسم التقديس تجاهه[١٠٥].

ويعد (إسماعيل الصفوي) مؤسس الدولة الصفوية، وأول ملوكها، والذي احتسب المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي والوحيد للدولة الصفوية. وقد اقترن هذا الإعلان بتنامي ثقافة سلبية مفادها ثقافة السب واللعن للخلفاء الراشدين الثلاثة. ربما جاء هذا التوجه كرد فعل لحملات الاضطهاد العثماني الذي استهدفت الشيعة وأعلنت تكفيرهم[١٠٦].

وقد ذهب (إسماعيل الصفوي) إلى ما هو أبعد من إعلان المذهب الشيعي مذهبًا رسميًا وحيدًا للدولة، إنما طرح فكرة التولي والتبري التي ستكون النواة في تكوين التشيع بالملامح الصفوية[١٠٧].

وبعد أن أمضى (إسماعيل الصفوي) سنوات في صحبة رجال الدين من الشيعة، عاد بهدوء إلى أردبيل، وحشد جيشًا قوامه مريدو الأسرة وأصدقاؤها. واستطاع أن يهزم (الوند مرزا) أحد أمراء قبيلة (آق قوينلو). فشاعت تلك الواقعة بين الناس. ثم دخل تبريز عام ١٥٠١م، واعتلى فيها على عرش بلاد فارس رسميًا. ثم استطاع خلال السنوات السبع التالية أن ينتزع بقية أقاليم تلك البلاد واحدًا تلو الآخر. إلى أن بلغ عام ١٥٠٨ م درجة من القوة، فأمر قائده (لاله حسين) أن يمضي إلى العراق ويستولي على بغداد. وبذلك ضمت بغداد إلى الدولة الصفوية[١٠٨].

ويعود تطلع الشاه (إسماعيل الصفوي) لاحتلال العراق إلى عاملين هما:[١٠٩]

أ – العامل السياسي: إذ أن الاستحواذ على بغداد، بوصفها قطب العالم الإسلامي،

يعطي للشاه إسماعيل الصفوي مكانة رفيعة لدى المسلمين طبقًا للطموحات التي كانت تساوره.

ب- **العامل الاقتصادي**: إذ أن خصب العراق الزراعي يمكن أن يسد الكثير من حاجات سكان إيران. فضلًا عن أن الشاه أراد السيطرة على الطريق التجاري المار بديار بكر والموصل، والذي يقطع عمق العراق إلى الخليج العربي عبر بغداد. وتعد الموصل رأس هذا الطريق والباب الطبيعي لشمالي العراق عبر اتصالها بإقليم الأناضول وبلاد الشام.

وقد تعاقب على حكم الدولة الصفوية خمسة ملوك. كان أولهم (إسماعيل الصفوي) (١٥٠٨ - ١٥٢٣م)، وآخرهم (صفي بن عباس) (١٦٢٨ - ١٦٣٨م)[١١٠].

وعندما احتل الشاه (إسماعيل الصفوي) بغداد، فإنه ضيق عليها، وأعمل فيها السيف مبتدءً بقتل السلطان (أحمد خان). وإجبار الكثير من أهل السنة على التشيع بعد سنة من قدومه إلى بغداد. وقتل كثير من مسلمي السنة والنصارى، أما اليهود فإنه لم يتعرض لهم لأنهم كانوا أدلاؤه على السنة والمسيحيين[١١١]. حيث نكل تنكيلًا مُرًا بمَن علم منه أنه مخالف له في العقيدة[١١٢].

وقد أشارت بعض المصادر العربية إلى مذابح كثيرة، في عهده، راح ضحيتها عدد كبير من سكان العراق[١١٣]. وعلَّل (ريجارد كوك) ذلك السلوك السياسي العنيف لدى حركة إسماعيل الصفوي على أنها كانت قد مثَّلت (يقظة قومية مغالية في شيعيتها)[١١٤]. لذلك وصفه قائلًا: (وصيَّرته ميوله الشيعية شديدة العداوة لأهل السنة، وجرى بإمر منه هدم كثير من مراقد أوليائهم، وقتل زعمائهم)[١١٥].

ويبدو أن النزعة الطائفية، كانت قد تحكمت في هذا العهد للدرجة التي تسببت في تراجع نزعة الاستقلال لدى العراقيين[١١٦]. لذلك حدثت فتن طائفية في بغداد، أفضت إلى اندلاع معارك طائفية بين فئات مختلفة مذهبيًا من المواطنين العراقيين، أدت إلى سقوط أعداد من القتلى والجرحى. حيث حدثت مثل هذه المعارك الطائفية في الأعوام ١٥٢٢م، ١٥٣٢م، ١٥٤١م، ١٥٦١م، ١٥٧٨م، ١٥٨٥م[١١٧].

ويلاحظ أن الدولة الصفوية، رغم إنجازاتها العسكرية، بيد أنها لم تمتلك تأصيلات في الحكم والإدارة لأنها كانت معروفة بتصوفها. حيث اشتهر جدهم الأعلى (صفي الدين الأردبيلي) بالدروشة والتصوف. وكان ملازمًا (تكيته) الدينية في أردبيل. لذلك ذهب عباس العزاوي إلى القول: (ومهما يكن فإن هذه الحكومة نهضت من سجادة الإرشاد إلى كرسي السلطة عن طريق التصوف، واستهواء الناس من ناحية الدين باتخاذ المريدين، وتشكيل جيش منهم)[١١٨].

مع ذلك، قام إسماعيل الصفوي بعد احتلال بغداد، بسك النقود باسمه كدلالة على ضمها إلى ممتلكات الدولة الصفوية. ونظم أوضاع العراق عن طريق تعيين (خادم بيك) واليًا على العراق، ومنحه لقب (خليفة الخلفاء)[١١٩].

ولم يبتعد النموذج الصفوي في الحكم عن (النموذج الثيوقراطي). إذ تحتل (المؤسسة الدينية) قمة هرم السلطة. وعادة ما تسند الصدارة إلى شخصية إيرانية تنتسب إلى (السادة). ويبدو أن منصب (الصدر) كان قد مثَّل أرفع منصب سياسي في الدولة، والذي أُنشأ وفق مسوغات شيعية صفوية. ويتمتع صاحبه برتبة (أمير)، ويُعين وفق مسوغات سياسية تهدف إلى تعزيز نفوذ الدولة الصفوية. فضلًا عن كونه رئيسًا للسلطة القضائية.

ويلي منصب (الصدر) في المؤسسة الدينية منصب (شيخ الإسلام)، الذي يدعى (الآخوند). ثم يليه منصب القاضي.

وكانت المؤسسة العسكرية في ذروة قوتها وانضباطها في العهد الصفوي. حيث أنها مثلت العمود الفقري للدولة. وقد امتد نفوذها القوي إلى مفاصل الدولة المختلفة. إذ أن أغلب حكام الولايات والأقاليم كانوا من كبار القادة العسكريين. ويعد منصب (أمير الأمراء) أكبر منصب عسكري في الدولة الصفوية في حقبة التأسيس.

ورويدًا رويدًا، بدأت عملية إسناد المناصب السياسية والعسكرية والمالية إلى العناصر الإيرانية الموالية. وبذلك بدأت الدولة الصفوية تكتسب ملامح إيرانية صرفة. إذ أن (الوزارة) و(الصدارة) كانت تُناط بعناصر إيرانية بحتة[١٢٠].

وخلاصة القول، يبدو أن عهد الشاه (إسماعيل الصفوي) كان عهد تأسيس، تطورت خلاله الحركة الصوفية الصفوية إلى حركة سياسية، استخدمت السلاح من أجل تأسيس دولتهم.

ويلاحظ، أن الدولة الصفوية لم تترك أي أثر مهم في تاريخ العراق السياسي والاقتصادي، ربما لأنها كانت لاتزال في طور التأسيس. لذلك بقيت الكثير من الأنظمة والمناصب الإدارية السابقة قائمة على حالها في العراق. وبقي النظام الزراعي كما كان عليه من ضمور وتخلف. وكل ما حدث بعد الاحتلال الصفوي هو تعيين (الغزلباش) والموالين لهم في المناصب الرئيسية. وحتى هذه التعيينات كانت تجرى بشكل مرتجل. ولم يستحدث سوى منصب (خليفة الخلفاء) الذي أطلقه الشاه على (خادم بيك) الذي عينه واليًا على بغداد. كما أستحدث منصب (مساعد الوالي) وتم إسناده إلى أحد العراقيين. وأحتسب ذلك خطوة توفيقية[١٢١].

ويبدو أن الدولة العثمانية، التي وصلت إلى ذروة مجدها السياسي والعسكري بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، بدأت تطرح نفسها كوريث شرعي وحيد للخلافة العباسية. لذلك لا يمكن أن تغض الطرف عما يجري في إيران الصفوية التي تقع على حدودهم. وقد تفاقم القلق العثماني عندما تم استيلاء الصفويين على بغداد عام ١٥٠٨م، وما رافق ذلك من اضطهاد أهل السنة فيها[١٢٢]. والذين بدأوا بالتذمر من الظلم وسوء الإدارة. فاشتد الأمر عليهم، وضاق الحال بهم، مما ولد رد فعل استغله العثمانيون بذريعة الانتصار لجماعة السنة في بغداد[١٢٣]. إذ قال الكرملي ما يأتي: (ومسألة قتل الشاه للسنة أنشأ في قلوب هؤلاء، ولا سيما في قلوب الأتراك ضغينة لا تُطفأ نارها)[١٢٤].

وكان ارتقاء السلطان (سليم الأول) ايذانًا باتخاذ إجراءات انتقامية. وكان قتل الشيعة في الأراضي التركية قتلًا عامًا سببًا مباشرًا في اندلاع الحرب بين الطرفين الصفوي والعثماني، والتي انتصر فيها العثمانيون[١٢٥].

ولم يحكم الصفويون مدة طويلة في العراق لأن قساوتهم الشديدة، ومنهجهم الطائفي

الصارخ (حملت الأهالي على الانتقام من أولئك الطغاة في أول فرصة يتمكنون منها. وكانت الرسل تترى إلى الاستانة لتوقف أولي الأمر على حقائق الأحوال، وتطلعهم على ما يفعل الإيرانيون بالمتمسكين بالسنة النبوية. لذلك صمم السلطان سليمان القانوني على الاستيلاء على البلاد العراقية وانتزاعها من أيدي الصفويين. فسار إلى بغداد، واستولى عليها عام ١٥٢٧م، وأمر بتحصينها، وجعلها من ممتلكات الدولة العثمانية)[١٢٦].

ويبدو أن الحروب المتوالية، التي دارت بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية من أجل السيطرة على العراق كانت مؤلمة جدًا. إذ (احترق الأهلون بين نيران الاثنين المتحاربين... فالمتغلب منهما يحاول القضاء على كل نزعة لمخالفه، ويسعى لتدميرها واستئصالها، والآخر يراعي عين العملية بلا رحمة ولا شفقة... فكان القوم لا هَم لهم غير اجتثاث ما من شأنه أن لا يبقي أثرًا للآخر... وكل يعلن نصرته للدين، وانتصاره لجماعة المتقين... والسياسة أصل الفعل، تقمصت بقميصه، وظهرت بمظهره)[١٢٧].

وفي عهد الشاه (صفي بن عباس)، جهَّز السلطان العثماني (مراد الرابع) حملة عسكرية على بغداد، واستولى عليها عام١٦٣٨ م. وبذلك انتهى سلطان الصفويين في بغداد. وأسند حكومة بغداد إلى الوالي العثماني (حسن كوجك)[١٢٨].

عليه، يتبين أن المسوغات المذهبية كانت بمثابة الذريعة التي ارتكز عليها الطرفان للاستيلاء على بغداد. وقد ألحق الطرفان أضرارًا جسيمة في بلاد وادي الرافدين لأنها كانت ميدانًا لهذا الصراع الدموي.

المطلب الثاني
العراق في عهد الاحتلال العثماني

ينتمي العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر (الغز) التركية، التي تُعرف باسم (قابي). وقد هاجرت هذه العشيرة من المشرق إلى الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد تمكن جدهم الأعلى (عثمان) من تأسيس إمارة قوية استظلت بدولة السلاجقة أول أمرها. وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول، تمكنت تلك الإمارة من استقطاب عدد من

الإمارات التركية المسلمة في الأناضول. ثم توجت أعمالها العسكرية بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد (محمد الفاتح). فضلًا عن ضمها أجزاء أخرى من أوروبا الشرقية[١٢٩].

ويبدو أن الدولة العثمانية، كانت قد تأسست على قاعدة الاستيلاء، شأنها في ذلك شأن الدول الشرقية التي سبقتها.

وتركز الولاء في الدولة العثمانية نحو (آل عثمان) وحدهم. وهم أسرة تركية تدعي الانتماء إلى قبيلة (أوغوز) التي انحدر منها السلاجقة. وقد تشبثت الأسرة العثمانية بأصلها العرقي هذا لتستهوي به رجال القبائل التركية. لذلك احتسبت السلطة العثمانية امتدادًا للسلطة السلجوقية أو بديلًا لاستمرارية ثوابتها كتجربة تاريخية نشأت على أنقاضها[١٣٠].

وما أن انتهى القرن الخامس عشر الميلادي حتى كانت الدولة العثمانية قد شملت الأناضول، واليونان، وشبه جزيرة البلقان، وجزائر بحر ايجة، وجزيرة في جنوب إيطاليا.

وفي عهد السلطان (سليم الأول) (١٥١٢ - ١٥٢٠م) اتخذت الدولة العثمانية أهم قراراتها حين استدارت، لأول مرة، منذ تأسيسها نحو الشرق العربي.

ومنذ ذلك الحين، أصبح العراق ميدانًا لصراع دموي بين السلالات الصفوية والعثمانية. استمر هذا الصراع بشكل غير منقطع حتى القرن التاسع عشر. ذلك أن تقدُّم الصفويين نحو غرب بلادهم كان قد شكَّل للسلطان العثماني خطرًا لا يمكن تجاهله. فضلًا عن طموحات الشاه (إسماعيل الصفوي)، التي دفعته للعمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام[١٣١].

ويبدو أن الانبعاث القومي - الديني في إيران، والتعاظم الصفوي منذ عهد الشاه (إسماعيل الصفوي)، قد اتفق وقوعهما في وقت كانت الإمبراطورية العثمانية آخذة بالتوسع والتعاظم في عهد السلطان (سليم الأول) وابنه السلطان (سليمان القانوني)[١٣٢]. لذلك كان لابد لهاتين الدولتين من التصادم. وأهم ميدان يحدث فيه هذا التصادم على حد قول (جعفر الخياط) كان (ميدان الزعامة الدينية، والتناحر الطائفي الذي كثيرًا ما يكون مقرونًا بالتعصب الذميم. علاوة على المبالغة والتهويل)[١٣٣].

وكان اسم (بغداد)، بوصفها موئل الخلافة العباسية، ومجدها الزائل، وهي ترزح تحت الحكم الصفوي (يوحي بكل ما في هذا التناحر من دوافع للاحتكاك والتصادم). وحين تناهت الأخبار، ربما المبالغ بها، إلى اسطنبول، والتي تفيد بأن الشاه إسماعيل الصفوي كان قد دخل بغداد، وعبث بقبور أئمة السنة، وذبح جماعة من علمائهم[١٣٤]، فإن السلطان سليم الأول (أصبح يدعي ببطولة القضية السنية في العالم الإسلامي إزاء بطولة القضية الشيعية، التي كان يعرف بها الشاه الصفوي في إيران).

وعلى هذا الأساس، وقع التصادم بين الدولتين المسلمتين. وبهذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الحروب ما بين سلاطين آل عثمان من جهة، وشاهات إيران الصفويين من جهة أخرى. وقد كانت (بغداد) وما يدور في فلكها من حواضر العراق وبلدانه الأخرى، من أهم المسارح التي ظل هذا الصراع محتدمًا فيها طوال أربعة قرون من الزمان[١٣٥]. إذ شهد القرن السادس عشر الميلادي صراعًا عنيفًا بين الدولتين العثمانية والصفوية اللتين كانتا في أوج قوتهما. وقد تقابلتا في سهل (جالديران) عام ١٥١٤م. وتمخضت المعركة العنيفة التي دارت بين الطرفين عن انتصار السلطان (سليم الأول) على الشاه (إسماعيل الصفوي). وبذلك بسط العثمانيون سيطرتهم على أرض الجزيرة والموصل بعد ذلك.

ويبدو أن سيطرة العثمانيون على شمال العراق، كانت قد أمنت حدودها الشرقية من الخطر الصفوي. أما السيطرة العثمانية على وسط العراق وجنوبه فلم تتم إلاَّ بعد مرور عشرين سنة على معركة (جالديران)، عندما زحف السلطان (سليمان القانوني) (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) على رأس جيش جرار نحو بغداد، ليستردها من الفرس الصفويين عام ١٥٣٤م. وفي عام ١٥٤٦م دخلت البصرة تحت السيطرة العثمانية أيضًا[١٣٦].

لقد كان من سوء حظ العراق وسكانه، أن يتخذ هذا الصراع طابعًا طائفيًا مشحونًا بالكثير من العاطفة والحساسية المذهبية، لأن ذلك أفضى إلى انقسام سكان العراق إلى فريقين كبيرين، أحدهما سني، والآخر شيعي. فيكون من المتوقع أن ينبري كل فريق منهما إلى مشايعة أحدى الدولتين، ويتحمل أوزار تلك المشايعة.

وكانت تأثيرات هذا التناحر الطائفي ونتائجه تظهر بأجلى مظاهرها في أحوال سكان العراق، ومعاملة الحكومات القائمة لهم حينما يشتد الخصام بين حين وآخر، ويفضي إلى الاشتباك المسلح على الأخص. وقد تحدث (جعفر الخياط) عن ذلك قائلًا: (والحقيقة أن التناحر الطائفي الذي استطال احتدامه بين الدولتين بسبب المصالح الخاصة بهما، قد جعل من الاختلاف البسيط في العقائد المذهبية بين السنة والشيعة في العراق شيئًا متأصلًا مبالغًا فيه. وكان وما يزال يصعب اجتثاثه اجتثاثًا كاملًا من النفوس)[١٣٧].

ولم يقتصر القتل الطائفي على الصفويين فحسب، إنما امتد إلى فعل العثمانيين أيضًا. فعندما استولى السلطان العثماني (مراد الرابع) على بغداد عام ١٦٣٨م، فإنه وضع السيف في شيعة العراق حتى قتل منهم أكثر من عشرين ألف إنسان، وأمر بجمع كتب الشيعة وأحراقها[١٣٨].

وقد ركزت السياسة العثمانية على ديمومة استيلائها على العراق، وعدم التنازل عن أي جزء منه. لذلك اختار العثمانيون لحكم العراق ولاة امتازوا بالجرأة والقوة والخبرة في ميدان الحرب. فضلًا عن الكفاءة الإدارية لعدد منهم. لذلك نشط ولاة العراق العثمانيون في تأمين النظام داخل المدن، ومقاتلة القبائل العراقية الثائرة، والتصدي لتدخلات الصفويين عبر الحدود. فضلًا عن أن بعض الولاة، كانوا قد شيدوا عددًا من الجوامع والمدارس. وبذل بعضهم جهدًا لتنشيط الحياة التجارية في العراق[١٣٩].

وكانت الحكومة العثمانية (ملكية أوتوقراطية متمتعة بالتأييد الديني)[١٤٠]. وتُعد (السلطنة) أعلى مؤسسة في الدولة العثمانية، ويترأسها (السلطان العثماني). مع ذلك لم تكن سلطة (السلطان) مستمدة من نظرية الحق الإلهي. كذلك لم تكن حكومة دينية بالمعنى الإسلامي التقليدي لأن (السلطان) ليس من (قريش) حسب ما تَعارف عليه المسلمون. وقد تولدت هذه القناعة لدى المسلمين من حديث منسوب إلى النبي محمد ﷺ «**الأئمة من قريش**».

لذلك، كانت سلطة (السلطان) مستمدة من قوة الجيش وولائه، وليس بموجب المسوغات الدينية على الرغم من أنه يحكم بموجب الشريعة الإسلامية[١٤١]. حيث

أصبح الطابع العسكري هو السمة الغالبة على الدولة العثمانية منذ نشأتها. وحظيت المؤسسة العسكرية برعاية السلاطين العثمانيين. وأصبحت من أهم مؤسسات النظام السياسي العثماني، خصوصًا فئة (الانكشارية) أي (المشاة النظاميين)، و(السباهية) أي (الخيالة)[١٤٢].

ويعد (بلاط السلطان) من أهم مؤسسات الدولة العثمانية. ويلي (السلطان) من حيث الأهمية منصب (شيخ الإسلام)، الذي يمثل الرئيس الأعلى لرجال الدين. وكان يُطلق على مقره (باب المشيخة).

وهناك أيضًا منصب (الصدر الأعظم) أي (رئيس الوزراء)، والذي يساعد (السلطان) في إصدار القوانين وإدارة البلاد. ويطلق على الحكومة المركزية بشكل إجمالي اسم (الباب العالي)[١٤٣].

وقد تألفت الدولة العثمانية من وحدات إدارية وعسكرية عُرفت باسم (الآيالات)[١٤٤]. وكانت كل (آيالة) منفصلة عن الأخرى إداريًا وماليًا وقضائيًا. و(الآيالة) هي أكبر وحدة إدارية، وتُقسم إلى (سناحق) أي (ألوية)، وكان يعهد بشؤون (الآيالة) إلى (باشا) يُطلق عليه (بكلر بكي) أي (بيك البكوات)، الذي يعد برتبة (أمير الأمراء). ويعهد بشؤون اللواء إلى (بيك) يُسمى (سنجق بكي) أي (بك اللواء)، ويعد برتبة (أمير اللواء).

أما (السناجق) فقد كانت تتكون من عدد من الأقضية تتراوح ما بين ٥ - ١٠ أقضية. تعهد إدارتها إلى موظف يُدعى (قائمقام)[١٤٥].

أضف إلى ذلك، قسم العثمانيون العراق في القرن السادس عشر إلى (الآيالات) الآتية:

أ - آيالة بغداد: وهي من أهم الآيالات العراقية، نظرًا لموقعها الجغرافي الكائن في وسط العراق. وتم تقسيمها إلى ثمانية عشر سنجقًا هي: الحلة، زنك آباد، الجوازر، الرماحية، جنكولة، قره داغ، درتنك، السماوة، بيات، درنة، ده بالا، واسط، كرند، دمير قبو، قزانية، كيلان، الصلاحية، العمادية[١٤٦].

ب- آيالة البصرة: فقد قُسمت حسب الوثيقة العثمانية المؤرخة في (١٥٥١ - ١٥٥٢م)

إلى ثمانية سناجق هي: البصرة، شرش، قطيف، غراف، صدر سويب، زكية، محرزي، قبان[١٤٧].

ج - **آيالة الاحساء**: التي بقيت وحدة إدارية موحدة، ولم تقسم إلى سناجق.

د - **آيالة الموصل**: التي قُسمت إلى خمسة سناجق هي: أسكي موصل، تكريت، زاخو، عانة، كشاف.

د - **آيالة شهرزور**: التي قُسمت إلى واحد وعشرين سنجقًا هي: سروج، اربل، كسنان، شهر بازار، جنكوله، جبل حمرين، هزار مرد، حرير، رودين، تيل طارى، سبه زنجبر، عجور، ايردمان، باق، برنلي، بلقاص، أوشني، قلعة غازي، ماركاه، حوران، داودان[١٤٨].

ويتكون الجهاز الحكومي في تلك الولايات العراقية من العناصر الآتية:[١٤٩]

أ - **الوالي**: وهو المسؤول عن الإدارة المدنية والعسكرية، ويساعده موظف يُعرف باسم (كتخدا)، الذي ينوب عن الوالي عند غيابه. أما (الدفتردار) فهو المسؤول عن الأمور المالية.

ب- **والقاضي يلي الوالي في المكانة الاجتماعية**. فهو المسؤول عن تطبيق العدل، والمسائل الشرعية. يساعده موظفان، يلقب الأول (صوباشي)، الذي يمثل رئيس الشرطة في وقت السلم، وقائد فرقة عسكرية وقت الحرب. والثاني يُعرف باسم (احتساب آغاسي) أي (المحتسب)، وواجبه معاونة (الصوباشي)، والإشراف على تنفيذ الأوامر، ومراقبة الأسواق.

ج - **وهناك أيضًا (آغا الانكشاريه)** وهو قائد الحامية العسكرية. و(المكتوبجي) أي (كاتب الرسائل). و(مهردار) أي (حامل الأختام). و(خزنة دار) أي (أمين الصندوق). و(احتشامات أغاسي) أي (رئيس التشريفات). و(روزنامه جي) أي (كاتب الوقائع اليومية)، وغيرهم.

مع ذلك كله، تميز تاريخ ولاية بغداد حتى أواخر القرن الثامن عشر بالاضطراب وعدم الاستقرار لأسباب عديدة[١٥٠]. لعل أهمها ما يأتي:

أ - كثرة تغيير ولاة بغداد. إذ حكم بغداد في المدة الممتدة ما بين (١٠٤٩ - ١٦٣٩م) تسعة وثلاثون واليًا، كانت لمساتهم التنموية نادرة في بغداد. وقد ساعدت سرعة تغيير الولاة على خلق ظاهرة عدم الاستقرار في بغداد.

ب- كما أن كثرة تمردات (الانكشارية)، واضطراب حالة الأمن خارج أسوار المدن أدى إلى نتائج اقتصادية وخيمة[١٥١].

ج - ورافق ذلك كثرة الأوبئة والفيضانات، التي أسهمت في تعطيل النشاطات البشرية[١٥٢].

أما في القرن التاسع عشر الميلادي، فقد أصبحت الدولة العثمانية مقسمة إلى وحدات إدارية جديدة تُسمى (الولايات). وتقسم الولاية إلى (سناجق) أي (ألوية). والسناجق إلى (أقضية). والأقضية إلى (نواحي). وكان (الوالي) على رأس الإدارة في الولاية، وعلى رأس السنجق (متصرف)، وفي كل قضاء (قائمقام)، وفي كل ناحية (مدير ناحية)[١٥٣].

وقد كان أول عمل من أعمال والي بغداد (مدحت باشا) أن أعلن تطبيق نظام الولاية في العراق، والذي سبق وأن طبقه في الدانوب. وبهذه الواسطة دخلت الترتيبات الإدارية الجديدة في العراق، والتي استمرت لغاية ١٩١٤م[١٥٤].

وضمن هذا التحديث الإداري، تم تقسيم العراق إلى أربعة ولايات هي:[١٥٥]

أ - **ولاية بغداد:** والتي تتكون من ثمانية عشر سنجقًا، إضافة إلى المركز.

ب- **ولاية الموصل:** والتي تتكون من ستة سناجق.

ج - **ولاية البصرة:** والتي تتكون من ثمانية سناجق.

د - **ولاية شهرزور:** والتي تتكون من واحد وعشرون سنجقًا، بما فيها القلاع.

ومن الجدير بالذكر، أن السلطنة وأن أصبحت في قبضة (آل عثمان)، إلاَّ أن العراق لم

يكن كله في أيديهم بخلاف ما يظن. بل كان قد تغلب على كل مدينة من مدنه الكبيرة شيوخ عشائر يحكمون فيها[١٥٦]. حيث كان طغيان النزعة العشائرية واحدًا من أهم خصائص التاريخ العراقي على عهد العثمانيين. **بحيث أنه تأثر بثوراتها وأحوالها إلى حد بعيد. وذلك لسببين أساسيين هما:**[١٥٧]

أ - لأن العراق كان، منذ عهد سحيق في القِدم، ملجأ للقبائل العربية المندفعة إليه بسبب الأحوال الجوية في شبه الجزيرة العربية، والعوامل المناخية المتبدلة فيها. وقد استمرت الموجات المتدفقة من هذه القبائل تدفع إحداهما الأخرى عبر القرون والأجيال إلى سهول ما بين النهرين وهضابها حتى تكونت منها أغلبية السكان.

ب- كما بقيت العشائر الكردية ماكثة في أوديتها وجبالها الوعرة، ومنعزلة عن العالم الخارجي، بحيث بقيت محافظة على تقاليدها على مر السنين.

وبدلًا من أن يحاول الولاة العثمانيون مساعدة هذه العشائر على الاستيطان، فإنهم كانوا يحاولون فرض نظم غريبة عليهم، بعيدة عن إدراكهم ومصلحتهم. وكان جل ما يفكر به أولئك الولاة يكمن في جباية الضرائب المرهقة منهم. وذلك عن طريق القوة والقسوة[١٥٨].

وفي ضوء ذلك، شكلت القوى العشائرية العراقية تهديدًا كبيرًا للسلطة العثمانية بحكم رفضها الخضوع لها[١٥٩]. والواقع، وأن درجت العديد من المصادر على وصفها بالتمرد والعصيان، إلا أنه يمكن احتسابها بمثابة الإرهاصات الأولية لعملية تحرير العراق من السيطرة العثمانية.

وقد شهد عهد المماليك الذين استحوذوا على الحكم من العثمانيين في بغداد بشكل مؤقت، عددًا من الانتفاضات العشائرية التي تميزت باتساعها، وعمق تأثيرها. ولعل أبرزها كانت الثورة التي امتدت من الفرات الأوسط إلى البصرة في عهد الوالي (سليمان الكبير). حيث اندلعت عام ١٧٨٧ م انتفاضة عشائرية كبيرة تزعمها الشيخ (سليمان الشاوي) من رؤساء العبيد، وكذلك الشيخ (ثويني العبد الله)، شيخ مشايخ المنتفق، والشيخ (أحمد الحمود)

شيخ الخزاعل. وقد استهدفت هذه الثورة القضاء على حكم المماليك. وقد تمكن الثوار من فرض سيطرتهم على البصرة، وتولى حكمها الشيخ (ثويني العبد الله). وبقيت البصرة تحت حكم الشيوخ العرب بضعة أشهر، ولم تخرج عنهم إلاَّ بعد أن حشد المماليك قوات كبيرة لمواجهتها. ودارت معركة بين الطرفين في مكان يُسمى (أم الحنطة) قرب البصرة، انتهت بعودة الهيمنة المملوكية[١٦٠].

كما أن إجراءات العثمانيين في تثبيت سلطانهم على منطقة البصرة، والتحكم بشبكة الطرق التجارية، دفعت أسرة (آل راشد) الشديدة المراس، إلى الثورة ضد العثمانيين. شارك فيها شيخ مشايخ (آل قشعم) الذي يُلقب (بشيخ العراقين) أي (شيخ الكوفة والبصرة). كذلك شارك بالثورة (آل مغامس) و(قبيلة المنتفق). وكذلك كانت هناك ثورة الشيخ (علي بن آل عليان) كبير مشايخ الجزائر العراقية[١٦١].

أضف إلى ذلك، كانت الولايات العراقية قد شهدت، منذ مطلع القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادي، محاولات متعددة لقوى محلية مختلفة لتأسيس حكومات عراقية محلية مستقلة.

وكانت أبرز هذه المحاولات ما يأتي:

أ - هناك قوى أجنبية نشأت أجيال منها في العراق (فاستعرقت)، وهم المماليك الذين تولوا السلطة في بغداد والبصرة خلال العهد العثماني[١٦٢].

ب- وهناك أسر عراقية خالصة، كالجليليين، والبابانيين، تولوا حكم مناطق مهمة من العراق، وساهموا في تغيير خصائص الحكم العثماني في البلاد تغيرًا واضحًا على نحو ميزهم عن عهود السيطرة العثمانية الأخرى[١٦٣]. كذلك (أسرة أفرآسياب) في البصرة التي سقطت على يد العثمانيون عام ١٦٢٤م[١٦٤].

ويبدو أن الثورات العشائرية، ونزوع بعض الأسر العراقية نحو تأسيس الحكم الذاتي، كانت من مقدمات النزعة الاستقلالية العراقية الرامية إلى استعادة الدولة العراقية القديمة.

أضـف إلى ذلك، أن العـراق، لم يكن بعيدًا عن التيارات الحضاريـة القادمة من البلدان العربية. وقد تمثلت أهم تلك التيارات، في مطلع القرن التاسع عشر، بإصلاحات (محمد علي الكبـير) والي مـصر القوي. **أن تلك الإصلاحات كان لها تأثـيرات قوية على مجمل الأوضاع العامة في الولايات العراقية. وذلك من الجهات الآتية:**[١٦٥]

أ – أدى تقويـض جيـوش (محمد علي الكبير) لأركان السـيطرة العثمانية في الشـام عام ١٨٣٢م، وضمها مدن دمشق، وحمص، وحماه، وحلب، إليها، إلى إحداث عدد من التغيرات السياسـية والاجتماعية داخل الولايات العراقية، لعل أبرز معالمها نشوب الثورات في عدد من المدن العراقية الكبيرة ضد السلطات العثمانية فيها.

ب– كما جرت اتصالات عديدة بين الثوار العراقيين والقيادة المصرية في الشام. وذلك لتشـجيعها على التقدم نحو العـراق، وضمه بأكمله إلى الدولـة الجديدة المقامة في الشام ومصر.

ج – وتعهد شـيوخ قبائل شـمر والعقيل وزبيد بالعمل على تحرير العراق من السـيطرة العثمانية.

د – وأظهر متصرفا عانة وهيت انضمامهما إلى جانب مصر. فزاد ذلك من حراجة الموقف العثماني في بغداد. ونشـبت، فعلًا، ثـورة في الجانب الشرقي من بغداد عام ١٨٣١م بزعامة مفتي المدينة (عبد الغني آل جميل). ثم نشبت ثورة أخرى في الجانب الغربي من بغداد.

كما أسـس العرب القوميون في العراق أحزابًا وجمعيات عراقية مسـتقلة عن الجمعيات العثمانية المعروفة. وقد لعبت تلك الأحزاب والجمعيات أدوارًا مختلفة في التصدي لسياسـة التتريك التي نشطت إليها (جمعية الاتحاد والترقي).

ففي بغداد أسـس نفر من العراقيين (جمعية المشـورة) بهدف ضرب نشـاط الاتحاديين، والمطالبـة بالحكـم الـذاتي للعرب. كما قـام عدد من الشـباب المثقف بتأسـيس جمعية عراقية عُرفـت باسـم (النـادي الوطنـي العلمـي) عـام ١٩١٢م، كان هدفها تطبيق الحكـم الذاتي

للعـرب ضمـن نظام اللامركزية. وقـام عراقيون آخرون في الموصل بتأسـيس (جمعية العلم السرية) عام ١٩١٤م، والتي اتسم عملها بالثورية، وتهدف إلى تأسيس دولة عربية مستقلة. وفي البـصرة أنشـأ (طالب النقيب) جمعية أخرى تُدعى (جمعيـة البصرة الإصلاحية)، والتي كانـت من أقوى التنظيمات القومية، وأكثرها نشـاطًا في العراق[١٦٦]. وفي ٢٨ تشرين الأول عام ١٩١٣م، أسس (عزيز علي المصري)، الذي كان ضابطًا في الجيش العثماني، جمعية عربية سرية باسـم (جمعيـة العهـد). وكان أغلب أعضائهـا من الضبـاط العراقيين أمثـال (نوري السـعيد، ياسين الهاشمي، جميل المدفعي، مولود مخلص، علي جودت الأيوبي، طه الهاشمي، وغيرهم)[١٦٧].

وبذلـك، خـرج العراق من القرن التاسـع عشر الميلادي، بمقدار واسـع من التخلف، والفتـن الطائفيـة من جهة، بيد أنه تهيأ لولادة جديدة تحت الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧م من جهة أخرى. وهذا ما سنعرج عليه في المبحث الآتي.

المبحث الرابع

العراق في عهد الاحتلال البريطاني (١٩١٧ – ١٩٢١م)

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في ١٨ تموز ١٩١٤م، بين الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، روسيا، إيطاليا) ودول المحور (ألمانيا، النمسا، بلغاريا)، **كان العثمانيون يميلون للوقوف على (الحياد) حتى آخر لحظة ممكنة. وذلك لسببين أساسيين هما:**

أ – أن العثمانيين كان يعوزهم المال والسلاح لإدارة ماكنة الحرب.

ب– كما قدر الساسة العثمانيون، أن الدخول في الحرب ستؤدي إلى حل (المسألة الشرقية) حلًا تكون فيه الإمبراطورية العثمانية أولى ضحاياها.

لذلك نصحوا بعدم المغامرة. بيد أن تحالفهم مع ألمانيا لابد وأن يجرهم، عاجلًا أم آجلًا، إلى الدخول في الحرب، خصوصًا بعد أن أظهرت ألمانيا استعدادها لتقديم المال والسلاح للقوات العثمانية.

وعلى هذا الأساس، دخلت الدولة العثمانية الحرب في ٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م. وذلك بقصف بوارجها الموانئ الروسية في البحر الأسود. وفي الثاني من تشرين الثاني أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية. وتلتها فرنسا وبريطانيا في الخامس من تشرين الثاني ١٩١٤م[١٦٨].

وبموجب هذا الموقف، أصبح العراق ميدانًا واسعا لحروب دامية بين القوات البريطانية والقوات العثمانية. وذلك لعدة أسباب منها:

أ – بحكم ارتباط العراق بالهند برباط التجارة العريقة في القدم. وهذه العرى زادت استحكامًا عند ازدياد التجارة وتوسعها، وتيسر شؤون نقلياتها. وهذه الأمور لم تكن لها أن تتم لو لم تتخذ الوسائل المروجة لأمور النقل بين بريطانيا وبلاد الهند. وبذلك، أصبحت النقليات ما بين الهند والعراق أكثر سهولة.

ب- كذلك بحكم المواصلة ما بين الهند والبصرة عن طريق الخليج العربي. هذه المواصلة التي تمت برعاية الدولة البريطانية منذ العقد الأول من القرن الثامن عشر الميلادي. حيث قامت بريطانيا، منذ ذلك الحين، بإنارة الخليج العربي، وحمايته من القرصنة[١٦٩].

ج - كما أن السيطرة على الخليج العربي، وحماية المصالح الحيوية البريطانية فيه، كانت إحدى دوافع الحرب على أرض العراق. إذ أعلن (سكويش) رئيس الوزراء البريطاني في كلمة له في مجلس العموم البريطاني (بأن القصد من وراء إرسال قوة... إلى العراق كان ضمان حياد العرب، والحفاظ على مصالحنا في الخليج العربي، وحماية حقول النفط، ولصيانة رايتنا في الشرق بصفة عامة)[١٧٠].

وضمن هذه الحسابات، تقدمت القوات البريطانية، واحتلت البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤م[١٧١]. وبهذه الخطوة، ارتفعت هيبة بريطانيا لبعض الوقت (وتوفرت الإمكانية للحيلولة دون قيام تحالف عربي تركي)[١٧٢]. وذلك لأن البصرة تمثِّل باب العراق أو مفتاحه، الذي يؤمِّن لبريطانيا احتلال العراق كله[١٧٣].

ثم توالى احتلال بريطانيا للمدن العراقية بعد البصرة. حيث زحفت القوات البريطانية نحو (العمارة) في ٣ حزيران ١٩١٥م، فاحتلتها. ثم استولت على (الناصرية) في ٢٥ تموز ١٩١٥ بعد معارك دامية.[١٧٤] وبهذا سيطرت القوات البريطانية على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية. وبذلك أمنوا تطويق الخليج العربي، وإزاحة العثمانيين عنه.

ثم تقدمت القوات البريطانية نحو (الكوت). حيث حلت بهم هزيمة كبيرة على يد العثمانيين، بحيث اضطروا إلى التسليم للعثمانيين في ٢٩ نيسان ١٩١٦ بعد حصار شديد عليهم دام خمسة أشهر. ولم تتمكن القوات البريطانية من احتلال (الكوت) إلاَّ في نهاية عام ١٩١٦ م حين استطاعت إخراج القوات العثمانية منها. وبعدها استمر زحفهم حتى دخلوا (بغداد) في ١١ آذار ١٩١٧م[١٧٥].

وبعد احتلال بغداد في ١١ آذار ١٩١٧م، أنشأت بريطانيا هيئة إدارية برئاسة حاكم

عسكري. وكان أول هؤلاء الحكام (العميد هوكر). ثم تم تأسيس (هيئة استشارية) و(لجنة شؤون بغداد الصحية والإعمارية)، وكانت جميع الدوائر العسكرية في المدينة ممثلة فيها[١٧٦].

وحين أعلنت (هدنة مودروس) في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨م، التي أنهت العمليات القتالية بين الدولة العثمانية والحلفاء، والتي وقعها وزير الشؤون البحرية (رؤوف أوروباي بك)، والأدميرال البريطاني (سومرست آرثر غوف)، كانت الجيوش البريطانية في مدى اثني عشر ميلًا من (الموصل). حيث بادرت باحتلالها تحت تفسير البريطانيين ومفاده، بأن شروط الهدنة تعطي الغازي الحق بأن يحتل نقاطًا تكون ضرورية من الناحية الاستراتيجية للسيطرة على المنطقة التي جرى احتلالها قبلًا. وكان مثل هذا التفسير للهدنة يحتسب دليلًا على رغبة البريطانيين في الاستيلاء على الموصل.[١٧٧] وبذلك، انطوت آخر صفحة من صفحات الدولة العثمانية في العراق، بعد أن أتم الجيش البريطاني احتلال العراق كاملًا عام ٩١٨ م.

وفي ٢٥ نيسان ١٩٢٠م، وضعت عصبة الأمم (العراق) تحت الانتداب البريطاني، بمقتضى قرار (مؤتمر سان ريمو)، الذي جاء وفق (معاهدة سيفر) وباتفاق مجلس الحلفاء الأعلى[١٧٨]. وقد أشار (هنري فوستر) إلى سلبية ذلك النظام بقوله: (يمثِّل إنشاء نظام الانتداب في العراق من قبل عصبة الأمم، تطبيق فكرة غريبة عن صياغة الدساتير. ومهما كان الأمر، فإن هذه الفكرة كانت واحدة من قمم لعبة المؤثرات العالمية)[١٧٩]. **وذلك لأنها جسدت المعطيات الآتية:**

أ - قد أظهر هذا النظام الدول الأوروبية كعامل جديد ومهيمن في الشرقين الأدنى والأوسط.

ب- كما أنه أبرز مشروعًا استعماريًا جديدًا بسط الحماية على العراق، وتحكم بمقدراته. وصفه (لونكريك) بأنه كان (سلطويًا ودخيلًا ومسيحيًا. ولهذه الأسباب لم يكن منسجمًا وطبيعة البلد، ولم يكتسب شعبية)[١٨٠].

لذلك لم يحظ الانتداب البريطاني على العراق. منذ البدء، بقبول شعبي إنما قوبل باستياء واضح، وأصبح موضوع إلغائه، غير المشروط، في مقدمة الأهداف الوطنية لثوار العراق، خصوصًا لدى الطبقة المثقفة والطبقة السياسية، التي كانت قد شهدت المزيد من التنامي في أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها. إذ كانت تلك الطبقات المثقفة منجذبة إلى التحرر الكامل، والاستقلال الوطني الناجز.

مع ذلك كله، تعاقب على حكم العراق، في حقبة الاحتلال البريطاني المباشر (١٠١٧ – ١٩٢١م)، ثلاثة حكام بريطانيين هم:[١٨١]

أ – **الجنرال ستانلي مود (١١ آذار – ١٨ تشرين الثاني ١٩١٧م)**: كان الجنرال (مود) قائدًا للقوات البريطانية، التي زحفت نحو بغداد، واحتلتها. ولعله من القادة العسكرين الأكفاء. حيث دخل معارك ضاربة مع العثمانيين، فانتصر فيها الواحدة تلو الأخرى. وقد اشتهر ببيانه المعروف (بيان مود) الموجه للعراقيين في ١٩ آذار ١٩١٧.

ب– **آرنولد ولسن (١٩١٨ – ١٩٢٠)**: كان الحاكم السياسي العام في العراق. وكان ضابطًا شابًا في الرابعة والثلاثين من عمره. ولعل أهم ما يُؤخذ عليه أنه لم يفهم طبيعة المجتمع العراقي. فضلًا عن إيمانه برسالة (الرجل الأبيض في تمدين الشعوب). لذلك كان يعتقد أن العراقيين غير قادرين على حكم أنفسهم.

ج – **السير برسي كوكس (١٩٢٠ – ١٩٢١م)**: شغل منصب مندوب الحكومة البريطانية السامي في العراق. وكان رجلًا هادئًا، حليمًا، لينًا على عكس ما كان عليه سلفه الذي تميز بالصرامة والشدة.

ويعتقد (الكرملي) أن في الاحتلال البريطاني للعراق، تكمُن منفعة للبلاد العراقية لأنه على حد قوله (كانت الدولة البريطانية تحب دائمًا إعمار العراق وترقيته، وجمع كلمة أهاليه، وضم شتاتهم لما بين العراق والدولة البريطانية من التآلف والتقارب والتضافر التي وجدت بين الإنكليز وأبناء العرب منذ قرون متطاولة، وأجيال متتالية تناقلت تلك المشاعر الطيبة)[١٨٢].

وقد استدل على ذلك، من خلال المعطيات الآتية:[١٨٣]

أ – لما لمس العراقيون أن الانكليز يعنون ببلادهم، بحيث لم تجاريهم في ذلك أي دولة من الدول الافرنجية. وهي لم تنقطع من أن تبذل المبالغ الطائلة في سبيل نفعهم، وتفرغ ما في وسعها لتحسين شؤونهم العمرانية والأدبية والتجارية. وبذلك تحققوا أن بريطانيا هي الدولة الوحيدة المستعدة لأن تعاونهم في أمورهم على حد قوله.

ب– أن العرب، بما فيهم العراقيين، كانوا نافرين من سوء معاملة الأتراك لهم. حيث كان (التورانيون الأتراك) يرون أن أبناء لغة الضاد غير مقتنعين بأفكارهم، بل يعارضونهم في كثير من خططهم وأفكارهم على حد قوله. لذلك قال الكرملي: (وما زالت الحرب بين الترك والبريطانيين سجالًا حتى انجلت عن جلاء الأتراك عن بغداد في ليلة ١١ آذار ١٩١٧. فكان في المدينة من الفرح بمنقذيهم الإنكليز ما لا يصفه واصف مما ذكرته الجرائد المحلية وغير المحلية. وشاد به الشعراء في قصائدهم ومنظوماتهم).

ج – كما استدل على ذلك، من مناشدة شيوخ البلاد وأكابرهم مرارًا للقنصل البريطاني أن يحمل دولته على أن تأخذ هذه البلاد تحت أجنحة حمايتها. بيد أن القنصل البريطاني كان يضطر إلى أن يصرف أولئك الرجال بشيء من اللباقة والدبلوماسية؛ لأن بريطانيا كانت في علاقة صداقة مع السلطنة العثمانية في حينه.

د – كما يعتقد (الكرملي) بأن بريطانيا، دون سواها، تعرف قيمة البلاد العراقية العريقة، وتعرف قيمة سكانه الذين يمتازون بالحيوية، والبعد الحضاري. لذلك بدأت بتحسين شؤونه من مد سكك الحديد، وتنشيط الزراعة، وفتح الطرق التجارية، وزيادة عدد البواخر، وفتح المدارس، وإنشاء محطات الكهرباء وغيرها.

ومهما يكن التقييم العام لوجهة نظر (الكرملي) سلبًا أم إيجابًا، دقة أم مبالغة، مبدئيًا أم براغماتيًا، فإن واقع الحال، يدل على أن الاحتلال البريطاني للعراق كان واحدًا من أهم مقدمات ولادة الدولة العراقية الحديثة، التي تستمد وجودها، في الأصل، من عمقها التاريخي الفريد. وهذا ما سنعرج عليه في الفصل الآتي.

هوامش الفصل الثامن

(١) محمد صالح داود القزاز، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٧.
(٢) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.
(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ١، مطبعة بغداد، بغداد ١٩٣٥، ص ٨١.
(٤) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.
(٥) عباس العزاوي، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩، ص ٥٥.
(٦) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره. ص ٤٥.
(٧) جعفر حسين خصباك، العراق في عهد المغول الايلخانين، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٨، ص ٢.
(٨) للتفصيل حول هؤلاء السلاطين انظر: باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧ - ٩١.
(٩) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(١٠) عباس العزاوي، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨ - ١٨٠.
(١١) محمد صالح داود القزاز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٨.
(١٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠، ص ٢٧٢.
(١٣) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣ - ١٧٤.
(١٤) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥.
(١٥) ابن الغوطي، الحوادث الجامعة، ج ٤، بغداد ١٣٥١ هجرية، ص ٣٣٤
(١٦) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٣، القاهرة ١٣٥٦ هجرية، ص ٢٠٢.
(١٧) الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، حيدر آباد ١٣٣٧ هجرية، ص ١٢.
(١٨) جعفر حسين خصباك، مصدر سبق ذكره، ص ٤.
(١٩) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٦.
(٢٠) جعفر حسين خصباك، مصدر سبق ذكره، ص ٤.
(٢١) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.
(٢٢) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.
(٢٣) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ٢٣٢.
(٢٤) جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج ١، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧١، ص ٧.
(٢٥) جعفر حسين خصباك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٤.
(٢٦) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤ - ٨٦.صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٨.
(٢٧) للتفصيل انظر: ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦ - ٩٠.
(٢٨) فاروق عمر فوزي، مصدر سبق ذكره، ٣٦٩.
(٢٩) حول مقاومة أربيل انظر: عباس العزاوي، ج ذ، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣ - ٢١٦.

(٣٠) جعفر حسين خصباك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.
(٣١) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٧٢.
(٣٢) المصدر السابق، ص ٧٢ - ٧٣.
(٣٣) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٨. نوري عبد الحميد خليل، الصراع العراقي - الفارسي منذ سقوط بغداد حتى القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي، ضمن كتاب (الصراع العراقي الفارسي)، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤ - ١٩٥.
(٣٤) عباس العزاوي، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.
(٣٥) جعفر حسين خصباك، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.
(٣٦) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(٣٧) ابن الغوطي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٦.
(٣٨) المصدر السابق، ص ٣٣٢، عباس العزاوي، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١ - ٢٠٤.
(٣٩) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.
(٤٠) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٩
(٤١) عباس العزاوي، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
(٤٢) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٨.
(٤٣) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٩١.
(٤٤) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.
(٤٥) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣.
(٤٦) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٢، الدار العربية للموسوعات (بدون تاريخ)، ص ٣٤٧.
(٤٧) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٢
(٤٨) ستيفن همسلي لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(٤٩) عباس العزاوي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
(٥٠) المصدر السابق، ص ٣١.
(٥١) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٢
(٥٢) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.
(٥٣) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٣
(٥٤) للتفصيل انظر: باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣ - ١٠٥.
(٥٥) عباس العزاوي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٨.
(٥٦) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢، ص ٦٤.
(٥٧) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥ - ٣٦.
(٥٨) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.
(٥٩) المصدر السابق، ص ١٠٣.
(٦٠) عباس العزاوي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٨.

(٦١) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٦
(٦٢) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦.
(٦٣) المصدر السابق، ص ١١٨.
(٦٤) المصدر السابق، ص ١١٩.
(٦٥) عباس العزاوي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤ - ١٢٥.
(٦٦) نوري عبد الحميد خليل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ -٢٠٢.
(٦٧) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦.
(٦٨) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٣، الدار العربية للموسوعات (بدون تاريخ)، ص ٢٦.
(٦٩) ستيفن همسلي لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(٧٠) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ٥٥٨.
(٧١) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.
(٧٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، ص ٣٦.
(٧٣) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥.
(٧٤) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٩.
(٧٥) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦ - ٣٧.
(٧٦) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٨
(٧٧) للتفصيل انظر: باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩ - ١١٨.
(٧٨) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.
(٧٩) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧١.
(٨٠) ستيفن همسلي لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(٨١) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩١.
(٨٢) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦١
(٨٣) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٨.
(٨٤) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.
(٨٥) ستيفن همسلي لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(٨٦) كمال السيد، نشوء وسقوط الدولة الصفوية، مكتبة فدك، قم ٢٠٠٥، ص ٣٢٤.
(٨٧) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٢ - ٣٠٣. انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.
(٨٨) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.
(٨٩) للتفصيل انظر: باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١ - ١٣٠.
(٩٠) ستيفن همسلي لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(٩١) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٢ - ٥٦٣.
(٩٢) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣.
(٩٣) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٩٤) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨.
(٩٥) كمال السيد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٩.
(٩٦) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٢.
(٩٧) المصدر السابق، ص ١٤٤.
(٩٨) كمال السيد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٠.
(٩٩) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧ - ٣٨.
(١٠٠) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٣. انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠. باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.
(١٠١) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٣
(١٠٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، ص ٣٨.
(١٠٣) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨ - ١٤٩.
(١٠٤) المصدر السابق، ص ١٤٩ - ١٥٠.
(١٠٥) المصدر السابق، ص ١٥١.
(١٠٦) كمال السيد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(١٠٧) المصدر السابق، ص ٣٧.
(١٠٨) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٣١١ - ٣١٣. ستيفن همسلس لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.
(١٠٩) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٤
(١١٠) للتفصيل انظر: باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، ص ١٣٥ - ١٣٧.
(١١١) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١ - ٢٥٢.
(١١٢) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٨.
(١١٣) المصدر السابق، ص ٣٤٥ - ٣٥٢. صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٥.
(١١٤) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.
(١١٥) المصدر السابق، ص ٣١٣.
(١١٦) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٩.
(١١٧) للتفصيل انظر: باقر أمين الورد، حوادث بغداد، ص ١٨٢ - ١٩١.
(١١٨) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٦.
(١١٩) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦.
(١٢٠) كمال السيد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩ - ٥٠.
(١٢١) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧.
(١٢٢) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٤.
(١٢٣) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٨.

(١٢٤) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢.
(١٢٥) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٤.
(١٢٦) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.
(١٢٧) عباس العزاوي، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٣.
(١٢٨) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠. باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.
(١٢٩) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٦
(١٣٠) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥ - ١٧٦.
(١٣١) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٦ - ٥٦٧.
(١٣٢) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨، ص ٣٢.
(١٣٣) جعفر الخياط، مصدر سبق ذكره، ص ٨.
(١٣٤) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص٣٢.
(١٣٥) جعفر الخياط، مصدر سبق ذكره، ص ٨ - ٩.
(١٣٦) علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني، منشورات مكتبة ٣٠ تموز، نينوى ١٩٨٥، ص ٢٠.
(١٣٧) جعفر الخياط، مصدر سبق ذكره، ص ٩ - ١٠.
(١٣٨) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦. ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.
(١٣٩) صالح محمد العابد، عماد عبد السلام رؤوف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٧ - ٥٧٨.
(١٤٠) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(١٤١) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦.
(١٤٢) المصدر السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣.
(١٤٣) المصدر السابق، ص ١٧٧.
(١٤٤) الآيالة: مفردة عربية تعني إقليم أو جهة يحكمها وال. أما في المفهوم العثماني، فتطلق على أكبر وحدة إدارية في الدولة العثمانية. انظر: Inalcik Hall, The Encyclopadia of Islam, art. Eyalet, New edition, London 1965, Vol. 2, p. 721 - 722.
(١٤٥) للتفصيل انظر: ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٧ - ٢٨٠
(١٤٦) علي شاكر علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢.
(١٤٧) نسخة مصورة من هذه الوثيقة في مكتبة الدراسات العليا - كلية الآداب/ جامعة بغداد.سجلات الدولة العثمانية، ولاية الموصل، رقم ١٢٥٣.
(١٤٨) علي شاكر علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣ - ٢٤.
(١٤٩) صالح العابد، عهد الحكم العثماني الأول، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٤.
(١٥٠) علي شاكر علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩.

(١٥١) صالح العابد، علاء موسى كاظم نورس، العثمانيون يستعيدون حكم العراق، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٦ - ٥٨٧.
(١٥٢) حول تلك الأوبئة والفيضانات انظر: باقر أمين الورد، حوادث بغداد، ص ٨٣ - ٢٠٠.
(١٥٣) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.
(١٥٤) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٥.
(١٥٥) صالح العابد، عهد الحكم العثماني الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٣.
(١٥٦) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٦.
(١٥٧) للتفصيل انظر: ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١ - ١٠٦.
(١٥٨) جعفر الخياط، مصدر سبق ذكره، ص ١٤ - ١٥.
(١٥٩) علاء موسى كاظم نورس، عماد عبد السلام رؤوف، عهد المماليك والأسر الحاكمة، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، ص ٦١٢.
(١٦٠) المصدر السابق، ص ٦١٣.
(١٦١) صالح العابد، عهد الحكم العثماني الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٦.
(١٦٢) للتفصيل انظر: ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠ - ٧٦.
(١٦٣) علاء موسى كاظم نورس، عماد عبد السلام رؤوف، عهد المماليك والأسر الحاكمة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٣ - ٦٠٤.
(١٦٤) للتفصيل انظر: ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧ - ١٣٤، ص ١٣٧ - ١٤٥.
(١٦٥) علاء موسى كاظم نورس، عماد عبد السلام رؤوف، عهد الاحتلال العثماني الأخير، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣٨.
(١٦٦) ايناس سعدي عبد الله، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.
(١٦٧) المصدر السابق، ص ٤٨٦.
(١٦٨) المصدر السابق، ص ٥٨٦ - ٥٨٧.
(١٦٩) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧.
(١٧٠) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص٦٩.
(١٧١) هالة فتاح، فرانك كاسو، موجز تاريخ العراق ١٩١٤ - ٢٠٠٨، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، دار المرتضى، بغداد (بدون تاريخ)، ص ١٥.
(١٧٢) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩ - ٧٠.
(١٧٣) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٠.
(١٧٤) مصطفى عبد القادر النجار، عهد الانتداب، ضمن كتاب (العراق في التاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦٣.
(١٧٥) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.
(١٧٦) ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٢.
(١٧٧) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
(١٧٨) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٢.

(١٧٩) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(١٨٠) ستيفن همسلي لونكريك، العراق، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.
(١٨١) باقر أمين الورد، بغداد خلفاؤها، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧ - ٢٨٩.
(١٨٢) انستاس ماري الكرملي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.
(١٨٣) للتفصيل انظر المصدر السابق، ص ٢٦٨ - ٢٧١.

الفصل التاسع

ولادة الدولة العراقية الحديثة

سنعرج في هذا الفصل على ثلاثة محاور أساسية هي:

أولًا: مقدمات الدولة العراقية الحديثة.

ثانيًا: لفظة العراق ونمو الوعي الوطني.

ثالثًا: النظام السياسي للدولة العراقية الحديثة.

المبحث الأول

مقدمات الدولة العراقية الحديثة

بعد الاحتلال البريطاني لبغداد عام ١٩١٧م، تهيأت المقدمات المناسبة لإعادة تأسيس الدولة العراقية من جديد. وقد كانت تلك المقدمات على نوعين أساسيين هما:

أولًا: المقدمات البريطانية.

ثانيًا: المقدمات العراقية.

المطلب الأول

المقدمات البريطانية لنشأة الدولة العراقية الحديثة

أدركت بريطانيا أهمية العراق، وعرفت قيمة سكانه منذ وقت مبكر. لذلك كان احتلالها للعراق قد مهَّد الطريق لولادة الدولة العراقية الحديثة تحت إشرافها ووصايتها. لذلك قامت بعدة خطوات، أسهمت بولادة الدولة العراقية الحديثة. لعل أهمها ما يأتي:

أولاW: بيان لجنرال مود في ١٩ آذار ١٩١٧ م[١]

مثَّل بيان الجنرال (مود) أول وعد من وعود بريطانيا، الذي صدر من أكبر رجل بريطاني ذي صلاحية. **حيث تضمن هذا البيان وعودًا باستقلال العراق، والتذكير بمكانته وتاريخه وحضارته. وممكن أن نلخص ما ورد في البيان بما يأتي:**

أ – أكد البيان على أن القوات البريطانية التي احتلت العراق سوف لن تكون قوات احتلال إنما قوات تحرير. وذلك بقوله: (أن الجيوش البريطانية لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء بل بمنزلة محررين).

ب– كما أكد البيان على رغبة بريطانيا في تنمية روح الاستقلال لدى العراقيين، وتهيئتهم لإدارة شؤون بلادهم. وذلك بقوله: (لا يجب عليكم أن تظنوا بأن رغبة الحكومة

البريطانيـة هي تكليفكم نظامات أجنبية، فأمنيـة الحكومة البريطانية هي أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسـفتكم وكُتَّابكم مرة أخرى. ولسوف يسعد أهالي بغداد حالهم، ويتمتعون بالغنى المالي والمادي بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة).

ج - كـما دعـا البيـان أعيان بغـداد للاشـتراك في إدارة شـؤون بلادهم. وذلـك بقوله: (إني مأمـور بدعوتكـم بواسـطة أشرافكـم والمتقدمـين فيكـم سـنًا وممثليكـم إلى الاشتراك في إدارة مصالحكم الملكية لمعاضدة ممثلي بريطانيا).

د - وأدرك البيـان مـدى الظلـم الذي ألحـق بالعراقيين منذ الاحتلال المغـولي للعراق. وذلك بقوله: (أخضع مواطنكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء).

و - كـما تحـدث البيان عن العصر الذهبـي لبغداد. وذلك بقوله: (كانـت بغداد إحدى غرائـب الدنيا). كما تحدث بلغة المصلحة مع العراقيين. وذلك بقوله: (فقد تعاطى تجار بغداد وتجار بريطانيا العظمى بعضها مع بعض مدة مئتي سـنة متبادلين المنفعة والصداقة).

وعلى هذا الأسـاس (أمل الأهلون خيرًا من هذا الوعد، وأخذ الناس يسـتبشرون)[٢]. بوصفه أول وعد رسمي يشجع العراقيين على المطالبة بالاستقلال[٣].

ثانيًا: التصريح البريطاني - الفرنسي في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨م

ومن التصريحات الأخرى التي شجعت على استقلال العراق كان (التصريح البريطاني - الفرنسي) الصادر في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨م، والذي أكد على أن غاية الحلفاء من دخول الحـرب تكمُـن في تحرير الشـعوب، وتأسـيس حكومات وطنية تسـتمد سـلطتها من رغبة السكان الوطنيين ومحض اختيارهم[٤].

وقـد قوبـل هذا التصريـح بالتصديـق أكثر من غـيره، لأنه صـدر بعد انتصـار الحلفاء في الحـرب العالميـة الأولى[٥]؛ ولأن لـه نوعًا من صفـة الالتزام الدولي بحكـم أنه صادر من جهات مسؤولة وهي وزارتي الخارجية في كلا البلدين[٦].

ثالثًا: الاستفتاء البريطاني حول مستقبل العراق في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م

في أحد اجتماعات (لجنة الشؤون الشرقية) في مجلس الوزراء البريطاني، اقترح (لورنس) تشكيل ثلاث دول (شريفية) في سوريا، والعراق الأعلى، والعراق الأسفل، تحت رئاسة ثلاثة من أنجال الشريف حسين. وقد أبرقت اللجنة بهذا الاقتراح إلى الحاكم السياسي في العراق (ولسن) ليبدي رأيه فيه. وكان رأيه مؤيدًا لهذا الاقتراح على شرط أن تكون هناك دولة عراقية موحَّدة تحت الإشراف البريطاني. كما أكد على أن تنصيب أحد أنجال الشريف حسين ملكًا على العراق سيلاقي ترحيبًا وقبولًا في بغداد. كما يُحتمل قبوله خارج بغداد أيضًا[٧].

وعلى هذا الأساس، طلبت الحكومة البريطانية منه أن يستفتي أهل العراق في ثلاث مسائل هي:[٨]

أ – هل يرغبون في دولة عربية واحدة تحت الرعاية البريطانية؟

ب– وإذا قبلوا بذلك، فهل يوضع على رأس الدولة شخص عربي؟

ج – وفي حالة قبولهم الحالة الثانية، فمن يفضلون أن يكون رئيسًا للدولة؟

وقد تم إجراء الاستفتاء العام يوم ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م[٩]. ورغم أن الحكومة البريطانية كانت قد طلبت من (ولسن) أن يحصل على إفصاح حقيقي للرأي العام العراقي، وأن يتبع تعليماتها حرفيًا، بيد أنه خالف أرادة حكومته. حيث أراد أن يجعل نتائج الاستفتاء مطابقة لمقترحاته القاضية ببقاء الإدارة البريطانية في العراق، ورفض تأسيس ملكية مستقلة فيه بشكل كامل. حيث أكد ذلك في المذكرة التي أرسلها إلى الحكام السياسيين البريطانيين في الألوية العراقية في نفس يوم الاستفتاء[١٠]. وعمل بكل طاقته من أجل جعل نتائج الاستفتاء مطابقة لمقترحاته. ولذلك فإن معظم مثقفي العراق أُبعدوا عن الاستفتاء عن عمد لكي لا يكون لهم تأثير مباشر للمطالبة بحكومة ملكية مستقلة[١١]. واقتصر الاستفتاء على رؤساء العشائر ووجهاء المدن الموالين[١٢]، من الذين كانوا يدعون للاجتماعات التي

كانـت تُعقـد لهذا الغرض، ويصرحون فيهـا بآرائهم. لذلك كانت نتيجة الاسـتفتاء مطابقة لوجهة نظر (ولسن)[١٣].

وقـد تطـرَّق التقريـر الذي رفعته البعثـة المؤلَفة وفقًـا لقرار مجلس عصبـة الأمم في ٣٠ أيلول ١٩٢٤ م إلى الطريقة التي تم بها الاستفتاء. إذ ورد في التقرير (أن الطريقة التي تم بها الاسـتفتاء بصورة عامة، هي عبارة عن جمع الأشراف، وشـيوخ العشائر، وممثلي الطوائف، واستطلاع آرائهم، ولم يستفسر عن أي رأي فردي أو سري)[١٤].

ورغم أن هذا الاستفتاء ساهم برفع مستوى الوعي العام، ومثَّل أحد مقدمات تأسيس الدولـة العراقيـة الحديثة، بيـد أن نتائجه كانت محبطـة للعراقيين لأنها جاءت بشـكل مغاير لإرادة العراقيين، وسعيهم نحو الاستقلال الناجز.

المطلب الثاني
المقدمات العراقية لنشأة الدولة العراقية الحديثة

يبدو أن هذه التصريحات والوقائع البريطانية، كان لها أثر ملموس في نفوس الطبقة العراقية المثقفة. حيث أنهم اسـتندوا عليها، في أحيان كثـيرة، أثناء مطالبتهم بحقوقهم في الاسـتقلال وتقريـر المصير[١٥]. بيد أن مماطلة البريطانيـين بتنفيذ تلك الوعود، أقنع الثوار العراقيين بأنه لا طريق لهم للحصول على الاسـتقلال سوى الثورة المسلحة[١٦]. حيـث شـهد العـراق، في عهد الاحتـلال البريطـاني، انتفاضات مسـلحة. لعـل أهمها ما يأتي:

أولاً: انتفاضة النجف ١٩١٨م

بـدأت (جمعيـة النهضة الإسـلامية) تعمل على نشر الثقافـة الوطنيـة المناوئة للاحتلال البريطاني بين القبائل المحيطة بالنجف، وبين حملة السلاح في النجف ذاتها. وذلك من أجل تحرير العراق[١٧].

وعندمـا اتضـح أمر هذه الجمعية لدى سـلطات الاحتـلال، قرر (نجم البقـال) القيام

بمفاجأة السلطة عن طريق قتل الكابتن (مارشال) حاكم النجف السياسي. وبالفعل شرع بقتله يوم ١٩ آذار ١٩١٨ م في دار الحكومة البريطانية[١٨].

ولقد تظاهر الأهالي بدفع التهمة عنهم، وأبدى (بلفور) حاكم النجف والشامية تظاهره بالاقتناع بذلك. وبذلك انتهى مقتل (مارشال) بسلام[١٩]. إلاَّ أن مقتل (شرطيين) على يد أعضاء من (جمعية النهضة الإسلامية)، أدى إلى توتر الوضع، وهروب (بلفور) إلى الكوفة بعد أن جرت محاولة لاغتياله. وبالتالي سيطر الثوار العراقيون على المدينة[٢٠].

وعلى أثر ذلك، عاد (بلفور) على رأس قوة عسكرية، وفرض حصارًا على النجف استمر (٤٥) يومًا[٢١]. وقد فرض على الثوار الشروط الآتية:[٢٢]

أ - تسليم كافة الثوار بلا قيد ولا شرط.

ب- غرامة ألف بندقية، وخمسين ألف روبية، على كل الذين لهم يد في الانتفاضة.

ج - تسليم مائة شخص من المحلات الثائرة إلى الحكومة البريطانية لسوقهم من النجف بصفة أسرى حرب.

وفي أثناء الحصار، فإن البريطانيين غيروا من سياستهم إزاء عشائر الفرات الأوسط. وذلك برفع الضرائب عنهم في ذلك الحين، وتقربوا إلى بعض الشيوخ، وقدموا لهم الأموال[٢٣]. وبثوا بذور التفرقة بين الأهالي والثوار، فنجحوا في ذلك نجاحًا ملموسًا[٢٤].

كما أن معظم رجال الدين لم يؤيدوا هذه الانتفاضة المسلحة، خاصة المرجع الديني الأعلى (كاظم اليزدي)[٢٥]، الذي وصف الثوار (بالأشقياء) وليس (بالثوار)[٢٦]. ولم يسهم بالانتفاضة من رجال الدين إلاَّ القليل منهم[٢٦].

أضف إلى ذلك، فإن القبائل المحيطة بالنجف لم تقدِّم لهذه الانتفاضة أي مساعدات[٢٧]. ولهذا انتهت الانتفاضة بالفشل، وسلم الثوار بالشروط المفروضة عليهم. وبذلك رفع الحصار عن المدينة[٢٨]. وأحيل الثوار إلى المحكمة التي قررت إعدام (٣١) ثائرًا، وسجن (٩) أشخاص، ونفي (١٢٣) آخرين[٢٩].

أن هذه الانتفاضة، وإن انتهت بالفشل، بيد أنها كانت مدعاة لتفكير أهالي الفرات بشكل خاص بالبحث في مصير البلاد ومستقبلها، وأسهمت في زيادة كراهية النجفيين للإنكليز، وأججت الرغبة في الانتقام منهم. كما أنها ساهمت في رفع مستوى الوعي الوطني، وتفاقم الحماس الشعبي المناوئ للإنكليز. وبالتالي هيأت المناخ الملائم لاندلاع الثورة التحررية الكبرى في ٣٠ حزيران ١٩٢٠.

ثانيًا: حوادث تلعفر ودير الزور ١٩١٩ – ١٩٢٠م

كانت متصرفية (دير الزور وتلعفر) ملحقة بالأستانة. ولما جلي الترك عنها بقيت تحكم وفقًا للأعراف القبلية. وبعد تأسيس حكومة فيصل الأول في الشام، طالب أهالي الدير بضم منطقتهم إلى الشام. لذلك نظمت حكومة الملك فيصل عملية عسكرية ضمت بموجبها (دير الزور) إليها في ١٥ كانون الأول ١٩١٨. وعينت (مرعي باشا) متصرفًا عليها[٣٠]. إلاَّ أن فقدان المنطقة لمكانتها التجارية بسبب انقطاع الطرق بين تركيا والعراق[٣١]، ووصول أخبار مبالغ فيها عما يحدث في العراق من ازدهار اقتصادي[٣٢]، جعل أهالي الدير يطلبون ضم منطقتهم للنفوذ البريطاني[٣٣].

لذلك، نظمت السلطات البريطانية حملة بقيادة الكابتن (جامبير) لاحتلال الدير في كانون الثاني ١٩١٩ م. وبعد مفاوضات مع المتصرف العربي فيها تقرر، فيما بعد، ضم الدير إلى منطقة النفوذ البريطاني ما عدا (الرقة) ريثما يبت فيها مؤتمر الصلح[٣٤]. إلاَّ أن (رمضان شلاش) استطاع الحصول على مضابط من أهالي الدير، يطلبون فيها إلحاق الدير بالحكومة العربية مرة أخرى[٣٥]. وبالفعل زحف (شلاش) مع قبائل البادية يوم ١١ كانون الأول ١٩١٩م، واستولى على دير الزور بتحريض من (جمعية العهد العراقي) في الشام[٣٦]. وذلك على إثر قرارات (مؤتمر الصلح)، التي عدت (نهر الخابور) حدًا فاصلًا بين العراق وسوريا[٣٧]. تلك القرارات التي رفضها (شلاش) وطلب أن تكون الحدود على (وادي حوران). ثم استأنف الهجوم على (البوكمال)، التي استولى عليها يوم ١١ كانون الثاني ١٩٢٠م[٣٨].

وأخيرًا اقترح الأمير فيصل، تشكيل لجنة مشتركة من العرب والبريطانيين لتسوية مشكلة الحدود. وقد قررت تلك اللجنة إضافة (البو كمال) إلى لواء (دير الزور) تحت ولاية الحكومة العربية في الشام. وذلك في ٥ آيار ١٩٢٠م[٣٩].

ويبدو أن حوادث دير الزور، كانت إحدى عوامل نمو الحركة الوطنية في العراق، حيث أنها عجَّلت في اندلاع ثورة العشرين لاحقًا، بسبب وصول أخبار هذه الحوادث إلى كربلاء والنجف. وبسبب ما نشرته الصحافة السورية التي كانت تصل إلى العراق حول تلك الأحداث. إذ بالغت كثيرًا في سردها. مع ذلك كانت تقابل بالتصديق في العراق[٤٠].

وقد أكد (هولدن)، أن (فهد بن هذال) رئيس العمارات الموالي للإنكليز، قال لأحد الضباط الأركان في شباط ١٩٢٠ م ما يأتي: (صدقوا أو لا تصدقوا... أن لم تعيدوا احتلال دير الزور، فالثورة ستقوم في الفرات الأدنى خلال شهور ستة)[٤١].

وبعد إعلان الانتداب البريطاني على العراق في ٥ آيار ١٩٢٠م، بدأ الثوار بالهجوم على (تلعفر) متخذين من (دير الزور) منطلقًا لهم[٤٢]. وأوعزت (جمعية العهد العراقي) لضباطها في الجيش العربي بالاستقالة، والإلتحاق بدير الزور لإثارة الاضطرابات في (تلعفر) لحمل الإنكليز على تغيير سياستهم في العراق[٤٣].

وبدأ (جميل المدفعي) بالاستعداد للهجوم على (تلعفر). حيث بدأ يحرض القبائل للانضمام إليه. وبالفعل انضمت إليه (قبيلة شمر)، وأيدته (قبائل الزيدية)[٤٤]. وعندما بدأ (المدفعي) بالتحرك، فإنه وجه رسالة إلى أهالي تلعفر، يطلب منهم الانضمام إلى قواته، والقبض على الموظفين البريطانيين[٤٥]. وقد استجاب أهالي تلعفر لتلك الدعوة، وحرروا المنطقة. ومن ثم دخلها (المدفعي) على رأس قواته[٤٦].

وفي ٤ حزيران ١٩٢٠م، تقدم الثوار نحو المدينة، وقبضوا على معاون الحاكم السياسي (بارلو)، ومن ثم قتلوه. وكذلك تم قتل قائد الدرك (ستيوارت)[٤٧]. وبذلك أصبحت (تلعفر) تحت سيطرة الثوار[٤٨].

وفي ٦ حزيران ١٩٢٠م، اتجه الثوار نحو الموصل لتحريرها[٤٩]. وفي ٨ حزيران حدثت

المواجهة المسلحة بين الثوار والقوات البريطانية. وانتهت باندحار الثوار وتقهقرهم إلى دير الزور[٥٠]. وفي ٩ حزيران أعادت القوات البريطانية احتلال تلعفر مرة أخرى[٥١].

ومن الجدير بالذكر، أن أخبار تلك الانتفاضة المسلحة، كانت تصل إلى وسط العراق وجنوبه عن طريق الصحف الحكومية، وعن طريق منشورات جمعية العهد في الموصل. وما ينشره الزعماء العراقيون في الشام، وما ينقله المسافرون من الموصل إلى بغداد وبالعكس[٥٢]. وبذلك أسهمت في إيقاد ثورة العشرين في وسط العراق وجنوبه لاحقًا.

وبذلك، يتبين، أن تلك الانتفاضات المسلحة، كانت قد عجلت في اندلاع الثورة العراقية الكبرى في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م، لأنها رسخت في أذهان رجالات العشائر بأن الوضع العسكري لقوات الاحتلال البريطاني يعاني من الضعف، وأنهم لن يستطيعون الصمود بوجه العشائر فيما إذا اتحدت وثارت.

ثالثًا: الثورة العراقية الكبرى ٣٠ حزيران ١٩٢٠م

بدأت طلائع (ثورة العشرين) في بغداد من خلال الاحتفال الشعبي الأول الذي عقد في (جامع السيد سلطان علي) بقصد التهيئة للثورة العراقية في ١٠ آيار ١٩٢٠. ثم عقد أول اجتماع وطني كبير في (جامع الحيدر خانة)، الكائن في (منطقة الميدان) يوم ٢٤ آيار ١٩٢٠. وقد شارك فيه كثير من المواطنين. وفي يوم ٢٥ آيار ١٩٢٠ نظمت مظاهرة عنيفة في بغداد. وهي أول تظاهرة أُطلق فيها الرصاص على المواطنين من سلطات الاحتلال البريطاني قبل إعلان الثورة العراقية الكبرى.

ويعد (النجار الأخرس) أول شهداء الثورة العراقية الكبرى، والذي دُهس بسيارة الحاكم السياسي البريطاني (بلفور). كما يُحتسب الشاعر (عيسى عبد القادر) أول المنفيين العراقيين. حيث تم إلقاء القبض عليه، وإبعاده إلى البصرة لمدة سنة واحدة على إثر إلقائه قصيدة في (جامع الحيدر خانة) حث فيها المجتمعين في الجامع على الثورة بوجه الاحتلال البريطاني[٥٣].

وبعد سلسلة الانتفاضات العراقية المسلحة، والاحتجاجات الشعبية التي حدثت

في بغـداد، سرعان ما وقعت في (الرميثة) حادثة عجلت في إشـعال الثورة العراقية الكبرى، التـي أطلـق عليها المؤرخون (ثـورة العشرين). ففي ٣٠ حزيران ١٩٢٠ اعتقلت سـلطات الاحتلال رئيس (عشيرة الظوالم) الشيخ (شعلان أبو الجون) فحرره رجاله من السجن بعد قتلهم اثنين من الحرس. وقد تحولت هذه الحادثة إلى السبب المباشر لاندلاع الثورة العراقية الكبرى. حيث عدها معظم المؤرخين (الشرارة الأولى) في الثورة[٥٤].

وعندما نشـبت الثورة المسـلحة في الرميثة، فإن المرجع الديني (محمد تقي الشـيرازي)، تفوه بكلمات أعرب فيها عن تأييده لها، وانتقد العشـائر التي لم تسـندها[٥٥]. ومن ثم أفتى، بشـكل صريـح، بالجهاد ضـد الاحتـلال البريطـاني[٥٦]. وقد كان لهـذه الفتـوى تأثير كبير عـلى العراقيين، لأنهم وجدوا أنفسـهم مجبريـن من الناحية الشرعية عـلى القيام بالثورة ضد الاحتلال البريطاني[٥٧].

أضف إلى ذلك، هناك عدة قوى اجتماعية، كانت قد أسـهمت بتحريك الثورة، منتشرة في الأرياف والمدن. ولعل أهمها ما يأتي:[٥٨]

١ – القوى العشائرية.

٢ – أهل المدن من ذوي النشاطات الخاصة (كالتجار، والعمال، والملاكين).

٣ – المثقفين (رجال الدين، والضباط، والموظفين، والشعراء، والخطباء، والصحفيين).

كما لعبت القوى السياسية دورًا فاعلًا في تحريك الثورة. لعل أهمها ما يأتي:[٥٩]

١ – جمعية حرس الاستقلال.

٢ – جمعية العهد العراقي.

وقـد انتهت الثورة العراقية الكبرى يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ على إثر الاتفاق الذي عقد بين قبائل بني حجيم والسطات البريطانية[٦٠]. بعد أن كلفت الثورة القوات البريطانية خسـائر بشرية كبـيرة، بلغت حوالي (٢٢٦٩) بين قتيل وجريح وأسـير ومفقود. بينما بلغت خسائر الثوار العراقيين حوالي (٨٤٥٠) شخصًا ما بين شهيد وجريح[٦١].

وفي ضوء النتائج التي تمخضت عنها الثورة العراقية الكبرى، بدأت الخطوات العملية لتأسيس الدولة العراقية الحديثة. ولعل أهمها ما يأتي:[٦٢]

١- تعيين (برسي كوكس) مندوبًا ساميًا في العراق يوم ١١ تشرين الأول ١٩٢٠، والذي صرح، فور وصوله، بأنه قادم لإنشاء حكومة عربية مستقلة في العراق.

٢- تأليف حكومة وطنية مؤقتة في بغداد برئاسة (عبد الرحمن النقيب) يوم ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠.

٣- إذاعة بلاغ (برسي كوكس) بتشكيل الحكومة المؤقتة يوم ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٠.

٤- عقد أول اجتماع لأول مجلس وزراء في الحكومة العراقية المؤقتة برئاسة (عبد الرحمن النقيب) يوم ٢ تشرين الثاني ١٩٢٠. وذلك في دار (النقيب)، حيث كان مقعدًا لا يخرج من داره.

٥- في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠، قرر مجلس الوزراء المؤقت إعادة الثوار المبعدين، وإرجاعهم إلى أعمالهم، وما كانوا عليه.

٦- وفي ٦ كانون الثاني ١٩٢١، تم البدء بتشكيل نواة الجيش العراقي. حيث تمت المباشرة بتأسيس أول فوج عراقي، أُطلق عليه (فوج موسى الكاظم)، الذي كان مقره في الكاظمية.

٧- صدور نظام التطوع في الجيش العراقي في ١ حزيران ١٩٢١.

٨- مغادرة الوفد العراقي لمؤتمر القاهرة يوم ٢٢ شباط ١٩٢١، والذي أعلن خطة تكوين حكومة عراقية مستقلة.

٩- إعلان العفو العام عن القائمين بالثورة من المندوب السامي البريطاني في ٣٠ آيار ١٩٢١.

١٠- وفي ٥ تموز ١٩٢١، تم إجراء الاستفتاء الشعبي العام لاختيار (الأمير فيصل بن الحسين) ملكًا على العراق.

١١- وفي ١١ تموز ١٩٢١، قررت الحكومة العراقية المؤقتة، المناداة (بالأمير فيصل بن الحسين) ملكًا على العراق.

١٢- وفي الساعة السادسة من صباح يوم الأحد الموافق ٢٣ آب ١٩٢١، وفي ساحة القشلة في بغداد، تم تتويج (الأمير فيصل بن الحسين) ملكًا على العراق في اجتماع حضره أقطاب الحكومة وكبار الموظفين البريطانيين، ومتصرفو الألوية (المحافظون).

١٣- وقد اكتمل تأسيس كيان الدولة العراقية الحديثة، بتأليف الوزارة الثانية برئاسة (عبد الرحمن النقيب). وذلك في ١٠ أيلول ١٩٢١.

وبناء على ذلك كله، يتبين ما يأتي:

أ - أن الدولة العراقية الحديثة لم تكن هبة بريطانية كما يزعم البعض، رغم أنها أنشأت تحت إشرافهم المباشر.

ب- انتزع العراقيون دولتهم الحديثة عن طريق العمل المسلح الذي شهدته مناطق العراق المختلفة، وساهمت فيه أغلب فئات المجتمع العراقي. وقد توج الكفاح المسلح للعراقيين في ثورة العراقيين التحررية الكبرى، التي أطلق عليها المؤرخون مصطلح (ثورة العشرين).

ج - أن انتزاع العراقيين لدولتهم جاء ضمن سياق تاريخي طويل. حيث أن الدولة العراقية الحديثة تمثِّل امتدادًا تاريخيًا لنماذج الدول الوطنية القديمة التي شهدتها بلاد الرافدين.

د - أن تلك التطورات والمعطيات أفضت إلى ترسيخ لفظة (العراق) في الذهن العراقي العام، كعنوان أوحد للدولة العراقية الحديثة. فضلًا عن نمو الوعي الوطني العراقي بشكل ملموس. وهذا ما سنعرج عليه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني

لفظة العراق ونمو الوعي الوطني

برزت لفظة (العراق) كعنوان للدولة العراقية الحديثة، وأصبحت من المسلمات السياسية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها (١٩١٤ – ١٩١٨). إذ برزت لفظة العراق بشكل أكثر وضوحًا في هذه الحقبة الزمنية. حيث طبقت في الاستعمال من لب التشكيل الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، كمحتوى لعصر جديد يرتكز على عصر تكوين دول بين الشعوب المتأخرة، وفي جو جديد من الأممية[٦٣].

وقد حرك تقدُّم القوات البريطانية باتجاه البصرة واحتلال الفاو في ٦ تشرين الثاني ١٩١٤ ورفع العلم البريطاني على المدينة، أجواء الجهاد للدفاع عن ما يُعرف ب (بيضة الإسلام)[٦٤]. إذ بدأت حركة الجهاد في العراق ضد الجيوش البريطانية، وبالتحديد في ٩ تشرين الثاني ١٩١٤. حيث أحس العراقيون بالخطر المحدق بهم. وشعروا بما سيحيق بهم من كوارث إذا تمكن الإنكليز من السيطرة والاستيلاء على العراق[٦٥].

ورغم وقوع العراق، آنذاك، تحت الحكم العثماني القائم على الرابطة الإسلامية، ورغم هيمنة الأجواء الدينية على الأحداث وعلى الأطروحات الفكرية لقادة الجهاد، بيد أن لفظة (العراق) لم تغب في حينها. إذ ترافقت جنبًا إلى جنب مع الأطروحات الإسلامية التي يتبناها رجال الجهاد. وهذا أن دل على شيء، فإنه يدل على أن تسمية (العراق) أصبحت تسمية شائعة، مفهومة الدلالة والمعنى والأبعاد الجغرافية.

لذلك وردت لفظة (العراق)، و(الأمة العراقية)، و(الحمية الوطنية العراقية) في الفتوى التي أصدرها المرجع (شيخ الشريعة الأصفهاني) ضد الاحتلال البريطاني بقوله: (ثم أنتم أيتها الأمة العراقية أين غيرتكم الدينية؟ وشيمتكم العربية؟ والحمية الوطنية؟ وأين سجاياكم...؟ فانتبهوا من سباتكم قبل أن تفوت الفرصة)[٦٦]. كما وردت لفظة (العراق) في كتاب المرجع الديني الأعلى (كاظم اليزدي) بقوله: (إلى عامة المسلمين في نواحي العراق ومن في ثغوره أعزهم الله جميعًا بالنصر والتمكين)[٦٧].

ويبدو أن العراق بعد الحرب العالمية الأولى، كان قد عرف نوعين من الثقافة، هما الثقافة الدينية والثقافة القومية. وكلاهما كان يسير باتجاه مناوئة السلطة الأجنبية المحتلة، وانتزاع استقلال العراق منها. وهذا التوجه غذي، بشكل أو بآخر، فكرة الوطنية العراقية التي لابد أن تفضي إلى ولادة الدولة العراقية الحديثة.

فالثقافة الدينية، التي حاول رجال الدين نشرها بين أفراد العشائر كانت عاملًا مهمًا في إثارة العشائر ضد السلطات البريطانية المحتلة، وتنمية فكرة الوطنية العراقية[٦٨]. ومما يؤكد ذلك، ما ورد في الشعر الشعبي الذي قيل أثناء الثورة[٦٩].

أما الثقافة القومية، فقد عرفت طريقها إلى المثقفين العراقيين الذين كونوا ثقافتهم في ظل العهد العثماني، من خلال صراعهم من أجل القومية العربية[٧٠]. أمثال محمد رضا الشبيبي[٧١]، ومحمد رؤوف الغلامي، وثابت عبد النور[٧٢]، وغيرهم. وقد استمد هؤلاء ثقافتهم من مصادر متعددة لعل في مقدمتها كانت الثورة الفرنسية، التي وصلت أهدافها إلى الشرق العربي عمومًا عبر احتلال نابليون لمصر عام ١٧٩٨م[٧٣].

وبذلك، وجد مفكرو العراق أنفسهم أمام قيم ومفاهيم جديدة، شاعت على الألسن والأقلام إبان الثورة الفرنسية وما بعدها. وتناولتها الأفواه في الشرق العربي. حيث أخذ الناس يتحدثون عن الوطن والوطنية، وعن الأمة والقومية والحرية والمساواة وشؤون أخرى[٧٤]. بيد أن الأفكار التي تمسك بها أهل العراق، هي الأفكار التي تتناسب مع اتجاهاتهم الوطنية والقومية. وربما لهذا السبب كانوا قد خضعوا لتأثير (مبادئ الرئيس ولسن) الأربعة عشر الصادرة في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨، والتي أكد البند (الثاني عشر) منها على منح الشعوب غير التركية فرصة مطلقة لتطوير استقلالها الذاتي[٧٥]. وقد شبعت هذه المبادئ المثقفين العراقيين بروح الوطنية والحرية والاستقلال. إذ أنها أثارت مشاعر رجال الدين من الوجهة الدينية – الوطنية، وخواطر الشباب وحماسهم من الوجهة الوطنية[٧٦]. وقد وصلت هذه البنود إلى العراق نتيجة الدعاية الأمريكية الواسعة لها، ونتيجة لاهتمام الصحافة والأوساط السياسية المختلفة بها[٧٧]. ومنها الصحافة العراقية الرسمية التي نشرتها في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨م[٧٨].

عليه أصبح الوعي الوطني والقومي أحد الدوافع الأساسية المحركة لثورة العشرين المطالبة باستقلال الدولة العراقية. وقد سعى المثقفون العراقيين إلى إيصال هذا الوعي إلى العشائر.

وفي ضوء ذلك، برزت الدوافع الوطنية والقومية عند بعض رؤساء العشائر، أمثال الشيخ شعلان أبو الجون، الذي كان قد حضر احتفالات بغداد التي نظتمها جمعية (حرس الاستقلال) والمطالبة باستقلال العراق[٧٩]. وتحت تأثير هذا الوعي الوطني، فإن عشيرة (بني حجيم) كانت قد اشترطت في مفاوضات الصلح مع الإنكليز على ضرورة (أن يكون للعراق حكومة عربية مسلمة)[٨٠].

و بما أن الشعور الوطني والقومي لم تتأصل جذوره بين أبناء العشائر ككل، لذلك فإن الدعاية الوطنية كانت قد ركزت على ما يكون أقرب إلى قلوب رجال العشائر ومنافعهم الشخصية أكثر منه دعوة وطنية خالصة. لهذا أصبح الاستقلال الوطني للعراق مقبولًا لدى بعض العشائر المترددة[٨١]. ومن هنا، اندفع قسم منهم لمقاتلة الإنكليز بدوافع وطنية وقومية. حيث ورد في شعرهم الشعبي كلمات تعبر عن ذلك مثل الوطن والعراق والعروبة[٨٢].

ويُلاحظ، أن (الثورة العربية) التي أعلنها الشريف حسين في ١٠ حزيران ١٩١٦ على الأتراك من أجل استقلال العرب[٨٣]، كان لها صداها على الحركة التحررية في العراق، لأن معظم الضباط الذين التحقوا بهذه الثورة كانوا عراقيين. فكان طبيعيًا أن تنتشر أخبار تلك الثورة، وتذاع أهدافها في العراق[٨٤]. وكانت منشورات الحكومة الشريفية في مكة تصل العراق باستمرار، مما أدى إلى انتشار الوعي الوطني، فكان ذلك عاملًا من عوامل اختمار ثورة العشرين المطالبة باستقلال العراق[٨٥].

كما أن قيام (حكومة فيصل) في الشام في ٢٢ تشرين الأول ١٩١٨، وتقلد معظم الضباط العراقيين مراكز مهمة في دواوينها[٨٦]، وازدياد الاتصالات بين سوريا والعراق بحكم الدور الذي لعبته صحيفة (العقاب) السورية، التي كانت تصل العراق[٨٧]. فضلًا

عـن زيادة نشـاط (جمعية العهد العراقي) في دمشـق، والتي بدأت تعمل من أجل اسـتقلال العراق، وإقامة حكومة عربية فيه على غرار حكومة فيصل في الشام[٨٨].

ويبدو أن ذلك كله، قد أوجد غليانًا سياسيًا ضد السلطات البريطانية المحتلة في العراق من أجل استقلال البلاد ضمن إطار دولة عراقية مستقلة.

كـما أن انـدلاع (الثـورة المصريـة) عـام ١٩١٩ ضـد الاسـتعمار البريطـاني، كانـت قد الْهَبَـت حماس المثقفين العراقيـين. وجعلتهم يفكرون في التخلص من الاحتلال، وتأسـيس دولـة عراقية مسـتقلة[٨٩]. وقد كانـت أخبار تلك الثورة تصل العـراق عن طريق الصحف المصرية التي تصل العراق تارة[٩٠]، وعن طريق جريدة (العقاب) السورية تارة أخرى[٩١]. وهكـذا أصبحت أخبار تلك الثورة حديث الخاص والعام في العراق، وقلما خلا مجلس من ذكرها[٩٢]. وبذلك ساهمت برفع الوعي الوطني في العراق.

كـما أن إعلان (الدسـتور العثـماني) عام ١٩٠٨، نبه الـرأي العام المثقـف في العراق إلى ضرورة التخلـص مـن أي هيمنة أجنبية على العـراق[٩٣]. ذلك لأن بطل الدسـتور (محمود شـوكت) ينتمـي إلى عائلة عراقية مشـهورة. وقد أسـهمت هذه الواقعة في نشـأة الأحزاب السياسـية، وفسـحت المجال لعدد من العراقيين للإسـهام في إدارة شـؤون الدولة العثمانية كنـواب في مجلس المبعوثـان أحيانًا، وكضبـاط في الجيش العثماني أحيانًا أخرى. وقد أسـهم هـؤلاء في الحركـة التحرريـة العراقية لاحقًـا[٩٤]، والتي أفضت إلى نشـوء الدولـة العراقية الحديثة.

أضف إلى ذلك، يبدو أن حركة (كمال اتاتورك) عام ١٩١٩، والتي جاءت لإنقاذ تركيا، ردًا عـلى هزيمتهـا العسـكرية في الحرب العالميـة الأولى كان لها دعاية رائجـة في العراق[٩٥]، بحكـم الجوار الجغـرافي، واهتمام الكماليـين بولاية الموصل. وقد ورد ذكـر للحركة الكمالية في العدد الثاني من جريدة (الفرات) العراقية[٩٦]. كما أن (الحركة الدسـتورية) الإيرانية عام ١٩٠٦ كانت أخبارها تصل العراق عن طريق المطبوعات والزوار[٩٧].

ويبـدو أن حركـة كمال اتاتورك والحركة الدسـتورية الإيرانية، قد أسـهمتا برفع الوعي

السياسي في العراق. ونبهتا المثقفين العراقيين إلى ضرورة التخلص من الهيمنة الأجنبية على البلاد، وتأسيس دولة عراقية مستقلة.

وفي ضوء ذلك، لعب رجال الدين دورًا بارزًا في تحريك ثورة العشرين، لما لهم من نفوذ معنوي في نفوس اتباعهم، الذي يعتقدون أن علماءهم يتمتعون بصفة دينية متميزة. لذلك لا يخالفون لهم أمرًا أو فتوى[٩٨]. إلاَّ أن الذي لعب الدور الأكثر بروزا في تحريك الثورة كان المرجع (محمد تقي الشيرازي)، الذي استفاد منه رجال الحركة الوطنية كثيرًا، لأنه عمل على بعث الروح الوطنية العراقية بين صفوف الشعب[٩٩].

لقد ساهم الشيرازي في توطيد دعائم الوحدة الوطنية في العراق، لأنه كان يؤيد الصلات الودية بين أبناء الطائفتين السنيَّة والشيعية. وقد استعمل نفوذه الديني للتوفيق بينهما. وقد نجح في ذلك. إذ تضافرت جهود أبناء الطائفتين للعمل من أجل مصلحة البلاد[١٠٠]. وقد ظهر هذا التوافق على المستوى العملي عام ١٩١٩ حينما حضر جماعة من السنة إلى مناسبتين شيعيتين أقيمتا في ذكرى وفاة المرجع كاظم اليزدي[١٠١].

وبما أن الرابطة الدينية لرؤساء العشائر كانت قوية جدًا مع المرجع الشيرازي، فإنه جعلها ذات صبغة سياسية. فبث الدعوة بينهم، وحثهم على المطالبة باستقلال العراق[١٠٢]. وعمل بكل جهده لإزالة الخلافات والنزاعات العشائرية. وقد استطاع أن يحد من تلك الظاهرة السلبية كثيرًا[١٠٣]. وعقد لرؤساء العشائر اجتماعًا مهمًا في داره للتخطيط للثورة التحررية في ٤ ايار ١٩٢٠م[١٠٤].

وعندما قامت مظاهرات بغداد السلمية، فقد أيدها برسالة موجهة إلى عموم العراقيين لأنها تطالب بالاستقلال وتكوين الدولة العراقية المعاصرة. ودعاهم فيها إلى مساندة حركة بغداد السلمية، والمطالبة بحقوقهم على أن ترسل كل ناحية إلى بغداد وفدًا للمطالبة بحقها أسوة بأهالي بغداد والكاظمية[١٠٥].

وعندما وجهت السلطة المحتلة أسئلة (الاستفتاء الثلاثة) للشعب العراقي من أجل معرفة رأيه في نوع الحكم الذي يريدونه[١٠٦]، فإن ولسن حاول أن يجعل الأجوبة متوافقة

مع رغباته الرامية لإجهاض فكرة الوطنية العراقية عن طريق اختيار (برسي كوكس) حاكمًا للعراق، وقد أوصى الحكام السياسيين بذلك[١٠٧]. وهنا أحبط الشيرازي هذه الخطط الاستعمارية عندما أصدر فتوى أكد فيها عدم جواز انتخاب غير المسلم للإمارة على المسلمين[١٠٨]. وقد طبعت آلاف النسخ من هذه الفتوى لتوزع في أنحاء العراق المختلفة[١٠٩]. وكان لهذه الفتوى أثر كبير في نفوس معظم العراقيين[١١٠]. وكانت عاملًا مهمًا في تطوير الوعي السياسي في العراق، لأنها جعلت الدين والوطنية في إطار واحد[١١١].

وعندما نشبت الثورة المسلحة في الرميثة، فإن الشيرازي تفوه بكلمات أعرب فيها عن تأييده لها. وانتقد العشائر التي لم تسندها[١١٢]. ومن ثم أفتى بشكل صريح بالجهاد ضد الإنكليز المحتلين[١١٣]. وكان لهذه الفتوى تأثير كبير على العراقيين، لأنهم وجدوا أنفسهم مجبرين من الناحية الشرعية على القيام بالثورة المسلحة ضد الاحتلال البريطاني من أجل تحرير العراق وإنشاء الدولة العراقية المستقلة.

كما أسهم ضباط وموظفي العهد العثماني في ثورة العشرين لاعتقادهم بأن تأسيس الدولة العراقية وتحررها لن يكون إلاَّ عن طريق الثورة المسلحة، على غرار تأسيس الدولة السورية التي كانت نتيجة لنجاح الثورة العربية الكبرى. لذلك عندما عادوا إلى بغداد شكلوا نواة للتذمر والعداء ضد الاحتلال البريطاني. وعندما نشبت الثورة التحررية، فقد انظم بعضهم إليها. وكانت لهم إسهامات في دير الزور وتلعفر والكوفة والسماوة[١١٤].

وكان للشعراء والخطباء دورًا بارزًا في تحريك الثورة، ونشر الوعي الوطني. إذ قام (الشعر) بواجباته أحسن قيام، لأنه أثار المشاعر الوطنية في نفوس العراقيين. ودفعهم نحو ساحات القتال من أجل استقلال العراق[١١٥]. كما أن (الخطابة) حركت الجماهير ودفعتهم نحو الإسهام بالثورة، لأن العربي يتأثر بالخطابة إلى حد بعيد[١١٦]. إذ إنه على إثر إعلان الانتداب البريطاني على العراق، ارتقى (الخطباء والشعراء) المنابر في الاجتماعات الجماهيرية التي كانت تعقد في جوامع بغداد. وناشدوا الحاضرين باسم الوطن والقومية والدين للوقوف ضد الاحتلال البريطاني[١١٧]. وقد وصف (ولسن) تلك الاحتفالات قائلًا: (غير أن السمات البارزة لهذه الاجتماعات كانت في جميع الحالات الخطب السياسية والشعر

الوطني الذي كان يعقب المراسيم الدينية[١١٨]. وقد كانت تلك الخطب والقصائد تلهب حماس الجماهير، وتحفزهم للثورة والمطالبة باستقلال العراق[١١٩]. وكان حديث الناس في المقاهي يدور أحيانًا حول تلك القصائد والخطب[١٢٠]. ولعل (محمد مهدي البصير) كان إبرز شعراء الثورة العراقية[١٢١]. وكان لقصيدته التي ألقاها في جامع الحيدرخانه بعنوان (لبيك أيها الوطن) صدى واسعًا في المحافل الجماهيرية[١٢٢]. وكان لخطاباته أثر كبير في هياج الناس، وترديد اسم (الوطن)، حتى أُطلق عليه لقب (خطيب الثورة)[١٢٣].

كما كان للقصيدة التي ألقاها (محمد الباقر) في الاجتماع المنعقد في دار الشيخ (عبد الكاظم سكر)، والذي حضره وجهاء الشامية يوم ٢ تموز ١٩٢٠، أثر كبير بين أفراد العشائر الذين راحوا يتحدثون عن قصيدته، ويرددون ما جاء فيها من أبيات مليئة بالحماسة الوطنية[١٢٤].

كما الْهَبَ الشاعر (عيسى عبد القادر) المشاعر الوطنية في قصيدته التي ألقاها في جامع الحيدرخانه يوم ٢١ ايار ١٩٢٠، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله ومن ثم نفيه إلى البصرة[١٢٥].

أضف إلى ذلك، تجسد دور المثقفين العراقيين في تعزيز فكرة (الوطنية العراقية) من خلال الدور المتميز الذي لعبته الصحافة العراقية ووسائل النشر الأخرى. إذ لعبت صحافة ثورة العشرين (الفرات، والاستقلال) دورًا بارزًا في تحريك الثورة، ونشر مفاهيمها الوطنية بين الجماهير[١٢٦]. وقد استقطبت تلك الصحف الأقلام الشابة، التي كان لها حصة كبيرة في تهييج الرأي العام العراقي، وإثارة الشعور الوطني فيه عبر كتاباتهم للمقالات الوطنية الحماسية[١٢٧].

وكانت مجلة (اللسان) أول صحيفة دعت إلى (الثورة)، ونشرت مفاهيمها الوطنية. وكانت تنادي بالوطن والاستقلال والحرية. وعالجت منذ صدورها القضايا الوطنية والقومية بما كانت تنشره من مقالات وقصائد[١٢٨].

وعندما توسعت الثورة المسلحة، ظهرت الحاجة لإصدار صحيفة تغطي إخبارها، وتعبر عن أفكارها الوطنية. لذلك أصدر (محمد باقر الشبيبي) جريدة (الفرات) لتكون

الناطقة باسم الثورة، وتعبر عن وجهات نظرها الوطنية التحررية[١٢٩]. ونجحت تلك الصحيفة في توحيد الصفوف طلبًا للاستقلال الوطني، وتأسيس الدولة العراقية المستقلة.

كما أصدر (محمد عبد الحسين) جريدة (الاستقلال) النجفية في الأول من تشرين الأول ١٩٢٠، والتي لعبت دورًا بارزًا في تنمية الروح الوطنية الثورية لدى الجمهور، وذلك لأنها عرضت على الرأي العام العراقي مطالب الشعب العراقي في الحرية والاستقلال، ورفعت شعار (لا حياة بلا استقلال)[١٣٠].

وفي بغداد أصدر (عبد الغفور البدري) صحيفة (الاستقلال)البغدادية يوم ٢٨ أيلول ١٩٢٠، لتكون لسان حال الثورة في بغداد، والتي ساهمت في الدعوة لاستقلال العراق. ونشرت مفاهيم الثورة الوطنية، وأوضحت حق الشعب العراقي في السيادة والاستقلال، وشنت حملات لاذعة ضد سلطات الاحتلال. وكانت إدارة هذه الصحيفة بمثابة نادي سياسي مكتظ بمثقفي الثورة. وقد غذت هذه الصحيفة حركة الثورة في العاصمة والمدن الأخرى. وكانت مؤثرة في الرأي العام[١٣١].

ويبدو أن الدور الذي لعبته تلك الصحف، قد ساهم في تعزيز فكرة (الوطنية العراقية)، وعمق الهوية العراقية بين أبناء الشعب، وبالتالي ساهمت في إعادة تأسيس الدولة العراقية.

ولم تكن القوى السياسية المحركة للثورة متمثلة بأحزاب سياسية بالمعنى الحديث، إنما مثَّلتها بعض الجمعيات السياسية السرية، والتي كان من أبرزها جمعية (حرس الاستقلال)، التي تأسست في بغداد أواخر شباط ١٩١٩. ومثلت أكثر الجمعيات فعالية[١٣٢]. وكذلك جمعية (العهد العراقي) التي تأسست عام ١٩١٩. وتمتلك فروعًا في بغداد والموصل، إلاَّ أن فرع الموصل كان أكثر نشاطًا من فرع بغداد، بحكم القرب الجغرافي بينه وبين المركز العام في الشام[١٣٣]. إذ كان يوزع المنشورات مرة أو مرتين في الاسبوع على أعضاء الجمعية، فضلًا عن توزيعه جريدة (العقاب السورية) على الشعب، والتي تعد لسان حال الجمعية[١٣٤]. كذلك أرسلت مضبطة مضادة للمضبطة التي حررها بعض الموالين للإنكليز، والتي طالبت بالحماية البريطانية على العراق. كما أنها ناهضت انتخابات البلدية وأسهمت بفشلها.

وكانت تبث الدعاية المناوئة للاحتلال بواسطة النشرات العديدة التي كانت تحررها[١٣٥]. وقامت بتقديم المضابط للمؤتمرات الدولية. واشتركت في العمليات العسكرية التي حدثت في الموصل عام ١٩٢٠م[١٣٦].

أما جمعية (حرس الاستقلال) فإنها أيضًا مارست دورها في تحريك الثورة، وتنمية الوعي الوطني عن طريق الاحتفالات الدينية في الجوامع التي كانت تنظمها[١٣٧]. كما نجحت في افتتاح (المدرسة الاهلية) في ١٤ أيلول ١٩١٩، لكي تجعلها ناديًا سياسيًا للثوار. يتداولون فيها شؤون الوطن، ويلقون فيها الخطب السياسية. وأخذت تلك المدرسة تلقن الطلبة مبادئ الوطنية والقومية. وبذلك أصبحت مقرًا للوطنيين[١٣٨].

وقد بقيت هذه الجمعية تستثمر الفرص من أجل تعبئة الرأي العام وإعداده للثورة. وفعلًا استغلت حفلة التأبين المقامة في (جامع الحيدرخانه) يوم ١٩ أيار ١٩١٩ بمناسبة وفاة المرجع (كاظم اليزدي) في تهييج الرأي العام.و بدأت تتوسع أعمالها إلى إقامة حفلات سياسية تحت ستار المولد النبوي أو استشهاد الإمام الحسين. حيث يقوم الخطباء والشعراء بتنبيه الرأي العام إلى حقهم في الحرية والاستقلال[١٣٩].

وقد بدأت الجمعية تتخذ طابعًا شعبيًا أكثر من السابق. إذ فتحت باب الانتماء لكل من يريد الانضمام إليها، بعد أن كانت مقتصرة على (الأفندية) فقط[١٤٠].

وفي ٢٢ نيسان ١٩٢٠ نظمت (حرس الاستقلال) اجتماعًا في دار (حمدي بابان) حضره وجهاء بغداد ومندوبي الفرات. وقد قرروا فيه إرسال (جعفر أبو التمن) إلى الفرات لمعرفة وجهة نظرهم في الثورة. وفعلًا حضر أبو التمن الاجتماع الذي عقد في دار المرجع الشيرازي يوم ٣ أيار ١٩٢٠ مع زعماء العشائر. ثم عاد إلى بغداد بعد أن اتضح له موقف رجال الدين ووجهاء المنطقة المؤيد للثورة[١٤١]. لذلك قررت الجمعية عقد اجتماع آخر في دار (حمدي بابان) يوم ١٠ أيار ١٩٢٠ لسماع وجهة نظره. وعندما بلغهم بما تم الاتفاق عليه في دار المرجع (الشيرازي)، فأنهم قرروا نشر الدعوة لإنشاء حكومة وطنية في العراق. وانتهزوا حلول شهر رمضان فقرروا إقامة احتفالات دينية كل يوم خميس في أحد الجوامع لنشر الدعوة الوطنية[١٤٢].

وفي احتفال ديني كبير عقد في (جامع الحيدرخانه) ألقت السلطة المحتلة القبض على (عيسى عبد القادر)، الأمر الذي أدى إلى حدوث مظاهرات واسعة في بغداد قادتها جمعية حرس الاستقلال. وتمخضت عن انتخاب خمسة عشر مندوبًا للتفاوض مع سلطة الاحتلال حول مطالب الحركة الوطنية[١٤٣]. وقد اجتمع المندوبون مع (ولسن) يوم ٢ حزيران ١٩٢٠ بعد أن وحدوا وجهات نظرهم مع المندوبين اليهود والمسيحيين الذين رشحهم ولسن نفسه. وانتهت تلك المفاوضات بالفشل نتيجة لمماطلة ولسن[١٤٤]. لذلك استمرت المظاهرات بشكل أكثر حدة من السابق. وكانت الغاية من استمرارها تكمُن في إثارة المزيد من العشائر في أنحاء العراق كلها ضد سلطة الاحتلال[١٤٥]. وقد هيأت تلك المظاهرات للتقارب ما بين الطائفتين الشيعية والسُنيَّة. إذ أصبحت المواليد النبوية تعقد في المساجد السنية والشيعية بالتناوب[١٤٦]. وقد وصف (هولدن) هذه الظاهرة بقوله: (والجمع هذا بينهما يكاد أن يكون معجزة من المعجزات)[١٤٧].

وفي سبيل كسب المزيد من الجماهير إلى صفوف الحركة الوطنية، فإن أعضاء حرس الاستقلال حاولوا الاتصال برجال الدين والتنسيق معهم. ليتم عن طريقهم كسب الجماهير عبر العزف على أوتار الشعور الديني لديهم[١٤٨]. لهذا كان (علي البزركان) يتردد على الكاظمية لزيارة بعض رجال الدين أمثال محمد الصدر وغيره. كما أنه زود (محمد رضا) نجل المرجع الشيرازي، و(محمد علي بحر العلوم) بالمعلومات حول نشاط الحركة الوطنية في بغداد[١٤٩].

وعمومًا كان أعضاء حرس الاستقلال يزودون رجال الدين بالمعلومات، التي كانوا يلتقطونها من الصحف الداخلية والخارجية أو من مصادر أخرى. ليقوم رجال الدين من جانبهم بنشرها في أوساط الجماهير، لإثارتهم ضد السلطة المحتلة[١٥٠]. وقد جاء انتقال المرجع (الشيرازي) من سامراء إلى كربلاء، التي تقع ما بين النجف وبغداد، عاملًا مساعدًا على زيادة الاتصال بين قادة حرس الاستقلال والمرجع الشيرازي. وقد لعب نجله (محمد رضا) دورًا ملموسًا في توثيق العلاقة بينه وبين قادة الحركة الوطنية في بغداد[١٥١].

وقد كان لتلك الاتصالات والتحركات التي جرت في بغداد أثرها الواضح في كربلاء.

إذ أصدر المرجع (الشيرازي) فتوى تضمنت تكفير أي شخص يصوت لصالح الاحتلال البريطاني[١٥٢]. وقد ساعد هذا التعاون الذي قام بين قادة حرس الاستقلال ورجال الدين على زيادة التقارب بين أبناء الطائفتين[١٥٣].

وعندما أُعلنت الثورة المسلحة في الرميثة، سارع أعضاء حرس الاستقلال إلى الالتحاق بها. فضلًا عن مواصلتهم قيادة الجماهير في بغداد. إذ كان (محمد الصدر) منظم الثورة في سامراء. كما أسهم (يوسف السويدي) وجماعته في إسناد عشائر (البو محيي) و(البوعامر) في جبهات المحمودية واليوسفية[١٥٤]. كما أسهم أفراد حرس الاستقلال في تحريض العشائر على الثورة في ديالى[١٥٥].

وعندما أدركت سلطات الاحتلال، شدة تأثير جمعية (حرس الاستقلال) فإنها قررت وضع حد لنشاطاتها. فأصدرت قرارًا منعت بموجبه عقد المواليد النبوية. وحاولت إلقاء القبض على قادة الحركة الوطنية في بغداد، إلا أنها لم تقبض إلاَّ على (أحمد الداود). أما الباقون فقد فروا إلى مناطق الثورة المسلحة[١٥٦]. وبهذه الضربة التي حدثت في ١٢ اب ١٩٢٠ فإن جمعية (حرس الاستقلال) قد انتهى نشاطها الوطني المنظم، بيد أن فكرة الوطنية التي بثتها، والدعوة لتأسيس الدولة العراقية بقيت قائمة.

وقد عبرت الجمعيات السياسية السرية الأخرى، التي تشكلت في أعقاب الاحتلال البريطاني عن تمسكها بفكرة (الوطنية العراقية)، و(الدولة العراقية المستقلة). ففي الكاظمية أخذت (الجمعية الإسلامية العربية) تطبع المنشورات وتوزعها في أنحاء العراق المختلفة. وكانت تطالب فيها بتشكيل حكم وطني إسلامي في العراق[١٥٧]. وفي كربلاء أسس (محمد رضا) نجل المرجع الشيرازي (الجمعية الوطنية الإسلامية) تحت إشراف والده. وقد كان هدفها يكمن في تحقيق استقلال العراق تحت رعاية ملك مسلم[١٥٨].

وفي تلك الأجواء الجديدة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وفي ظل أجواء ثورة العشرين ومقدماتها، بدأت النزعة الوطنية بالتصاعد الملحوظ، والتي تطالب بتأسيس الدولة العراقية المستقلة.

ففي الاجتماع الذي عقده ولسن مع مندوبي النجف بصدد إجراء الاستفتاء عام ١٩١٨ أكد (عبد الواحد سكر) على (ضرورة اختيار حكومة إسلامية عراقية). وقد أيده (حسين كمال الدين) في ذلك. وصفق له الحاضرون[١٥٩]، معبرين بذلك عن إيمانهم بفكرة الوطنية العراقية.

وفي الكاظمية نظم الأهالي عدة مضابط ورد في إحداها والمؤرخة في ٨ كانون الثاني ١٩١٩ (نطلب أن تكون للعراق... حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربي مسلم)[١٦٠]. كما نظم أهالي ديالى مضبطة مشابهة لذلك، وبنفس المضمون[١٦١].

وعندما أهمل شأن تلك المضابط، كتب المرجع (الشيرازي) بالتضامن مع شيخ الشريعة رسالة إلى الرئيس الأمريكي (ويلسن) في ١٣ شباط ١٩١٩، أكدا فيها على ضرورة تأسيس دولة عراقية مستقلة برئاسة ملك مسلم[١٦٢].

أضف إلى ذلك، ترددت لفظة (العراق) في الخطابات البريطانية والغربية الرسمية في ذلك الحين، كدلالة على تجذر لفظة (العراق) وشيوعها في الحياة السياسية. إذ ورد اسم (العراق) في توصيات (لجنة كنغ - كرين) الأمريكية عام ١٩١٩ بشكل واضح. حيث أوصت اللجنة بأنه يجب أن تتحقق وحدة العراق (وأن تضم غالبًا ولايات البصرة وبغداد والموصل على الأقل. وأن يرتبط الكرد والأشوريين الجنوبيين بالعراق ارتباطًا تامًا. وأن حكمة قيام بلد موحد لا تحتاج إلى نقاش بالنسبة إلى قضية العراق)[١٦٣].

كما وردت لفظة (العراق) في البيان الذي أذاعه (برسي كوكس) يوم ١٤ شباط ١٩١٥ بعد احتلال البصرة بقوله: (يعلم الجميع أن مناطق العراق فيما بين الفاو والقرنة، قد أصبحت الآن محتلة من القوات البريطانية منذ شهرين مضيا)[١٦٤].

كما تردد اسم (العراق) في خطاب (برنار) في مجلس العموم البريطاني عام ١٩١٩ بقوله: (أن الإدارة المدنية في العراق تتبع إلى وزير الدولة لشؤون الهند) وأضاف قائلًا: (لقد اضطرب العراق باهتياج سكانه العرب الذين تأثروا بالوضع في سوريا)[١٦٥].

وفي ٢٥ اذار ١٩١٩ ورد اسم (العراق) في مجلس العموم. وذلك في كلمة (لويد جورج)

رئيس الوزراء البريطاني الذي قال: (العراق يعيش فيه اليوم عددًا من النفوس يزيد قليلًا على مليونين... فماذا سيحدث لو انسحبنا؟ إننا إذا لم نضطلع بالمسؤولية فيه من المحتمل أن تتولاها بلاد أخرى. وما لم يتول بلد من البلدان الاضطلاع بهذه المسؤولية فإن العراق سيبقى حيث هو اليوم، أو قد يصبح في وضع أسوأ من هذا بكثير). وأضاف قائلًا: (وجهة نظرنا هي أنهم يجب أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن نكون نحن مسؤولين بكوننا منتدبين لتقديم المشورة والتبصير بالأمور، وللمساعدة في تمشية شؤون الحكم)[١٦٦].

وقال (برسي كوكس)، الذي كلف بالسفر إلى العراق في تشرين الأول ١٩٢٠ (لقد بلغ الاستياء الذي كانت تقابل به دائمًا فكرة الانتداب في العراق حدًا فائقًا حتى أن لفظتي الانتداب والدولة المنتدبة كانت تعدان تجديفًا بنظرهم)[١٦٧]. لذلك ردت الحكومة البريطانية على ذلك بقولها: (وأنتم يا أهل العراق، هذا فيصل بن الحسين شريف مكة وسبط رسول الله فقد عرشه في سوريا. فأتفق معه مستر تشرشل على أن يوليه عرش بلادكم. فيؤلف لكم حكومة عربية مستقلة ولكن تحت الانتداب البريطاني. وما دمتم تكرهون كلمة الانتداب، وترون أنها مرادفة لكلمة الاستعمار، فقد وعده الوزير البريطاني المذكور بأن يجعل العلاقات بين العراق وبريطانيا قائمة على أساس معاهدة تعقد بين الطرفين)[١٦٨].

ويلاحظ أن خطط (ولسن) الحاكم الملكي البريطاني في العراق، كانت تناقض تلك التوجهات. إذ تلخصت بما يأتي:

١- أن يشكل العراق كيانًا سياسيًا موحدًا، أي يشكل وحدة سياسية من ولايات بغداد والبصرة والموصل.

٢- أن يبقى العراق لمدة طويلة من الزمن تحت السيطرة البريطانية المباشرة.

ويبدو أن إجراء الاستفتاء لعام ١٩١٨ - ١٩١٩ كان قد لعب دورًا مهمًا في تنمية الوعي الوطني في العراق، ودفعه للتمسك بالدولة العراقية المستقلة.

وقد طرحت صيغة الاستفتاء على شكل ثلاثة أسئلة محددة على سكان العراق وهي: (هل يحبذون قيام دولة عربية واحدة تحت الوصاية البريطانية تمتد من الحدود الشمالية لولاية

الموصل إلى الخليج؟ وفي هذه الحالة، هل يرون من اللازم تنصيب رئيس عربي على هذه الدولة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن الذي تختارونه كرئيس؟)[١٦٩].

وفي ضوء ذلك، عقد اجتماع في النجف بين ولسن ووجهاء النجف في ١١ كانون الأول ١٩١٨، والذي قال فيه محمد رضا الشبيبي (أن الشعب العراقي يعتبر الموصل جزءً لا يتجزأ من العراق. ويعتبر العراقيون أن من حقهم تشكيل حكومة وطنية مستقلة استقلالًا تامًا)[١٧٠]. وفي الكاظمية، صدر بيان موقع من ١٤٣ شخصية عراقية. أكدوا فيه: (نحن الأمة العراقية العربية المحلية نختار حكومة مسلمة عربية جديدة)[١٧١].

وفي المحكمة الشرعية ببغداد عقد اجتماع في ١٧ كانون الثاني ١٩١٩، حضره خمسة شخصيات من وجهاء بغداد الذين اتفقوا على ما يأتي:[١٧٢]

١- أن العراق من شمال الموصل إلى الخليج مؤهل تمامًا لحكم نفسه

٢- يطالب العراقيون بحكومة عربية خالصة.

٣- أن أعظم نصير ومجاهد لأجل الكرامة العربية هو الشريف. ولذلك، ينبغي أن يكون أحد أنجاله ولا أحد سواه أميرًا على العراق، على أن يكون مقيدًا بمجلس تشريعي كما هو الحال في الحكومات المتمدنة كلها.

وفي اجتماع عقد في بغداد يوم ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩، حضره ٧٧ شخصية من الطوائف العراقية المختلفة، تمخض عن القرار الآتي: (نحن أبناء الأمة العربية المسلمة، وممثلي المسلمين من الطائفتين الشيعية والسنية الساكنين في بغداد وضواحيها، نعرب عن قرارنا بأن تكون البلاد الممتدة من شمال الموصل وحتى الخليج، دولة عربية واحدة. يرأسها ملك مسلم من أنجال شريفنا الحسين، على أن يكون مقيدًا بمجلس تشريعي محلي مقره بغداد عاصمة العراق)[١٧٣].

ووضعت اللجنة العراقية المؤلفة من أعضاء (جمعية العهد العراقي) منهاجًا في حلب لكي تعرضه على لجنة (كنغ - كرين) الأمريكية، ورد فيه ما يأتي: (يجب أن يكون العراق مستقلًا استقلالًا تامًا، بما في ذلك ديار بكر ودير الزور والموصل وبغداد والمحمرة)[١٧٤].

كما ورد في وصايا المرجع (الشيرازي) ما يؤكد الاستعمال الشائع للفظة (العراق) والمطالبة باستقلاله بقوله: (أما بعد، فإن إخوانكم المسلمين في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء وغيرها من أنحاء العراق، قد اتفقوا فيما بينهم على الاحتجاج بمظاهرات سلمية... فالواجب عليكم بل على جميع المسلمين الاتفاق مع إخوانهم بهذا المقصد الشريف. وأن يرسل كل قطر وناحية بمعتمده إلى عاصمة العراق بغداد)[١٧٥].

وركزت (جمعية العهد العراقي) على فكرة الوطنية العراقية في منشور دال على ذلك كان بعنوان (حب الوطن من الإيمان)، الذي حثت فيه على تأسيس الدولة العراقية واستقلالها في أسرع وقت ممكن، وانتخاب ملك يتولى العرش في العراق[١٧٦].

كما ورد توكيد على (استقلال العراق) في المضبطة التي أرسلت إلى (مؤتمر الصلح)، والتي تبناها جعفر أبي التمن ومحمد الخالصي ومحمد جواد الجواهري وغيرهم[١٧٧]. وجاء في معلومات سرية لبوليس العاصمة، أنه في ١٨ حزيران ١٩٢٠ أُقيمت احتفالية في جامع العدلية، رُفع فيها صور الأمير عبد الله. وكُتب عليها: (أيها الملك المتوج بجلائل الأعمال حرر عراقك، وارفع علمك المنتصر)[١٧٨].

أضف إلى ذلك، انتخب أهالي النجف مندوبين عنهم. ونظموا مضبطة توكيل لهم في ٦ حزيران ١٩٢٠ خولوهم فيها (أن يدافعوا عن حقوق الأمة، ويجهروا باستقلال البلاد العراقية في ظل دولة وطنية يرأسها ملك)[١٧٩].

كما روجت جريدة (الاستقلال)[١٨٠] البغدادية لفكرة (الاستقلال) وفكرة (الدولة العراقية المستقلة) عبر التركيز على الأفكار الآتية:

١- تعتقد أن النظام الملكي يتلاءم مع أذواق الشعب العراقي وتاريخه السياسي (إذ أن جميع الحكومات التي حكمت العراق منذ فجر التاريخ، كانت ملوكية). وبذلك فإنها كانت قد أكدت على عمق الدولة العراقية التي عرفتها البشرية منذ فجر التاريخ.

٢- كما أنها تعتقد أن (العراق جزء من الوطن العربي، وأن سكانه لا يختلفون عن سكان سائر الأقطار العربية. وبما أن الحكومات العربية في الحجاز ومصر ونجد ومسقط

والكويت وغيرها كانت ملوكية. فإنه يجب تشكيل حكومة ملوكية في العراق أسوة بهذه الحكومات). وبذلك أكدت على مسألتين هما: عروبة العراق، ونظام الحكم الملكي المناسب له.

٣- كما أنها، تعتقد أن العراق مهيأ لتأسيس الملكية، باحتساب أنه من أغنى الدول. ولذلك يستطيع الإنفاق على البلاط الملكي مهما كانت تكاليفه. وبذلك أكدت على القوة الاقتصادية للدولة العراقية.

كما أكدت جريدة (الفلاح) على العمق التاريخي للدولة العراقية بقولها: (أن العراقيين تعودوا منذ قرون طويلة على أن يروا لهم ملكًا يلتفون حوله)[١٨١].

وفي نفس السياق، ذهبت جريدة (لسان العرب)، بقولها: (لأن العراق تاريخيًا، اعتاد على الملكية، ولم يعتد على الجمهورية، إذ أنه لم يألف هذا النوع من الحكم حتى في أرقى عصوره. بينما ألف الملكية منذ عهد البابليين والكلدانيين والفرس والعرب والأتراك)[١٨٢].

وفي هذه الأثناء، شكل دعاة الحكم الجمهوري في العراق، كتلة مشتركة من أجل ترويج فكرة الجمهورية على نطاق واسع تحت شعار يصب في صالح فكرة (الوطنية العراقية) مفاده (العراق للعراقيين) فيجب أن يرأسه أحدهم بدلًا من تولية ملك حجازي على العراق[١٨٣]. كما استطاع (معروف الرصافي) من إيصال صوته إلى جريدة (العراق)، التي نشرت له مقالًا تحت اسم مستتر هو (عراقي مفكر)، عبر فيه عن تمسكه بفكرة الجمهورية عبر تمسكه بشعار (العراق للعراقيين) وتفنيده لأحقية البيت الحجازي في حكم العراق. إذ قال: (وعلى كل بما أن العراق للعراقيين، يلزم أن يرأس هذا القطر المحبوب أحد أبنائه. وأما ما تفضل به أحد إخواننا العراقيين في إحدى تلك المقالات من أن النهضة العربية الأخيرة قد بزغت من القطر الحجازي، وخصوصًا من بيت الشرفاء - ملك الحجاز -. ولذلك يلزم أن يجلس على أريكة الملوكية العراقية أحدهم، فإنه لم يصب بذلك كبد الحقيقة، لأن في النهضة المذكورة اشترك كثير من أبناء العراق ومنوريه... ولذلك، يمكننا أن نقول أن النهضة عينها ما قامت كما ينبغي إلاَّ بهؤلاء العراقيين وأمثالهم من العرب،

وليس بالحجازيين فقط، فلهذا ليس لأمراء الحجاز ذلك الحق العظيم بعدما ملكوه عقب نهضتهم)[١٨٤].

عمومًا، يمكن القول، أنه في ضوء النظام الدولي الجديد الذي تمخَّض عن الحرب العالمية الأولى، وفي ضوء وقائع ثورة العشرين في العراق ومقدماتها وما تمخَّض عنها من نتائج، **فإن فكرة إعادة تشكيل (الدولة العراقية الحديثة) أصبحت مطروحة بقوة داخل العراق وخارجه. وقد اتخذت المسارات الاتية:**

أولًا: تم التعاطي مع لفظة (العراق) كمسلمة بديهية في الخطاب والمراسلات السياسية المحلية والدولية على حد سواء، بوصفها اللفظة التي أطلقت على بلاد الرافدين منذ عصور سحيقة في القِدم.

ثانيًا: اتجهت ثورة العشرين نحو المطالبة بإعادة تأسيس الدولة العراقية المستقلة ذات العمق التاريخي الموغل في القِدم. وهذا المسار مثل قفزة كبيرة في تنامي الوعي الوطني، الذي سلم بلفظة (العراق) واتخذها عنوانًا للدولة الجديدة المستقلة.

ثالثًا: اتجهت القوى الدولية الكبرى، وخاصة بريطانيا، نحو القبول بتأسيس الدولة العراقية الحديثة، مع تنظيم العلاقات معها تارة بصيغة الانتداب، وتارة بصيغة المعاهدة الدولية.

المبحث الثالث

النظام السياسي للدولة العراقية الحديثة

لم يكن الفكر السياسي العراقي بعيدًا عن طرح ومناقشة شكل النظام السياسي للدولة العراقية الحديثة. بل أنه طرحها على بساط البحث، وانقسم بصددها إلى مذاهب شتى. لعل أهمها ما يأتي:

١ - الشكل الملكي.

٢ - الشكل الجمهوري.

٣- أشكال أخرى للحكم. منها:

أ - الإمارة العراقية.

ب- الخلافة الإسلامية.

ج - خيار اللاحكومة (أي رفض كل أشكال الحكومة).

ويبدو أن خيار النظام الملكي كان الخيار المفضَّل لدى العراقيين لأنه يمثل امتدادًا للتاريخ السياسي العراقي القديم، الذي أخذ بالنظام الملكي منذ القِدم، ولم يعرف نظامًا سياسيًا غيره. وهذا ما سوف نركِّز عليه بوصفه الخيار الشعبي - السياسي العام للعراقيين.

المطلب الأول

خيار الملكية قبل ثورة العشرين

طرحت فكرة (الملكية) كشكل من أشكال الحكم منذ الحرب العالمية الأولى[١٨٥]، لتشكل تمهيدًا للفكر السياسي العراقي بهذا الخصوص. وقد كانت تدور في فكر الكثير من العراقيين. اذ أكد (كاظم العوادي) على أنه قبل حرب الشعيبة قد تفاهم مع السيد (محمد بن كاظم اليزدي) على تكوين حكومة عراقية بالاتفاق مع البريطانيين على مغادرة العراق، على أن يقوم العراقيون بطرد الأتراك من البلاد. وقد وافقه (محمد) على أن يكون أبوه ملكًا

عـلى العراق. وبدأ يعمل مـن أجل ذلك، إلاَّ أنه لم يتمكن من مصارحة زعماء العشـائر، بيد أنه خلق فيهم التذمر من الحرب وسـوء العاقبة. ثم عاد (محمد) إلى النجف بذريعة المرض. وبعد أشـهر انكسر جيش الشـعيبة، ثم انسـحب جيش الحويزة[١٨٦]. وبذلك فشل مشروع إقامة الملكية في العراق في تلك الحقبة.

وفي أعقـاب الحـرب العالميـة الأولى مبـاشرة، تألفت جمعيـة سرية برئاسـة (محمد رضا الشـيرازي)، وبإشراف والـده، تُدعى (الجمعية الوطنية الإسـلامية). وقد كان من أهدافها بث فكرة الملكية تحت ستار الدعوة لأحد أنجال الشريف حسين ملك العرب[١٨٧].

وبعـد التصريـح البريطـاني – الفرنـسي لعـام ١٩١٨م، انتـشرت فكرة الملكية بشـكل واسع[١٨٨]. إذ أنه بعد صدور ذلك التصريح بسبعة أيام، اتخذت هذه الفكرة مدارًا للبحث في معظـم المجالـس الأهليـة في بغـداد، ولاقت تأييدًا واسـعًا في أوسـاط المجالـس الدينية الإسلامية رغم أنه لم يكن هناك إجماع وطني حول شخص الملك المرغوب فيه[١٨٩].

وأكد (سـعيد كمال الدين) أنه بعد أن قامـت جريدة العرب بنشر التصريح البريطاني – الفرنسي، فإنه قد تفاهم، في وادي النجف، مع السادة (أحمد الصافي، حسين كمال الدين، سعد صالح، محمد علي كمال الدين) حول ضرورة الاستعداد لتأسيس حكومة ملكية في العراق. وبـدأوا يعملون لنشر هذه الفكرة. واسـتطاعوا إقناع (محمد رضا الشـبيبي، ورضا الصافي، وعبـد الكريـم الجزائري) بهذه الفكـرة. وبذلك أصبـح التفاهم واضحًا بـين عدة عائلات متنفذة في النجف، وشرعوا ببث دعاية واسعة النطاق في النجف لهذه الفكرة[١٩٠].

وعـلى هـذا الأسـاس، فإن فكـرة الملكية قـد وجدت صداهـا في النجـف. إذ تمخضت النـدوات التـي كانـت تعقـد في دور (آل الصافي، وآل الجزائـري، وآل الشـبيبي، وآل كمال الدين) عن عدة أمور أهمها المطالبة بحكومة ملكية تحت التاج الهاشمي[١٩١].

وقـد وصفـت (المس بيـل) الرأي العـام العراقـي في تلك الحقبـة، بما فيـه رأي الحركة الوطنية في رسـالتها المؤرخة في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨ م قائلة: (أن معظم البلد يريد ملكًا عربيًا...)[١٩٢].

ويبدو أن فكرة الملكية قد توسع حجمها كرد فعل لسياسة (ولسن)، التي كانت تميل إلى الإبقاء على الهيمنة البريطانية على العراق بشكلها السافر.

وفي أحد اجتماعات (لجنة الشؤون الشرقية) في مجلس الوزراء البريطاني عام ١٩١٨م، اقترح (لورنس) تشكيل ثلاث دول شريفية في سوريا، والعراق الأعلى، والعراق الأسفل تحت رئاسة ثلاثة من أنجال الشريف حسين. وقد أبرقت اللجنة بهذا الاقتراح إلى (ولسن) ليبدي رأيه فيه. وكان رأيه مؤيدًا لذلك على شرط أن تكون هناك دولة عراقية واحدة. كما أكد على أن تنصيب أحد أنجال الشريف حسين ملكًا على العراق سيلاقي ترحيبًا وقبولًا في بغداد. كما يحتمل قبوله خارج بغداد أيضًا[١٩٣].

وعلى هذا الأساس، طلبت الحكومة البريطانية منه أن يستفتي أهل العراق في ثلاث مسائل هي:[١٩٤]

١- هل يرغبون في دولة عربية واحدة تحت الرعاية البريطانية؟

٢- وإذا قبلوا بذلك، فهل يوضع على رأس الدولة شخص عربي؟

٣- وفي حالة قبولهم الحالة الثانية، فمن يفضلون أن يكون رئيسًا للدولة؟

وطلبت الحكومة البريطانية من (ولسن) أن يحصل على إفصاح حقيقي للرأي العام العراقي. وأن يتبع تعليماتها حرفيًا، بيد أنه خالف إرادة حكومته. حيث أراد أن يجعل نتائج الاستفتاء مطابقة لمقترحاته القاضية ببقاء الإدارة البريطانية في العراق، ورفض تأسيس ملكية مستقلة فيه. إذ أكد ذلك في المذكرة التي أرسلها إلى الحكام السياسيين في الألوية يوم ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م[١٩٥].

وعمل بكل طاقته من أجل جعل نتائج الاستفتاء مطابقة لمقترحاته. لذلك فإن معظم مثقفي الثورة أبعدوا عن الاستفتاء عن عمد، لكي لا يكون لهم تأثير مباشر للمطالبة بحكومة ملكية مستقلة[١٩٦]. ولهذا فقد اقتصر الاستفتاء على رؤساء العشائر ووجهاء المدن[١٩٧]. إذ كانوا يدعون للاجتماعات، التي كانت تعقد لهذا الغرض من الموالين لهم. لذلك كانت نتيجة الاستفتاء تكمُن في طلب الحماية البريطانية، ورفض تأسيس ملكية مستقلة[١٩٨].

وقد تطرق التقرير الذي رفعته البعثة المؤلفة وفقًا لقرار مجلس عصبة الأمم في ٣٠ أيلول ١٩٢٤ م إلى الطريقة التي تم بها الاستفتاء. إذ ورد فيه ما يأتي: (أن الطريقة التي تم بها الاستفتاء، بصورة عامة، هي عبارة عن جمع الأشراف وشيوخ العشائر وممثلي الطوائف، واستطلاع آرائهم، ولم يستفسر عن أي رأي فردي أو سري)[١٩٩]. إلاَّ أن ذلك لا يعني أن الحركة الوطنية لم تطالب بالنظام الملكي أثناء هذا الاستفتاء. إذ أن هنالك أعمالًا كثيرة، وعرائض متعددة لرجال الحركة الوطنية، كانت تدل على أنهم طالبوا بالنظام الملكي في هذه المدة.

حيث أكد (حسين كمال الدين) أنه عندما علم أهالي النجف في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٨م بوصول (ولسن) لإجراء الاستفتاء بنفسه هناك. فإن هذا كان محرضًا للعمل من أجل نشر (فكرة الملكية). وتم الاتفاق على ذلك بين ثلاثة عائلات متنفذة وهي (آل كمال الدين، وآل الجزائري، وآل الصافي). وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٨، عقد اجتماع بين حسين كمال الدين، وسعيد كمال الدين، وأحمد الصافي في دار الأخير. واتفقوا على ضرورة (... أن تكون الحكومة ملكية لا جمهورية...)[٢٠٠].

وفي ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٨ م عقد (ولسن) اجتماعًا مع زعماء النجف. وفي هذا الاجتماع أبدى الشيخ (عبد الواحد سكر) تمسكه بفكرة الملكية باسم الأمير (عبد الله بن الحسين). وأيده المجتمعون، معبرين عن رضاهم بذلك.

وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ م عقد (ولسن) اجتماعًا آخرًا معهم. أكد فيه (محسن أبو طبيخ) تمسكه بفكرة الملكية. وأيده الحاضرون في ذلك[٢٠١]. وخاصة محمد رضا الشبيبي[٢٠٢].

وعندما فشل هذا الاجتماع في تحقيق أهداف الحركة الوطنية العراقية، فقد قرر زعماء النجف عقد اجتماع عام، تحضره جميع الطبقات الاجتماعية في النجف. للبحث في أسئلة الاستفتاء. وقد عقد هذا الاجتماع في أوائل كانون الأول ١٩١٨ م في دار (جواد صاحب الجواهر). وفي هذا الاجتماع برزت اتجاهات سياسية مختلفة في إدراكها لشكل النظام

السياسي المنشود. فمنهم من أراد (الجمهورية) ومنهم من أراد (الملكية)، إلاَّ أنهم اختلفوا حول تسمية الملك بالاسم الصريح[٢٠٣]. وهنا قام (عبد الواحد سكر) لكي يحسم الموقف. إذ أنه عبر عن تمسكه بفكرة الملكية باسم أحد أنجال الشريف حسين، مؤكدًا، في الوقت نفسه، على رفضه لفكرة الجمهورية[٢٠٤]. ثم اتفق الجميع على رأيه[٢٠٥]. ونظموا مضبطة تضمنت المطالبة بالحكم الملكي، وأرسلوها إلى الحاكم السياسي البريطاني[٢٠٦].

كما أكد (سعيد كمال الدين) بأنه قد نظمت في النجف عدة مضابط تطالب بفكرة الملكية. إذ نظم الشباب الوطني واحدة، ورجال الدين أخرى، والتجار واحدة، وزعماء العشائر واحدة، إلاَّ أن الحاكم السياسي رفض تسلُّم هذه المضابط، بذريعة أنها تحمل آراء عناصر متعصبة. وبعد مراجعات استمرت أسابيع عملت السلطة المحتلة على فصل العشائر المحيطة بالنجف عن مركز المدينة، لتنتخب وحدها في الكوفة[٢٠٧].

وفي ٢٦ كانون الأول ١٩١٨، طلب الحاكم السياسي من مندوبي النجف الحضور إلى الكوفة للاجتماع معهم. وقد حثهم في هذا الاجتماع على ضرورة تأييد الحماية البريطانية، إلاَّ أنهم أحبطوا خططه. وأبدوا تمسكًا بأهدافهم المقدمة سابقًا، بما فيها مطلب الملكية التي طالبوا بها في مضابطهم السابقة الذكر[٢٠٨].

وفي كربلاء نظم رجال الحركة الوطنية مضبطة طالبوا فيها بفكرة الملكية في كانون الأول ١٩١٨. إذ جاء فيها: (... تقرر رأينا على أن نستظل بظل راية عربية إسلامية، فانتخبنا أحد أنجال سيدنا الشريف ليكون ملكًا علينا....)[٢٠٩].

وبذلك، برز في الفرات اتجاه وطني استقلالي، يدعو للفكرة الملكية باسم أحد أنجال الشريف حسين[٢١٠].

وفي الكاظمية، نظم رجال الحركة الوطنية مضبطة في ٨ كانون الثاني ١٩١٩، تضمنت المطالبة بالملكية أيضًا[٢١١].

أما في بغداد، فقد كان (ولسن) يعتقد أنها أهم مراكز المعارضة في العراق. لذلك أجل إجراء الاستفتاء فيها حتى تتجلى مواقف الأهالي في سائر المناطق الأخرى. وقد عهدت

السلطة المحتلة إلى نقيب الأشراف وإلى القاضي الجعفري، أن ينتدب كل منهما خمسة وعشرين شخصًا من أبناء طائفته، للاشتراك في اجتماع تعقده السلطة المحتلة في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩، لاستطلاع رأي أهالي بغداد في مستقبل بلادهم، كما طلب من الحاخام الأكبر اليهودي أن ينتدب عشرين رجلًا من كبار اليهود، ومن رؤساء الطوائف المسيحية أن ينتدبوا عشرة رجال من كبار المسيحيين، ليشتركوا في الاجتماع المذكور.

وبدلًا من أن ينتخب القاضيان السني والجعفري وجهاء طائفتيهما فانهما طلبًا من الشخصيات البارزة في الطائفتين أن ينتخبوا ممثلين عنهم لحضور الاجتماع المذكور[٢١٢].

وعندما عقد هذا الاجتماع، فإنه أسفر عن توقيع الثوار المسلمين لمضبطة تطالب بالملكية. إذ جاء فيها (... قد اخترنا أن تكون لبلاد العراق... دولة واحدة عربية، يرأسها ملك عربي مسلم هو أحد أنجال الشريف حسين...)[٢١٣].

وهكذا يتبين أن رجال الحركة الوطنية، وفي مقدمتهم الطبقة المفكرة وعلماء الدين، كانوا راغبين بتأسيس حكومة ملكية مستقلة، يرأسها أحد أنجال الشريف حسين. وعندما رفض الحكام السياسيون تسلم المضابط المطالبة بتأسيس الملكية في العراق، وأخذت السلطة المحتلة تماطل في الاستجابة لهذا المطلب الوطني[٢١٤]، فإن (محمد رضا الشبيبي) كان قد فكر بالقيام بمهمة تمثيل الثورة خارج العراق، وإيضاح أهدافها هناك، وخاصة في الحجاز وسورية، لأن قادة الثورة العربية هناك يجهلون ما يحدث في العراق. وقد فاتح جماعة من العلماء والرؤساء وأقنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكرة، فوافقوا عليها[٢١٥].

وعلى هذا الأساس، اجتمع زعماء الفرات في دار (عبد الواحد سكر). وبعد المداولة قرروا، إعلان استقلال العراق، والمناداة بالأمير عبدالله ملكًا على العراق[٢١٦]، على أن يقوم (الشبيبي) بحمل المضابط التي نظمها أهالي الفرات إلى الحجاز من أجل ترويج الدعاية لفكرة الملكية التي طالبوا فيها مرارًا[٢١٧].

وقد كتبت في النجف ثلاثة مضابط أرسلت مع (الشبيبي) إلى الحجاز. الأولى كانت موقعة من رجال الدين، وأشهرهم الشيرازي وشيخ الشريعة، والثانية موقعة من زعماء

القبائل ورؤساء العشائر وأهمهم، عبدالواحد سكر، ونور السيد عزيز، ومحسن أبو طبيخ، وعلوان الياسري، والثالثة موقعة من الشبان. وخلاصة هذه المضابط هي طلب أهالي الفرات من ملك الحجاز أن يساعدهم بتأسيس الملكية في العراق لكي يرأسها أحد أنجاله[٢١٨].

ويبدو أن المضابط القليلة التي طالبت بفكرة الملكية أثناء الاستفتاء، كانت قد لعبت دورًا بارزًا في بلورة الرأي العام العراقي وتوجيهه نحو المطالبة بفكرة الملكية، إذ أن عدم تنفيذ هذا المطلب من السلطة المحتلة، كان قد هيأ الجو الملائم لاندلاع الثورة المسلحة. وقد أكد (علي الوردي) ذلك بقوله: (أن الفئة القليلة التي طالبت بالحكم العربي في أثناء الاستفتاء تعتبر البذرة التي انبثقت منها ثورة فهي أخذت تنمو بمرور الأيام، وصار ينضم إليها كل متذمر من الإنكليز، أطلق الناس على هذه الفئة اسم الوطنيين، أما المخالفون لها فكانوا في نظر الناس خونة وموالين للكفار، وصار الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في الأمير عبدالله باعتباره مرشح الوطنيين لعرش العراق، فيهتف الناس عند سماع اسمه، ويصفقون له طويلًا)[٢١٩].

وفي أعقاب الاستفتاء، حاول بعض زعماء الحركة الوطنية التعريف بأهداف الثورة أمام الرأي العام العالمي، ومن بين هؤلاء الزعماء المرجع (الشيرازي)، الذي كتب بالتضامن مع (شيخ الشريعة) رسالة إلى الرئيس الأمريكي (ولسن) في ١٣ شباط ١٩١٩، أعربًا فيها عن رغبتهما بالملكية. إذ جاء في الرسالة ضرورة (... اختيار دولة جديدة عربية مستقلة إسلامية، وملك مسلم...)[٢٢٠]. كما نظم زعماء الفرات في حزيران ١٩١٩، وثيقة مهمة وزعوها على الشعب العراقي لترويج فكرة الملكية، إذ ورد فيها: (... أن يكون لنا في العراق حكومة مدنية دستورية ملكية، ويكون ملكها أحد أنجال ملك العرب الأمير عبدالله أو الأمير زيد). وقد أرسلت نسخ من هذا المنشور إلى سورية وفلسطين، وشرقي الأردن، وإيران، وتركيا، وأفغانستان وغيرها لترويج هذه الفكرة[٢٢١].

وعندما تأسست الجمعيات السياسية السرية المحركة للثورة، فإنها قد تبنت فكرة الملكية في مناهجها الرئيسية، إذ أكدت وثيقة صادرة من المقر العام لقوات الحملة المصرية على أن

(جمعية العهد العراقي) كانت تطالب بالاستقلال التام للعراق تحت ملوكية أحد أنجال الشريف حسين[٢٢٢].

كما أن (جمعية حرس الاستقلال)، كانت قد تبنت فكرة الملكية رغم وجود عناصر تقدمية فيها، وذلك في المادة الثالثة من منهاجها، والتي جاء فيها (تعترف الجمعية بإسناد منصب الملوكية في هذه البلاد إلى أحد أنجال الملك حسين...)[٢٢٣].

وقد علل (كوتلوف) هذه الظاهرة مؤكدًا أن سيطرة العناصر الاقطاعية على مقدرات الجمعية، كان قد أثر تأثيرًا كبيرًا فيما يتعلق ببرنامجها بشأن نظام الحكم في الدولة المزمع إقامتها. إذ أنها لم تستطع الخروج عن المطالب التي تقدم بها العهديون بهذا الصدد[٢٢٤].

وقد بذلت (جمعية العهد العراقي) جهودًا ملموسة من أجل تأسيس الملكية في العراق، فعندما قرر الحلفاء إرسال لجنة دولية باسم (لجنة الاستفتاء الأمريكية) لمعرفة آراء الشعوب المنسلخة عن الدولة العثمانية فإن (جمعية العهد) كانت قد بذلت جهودًا ملموسة من أجل تهيئة الرأي العام العراقي لتقبل فكرة الملكية والمطالبة بها من اللجنة المذكورة. وتنفيذًا لهذه النوايا فإن مركز الجمعية في الشام، اتخذ بعض المقررات، ونشرها في العراق، ومن ضمن هذه القرارات ضرورة (تأليف حكومة ملكية وراثية في العراق...)[٢٢٥]. وحثَّت الجمعية الشعب العراقي في منشور لها بعنوان (حب الوطن من الإيمان) من أجل انتخاب ملك يتولى العرش في العراق[٢٢٦].

كما وزع (جميل المدفعي) منشورًا في الموصل يوم ٢ تموز ١٩١٩ حثَّ فيه الأهالي على ضرورة انتخاب الأمير عبدالله ملكًا على العراق[٢٢٧].

وقام معلمو مدرسة (دار النجاح) في الموصل – وهم أعضاء في جمعية العهد – بالترويج لفكرة الملكية في العراق عبر توزيع صور الملك حسين وأنجاله والدعوة لملوكية أحدهم[٢٢٨].

وقام فرع العهد في الموصل بتوزيع المنشورات في ٢ آيار ١٩١٩ على أهالي الموصل وأطرافها، يحثونهم فيها على ضرورة المطالبة بالملكية أمام لجنة الاستفتاء الأمريكية[٢٢٩].

وهكـذا يبـدو أن فكـرة الملكية قـد تبلورت بشـكل واضـح في الموصـل، ولذلك نظم الأهـالي عدة مضابط تطالب بالملكية أرسـلت إلى حلب. وهذا ما أكده الكتاب المرسـل من فرع الموصل إلى المركز في حلب يوم ٢ حزيران ١٩١٩م[٢٣٠].

وفي ١٩ تمـوز ١٩١٩ أكـد معتمد العهد في دمشـق (جميل لطفي) في رسـالة موجهة إلى معتمد العهد في الموصل (محمد رؤوف الغلامي) على ضرورة (أن يشكل في العراق حكومة مدنية ملكية...)[٢٣١].

وعندمـا وصلـت لجنـة الاسـتفتاء الأمريكيـة إلى سـورية، فإنها قـد التقـت بوفد عربي في حلب ضم بعض أعضاء جمعية (العهد العراقي) أمثال جعفر العسكري، ومولود مخلص، وتحسـين العسـكري، ورؤوف الشـهواني[٢٣٢]. وقد قدم هذا الوفد عدة مطالب إلى اللجنة منها ضرورة (تأسـيس حكومة دسـتورية مدنية ملكية في العراق على أن يكون ملكها سـمو الأمير عبدالله أو شقيقه سمو الأمير زيد)[٢٣٣].

ويبدو من كل ذلك، أن فكرة الملكية كانت قد انتشرت بشكل واسع بين أوساط الرأي العام العراقي. وهذا ما أكدته لجنة الاستفتاء في توصياتها التي أعلنتها في سوريا بعد الانتهاء مـن جولتهـا وذلـك في ٢٨ آب ١٩١٩. إذ جـاء فيهـا: (... فإننا نوصي بـأن تكون حكومة العراق، انسـجامًا مع الرغبات السافرة لشعبها، ملكية دستورية... كما أن الاتصالات التي اسـتطعنا تأمين عقدها مـع العراقيين تدعم هذا الافتراض، وتجـر إلى الاعتقاد بأن البرنامج الذي رفعه في حلب الممثلون العراقيون برئاسة جعفر العسكري... خليق بأن يؤيده الشعب العراقي بشكل عام)[٢٣٤].

وبعد أن باءت جهود (العهد) بالفشـل في تأسـيس الملكية، قرر المركز العام في دمشـق تأليف مؤتمر عراقي في دمشـق يتكون من خمسـة وعشرين عضوًا، وهم على نوعين، الصنف الأول يتألـف بواسـطة مضابـط توكيل يقدمها العراقيون أنفسـهم، والصنـف الثاني يتألف مـن رجال العراق الموجودين في سـوريا على أن ينتخبـوا بالأكثرية[٢٣٥]. وفعلًا انعقد المؤتمر العراقـي في دمشـق يـوم ٨ آذار ١٩٢٠، وقرر المنـاداة (... بحضرة صاحب السـمو الملكي الأمير عبدالله ملكًا دستوريًا يلقب صاحب الجلالة ملك العراق...)[٢٣٦].

ويبـدو أن قرارات هذا المؤتمر لم ترق للحكومة البريطانية. حيث صرح اللورد (كرزن) وزير خارجيتها في البرلمان حسـب ما ذكرته جريدة التايمس اللندنية قائلًا (أن الدعوة التي أرسـلت إلى سـمو الأمـير عبدالله حـول انتخابه ملكًا عـلى العراق تمت بغير علـم منه، وأن هؤلاء الذوات ذوو شأن في نظر قومهم ولكن ليس لهم الحق أن ينطقوا باسم العراق)[٢٣٧]. إلاَّ أن (يانـغ) أكـد أهمية المؤتمر العراقي باحتسـابه يضم ثلاثة من رؤسـاء الوزارات ووزير المالية، الأمر الذي يدل على أن المجلس العراقي كان مجلس يستحق الاهتمام)[٢٣٨].

كـما أيـد فرع العهـد في الموصل قرارات المؤتمـر العراقي، وأبدى ترحيبـه بفكرة الملكية باسـم الأمير عبدالله[٢٣٩]. كما أرسـلت سلسـلة من الرسـائل المؤرخة في ١٢ نيسان ١٩٢٠ إلى الأمـير عبـدالله، والتي وقعت في أيدي السـلطة المحتلة، وفيها تهنئة لـه على انتخابه ملكًا على العراق وترحيبًا به. وكانت موقعة من شـيوخ وسـادات الشـامية، والسماوة، والرميثة، والمنتفـك، والكوفـة، والنجف، والحلة. وكان كل الموقعين ما عـدا اثنين منهم من قام بدور بارز في ثورة العشرين[٢٤٠].

وقد عثر الباحث على هذه الرسالة الموقعة من سادات وزعماء الشامية والسماوة، والتي جـاء فيهـا:(... يا صاحب الجلالـة أن الأمة العراقيـة التي هتفت بجلالتك ملكًا دسـتوريًا عليها.. ترحب بموكبك المفخم للجلوس على عرشك الرفيع...)[٢٤١].

ثـم قررت جمعيـة العهد في الشـام، تكثيف الدعايـة للملكية في العـراق، لذلك قررت إرسـال بعض الأشـخاص ليقوموا بالدعوة لذلك بين أوساط الشـعب العراقي. وكان من أول هـؤلاء الدعـاة (عبدالغفور البـدري) وذلك عندمـا طلب منه (جميـل المدفعي) التهيؤ للسفر إلى بغداد لترويج فكرة الملكية في العراق[٢٤٢].

وقـد كانت حوادث تلعفر على ما يبدو، بمثابـة محاولة من العهد لتطبيق مقرراته بالقوة المسلحة. واتضح ذلك عندما تم تحرير تلعفر يوم ٥ حزيران ١٩٢٠. إذ عقد (جميل المدفعي) اجتماعًا في دار رئيس البلدية، حضره ضباط الحملة ورؤساء العشائر، وبحثوا عدة أمور منها توسـيع الحملة لتشـمل الموصل. ولذلك كتبوا إلى الحاكم السـياسي (نولدر) إنذارًا جاء فيه

(نحن باسم جميع أهالي العراق نخطركم بلزوم خروجكم من ديارنا، وتسليم العراق لمليكنا صاحب الجلالة عبدالله الأول...)[٢٤٣].

وعندما انعقد مؤتمر الصلح فإن (الجمعية العربية العراقية) قدمت مذكرة إلى المؤتمر، احتجَّت فيها على نتائج الاستفتاء، وأكدت تمسكها بفكرة الملكية، وذلك في ١٥ أيلول ١٩١٩. إذ جاء فيها: (اننا نرفض كل الرفض وثائق الانتخابات التي حملها حاكم العراق الملكي ولسن إلى مؤتمر الصلح، فإنها أخذت من الأمة بدون استفتاء وتخيير، بل بالقهر والإرغام... إننا نعترف بملوكية جلالة الملك حسين الأول، نطلب ملكًا على العراق أحد أنجال الملك الأمير عبدالله أو زيد...)[٢٤٤].

وقد مثَّل العرب في مؤتمر الصلح الأمير (فيصل)، الذي أرسلت له عدة مضابط توكيل من زعماء الثورة في العراق، للمطالبة بحقوقهم، وخاصة تأسيس الملكية في العراق، ومن بين هذه المضابط، هذه المضبطة الموقعة من (جعفر أبي التمن، ومحمد الخالصي، ومحمد جواد الجواهري وغيرهم)، والتي جاء فيها تأكيد على ضرورة (تأمين استقلال العراق... تحت ظل ملوكية أحد أنجال سيدنا الشريف ملك العرب...)[٢٤٥].

وقد تحولت فكرة الملكية التي تمسك بها الثوار إلى ميدان العمل، لتبدو أكثر وضوحًا، وذلك من خلال المظاهرات التي انطلقت في العراق، والتي تطالب بها بشكل علني. إذ أكد فرع العهد في بغداد في رسالة جوابية إلى فرع الموصل في حزيران ١٩٢٠، على أنه بعد أن ألقى (عيسى عبدالقادر) قصيدته الحماسية في أحد جوامع بغداد فإنه قد هتف الحاضرون بحياة ملك العراق الأمير عبدالله[٢٤٦]. ونتيجة لاستمرار المظاهرات، ومماطلة السلطة المحتلة، فإنه قد تشكَّل وفد يُسمى (مندوبي بغداد الخمسة عشر)، للتفاوض مع السلطة المحتلة[٢٤٧]. وقد سعى المندوبون من أجل تأسيس الملكية بصورة سريعة إلاَّ أن (ولسن) عارض هذا السعي في الاجتماع الذي عقده معهم يوم ٢ حزيران ١٩٢٠. إذ قال لهم: (إني أؤكد لحضراتكم أن الأفراد الذين يرمون إلى تأسيس حكومة ملكية بصورة مستعجلة بالحض على استعمال العنف وبتهييج أفكار البسطاء من الأمة، يجنون على وطنهم مهما كانوا مدفوعين إلى أعمالهم هذه بدوافع وطنية

أو بعوامل أخرى، ولا يوجد أمل بتأسيس حكومة ملكية بالصورة التي تريدونها، قبل أن يستتب الأمن...)[٢٤٨].

ولذلك استمرت المظاهرات في بغداد. وقد جاء في معلومات سرية لبوليس العاصمة، أنه في ١٨ حزيران ١٩٢٠، أُقيمت حفلة في جامع العدلية، رُفع فيها الجمهور صور الأمير عبدالله، وكتب عليها (أيها الملك المتوج بجلائل الأعمال، حرر عراقك، وارفع علمك المنتصر)[٢٤٩].

وعندما علم (الشيرازي) بمظاهرات بغداد، فإنه وجه بيانًا إلى عموم العراقيين يوم ٢٧ – ٢٨ آذار ١٩٢٠، يطلب منهم تشكيل وفود لمطالبة السلطة المحتلة بحقوق العراقيين، ومساندة مظاهرات بغداد السلمية[٢٥٠].

وقد انتخب أهالي النجف مندوبين عنهم، ونظموا مضبطة توكيل لهم يوم ٦ حزيران ١٩٢٠، وقد خولوهم (... أن يدافعوا عن حقوق الأمة، ويجهروا باستقلال البلاد العراقية... في ظل دولة وطنية يرأسها ملك..)[٢٥١].

وفي الاجتماع الذي عقده مندوبو النجف مع الحاكم السياسي يوم ١٢ حزيران ١٩٢٠، قدموا له عدة مطالب منها، (ضرورة تأسيس حكومة ملكية في العراق)[٢٥٢]، إلاَّ أن الحاكم البريطاني رفض ذلك. ولهذا امتدت المظاهرات لتشمل كربلاء حيث أمر محمد رضا نجل الشيرازي بإقامة مظاهرات في صحن الروضة الحسينية. وذلك في ١٢ حزيران ١٩٢٠. وقد شكلت لجنة لتنظيم هذه المظاهرات[٢٥٣].

وكان قد عُقد قبل هذا اجتماع في الحلة يوم ١٩ حزيران ١٩٢٠ في أحد الجوامع، وأُلقيت الخطب والقصائد الحماسية من ثوار الحلة، الذين نادوا باسم الأمير عبدالله ملكًا على العراق[٢٥٤].

ولذلك فإن السلطة المحتلة، اعتقلت نجل الشيرازي ومجموعة من أحرار كربلاء والحلة[٢٥٥]. ولهذا السبب عُقد في الحلة اجتماعًا احتجاجيًا في الجامع الكبير، وهتف المجتمعون باسم الأمير عبدالله ملكًا على العراق، وعلى أثر ذلك قام الميجر (بولي) باعتقال ونفي مجموعة أخرى من الثوار[٢٥٦].

وعلى هذا يتبين ما يأتي:

أ – أن خيار النظام الملكي فرض وجوده قبل اندلاع ثورة العشرين كموروث سياسي مُسَلَّم به منذ آلاف السنين.

ب– ركز الفكر السياسي العراقي، إبان ذلك، على المناداة بالأمير (عبد الله بن الحسين) ملكًا على العراق.

المطلب الثاني
خيار الملكية أثناء ثورة العشرين

مع استمرار الثورة المسلحة، فقد استمر الثوار بالتمسك بفكرة الملكية، إلاَّ أنه في هذه المرة تمت المناداة باسم (الأمير فيصل). وقد كان (محمد الصدر) أول من نادي بذلك. وكان لرأيه تأثير على مندوبي بغداد، إذ أنهم أيدوا فكرته هذه، ومن ثم أخذته عنهم أندية العراق ومحافلها[٢٥٧]. لذلك اقترحت المس (بيل) على السر (برسي كوكس) أن يغتنم فرصة وجود فيصل في إنكلترا، لكي يُتَوجه ملكًا على العراق، وذلك في رسالتها المُؤرخَة في ١٦ آب ١٩٢٠م[٢٥٨].

وعندما امتدت الثورة المسلحة إلى (قلعة سكر)، اجتمع الثوار هناك في موقع يُسمى (المصيغي)، ووقعوا على ميثاق تضمَّن المطالبة بفكرة الملكية باسم أحد أنجال الحسين[٢٥٩].

وقد روجت جريدة (الاستقلال) البغدادية المعبرة عن فكر الثورة في بغداد، لفكرة الملكية. وانطلقت في تبنيها لهذه الفكرة من عدة منطلقات أهمها ما يأتي:[٢٦٠]

١ – لأنها تعتقد أن الملكية تتلاءم مع أذواق الشعب العراقي وتاريخه، إذا أن جميع الحكومات التي حكمت العراق منذ فجر التاريخ، كانت ملوكية، ولم يعهد لهم أحد حكومة جمهورية في وقت من الأوقات على حد قولها.

٢ – لأنها تعتقد أن العراق جزء من الوطن العربي، وأن سكانه لا يختلفون عن سكان

سائر الأقطار العربية، وبما أن الحكومات العربية في الحجاز ومصر ونجد ومسقط والكويت وغيرها، كانت ملوكية، فإنه يجب تشكيل حكومة ملوكية في العراق أسوة بهذه الحكومات.

٣- كما أنها تعتقد أن العراق مهيأ لتأسيس الملكية، على أساس أنه من أغنى الدول. ولذلك يستطيع الإنفاق على البلاط الملكي مهما كانت تكاليفه.

٤- كما أنها تعتقد، أن الملكية لا يمكن أن تكون استبدادية بطبيعتها، لأن نفوذ الملك لا يمكن أن يكون أكثر من نفوذ رئيس الجمهورية أو أقل، إنما ذلك تابع إلى السلطة التي تخولها لهم الأمة وفقًا للقوانين. فموقع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، لا يشابه موقع ملك بريطانيا، ونفوذ الرئيس الفرنسي لا يقاس بسلطة السلطان العثماني. كما أنها تعتقد أن رئيس الجمهورية ليس إلاَّ عبارة عن ملك يتقلد السلطة لمدة معلومة تنتهي ملوكيته بانتهاء تلك المدة، ولذلك فإنه لا يختلف كثيرًا عن الملك.

ويبدو أن هذه أول مرة يعبر فيها الفكر السياسي العراقي عن تمسكه بفكرة الملكية عبر تأكيده على مزاياها في تحليل فكري ناضج إلى حد ما، بعد أن كان يعبر عن تمسكه بها بالوقائع التاريخية. والسبب في ذلك يرجع إلى عدة أمور أهمها عدم وجود منشورات واسعة للثوار، لكي يوضحوا من خلالها مزايا فكرة الملكية على المستوى الفكري. كما أن المطالبة بفكرة الملكية من الثوار أصبحت من الأشياء البديهية، نتيجة لكثرة ترددها على الألسن.

أضف إلى ذلك، أن السلطات المحتلة بدأت أيضًا تروج لفكرة الملكية عبر الصحف الناطقة بلسان الحكومة. وذلك كان الثوار لا يركزون على ذكر مزايا الملكية بل يعبرون عن تمسكهم بها عبر المطالبة بها شفاهة، أو عبر ذكرها في المضابط المقتضبة.

ونتيجة لاستمرار تمسك الفكر السياسي لثورة العشرين، بفكرة الملكية فقد أكد أحد التقارير البريطانية على ضرورة أن تستجيب الحكومة البريطانية لمطالب الثوار ومنها تأسيس حكومة ملكية، لأنها بدأت تتعرض لانتقادات شديدة في البرلمان والصحافة. وبدأت تنفق

الأمـوال في العـراق بلا جـدوى، الأمر الذي لا تسـتطيع الحكومة تحمله باسـتمرار. لذلك بدأت عملية تأسيس الدولة العراقية[٢٦١].

وقـد اتخـذت الحكومـة البريطانيـة أولى خطواتها نحو الاسـتجابة لهذا المطلـب، عندما قامـت بتأسـيس الـوزارة العراقية المؤقتـة في ٢٥ تشريـن الأول ١٩٢٠ برئاسـة عبدالرحمن النقيـب[٢٦٢]، إلاَّ أن اشـتداد المعارضـة الوطنيـة المتناميـة لهذه الـوزارة، أكـد لبريطانيا أنها لا تستطيع أن تحتفظ بنفوذها في العراق، إلاَّ بعد أن تستجيب لمطلب الثوار المتمثل بتأسيس حكومة ملكية في العراق[٢٦٣].

لذلـك قام الميجر (كورنواليس) بإقنـاع (فيصل) ليترأس الدولة الملكيـة المزمع إقامتها في العراق، بعد أن تعهد له فيصل، بقبول الانتداب البريطاني، وتجنب أي عمل عدائي ضد الوجود الفرنسي في سورية[٢٦٤].

عليه يتبين ما يأتي:

أ - يبـدو أن خيـار النظـام الملكي، أصبـح أكثر رسـوخًا في الفكـر العراقي إبـان ثورة العشرين.

ب- ركز أهل العراق، إبان ثورة العشرين، على المناداة (بالأمير فيصل) بدلًا من (الأمير عبد الله).

المطلب الثالث
خيار الملكية في أعقاب ثورة العشرين

وعنـد انتهـاء الثـورة المسـلحة، وهروب معظـم زعمائهـا إلى الحجاز فقـد اجتمعوا مع الملك حسـين، وأبلغوه أن العراقيين يرغبون بالملكية، وهم يرشحون فيصل ليتولى العرش. وخاطـب (محسـن أبو طبيخ) الملك قائـلًا: (وها إنني أول من يبايـع الأمير فيصل ملكًا على العراق). وقد حذى حذوه الآخرون[٢٦٥].

كما وصلت برقية من بعض زعماء الثورة في العراق إلى الملك حسين، طلبوا فيها إرسال

الأمير فيصل ليكون ملكًا على العراق[٢٦٦]. وعندما سمحت الوزارة المؤقتة بعودة العراقيين الذين أشغلوا مناصب مدنية أو عسكرية في العهد العثماني إلى وطنهم، فإنهم قاموا بترويج فكرة الملكية باسم الأمير فيصل[٢٦٧].

ولذلك تعاظم نفوذ دعاة الملكية، على الرغم من وجود اتجاهات سياسية معارضة. إذ أنه كان الاتجاه الأكثر بروزًا في تلك الحقبة الزمنية. وقد لقي هذا الاتجاه تأييدًا واسعًا من ثوار العراق، وخاصة من القبائل[٢٦٨].

عليه، يبدو أن بريطانيا قد اضطرَّت إلى عقد مؤتمر القاهرة في ٢٢ آذار ١٩٢١ لوضع الترتيبات اللازمة لتأسيس الملوكية في العراق باسم الأمير فيصل[٢٦٩]. إذ وضع في هذا المؤتمر جدول منتظم لوصول فيصل إلى العراق لكي تضمن بريطانيا تأسيس الملكية في العراق باسمه[٢٧٠]. وذلك من أجل تحقيق مصالحها الأساسية من جهة، والاستجابة لمطالب الثوار من جهة أخرى.

وفي أثناء عقد مؤتمر القاهرة، عبر بعض قادة الثورة عن تمسكهم بفكرة الملكية. إذ نلاحظ أن عددًا من زعماء الثورة البارزين أمثال (عبدالكريم الجزائري) و(علي كاشف الغطاء) قد أرسلا برقية يوم ٢٢ آذار ١٩٢١ إلى الشيخ (خزعل)، أكدوا فيها تمسكهم بالملكية باسمه[٢٧١]، إلاَّ أنه في أعقاب مؤتمر القاهرة، استمر رجال الثورة بالدعوة للملكية باسم أحد أنجال الحسين. إذ تواترت البرقيات العديدة إلى الحسين، يطلبون منه أن يساعدهم في تأسيس الملكية في العراق. وذلك بأن يرسل أحد أنجاله ليجلس على العرش في العراق[٢٧٢]. وأجدر أصحاب هذه البرقيات بالذكر السادة محمد الصدر وناجي السويدي، وحمدي الباجه جي، الذي أرسل برقيته باسم جمعية (العهد العراقي)، وبهجت زين الدين الذي أبرق في هذا باسم جمعية (حرس الاستقلال)[٢٧٣].

ولذلك عندما عاد (كوكس) إلى بغداد في أواسط نيسان ١٩٢١، فإنه وجد أن فكرة الملكية تهيمن على الفكر السياسي العراقي. وقد اضمحلت، إلى حد ما، الاتجاهات السياسية الأخرى[٢٧٤]، وخاصة بعد نفي (طالب النقيب)، الذي كان يساند الثوار المطالبين بفكرة الجمهورية في ١٦ نيسان ١٩٢١.

وبذلك يبدو أن (كوكس) قد اضطر إلى نشر بيان يوم ١٧ حزيران ١٩٢١، أكد فيه أن الحكومة البريطانية لن تضع عقبة أمام تأسيس الملكية في العراق باسم الأمير فيصل خاصة[٢٧٥].

ونتيجة لاستمرار مطالبة رجال الثورة بفكرة الملكية، وجنوح بريطانيا في تلك الحقبة نحو للملكية أيضًا، فإنه عندما وصل فيصل إلى العراق لاقى ترحيبًا كبيرًا من المواطنين، كدلالة على الميول العراقية الواضحة نحو الملكية، وبدأت رغبة واضحة في ترشيح فيصل لها[٢٧٦].

وقد روجت لفكرة الملكية بعض الصحف الحكومية (مثل العراق، الموصل)، وبعض الصحف الوطنية، التي لم يكن لها إسهام فعَّال في الثورة، إلاَّ أنها كانت قد تأثرت بأفكارها، إلى حد ما، فنلاحظ مثلًا جريدة (الفلاح) تروِّج لفكرة الملكية، إذ جعلتها غرضًا من الأغراض التي تصدر من أجلها. حيث قالت أن خطتها تتمثل بالسعي من أجل: (... تشكيل حكومة دستورية ملكية...). وسوغت موقفها هذا بالقول أن العراقيين كانوا قد: (... تعودوا منذ قرون طويلة على أن يروا لهم ملكًا يلتفون حوله... فماذا يضر الأمة بعد هذا أن يكون لها ملك جُل عمله أن يتصدر بينها في النادي، ويتقدمها في الأمور كالهادي...)[٢٧٧].

كما أكدت جريدة (لسان العرب) تمسكها بفكرة الملكية، منطلقة في ذلك من عدة منطلقات أهمها ما يأتي:[٢٧٨]

١- لأن الشعب العراقي غير مؤهل للجمهورية، لأنه شعب لا يزال متخلفًا، ويحتاج في إدارته وسياسته إلى مُعين أو نصير يأخذ بيده، لذلك لابد أن تكون حكومته ملوكية وليست جمهورية على حد قولها.

٢- ولأن العراق تاريخيًا اعتاد على الملكية، ولم يعتد على الجمهورية. إذا أنه لم يألف هذا النوع من الحكم حتى في أرقى عصوره، بينما أَلِف الملكية منذ عهد البابليين، والكلدانيين، والفرس، والعرب، والأتراك، على حد قولها.

٣- كما أنها اعتقدت أن الحكم الجمهوري ليس مقياسًا للتطور والحكم الراقي دائمًا.

إذ أن ذلك يعتمد على الظروف، فإذا كانت الجمهورية قد أفادت في سويسرا، وأمريكا، وفرنسا، فإنها لن تفيد في ألمانيا وإنكلترا، أضف إلى ذلك، توجد مَلَكيات أفضل من الجمهوريات في بعض البلدان. فبريطانيا الملكية الدستورية أرقى من فرنسا الجمهورية، واليابان، وألمانيا الإمبراطوريتين أفضل من كثير من الجمهوريات. لذلك يجب أن تكون الحكومة ملكية في العراق، لأنه بلد متخلف في ميدان الحضارة والمدنية على حد قولها.

٤- كما أنها تعتقد بضرورة أن يكون الحكم ملكيًا، لكي يتوافق العراق مع الممالك المجاورة، والدول ذات العلاقة وخاصة بريطانيا.

ويبدو أن الذي حسم الموقف لصالح فكرة الملكية، واستبعد الاتجاهات السياسية الأخرى من الميدان، هو القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء في ١١ تموز ١٩٢١، والقاضي بالاعتراف بالملكية في العراق، باسم الأمير فيصل[٢٧٩]، والذي أعطى دفعة قوية لهذا القرار على الصعيد الجماهيري، هو الفتوى التي أصدرها المرجع الديني الأعلى (مهدي الخالصي)، والتي تؤيد فكرة الملكية باسم الأمير فيصل، وذلك في ١٣ تموز ١٩٢١. إذ جاء فيها: (... فاحكموا بيعته، وابرموا طاعته، واهتفوا باسمه مذعنين لحكمه، ونحن ممن اقتفى هذا الأثر، وبايعه في السر والجهر، على أن يكون ملكًا على العراق...)[٢٨٠]. وقد ألزمت هذه البيعة جميع مقلديه، الذين أيدوا فكرة الملكية امتثالًا لأوامر مرجعهم الديني الأعلى[٢٨١]. ولذلك عندما أُجري تصويت عام على قرار مجلس الوزراء، فإن الأغلبية كانت بجانب الملكية باسم الأمير فيصل، الذي حصل على ٩٦ ٪ من مجموع الأصوات[٢٨٢].

وعلى هذا الأساس، تم الإعلان وبشكل رسمي عن تأسيس الملكية في العراق يوم ٢٣ آب ١٩٢١م[٢٨٣]. وقد وصف (هنري فوستر) شعور الرأي العام العراقي، بما فيه رأي الثوار آنذاك، بقوله: (أن فيصل وإن كان غريبًا عن العراقيين بنوع ما، فإن عودة حياة الملكية كانت من الأمور المحبوبة لديهم، فكان سرورهم عظيمًا بالحصول على هذا الملك الحازم)[٢٨٤].

ومنذ ذلك التاريخ وُلِدت الدولة العراقية الحديثة. وما الأخذ بالنظام الملكي إلاَّ دليل

مضاف على أن هذه الدولة تمثل امتدادًا للدول العراقية القديمة التي أقيمت على أرض بلاد الرافدين تحت عناوين مختلفة.

وكخلاصة للموضوع لا بد أن نطرح سؤالًا، ألا وهو: لماذا نجح دعاة الملكية سواء من الثوار أو من غيرهم في تأسيس الملكية في العراق. بينما فشلت الاتجاهات السياسية الأخرى في مسعاها؟

وللإجابة على هذا التساؤل، لا بد من الاعتراف بأن السبب يكمُن في كون فكرة الملكية كانت متوافقة مع المصالح والمثل البريطانية من جهة، ومتوافقة مع اتجاهات الرأي العام العراقي بما فيه رأي الثوار من جهة أخرى. فقد اتضح لبريطانيا، أن حكم العراق بصورة مباشرة، أصبح مستحيلًا بعد الثورة، وأصبح واضحًا لها أن المصالح البريطانية الأساسية لا تتحقق إلاَّ بالنظام الملكي، وعن طريق أسرة مالكة معينة، ترتبط مصالحها بالحكومة البريطانية، أكثر مما يحققها نظام جمهوري لا تأتمن ما يأتي به في الغد، عندما يمارس الشعب حقوقه في السيادة[٢٨٥].

لذلك كان لا بد من استقرار الأوضاع في العراق، وإيجاد وسيط بينهم وبين الشعب العراقي، يستطيعون بواسطته تحقيق مصالحهم الأساسية، وتجنب الانتقادات. وهذا لا يأتي عن طريق الحكم الجمهوري، الذي يتطلب تجدد انتخاب رئيس الدولة في فترات معينة. وقد يكون رئيس الجمهورية المتعلق مصيره بإرادة الشعب أميَّل لرغباته، وأقرب للعمل لمصالحه، وقد يضيع هذا الوضع أهداف بريطانيا، التي رسمتها في مؤتمر القاهرة حول إنشاء الدولة العراقية الجديدة[٢٨٦]، والمتمثلة بتخفيف الأعباء المالية عن كاهل دافع الضريبة البريطاني[٢٨٧]، خاصة أن مؤتمر القاهرة أكد على أن العراق قد كلَّف دافعي الضريبة البريطانيين حوالي ٧٠ - ٨٠ مليون دينار خلال سنتي ١٩١٩ ١٩٢٠، وبأن ثورة العشرين كلفتهم حوالي ٢٠ مليون دينار[٢٨٨].

وقد أكد الأمير فيصل في لندن، على أن تأسيس الملكية في العراق يحقق الهدف أعلاه. عندما قال عن هذا الإجراء أنه: (يلبي مطالب الذين يتحملون الضرائب في إنكلترة...)[٢٨٩].

كما أن بريطانيا روجت فكرة الملكية في العراق، بسبب تلاؤمها مع حضارتها ونظامها القائم في الوطن الأم من جهة[٢٩٠]، ومن جهة أخرى أثبتت هذه الأنظمة أنها أكثر تعاونًا مع بريطانيا، وخاصة الملكية في مصر. إذ أن الملك في سبيل المحافظة على عرشه يزيد من ارتباطه ببريطانيا[٢٩١].

والذي يؤكد مساهمة بريطانيا في ترويج فكرة الملكية في العراق، هو ما ورد في إحدى رسائل المس (بيل)، والتي قالت فيها بعد تأسيس الملكية في العراق: (لكنكم يجب أن تثقوا بشيء واحد، وهو إنني لن أشترك بعد هذا في خلق الملوك، لأن ذلك يتطلب جهدًا عظيمًا)[٢٩٢].

كما أن الرأي العام العراقي عمومًا، بما فيه رأي الثوار، كان يميل نحو الملكية. فلو نظرنا للموضوع بحيادية، لتبين من دون شك، أن فكرة الملكية ستطغى على باقي الاتجاهات السياسية الأخرى، لا من وجهة نظر بريطانيا حسب، بل من وجهة نظر العراقيين أنفسهم. وأن أي تصويت حر كان من غير المعقول أن يؤدي إلى فوز نظام سياسي آخر سوى النظام الملكي[٢٩٣]، لأن الأكثرية الساحقة من العراقيين لا يألفون غير الشكل الملكي من الحكم[٢٩٤]، ولأن الملكية أصبحت أسلوب الحكم الشائع في المنطقة. حيث أعلن فؤاد الأول ملكًا على مصر، وأعلن الشريف حسين نفسه ملكًا على الحجاز، وأعلن عبدالعزيز آل سعود نفسه ملكًا على نجد[٢٩٥].

أضف إلى ذلك، أن فكرة (البيت الواحد)، اُستخدِمَت في ترويج فكرة الملكية، ومن ثم نجاحها في العراق. وكانت أحد الأسباب التي دفعت الفكر السياسي الثورة العشرين نحو تبني فكرة الملكية. إذ أنه ونتيجة للدعايات الواسعة لفكرة (البيت الواحد)، فإنها كانت قد تركزت في عقول الكثير من الثوار. لذلك (بدأوا يدعون إلى ملوكية بيت الملك حسين).

وقد اتضحت هذه الفكرة وبشكل جلي في الحفلة التي أقيمت في (مسجد الهندي) في النجف، إذ قال الشاعر (محمد الباقر) ما يأتي:[٢٩٦]

فليحي عبدالله فهو لشعبنا ملك ووالده الشريف إمام

كما وردت هذه الفكرة في البرقية التي أرسلها بعض زعماء الثورة في ١٠ شباط ١٩٢١ إلى الأمير عبدالله، يوضحون له أسباب ترشيحهم له لملوكية العراق أثناء وجود فيصل على عرش سورية. إذ جاء في البرقية (... فكانت الآمال معقودة في أن تنحصر ملوكية بلاد العرب، الحجاز وسوريا والعراق، في بيتكم، فتكون للعرب جامعة كبيرة، ومملكة واسعة غنية...)[٢٩٧].

كما كانت هناك أسبابًا نفسية، دفعت الرأي العام العراقي بضمنه الثوار، إلى اختيار الملكية؛ وذلك لأن الشعب العراقي عاش فوضى اجتماعية وسياسية منذ عهد طويل. ومن أجل التخلص من هذه الحالة، تقبلوا فكرة الملكية عساها أن توفر لهم الأمن والاستقرار، إلاَّ أن هذا لم يكن له أي قدر من الأرادة والتخطيط عند بعض الثوار، وإنما هو مجرد إحساس نابع من داخل العقل الباطني[٢٩٨]. فالشعراء مثلًا أيدوا تأسيس الملكية؛ لأنهم أرادوا إنهاء مرحلة عاشها العراق اتسمت بالتمزق الذي فرضه البريطانيون على الشعب في أواخر أيام الثورة، وخاصة بعد أن استمالوا بعضًا من رؤساء العشائر والعوائل المعروفة في بغداد، والبصرة، والحلة، وتحشيدهم ضد قوى الثورة. وقد نجحوا في ذلك، إلى حد كبير، مما جعل الثوار يقفون موقف دفاع ثم استسلام، فكان لا بد من حل للأزمة، لذلك سارع بعضهم نحو تأييد تأسيس الملَكية؛ علهم يجدون فيها الأمن والاستقرار[٢٩٩].

ومما ساعد الثوار الداعين للملكية في نجاح مسعاهم في إقامة نظام الحكم الملكي في العراق، وجود شخصية مؤهلة لتولي العرش في ذلك الوقت، ألاَ وهو الأمير فيصل. إذ أنه عندما ظهر في العراق، فإن شخصيته قد أكسبته التأييد حتى من لدن الأنصار السابقين للنقيب، وللسيد طالب النقيب، حيث أنه كان يظفر بمكانة وطيدة حيثما حل[٣٠٠]؛ بسبب خبرته في الرجال، وفي الأساليب الدبلوماسية التي تعلمها منذ بداية حياته التي قضاها في اسطنبول، ومن إقامته في البادية أيام السلم والحرب ضد الأتراك، ومن اشتراكه في مؤتمر السلم في فرساي ومن أيام ملوكيته في الشام؛ وبسبب كونه اشتغل في القضية العربية في سورية، وقاد القوات العربية في الحجاز وسوريا[٣٠١]. كما أنه يمثل من الناحية الدينية، الشخص الذي تلتقي عنده معظم الطوائف الإسلامية في العراق[٣٠٢].

وخلاصة القول، أن دعاة الملكية قد نجحوا في تأسيس نظام ملكي في العراق للأسباب الآتية:

١ – لكون هذا النظام كان عبارة عن تداخل وتوافق بين التقاليد والمُثل والمصالح البريطانية من جهة، وبين أحوال العراق المحلية من جهة أخرى.

٢ – أن هذا النظام متسق مع التاريخ السياسي العراقي القديم، الذي لم يأخذ بغير النظام الملكي شكلًا للحكم عبر سبعة آلاف سنة خلت. إذ أن أخذها بالنظام الملكي كان تعبيرًا عن أن الدولة العراقية الحديثة لم تكن دولة مصطنعة، إنما هي امتداد لنماذج الدول العراقية القديمة التي قامت على أرض وادي الرافدين خلال سبعة آلاف سنة خلت.

هوامش الفصل التاسع

(١) انظر نص بيان الجنرال مود في: محمد طاهر العمري الموصلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧ - ١٣٠. ريجارد كوك، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ - ٢٠٢.

(٢) محمد طاهر العمري الموصلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠.

(٣) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، بغداد ١٩٦٧، ص ٧٤. فيليب و يلارد آيرلند، العراق: دراسة في تطوره السياسي، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكشاف، بيروت ١٩٤٩، ص ٦٥ - ٦٦.

(4) Hubert Young, The Independent Arab, London 1933, p. 278.

(٥) كيرترود بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت ١٩٧١، ص ٣٨٣. عبد الله النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت ١٩٧٣، ص ١١٤.

(٦) عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، ط ٢، دار السلام، بغداد ١٩٧٥، ص ١٩١.

(7) Hubert Young, op. cit, p. 279.

(8) Ibid, p. 280 - 281.

(٩) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٠.

(١٠) فيليب و يلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠.

(١١) عبد الغني الملاح، تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق، ج ١، بيروت ١٩٨٠، ص ١٥.

(١٢) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٧.

(١٣) فيليب و يلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(١٤) إبراهيم خليل أحمد، ولاية الموصل: دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ - ١٩٢٢، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى جامعة بغداد/ كلية الآداب - قسم التاريخ، بغداد ١٩٧٥، ص ٤٢٩.

(١٥) محمد رضا الشبيبي في تصديره لكتاب عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٨.

(١٦) نديم عيسى، الفكر السياسي لثورة العشرين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٢، ص ٢٩ - ٣٠.

(١٧) عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف، ط ٢، دار الكتب، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٥ - ٢٦.

(١٨) حميد عيسى حبيبان، حقائق ناصعة عن ثورة النجف الكبرى، مطبعة الغري، النجف ١٩٧٠، ص ٧١.

(١٩) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى، مطبعة التضامن، بغداد ١٩٧١، ص ٢٩.

(٢٠) حسن الأسدي، ثورة النجف على الإنكليز، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٥٦.

(٢١) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ٢/ ق ٢، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٣٠.

(٢٢) أرلوند ولسن، بلاد ما بين النهرين بين ولاءين، ج ٢، ترجمة: فؤاد جميل، دار الجمهورية، بغداد ١٩٧١، ص ٢٦٨.

(٢٣) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨

(٢٤) عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف، ط ٤، دار الكتب، بيروت ١٩٨٢، ص ٥٨.

(٢٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٥/ ق ٢، بغداد ١٩٧٨، ص ٢٦٦ - ٢٦٧. حميد عيسى حبيبان، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨ - ٨٩. عبد الله النفيسي، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

(٢٦) محمد رضا الشبيبي، ثورة النجف ضد الاستعمار الإنكليزي، مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد ٩/ تموز ١٩٦٩، ٢٩٨.

(٢٧) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥. علي الوردي، ج٥/ ق ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
(٢٨) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥
(٢٩) حسن الأسدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٤. عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠.
(٣٠) أمين سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤ - ١١٥.
(٣١) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ط ٥، دار الكتب، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٩.
(٣٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٥/ ق ١، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧٧، ص ١٣١.
(٣٣) محمد طاهر العمري، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٧.
(٣٤) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩. أمين سعيد، ج ٢/ ق ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥.
(٣٥) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.
(٣٦) محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، مطبعة الفلاح، بغداد ١٩٢٤، ص ١٢٠.
(٣٧) أمين سعيد، ج٢/ ق ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥.
(٣٨) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ٤١٣.
(٣٩) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.
(٤٠) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٦.
(٤١) المر هولدن، ثورة العراق ١٩٢٠، ترجمة: فؤاد جميل، مطبعة الزمان، بغداد ١٩٦٥، ص ٤٦ - ٤٧.
(٤٢) قحطان أحمد عبوش التلعفري، ثورة تلعفر ١٩٢٠ والحركات الوطنية الأخرى في منطقة الجزيرة، مطبعة الأزهر، بغداد ١٩٦٩، ص ٨٤. كاظم المظفر، ثورة العراق التحررية عام ١٩٢٠، مطبعة الآداب، النجف ١٩٧٢، ص ١١٣.
(٤٣) أمين سعيد، ج٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.
(٤٤) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(٤٥) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١.
(٤٦) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(٤٧) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١. أمين سعيد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣.
(٤٨) محمد يونس عبد الله السيد وهب، أهمية تلعفر في ثورة العراق الكبرى، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٦٧، ص ٤٨.
(٤٩) المصدر السابق، ص ٥٠.
(٥٠) المصدر السابق، ص ٥١ - ٥٤.
(٥١) المصدر السابق، ص ٥٩.
(٥٢) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ١٨.
(٥٣) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٢.
(٥٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر: فيليب و يلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦. كمال مظهر أحمد، دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية. مطبعة الحوادث، بغداد ١٩٧٨، ص ٩٨. أرلوند ولسن، الثورة العراقية، ترجمة:

جعفر الخياط، دار الكتب، بيروت ١٩٧١، ص ١٥٥. كاظم المظفر، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥. فريق مزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٢، ص ٤٥٠.

(٥٥) عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين، مطبعة النعمان، النجف ١٩٦٦، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٥٦) علي البزركان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٥٤، ص ١٤٠. جعفر باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج ١، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٣٤، ص ٢٦٣. عبد الله النفيسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧.

(٥٧) كامل سلمان الجبوري، الكوفة في ثورة العشرين، مطبعة الآداب، النجف ١٩٧٢، ص ١٤.

(٥٨) حول أدوار تلك القوى انظر: نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤ - ٤٩.

(٥٩) حول أدوار تلك القوى السياسية انظر: المصدر السابق، ص ٥٠ - ٥٦.

(٦٠) عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٥ - ٣٥٦. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣. كاظم المظفر، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣.

(٦١) المر هولدن، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٢.

(٦٢) باقر أمين الورد، حوادث بغداد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

(٦٣) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.

(٦٤) تشارل طوزند، مذكرات الفريق طوزند، ص ٥١.

(٦٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٦، مطبعة المعرف، بغداد ١٩٧٦، ص ١٢٧.

(٦٦) كامل سلمان الجبوري، وثائق الثورة العراقية الكبرى ومقدماتها ونتائجها (١٩١٤ - ١٩٢٣)، ج ١، دار المؤرخ العربي، بيروت ٢٠٠٩، ص ١٥١.

(٦٧) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٦٨) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩. المر هولدن، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠.

(٦٩) انظر مجموعة من الشعر الشعبي بهذا المعنى في، عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٧٠) طالب مشتاق، أوراق أيامي ١٩٠٠ - ١٩٥٨، ج ١، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٨، ص ٨٩.

(٧١) قصي سالم علوان، الشبيبي شاعرًا، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٢٦.

(٧٢) إبراهيم خليل أحمد، ولاية الموصل، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.

(٧٣) رئيف خوري، الفكر العربي الحديث: أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، مطبعة الكشاف، بيروت ١٩٤٣، ص ٧٨.

(٧٤) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(75) Hurbert Young, op. cit, p. 276.

(٧٦) فراتي، على هامش الثورة العراقية الكبرى، مطبعة جريدة الهاتف، بغداد ١٩٥٢، ص ١٠٠.

(٧٧) كمال مظهر أحمد، دور الشعب الكردي، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

(٧٨) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ١٢٨.

(٧٩) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦. محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٢.

(٨٠) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣. عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٦.
(٨١) فيليب و يلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٠.
(٨٢) للتفصيل انظر: عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١ - ٢٦٤.
(٨٣) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٨.
(٨٤) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥. عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٩.
(٨٥) كاظم المظفر، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(٨٦) رفائيل بطي، الصحافة في العراق، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٥، ص ٥١.
(٨٧) كمال مظهر أحمد، دور الشعب الكردي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.
(٨٨) علي الوردي، ج ٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٨ - ١٠٩.
(٨٩) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.
(٩٠) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦. كاظم المظفر، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥.
(٩١) علي الوردي، ج ٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
(٩٢) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
(٩٣) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٨.
(٩٤) عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩ - ١٤٠.
(٩٥) علي الوردي، ج ٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨ - ٤٩.
(٩٦) عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.
(٩٧) علي الوردي، ج ٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ - ٥١.
(٩٨) جعفر باقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٨.
(٩٩) وميض جمال عمر نظمي، محاضرات (الحركة القومية في العراق)، أُلقيت على طلبة الدراسات العليا في جامعة بغداد - كلية القانون والسياسة - قسم السياسة، للعام الدراسي ١٩٨١ - ١٩٨٢ (مطبوعة بالرونيو)، ص ١٣٧.
(١٠٠) عبد الشهيد الياسري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢. محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٠. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.
(١٠١) آرنولد ولسن، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨. محمود العبطة، بغداد وثورة العشرين، مطبعة الشعب، بغداد ١٩٧٧، ص ١٤.
(١٠٢) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٠. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، ص ٨٤.
(١٠٣) عبد الشهيد الياسري، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.
(١٠٤) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠. محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١.
(١٠٥) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٧/ وثيقة ١٢.
(١٠٦) جعفر بااقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٨. أمين سعيد، ج ٢ /ق ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.
(١٠٧) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢ - ٤٣.
(١٠٨) عبد الشهيد الياسري. مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ - ١٢٠.

(١٠٩) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.
(١١٠) جعفر باقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٨. عبد الله النفيسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١ - ١٢٢.
(١١١) علي الوردي، ج ٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(١١٢) عبد الشهيد الياسري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(١١٣) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠. جعفر باقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣.
(١١٤) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤ - ٤٥.
(١١٥) ريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق كره، ص ٥٠١.
(١١٦) محمود العبطة، بغداد وثورة العشرين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.
(١١٧) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠١. فيليب ويلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.
(١١٨) آرنولد ولسن، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.
(١١٩) سعاد خيري، من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق ١٩٢٠ - ١٩٥٨، ج ١، مطبعة الأديب، بغداد ١٩٧٤، ص ٢٦.
(١٢٠) محود العبطة، بغداد وثورة العشرين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.
(١٢١) منعم حميد حسن، محمد مهدي البصير شاعرًا، المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٥.
(١٢٢) إبراهيم الوائلي، ثورة العشرين في الشعر العراقي، مطبعة الإيمان، بغداد ١٩٦٨، ص ٥٢.
(١٢٣) فراتي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.
(١٢٤) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩
(١٢٥) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨ - ٨٩.
(١٢٦) عبد الرسول حسين، عدنان حسين، صحافة ثورة العشرين وموقف صحف بغداد من الثورة، دار السلام، بغداد ١٩٧٠، ص ٢٥.
(١٢٧) يعقوب يوسف كوريا، صحافة ثورة العشرين، مطبعة السعدي، بغداد ١٩٧٠، ص ٨.
(١٢٨) المصدر السابق، ص ٧. إبراهيم الوائلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤.
(١٢٩) رفائيل بطي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.
(١٣٠) فائق بطي، الصحافة العراقية: ميلادها وتطورها، بغداد ١٩٦١، ص ٢٧.
رفائيل بطي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦. عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ج ١، ط ٣، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٧١، ص ٨٢.
(١٣١) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.
(١٣٢) فاروق صالح العمر، الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ - ١٩٣٢، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٨، ص ٤٩. سعاد خيري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦.
(١٣٣) رفائيل بطي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.
(١٣٤) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤.
(١٣٥) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.
(١٣٦) عبد المنعم الغلامي، أسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٠٨ - ١٩٢٥، ج ١، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨، ص ٥٣.

(١٣٧) سعاد خيري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦.
(١٣٨) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٣ - ٩٤. كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٤. آرنولد ولسن، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.
(139) Mohammed A. Tarbush, The role of the Military in politics, London 1983, p. 15.
(١٤٠) علي الوردي، ج٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.
(141) Ghassan R. Atiyyah, Iraq 1908 - 1921: A political study, Beirut 1973, p. 15.
(١٤٢) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦ - ٨٨. أمين سعيد، ج ٢/ ق ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(١٤٣) كاظم الدجيلي، أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان، تحقيق ونشر: حكمت رحماني، مطبعة الزمان، بغداد ١٩٧٣، ٢١ - ٢٥ (بتصرف).
(١٤٤) المصدر السابق، ص ٢٩ - ٣٠.
(١٤٥) صالح جواد كاظم (مترجم ومعد)، أيام من ثورة العشرين في بغداد، تقرير سري لبوليس العاصمة، مج ٢/ بغداد ١٧ تموز ١٩٢٥، والمنشور في جريدة (العراق)، العدد ٧١٤/ ٢٩ حزيران ١٩٧٨.
(146) Mohammed Tarbush, op. cit. p. 9.
(١٤٧) المر هولدن، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.
(١٤٨) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٤. عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.
(١٤٩) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧ - ٧٨.
(١٥٠) علي الوردي، ج ٥/ ق ١، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.
(١٥١) عبد الله الفياض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.
(١٥٢) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٣.
(١٥٣) علي الوردي، ج ٥/ ف ١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩.
(١٥٤) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٥ - ٥٨٦. ل. ن. كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ترجمة: عبد الواحد كرم)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧١، ص ١٨٥ - ١٨٦.
(١٥٥) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٨.
(١٥٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، مركز الأبجدية، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٢.
(١٥٧) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢.
(١٥٨) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ - ١٢٠
(١٥٩) مركز وثائق ثورة العشرين، النجف، ملفة ١٠/ وثيقة ١ (حديث سعيد جربو).
(١٦٠) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤ - ٨٥. فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.
(١٦١) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.
(١٦٢) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٢.
(١٦٣) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
(١٦٤) كامل سلمان الجبوري، وثائق الثورة، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٧.

(١٦٥) آرنولد ولسن، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

(١٦٦) المصدر السابق، ص ٣٩.

(167) The Ietters of Gertrude Bell, Vol. 11, p. 535.

(١٦٨) نيجل داود سن، العراق أو الدولة الجديدة، ترجمة: عجاج نويهض، مطبعة العرب، القدس ١٩٣٢، ص ٧.

(169) Hubert Young, op. cit. p. 280 - 281.

(١٧٠) جعفر باقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٨.

(١٧١) وميض جمال عمر نظمي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٠.

(١٧٢) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩.

(١٧٣) وميض جمال عمر نظمي، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٤.

(١٧٤) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨.

(١٧٥) سلمان كامل الجبوري، وثائق الثورة، مصدر سبق ذكره.

(١٧٦) عبد الرزاق الوهاب، كربلاء في التاريخ، ج ٣، مطبعة الشعب، بغداد ١٩٣٥، ص ٣٥.

(١٧٧) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٢/ وثيقة ٩.

(١٧٨) صالح جواد كاظم، مصدر سبق ذكره.

(١٧٩) محمد علي كمال الدين، المسألة العراقية أو الانتداب في النجف (مخطوطة)، ص ٤.

(١٨٠) جريدة (الاستقلال) البغدادية، العدد ٤/ ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٠.

(١٨١) جريدة (الفلاح)، العدد ١/ ٢٠ حزيران ١٩٢١.

(١٨٢) جريدة (لسان العرب)، العدد ١٣/ ٨ تموز ١٩٢١.

(١٨٣) علي الشرقي، النوادي العراقية، جريدة (النهضة)، العدد ٣/ أيلول ١٩٢٧

(١٨٤) جريدة (العراق)، العدد ٢٨٥/ ٥ آيار ١٩٢١.

(١٨٥) زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٢، ص ٦٠.

(١٨٦) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ١١/ وثيقة ١.

(١٨٧) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ - ١٢٠

(١٨٨) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠. Mohammed Tarbush، op. cit. p. 9.

(١٨٩) برسي كوكس، مذكرة تكوين الحكم الوطني في العراق، ترجمة: بشير فرجو، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل ١٩٥١، ص ٣٥. ج. دي. ف. لودر، القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ترجمة: نزيه المؤيد العظم، المطبعة الحديثة، دمشق ١٩٢٥، ص ٥٢. كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(١٩٠) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٢٣/ وثيقة ٣.

(١٩١) فراتي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.

(192) Elizabeth Burgoyne, Gertrude Bell from her personal papers 1914 - 1926, London 1961, p. 101.

(193) Hubert Young. op. cit. p. 297.

(194) Ibid. p. 280 - 281.

(١٩٥) فيليب ويلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠.
(١٩٦) عبد الغني الملاح، تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق، ج ١، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ١٥.
(١٩٧) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٧.
(١٩٨) فيليب ويلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣ - ١٢٤.
(١٩٩) إبراهيم خليل أحمد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٩.
(٢٠٠) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ١٠/ وثيقة ١.
(٢٠١) محسن أبو طبيخ، المبادئ والرجال، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨، ص ٢٧.
(٢٠٢) دراسة وترجمة لحياة الفقيد محمد رضا الشبيبي، جريدة (النور)، العدد ٣٥٣/ ٤ كانون الأول ١٩٦٩.
(٢٠٣) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.
(٢٠٤) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ١٦/ وثيقة ١١ (حديث سعيد كمال الدين).
(٢٠٥) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨.
(٢٠٦) جعفر باقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠. حسن الأسدي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٦.
(٢٠٧) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٢٣/ وثيقة ٣.
(٢٠٨) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦ - ٨٧. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.
(٢٠٩) عبد الرزاق الوهاب، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨ - ٤٩.
(٢١٠) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.
(٢١١) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٢/ وثيقة ٧.
(٢١٢) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.
(٢١٣) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.
(٢١٤) عبد الله النفيسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢.
(٢١٥) مقابلة مع (محمد رضا الشبيبي)، مجلة (بغداد)، العدد ٢٠/ ٢٠ تموز ١٩٦٥، ص ١٤.
(٢١٦) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.
(٢١٧) علي الشرقي، مصدر سبق ذكره.
(٢١٨) جعفر باقر آل محبوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.
(٢١٩) علي الوردي، ج ٦، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.
(٢٢٠) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢. عبد الرزاق الوهاب، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.
(٢٢١) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٣.
(٢٢٢) فؤاد قزانجي (اعداد)، وثائق تنشر لأول مرة، مجلة (آفاق عربية)، العدد ٦/ شباط ١٩٨١، ص ١٠٣.
(٢٢٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.
(٢٢٤) كوتلوف، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥.

(٢٢٥) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، ج ٢، مطبعة الغري، النجف ١٩٣٨، ص ٣٣.
(٢٢٦) عبد الرزاق الوهاب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(٢٢٧) جريدة (صدى الأحرار) الموصلية، العدد ١٨٨/ ١٢ كانون الأول ١٩٥٢.
(٢٢٨) عبد المنعم الغلامي، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٤.
(٢٢٩) جريدة (صدى الأحرار) الموصلية، العدد ١٧٦/ ١٩ أيلول ١٩٥٢.
(٢٣٠) جريدة (صدى الأحرار) الموصلية، العدد ١٨٤/ تشرين الثاني ١٩٥٢.
(٢٣١) جريدة (صدى الأحرار) الموصلية، العدد ١٩٣/ كانون الثاني ١٩٥٣.
(232) Harry N. Howard، The King - Grane Commission, Beirut 1963. p. 138 - 139.
(٢٣٣) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦. هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.
(٢٣٤) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ط ٢، ترجمة: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦، ص ٦١٨ - ٦١٩.
(٢٣٥) تحسين العسكري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.
(٢٣٦) توفيق السويدي، مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الغد، بيروت ١٩٦٩، ص ٥٧.
(٢٣٧) تحسين العسكري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.
(238) Hubert Young. op. cit. p. 307.
(٢٣٩) جريدة (البلاد)، العدد ٤٣٥٩/ ٣١ آيار ١٩٥٥. وهي تكملة لما نشر في جريدة (صدى الأحرار) الموصلية من مقالات بقلم (مؤرخ) بعنوان (صفحات مطوية من تاريخ الحركة الوطنية).
(٢٤٠) كيرترود بيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤١. فيليب ويلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١.
(٢٤١) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٤٢/ وثيقة ١١.
(٢٤٢) مذكرات عبد الغفور البدري، جريدة (الاستقلال)، العدد ١٧٢٢/ ٢٠ تموز ١٩٣٢.
(٢٤٣) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ١١٣.
(٢٤٤) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٣/ وثيقة ٨.
(٢٤٥) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٢/ وثيقة ٩.
(٢٤٦) جريدة (صدى الأحرار) الموصلية، العدد ٢٢٠/ ١٤ آب ١٩٥٣.
(٢٤٧) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.
(٢٤٨) جريدة (العراق)، العدد ٣/ ٣ حزيران ١٩٢٠.
(٢٤٩) صالح جواد كاظم، مصدر سبق ذكره.
(٢٥٠) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤.
(٢٥١) محمد علي كمال الدين، المسألة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٤.
(٢٥٢) المصدر السابق، ص ١٢.
(٢٥٣) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ١٤٠.
(٢٥٤) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧.

(٢٥٥) المجمع العلمي العراقي، مجموعة بيانات ونشرات عن الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، وثيقة ٧.
(٢٥٦) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٣.
(٢٥٧) عباس علي، زعيم الثورة العراقية، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٠، ص ١٢٩
(258) Elizabeth Burgoyne. op. cit. p. 151.
(٢٥٩) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.
(٢٦٠) جريدة (الاستقلال) البغدادية، العدد ٤/ ١٧ تشرين الأول ١٩٢٠.
(261) Mohammed Tarbush. op. cit. p. 10.
(٢٦٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامي، ج ٥، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢، ص ١٢٠.
(263) Mohammed Tarbush. op. cit. p. 11.
(٢٦٤) فاروق صالح العمر، حول السياسة البريطانية في العراق ١٩١٤ - ١٩٢١، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٧، ص ١٠٣.
(٢٦٥) فريق مزهر آل فرعون، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٤ - ٥٢٥.
(٢٦٦) علي البزركان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠.
(٢٦٧) برسي كوكس، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦. جرالد دي غوري، ثلاثة ملوك في العراق، ترجمة: سليم طه التكريتي، دار المثنى للطباعة والنشر، بغداد ١٩٨٣، ص ٢٧.
(٢٦٨) ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عامًا ١٨٩٤ - ١٩٧٤، مطبعة الأعظمي، بغداد ١٩٧٤، ص ٥٨.
(269) Stephen Hamsley Longrigg, Iraq 1900 - 1950, Beirut 1968, p. 130.
(٢٧٠) فيليب ويلارد آيرلند، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.
(٢٧١) نديم عيسى، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.
(272) Elizabeth Burgoyne. op. cit. p. 213.
(٢٧٣) محمد مهدي البصير، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤١.
(274) Stephen Hamsley Longrigg, op. cit. p. 131.
(٢٧٥) سنت جون فلبي، أيام فلبي في العراق، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكشاف، بيروت ١٩٥٠، ص ٥٣. سليمان فيضي، في غمرة النضال، ط ٢، دار القلم، بيروت ١٩٧٤، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.
(276) Stephen Hamsley Longrigg. op. cit. p. 132.
(٢٧٧) جريدة (الفلاح)، العدد ١/ ٢٠ حزيران ١٩٢١.
(٢٧٨) جريدة (لسان العرب)، العدد ١٣/ ٨ تموز ١٩٢١.
(٢٧٩) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج ١، ط ٣، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٦٥، ص ٤٠.
(٢٨٠) مركز وثائق ثورة العشرين/ النجف، ملفة ٢٧/ وثيقة ٦٣.
(٢٨١) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٤.
(282) Stephen Hamsley Longrigg, op. cit. p. 133.
(٢٨٣) محمد عزيز، النظام السياسي في العراق، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٤، ص ٦٧.
(٢٨٤) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٤.

(٢٨٥) حسين جميل، فكرة الجمهورية في العراق، مجلة (الهلال) المصرية، العدد ٦/ يوليو ١٩٦٥، ص ١٠١ - ١٠٢.
(٢٨٦) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ط ٣، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧، ص ١٣٢ - ١٣٣.
(287) Stephen Hamsley Longrigg, op. cit. p. 122.
(٢٨٨) هنري فوستر، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩ - ١٨٠.
(٢٨٩) مجلة (دار السلام)، العدد ٨/ ١٧ نيسان ١٩٢١، ص ١٢٦.
(٢٩٠) حسن العطار، الوطن العربي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٦، ص ٣٠.
(٢٩١) عبد العزيز نوار، تاريخ العرب المعاصر، ج ١، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١، ص ٤٥٩.
(292) Elizabeth Burgoyne. op. cit. p. 225.
(٢٩٣) عبد الرحمن البزاز، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢. أحمد رفيق البرقاوي، العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠، ص ٣١
(٢٩٤) حسن الأسدي، حول ثورة العشرين في العراق، مجلة (الثقافة)، العدد ٨/ أيلول ١٩٧٠، ص ١٠٢.
(٢٩٥) عبد العزيز نوار، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٩.
(٢٩٦) حسن الأسدي، ثورة النجف، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٠.
(٢٩٧) عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ - ١٩٤٥، ط ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٠، ص ٤٨٦.
(٢٩٨) عبد الغني الملاح، مخطوطة (نوري السعيد كما لم تعرفه)، بغداد ١٩٨٣، ص ٧٠.
(٢٩٩) عبد الحسين المبارك، ثورة ١٩٢٠ في الشعر العراقي، دار البصري، بغداد ١٩٧٠، ص ١٨٤.
(300) Stephen Hamsley Longrigg. op. cit. p. 132.
(٣٠١) نيجل داود سن، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.
(٣٠٢) كوينسي رايت، حكومة العراق، ترجمة: أكرم الركابي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٢٧، ص ٣.

الخاتمة

وتأسيسًا على ما ورد بين طيات هذه الدراسة، يتبين ما يأتي:

أولًا: أن الدولة العراقية الحديثة، لم تكن (دولة مصطنعة) كما تزعم ذلك بعض السرديات الغربية أو الشرقية، إنما تحتسب حصيلة منطقية لتلك الحلقات المتتالية من الوقائع العراقية، التي تفاعلت فيما بينها على مر السنين لتكون الدولة العراقية الحديثة، والتي يمكن احتسابها الامتداد الطبيعي لنماذج الدول العراقية القديمة التي أُقيمت على أرض الرافدين، ابتداء من دولة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مملكة النمرود، إلى دويلات المدن السومرية، إلى الدول الأكدية، والبابلية، والآشورية، والكلدية.

ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال المعطيات الآتية:

١ - إذا القينا نظرة متفحصة وشاملة إلى التاريخ القديم لوادي الرافدين، لوجدناه يتميز بوحدة ملحوظة. حيث كانت هناك قوى سياسية عراقية كبيرة استطاعت الاستقرار في تلك الأرجاء، واتخذتها مركزًا للتوسع. بيد أن تلك الدول التي أُنشأت على أرض الرافدين بهذا النحو، كانت معقدة التركيب. إذ أنه في أعقاب (واقعة الطوفان) تأسست دولة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كأمر واقع، وضمن مسوغات دينية. ثم أعقبتها (مملكة النمرود) الدنيوية بحوالي ألف سنة. وفي الألف الثالث قبل الميلاد، نجد السومريين، الذين كانوا، آنذاك، أصحاب سيادة لا ينازعهم فيها أحد. يقومون بالاتصال بمهاجرين إلى البلاد. ثم ينزلون عن سيادتهم رويدًا رويدًا، مع التأثير في ثقافتهم وحضارتهم تأثيرًا عميقًا.

وفي الألف الثاني قبل الميلاد، انتقل الحكم إلى الساميين. ثم انتقل، مع شيء من التقلبات المختلفة، من الجنوب إلى الشمال (أي من بابل إلى آشور). بينما كانت عناصر أجنبية تتغلغل في وادي الرافدين بين الحين والآخر.

وفي الألف الأول قبل الميلاد، تم اضمحلال سلطة الساميين في الشمال أمام غزاة غير ساميين. وكان هؤلاء الغزاة ينزلون من جبالهم، ويجتاحون ما أمامهم. لذلك كان سكان

الوديـان العراقيـة يركزون اهتمامهـم دائمًا نحو الجبال من أجـل درء الأخطار المحدقة بهم.، إلى أن انتهـى تاريـخ وادي الرافديـن كبلد مسـتقل عـام ٥٣٩ قبل الميلاد على أيـدي الغزاة (الفـرس الأخمينيين). ليدخـل العراق تحت وطأة الاحتلال الأجنبـي الذي دام حوالي ألف عام، صارت البلاد فيه مسرحًا لحروب طاحنة بين الدول الغازية.

٢- ومما يدحض مقولة (الدولة المصطنعة)، أن الشعور (بوحدة أرض العراق وتكاملها الحضـاري والاقتصـادي)، لم يكن غائبًا عن فكـر الأقوام العراقية القديمة سـواء أكانوا في الشـمال أم في الجنوب. لذلك نجد محاولات القادة العراقيين، ومنذ وقت مبكر جدًا، أمثال (لوكال زاكيزي، سرجون الأكدي، حمورابي البابلي، وآشور بانيبال الآشوري، ونبوخذ نصر الكلدي وغيرهم) يذهبون باتجاه توحيد أرض العراق، وإنشاء دولة مركزية واحدة قوية فيه تهيمن على المنطقة بأسرها. وقد نجح هؤلاء القادة في أحيان كثيرة. كما تشـهد بذلك الممالك والإمبراطوريات التي أسسوها على أرض الرافدين.

ومهـما كان الدافع الذي آمن به هؤلاء القادة مـن وراء توحيد العراق أو توحيد المنطقة كلهـا، سـواء أكان الدافع يكمُـن في ضرورة وحدة المنطقة أو مواجهـة الأخطار القادمة من خارج الحدود أو ضرورة تكامل المنطقة اقتصاديًا أم كل ذلك. فقد كان جوهر الهدف يتبلور في العمل على إنشاء دولة عراقية مركزية قوية واحدة قادرة على إدارة شؤون المنطقة بحدودها الواسعة. وقد تطلب ذلك المسعى، الدخول في صراعات سياسية وعسكرية حادة في المنطقة برمتها.

أضف إلى ذلك، تضمنت الكثير من المخاطبات والتقارير المحلية والدولية، التي أشرنا لهـا في الفصل التاسـع من هـذا البحث، إلى (مصطلح العـراق) بوصفه بديـلًا اجتماعيًا عن العشـيرة أو بديلًا جغرافيًا عن (الديرة)، الأمر الذي أفضى إلى تقوية (النزعات العراقوية)، التي تدحض أطروحة (الدولة المصطنعة). بل أن حدود العراق التقريبية السـابقة، تشبه إلى حد كبير، حدوده المفترضة في ظل الوجود البريطاني.

علـما أن (النزعـة العراقويـة) كانت قد كرسـتها الإدارة العثمانية في مراحـل عديدة من

حكم الولايات العراقية، وليست نتاجًا للاحتلال البريطاني وما تمخض عنه فحسب. لعل من أبرز ملامحها ما يأتي:

أ – اعتماد صيغة الإدارة المركزية الموحدة للولايات العراقية الثلاث (بغداد، البصرة، الموصل) لا سيما منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي صعودًا، كان قد عزز من (النزعة العراقوية).

ب– تم تدوين اسم (العراق) في الخرائط العثمانية المتعلقة بهذه الولايات، لا سيما منذ أواخر القرن التاسع عشر صعودًا. وذلك بالتزامن مع مصطلحات تم تداولها في الخرائط القديمة. لعل أبرزها مصطلح (العراق العربي) ومصطلح (العراق العجمي)[1]. وهذا ما عزز من الهوية العراقية.

وإذا كانت أطروحة (الدولة المصطنعة)، قد بنيت على الإنموذج الأوروبي في تكوين الدول الحديثة. ذلك الأنموذج الذي يعتمد على مفهوم (الدولة – الأمة) ويرجحه على ما سواها من تفسيرات لتكوين الدول الحديثة، ويقصرها عليه، محتسبًا إياها (الأنموذج الأكمل) في قياس درجة تطور الدول الحديثة النشأة، واندماج سكانها، وتجانسهم داخل إطار الحدود السياسية للدولة. فمن الضروري، عدم التماهي مع أنموذج (الدولة – الأمة) لأن من شأن ذلك أن يعزز الإخفاق في تجانس المكونات الاجتماعية داخل الدولة العراقية الواحدة، ويقحمها في دائرة الإدماج القسري المختلق في تكوين الدول. وهذا ما أرادته أو روجته السرديات الغربية إزاء الدولة العراقية ونظيراتها. خصوصًا أن التنوع العرقي والمذهبي والديني في العراق، يعد سمة لكافة المجتمعات البشرية وليس حكرًا على العراق. فالمشكلة لا تكمُن في التنوع الاجتماعي، إنما تكمُن في إدارة ذلك التنوع. وهنا تبرز إشكالية أنظمة الحكم المتعاقبة في العراق، وليست إشكالية مرتبطة بوجود الدولة والهوية العراقية.

٣– وهناك ثلاثة عناصر بالغة الأهمية، من الضروري استحضارها في إدراك صيرورة الدولة العراقية الحديثة، ودحض فرضية (الدولة المصطنعة) عنها. وهي:[2]

أ – تعززت (النزعة العراقوية) منذ العهد العثماني، عن طريق صيغة (الإدارة المركزية)،

التي اعتمدتها السلطة العثمانية في الولايات العراقية الثلاث، ولا سيما في القرن التاسع عشر، تحت قيادة بغداد. حيث تداخلت هذه المركزية في عملية الاندماج الاجتماعي – الاقتصادي التي فرضتها الجغرافية المحلية بين الولايات الثلاث. وحتى تعبيرات (القومية العربية)، التي كانت تتردد في أواخر عهد الدولة العثمانية، كانت ذات مضامين عراقية – عربية في الوقت نفسه؛ لأن (فكرة القومية العربية) كانت بمثابة إعلان التمايز عن الأتراك والفرس من ناحية الرغبة المشروعة في الاستقلال السياسي الوطني رغم أنه لم يتبلور بصيغة مشروع كيان سياسي يتجاوز حدود العراق.

ب– تصاعد الاهتمام (بمصطلح العراق) بدلالة جغرافية شبه بديلة للتسميات التقسيمية الثلاثية، ولا سيما في أواخر القرن التاسع عشر فصاعدًا. أن هذا التصاعد كان قد انعكس في المراسلات والتقارير الإدارية والدبلوماسية.

ج – كما يُلاحظ، استخدام (مصطلح العراق) لدى الفئات المجتمعية العامة، ولدى النخب العراقية. إذ كان له حضورًا فاعلًا بوصفه معطى جغرافيًا، وملامح هوية معروفة بالبداهة.

٤ – رغم أنه، لم تقم على أرض العراق دولة تحمل هذا الاسم، بيد أن أرضه كانت تُسمى بهذا الاسم منذ عصور سحيقة في القدم. لذلك فإن اسم العراق، في إطار دولته الحديثة، إنما يعد استحقاق تاريخي – حضاري.

والشيء الجدير بذكره كمقاربة لهذا الطرح، أن من يطالع خارطة أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، سيجد الكثير من الإمارات والدوقيات والأقاليم المتعددة المسميات غير معروفة في الوقت الراهن. كما نجد في تاريخ أوروبا الحديث حروبًا طاحنة دارت بين هذه الإمارات والدوقيات والأقاليم. وأن كثيرًا من المسميات الحديثة للدول الأوروبية القائمة لم تكن موجودة. حيث ظهرت بمسمياتها الجديدة بعد الحربين كنتيجة للحراك السياسي، واندلاع الحروب. وهذا كان شأن الدولة العراقية الحديثة التي أُسست على غرار الكثير من الدول الأوروبية الحديثة.

وعنـد التدقيـق في خريطة العالم، نجد أنه قد شـهد الكثير من التغـيرات الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى. إذ كانت النمسا والمجر قبل الحرب العالمية الأولى بمثابة دول مستقلة. ثم تم تقسيمها بعد الحرب إلى عدة دول هي: النمسا، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا، يوغسلافيا، والتي كانت تُسـمى في الأصل (مملكة الصرب، والكروات، والسـلوفينيين) وشـملت هذه الدولة صربيا والجبل الأسـود إلى جانب المناطق الكرواتية في النمسـا والمجر. كما تم توسيع حـدود رومانيا بناء على المسـوغات العرقية لتشـمل أكـبر عدد ممكن مـن الرومانيين داخل حدودها بخلاف ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى. كما أنه لم يكن هناك وجود (لدولة بولندا) قبل الحرب العالمية الأولى. حيث تم إنشـاؤها من اقتطاع أجزاء من ألمانيا، والنمسا، والمجر، وروسيا. كما ظهرت ثلاثة دول من البلطيق هي: ليتوانيا، ولاتفيا، واستونيا، التي لم تكن موجودة قبل الحرب العالمية الأولى.

عليـه يمكـن القول أن العـراق، بحـدوده الجغرافيـة الحالية، أصبح دولـة حديثة في مطلـع القرن العشرين، شـأنه في ذلك شـأن العديد من الدول الحديثة في أوروبا، وآسـيا وأفريقيـا، التـي ظهرت بعد الحـرب العالمية الأولى أو الثانية. بـل أن البريطانيين اعتمدوا في احتلالهـم الموصل بعد اتفاقيات الهدنة لعـام ١٩١٨ م على خارطة العراق القديم التي تتضمن (ولاية الموصل) بوصفها جزءً من العراق القديم أو العراق العربي – الإسـلامي أو العـراق الحديث. بل أن (لويـد جورج) رئيس الوزراء البريطـاني ذهب إلى الاعتراف بالهويـة الوطنيـة العراقية عـام ١٩١٨م، عندما أقر بـأن جزيرة العـرب، وأرمينيا، وبلاد الرافدين، وسـوريا، وفلسـطين، تسـتحق من وجهة النظر البريطانية الاعتراف بظروفها الوطنية المتميزة[٣].

إن كل تلـك المعطيات تدحـض أطروحة (الدولة المصطنعة) التـي يطلقها البعض على الدولة العراقية الحديثة.

٥- أضـف إلى ذلـك، أن الشـعب العراقـي الذي عاش على هـذه البقعـة الجغرافية، لم يـأت إليها منفيًا من بلدان أخرى ليسـكن فيها، ويشـكل دولته أو يشـكلها له الآخرون كما تزعـم أطروحـة (الدولـة المصطنعة)، إنما كان ومـازال هو ذاته من عـاش على هذه الأرض

منذ آلاف السنين. وقد شهد تحولات حضارية – سياسية عديدة، أسهمت في تكوين بنيته الديموغرافية بالصورة التي عليها في الوقت الراهن.

وأن مراجعة سريعة لتاريخ العراق الذي يتفق عليه أغلب المؤرخين والباحثين والآثاريين في العالم، تعطي للباحث دليلًا على أن حضارات وادي الرافدين الكبرى والتي عرفها العالم، كانت قد شهدت تحولات حضارية تحول معها السكان وفقًا لمعطيات كل مرحلة من مراحل تلك الحضارات، التي ابتدأت بقوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم قوم نمرود، مرورًا بالسومريين، والأكديين، والبابليين، والآشوريين، انتهاء بالكلدانيين والعرب المسلمين. بيد أنها حافظت على (نزعتها العراقوية). بل أن هذه النزعة لم تستأصل حتى بعد الفتح العربي الإسلامي. إذ أن العراق أصبح في هذا العهد محورًا للعالم العربي الإسلامي. وأصبحت (الكوفة) العراقية عاصمة لدولة الخلافة العربية الإسلامية الراشدة. ثم أصبحت (بغداد) عاصمة للدولة العباسية، ومحورًا للدولة العربية الإسلامية برمتها. وكذلك أصبحت (سامراء) عاصمة للدولة العربية الإسلامية برهة من الزمن.

٦- ولعل دخول الإسلام أرض العراق كان من أقوى التحولات الحضارية – السياسية التي شهدتها البلاد. إذ أن الإسلام غير من ثقافة العراقيين وفقًا لثقافته الإسلامية الجديدة دون أن يفضي إلى إنهاء (النزعة العراقوية) لدى سكانه العراقيين، الذين حافظوا على ثقافاتهم ودياناتهم الأولى كالصابئة، واليهودية، والمسيحية، وغيرها من الأديان التي تعايشت على أرض العراق منذ القِدَم. إذ أن العراقيين الوطنيين في الحضارات القديمة يمثلون آباءً وأجدادًا للعراقيين الصابئيين، والمسيحيين، والمسلمين على حد سواء. وأن التعدد الثقافي يعد سُنة من السنن التي تتسم بها شعوب الأرض كلها، كونه جزءً من الحراك الثقافي الأزلي الذي تعيش تحولاته البشرية دائمًا. وكل من يقرأ تاريخ الأمم بتمعن، يلمس أن تاريخ البشرية كله قائم على التعدد الثقافي الذي يتجدد باستمرار بتجدد الجدل الفكري حول قضايا الفكر، والدين، والسياسة، والسلطة.

٧- وعلى الرغم من تعدد الثقافات الدينية، والعرقية، والمذهبية للعراقيين المعاصرين، بيد أنهم يلتقون في (مفردات لغوية قديمة من أصول غير عربية)، يتداولونها من الشمال إلى

الجنوب. إذ أن هناك كلمات لازمت اللهجة العراقية، ولم تتغير أو تتأثر بموجات الأحداث السياسية والاجتماعية والدينية، التي شهدتها البلاد. ويتداولها سكان العرق على مختلف مشاربهم ومناطقهم. وتكاد أن تكون مفردات غير مفهومة لغير العراقيين لدرجة أنها أصبحت جزءً من هوية المواطن العراقي.

ومن هذه المفردات على سبيل المثال لا الحصر، مفردة (شكو ماكو) التي تعني ما هي آخر الأخبار؟ أو ما هي آخر التطورات في حياتك؟. وتقال، في العادة، عندما يلتقي شخصان من المعارف. وهي مفردة مأخوذة من اللغة الأكدية التي ترد بصيغة (أكا ماكو)، وتعني أن الرب موجود. وكانت تستخدم كتحية بين سكان العراق في الحضارات القديمة. ومفردة (تمبل) أي الإنسان البليد الكسول. وهي كلمة سومرية تعني العاطل عن العمل. وكذلك مفردة (مسكوف)، وهي كلمة آرامية تعني السيخ الذي يوضع فيه اللحم. وتستخدم حاليًا في وصف السمك المسكوف في اللهجة العراقية المعاصرة، والذي يعد أكلة عراقية صرفة يتميز بها العراق. وهناك مفردات عديدة أخرى يمكن الرجوع إليها من مصدرها.

ويبدو أن علماء الآثار يعزون ذلك إلى أن كل حضارة زائلة في العراق القديم حين تتهاوى وتزول لصالح دولة جديدة أو لصالح حضارة جديدة داخل بلاد الرافدين، فإنها تبقي الكثير من خصائصها الحضارية – الثقافية، وعلى مختلف المستويات، في عقول الناس الذين ينتقلون إلى مرحلة جديدة بأبعاد ثقافية جديدة تتشكل مع تشكل الواقع السياسي الجديد. وأن هذا الحراك الطويل جعل (لهجات) العراقيين من أبناء الديانات المتعددة، تتداخل فيها الكثير من المفردات اللغوية القديمة. وكذلك تتداخل معها بعض أشكال الشعائر والطقوس الدينية إلى حد ما.

٨- كما أن الدولة العراقية الحديثة لم تكن (هبة) أو (منحة) صرفة من الحكومة البريطانية رغم أنها قامت في كنفها وتحت رعايتها، إنما هي دولة انتزعها أهل العراق من سلطات الاحتلال البريطاني عبر وسائل متعددة منها:

أ – سلسلة المظاهرات والاحتجاجات الشعبية العراقية المطالبة بالاستقلال، وتكوين

الدولة العراقية المُوحدَة المستقلة. وقد تركزت تلك النشاطات في العاصمة بغداد، والتي أفضت إلى سقوط أعداد من الشهداء والجرحى.

ب- سلسلة من أعمال المقاومة العراقية المسلحة، التي حاولت انتزاع استقلال العراق من قوات الاحتلال البريطاني بقوة السلاح. وقد ابتدأت هذه المقاومة بحرب الشعيبة عام ١٩١٤م، ثم انتفاضة النجف المسلحة عام ١٩١٨م، ثم حوادث دير الزور وتلعفر المسلحة عامي ١٩١٩ - ١٩٢٠ م. وصولًا إلى الثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠م، والتي انتزعت استقلال العراق، ونجحت في تأسيس الدولة العراقية المستقلة بقوة السلاح. وذلك بعد قتال دام استمر حوالي ستة أشهر. دفع فيه العراقيون حوالي (٨٤٥٠) مواطنًا ما بين شهيد وجريح. وتكبدت القوات البريطانية خسائر فادحة، بلغت حوالي (٢٢٦٩) بين قتيل وجريح ومفقود.

ج - فضلًا عن ذلك، كان للمقاومة الدينية والسياسية والأدبية دورًا بارزًا في انتزاع الاستقلال، وتأسيس الدولة العراقية الحديثة. ولعل أهم محطات تلك المقاومة كانت فتوى الجهاد التي أعلنها المرجع الديني الأعلى (محمد تقي الشيرازي). علاوة على المقالات والخطب والشعر الذي ألهب حماس العراقيين، ودفعهم للمطالبة بحقوقهم الوطنية المشروعة في الحرية والاستقلال والوحدة.

٩- أضف إلى ذلك، من الصعب إطلاق صفة (الدولة المصطنعة) على الدولة العراقية الحديثة كونها تمثل دولة مكتملة الأركان الثلاثة (الإقليم، والشعب، والحكومة). (فالأرض): هي الجغرافية السياسية التي رُسِم عليها الوطن منذ فجر السلالات حتى الدولة العراقية الحديثة. أما (الشعب): فيتمثل في الأقوام التي استوطنت أرض الرافدين منذ الخليقة. وأنشأت عليها حضاراتها ودولها من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى قوم النمرود، إلى السومريين، إلى الأكديين، إلى البابليين، إلى الآشوريين، إلى الكلديين، إلى العراقيين العرب المسلمين، إلى العراقيين المعاصرين. أما (الحكومة): فقد شهد العراق نماذج متعددة منها، مارست السيادة على البلاد كلها في مراحل تاريخية مختلفة ومتواصلة. باستثناء حقب الاحتلال الأجنبي ذات الصبغة المؤقتة مهما طال أمده.

إن ذلـك كلـه، قد تفاعل تاريخيًا، منذ اسـتيطان الإنسـان العراقي عـلى أرض الرافدين حتـى الوقـت الراهن. أن هـذا التفاعل التاريخي يكفي للاسـتدلال على الوطـن الذي انتج حضـارات متنوعة، ودول قوية. وقد ترك هذا التاريخ بصمته على الحاضر الذي وُلِدَت من خلاله الدولة العراقية الحديثة كاستحقاق تاريخي أصيل، وليس كدولة مصطنعة كما ذهبت إلى ذلك بعض السرديات الغربية أو الشرقية.

ورغـم أن الرابطـة الوطنية العراقية قد وهنت أثناء الحكـم العثماني لأن الرابطة الدينية، آنـذاك، كانت تمثل الرابطة المشـتركة والوحيدة بين العراقيـين والدولة العثمانية. بيد أن ثورة العشرين نشطت فكرة الوطنية العراقية ونمتها بشكل واضح؛ لأنها تمكنت من توثيق مطلب العراقيين وتوحيدها حول مطلب تأسيس دولة عراقية مستقلة.

ومع أن نشـأة الدولة العراقية الحديثة يرجع إلى السنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى، بيـد أن شروط تأسيسـها، وولادة النخـب العراقية التي تسـلمت زمـام الأمور من البريطانيين، يرجع إلى حقبة سابقة لتاريخ قيام الدولة الحديثة.

ولعل بعض الباحثين يستدل على انعدام فكرة الوطنية العراقية كمدخل لتجذير مفهوم (الدولـة المصطنعة)، وإطلاقها على الدولة العراقية الحديثة، بما ورد في مذكرة (الملك فيصل الأول)، والتـي جاء فيها: (لا يوجد في العراق شـعب عراقـي بعد، بل يوجد كتلات بشرية خيالية خالية من أي فكرة وطنية، متشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة).

ويبـدو أن وجهة نظر (الملك فيصـل الأول) لم تكن تمثل تأملات فكرية عميقة، إنما هي ردة فعل لحاكم شـعر بالإحباط من قيادة شـعب صعب ومركب كالشـعب العراقي. لذلك يمكن القول عنها ما يأتي:

أ – أنهـا مجرد ردة فعـل لحاكم واجه صعوبـات في إدارة بلاد لا ينتمي إليهـا، أكثر منها وجهة نظر موضوعية يُعتد بها.

ب– أنها مجرد تأملات رجل سياسـة، وليسـت تأملات مفكر سـياسي اسـتنبط أفكاره بالدليل العقلي من دراسـة الواقع السـياسي – الاجتماعي للبـلاد. إذ نقل (نجيب

صالح) عن (لورانس) قوله عن الملك فيصل: (أنه لم يكن مثقفًا. وقد أراحه ذلك بعد أن رأى في أخيه عبد الله من حب الاستطلاع والحيوية. وأن طبيعته كانت تكره التفكير لأنه يشل حركته في العمل، لكن تكوينه الجسدي كان مثيرًا: كان طويلًا، رشيقًا، ونشيطًا، جميل المشية جدًا، في رأسه وكتفيه هيبة ملكية)[٤].

ج - ولعل وثائق ثورة العشرين من مضابط، ومراسلات، وخطب، وشعر، وفتاوى دينية، تدحض ما ذهب إليه الملك فيصل الأول؛ لأن تلك الوثائق تمثل دلالات موثقة على فكرة الوطنية العراقية وتفاعلها في المجتمع العراقي بشكل واضح.

ثانيًا: يُلاحظ من خلال السياق التاريخي العراقي القديم، أن الدولة العراقية لم تنهض، وتستقر، وتمتلك ناصية القوة، والوحدة، والتوسع الإمبراطوري، إلاَّ بتوفر الشروط الآتية:

١- لم تنهض أي دولة عراقية وتتوسع إلاَّ بوجود (حاكم مستبد قوي). إذ لم تتوحد الدولة العراقية إلاَّ بصعود (لوكال زاكيزي) الذي يعد أول حاكم عراقي في التاريخ، نجح في توحيد البلاد العراقية ضمن وحدة سياسية واحدة. ولم تحافظ الدولة العراقية على وحدتها، وتتوسع إلى مستوى إمبراطورية إلاَّ بوجود حكام مستبدون أقوياء مثل (سرجون الأكدي، وحمورابي، وآشور بانيبال، ونبوخذ نصر الثاني). إذ أن هؤلاء تمكنوا من تحويل العراق من دولة مُوحَّدة بسيطة إلى دولة مركبة، أخذت شكل الإمبراطورية المترامية الأطراف.

٢- ويلاحظ أن هؤلاء الحكام المستبدون الأقوياء، لم يتمكن أي منهم من إدارة البلاد والسيطرة عليها وتوسيعها إلاَّ إذا تمكن من تحجيم دور المعبد. أن هذا التحجيم كان قد اتخذ صيغتين أساسيتين هما:

أ - أما أن يقوم حكام العراق بتحجيم دور المعبد وتهميشه. كما فعل سرجون الأكدي وحمورابي.

ب- أو أن يقوم حكام العراق بالاستحواذ على دور رجال المعبد. بحيث يصبح الملك (ملك وكاهن أعظم) في الوقت نفسه. كما فعل آشور بانيبال ونبوخذ نصر الثاني وربما غيرهم.

ج – أضف إلى ذلك، أن العراق لم يستقر ويزدهر ويحافظ على كيانه إلاَّ بتعاونه مع بلاد العرب. إذ أن هناك معطيات في تاريخ العراق القديم، تحكمها معادلة التاريخ والجغرافية، تدل على الارتباط المصيري والمشترك بين العراق وبلاد العرب الواسعة. إن منبع هذه الفرضية آت من كون العراق، كان منذ القدم موطنًا رئيسًا لاستقرار القبائل العربية التي هاجرت إليه من شبه الجزيرة العربية. ويشترك العراقيون مع العرب في اللغة، والعادات، والتقاليد، والطقوس الدينية.

كما شملت النشاطات العراقية الحضارية والاقتصادية، مناطق البوادي الشمالية لجزيرة العرب. وتوغلت هذه النشاطات إلى الخليج العربي. إذ أن الأدلة الآثارية تدل على التواصل الحضاري بين العراق والمناطق السورية والمصرية من جهة، ومناطق الخليج العربي من جهة أخرى. مما شكل العراق مع البلدان العربية وحدة حضارية تمتلك المسوغات اللازمة.

ثالثًا: من الصعب وربما من التجني إطلاق مصطلح (الدولة المصطنعة) على الدولة العراقية الحديثة. ذلك لأن هذه البلاد كانت قد شهدت ولادة (أول دولة في التاريخ). لتساهم في حل لغز النظريات المفسرة لنشأة الدولة التي تُطرح في الفكر السياسي العالمي كله. إذ أن الواقع التاريخي يدل على أنه نشأت على أرض العراق أولى نماذج الدول التي عرفتها البشرية. حيث شهدت أرض العراق ما بعد (واقعة الطوفان) نموذجين من الدول الأولى في التاريخ وهي:

١ – تعد دولة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول دولة عرفتها البشرية. وقد تأسست وفقًا (للنظرية الدينية). حيث أن (الشعب) من عند الله، وهم أصحاب نوح وجزء من أهله الذين اصطفاهم الرب ليكونوا شعبًا صالحًا في دولة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. و(إقليم الدولة) من عند الله، وهو اليابسة التي دلهم عليها الطير. والحاكم (النبي) مختار من الله. ولذلك تحتسب هذه الدولة أول دولة في التاريخ، والتي أخذت طابعًا ثيوقراطيًا عادلًا.

٢ – وبعد حوالي ألف عام تأسست الدولة الثانية في التاريخ، وهي التي أُطلق عليها (مملكة النمرود)، والتي تأسست وفقًا (لنظرية القوة)، وقد أخذت طابعًا دنيويًا ظالمًا.

٣ – ثم توالت نماذج الدول العراقية على أرض الرافدين بأشكال مختلفة، فتارة تأخذ شكل (دويلات المدن) كما حدث في العهد السومري. وتارة تأخذ صيغة (الدولة البسيطة المُوحَّدة) كما حدث في عهد (لوكال زاكيزي). وتارة أخرى تأخذ (شكل الإمبراطورية) كما حدث في أنموذج الدولة الأكدية، والدولة البابلية، والدولة الآشورية، والدولة الكلدية.

رابعًا: إن وقوع الاحتلال الأجنبي المتكرر للأراضي العراقية منذ العهد المغولي وحتى العهد البريطاني لا ينفي وجود الدولة العراقية الحديثة أو يشكك في شرعيتها أو يسوغ إطلاق مصطلح (الدولة المصطنعة) عليها. وذلك للأسباب الآتية:

١ – أن الاحتلال الأجنبي حالة واقعية مؤقتة لا تعطي المحتل حق الملكية في الأراضي المحتلة. وبالتالي لا يجوز ضم أرض المحتل إلى دولة الاحتلال. وقد أكدت على ذلك (محكمة نورمبرغ) الخاصة بجرائم الحرب الدولية. كما أكدت على ذلك (محكمة العدل الدولية) في الرأي الخاص بجدار الفصل العنصري بتاريخ ٩ حزيران ٢٠٠٤م، والقاضي بعدم شرعية جدار الفصل الإسرائيلي، الذي شيد على الأراضي الفلسطينية. بعد أن قام جيش الاحتلال الإسرائيلي بمصادرتها وضمها. عليه فإن الاحتلال الأجنبي يبقى ذو طابع مرقت مهما طال أمده، ولا يمكن أن يلغي وجود الدولة الأصلية.

٢ – ثم أن سلطة الاحتلال الأجنبي، تبقى سلطة فعلية وليست قانونية أو شرعية لأن السيادة لا تنتقل إلى دولة الاحتلال بكل الأحوال. وهذا ما نصت عليه المادة (٤٢) من لائحة لاهاي لعام ١٩٠٧.

خامسًا: تميزت الدولة العراقية القديمة بوصفها تمثل الجذور التاريخية للدولة العراقية الحديثة بما يأتي:

١ – تبنت الدولة العراقية القديمة النظام الملكي الوراثي منذ عهد (مملكة النمرود)، مرورًا بفجر السلالات حتى نهاية التاريخ القديم، ولم تعرف نظامًا سياسيًا غيره. وكان مظهر الملكية في العراق القديم ثيوقراطيًا. وذلك لاعتقادهم أن السلطة السياسية كالنبوة، مهمة إلهية هبطت على الملك من السماء. وبهذا المفهوم يكون الملك مفوضًا من الآلهة، ويسوس

الشعب على الأرض باسمها، ويقر وصاياها، ويعمل على تنفيذ رغباتها. مع ذلك، لم يدع أي ملك من ملوك العراق بالألوهية لنفسه إلا ما ندر، مثلما فعل فراعنة وادي النيل.

ويبدو أن هذه المزاوجة ما بين الأصل الديني للسلطة، والممارسة السياسية الدنيوية لملوك العراق آتية من التأثر بالدولة الثيوقراطية التي أسسها النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بمشيئة الله من جهة، وبالمملكة الدنيوية التي أسسها الملك النمرود عن طريق القوة من جهة أخرى.

ويُلاحظ، أن الألقاب التي اتخذها ملوك العراق القديم قد تغيرت مع مرور الزمن، لتعبر عن طبيعة النظام السياسي، وحجم الدولة. ولعل من أقدم هذه الألقاب التي اتخذها ملوك العراق القديم كان لقب (الملك) الذي اعتمد في (مملكة النمرود). ثم اعتمد لقب (انسي)، الذي يشير إلى رأس الحكومة في المدينة السومرية. ثم ورد لقب (لوكال) الذي تطورت سلطاته، لتعبر عن الحاكم الذي امتدت سلطته إلى مدى أوسع من حكومة المدينة بصيغتها السومرية.

ثم تدرجت ألقاب الملوك العراقيين تبعًا لتطور نظام الحكم واتساعه. فعندما تمكن (لوكال زاكيزي) ملك (مدينة أوما) من توحيد المدن العراقية في دولة واحدة، اتخذ لنفسه لقب (ملك البلاد)، وهي إشارة إلى الوحدة السياسية التي تمكن من تحقيقها في بلاد سومر.

وعندما تمكَّن (سرجون الأكدي) من تأسيس دولته، فإنه اتخذ لنفسه لقبًا جديدًا مفاده (ملك الجهات الأربع). وهذا اللقب يدل على اتساع مديات الحكم، وانتقاله من دولة صغيرة إلى مملكة كبرى، ثم أخذ صيغة الإمبراطورية.

وفي عهد (أسرة أور الثالثة) ظهر لقب (ملك سومر وأكد). ولعل أول من اعتمده عنوانًا للسلطة كان الملك (أور نمو) بوصفه مؤسس الأسرة. وذلك كمحاولة للتوفيق ما بين الساميين (الأكديين) من جهة، والسومريين من جهة أخرى.

ثم اتخذ ملوك آشور عناوين وألقاب متعددة منها (كاهن آشور)، و(ملك الكل)، و(ملك العالم)، و(ملك بلاد آشور)، و(ملك الجهات الأربع).

٢- لعب المعبد ورجاله، دورًا أساسيًا في تاريخ الدولة العراقية القديمة. و ذلك لأنه يمثل مركزًا دينيًا تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية بمختلف أشكالها. فضلًا عن كونه يمثل مركزًا اقتصاديًا - سياسيًا في الحياة العامة لدرجة أنه كان ينازع الملك على سلطته، وغالبًا ما يحتدم الصراع بينهما. ويعد الصراع الذي كان يحتدم بين الملك ورجال المعبد واحدًا من أهم أسباب ضعف نماذج الدول العراقية المتعاقبة، ولعله يعد من أهم عوامل سقوطها.

٣- كما تميزت الدولة العراقية القديمة بقدرتها وإبداعها في وضع التأطير القانوني للدولة وللمجتمع. ولعل هذه السمة من أهم السمات التي ميزت نماذج الدول العراقية القديمة المتعاقبة عن غيرها من الدول الأخرى، بوصفها صاحبة الريادة في هذا المجال الذي لم تسبقها في ذلك أي دولة أخرى على مر التاريخ القديم. لذلك يمكن القول أنه كان قد ولدت في العراق أقدم القوانين المدونة في العالم، وأكثرها نضجًا. إذ أنها أخذت بمبادئ قانونية متطورة يمكن تلمس صداها في القوانين المعاصرة. مثل (مبدأ التعويض) الذي أخذ به (قانون أور نمو)، و(قانون لبت عشتار). و(مبدأ القصاص) الذي أخذ به (قانون اشنونا) و(قانون حمورابي). وغيرها من المبادئ الأساسية التي يمكن الرجوع إليها في مصادرها.

سادسًا: واجهت الدولة العراقية القديمة إشكالات متعددة، لعل أهمها ما يأتي:

١- واجهت الدولة إشكالية المكان. وذلك من ناحيتين هما:

أ- عانت الدولة من قسوة البيئة وتقلباتها، التي كانت تؤثر سلبًا على سكان وادي الرافدين على مر التاريخ.

ب- أنها عانت من تفوق تقاليد الحكم على تقاليد الدولة. تلك المعادلة التي أفضت إلى ترسيخ جذور الاستبداد في العراق، وولادة فكرة (عبادة الشخصية). إذ لم تنهض أي من الدول العراقية القديمة إلاَّ بصعود (زعيم) أو (قائد) من أمثال سرجون الأكدي، وحمورابي، وآشور بانيبال، ونبوخذ نصر الثاني وغيرهم.

٢- كما واجهت الدولة العراقية القديمة مشكله الصراع ما بين الملك والمعبد. أن

هذه المشـكلة تسببت بسـقوط نماذج الدول العراقية أكثر من مرة. إذ لم تسقط أي من الدول العراقية القديمة إلاَّ بثلاثة عوامل أساسية هي:

أ – أزمة اقتصادية حادة على المستوى الوطني.

ب – صراع ما بين الملك والمعبد على السلطة والثروة.

ج – احتلال أجنبي متربص بالبلاد العراقية.

هوامش الخاتمة

(١) حول هذه المصطلحات انظر: كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة (بدون تاريخ)، ص ص ٤٠، ١١٤ - ١١٧، ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) للتفصيل انظر: نهار محمد نوري، العراق ليس مصطنعًا: النزعات العراقوية ودحض فرضية الدولة المصطنعة، مجلة (أسطور للدراسات التاريخية)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات/ قطر، العدد ٨/ تموز ٢٠١٨، ص ٧٤ - ١٠٨.

(٣) نجيب الماجدي، التأسيس لدولة المركب الطائفي - القومي، ضمن كتاب: مجموعة مؤلفين، صدمة التاريخ، مركز دراسات المشرق العربي، بيروت ٢٠١٧، ص ٨٦..

(٤) نجيب صالح، تاريخ العرب السياسي ١٨٥٦ - ١٩٥٦، ط ٢، دار اقرأ، بيروت ١٩٩٢، ص ١٨٢.

المصادر

- القرآن الكريم.

- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت ١٩٩٢.

أولا: الوثائق

ا- الوثائق غير المنشورة:

أ - وثائق المتحف الوثائقي لثورة العشرين/ النجف الأشرف.

- ملفة ١٠/ وثيقة ١.

- ملفة ٢/ وثيقة ٩.

- ملفة ١١/ وثيقة ١.

- ملفة ٢٣/ وثيقة ٣.

- ملفة ١٦/ وثيقة ١١.

- ملفة ٤٢/ وثيقة ١١.

- ملفة ٣/ وثيقة ٨.

- ملفة ٢٧/ وثيقة ٦٣.

ب- وثائق الثورة العراقية الكبرى ١٩١٤ - ١٩٢١ (إعداد وتحقيق كامل سلمان الجبوري) خمسة أجزاء (مطبوعة بالرونيو).

ج - المجمع العلمي العراقي، مجموعة بيانات ونشرات عن الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، الوثائق ٥، ٧.

٢- الوثائق المنشورة:

- برسي كوكس، مذكرة تكوين الحكم الوطني في العراق، ترجمة: بشير فرجو، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل ١٩٥١.
- صالح جواد كاظم (ترجمة وإعداد)، تقرير سري لبوليس العاصمة، مج ٢/ بغداد ١٧ تموز ١٩٢٥.
- علي الشرقي، النوادي العراقية، جريدة النهضة، العدد ٣/ أيلول ١٩٢٧.
- فؤاد قزانجي (إعداد)، وثائق تنشر لأول مرة، مجلة آفاق عربية، العدد ٦/ شباط ١٩٨١.
- كاظم الدجيلي، أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان، تحقيق ونشر: حكمت رحماني، مطبعة الزمان، بغداد ١٠٧٣.
- مذكرات عبد الغفور البدري، جريدة الاستقلال، العدد ١٧٢٢/ ٢٠ تموز ١٩٣٢.
- مقابلة مع محمد رضا الشبيبي، مجلة بغداد، العدد ٢٠/ ٢٠ تموز ١٩٦٥.
- مؤرخ، صفحات مطوية من تاريخ الحركة الوطنية، جريدة البلاد، العدد ٤٣٥٩/ ٣١ آيار ١٩٥٥.

ثانيًا: المخطوطات

١- عبد الغني الملاح، نوري السعيد كما لم تعرفه، بغداد ١٩٨٣.
٢- محمد علي كمال الدين، المسألة العراقية أو الانتداب في النجف (بدون تاريخ).
٣- وميض جمال عمر نظمي،: الحركة القومية في العراق، محاضرات أُلقيت على طلبة الدراسات العليا في جامعة بغداد - كلية القانون والسياسة للعام الدراسي ١٩٨١ - ١٩٨٢، (مطبوعة بالرونيو).

ثالثًا: الصحف والمجلات:

- جريدة الاستقلال، العدد ١٧٢٢/ ٢٠ تموز ١٩٣٢.
- جريدة الاستقلال، العدد ٤/ ١٧ تشرين الأول ١٩٢٠.
- جريدة الاستقلال البغدادية، العدد ٤/ ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٠.
- جريدة البلاد، العدد ٤٣٥٩/ ٣١ آيار ١٩٥٥.
- جريدة العراق، العدد ٢٨٥/ ٥ آيار ١٩٢١.
- جريدة العراق، العدد ٣/ ٣ حزيران ١٩٢٠.
- جريدة الفلاح، العدد ١/ ٢٠ حزيران ١٩٢١.
- جريدة الفلاح، العدد ١/ ٢٠ حزيران ١٩٢١.
- جريدة صدى الأحرار الموصلية، العدد ١٧٦/ ١٩ أيلول ١٩٥٢.
- جريدة صدى الأحرار الموصلية، العدد ١٨٤/ تشرين الثاني ١٩٥٢.
- جريدة صدى الأحرار الموصلية، العدد ١٨٨/ ١٢ كانون الأول ١٩٥٢.
- جريدة صدى الأحرار الموصلية، العدد ١٩٣/ العدد ١٩٣/ ١٩٥٣.
- جريدة صدى الأحرار الموصلية، العدد ٢٢٠/ ١٤ آب ١٩٥٣.
- جريدة لسان العرب، العدد ١٣/ ٨ تموز ١٩٢١.
- جريدة لسان العرب، العدد ١٣/ ٨ تموز ١٩٢١.
- مجلة الثقافة، العدد ٨/ أيلول ١٩٧٠
- مجلة بغداد، العدد ٢٠/ ٢٠ تموز ١٩٦٥.
- مجلة دار السلام، العدد ٨/ ١٧ نيسان ١٩٢١.

رابعًا: الأطاريح والرسائل الجامعية

(١) إبراهيم خليل أحمد، ولاية الموصل: دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ - ١٩٢٢، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدَّمة إلى جامعة بغداد/ كلية الآداب - قسم التاريخ، بغداد ١٩٧٥.

(٢) شيبان ثابت الراوي، آشور ناصر بال الثاني: سيرته وأعماله، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مقدَّمة إلى جامعة بغداد ١٩٨٦.

(٣) عبد الفتاح عبد الرزاق محمود، الإعلان عن الدولة، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) مقدَّمة إلى كلية القانون/ جامعة صلاح الدين، أربيل ٢٠٠٧.

(٤) وجيه لطفي طالب ذوقان، ولاية العهد في العصر الأموي، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدَّمة إلى جامعة النجاح - كلية الدراسات العليا، نابلس ٢٠٠٥.

خامسًا: البحوث والمقالات

(١) أحمد زيدان الحديدي، المنحوتات البارزة شاهدًا للحملات العسكرية الآشورية، مجلة دراسات موصلية، العدد ٧٢ لسنة ٢٠٠٩.

(٢) إيمان هاني العلوش، طبقات المجتمع الآشوري في ضوء المصادر المسمارية، مجلة دراسات موصلية، العدد ٣٠ لسنة ٢٠١٠.

(٣) ثامر خزعل العامري، طوفان النبي نوح والتغييرات البيئية اللاحقة في وادي الرافدين بالأدلة البالينولوجية، مجلة تراث النجف الحضاري والديني، العدد ٢ لسنة ١٤٣١ هجرية.

(٤)حازم حسني زيود، مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم، مجلة الجامعة العربية - الأمريكية للبحوث، مج ٢، العدد ٢ لسنة ٢٠١٦.

(٥) حسن الأسدي، حول ثورة العشرين في العراق، مجلة (الثقافة)، العدد ٨/ أيلول ١٩٧٠.

(٦) حسين جميل، فكرة الجمهورية في العراق، مجلة (الهلال) المصرية، العدد ٦/ يوليو ١٩٦٥.

(٧) حنان علي عواضة، السلطة عند ماكس فيبر، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة بغداد - كلية التربية للعلوم الإنسانية/ ابن رشد، العدد ٦، مج ١، ٢٠١٣.

(٨) رضا جواد الهاشمي، مردوك: عظيم آلهة بابل، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، مج ١٦ - العدد ٣ لسنة ١٩٨٧.

(٩) صالح جواد كاظم (مترجم ومعد)، أيام من ثورة العشرين في بغداد، تقرير سري لبوليس العاصمة، مج ٢/ بغداد ١٧ تموز ١٩٢٥، والمنشور في جريدة (العراق)، العدد ٧١٤/ ٢٩ حزيران ١٩٧٨.

(١٠) طراد الكبيسي، حمورابي ملك بابل وعصره، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية العامة، مج ١٦ - العدد ٣ لسنة ١٩٨٧.

(١١) عبد القادر خليل، السياسة الخارجية للملك آشور ناصر بال الثاني، المجلة التاريخية المصرية، مج ٣٤ لسنة ١٩٨٧.

(١٢) عبد الكريم عبد الله، ملامح الوجود السامي في جنوب العراق، مجلة سومر، العدد ٣٠ لسنة ١٩٧٨.

(١٣) عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله، مناهج أولي العزم من الرسل، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٢ هجرية.

(١٤) عدنان مكي، نشأة وتطور القرية في العراق، مجلة سومر، العدد ٣٩ لسنة ١٩٨٣.

(١٥) عن سامي البدري، النجف مرسى سفينة نوح، مجلة تراث النجف الحضاري والديني، العدد الأول، السنة الأولى ربيع الأول ١٤٣٠ هجرية.

(١٦) كفايت الله الهمداني، نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والسفينة وجبل جودي في الكتب السماوية، مجلة القسم العربي/ جامعة البنجاب - باكستان، العدد ٢١ لسنة ٢٠١٤.

(١٧) محمد رضا الشبيبي، ثورة النجف ضد الاستعمار الإنكليزي، مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد ٩/ تموز ١٩٦٩.

(١٨) مـؤرخ، صفحات مطوية من تاريخ الحركة الوطنية، جريدة (البلاد)، العدد ٤٣٥٩/ ٣١ آيار ١٩٥٥.

(١٩) نهـار محمد نوري، العـراق ليس مصطنعًا: النزعات العراقوية ودحض فرضية الدولة المصطنعـة، مجلـة (أسـطور للدراسـات التاريخيـة)، المركـز العـربي للأبحاث ودراسة السياسات/ قطر، العدد ٨/ تموز ٢٠١٨.

(٢٠) وليد الجادر، المحاورة التشاؤمية، مجلة الأقلام - بغداد، العدد ١٠ - حزيران ١٩٦٩.

(٢١) وليـد الجادر، وعبد الإله فاضل، دور العلـم والمعرفة في العراق القديم، مجلة المورد، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، مج ١٦، العدد ٣، خريف ١٩٨٧.

سادسًا: الكتب باللغة العربية

(١) ابدوريـا، المدخل إلى العلوم السياسـية وترجمـة: نوري محمد حسـين، مطبعة الديواني، بغداد ١٩٨٨، ٤٥.

(٢) إبراهيم الوائلي، ثورة العشرين في الشعر العراقي، مطبعة الإيمان، بغداد ١٩٦٨.

(٣) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية، ط ٤، القاهرة ٢٠٠٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت).

(٥) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠.

(٦) ابن الغوطي، الحوادث الجامعة، ج ٤، بغداد ١٣٥١ هجرية.

(٧) ابـن جريـر الطـبري، جامع البيـان عن تأويل القـرآن الكريـم، ج ١٢، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د. ت).

(٨) ابـن جرير الطـبري، قصص الأنبياء، تحقيق: جمال بدران، ط ٣، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٦.

(٩) ابن رشيق، العمدة، تحقيق: محمد قزقزان، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٨.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٣، القاهرة ١٣٥٦ هجرية.

(١١) أحمد إبراهيم هبو، تاريخ الشرق القديم، ج ٢، دار الحكمة، بغداد ١٩٩٦.

(١٢) أحمد الكبيسي، قصص القرآن الكريم، ط ٦، دار المعرفة، بيروت ٢٠١٧.

(١٣) أحمد أمين سليم، حضارة العراق القديم، ج ٦، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٣.

(١٤) أحمـد ربيع عبد المنعم، نبوخذ نصر ومملكة بابل، دار مشـارق للنشر والتوزيع، الجيزة ٢٠٠٨.

(١٥) أحمد رفيق البرقاوي، العلاقات السياسـية بين العراق وبريطانيا، دار الرشـيد للنشر، بغداد ١٩٨٠.

(١٦) أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الرشيد للنشر، ط ٥، بغداد ١٩٨١.

(١٧) أحمد سوسـة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، منشـورات مركز الدراسـات الفلسطينية – جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٨.

(١٨) أدوارد سـعيد، الثقافـة والامبرياليـة، ترجمـة: كـمال أبـو ديـب، دار الآداب، بيروت ١٩٩٧.

(١٩) أدي شير، تاريخ كلدو آثور، مطبعة الحرف الذهبي، حلب ٢٠٠٧.

(٢٠) أرلوند ولسن، الثورة العراقية، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكتب، بيروت ١٩٧١.

(٢١) أرلونـد ولسـن، بـلاد مـا بـين النهرين بـين ولاءيـن، ج ٢، ترجمـة: فؤاد جميـل، دار الجمهورية، بغداد ١٩٧١.

(٢٢) آرنست كاسيرر، الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥.

(٢٣) اريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، بيروت ١٩٨٢.

(٢٤) إسماعيل غزال، القانون الدستوري والنظم السياسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (د. ت).

(٢٥) الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زبيد الشيباني، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: أحمد السعدوي، دار الكتب المصرية، مصر ١٩٤٤.

(٢٦) الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري، شرح ديوان كعب بن زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٠.

(٢٧) أمير إسماعيل، السلالات البشرية، مطبعة عزالدين، بيروت ١٩٨٢.

(٢٨) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ٢/ ق ٢، القاهرة (بدون تاريخ).

(٢٩) اندريه بارو، بلاد آشور، ترجمة: عيسى سلمان، وسليم التكريتي، بغداد ١٩٨٠.

(٣٠) اندريه هوريو، القانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ج ١، ترجمة: علي مقلد وآخرون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٣.

(٣١) انستاس ماري الكرملي، خلاصة تاريخ العراق، دار الوراق للنشر، بيروت ٢٠١٢.

(٣٢) مايكل أوترمان، ريتشارد هيل، بول ويلسون، محو العراق، ترجمة: أنطوان باسيل، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠١١.

(٣٣) أوليفيه ناي وآخرون، قاموس الفكر السياسي، ترجمة: لطفي السيد منصور، دار الرافدين، بيروت ٢٠٢٠.

(٣٤) ايفا كانجيك، كيرشباوم، تاريخ الآشوريين القديم، ترجمة: فاروق إسماعيل، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٨.

(٣٥) باقر أمين الورد، بغداد: خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها. دار التربية، بغداد ١٩٨٤

(٣٦) باقر أمين الورد، حوادث بغداد في ١٢ قرن، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٩.

(٣٧) بتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (د. ت).

(٣٨) برتراند بادي، بيار بيرنبوم، سوسيولوجيا الدولة، ترجمة: جوزيف عبد الله وجورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت (د.ت).

(٣٩) برسي كوكس، مذكرة تكوين الحكم الوطني في العراق، ترجمة: بشير فرجو، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل ١٩٥١.

(٤٠) البريشت جونز وآخرون، شريعة حمورابي واصل التشريع في الشرق القديم، ترجمة: اسامة سراس، دمشق ١٩٩٣.

(٤١) بطرس غالي، محمود خيري عيسى، المدخل في العلوم السياسية، مكتبة الإنكلو مصرية، ط ١٠، القاهرة ١٩٩٨.

(٤٢) بهجت عبد الغفور الحديثي، أمية بن أبي الصلت: حياته وشعره، ط ٢، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٧٥.

(٤٣) بيتر غالبريث، نهاية العراق، ترجمة: أياد أحمد، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٧.

(٤٤) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، ج ٢، مطبعة الغري، النجف ١٩٣٨.

(٤٥) تركي عطية الجبوري، الكتابات والخطوط القديمة، مطبعة بغداد، بغداد ١٩٨٠.

(٤٦) تقي الدباغ، الطبيعة والإنسان: حضارة العراق، ج ١، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٥.

(٤٧) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨

(٤٨) توفيق السويدي، مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الغد، بيروت ١٩٦٩.

(٤٩) توفيق برو، تاريخ العرب القديم، ط ٢، دار الفكر المعاصر، دمشق ١٩٩٦.

(٥٠) ثابت إسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٥.

(٥١) ج. دي. ف. لودر، القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ترجمة: نزيه المؤيد العظم، المطبعة الحديثة، دمشق ١٩٢٥.

(٥٢) جاسم محمد الخلف، جغرافية العراق الطبيعية، والاقتصادية، والبشرية، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة ١٩٦٥.

(٥٣) جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٧.

(٥٤) جرالد دي غوري، ثلاثة ملوك في العراق، ترجمة: سليم طه التكريتي، دار المثنى للطباعة والنشر، بغداد ١٩٨٣.

(٥٥) جعفر حسين خصباك، العراق في عهد المغول الايلخانين، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٨.

(٥٦) جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج ١، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧١.

(٥٧) جعفر باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج ١، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٣٤.

(٥٨) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٤.

(٥٩) جمال بابان، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية، منشورات المجمع العلمي الكردي، بغداد ١٩٨٩.

(٦٠) جميل نخلة المدور، تاريخ بابل وآشور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢.

(٦١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ط ٢، بغداد ١٩٩٣.

(٦٢) جوده حسنين جوده، جغرافية آسيا الإقليمية، الإسكندرية ١٩٨٥.

(٦٣) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ط ٢، ترجمة: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦.

(٦٤) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، بغداد ١٩٨٤.

(٦٥) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج ١ ، ط ٣، ترجمة: محمد خلف الله وآخرون، دار المعارف، مصر ١٩٧٦.

(٦٦) جـورج سـباين، تطـور الفكر السـياسي، ج ١، ترجمة: حسـن جلال العـروسي، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧١.

(٦٧) جـورج كونتينـو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشـور، ترجمة: سـليم التكريتي، بغداد ١٩٨٦.

(٦٨) جيمس برستد، انتصار الحضارة، القاهرة (د. ت).

(٦٩) حسـن أبشر الطيب، الدولة العصرية: دولة مؤسسات، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٠.

(٧٠) حسن الأسدي، ثورة النجف على الإنكليز، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥.

(٧١) حسن العطار، الوطن العربي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٦.

(٧٢) حسن صعب، علم السياسة، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧١.

(٧٣) حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية ١٩٧١.

(٧٤) حميد السـاعدي، مبادئ القانون الدسـتوري وتطور النظام السـياسي في العراق، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل ١٩٩٠.

(٧٥) حميد عيسى حبيبان، حقائق ناصعة عن ثورة النجف الكبرى، مطبعة الغري، النجف ١٩٧٠.

(٧٦) حنـا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيـام الجمهوريـة، ج ١، ترجمـة: عفيـف الرزاز، مؤسسـة الأبحـاث العربية، بيروت ١٩٩٠.

(٧٧) حيـاة إبراهيـم محمـد، نبوخذ نـصر الثاني، المؤسسـة العامـة للآثار والـتراث، بغداد ١٩٨٣.

(٧٨) دانيـل لاجاش، المجمـل في التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى ازيـور، مكتبة النهضة العربية، القاهرة ١٩٥٧.

(٧٩) دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري).

(٨٠) دايموند كارفيلد كيتل، ج ١، ط ٢، ترجمة: فاضل زكي محمد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد – نيويورك ١٩٦٢.

(٨١) ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال، ومراجعة: عبد المنعم أبو بكر، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.

(٨٢) الدينوري (أبو حنيفة)، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠.

(٨٣) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، ط ٢، بيروت ١٩٧٤.

(٨٤) ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار المعارف، مصر ١٩٨٤.

(٨٥) الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، حيدر آباد ١٣٣٧ هجرية.

(٨٦) راسم الجميلي، البغداديون، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣.

(٨٧) رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، ج ٣، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩.

(٨٨) رفائيل بطي، الصحافة في العراق، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٥.

(٨٩) روجر ماثيو، آثار بلاد الرافدين: نظريات ودراسات، ترجمة: محمد صبري عبد الرحيم، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد ٢٠١٦.

(٩٠) ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: فؤاد جميل، مصطفى جواد، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٤.

(٩١) ريدر فيسر، البصرة وحلم الجمهورية الخليجية، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، كولونيا – بغداد ٢٠٠٨.

(٩٢) رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين، تعريب: وليد الجادر، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣.

(٩٣) رئيف خوري، الفكر العربي الحديث: أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، مطبعة الكشاف، بيروت ١٩٤٣.

(٩٤) زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٢.

(٩٥) زهير شكر، الوسيط في القانون الدستوري، ج ١، ط ٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٤.

(٩٦) زهير صاحب، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، ج ١، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠٠٩.

(٩٧) زهير صاحب، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، ج ٢، دار ومكتبة عدنان، بيروت – لبنان ٢٠٢٠.

(٩٨) زهير صاحب، تاريخ الفن في العراق، ج ٣، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠٢٠.

(٩٩) زهير صاحب، تقابل الحضارات: دراسة في الحضارتين العراقية والمصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠١٦.

(١٠٠) ساكز، البابليون، ترجمة: سعيد الغانمي، مراجعة: عامر سليمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ٢٠٠٩.

(١٠١) ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، لندن ١٩٦٢.

(١٠٢) ساكز، عظمة بابل: موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة، ترجمة وتعليق: عامر سليمان إبراهيم، جامعة الموصل، ١٩٧٩.

(١٠٣) سامي سعيد الأحمد، السومريون وتراثهم الحضاري، بغداد ١٩٧٥.

(١٠٤) سامي سعيد الأحمد، تاريخ العراق في القرن السابع قبل الميلاد، ترجمة: بيت الحكمة، مطبعة الميزان، بغداد ٢٠٠٣.

(١٠٥) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨.

(١٠٦) ستيفن همسلي لونكريك، فرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز

١٩٥٨، ترجمة: مصطفى محمود أحمد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي. بغداد ٢٠٠٩.

(١٠٧) سعاد خيري، من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق ١٩٢٠ – ١٩٥٨، ج ١، مطبعة الأديب، بغداد ١٩٧٤.

(١٠٨) سليمان فيضي، في غمرة النضال، ط ٢، دار القلم، بيروت ١٩٧٤.

(١٠٩) سنت جون فلبي، أيام فلبي في العراق، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكشاف، بيروت ١٩٥٠.

(١١٠) سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة: سامي سعيد الأحمد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠.

(١١١) سيد قطب، في ضلال القرآن، مج ٤، ط ١٥، دار الشروق، بيروت – القاهرة ١٩٨٨.

(١١٢) شارلز تلي، الدولة والقسر ورأس المال عبر التاريخ، ترجمة: عصام الخفاجي، دار الفارابي، بيروت ١٩٩٣.

(١١٣) صادق الأسود، علم الاجتماع السياسي: أسسه وأبعاده، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة بغداد، بغداد ١٩٨٦.

(١١٤) صالح العمر، الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ – ١٩٣٢، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٨.

(١١٥) صبيح مسكوني، تاريخ القانون العراقي القديم، بغداد ١٩٧١.

(١١٦) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧.

(١١٧) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧.

(١١٨) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج ٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠١٧.

(١١٩) صمويل كريمر، السومريون، ترجمة: فيصل الوائلي، الكويت ١٩٧٣.

(١٢٠) صمويل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: أحمد فخري، القاهرة ١٩٥٨.

(١٢١) صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، منشورات جمعية المترجمين العراقيين، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، بغداد ١٩٧١.

(١٢٢) طالب مشتاق، أوراق أيامي ١٩٠٠ – ١٩٥٨، ج ١، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٨.

(١٢٣) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ط٢، دار المعارف، مصر (د. ت).

(١٢٤) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣.

(١٢٥) طه باقر، ملحمة كلكامش، دار المعارف، بغداد ١٩٧٦.

(١٢٦) عامر سليمان، التراث اللغوي في حضارة العراق، ج ١، بغداد ١٩٨٥.

(١٢٧) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم: موجز التاريخ السياسي، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، بيروت ٢٠١٤.

(١٢٨) عامر سليمان وآخرون، المعجم الأكدي، ج ١، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٩٩.

(١٢٩) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ١، مطبعة بغداد، بغداد ١٩٣٥.

(١٣٠) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٢، الدار العربية للموسوعات (بدون تاريخ).

(١٣١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٣، الدار العربية للموسوعات (بدون تاريخ).

(١٣٢) عباس علي، زعيم الثورة العراقية، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٠.

(١٣٣) عبد الحسين المبارك، ثورة ١٩٢٠ في الشعر العراقي، دار البصري، بغداد ١٩٧٠.

(١٣٤) عبد الحكيم الذنون، تاريخ القانون في العراق، دمشق ١٩٩٣.

(١٣٥) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ط ٣، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧.

(١٣٦) عبد الرحمن الكيالي، شريعة حمورابي: أقدم الشرائع العالمية، حلب ١٩٥٨.

(١٣٧) عبد الرحمن منيف، أرض السواد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت - الدار البيضاء ١٩٩٩.

(١٣٨) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ط ٥، دار الكتب، بيروت ١٩٨٢.

(١٣٩) عبد الرزاق الحسني، العراق قديمًا وحديثًا، الرافدين للطباعة والنشر، بيروت ٢٠١٣.

(١٤٠) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، مركز الأبجدية، بيروت ١٩٨٠.

(١٤١) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ج ١، ط ٣، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٧١.

(١٤٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي، ج ١، ط ٧، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩.

(١٤٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج ١، ط ٣، مطبعة العرفان، صيدا ١٩٦٥.

(١٤٤) عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف، ط ٢، دار الكتب، بيروت ١٩٨٢.

(١٤٥) عبد الرزاق الوهاب، كربلاء في التاريخ، ج ٣، مطبعة الشعب، بغداد ١٩٣٥.

(١٤٦) عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ - ١٩٤٥، ط ٢، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٠.

(١٤٧) عبد الرسول حسين، عدنان حسين، صحافة ثورة العشرين وموقف صحف بغداد من الثورة، دار السلام، بغداد ١٩٧٠.

(١٤٨) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١.

(١٤٩) عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين، مطبعة النعمان، النجف ١٩٦٦.

(١٥٠) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢.

(١٥١) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢.

(١٥٢) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢.

(١٥٣) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢.

(١٥٤) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢.

(١٥٥) عبد العزيز الياس الحمداني، علي شحيلات، مختصر تاريخ العراق، ج ٦، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٢.

(١٥٦) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج ١، مصر والعراق، القاهرة ١٩٦٧.

(١٥٧) عبد العزيز نوار، تاريخ العرب المعاصر، ج ١، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١.

(١٥٨) عبد الغني الملاح، تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق، ج ١، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠.

(١٥٩) عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، ط ٢، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٨.

(١٦٠) عبد الله ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد (بدون تاريخ).

(١٦١) عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، ط ٢، دار السلام، بغداد ١٩٧٥.

(١٦٢) عبد الله النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت ١٩٧٣.

(١٦٣) عبد الله مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨.

(١٦٤) عبد المنعم أبو بكر وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، مكتبة مصر، القاهرة (د. ت).

(١٦٥) عبد المنعم الغلامي، أسرار الكفاح الوطني في الموصل ١٩٠٨ - ١٩٢٥، ج ١، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨.

(١٦٦) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج ٢، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥.

(١٦٧) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، مكتبة وهبة، ط ٣، القاهرة (د. ت).

(١٦٨) عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله، مناهج أولي العزم من الرسل، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٢ هجرية.

(١٦٩) عديد دويشا، عراق الحقبة الملكية: تاريخ سياسي، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، مراجعة: إحسان عبد الهادي الجرجفي، مؤسسة مصر مرتضى، بغداد ٢٠١٢.

(١٧٠) عصام العطية، القانون الدولي العام، ط ٨، الدار العراقية، بيروت ٢٠١٠

(١٧١) علاء محمد مطر، مبادئ العلوم السياسية، ط ٢، القاهرة ٢٠١٨.

(١٧٢) علي البزركان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٥٤.

(١٧٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٥/ ق ١، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧٧.

(١٧٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٥/ ق ٢، بغداد ١٩٧٨.

(١٧٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٦، مطبعة المعرف، بغداد ١٩٧٦.

(١٧٦) علي جابر، شخصية الإنسان، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٤.

(١٧٧) علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني، منشورات مكتبة ٣٠ تموز، نينوى ١٩٨٥.

(١٧٨) علي عباس مراد، عامر حسن فياض، الظاهرة القومية: مدخل إلى الفكر القومي العربي، جامعة قار يونس، بنغازي – ليبيا ١٩٩٨.

(١٧٩) علي محمد الصلابي، الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ج ١، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٨.

(١٨٠) عيد مرعي، فيصل عبد الله، تاريخ الوطن العربي القديم، دمشق ٢٠١٤.

(١٨١) فاروق صالح العمر، حول السياسة البريطانية في العراق ١٩١٤ – ١٩٢١، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٧.

(١٨٢) فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية – الإسلامية، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٨.

(١٨٣) فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٧،

(١٨٤) فائق بطي، الصحافة العراقية: ميلادها وتطورها، بغداد ١٩٦١.

(١٨٥) فراتي، على هامش الثورة العراقية الكبرى، مطبعة جريدة الهاتف، بغداد ١٩٥٢.

(١٨٦) فرج بصمه جي، كنوز المتحف العراقي، منشورات مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٧٢.

(١٨٧) فريق مزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٢.

(١٨٨) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، بغداد ١٩٧٩.

(١٨٩) فوزي رشيد، سرجون الأكدي: أول إمبراطور في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد (بدون تاريخ).

(١٩٠) فيليب ويلارد آيرلند، العراق: دراسة في تطوره السياسي، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكشاف، بيروت ١٩٤٩.

(١٩١) قحطان أحمد عبوش التلعفري، ثورة تلعفر ١٩٢٠ والحركات الوطنية الأخرى في منطقة الجزيرة، مطبعة الأزهر، بغداد ١٩٦٩.

(١٩٢) قصي سالم علوان، الشبيبي شاعرًا، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥.

(١٩٣) قوانين حمورابي: صفحة رائعة من حضارة وادي الرافدين، ترجمة: محمود الأمين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧.

(١٩٤) قيس النوري، الحضارة والشخصية، دار الكتب، الموصل ١٩٨١.

(١٩٥) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٥، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢.

(١٩٦) كاظم الدجيلي، أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان، تحقيق ونشر: حكمت رحماني، مطبعة الزمان، بغداد ١٩٧٣.

(١٩٧) كاظم المظفر، ثورة العراق التحررية عام ١٩٢٠، مطبعة الآداب، النجف ١٩٧٢.

(١٩٨) كامل سلمان الجبوري، الكوفة في ثورة العشرين، مطبعة الآداب، النجف ١٩٧٢.

(١٩٩) كامل سلمان الجبوري، وثائق الثورة العراقية الكبرى ومقدماتها ونتائجها (١٩١٤ - ١٩٢٣)، ج ١، دار المؤرخ العربي، بيروت ٢٠٠٩.

(٢٠٠) كطران زغير نعمة، مبادئ القانون الدستوري: نظرية الدولة، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - بغداد (د. ت).

(٢٠١) كمال السيد، نشوء وسقوط الدولة الصفوية، مكتبة فدك، قم ٢٠٠٥.

(٢٠٢) كمال الغالي، مبادئ القانون الدستوري والنظم السياسية، منشورات جامعة دمشق، دمشق ١٩٩٦.

(٢٠٣) كمال مظهر أحمد، دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية. مطبعة الحوادث، بغداد ١٩٧٨.

(٢٠٤) كوينسي رايت، حكومة العراق، ترجمة: أكرم الركابي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٢٧.

(٢٠٥) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة (بدون تاريخ).

(٢٠٦) كيرترود بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت ١٩٧١.

(٢٠٧) ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.

(٢٠٨) ل. ن. كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ترجمة: عبد الواحد كرم)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧١.

(٢٠٩) لسان العرب (ابن منظور)، دار صادر، بيروت (٧ مجلدات) (بدون تاريخ).

(٢١٠) لؤي حمزة عباس (تحرير وتقديم)، المكان العراقي: جدل الكتابة والتجربة، دراسات عراقية، بغداد – أربيل – بيروت ٢٠٠٨.

(٢١١) ليوا وينهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: سعدي فيضي عبد الرزاق، ط ٢، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣.

(٢١٢) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة ١٩٦٠.

(٢١٣) مايكل. ج. موروني، العراق بعد الفتح الإسلامي، ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد، دار الرافدين بغداد – بيروت، ٢٠١٩.

(٢١٤) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج ٣، قدمه وعلق على حواشيه: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١.

(٢١٥) مجموعة مؤلفين، (العراق في التاريخ)، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٣.

(٢١٦) مجموعة مؤلفين، تاريخ العراق القديم والحديث، بغداد ١٩٩٩.

(٢١٧) مجموعة مؤلفين، حضارة العراق، ج ٢، بغداد ١٩٨٥.

(٢١٨) مجموعة مؤلفين، الرثاثة في العراق: أطلال دولة... رماد مجتمع، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد ٢٠١٥.

(٢١٩) مجموعة مؤلفين، الصراع العربي – الفارسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٥.

(٢٢٠) مجموعة مؤلفين، المدينة والحياة المدنية، ج ١، بغداد ١٩٨٨.

(٢٢١) مجموعة مؤلفين، صدمة التاريخ، مركز دراسات المشرق العربي، بيروت ٢٠١٧.

(٢٢٢) مجموعة مؤلفين، لمحات من الفكر السياسي، المركز الإسلامي، إيران ١٩٨٢.

(٢٢٣) محاضرات السيد محمد باقر الصدر، المجتمع الفرعوني، إعداد: محمد علي أمين، مكتبة دار المجتبى، النجف الأشرف ١٩٨٣.

(٢٢٤) محب الدين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مج ١١ / . دار الفكر للطباعة والنشر (بدون تاريخ).

(٢٢٥) محسن أبو طبيخ، المبادئ والرجال، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨.

(٢٢٦) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١١.

(٢٢٧) محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت ١٩٨٣.

(٢٢٨) محمد بن مكرم بن علي وآخرون، لسان العرب، ط ٣، دار صادر، بيروت ١٤١٤ هجري.

(٢٢٩) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٨.

(٢٣٠) محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠.

(٢٣١) محمد حميد الله الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦.

(٢٣٢) محمد سعيد طالب، الدولة الحديثة والبحث عن الهوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٩.

(٢٣٣) محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج ٨.

(٢٣٤) محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف ١٩٧١.

(٢٣٥) محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق، مج ١، دار الراية البيضاء، بيروت ١٩٢٥.

(٢٣٦) محمد عبد القادر محمد، الساميون في العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨.

(٢٣٧) محمد عبد اللطيف، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية ١٩٧٧.

(٢٣٨) محمد عزيز، النظام السياسي في العراق، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٤.

(٢٣٩) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى، مطبعة التضامن، بغداد ١٩٧١.

(٢٤٠) محمد عمارة، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤.

(٢٤١) محمد كامل ليله، النظم السياسية: الدولة والحكومة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩.

(٢٤٢) محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، مطبعة الفلاح، بغداد ١٩٢٤

(٢٤٣) محمد يونس عبد الله السيد وهب، أهمية تلعفر في ثورة العراق الكبرى، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٦٧.

(٢٤٤) محمود العبطة، بغداد وثورة العشرين، مطبعة الشعب، بغداد ١٩٧٧.

(٢٤٥) محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة، ج ١، دار أسامة للنشر، عمان ٢٠٠٢.

(٢٤٦) محمود شلبي، حياة نوح، دار الجيل، بيروت ١٩٨٢.

(٢٤٧) المر هولدن، ثورة العراق ١٩٢٠، ترجمة: فؤاد جميل، مطبعة الزمان، بغداد ١٩٦٥.

(٢٤٨) مريم رزوقي وليد عباس، الثورات العلوية، منشورات العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء ٢٠١٧.

(٢٤٩) مزهر الخفاجي، جذور الثورة والعنف والاستبداد في المجتمع العراقي القديم، منشورات زين الحقوقية، بيروت ٢٩١٩.

(٢٥٠) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية العراقية والشخصية المصرية في التاريخ القديم، منشورات بيت الحكمة، بغداد ٢٠١٤.

(٢٥١) مزهر الخفاجي، من الدولة الدينية إلى الدولة المدنية: دراسة في تطور نظام الحكم في الدولة القديمة، منشورات زين الحقوقية، بيروت ٢٠١٩.

(٢٥٢) منذر الشاوي، الدولة (الديمقراطية في الفلسفة السياسية والقانونية: فكر الديمقراطية)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠٠.

(٢٥٣) منصور عبد الحكيم، الملك النمرود: أول جبابرة الأرض، دار الكتاب العربي، دمشق - القاهرة ٢٠١٦.

(٢٥٤) منعم حميد حسن، محمد مهدي البصير شاعرًا، المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠.

(٢٥٥) ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عامًا ١٨٩٤ - ١٩٧٤، مطبعة الأعظمي، بغداد ١٩٧٤.

(٢٥٦) نجيب صالح، تاريخ العرب السياسي ١٨٥٦ - ١٩٥٦، ط ٢، دار اقرأ، بيروت ١٩٩٢.

(٢٥٧) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ١٩٦٣.

(٢٥٨) نخبة من اللاهوتيين، قاموس الكتاب المقدس، دائرة المعارف الكتابية المسيحية، ط ١٠، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٥.

(٢٥٩) نديم الجابري، الأصولية اليهودية، مؤسسة الفضيلة للدراسات والنشر، بغداد ٢٠٠٦.

(٢٦٠) نديم عيسى، الفكر السياسي لثورة العشرين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٢.

(٢٦١) نصر الدين إبراهيم، استثمار اللغة العربية في تذوق بلاغة القرآن الكريم، المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية، دبي ٢٠١٤.

(٢٦٢) نيجل داود سن، العراق أو الدولة الجديدة، ترجمة: عجاج نويهض، مطبعة العرب، القدس ١٩٣٢.

(٢٦٣) هاري ساكز، عظمة آشور، ترجمة: عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٩٩.

(٢٦٤) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، موصل ١٩٨٢،

(٢٦٥) هاري ساكز، عظمة بابل: موجز حضارة وادي الرافدين القديمة، ترجمة: عامر سليمان، بغداد ١٩٧٩.

(٢٦٦) هالة فتاح، فرانك كاسو، موجز تاريخ العراق ١٩١٤ – ٢٠٠٨، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، دار المرتضى، بغداد (بدون تاريخ).

(٢٦٧) هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ج ١، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الفجر للنشر والتوزيع، بغداد ١٩٨٩.

(٢٦٨) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ١، ط ٢، ترجمة: زكي نجيب، القاهرة ١٩٦٥.

(٢٦٩) ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج ٤، دار صادر، بيروت ١٩٩٣.

(٢٧٠) يعقوب يوسف كوريا، صحافة ثورة العشرين، مطبعة السعدي، بغداد ١٩٧٠.

(٢٧١) يوسف مراد، مبادئ علم النفس العامة، دار الحارث، بغداد ١٩٩٤.

سابعًا: مصادر باللغة الإنجليزية

1) Abdul - Kader. J.Mustafa, The Old Babylonian Tablets From Me - Turan, Glasgow University, 1983.

2) Albright. w. The Chaldean Inscripitions in Proto - Arabic, in Basor, 128, 1952.

3) Budge, By Nile and Tigris, London 1920.

4) C. J. Gaad, The cities of Babyionia, in CAH, Vol. 1, part. 11, cambirdge 1971.

5) C. J. Gadd, The Dynasty of Agada and Gutter invasion, in C A H, 1 Art, 11, p. 420 - 421.

6) City - State Through History, university of Chicago press, Chicago.

7) Dubberstein, Comparative Prices in Later Babylonia, in A J S L, 1930, 20 ff..

8) Elizabeth Burgoyne, Gertrude Bell from her personal papers 1914 - 1926, London 1961.

9) Encyclopedia Britania, vol. 1.

10) F. Barth, Ethnic, Groups an Boundarles, Boston 1970..

11) F.R. Steele, in AJA. Vol. L 11, 1948.

12) Fanar Hadad, Political A Wakenings in Artifcial State: Iraq 1914 - 1920, International Tournal of contemporary Iraqi Studies, Vol. 6, No. 1, 2012

13) Georges Roux, Ancient Iraq, Pengmin Books, 1980.

14) Ghassan R. Atiyyah, Iraq 1908 - 1921: A political study, Beirut 1973.

15) Graysoni. A. K, Assyria, in Cambridge Ancient History, Lomdon 1982.

16) Harry N. Howard, The King - Grane Commission, Beirut 1963.

17) Hubert Young, The Independent Arab, London 1933.

18) Inalcik Hall, The Encyclopadia of Islam, art. Eyalet, New edition, London 1965, Vol. 2.

19) J. T. Finkelstein, The Laws of ur - Nammu, hn JCS, 22, 1968 - 1969.

20) Jacobsen.T, The Sumerian King - List, Chicago 1964.

21) Jon Lewis, introduction to philosophy, watts and co, London 1954.

22)Kaus. F. R. Briefe Ansder, Archive des Samas - Hazir, Vol. 4, London 1968.No. 11.

23) Leo - openhiem, A. L. Babylonian and Assyrian Historical Texts, in 1969.

24) Mohammed A. Tarbush, The role of the Military in politics, London 1983.

25) NOAH' SARK: ITS FINAL BERTH, by Bill. crouse, electronic edition.

26) Olmasted. A. History of Assyrian, New York 1923.

27) Olmstead, History of the Persian Empire, London 1948.

28) S. Moscayi, The Face of the Ancient Orient, London 1960..

29) S. N. Kramer, The sumerniane, Thien History, culture and chancter (chiecago 1963).

30) Stephen Hamsley Longrigg, Iraq 1900 - 1950, Beirut 1968.

31) The Ietters of Gertrude Bell, Vol. 11.

32) Wiseman. D. New Bible Dictionary, London 1962.

ثامنًا: المواقع الإلكترونية

(1) Ar.m.wikipedia.org.

(2) https //mawdoo3.com

(3) https//ar.arabic bible.com

(4) https//arim.wikipedia.org.

(5) https//eferrit.com.

IRAQ

The first State in History

(A study in roots of the modern Iraqi State)

Prof. Dr.

NADEEM ISSA AL-JABRI

Professor of political science
Baghdad University

Baghdad 2021